

الفرق والمذاهب الإسلامية

منذ البدايات

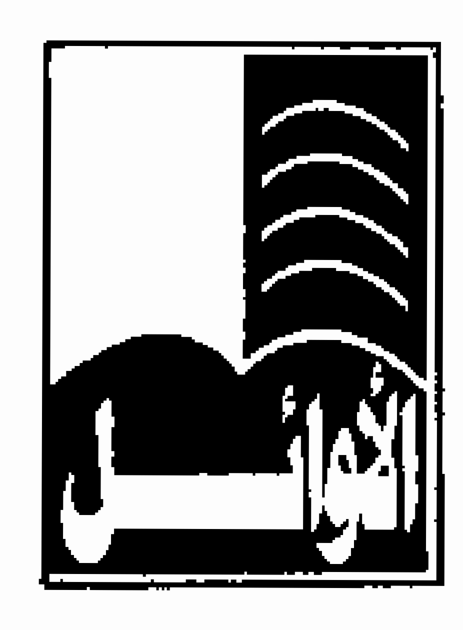
النشأة . التاريخ . العقيدة . التوزع الجغرافي

سعد رستم

قرؤوا فوصلوا
لنقرأ حتَّى نصل

الطَّبعة الأولى نيسان 2004م
الطَّبعة الثَّانية ت الأوَّل 2004م
الطَّبعة الثَّالثة
تشرين الثَّاني 2005م

عدد النُّسخ المطبوعة في كلّ طبعة 1000 نسخة



تصميم الغلاف : هلا خلوصي
الإشراف الفنّي : يزن يعقوب
التَّدقيق والمُراجعة : إسماعيل الكردي

الكتاب : الفِرَق والمذاهب الإسلاميَّة
مُنذُ البدايات
النّشأة ـ التّاريخ ـ العقيدة ـ التّوزّع الجغرافي
تأليف : سعد رُستُم

النَّاشر : الأوائل للنَّشر والتَّوزيع
سُوريَّة . دمشق الإدارة : ص . ب 3397
هـاتـف : 00963 11 2233013
فـاكس : 00963 11 2460063
البريد الإلكتروني : alawael@scs-net.org

التَّوزيع : دمشق ص . ب 10181
البريد الإلكتروني: alawael@daralawael.com
جـوَّال : 00963 93 411550
00963 93 418181

موقع الدَّار على الإنترنت :
www.daralawael.com

سعد رُستُم
ماجستير فلسفة في الدراسات الإسلاميّة
ماجستير في التّفسير والحديث

الفِرَقُ والمذاهبُ الإسلاميَّة
مُنذُ البدايات
النَّشأة - التَّاريخ - العَقيدة - التَّوزُّع الجَغرافي

الأوائل

تنويهٌ هامٌّ

من أجل تواصُل أكثر مع السَّادة القُرَّاء ، فقد خَصَّصْنَا آخر (24) صفحة من هذا الكتاب لمنشورات الدَّار ؛ حيثُ يجد السَّادة القُرَّاء قائمة بمنشورات الدَّار ، ولمحة إلى كُلِّ كتاب أصدرتْهُ الدَّار .

هذه القائمة تُعطي انطباعاً عاماً عمَّا تنشُرُهُ الدَّار من آراء ، كما تُعطي لمحةً عامَّةً إلى الخطِّ الذي تنتهجُه الدَّار ، وهذا ـ بلا شَكٍّ ـ سيجعل التَّواصُل أسرع وأقرب وأصدق.

فنرجُو من السَّادة القُرَّاء قراءة هذه الصَّفحات بتأنٍّ وتدبُّر ، ونرجُو مُراسلتنا بمُلاحظاتكُم واستفساراتكُم عن الكُتُب التي تنشُرُها دارُ الأوائل .

جدول المُحتويات

إهداءٌ

إلى والِدَيَّ العزيزَيْن

اللَّذَيْن عَلَّماني التَّسامُحَ وسَعَةَ الصَّدْرِ

وحُبَّ النّاس أجمعين

مُقَدِّمَة

بسم الله الرّحمن الرّحيم، نحمده، ونُصلّي، ونُسلّم على خاتم أنبيائه سيِّدنا مُحمَّد وعلى آله الطَّيِّبين الطّاهرين وصحبه الأبرار الميامين ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، وبعد؛

هذا الكتاب عرضٌ تاريخيٌّ تحليليٌّ لقصَّة نُشُوء الفرَق والمذاهب الإسلاميَّة وأسباب انقسامها مع شرح أهمِّ العقائد التي ميَّزت كُلَّ فرقةٍ وبيان التَّوزُّع الجغرافي لأتباعها، بعيداً عن المدح أو الذَّمِّ أو عَقْد المُفاضلات والتَّرجيحات لمذهبٍ على آخر، أو لعقيدةٍ على أُخرى، وبعيداً عن السِّجالات والدِّفاعات الكلاميَّة المعهودة بين الفرَق. والكتاب لا يقتصر على مُجرَّد توضيح العقائد والأُصُول الرّئيسة المُميِّزة لكُلِّ فرقة، بل يُضيف إلى ذلك التَّحليل التّاريخي والاجتماعي، الذي يُوضح للمُثقَّف العَرَبي - غير المُتخصِّص - القصَّة الكاملة لنشأة الفرَق والمذاهب الإسلاميَّة، والأسباب الحقيقيَّة الكامنة وراء انفصالها، وأسرار انقساماتها، سواء تلك التي نشأت في صدر الإسلام، أو التي نشأت في مراحل مُتأخِّرة، ولا تزال حيَّة باقية إلى اليوم، مع التَّعرُّف - بدقَّة وموضوعيَّة - على أهدافها ومراميها، والوُقُوف على عقائدها الحقيقيَّة التي تميَّزت بها، برُوح موضوعيَّة علميَّة ومُتجرِّدة.

هذا؛ ولقد ألَّف عددٌ من عُلماء الإسلام القُدامى كُتُباً مُفصَّلة عن الفرَق والمذاهب والمِلَل والنِّحَل الإسلاميَّة وغير الإسلاميَّة، لكنْ؛ لم يخلُ كثيرٌ منها من بُعْدٍ عن الموضوعيَّة، بل فُقدان لها أحياناً، الأمْر الذي انعكس في عدم الدِّقَّة والأمانة في عرض آراء وأقوال المذاهب المُخالفة، وإلزامهم - أحياناً - بما لا يقولون، أو نسبة أباطيل إليهم، بالإضافة إلى التَّحيُّز والتَّعصُّب لمذهب صاحب التّأليف، ورَمْي مُخالفيه بالضّلال، بل الكُفْر! ويكفي مُطالعة عناوين بعض تلك الكُتُب لمعرفة منهجها في الدّراسة، فكما يُقال "المكتوب يُعرَف من عُنوانه"، فمنها مثلاً: "التّنبيه والرَّدُّ على أهل الأهواء والبدَع"، أو "التّبصير في الدِّين وتميز الفرقة النّاجية

عن الفِرَق الهالكين"، أو كتاب "الفَصْل في المِلَل والأهواء والنِّحَل"، أو "اللُّمَع في الرَّدّ على أهل الزَّيغ والبِدَع"، أو "التَّمهيد في الرَّدّ على المُلحدة المُعطِّلة والرَّافضة والخَوارج والمُعتزلة"، أو "الرَّدّ على الزَّنادقة والجَهْمِيَّة"، أو "فضائح الباطنيَّة وفضائل المُستظهريَّة"... إلخ.

أمَّا هذا الكتاب الذي بين يدَيْكَ أيُّها القارئ الكريم؛ فينطلق من مبدأ أنَّ جُلَّ المذاهب والفرَق الإسلاميَّة لا تعدو وُجهات نَظَر مُختلفة في فَهْم الإسلام، وكُلُّها نابعة - في الأصل - من الإسلام الحنيف، تتحرَّك فيه، وتتمسَّك بأُصُوله، حسب فَهْمها، وترجع إليه، طبق اجتهادها واستنباطها، وأكثر انقساماتها لم يكن - في الواقع - إلاَّ نتيجة لاختلافات أو صراعات سياسيَّة، أو اختلافات طبيعيَّة في التَّفسير والتَّأويل والاجتهادات، فالكُلُّ مُسلمون ينتمون لأُمَّة واحدة هي أُمَّة مُحمَّد بن عبد الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، ويعبدون إلهاً واحداً هُو الله الواحد الأحد الفَرْد الصَّمَد، الذي لم يَلِدْ، ولم يُولَدْ، ولم يكُنْ لَهُ كُفُوَاً أحد، ويُؤمنون بكتاب واحد هُو القُرآن الكريم، ويستقبلون قبلة واحدة هي بيت الله الحرام.

من هُنا؛ فقد سَلَكْتُ في بيان الفِرَق والمذاهب طريقاً مُختلفاً تماماً عمَّا سَلَكَهُ السَّابقون؛ إذْ لم أرجع في حديثي عن كُلّ فرقةٍ إلاَّ إلى كُتُب عُلماء الفرقة نَفْسها، لأنقل بأمانة وموضوعيَّة ما يذكرونه هُم أنفسهم عن نشأتهم وآرائهم وعقائدهم[1]، دُون أنْ يعني ذلك - بالطَّبع - أنَّني أتَّفق معهم في كُلّ ما يقولونه، إنَّما قصدي أمانة النَّقْل، وإعطاء القارئ فُرصة سماع وُجهات النَّظَر المُختلفة، والتَّعرُّف على آراء المذاهب من لسان أصحابها أنفسهم، دُون تحريف أو تشويه، ودُون إصدار أحكام، بل أترك ذلك للقارئ الحصيف.

ومع ذلك؛ أُقرُّ بأنَّ مُراعاة الموضوعيَّة التَّامَّة والمُطلقة أمر في غاية العُسر؛ إذْ لابُدَّ أنْ يبقى كُلٌّ منَّا مُتأثِّراً بعض الشَّيء بما نشأ عليه، أو بما يميل إليه قلبه، مهما حاول أنْ يكون موضوعيَّاً، لكنَّني بذلتُ قُصارى جهدي في أنْ أكون حياديّاً في النَّقْل وفي دقَّة عرض المعلومات، وأسأل الله - سُبحانه - أنْ يعفو عمَّا يُمكن أنْ يكون قد بَدَرَ منِّي خلال ذلك من قُصُور أو تقصير، إنَّه خير مأمولٍ وأكرم مسؤول، والله من وراء القَصْد، وهُو ولي التَّوفيق.

---

(1) وقد أرجع - أحياناً - إلى كُتُب ليست لعُلماء الفرقة قَيْد البحث، نَظَراً لندرة أو عدم توفُّر كُتُب عُلماء الفرقة نفسها، لكنَّني لا أنقل من تلك الكُتُب إلاَّ المعلومات الحياديَّة العامَّة؛ كأسماء الأشخاص والتَّواريخ ونحو ذلك، وأتجاوز ما فيها من كيل الاتِّهامات، أو إصدار الأحكام، أو أيّ ألفاظ ذات طابع هُجُومي..

الباب الأوّل:

نشأة الفرَق الرّئيسيَّة
الجذُور والأسباب

الفَصْل الأوَّل:

أوَّل اختلاف بين المُسلمين
أسبابه، مضمونه وخَلْفيَّاته

كان أوَّل اختلاف وَقَعَ بين المُسلمين بعد وفاة رسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) اختلافاً اجتماعيّاً ـ سياسيّاً محضاً، وليس اختلافاً على عقائد الدِّين، أو إيمانيَّاته النَّظَريَّة، وكان ذلك الاختلاف هُو اختلافهم حول القيادة؛ أيْ حول مَنْ يجب أنْ يتولَّى رئاسة الدَّولة بعد النَّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم).

وقد انقسمت مواقف صحابة النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) في هذا الأمْر إلى ثلاث مواقف أو اتِّجاهات:

الموقف الأوَّل: موقف الأنصار الذين اجتمعوا عقب رحلة النّبي الكريم (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) في سقيفة بني ساعدة، وأرادوا أنْ يُنصِّبوا زعيمهم سعد بن عبادة ﷺ (زعيم قبيلة الخزرج) لرئاسة دولة المُسلمين.

والموقف الثّاني: هُو موقف المُهاجرين الذين هُرع فريق منهم إلى السّقيفة، وعلى رأسهم أبو بكر وعُمر وأبو عبيدة بن الجرَّاح (رضي الله عنهم) ليُذكِّروا الأنصار أنَّ المُهاجرين أوَّل مَنْ آمن بالله ـ تعالى ـ ورسوله، وعلى أكتافهم انطلقت دعوة الإسلام، وأنَّهم أولياء النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وعشيرته، وبالتّالي؛ فهُم أحقُّ النّاس بميراثه وسُلطانه، وتولِّي الأمْر من بعده، لا يُنازعهم في ذلك إلاَّ ظالم، وأنَّ العَرَب لن تخضع إلاَّ لقُرَيْش التي كانت النُّبوَّة فيها وأنَّ قُرَيْش أوسط العَرَب أنساباً، ليست قبيلة من قبائل العَرَب إلاَّ ولقُرَيْش فيها ولادة، فالأئمَّة من قُرَيْش؛ لأنَّهم عشيرة النّبي وقومه...

وقد دار نقاش طويل بين الفريقَيْن، اقتنع - في نهايته - أغلب الأنصار بحقِّ المُهاجرين في الأمْر، وبايعوا أبا بكر ﷺ - الذي رشَّحه عُمر ﷺ لهذا المنصب -، في حين رفض زعيم الأنصار "سعد بن عبادة" ﷺ البَيْعَة، وخَرَجَ إلى الشّام، فمات بها، ولم يُبايع لأحد[1].

أمَّا الموقف الثَّالث: فقد تمثَّل بعليّ ابن أبي طالب (كرَّم الله وجهه ورضي عنه) ونَفَر من بني هاشم أُسرة النَّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وآل بيته الكرام: كزوجته فاطمة، وعمِّه العبَّاس، وابن عمَّته الزُّبير وآخرين. . . الذين لم يحضروا النّقاشات التي دارت في سقيفة بني ساعدة؛ لأنَّهم كانوا مشغولين بغَسْل وتكفين ودَفْن النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، ليُفاجَؤوا - بعد انتهائهم من ذلك - بأنَّ الأمْر قد انتهى دُون مشورتهم، وأنَّ البَيْعَة تمَّت لأبي بكر ﷺ، فاعترضوا على ذلك، طبقاً لما تُورده المصادر، انطلاقاً من نفس مبدأ القرابة والعشيرة الذي احتجَّ به المُهاجرون على الأنصار - قائلين ما مفاده: إنَّه إذا كان المُهاجرون أحقَّ بالأمْر، لأنَّهم عشيرة الرّسول وقومه؛ فإنَّ بني هاشم أحقُّ النّاس بسُلطان مُحمَّد وميراثه؛ لأنَّهم عصبة النّبي وأُسرته، وأقرب النّاس إليه، وإذا كان المُهاجرون أحقَّ بالأمْر لسابقتهم في الإسلام وحَمْلهم دعوته مُنذُ فَجْرها؛ فإنَّ علياً بن أبي طالب أولى النّاس بالأمْر؛ لأنَّه أوَّل النّاس إسلاماً، وأرسخهم قَدَماً في الدِّين، وبلاؤه ونُصرته في الإسلام لا يُباريه فيها أحد، هذا؛ فضلاً عن اتِّصافه بصفات فاق بها كُلَّ مَنْ عداه؛ كعلمه الرّاسخ، وكونه أقضى الصّحابة وأعلمهم بالفتيا والتّفسير، وحفْظه وكتابته وجَمْعه للقُرآن الكريم كُلِّه، بالإضافة لشجاعته المُنقطعة النّظير، وقُوَّته، وجهاده، وحلمه، وإخلاصه، وبلاغته ... إلخ، هذا؛ مع كونه سيِّد أهل بيت النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وعترته، وألصق النّاس برسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وأقربهم منزلة منه، وأخصَّهم زُلفة لديه، وأحبَّهم إلى قلبه، فهُو ابن عمِّه الذي تربَّى في حجره مُنذُ صغره، ثُمَّ صاهره في أعزِّ بناته إليه فاطمة الزّهراء، ثُمَّ كان أوَّل مَنْ أسلم، وصلَّى معه، ثُمَّ خلَّفه رسولُ الله في فراشه عند الهجرة، وأمره أنْ يُؤدِّي الأمانات التي بقيت عنده للنّاس، ثُمَّ يلحق به إلى المدينة، وفي المدينة لمَّا عقد النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) مُؤاخاةً بين كُلِّ المُهاجرين والأنصار، لم يُؤاخِ بين عليّ وأحد من الأنصار، فَجَاءَ عَلِيٌّ تَدْمَعُ عَيْنَاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ آخَيْتَ بَيْنَ

---

(1) انظر تفصيل ذلك في الإمامة والسِّياسة: ج 1/ ص 14، وما بعدها.

أَصْحَابِكَ، وَلَمْ تُؤَاخِ بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَدٍ! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): [أَنْتَ أَخِي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.][1]، وقد أسكنه النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) إلى جواره في غُرفة بابها مفتوح مُباشرة إلى المسجد، كغُرفته، وأَمَرَ في آخر حياته بسدِّ كُلِّ الأبواب الشّارعة إلى المسجد إلاَّ باب عليّ[2]، وكان عليٌّ يُكلِّم رسول الله ويسأله حين لا يجرؤ أحد أنْ يُكلِّمه أو يسأله، ويدخل على النّبي في اللّيل والنّهار، ولا يجرؤ على ذلك أحد غيره، كما حكى ذلك بنفسه فيما رواه عنه ابنُ نُجَيٍّ قَالَ قَالَ عَلِيٌّ: كَانَ لِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) مَدْخَلانِ؛ مَدْخَلٌ بِاللَّيْلِ وَمَدْخَلٌ بِالنَّهَارِ، فَكُنْتُ إِذَا دَخَلْتُ بِاللَّيْلِ تَنَحْنَحَ لِي[3]، وكان يكتب القُرآن للنّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ويحفظه منه، ولمّا خَرَجَ النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في آخر غزوة في حياته في رجب سنة تسع للهجرة إلى غزوة تبوك ـ التي كان يتوقّع أنْ يلقى فيها جحافل الرُّوم ونصارى العَرَب في أخطر الغزوات وأصعبها، التي تخلّف عنها كثير من المُنافقين، وتخلّف ثلاثة من المُؤمنين في القصّة المعروفة، ونزل ـ في ذلك كُلِّه ـ قسم كبير من آيات سُورة التّوبة (وهي سُورة براءة) ـ استَخْلَفَ عَليّاً وراءه على المدينة، فَقَالَ عليٌّ وهُو حزين: أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟ قَالَ: أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ

---

(1) سُنن التّرمذي: 50 ـ كتاب المناقب/ 21 ـ باب مناقب عليّ بن أبي طالب، ح636، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَفِي الْبَاب عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أَوْفَى. وأخرجه الحاكم في المُستدرك على الصّحيحَيْن: ج3/ ص14، كما رواه ابن الأثير في أُسْد الغابة (4/ 29) وابن عساكر في ترجمة الإمام عليّ من تاريخ دمشق: ج1 / ص 103، ح 143، 145 و246 ط. بيرُوت، وآخرون كثيرون.

(2) أخرجه التّرمذي في سُنَنه: 50 ـ كتاب المناقب/ 21 ـ باب مناقب عليّ بن أبي طالب، ح 3732، ورواه عدد من الصّحابة الآخرين منهم زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ قَالَ: كَانَ لِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى الله علبه وآله وسلّم) أَبْوَابٌ شَارِعَةٌ فِي الْمَسْجِدِ، قَالَ: فَقَالَ يَوْماً: سُدُّوا هَذِهِ الأَبْوَابَ إِلاَّ بَابَ عَلِيٍّ. قَالَ: فَتَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ النَّاس، قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أُمِرْتُ بِسَدِّ هَذِهِ الأَبْوَابِ إِلاَّ بَابَ عَلِيٍّ، وَقَالَ فِيهِ قَائِلُكُمْ، وَإِنِّي ـ وَاللَّهِ ـ مَا سَدَدْتُ شَيْئاً، وَلا فَتَحْتُهُ، وَلَكِنِّي أُمِرْتُ بِشَيْءٍ، فَاتَّبَعْتُهُ. أخرجه الإمام أحمد في مُسنده: 4/ 369.

(3) أخرجه النّسائي في سُننه: 13 ـ كتاب السّهو/ 17 ـ باب التّنحنح في الصّلاة، ج3/ ص12. وفي رواية ثانية عن عَبْد اللَّهِ بْنُ نُجَيٍّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: كَانَتْ لِي مَنْزِلَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) لَمْ تَكُنْ لأَحَدٍ مِنَ الْخَلائِقِ، فَكُنْتُ آتِيهِ كُلَّ سَحَرٍ، فَأَقُولُ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَإِنْ تَنَحْنَحَ انْصَرَفْتُ إِلَى أَهْلِي، وَإِلاَّ دَخَلْتُ عَلَيْهِ. أخرجه النّسائي في سُننه: 13 ـ كتاب السّهو/ 17 ـ باب التّنحنح في الصّلاة، ج3/ ص12. وأخرجه الإمام أحمد في مُسنده: 1/ 85، وبرَقْم 647 (ط. شاكر) وقال: إسناده صحيح.

مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إلاَّ أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي [1]، ولا شكَّ أنَّ لهذه الكلمات دلالات عظيمة جداً. ثُمَّ لَمَّا نزلت سورة براءة وفيها إعلان قضايا مصيريَّة في دعوة الإسلام، وعلى رأسها إعلان براءة الله ورسوله من المُشركين، وتحريم حجِّ البيت عليهم، وتحديد أجَل أربعة أشهر لانتهاء عُهُودهم إلاَّ الذين بقوا أوفياء بعُهُودهم، فعلى المُسلمين أنْ يُتمّوا إليهم عهدهم إلى مُدَّتهم... أرسل النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عليّاً في حجِّ سنة تسع للهجرة، ليبلغ عنه العَرَب تلك القضايا، على الرّغم أنَّ أمير الحجِّ على المُسلمين كان أبا بكر، ممَّا أحزن أبا بكر، وسأل: هل نزل فيه شيء؟ فقال له النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلَّم): [لا، وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ جَاءَنِي، فَقَالَ: لَنْ يُؤَدِّيَ عَنْكَ إلاَّ أَنْتَ، أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ] [2]، وأخيراً؛ - وهُو أهمُّ ما في الباب - واقعة الغدير التي توقَّف فيها النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلَّم) في الثّامن عشر من ذي الحجَّة سنة 10 هـ، في جوارِ غديرِ ماء يُقال له غدير خُم، وهُو عائد من مكَّة إلى المدينة بعد أدائه حجَّةَ الوداع، توقَّف؛ ليُصلي الظُّهر، ثُمَّ العصر، فوقف بين الصّلاتَيْن، وألقى كلمة وداعيَّة مُؤثِّرة، أعلن فيها إحساسه بقُرب رحيله، وأوصى فيها بالثّقلَيْن: كتاب الله، وعتْرته أهل بيته، وشدَّد على وصيَّة المُسلمين بعتْرته أهل بيته [3]، ثُمَّ أخذ بيد عليّ، فقال: [مَنْ كُنتُ مولاه، فهذا عليّ مولاه] [4].

---

(1) مُتَّفق عليه: صحيح البُخاري: 64- كتاب المغازي/ 78- باب غزوة تبوك، ح4416، وصحيح مُسلم: 44- كتاب فضائل الصّحابة/ 4- باب من فضائل عليّ بن أبي طالب، ح 30، 31، 32. وأخرجه التّرمذي في سُننه: 50- كتاب المناقب/ 21- باب مناقب عليّ بن أبي طالب، ح3730 و3731 (5/ 640- 641) وقال: وفي الباب عن سعد وزيد بن أرقم وأبي هُريرة وأم سلمة، وقال: هذا حديث حَسَن صحيح، وأخرجه - أيضاً - ابن ماجة في سُننه: المُقدّمة/ باب من فضائل أصحاب رسول الله، ح 115، وأخرجه أحمد في مواضع عدَّة من مُسنده: 1/ 182 و184 و185، وعن عدَّة من الصّحابة الآخرين، سيلي ذكْر بعض رواياتهم.

(2) مُسند أحمد: ج 1/ ص 151، وبرقْم 1296 (ط. شاكر)، وبنحوه في المُسند أيضاً: ج3/ ص212، 283.

(3) صحيح مُسلم: 44- كتاب فضائل الصّحابة/ 4- باب من فضائل عليّ بن أبي طالب، ح37، ومُسند الدّارمي: 23- كتاب فضائل القُرآن/ باب 1، ومُسند أحمد: ج4/ ص 367.

(4) أخرجه التّرمذي في سُننه: 50- كتاب المناقب/ 20- باب مناقب عليّ رضي الله عنه، ح 3713 (5/ 633) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ رَوَى شُعْبَةُ هَذَا الحَدِيثَ عَنْ مَيْمُونٍ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، عَنْ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم نَحْوَهُ، وَأَبُو سَرِيحَةَ هُوَ حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ الْغِفَارِيُّ صَاحِبُ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم. كما أخرجه الإمام أحمد بن حنْبَل في مُسنده بعدَّة أسانيد، كما في 1/ 118 برقْم 950 (ط. شاكر)، وقال عنه المُحدِّث أحمد شاكر: إسناده صحيح. وأخرجه كثير من أئمَّة الحديث، كالنّسائي والدّارمي والحاكم النّيسابوري بأسانيد مُختلفة وعديدة، حتّى عدَّه عدد من المُحدِّثين من الأحاديث المُتواترة.

هذه الخصائص الاستثنائيَّة والميزات العالية والقُرب الذي لا يُدانى من النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) جعلت عدداً من الصّحابة يرى في عليّ بن أبي طالب القائد الشّرْعي الطّبيعي بعد رحيل رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وأولى النّاس وأحقّهم بخلافته بلا مُنازع، وكان هذا هُو موقف عليّ نفسه أيضاً، وموقف زوجته فاطمة بنت رسول الله وسائر بني هاشم أُسرة النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

وقد عبَّر "عليّ بن أبي طالب" نفسه عن هذا الموقف - لمّا سمع احتجاج المُهاجرين على الأنصار بكونهم (المُهاجرين) عشيرة الرّسول وقومه وأنَّ: "الأئمَّة من قُرَيْش" - فقال: [احتجّوا بالشّجرة، وأضاعوا الثّمرة!][1]. كما عبَّر عنه في موقف آخر مُعلّقاً على احتجاج أبي بكر ﷺ على الأنصار بأنَّ المُهاجرين أرومة الرّسول وأقرباؤه، فقال له:

فإنْ كُنتَ بالشُّورى مَلَكْتَ أُمُورهم ... فكيف بهذا والمُشيرون غُيَّبُ؟
وإنْ كُنتَ بالقُربى حججتَ خصيمهم ... فغيركَ أولى بالنّبي وأقربُ![2]

وينقل لنا المؤرّخ المسعودي في كتابه: "إثبات الوصيّة"، بنحو أوضح، موقف هذا الفريق الثّالث فيقول: «واتّصل الخبر بأمير المُؤمنين (أيّ عليّ بن أبي طالب) بعد فراغه من غسل رسول الله وتحنيطه وتكفينه وتجهيزه ودَفْنه بعد الصّلوة عليه مع مَنْ حضر من بني هاشم وقوم من صحابته؛ مثل سلمان وأبي ذرّ والمقداد وعمّار وحُذيفة وأُبي بن كعب وجماعة نحو أربعين رجلاً، فقام خطيباً: فَحمدَ الله، وأثنى عليه، ثُمَّ قال: إنْ كانت الإمامة في قُرَيْش فأنا أحقّ قُرَيْش بها، وإنْ لا تكن في قُرَيْش فالأنصار على دعواهم! ثُمَّ اعتزل النّاس، ودخل بيته.».

ولكنَّ هذا الخلاف - رغم أهمّيّته - لم يستمرّ - في حينه - طويلاً، بل سُرعان ما تمَّ تجاوزه بانقياد الأنصار لمُبايعة أبي بكر، ما عدا زعيمهم سعد بن عبادة الذي بقي على رفضه البَيْعَة، وبيعة عليّ ﷺ لأبي بكر ﷺ بعد ستَّة أشهر من امتناعه، وذلك بعد أنْ تُوفِّيت زوجته فاطمة الزّهراء عليها السّلام حفاظاً منه على وَحْدَة الصّفّ، واجتماع الكلمة، لاسيما أنّه رأى الأخطار

---

(1) نهج البلاغة: خُطبة 67، ص 98.

(2) نهج البلاغة: باب الحِكَم: حكمة رَقْم190، ص 503.

تحدق بالدّعوة الإسلاميَّة بسبب حركة المُرتدِّين، وتربُّص أعداء الإسلام بالدّعوة الفتيَّة. وقد بيَّن الإمام عليّ بنفسه هذا الأمْر في رسالة تاريخيَّة باقية كَتَبَها عليّ أثناء خلافته، لشيعته، ورواها المؤرِّخ الشِّيعي القديم أبو إسحق إبراهيم بن مُحمَّد الثّقفي الكُوفي[1]، في كتابه الغارات[2]، ورواها أيضاً ـ من أهل السُّنَّة ـ ابن قُتَيْبَة في كتابه "الإمامة والسِّياسة"[3] وجاء فيها:

«من كتاب له عليه السلام أمر جماعة من أصحابه أنْ يقرؤوه على شيعته، بيَّن لهم ما يقوله فيما سألوه عنه:

أمَّا بعد؛ فإنَّ الله بعث مُحمَّداً (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) نذيراً للعالمين، وأميناً على التّنزيل، وشهيداً على هذه الأُمَّة، وأنتم ـ معشر العَرَب ـ يومئذٍ على غير دين، وفي شرِّ دار تسفكون دماءكم، وتقتلون أولادكم، وتقطعون أرحامكم، وتأكلون أموالكم بينكم بالباطل، فَمَنَّ الله عليكم، فَبَعَثَ مُحمَّداً إليكم بلسانكم، فعلَّمكم الكتاب والحكْمَة والفرائض والسُّنَّة، وأمركم بصلة أرحامكم، وحقن الدّماء، وإصلاح ذات البَيْن، وأنْ تُؤدّوا الأمانات، وتُوفُوا بالعهد، ونهاكم عن الظُّلم والبغي وشُرب الحرام وبخس المكيال والميزان، وكُلُّ خير يُبعدكم عن النّار قد حضَّكم عليه، وكُلُّ شرٍّ يُبعدكم عن الجنَّة قد نهاكم عنه، فلمَّا استكمل (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) مُدَّته من الدُّنيا، توفَّاه الله، مشكوراً سعيه، مرضيّاً عمله، مغفوراً ذنبه، شريفاً عند الله نزله، فلمَّا مضى تنازع المُسلمون الأمْر بعده، فو الله ما كان يُلقى في روعي، ولا يخطر على بالي أنَّ العَرَب تعدل هذا الأمْر عنِّي، فما راعني إلاَّ إقبال النّاس على أبي بكر، وإجفالهم إليه، فأمسكتُ يدي، ورأيتُ أنِّي أحقُّ بمقام مُحمَّد

(1) أبو إسحق إبراهيم بن مُحمَّد بن سعيد بن هلال المعروف بابن هلال الثّقفي الكُوفي من عُلماء القرن الهجري الثّالث، كان في أوّل أمره زيديّاً، ثُمّ انتقل إلى القول بالإمامة، نشأ بالكُوفة، ثُمّ انتقل إلى أصفهان، وتُوفِّي فيها سنة 283هـ، من أشهر كُتُبه الغارات أو الاستنفار والغارات.

(2) الغارات أو الاستنفار والغارات: الجُزء الأوّل/ ص 202 وما بعدها (ط. طهران) أو (ط. بيروت، دار الأضواء، 1407هـ/ 1987).

(3) أبو مُحمَّد عبد الله بن مُسلم بن قُتَيْبَة الدّينوري، من رجال القرن الهجري الثّالث ومن عُلماء أهل السُّنَّة المشهورين، وصاحب مُؤلَّفات مثل: "تأويل مُختلف الحديث"، و"غريب القرآن"، و"غريب الحديث" وغيرها، تُوفِّي سنة 276 هـ.

في النّاس ، فلبثتُ بذلك ما شاء الله ، حتّى رأيتُ راجعة من النّاس رجعت عن الإسلام ، يدعون إلى محق دين مُحمَّد وملَّة إبراهيم ، فخشيتُ إنْ لم أنصر الإسلام وأهله أنْ أرى في الإسلام ثلماً وهدماً ، يكون مُصيبته أعظم عليَّ من فوات ولاية أُمُوركم التي إنَّما هي متاع أيّام قلائل ، ثُمَّ يزول ما كان منها كما يزول السّراب ، فبايعتُ أبا بكر عند ذلك[1] ونهضتُ في تلك الأحداث ، حتّى زاغ الباطل ، وزهق ، وكانت كلمة الله هي العُليا ولو رغم الكافرون ، فصحبتُهُ مُناصحاً ، وأطعتُهُ فيما أطاع الله فيه جاهداً[2] فلمَّا احتضر بعث إلى عُمر ، فولاَّه ، فسمعنا ، وأطعنا ، وبايعنا ، وناصحنا . . . إلى آخر الكتاب . »[3] .

وهكذا تمَّ تجاوز هذا الخلاف السِّياسي ، وبقي المُسلمون مُجتمعاً واحداً مُتماسكاً رغم اختلافهم في الرّأي السِّياسي ، ولم يُؤدِّ ذلك الخلاف ـ في حينه ـ لا لانشقاق ، ولا لنزاع ، ولا لتفرُّق ، ولا لظُهُور فرَق أو مذاهب خاصَّة لها مساجدها الخاصَّة أو كُتُبها الدِّينيَّة الخاصَّة ، بل بقي المُسلمون فرقة واحدة وأُمَّة واحدة . لكنَّه ، رغم تجاوز هذا الخلاف عمليّاً إلاَّ أنَّه ـ حسبما تنقله عدد من المصادر التّاريخيَّة ـ بقي في الصُّدُور والأذهان ؛ حيثُ تنقل المصادر التّاريخيَّة ما يُفيد أنَّ عليّاً ونفراً من أصحابه بقوا على عقيدتهم في أنَّ عليّاً كان الأَولى والأحقَّ بمنصب خلافة مُحمَّد ﷺ رغم بيعته لأبي بكر ، ثُمَّ عُمر ، ثُمَّ عُثمان ، كما بقيت في صدر عليٍّ وآل النّبي من بني هاشم حرقة وامتعاض ممَّا اعتبروه استيلاء من الآخرين على ما كانوا يشعرون أنَّه حقُّهم المُسلَّم ، وإزاحةً لهم عمَّا كانوا يروه ميراثهم الشَّرْعي ، في وراثة قريبهم المُصطفى ﷺ طبقاً للسُّنَّة المُتأصِّلة في حياة القبائل والعشائر العَرَبيَّة من خلافة أحد أبرز أبناء أو أقرباء الزّعيم له ، وكان هذا القريب البارز يتمثَّل ـ هُنا ـ في عليِّ بن أبي طالب بلا شكٍّ ؛ حيثُ هُو أقرب النّاس قرابة للنّبي ، كما تمَّ شرحه ، يُضاف ـ إلى ذلك ـ تمتُّعه بتلك الخصائص والمرتبة والسّابقة والأثر في الإسلام وفي نَظَر النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) التي لا يُدانيها أحد ،

---

(1) وفي رواية الثّقفي في " الغارات " : فمشيتُ عند ذلك إلى أبي بكر ، فبايعتُهُ . (الغارات : ج1/ ص 201 ـ 202) .

(2) وفي رواية الثّقفي في " الغارات " : فتولَّى أبو بكر تلك الأُمُور ، فيَسَّرَ ، وسدَّد ، وقارب ، واقتصد ، فصحبتُهُ مُناصحاً ، وأطعتُهُ فيما أطاع الله فيه جاهداً . . . (الغارات : 1/ 202)

(3) مُستدرك نهج البلاغة للشّيخ هادي كاشف الغطاء : ص 119ـ120 ، (طبع لُبنان) ، وقارن بالرّسالة رَقَم 62 من نهج البلاغة .

كما تمَّ بيان بعضه. وكمثال على رُسُوخ هذا الاعتقاد القلبي في صدر علي ما رواه الشّريف الرّضي في نهج البلاغة من قول عليّ عليه السلام في خُطبة له عليه السلام لمّا عزموا على بيعة عُثمان: [لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي؛ ووَاللّهِ، لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، ولَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لأَجْرِ ذَلِكَ وفَضْلِهِ، وزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وزِبْرِجِهِ.][1].

وإنّما ذكرتُ ذلك كُلّه، ليُصبح القارئ في الصُّورة الكاملة للأرضيَّة، والبذرة التي أنتجت فيما بعد ذلك الانقسام الكبير إلى فريقَيْ الإسلام الرّئيسيَّيْن ورافدَيْ نهره الكبيرَيْن؛ الشّيعة والسنَّة، اللَّذَيْن تَفَرَّعَتْ منهما ـ فيما بعد ـ كُلُّ الرّوافد الأُخرى التي تُمثِّل المذاهب والفرَق الإسلاميَّة الحيَّة الباقية إلى يومنا هذا.

وممَّا يُؤكّد أنَّ هذا الخلاف بدأ في أوَّل أمره ـ كما أسلفنا ـ سياسيّاً اجتماعيّاً محضاً، ولم يكن دينيّاً بالمعنى الدّقيق للكلمة، أنَّ أحداً من الفُرقاء لم يدع ـ في بادئ الأمْر ـ أنَّ موقفه بشأن الخلافة هذا هُو الدِّين الصّحيح، وأمر الله ـ تعالى ـ القاطع الذي تفرضه النُّصُوص القُرآنيَّة الصّريحة أو الأوامر النّبويَّة القاطعة، وما عداه هُو الكُفْر والانحراف عن تعاليم الإسلام، بل كانت مواقفهم المُتباينة في شأن الخلافة مُستندة إلى الرّأي والنَّظر؛ حيثُ استندوا في رأيهم حول مَنْ هُو الأولى بالخلافة وولاية أمر المُسلمين، ـ كما تدلُّ استدلالاتهم واحتجاجاتهم، التي ذكرنا أعلاه نماذج منها ـ إلى أنّه الشّخص الذي تتوفَّر فيه أكثر من غيره الصّفات التّالية:

أوّلاً: قُربه من النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أو من قبيلته قُرَيْش.

وثانياً: سابقته في الإسلام وبلاؤه فيه.

الثّالث: إمكانيَّة خُضُوع مُختلف القبائل العَرَبيَّة لقبيلته.

فكما رأينا، حتَّى عليّ بن أبي طالب وأنصاره، لم يكن اعتراضهم على أصل مبدأ الشُّورى والبَيْعَة كطريق لاختيار وتنصيب الحاكم الشّرْعي، بل كان اعتراضهم منصباً في

(1) نهج البلاغة: خُطبة 74، ص 102، الطّبعة التي حقّقها د. صُبحي الصّالح.

مُجمله على ما رأوه سُوء تطبيقٍ لذلك المبدأ؛ حيثُ لا أهل الشُّورى كانوا جميعاً حاضرين ولا الشُّورى أدَّت - في نَظَرهم - إلى انتخاب صاحب الاستحقاق الشَّرْعي والمنطقي لخلافة النَّبي، وأولى النّاس بميراثه؛ أيْ الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، الذي كان - كما يراه مُحبُّوه وأنصاره والمائلون إليه - الشّخص الوحيد الذي يمتلك - بأعلى جدارة - كُلّ الصِّفات الثّلاثة المذكورة أعلاه، المطلوبة في القائد، أو على الأقلّ؛ السَّببَيْن الأوَّلَيْن منهما.

وقد نُقل عن عليّ ما يُفيد إقراره لمبدأ الشُّورى والبَيْعَة طريقاً لتعيين الحاكم الشَّرْعي في رسالة من رسائله كَتَبَها لمعاوية جاء فيها: [إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الذينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثمان عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ، وَسَمَّوْهُ إِمَاماً، كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضاً، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلاهُ اللَّهُ مَا تولَّى . . .][1].

وإنَّما ذكرتُ ذلك لأُبيِّن أنَّ ما نشأ - فيما بعد - من نَظَريَّات وعقائد حول طبيعة منصب الإمامة، وأنَّها هل تتمُّ بالشُّورى أم هي منصب إلهي مُتَمِّمٌ للنُّبوَّة لا يُوكل تعيينه للنّاس، بل يختصُّ الله - تعالى - بتعيين صاحبه واختياره، وغير ذلك من الآراء الفلسفيَّة والعقائديَّة حول خصائص الإمام وصفاته وشُرُوطه، إنَّما هي نَظَريَّات لاحقة، أخذت تتبلور بالتّدريج فيما بعد.

(1) نهج البلاغة: قسم رسائل أمير المؤمنين عليه السّلام، كتاب رَقْم 6، ص 367.

الفَصْل الثّاني:

نُمُوُّ الاختلاف وتحوُّله لانقسام

هذا الاختلاف الذي بدأ سياسيّاً اجتماعيّاً، بين عليّ ومعه جماعة من الصّحابة في جهة، والذين شكّلوا بذرة الشّيعة، وبين عامّة الأصحاب في الجهة أُخرى، أخذ يتبلور أكثر فأكثر، على أثر الحوادث التّالية؛ خاصّةً حوادث الفترة الأخيرة من خلافة عثمان بن عفّان ﷺ والتي أدّت في النّهاية إلى قتله سنة 35 هـ. ولابُدَّ من وقفة هُنا تُوضح هذه القضيّة؛ لأنّها تُشكّل خلفيّة ذات أثر أساسي في حُدُوث الانقسام الكبير:

ـ عودة النّزاع القديم بين أرستقراطيّة بني أُميّة وشعبيّة بني هاشم في خلافة عثمان:

كان لعثمان ﷺ ـ لمّا ولي الخلافة ـ ثمانية وستّون عاماً، فكان على أعتاب مرحلة الشّيخوخة من عُمره، وكان مشهوراً بالخجل والحياء الشّديدَيْن، حتّى وَرَدَ في الحديث قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): "وأشدّهم حياء عثمان"، وكان ينتمي للعائلة الأُمويّة التي كان لها السّيادة في قُرَيْش في عهد الجاهليّة، تلك السّيادة التي انتقلت إلى بني هاشم بفضل دعوة الإسلام ونُبُوَّة الرّسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، فكان بنو أُميّة لا يزالون يطمحون لعودة السّيادة والرّئاسة لهم، وإذا أضفنا لذلك البُعْد الزّمني والدّيموغرافي؛ أيْ الابتعاد التّدريجي عن عهد النُّبُوَّة واتّساع رُقعة الدّولة الإسلاميّة والفُتُوحات، وما درّتهُ من أموال على المُسلمين، ودُخُول أقوام شتّى في الإسلام، رُبَّما أمكن أنْ نتفهَّم الأسباب التي جعلت خلافة عُثمان تختلف عن خلافة الشّيخَيْن من حيثُ العَدْل والمُساواة وعدم مُراعاة الأقرباء (أيْ عدم الواسطات)، والنّزاهة في استخدام بيت المال، والصّرامة والشّدَّة مع الوُلاة وغير ذلك، فلم يكن عُثمان في حُكْمه على مُستوى الشّيخَيْن في الحزم والنّزاهة، بل كان شديد

الإيثار والمُراعاة لأبناء أُسرته الأُمويَّة، واختـار جُلَّ عُمَّالـه ووُلاتـه منـهم، فكـانت أوَّل نقمـة للنّاس عليه هي اختياره لعُمَّال من عُصبته وأُسـرته، ليسـت لـهم سـوابق إسـلاميَّة، أو مكانـة دينيَّة رفيعة في المُجتمع، لا، بل كان بعضهم ذا سوابق سيِّئة، مثل أخيه من الرّضاعة "عبـد الله ابن سعد بن أبي سرح"[(1)] الذي ولاَّه مصر، والفاسق بنـصِّ القُـرآن "الوليـد بـن عُقبـة بـن أبـي معيط"[(2)]، الذي ولاَّه الكُوفة، وأبو سُفيان صخر بن حرب بـن أُميَّـة، وكـان لـه دور مُؤثِّـر في عهده، والأخطر من الكُلِّ ابن عمِّه مـروان بـن الحكَـم بـن أبـي العـاص[(3)] الـذي جعلـه كاتبـه ومُستشاره الأوَّل، وكان له على عُثمان تأثير كبير، بل يـرى كثـير من المُؤرِّخين أنّـه كـان هُـو السّبب غير المُباشر الذي أودى بحياة الخليفة في النّهاية كما سيأتي . . .

يُقسِّم المُؤرِّخون فترة حُكْم عُثمان لمرحلتَيْن: السّنوات السِّتّ الأُولى، وكانت مُسـتقرَّة هادئة، ثُمَّ السّنوات الثّمان التّاليـة التـي ازدادت فيـها مظـالم بعـض الـوُلاة، وانتشـرت أخبـار فسـادهم المـالي، بـل ذكـرت التّواريـخ مظـالم تـورَّط بـها الخليفـة نفسـه تجـاه مُعارضيـه مـن الصّحابة؛ كإبعاده لأبـي ذرِّ الغفـاري صـاحب رسـول الله ﷺ إلـى الشّـام، ثُمَّ نفيـه إيَّـاه إلى الرّبذة؛ حيثُ مات وحيـداً هُنـاك، وضَرْبـه لعمَّـار بـن ياسـر وعبـد الله بـن مسعود رضـي الله

(1) عبد الله بن سعد بن أبي السّرح: «أسلم قبل فتح مكَّة، وهاجر، وكان يكتب الوحي لرسـول الله ﷺ، ثُمَّ ارتـدَّ مُشركاً، وصار إلى قُرَيْش بمكَّة، فقال لهم: إنّي كُنتُ أصرف مُحمَّداً؛ حيثُ أُريد! كـان يُملي علـيَّ عزيـز حكيم، فأقول أو عليم حكيم، فيقول: نعم، كُلٌّ صواب. فلمَّا كان يوم فتح مكَّة أمر رسول الله ﷺ بقتله في نفر من المُجرمين أو الأفّاكين المُرتدّين أمر بقتْلهم، ولو كانوا مُتعلِّقين بأستار الكعبة، ففَرَّ عبد الله بن سعد بن أبي السّرح إلـى عُثمـان، وكان أخاه من الرّضاعة، أرضعت أُمُّه عُثمان، فغيَّبـه عُثمـان حتَّى أتى بـه رسـول الله ﷺ بعدمـا اطمـأنَّ أهـل مكَّـة، فاستأمنه له، فصمت رسول الله ﷺ طويلاً، ثُمَّ قال: نعم... ثُمَّ أسلم (مـن جديـد) في فتـح مكَّـة، وحسـن إسـلامه» انتهى مُختصراً من كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البرِّ القُرطبي: ج 3 / ص 918.

(2) هُو - باتّفاق المُفسّرين - المقصود بالفاسق في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ سُورة الحُجُرات.

(3) والده الحكَم بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شمس القُرشي الأُموي عـمُّ عُثمان بن عفَّان «أسـلم يـوم الفتـح، وسكَنَ المدينة، ثُمَّ نفاه النّبي ﷺ إلى الطّـائف، وروى أنَّ أصحـاب النّبي ﷺ دخلـوا عليـه وهُـو يلعـن الحكَـم بـن أبـي العاص فقالوا: يا رسول الله! ماله؟ قال: دخل على شقِّ الجدار وأنا مع زوجتي فُلانـة، فكلـح في وجـهي، فقـالوا: أ فلا نلعنه نحنُ؟ قال: كأنّي أنظر إلى بنيه يصعدون منبري، وينزلونه، فقالوا: يـا رسـول الله! ألا نـأخذهم؟ قـال: لا. ونفاه رسول الله ﷺ. . » من كتاب الإصابة في تمييز الصّحابة لابن حَجَر العسقلاني: ج 2/ ص 105.

عنهما، ويذكرون أنَّ النّقمة عليه بدأت تتصاعد؛ لأنّه: [... أثر الأقرباء، وحمى الحمى، وبني الدُّور، واتّخذ الضّياع والأموال بمال الله والمُسلمين، وآوى الحكَم بن أبي العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح طريدَيْ رسول الله، وأهدر دم الهرمزان، ولم يقتل عُبيد الله بن عُمر به... إلخ] ممّا ليس هذا مكان تفصيله؛ إذ ليس الكتاب تأريخاً لحياة وسيرة الخُلفاء.

والخُلاصة أنَّ تلك المفاسد والمظالم أثارت سُخط النّاس واستياءهم، لاسيما أنَّ النّاس كانوا لا يزالون حديثي عهد بالخلافة على خُطى النُّبوَّة كما كانت زمن رسول الله، وحافظ عليها ـ لحَدٍّ كبير ـ أبو بكر وعُمر. وهُنا؛ كان عليٌّ يقوم بواجبه في نصح الخليفة وإرشاده لإصلاح الأوضاع، فكان عُثمان يستجيب تارة، ويتلكَّأ أُخرى، وزادت الأُمور سُوءاً بسبب عجز عُثمان عن تغيير الأوضاع بشكل جذري، وإزالة أسباب النّقمة عليه، والضّرب بيد من حديد على أيدي الفاسدين من وُلاته، بل كان يتردَّد جداً في عَزْلهم ومُحاسبتهم على ظُلمهم، وكان لكاتبه الأوَّل مروان بن الحكَم تأثير سيِّء جداً في ذلك؛ حيثُ إنّه كان كُلَّما قام عليٌّ بتكليم عُثمان وإخلاص النّصيحة له في ما يجب عليه عمله ليُزيل أسباب نقمة النّاس عليه، أتاه مروان عقب ذلك، وقلب له عقله، وزيَّف له الأُمور، وصوَّر له أنَّ النّاس كاذبون، وأنَّ علياً طامح للخلافة؛ حيثُ إنَّ قسماً من الثُّوَّار كان يُنادي باسم علي.. إلخ.

ينقل لنا الشّريف الرّضي في نهج البلاغة نموذجاً عن موقف الإمام عليّ ونُصحه المُخلص لعُثمان. فيقول: [ومن كلام له عليه السلام لمّا اجتمع النّاس إليه وشكوا ما نقموه على عُثمان، وسألوه مُخاطبته لهم، واستعتابه لهم، فدخل عليه، فقال:

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي، وقَدِ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُمْ، ووَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ، مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، ولا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لا تَعْرِفُهُ، إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ، مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، ولا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ، وقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) كَمَا صَحِبْنَا، ومَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ولا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ! وأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى أَبِي رَسُولِ اللَّهِ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا، وقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالا، فَاللَّهَ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ واللَّهِ مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمًى، ولا تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وإِنَّ أَعْلامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ

عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَادِلٌ هُدِيَ وهَدَى، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً، وإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ لَهَا أَعْلامٌ، وإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أَعْلامٌ، وإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً، وإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يَقُولُ يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالإِمَامِ الْجَائِرِ ولَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ ولا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا. وإِنِّي أَنْشُدُكَ اللَّهَ أَلا تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الأُمَّةِ الْمَقْتُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ والْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ويَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، ويَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا، فَلا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً، ويَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً. فَلا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلالِ السِّنِّ وتَقَضِّي الْعُمُرِ. فَقَالَ لَهُ عُثمان ﷺ: كَلِّمِ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ فَقَالَ (عليه السلام): مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلا أَجَلَ فِيهِ، ومَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ.][1].

ومثلها ما جاء في رسالة أُخرى كَتَبَها عليّ ـ فيما بعد ـ لمعاوية؛ يُبيِّن له فيها كيف بذل نُصرته لعُثمان، لكنّ عُثمان طلب منه الكفّ عن ذلك، في حين أنّ عُثمان لمّا طلب النُّصرة صراحة من مُعاوية تباطأ الأخير عمداً عنها، وأنّه ـ أيْ عليّ ـ كان يمحض عُثمان خالص النُّصح والإرشاد، مُبتغياً الإصلاح ما استطاع؛ قال:

[... ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وأَمْرِ عُثْمان، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ وأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ، فَاسْتَقْعَدَهُ، واسْتَكَفَّهُ أَمْ مَنِ اسْتَنْصَرَهُ، فَتَرَاخَى عَنْهُ، وبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ، كَلاَّ، واللَّهِ؛ لَقَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ، والْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا، ولا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً. ومَا كُنْتُ لأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً، فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وهِدَايَتِي لَهُ فَرُبَّ مَلُومٍ لا ذَنْبَ لَهُ، وقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ. ومَا أَرَدْتُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وإِلَيْهِ أُنِيبُ....][2].

---

(1) نهج البلاغة: خُطبة رَقْم 164، ص 234 إلى 236. ط بتحقيق د. صُبحي الصّالح.

(2) نهج البلاغة: من الكتاب رَقْم 28 ـ (وعُنوانه: ومن كتاب له عليه السّلام إلى مُعاوية جواباً. قال الشّريف: وهُوَ من محاسن الكُتُب) ص: 388، بتحقيق د. صُبحي الصّالح.

ـ وُقُوف عليَ مع أبي ذرٍّ في محنة نَفْيه من قبَل عثُمان ـ المغزى والدّلالات:

وكنموذج آخر على الاختلافات التي كانت بين عليّ وعثُمان ما يرويه المؤرّخون؛ ومنهم اليعقوبي من حادثة قرار عثُمان ﷺ نَفْي أبي ذرٍّ ﷺ، قال:

[وبلغ عثُمان أيضاً أنَّ أبا ذرٍّ يقع فيه، ويذكر ما غيَّر وبدَّل من سُنن رسول الله، وسُنن أبي بكر وعمر، فسيَّره (أيْ نَفَاه) إلى الشّام إلى مُعاوية. فكان (أبو ذرٍّ) يجلس في المسجد فيقول كما كان يقول (في المدينة)، ويجتمع إليه النّاس، حتَّى كثر مَنْ يجتمع إليه، ويسمع منه، وكان يقف على باب دمشق إذا صلَّى صلاة الصُّبح، فيقول: جاءت القطار، تحمَّل النّار، لعن الله الآمرين بالمعروف، والتّاركين له، ولعن الله النّاهين عن المُنكر، والآتين له! وكَتَبَ مُعاوية إلى عثُمان: إنَّك قد أفسدتَ الشّام على نفسكَ بأبي ذرٍّ، فكَتَبَ إليه: أنْ احمله على قتب بغير وطاء، فقدم به إلى المدينة، وقد ذهب لحم فخذَيْه، فلمَّا دخل إليه وعنده جماعة قال: بلغني أنَّكَ تقول سمعتُ رسول الله يقول: «إذا كملت بنو أُميَّة ثلاثين رجلاً اتَّخذوا بلادَ الله دُولاً، وعبادَ الله خولاً، ودينَ الله دغلاً»، فقال: نعم؛ سمعتُ رسول الله يقول ذلك، فقال لهم: أ سمعتُم رسول الله يقول ذلك؟ فبعث إلى عليّ بن أبي طالب، فأتاه، فقال: يا أبا الحَسَن؛ أ سمعتَ رسول الله يقول ما حكاه أبو ذرٍّ؟ وقصَّ عليه الخبر. فقال علي: نعم. قال: وكيف تشهد؟ قال لقول رسول الله: ما أظلَّت الخضراء، ولا أقلَّت الغبراء ذا لهجة أصدق من أبي ذرٍّ. فلم يقم بالمدينة إلاَّ أيَّاماً حتَّى أرسل إليه عثُمان: والله؛ لتخرجنَّ عنها، قال: أ تُخرجني من حَرَم رسول الله؟ قال: نعم؛ وأنفك راغم! قال: فإلى مكَّة؟ قال: لا، قال: فإلى البَصْرَة؟ قال: لا، قال: فإلى الكُوفة؟ قال: لا، ولكنْ؛ إلى الرَّبذة التي خرجتَ منها، حتَّى تموت بها. يا مروان! أخرجه، ولا تدع أحداً يُكلِّمه حتَّى يخرج، فأخرجه على جَمَل، ومعه امرأته وابنته، فخَرَجَ وعليٌّ والحَسَن والحُسَين وعبد الله بن جَعْفَر وعمَّار بن ياسر ينظرون، فلمَّا رأى أبو ذرٍّ عليّاً قام إليه، فقبَّل يده، ثُمَّ بكى، وقال: إنِّي إذا رأيتُكَ، ورأيتُ ولدكَ ذكرتُ قول رسول الله، فلم أصبر حتَّى أبكي، فذهب عليٌّ يُكلِّمه، فقال له مروان: إنَّ أمير المُؤمنين قد نهى أنْ يُكلِّمه أحد. فرفع عليٌّ السّوط، فضرب وجه ناقة مروان، وقال: تنحَّ، نحّاك الله إلى النّار، ثُمَّ شيَّعه، وكلَّمه بكلام يطول

شرحه، وتكلَّم كُلُّ رجل من القوم، وانصرفوا، وانصرف مروان إلى عُثمان، فجرى بينه وبين عليٍّ في هذا بعض الوحشة، وتلاحيًا كلامه. فلم يزل أبو ذرٍّ بالرّبذة حتّى تُوفِّي.][1].

ونقل الشّريف الرّضي في نهج البلاغة كلام عليٍّ الذي قاله لأبي ذرٍّ وهُو من أروع الكلام وأبلغه، قال: [ومن كلام له عليه السلام لأبي ذرٍّ - رحمه الله - لَمّا أُخْرِجَ إلى الرّبذة: يَا أَبَا ذَرٍّ! إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ، إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، واهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ، وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً، وَالأَكْثَرُ حُسَّداً، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتْقاً، ثُمَّ اتَّقَى اللَّهَ، لَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً، لا يُؤْنِسَنَّكَ إِلاَّ الْحَقُّ، ويُوحِشَنَّكَ إِلاَّ الْبَاطِلُ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لأَحَبُّوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لأَمَّنُوكَ][2].

- عليّ يُدافع بنَفْسه وبأولاده عن عثمان أمام الثُّوّار المُحاصرين له:

وتفاقمت الأُمُور حتّى بلغت ذروتها سنة 35 هـ، بعد حوادث عدّة مسطورة في كُتُب التّاريخ ليس هُنا موضع تفصيلها، وانتهت إلى أنّ جماعة من أهل مصر من السّاخطين على عُثمان تكاتبوا مع أضرابهم من أهل البَصْرَة والكُوفة، وزحفوا إلى المدينة بحُجّة أداء العُمرة، لكنَّهم كانوا يُخطّطون لُمحاصرة عُثمان، وخَلْعه، أو قَتْله إنْ أبى. وكان السّبب المُباشر لذلك هُو ذلك الكتاب الذي اكتشفه الثُّوّار العائدون لمصر - والذي يعتقد أكثر المُؤرّخين أنّ مروان بن الحَكَم هُو الذي زوّره على لسان عُثمان - والذي أمر فيه الخليفةُ واليَه على مصر أنْ يقتل طائفة من المُعارضين، ويصلب آخرين، ويقطع أيدي آخرين منهم وأرجلهم.

وحاصر الثُّوّار الهائجون عُثمان على إثر ذلك، وأرسل عليّ ابنَيْه الحَسَن والحُسَين، وقال لهما: اذهبا بسيفكما حتّى تقوما على باب عُثمان، فلا تدعا أحداً يصل إليه[3]. بل

(1) "تاريخ اليعقوبي": ج2/ ص 171 - 173.

(2) نهج البلاغة: قسم خطب أمير المُؤمنين، خُطبة رَقْم130، ص 188، بتحقيق د. صُبحي الصّالح.

(3) "أنساب الأشراف" للبلاذري: ج5/ ص 68 - 69، ط مصر.

اشترك الإمام عليٌّ بنفسه في أوّل الأمْر في الدّفاع عن الخليفة كما يذكر ابن أبي الحديد فيقول:
[. . . فقد حضر هُو بنفسه مراراً، وطَرَدَ النّاس عنه، وأنفذ إليه ولدَيْه (أيْ الحَسَن والحُسَين) وابن أخيه عبد الله (بن جَعْفَر بن أبي طالب) ولولا حُضُور عليّ عليه السلام بالمدينة لقُتل عُثمان قبل أنْ يُقتل بمُدَّة. .][1] لكنَّ عُثمان طلب من عليٍّ الابتعاد عن المدينة؛ لأنَّ الثُّوَّار كانوا يُنادون باسمه، فكان عليٌّ يسمع، ويُطيع، ويفعل ما يُريده الخليفة منه، كما جاء ذلك في نهج البلاغة:

[ومن كلام له عليه السلام قاله لعبد الله بن العبَّاس وقد جاءه برسالة من عُثمان وهُو محصور يسأله فيها الخُرُوج إلى ماله يَنْبُع، ليقل هتف النّاس باسمه للخلافة، بعد أنْ كان سأله مثل ذلك من قبل، فقال عليه السلام: يَا ابْنَ عبَّاس؛ مَا يُرِيدُ عُثمان إلاَّ أنْ يَجْعَلَنِي جَمَلاً نَاضِحاً بِالْغَرْبِ، أَقْبِلْ وأَدْبِرْ، بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ الآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ! واللَّهِ؛ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ، حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً.][2].

وينقل ابن أبي الحديد تفاصيل الأحداث، والتي تُبيِّن إلى أيِّ حَدٍّ كان عليٌّ وأهل بيته مُخلصين في الدّفاع عن الخليفة، يقول:

[. . فسكت عُثمان، ولزم الدّار، وأمر أهل المدينة بالرُّجُوع، وأقسم عليهم، فرجعوا، إلاَّ الحَسَن بن عليّ ومُحمَّد بن طلحة وعبد الله بن الزّبير وأشباهاً لهم، وكانت مُدَّة الحصار أربعين يوماً. قال أبو جَعْفَر: ثُمَّ إنَّ مُحاصري عُثمان أشفقوا (أيْ خافوا) من وُصُول أجناد من الشّام والبَصْرَة تمنعه (أيْ تُدافع عنه، وتُقاتل الثُّوَّار المُحيطين به)، فحالوا بين عُثمان وبين النّاس، ومنعوه كُلَّ شيء، حتَّى الماء، فأرسل عُثمان سرّاً إلى عليٍّ عليه السلام وإلى أزواج النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) أنّهم قد منعونا الماء، فإنْ قدرتُم أنْ تُرسلوا إلينا ماء، فافعلوا، فجاء عليٌّ عليه السلام في الغلس وأُمُّ حبيبة بنت أبي سُفيان، فوقف عليٌّ عليه السلام على النّاس، فوعظهم وقال: «أيُّها النّاس؛ إنَّ الذي تفعلون لا يُشبه أمر المُؤمنين، ولا أمر

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج 10/ ص 581، ط قديمة طهران، أو ج10/ ص 24 في الطّبعة الحديثة.

(2) نهج البلاغة: قسم خُطَب أمير المُؤمنين، خُطبة رَقْم240، ص: 358، تحقيق د. صُبحي الصّالح.

الكافرين، إنَّ فارس والرُّوم لتأسر، فتُطعم، وتسقي، فالله الله، لا تقطعوا الماء عن الرّجل»، فأغلظوا له، وقالوا: لا نعم، ولا نعمة عين، فلمَّا رأى منهم الجدَّ نزع عمامته عن رأسه، ورمى بها إلى دار عثمان يُعلمه أنَّه قد نهض، وعاد. وأمَّا أمُّ حبيبة ـ وكانت مُشتملة على إداوة ـ فضربوا وجه بغلتها، فقالت: إنَّ وصايا أيتام بني أُميَّة عند هذا الرّجل، فأحببتُ أنْ أسأله عنها، لئلاَّ تهلك أموال اليتامى، فشتموها، وقالوا: أنت كاذبة، وقطعوا حبل البغلة بالسّيف، فنفرتْ، وكادت تسقط عنها، فتلقَّاها النّاس، فحملوها إلى منزلها. وروى أبو جَعْفَر قال: أشرف عثمان عليهم يوماً، فقال: أُنشدكم الله؛ هل تعلمون أنِّي اشتريتُ بئر رُومة بمالي، أستعذب بها، وجعلتُ رشائي فيها كرجل من المُسلمين، قالوا: نعم، قال: فلمَ تمنعونني أنْ أشرب منها حتَّى أفطر على ماء البحر؟! ثُمَّ قال: أُنشدكم الله؛ هل تعلمون أنّي اشتريتُ أرض كذا، فزدتُها في المسجد، قالوا: نعم، قال: فهل علمتُم أنَّ أحداً مُنع أنْ يُصلِّي فيه قبلي.

قال أبو جَعْفَر: فلمَّا طال الأمْر، وعلم المصريُّون أنَّهم قد أجرموا إليه جُرماً كجُرم القَتْل، وأنَّه لا فرَق بين قَتْله وبين ما أتوا إليه، وخافوا على نُفُوسهم من تَرْكه حيَّاً، راموا الدُّخُول عليه من باب داره، فأغلقوا الباب، ومانعهم الحَسَن بن عليّ وعبد الله بن الزّبير ومُحمَّد بن طلحة ومروان وسعيد بن العاص وجماعة معهم من أبناء الأنصار، فزجرهم عثمان، وقال: أنتم في حلٍّ من نُصرتي، فأبوا، ولم يرجعوا...] [1].

ويروي المُؤرِّخ المسعودي طَرَفاً من الوقائع التي انتهت بوقُوع جريمة قَتْل الخليفة، فيقول: [... فلمَّا بلغ عليَّاً أنَّهم يُريدون قَتْله، بعث بابنَيْه الحَسَن والحُسَين مع مواليه بالسّلاح إلى بابه لنُصرته، وأمره أنْ يمنعوه منهم، وبعث الزُّبير ابنه عبد الله، وطلحة ابنه مُحمَّداً، وأكثر أبناء الصّحابة أرسلهم آباؤهم اقتداءً بما ذكرنا، فصدُّوهم عن الدّار، فرُمي مَنْ وصفنا بالسّهام، واشتبك القوم، وجُرِحَ الحَسَن، وشُجَّ قنبر (مولى عليّ وخادمه)، وجُرِحَ مُحمَّد بن طلحة، فخشي القوم أنْ يتعصَّب بنو هاشم وبنو أُميَّة، فتَركوا القوم في

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج 2/ ص 153 ـ 155.

القتال على الباب، ومضى نَفَرٌ منهم إلى دار قوم من الأنصار، فتسوَّرا عليها، وكان ممَّنْ وصل إليه مُحمَّد بن أبي بكر ورجلان آخران، وعند عُثمان زوجته، وأهله، ومواليه مشاغيل بالقتال، فأخذ مُحمَّد بن أبي بكر بلحيَته، فقال: يا مُحمَّد! والله لو رآك أبوك لساءه مكانكَ! فتراختْ يده، وخَرَجَ عنه إلى الدَّار، ودخل رجلان، فوجداه، فقتلاه، وكان المُصحف بين يدَيْه يقرأ فيه، فصعدتْ امرأته، فصرخت، وقالت: قد قُتل أمير المُؤمنين. فدخل الحَسَن والحُسَين ومَنْ معهما من بني أُميَّة، فوجدوه قد فاضت نفسه ﷺ، فبكوا، فبلغ ذلك علياً وطلحة والزُّبير وسعداً، وغيرهم من المُهاجرين والأنصار، فاسترجع القوم، ودخل عليٌّ الدَّار، وهُو كالواله الحزين، وقال لابنَيْه: كيف قُتل أمير المُؤمنين، وأنتما على الباب؟ ولَطَمَ الحَسَنَ، وضَرَبَ صَدْرَ الحُسَين، وشَتَمَ مُحمَّد بن طلحة، ولَعَنَ عبد الله بن الزُّبير..][1].

ـ بيعة المُهاجرين والأنصار وسائر النَّاس في المدينة لعليٍّ، ثُمَّ خُرُوج أصحاب الجَمَل عليه:

وهُرِع النَّاس بعد مقتل عُثمان إلى عليٍّ، ليُبايعوه بالخلافة، وكادوا يطؤون بأقدامهم الحَسَن والحَسَن، وهُم يُنادون باسم عليٍّ، ويُصرُّون على تولِّيه ولاية الأمْر، وكان عليٌّ في البداية يجذب يده عنهم، ويقول لهم: اذهبوا، والتمسوا غيري، وكأنَّه كان يشعر أنَّ عديداً منهم لن يفي له بالبَيْعَة، ويُطيعه عندما سينهض في الإصلاح والسَّير على منهاج النُّبُوَّة في العَدْل الصَّارم والطَّريق المُستقيم الذي لا مُهادنة فيه لأحد، (وهذا ما حصل من بعضهم فعلاً)، إلاَّ أنَّه رأى ـ بعد إصرارهم على مُبايعته ـ أنَّ عليه أنْ يتحمَّل المسؤوليَّة، ويقوم بالأمْر، وتمَّت له البَيْعَة في المسجد النَّبوي من قِبَل رُؤُوس المُهاجرين والأنصار في المدينة وسائر المُسلمين الذين كانوا قدموا إليها.

وعندما تولَّى عليٌّ الأمْر بدأ بعَزْل وُلاة عُثمان بمَنْ فيهم مُعاوية الذي كان أميراً على الشَّام مُنذُ عشرين سنة، وإرسال وُلاة من طَرَفه إلى الأمصار، وبدى للنَّاس منهجه الصَّارم في المُساواة، وردُّ المظالم لأهلها، وعدم المُداهنة في الحقِّ لأحد، مهما كانت له صُحبة

---

(1) "مُرُوج الذَّهب"، للمسعودي: ج2/ ص 344، ط بيرُوت.

وسوابق في الإسلام، وهُنا بدأت نُفُوس بعض الصّحابة ـ ممَّنْ لم يرقْ له فُقدان المكاسب التي كان يحوزها في العهد السّابق، وممَّنْ كان يتوقّع الحُصُول على مناصب في العهد الجديد، ولم يحصل عليها ـ تتغيَّر، وسُرعان ما تحوَّل ذلك إلى خُرُوج فريق من النّاس تقودهم أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، التي لم تكن تطب نَفْساً بعليٍّ لأُمُور قديمة؛ منها الامتعاض من موقفه في حادثة الإفك، عندما قال للنّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) النّساء كثير، ومنها الغَيْرة والحسد؛ لأنَّ عليّاً وفاطمة كانا أحبَّ الخلق إلى قلب النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ونحو ذلك ممَّا يكون بين المرأة وأحمائها، كما عبَّرت هي عن ذلك، وقد ساءها عدم تولِّي زوج أُختها الزُّبير ﷺ ولاية الأَمْر، بل عدم تولِّيه إمارة أيِّ مصر من الأمصار، رغم أنَّه كان ابن عمَّة النّبي ﷺ وحواريه وصهر أبي بكر ومن السّابقين الأوّلين.. والحاصل؛ فقد خَرَجَ طلحة والزُّبير، ومجموعة ممَّنْ وافقهم، ومعهم عائشة في هَوْدَجها، إلى مكَّة، ومن هُناك؛ توجَّهوا إلى البَصْرَة، وكانت حُجَّتهم التي يسوقونها في خُرُوجهم على عليٍّ اتّهامهم له بتركه الاقتصاص من قَتَلَة عُثمان، وأنَّه يتوجَّب على المُسلمين القيام ـ قبل أيِّ شيء ـ بالاقتصاص من كُلِّ أُولئك الذي استحلّوا حُرمة المدينة، وخاضوا في دم الخليفة المظلوم وصحابي رسول الله ﷺ الجليل عُثمان بن عفَّان، هذا على الرّغم من أنَّ أُمَّ المُؤمنين عائشة كانت هي نفسها من المُحرِّضين على خَلْع عثمان وقَتْله في كلمتها الشّهيرة: "اقتلوا نعثلاً، فإنَّه كَفَرَ"، لكنَّها لمَّا رأت أنَّ الأمر آلَ لعليٍّ، وأنَّه بُويع له بالخلافة، تغيَّر موقفها، وانعكس تماماً، وصارت من الباكين على عُثمان، المُطالبين بفَوْرِيَّة الانتقام لدمه، والاقتصاص من كُلِّ مَنْ شارك في قَتْله، وانطلق الخارجون إلى مكَّة، ومنها توجَّهوا نحو البَصْرَة، وهُم يحثُّون النّاس على الخُرُوج على عليٍّ لإهماله النَّيل من قَتَلَة عُثمان، وأنَّه لابُدَّ من الثّأر لقَتَلَة الخليفة، ولمَّا وصلوا للبَصْرَة، حَدَثَتْ أحداث يطول ذكرُها، وتختلف كُتُب التّاريخ في تفاصيلها، وخُلاصة ما تُجمع عليه أنَّهم قتلوا هُناك عُثمان بن حنيف عامل عليٍّ على البَصْرَة، مع جماعة آخرين، واستولوا على البَصْرَة، وبيت مالها، ومركز الجُنْد والسّلاح فيها، فخَرَجَ عليٌّ لمُواجهتهم، وأراد أنْ يتمَّ ذلك بالحوار والإقناع ودُون إراقة دماء، وربَّما تيسَّر له ذلك، لولا أنَّ بعض مَنْ أرادوا الاصطياد بالماء العكر ـ ويقال إنَّ منهم مروان بن الحَكَم الأُمَوي ـ أوقعوا الفتنة بين الفريقَيْن، وضربوا بسهم من هُنا، وسهم من هُناك، ممَّا أدّى لوُقُوع الاقتتال، وكانت أوّل حرب أهليَّة

داخليَّة بين المُسلمين عُرِفت باسم معركة الجَمَل؛ نسبة إلى الجَمَل الذي كانت عائشة تركبـه في وسط المعركة، وسُرعان ما ظهر فيها عليٌّ على الخارجين عليه، وقد قُتِل في هذه المعركة خلق كثير، كما قُتِل - بنحو غامض - كُلٌّ من طلحة والزُّبير، في حين أكرم عليٌّ أُمَّ المُؤمنين عائشـة، وأعادها إلى المدينة برفقة مجموعة من الحُرَّاس النّساء المُلثَّمين المُتنكِّرين بشكل رجال.

- الانقسام الكبير بين المُسلمين جرَّاء خُرُوج مُعاوية بأهل الشّام لحرب عليّ:

لم تلبث فتنة الجَمَل أنْ انتهت حتَّى نشبت فتنة أشدُّ وأنكى؛ هي فتنة مُعاوية بـن أبي سُفيان، وخُرُوجه بأهل الشّام على عليّ، ورَفْضه ولايته، مُتذرِّعاً باتّهام علـيّ بأنَّ لـه يـد في مقتل عُثمان، أو - على الأقلّ - أنَّه رضي بذلك، ومالأ فيه، وتباطأ في نُصرته. وعلَّق مُعاويـة قميص عُثمـان، الـذي قُتِـل فيـه، علـى منبر الجامع في الشّـام، وأخـذ يتبـاكى علـى الخليفـة المظلوم، ويُطالب المُسلمين بالانتقام من قَتَلَته، ويُشيع أنَّ عليّاً مالأ قَتَلَتـهُ، حرصـاً منه على الوُصُول للسُّـلطة، ويرفـض الاعـتراف بولايـة علـيّ قبـل أنْ يقـوم بـالقَبْض علـى كُـلّ الثُّـوَّار المُشـاركين في قَتْـل عُثمـان، والاقتصـاص منـهم جميعــاً، (وهُــو يعلــم أنَّ هــذا الأَمْــر شــبه مُستحيل، أو - علـى الأقـلّ - يحتـاج لوقـت طويـل؛ لأنَّ المُشـاركين في القَتْـل غــير معروفــين بعينهم، والثُّوَّار كانوا من أمصار مُختلفة، ومُتفرِّقين في القبائل، ولهم شوكة ومَنَعَة..).

ونقتبس من كلام الدُّكتُور طه حُسَين ما يُوضح هذه الأحداث بدقَّة بليغة؛ حيـثُ يقـول - في كتابه الفتنة الكُبرى - ما نصّه:

[كـان المُسـلمون مـن أهـل المدينـة يعرفـون مكـان العُمَّـال الذيـن أمرهــم عُثمــان علــى الأمصار، ويُقدِّرون أنَّـهم جميعـاً أو أنْ بعضـهم - علـى الأقـلّ - سـيُنكرون الخلافـة الجديـدة، ويُجـادلون الخليفـة في سُـلطانه، غَضَبـاً لعُثمـان الـذي ولاَّهـم، وكـانوا يخـافون مــن هــؤلاء العُمَّال؛ بنوعٍ خاصٍّ مُعاوية بن أبي سُفيان عامل عُثمان في الشّام، يعرفون قرابته مـع الخليفـة المقتول، ويعرفون طاعة أهل الشّام له، لطُول إقامته فيـهم، وإمرتـه عليـهم مُنـذُ عـهد عُمـر، وكانوا يعرفون مكانة مُعاوية مـن بنـي أُميَّـة، ويعرفـون الخُصُومـة الكبـيرة بـين بنـي أُميَّـة وبنـي هاشم قبل أنْ يظهر الإسلام، وحين انتقل النّبي ﷺ وأصحابه بدينهم الجديد إلى المدينة، فقـد

أصبح أبو سُفيان قائد قُرَيْش بعد أنْ قُتِلَ قادتها وساداتها يوم بَدْر؛ وهُو الذي أقبل بقُرَيْش يوم أُحُد، فتأثَّر لقتْلى بدر من المُشركين وامرأته هند أُمّ مُعاوية هي التي أعتقت وحشياً أنْ قَتَلَ حمزة، فلمَّا قَتَلَهُ أقبلت على ميدان الموقعة، وبحثت عن حمزة، حتَّى وجدته بين القتلى، فَبَقَرَتْ بطنه، واستخرجت كبده، فلاكتها، وأبو سُفيان هُو الذي قاد قُرَيْشاً يوم الخندق، وألَّب العَرَب على النَّبي وأصحابه، وأغرى اليهُود، حتَّى نقضوا عهدهم مع النَّبي ﷺ وأصحابه، وأبو سُفيان هُو الذي ظلَّ يُدبِّر مُقاومة قُرَيْش للنَّبي، وكيدها له، ومكْرها به، حتَّى كان عام الفتح، فأسلم حين لم يكن له من الإسلام بُدٌّ.

ومهما يقل النَّاس في مُعاوية من أنَّه كان مُقرّباً إلى الرّسول ﷺ بعد إسلامه، وأنَّه كان من كُتَّاب الوحي، ومن أنَّه أخلص للإسلام بعد أنْ تاب إليه، ونصح للنَّبي ﷺ وخُلفائه الثَّلاثة، مهما يقل النَّاس في مُعاوية من ذلك، فقد كان مُعاوية هُو ابن أبي سُفيان قائد المُشركين يوم أُحُد، ويوم الخندق، وهُو ابن هند التي أغرت بحمزة، حتَّى قُتِل، ثُمَّ بَقَرَتْ بطنه، ولاكت كبده، وكادت تدفع الرّسول ﷺ نفسه إلى الجزع على عمّه الكريم، وكان المُسلمون يُسمُّون مُعاوية وأمثاله من الذين أسلموا بأخَرَة، ومن الذين عفا النَّبي عنهم بعد الفَتْح بالطُّلقاء؛ لقول الرّسول ﷺ: «اذهبوا؛ فأنتم الطُّلقاء».

هذه مُقدِّمة لابُدَّ منها للمأساة الثَّانية التي جاءت الإمامَ عليّاً من بلاد الشّام، وكانت - بدُون شكٍّ - أشدَّ هولاً، وقد حاول أمير المُؤمنين - كعادته دائماً - أنْ يُعالج الأمْر بالإقناع والمُراسلة، ولكنْ؛ أبى مُعاوية إلاَّ عناداً، وشدَّ أزره في موقف العناد عَمرو بن العاص.

ولمَّا اجتمع الفريقان دعا عليّ ؏ أبا عُمر وبشير بن عَمرو بن محصين الأنصاري وسعد بن قيس الهمذاني، وقال لهم: اذهبوا إلى هذا الرّجل - يعني مُعاوية - وادعوه إلى الله، وإلى الطّاعة، وإلى الجماعة، فلعلَّ اللهَ يهديه، ويَلمَّ شمل هذه الأُمَّة.

وقد ذهب بشير بن عَمرو، وقال لمُعاوية: «إنَّ الدُّنيا عنك زائلة، وإنَّك راجع إلى الآخرة، وأنَّ اللهَ مُحاسبك على ذلك، ومُجازيك عليه، وإنِّي أُنشدك بالله - تعالى - أنْ لا تُفرِّق جماعة هذه الأُمَّة، وأنْ لا تسفك دماءها فيما بينها».

قال مُعاوية: «وأترك دمَ عثُمان، لا والله لا أفعل ذلك أبداً»، وقال للمُجتمعين عنده: «انصرفوا عنِّي، فليس عندي إلاَّ السّيف».

ومن الرّسالتَيْن المُتبادلتَيْن بين الإمام عليّ ﷺ ومُعاوية سنرى واضحاً أنَّ الإمام حاول خُطَّة المُسالمة كعادته، ولكنَّ مُعاوية أظهر - بوُضُوح - نيَّته في توسيع هُوَّة الخلاف، بل وفتح أبواب الخلاف واحداً بعد واحد، وواضح أنَّ سياسة الإمام تختلف عن سياسة مُعاوية، بل هي على النّقيض منها، فالخلاف واضح بين الصِّدْق والمُغالطة، أو بين الدِّين والدُّنيا، أو بين الخلافة التي يُمثِّلها الإمام والملك الذي يُنشده مُعاوية.

كَتَبَ أمير المُؤمنين إلى مُعاوية: «سلامٌ عليكَ؛ أمَّا بعد؛ فإنَّ بيعتي بالمدينة لزمتكَ أنت بالشّام»؛ لأنَّه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعُمر وعثُمان على ما بُويعوا عليه، فلم يكن للشّاهد أنْ يختار، ولا للغائب أنْ يرد، وإنَّما الشُّورى للمُهاجرين والأنصار. فإذا اجتمعوا على رجل، وسمَّوه إماماً، كان ذلك لله رضاً، وإنْ خرج عن أمرهم ردُّوه إلى ما خرج عنه، فإنَّ أبى قاتلوه على أتباعه غير سبيل المُؤمنين، وولاَّه الله ما تولَّى، وأصلاه جهنَّم وساءت مصيراً. وإنَّ طلحة والزُّبير بايعاني، ثُمَّ نقضا بيعتهما. وكان نقضهما كردِّهما، فجاهدتهما بعد ما أعذرتُ إليهما، حتَّى جاء الحقُّ وظهر أمرُ الله، وهُم كارهون، فادخلْ فيما دخل فيه المُسلمون، فإنَّ أحبَّ الأُمُور إلي قبولك العافية، وقد أكثرتَ في قَتَلَة عثُمان، فإنْ رجعتَ عن رأيكَ وخلافكَ، ودخلتَ فيما دخل فيه المُسلمون، ثُمَّ حاكمتَ القوم إليَّ، حملتُكَ وإيَّاهم على كتاب الله.

وأمَّا تلك التي تُريدها (يعني الخلافة) فهي خدعة الصّبي عن اللّبن، ولعمري؛ لئن نَظَرتَ بعقلكَ دُون هواكَ، لتجدني أبرأ قُرَيْش من دم عثُمان، واعلم أنَّك من الطُّلقاء [1] الذين لا تحلُّ لهم الخلافة، ولا يدخلون في الشُّورى، وقد بعثتُ إليك وإلى مَنْ قبلكَ جرير ابن عبد الله، وهُو من أهل الإيمان والهجرة، فبايعه، ولا قُوَّة إلى بالله.

---

(1) يُشير إلى أنَّ مُعاوية وأباه أُطلقا من الأَسْر يوم فتح مكَّة؛ حين قال رسول الله - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - لقُرَيْش: ما تظنُّون أنِّي فاعلٌ بكم؟ قالوا: أخٌ كريمٌ، فقال - في سماحته النَّبويَّة - : اذهبوا، فأنتم الطُّلقاء.

وقد ردّ مُعاوية قائلاً:

«سلام عليك؛ أمّا بعد؛ فلعمري، لو بايعكَ الذين ذكرتَ وأنت بريء من دم عثمان، لكُنتَ كأبي بكر وعُمر وعثمان، ولكنّك أغريتَ بدم عثمان، وخذلتَ الأنصار، فأطاعكَ الجاهلُ، وقوي بكَ الضّعيفُ، وقد أبى أهل الشّام إلاّ قتالكَ، حتّى تدفع إليهم قَتَلَة عثمان، فإنْ فعلتَ، كانت شورى بين المُسلمين، وإنّما كان الحجازيّون هُم الحُكّام على النّاس، والحقُّ فيهم، فلمّا فارقوه، كان الحُكّام على النّاس أهل الشّام، ولعمري، ما حُجّتك على أهل الشّام كحُجّتك على طلحة والزُّبير إنْ كانا بايعاكَ، فلم أُبايعكَ أنا، فأمّا فضلكَ في الإسلام وقرابتك من رسول الله ﷺ فلستُ أدفعه».

والرّسالة كُلّها مُغالطة حاملة للبُهتان والأباطيل، فتسليم قَتَلَة عثمان لا يكفي؛ لأنّ المرجع بعد ذلك إلى الشّورى والنّظر في البَيْعَة من جديد.

وشُورى الحجازيّين العراقيّين لا تكفي؛ لأنّ الحقّ قد خرج منهم إلى أهل الشّام، وهُم الحُكّام على النّاس.... لأنّهم يحكمون لمُعاوية، ولا يحكمون لغيره، وهُو - بذلك - يُسقط العدالة عن المُهاجرين والأنصار، وعلى أهل بدر الذين لم يتخلّف واحد منهم عن بيعة أمير المؤمنين -] انتهى -

وبعد أنْ لم يُجْدِ الإقناع الصّادق شيئاً، وبعد أنْ قام جُنُود مُعاوية بغارات مُتعدّدة على كُلِّ مَنْ عُرِف من القبائل بمُوالاة عليّ ونُصرته - أيْ بأنّهم من شيعة عليّ - ليُعْمِلوا فيهم آلة السَّلْب والنَّهْب والقَتْل[1]، قام الإمام عليّ بما يفرضه عليه دينه من وُجُوب مُكافحة هذا الفساد في الأرض، ووَضْع حَدٍّ له، وكانت موقعة صفّين التي لم يعد منها بُدٌّ، بين جيش عليّ وجيش مُعاوية، وكانت أكبر معركة داخليّة وأهليّة بين أهل الإسلام، وإرهاصاً للانقسام الكبير للإسلام إلى فرقَتَيْ الشّيعة والسُّنّة، ذلك الانقسام الذي استمرّ إلى يومنا هذا. وأصبح يُطلق - لأوّل مرّة - لقب الشّيعة كتمييز لأتباع عليّ وأنصاره وكُلِّ مَنْ هواه مع

---

(1) ترى تفصيل ذلك في كتاب الغارات للثّقفي، وسائر كُتُب التّاريخ؛ كتاريخ الأُمم والمُلُوك للطّبري، والكامل في التّاريخ لابن الأثير الجزري، وغيرهما.

عليٍ، ويرى من الدِّين وُجُوب نُصرته ومُعاداة أعدائه، وصار النّاس يقولون هذا من شيعة علي، وهذا من شيعة عُثمان.

ـ سرُّ التّشيُّع لعليّ واستمراره وتحوُّله نحلْة ومذهباً استمرَّ إلى اليوم:

ثمَّة سُؤال يطرح نفسه: لماذا لم ينته التَّشيُّع لعليّ برحيله، بل أصبح نحلْة ومذهباً قام واستمرَّ بكُلِّ حماس إلى اليوم؟ ما السِّرُّ الكامن وراء عقيدة المُوالاة هذه التي اعتنقها فريق من المُسلمين بحقِّ عليّ، وبذل في سبيلها الدّماء الغزيرة على مرِّ السّنين؟؟ قد يُجيب البعض بأنَّ سبب ذلك هُو الفضائل والمناقب الكثيرة التي جاءت في أحاديث النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) عنه، وشدَّة قُربه من النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) ممَّا سبق بيانه. ولكنَّ الحقيقة أنَّ هذا وحده غير كاف في تبرير ذلك الأمْر؛ لأنَّ مثل تلك الفضائل جاء مَرْوِيّاً بحقِّ غيره من الصّحابة أيضاً، وإنْ كان بدرجة أقلّ، والقُرب وحده لا يُفسِّر ذلك الأمْر. والحقيقة أنَّ هُناك ـ كما يُفيده الدُّكتُور أحمد محمُود صُبحي [1] ـ قضيَّتان أساسيَّتان تكشفان النّقاب عن سرِّ عُمق هذا التّشيُّع لعليّ دُون غيره من كبار الصّحابة، واستمراره وصيرورته مذهباً باقياً إلى اليوم:

القضيَّة الأُولى: تُلْتَمَس أسباب مُولاة عليّ والتّشيُّع له من السّنين الخمس التي كان فيها خليفةً أو أميراً للمُؤمنين كما يُحبُّ أنْ يُسمِّيه شيعته، ومع أنَّ هذه السّنين الخمس كانت كقطَع اللّيل المُظلم التبس على الكثيرين وجه الحقِّ فيها، ومع أنّه حارب مُسلمين، بل لم يُحارب غير المُسلمين في هذه السّنين، فإنّها هي التي أدَّت إلى مكانته في قُلُوب الشّيعة، فضلاً عن الصُّوفيَّة، أمَّا ما قبل ذلك من سنين؛ فإنّها لا يُمكن أنْ تنهض وحدها كي تجعل من محبّته تشيُّعاً يُميِّز أهله عن سائر فرَق المُسلمين.

أريد أنْ أقول لو أنَّ عليّاً قد اعتزل النّاس بعد مقتل عُثمان ـ وما كان بمُستطيع ـ أو لو أنَّ الله قد قبضه قبل عُثمان لما كان له إلى اليوم شيعة يتّخذون التّشيُّع له مذهباً ونحلْة.

---

(1) وهذا التّحليل مأخوذ ـ باستثناء إضافات وتعديلات بسيطة ـ من كتابه «في علم الكلام: دراسة فلسفيَّة لآراء الفرَق الإسلاميَّة في أُصُول الدِّين، قسم الزّيديَّة» ص 37 ـ 44.

القضيَّة الثّانية: أنَّ ما يُضفَى على الأشخاص من ولاية أو قداسة يكون بقدر ما استمسكوا بمبادئ، وما دافعوا عن قيَم لم يتهاونوا فيها في أحلك الظُّرُوف: من أجلها يموتون أو يُقتَلون.

فما عسى أنْ تكون تلك القيَم التي انفرد عليٌّ زمن خلافته بالدّفاع عنها، لا يثنيه عن ذلك أنَّه يُحارب مُسلمين، ولا يفتُّ في عزيمته أنَّه يُواجه نفراً من كبار الصّحابة، حتَّى إنَّه ليقول: لو كُشف عنِّي الغطاء ما ازددتُ يقيناً، وأنَّه يُحارب على تأويله كما كان يُحارب مع رسول الله على تنزيله؟ يُمكن تلخيص ذلك في الأُمُور التّالية:

1 ـ خلل اقتصادي أراد أنْ يُصلحه:

استهلَّ عليٌّ حُكْمه بخُطبة حدَّد فيها سياسته، وخُلاصتها أنَّه سيحمل النّاس على نهج المُساواة في العطاء، كما كانت على عهد نبيِّهم، وأنَّه إذا كان رجالٌ منهم قد أثْرَوْا واتَّخَذوا العقار، وفجَّروا الأنهار، وركبوا الخُيُول الفارهة، واتَّخَذوا الوصائف الرّقيقة، ثُمَّ منعهم هُو ذلك كُلَّه، فليس من حقِّهم أنْ يدَّعوا أنَّهم حُرموا حقّاً لهم في مُقابل أنَّهم مكَّنوا لهذا الدِّين في الأرض، إنَّهم ـ بذلك ـ يمنُّون على الله بإسلامهم، وأنَّ أجر المُهاجرين والأنصار على مَنْ سبقهم إلى الإسلام إنَّما هُو عند الله يوم القيامة، وأيُّما رجلٌ دخل دين الإسلام فقد استوجب حُقُوق الله وحُدُوده، فالمال مال الله يجب أنْ يُقسم بالسّويَّة.

وحدَّد اليوم التّالي لتوزيع العطاء على جميع المُسلمين بالسّواء؛ لكُلٍّ ثلاثة دنانير، لا فضل لعَرَبي على عجمي، ولا لحُرٍّ على عبد، فكان أنْ تخلَّف نَفَرٌ من كبار المُهاجرين كالزُّبير وطلحة وسعد بن أبي وقَّاص وعبد الله بن عُمر، كما تخلَّف الأُمويُّون المُقيمون بالمدينة، وعلى رأسهم مروان بن الحَكَم، فكان أنْ أقسم عليٌّ ليُقيمنَّهم على المحجَّة البيضاء والطَّريق الواضح[1].

ولم يكتف عليٌّ بالمُساواة في العطاء، لكنَّه عمد إلى استرداد ما أُخذ في عهد عُثمان من مال بغير حقٍّ، مُعلناً أنَّ كُلَّ قطيعة أقطعها عُثمان وكُلَّ مال أعطاه من مال الله فهُو مردود إلى

(1) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: مُجلَّد 2، ج7/ ص 17.

بيت المال، فإنَّ الحقَّ القديم لا يُبطله شيء، ثُمَّ أعاد إلى بيت المال كُلَّ ما أخذه الأُمويُّون من أموالٍ في المدينة، وحينما بلغ عَمرو بن العاص ذلك، ولم يكن قد انضمَّ - بعدُ - إلى مُعاوية، كَتَبَ إليه يقول: ما كنتَ صانعاً فاصنعْ؛ إذ قَشَرَكَ ابنُ أبي طالب كُلَّ مالٍ تملكه، كما تُقْشَرُ من العصا لحاها، وحينما وجد نَفَراً من النّاس قد ساءهم ذلك خَطَبَ فيهم مُشيراً إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ وحذّرهم أنْ تغرّهم الحياة الدُّنيا، وأنّه ليس لأحد على أحد في هذا الفيء أثرة، وأنّه لم يحكم في المال إلاَّ بما كان يحكم به رسول الله، وطلب من كبار الصّحابة أنْ يُعينوه على الحقّ، وأنْ يردُّوه عن الجور، وأنْ يُوقفوه إنْ استأثر لنفسه، أو لبيته في الفيء بشيء منه [1].

ذلك هُو السّبب الخفي والحقيقي لخُرُوج مَنْ خرج على عليّ، ولنُكُوث مَنْ نَكَثَ في بيعته، وإنْ توارى ذلك وراء دعوى مُفتعلة اسمها دم عُثمان.

أراد أنْ يُعيد المُساواة الاقتصاديَّة كما كانت على عهد الرّسول، وقد كان عليه الصّلاة والسّلام يُسوِّي بين النّاس في العطاء، إلاَّ إنْ كانت زيادة لتأليف قُلُوب ضعاف الإيمان، وهي زيادة لا تزيدهم فضلاً، بل تنقصهم قدراً؛ إذ لحقتهم وصمة (المُؤلَّفة قُلُوبهم)، وظلَّت التّسوية في عهد أبي بكر، ثُمَّ منع عُمر الزّيادة للمُؤلَّفة قُلُوبهم، وفاضل في العطاء وُفقاً للسّبق في الدِّين: فالأفضليَّة لأهل بدر، ثُمَّ مَنْ حارب بعد بدر إلى الحُديبية، ومنها إلى حُرُوب الرِّدَّة، هكذا فاضل بين النّاس وُفقاً للسّبق إلى الإسلام، كما راعى قرابة رسول الله، ولم تكن هذه المُفاضلة لتجعل النّاس طبقاتٍ تتمايز بالدّخل أو العطاء، فلقد عارض عُمر طلب فريق من قُرَيْش كان ينزع في الحجاج ليقتسم الأراضي الزّراعيَّة في البلاد المفتوحة قائلاً: ألا إنَّ قُرَيْشاً يُريدون أنْ يتّخذوا مال الله دُون عباده، ألا فأمَّا وابن الخطَّاب حيٌّ فلا، إنِّي قائمٌ دُون شعب الحرَّة، فأخذ حلاقيم قُرَيْش، وحجزها أنْ يتهافتوا في النّار [2].

فلمَّا كان عهد عُثمان، كان أوَّل الوهن أنْ خرج سادة قُرَيْش إلى الأقاليم المفتوحة، فنشأت طبقة قوامها المال، ودعواها السّبق إلى الإسلام وصُحبة الرّسول، وأحاط النّاس بهم

(1) المرجع السّابق: مُجلّد 1: ج1/ ص89، ومُجلّد 2: ج7 / ص173.

(2) الطّبري: تاريخ الأُمم والمُلوك: ج 5 / ص 134.

مفتونين بمواقفهم مع الرّسول، وبما يفيض به هؤلاء الأغنياء من سادة قُرَيْش على الأتباع من هبات وأُعطيات، فالتفَّ أهل الكُوفة حول الزُّبير، وأحاط أهل البَصْرَة بطلحة، وكان النّاس يُسلِّمون عليهما بالإمرة، ويرجون لكُلٍّ الخلافة [1]، وسمح عُثمان بامتلاك الضّياع، وتشييد القُصُور في البُلدان المفتوحة، يقول المسعودي: وفي أيّام عُثمان اقتنى جماعة من الصّحابة الضّياع والدُّور؛ منهم الزُّبير بن العوّام، فقد بنى داره بالبَصْرَة، وكانت تنزلها التُّجّار وأرباب الأموال، وابتنى غيرَها بمصر والكُوفة والإسكندريّة، وبلغ ماله عند وفاته خمسين ألف دينار، وخلَّف ألف فرس، وخُططاً أُخرى في الأمصار، وكانت غلّة طلحة من العراق كُلّ يوم ألف دينار، وكان على مربط دار عبد الرّحمن بن عوف مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وحين مات زيد بن ثابت خلَّف من الذّهب والفضّة ما كان يُكسَر بالفُؤُوس [2]، وكان بنو أُميَّة أكثر قُرَيْش استئثاراً بالضّياع والأموال [3].

2 ـ هرمٌ اجتماعي مقلوب أراد أنْ يعدله:

وكان لابُدَّ أنْ ينعكس ذلك على البنيان الاجتماعي، فقد أصبح في قمّته بنو أُميَّة، وهُم من الطُّلَقاء الذين أسلموا مُتأخِّرين، وفي سفحه الأنصار الذين رضوا أنْ تكون الخلافة من قُرَيْش، ثُمَّ رضوا بأنْ تستأثر قُرَيْش بولاية الأمصار وامتلاك الأرض والمال، ولم يُشاركهم في أسفل السُّلَّم الاقتصادي إلاّ الشُّعُوب المغلوبة من أصحاب الأقطار المفتوحة. لقد عملوا بنصيحة رسول الله أنْ يصبروا؛ إذ سيلقون أثرة؛ حتّى يردوا على الحوض.

هذا هُو البنيان المُختلُّ الذي ورثه عليّ، فأراد أنْ يُقوِّمه، فاستنكر عليه سادة قُرَيْش عزمه على الإصلاح، بينما التفَّ حوله الأنصار والمُستضعفون في الأرض ومَنْ آثروا دينهم على دُنياهم.

---

(1) ابن سعد: الطّبقات الكُبرى: ج 3/ ص 78.

(2) المسعودي: مُرُوج الذّهب: ج 1/ ص 34.

(3) قد تكون في الأرقام مُبالغةٌ، ولكنْ؛ لا يُمكن إنكار ما طرأ على بعض الصّحابة في عهد عُثمان من ثراء فاحش وإقبال على الدُّنيا، وحقيقةً لا تُحرِّم الشّريعة ذلك، إلاّ أنّه كان لذلك كُلّه أثره على مواقفهم السّياسيّة، فقد أصبح المال وسيلةً للاستتباع، وهذا كان وسيلة للتّطلُّع إلى الخلافة.

وما عسى أنْ يكون الأمْر لو استقرَّت هذه الحال، إلاَّ أنْ تكون حـال الدّولـة الإسـلاميَّة كحال سائر الإمبراطوريَّات؛ حيثُ الحُكْم للقُوَّة؛ وحيـثُ يتسلَّط الغـالبون علـى المغلوبـين، ويغتصبون أرضهم، ويستعمرون خُطَطهم.

3 ـ ووَضْع سياسيَ مُعوجٌ أراد أنْ يُقوِّمه:

ولم يكن الوضع السِّياسـي بـأقلّ خَلَـلاً؛ إذْ كـان وُلاة الأمصـار في عـهد عُثمـان ـ وهُـم سبب الفتنة وثورة النّاس ـ من أقاربه، حتَّى أصبحت العَصَبيَّة سـافرة، ومـن ثـمَّ؛ فقـد عمـل عليّ مُنـذُ اليوم الأوَّل لخلافته علـى حَسْـم مسـألة الـوُلاة في غير هـوادة، ولـم يقبـل نُصـح النّاصحين له أنْ يُثبت مُعاوية على الشّام اتِّقاء شرِّه، ولو أنَّه فعـل ذلـك لما أرضـى خُصُومـه، ولَفَقَدَ أنصاره، وخيَّب رجاءهم فيه، كان دينه يمنعه من التّهاون والمُداراة، واتَّخَذَ عليّ وُلاتـه من الذين أُبعـدوا في عـهد سابقيه دُون سبب؛ إلاَّ أنْ يكـون السَّبق إلـى الإسـلام أو القرابـة لرسول الله سبباً يحجب المرء عن الولاية [1]، ولم يكن اختياره لمَنْ اختاره من بني هاشـم عـن عَصَبيَّة، فإنَّما مَنْ أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه على حَدِّ تعبيره، ولـو كـانت عـن عَصَبيَّـة لما عزل ابنَ عمِّه وأقربَ النّاس إليه، في أحلك الأوقات، عن ولاية البَصْرَة حـين عجـز عبـد الله ابن العبَّاس عن أنْ يُقدِّم حسـاباً لما أنفقه مـن بيـت المـال؛ إذ كـان ـ مـع مـا أحـاط بـه مـن فتن وما واجهته من صعاب ـ لا يشغله شيءٌ عن مُراقبة عُمَّاله، يُشـدِّد عليـهم الحسـاب، ويُـهدِّد، ويتوعَّد مَنْ يجد فيه انحرافاً، كما فعل مع زياد بن أبيه، ويعزل مَنْ يخيب ظنُّه فيه كالمُنذر بـن الجارود، ويُثني على مَنْ يسير في النّاس سيرةً قوامها العَدْل.

4 ـ وحيدٌ ـ إلاَّ من نفر قليل معه ـ أمام تيَّار جارف من المطامع الدُّنيويَّة التي أثارتها الفُتُوحات:

ولم يعرف عليّ في مُواجهة الخَلَل الاقتصادي والاجتماعي والسِّياسي شيئاً من التّهاون مهما انفضَّ النّاس من حوله، مُؤثرين دُنيـا مُعاويـة، فحينمـا قـال لـه الأشـتر: إنَّـكَ تـأخذهم بالعَدْل، وتُعمل فيهم الحقَّ، وتُنصف الوضيع من الشّريف.. فَضَجَّتْ طائفةٌ ممَّـنْ معـكَ من

(1) المقريزي: النّزاع والتّخاصم فيما بين بني أُميَّة وبني هاشم: ص 38.

الحقّ؛ إذْ عموا عنه، واغتمّوا من العَدْل؛ إذْ صاروا فيه، ورأوا صنائع مُعاوية عند أهل الغنى والشّرف، فتاقت أنفس النّاس إلى الدُّنيا . . . فإنْ تبذلْ، تُمِلْ إليكَ أعناقَ الرّجال، وتصفُ نصيحتُك لهم، ويُصغِ وُدُّهم، ردَّ عليٌّ بأنّه يخشى أنْ يكون مُقصِّراً في الحقّ. . . وأنَّ النّاس لم يُفارقوه عن جورٍ، ولا لجؤوا؛ إذْ فارقوه إلى عدلٍ، وإنّما التمسوا دُنيا زائلة، ولا يسعه أنْ يؤتي امرأً من الفيء أكثر من حقّه.

وقد يرى البعض في هذا التّشدُّد في التّمسُّك في الحقّ ضعف سياسة؛ إذْ تقتضي هذه المُرُونةَ والمُداهنةَ من أجل تحقيق الهدف، ولستُ بصدد تقييم سياسته، وإنّما تفسير مُوالاة الشّيعة له، وأغلب الظّنّ أنّه لو اتّبع ما نَصَحَهُ النّاصحون فما كان بمُستطيع أنْ يُجاري مُعاوية في استمالة الأتباع بالأموال وولاية الأمصار؛ إذْ استأثر مُعاوية بما تُجبيه غلّة الشّام من أموال يُنفق منها على أنصاره بلا رقيب ولا حساب، ولأصبح الأمْر بينهما مُزايدة على شراء الذِّمم وخراب الضّمائر، ولأصبح عليٌّ آخر الأمْر عن يقينٍ خاسراً دينه ودُنياه وأنصاره وخُصُومه على السّواء.

ولقد خسر عليّ دُنياه؛ لأنَّ الأمْر لم يكن مُجرَّد حرب مُعاوية، وإنّما لأنّه كان يُجابه طَبْعَ البشر وطابع العصر، كان يُريد أنْ يُصلح اعوجاجاً قد استقرَّ من قبله بضع سنين، وكان يُقاوم قاعدةً جارية في الحُرُوب والفُتُوحات: أنْ يستمتع المُنتصر بامتيازات نصره، ممّا اكتسبه بسيفه ورُمحه، وما أوجف عليه بخَيْله ورجله[1]، كان يُريد بقيَم الإسلام أنْ يُعدِّل تيّاراً جارفاً من سُنَن التّاريخ، وأنْ يُقوِّم طبعاً قد استقرَّ كأنّه طبيعة في البشر، بينما كان انتصار مُعاوية يسيراً؛ لأنّه سعى إلى تحقيق ما جرى عليه الغالبون في الفُتُوحات، وما دَرَجَتْ عليه سياسة الإمبراطُوريّات.

خسر عليٌّ دُنيويّاً ـ في الظّاهر ـ؛ لأنّه لم يُساوم على مبادئ الحقّ والعَدْل، ولكنْ؛ في إخفاقه يكمن سرُّ مُوالاته وتقديسه، ولو أنّه قد انتصر على حساب المبادئ لما والوه، ولا قدَّسوه كما أخفق، لأنّه ـ بالنّصر ـ يكون قد جنى ثمرة سياسته، وعندما تُخْفِقُ القيَم

---

(1) ردَّ الزُّبير على عليّ حين طلب منه الأخير أنْ يتنازل عمّا امتلكه في أرض السّواد في العراق: أرض قد أوجفنا عليها بخيلنا ورجلنا.

والمُثُل أمام الأطماع والشّهوات، فإنّها تستقيم بعدها، وتعود إلى القسط عندما يُعَوَّضُ صاحبها ـ بعد مماته ـ قداسةً ومُوالاةً أبديَّةً، ويغدو رمزاً للعدالة والإنسانيَّة، تعويضاً عن النُّكران والعُدوان الذي عاناه في حياته. لقد أراد عليٌّ النّاسَ لِدينِهم، ولكنَّهم خذلوه في حياته، ليعودوا، فيُقدِّروا شأنه، ويُقدِّسوه بعد مماته.

5 ـ « و لم ترزأ [1] من الدُّنيا شيئاً، ولم ترزأ الدُّنيا منكَ شيئاً.... » [2]:

وما كانت دعوته لتُضفي عليه قداسة لو لم يبدأ بنفسه يُحاسبها بأشدّ من مُحاسبته وُلاته أو النّاس، حتّى أصبح قُدوة الصُّوفيَّة، وشيخهم الأوّل في الورع والزُّهد ومُحاسبة النَّفْس، وما يُؤثر عنه في ذلك لا يحصره هذا العرض الوجيز، كان إذا فرغ في ليلةٍ من شُؤُون المُسلمين أطفأ شمعةً ثمنها من بيت المال، ليُوقد أُخرى من ماله الخاصِّ إنْ أراد قضاء مصلحة لنفسه أو لبيته أو لقيام اللَّيل، عنَّف ابنته أشدَّ التَّعنيف؛ إذْ رآها مُتزيِّنةً بقلادةٍ استعارتها مُدَّة العيد من بيت المال، مع أنَّها كانت قد وَعَدَتْ بردِّها بانتهاء العيد، وعنَّف أخاه الكبير والضّرير عقيلاً لَمّا جاءه يلتمس منه زيادة في العطاء من البُرِّ عمّا أخذه سائر النّاس، فأحمى عليٌّ له حديدة، ومسَّه بها، وقال له لَمّا صاح من ألمها: « ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ؟! أَتَئِنُّ مِنَ الأَذَى ولا أَئِنُّ مِنْ لَظَى؟. . . وَاللَّهِ؛ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا! مَا لِعَلِيٍّ ولِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لا تَبْقَى. . » [3]، وأخيراً؛ قُتل عليٌّ، ولم يكن في بيته

---

(1) قال في لسان العَرَب: « ورَزأه ماله ورَزِئَه يَرْزَؤُه فيهما رُزْءاً: أصابَ من ماله شيئاً... ومنه حديث عُمْرانَ والمرأة صاحبة المَزادَتَيْنِ: أتعلمين أنّا ما رَزَأْنا من مالك شيئاً؛ أيّ ما نَقَصْنا، ولا أَخَذْنا. » وعلى هذا؛ يكون معنى الجُملة أنّك لم تُصبْ من مال الدُّنيا، ولم تأخذ مه شيئاً، كما أنَّ الدُّنيا لم تُصبْ منكَ، ولم تُنقِصْ منكَ ومن مبادئكَ وقيَمكَ شيئاً.

(2) العبارة لعمّار بن ياسر في وصف عليّ وتكملتها: ووَهَبَ اللهُ لَكَ حُبَّ المساكين، وجعلكَ ترضى بهم أتباعاً، ويرضون بكَ إماماً.

(3) نهج البلاغة، قسم الخُطَب، خُطبة رَقْم 224، ص 347.

إلاّ بضع دراهم كان قد ادّخرها، ليستأجر بها خادماً لأهله، كما أعلن ابنه الحَسَن عقب الوفاة، مات، ولم يرزأ من الدُّنيا شيئاً، ولم ترزأ الدُّنيا منه شيئاً.

6 ـ وأخيراً؛ استشهاده:

« آية الشّهيد أنْ يبخس حقّه في الحياة، ليُعطى فوق حقّه بعد الممات »

عبّاس محمُود العقّاد

ولا شكّ أنّ الاستشهاد يُضفي على الشّهيد قداسة ما كان ليبلغها دُونه [1]، على أنّ الاستشهاد وحده لا يكفي ليخلع على الشّهيد قداسة، ولكنْ؛ عندما لا تجد قضيّته مَنْ ينتصر لها على نحو ما كان يرجو، ويعلو الباطل زمناً، ولكنّ الحقّ لا يموت، وإنّما يظلّ دُعاته في قُلُوب النّاس أئمّة يعلوها الوقار والقداسة، ولا يبلغ شأوهم أحد، أمّا إنْ انتصرت قضيّته من بعده فقد استوفى الشّهيد بعض حقّه، فلا يبلغ شأو شهيد الحقّ الضّائع، فلقد استشهد من قبلُ حمزة بن عبد المُطّلب وجَعْفَر بن أبي طالب؛ وهُما من أقرباء الرّسول، استشهادا دفاعاً عن الإسلام ضدّ الشِّرْك، فقضيّتهما واضحة، بل أكثر وُضُوحاً ممّا حارب من أجله عليّ، ومع ذلك؛ لم ينالا مثل ما نالَ، لا من الشّيعة فحسب، بل من الصُّوفيّة، وكثير من أهل السُّنَّة، وما ذاك إلاّ لأنّ عليّاً قد استشهد وقد ضيّع الحقّ أهلُه، وفعل الباطل زمناً طويلاً.

ولا تجد مُسلماً طعن في حمزة أو جَعْفَر، أمّا عليٌّ؛ فقد تألّبت أجهزة الباطل عليه، ويقدر غُلُوّ الباطل في الطّعْن عليه [2] بقدر ما كان رَدُّ الفعل من مُوالاة وتقديس.

---

(1) ولذا؛ حرصت الشّيعة الاثنا عشريّة أنْ تجعل الاثنيْ عشر شُهداء، مَنْ لم يمت بالسّيف، فلابُدّ أنّه مات مسموماً بتدبير الخُلفاء الأُمويّين أو العبّاسيّين، مع الشّكّ في صحّة ذلك بالنّسبة لبعضهم كجَعْفَر الصّادق وعليّ الرّضا.

(2) أمَرَ مُعاوية خُطباء المساجد بلَعْن أبي تُراب (وهُو لقب كان يتَبَذّ به عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه) ـ في آخر خُطبة الجُمعة ـ فلمّا نصحه بعض الأتقياء بالكفّ عن ذلك، قال: لا والله، حتّى يشبّ عليها الصّغير، ويشيب عليها الكبير، وظلّت بدعة سيئة استمرّت قُرابة عشرين عاماً، حتّى جاء الخليفة العادل عُمر بن عبد العزيز، فمحاها، وأحلّ محلّها ما هُو قائم إلى الآن: (إنّ الله يأمر بالعَدْل والإحسان وإيتاء ذي القُربى، وينهى عن الفحشاء والمُنكر والبغي، يعظكم، لعلّكم تذكّرون).

7 ـ وتحذير بسوء العاقبة قبل أنْ يموت.. وتحققت النُّذُر كلُّها:

حذَّر عليٌّ المسلمين ما سيلقون بعده إنْ تحكَّم فيهم معاوية، «ستجدون من بعدي أثرةً يتَّخذها الظّالمون فيكم سُنَّةً، سيتَّخذون مَالَ اللّهِ دُوَلاً[1] وَعِبَادَهُ خَوَلاً[2] وَالصَّالحينَ حَرْباً، وَالْفَاسقِينَ حِزْباً»[3] ولكنَّ دُنيا مُعاوية أصمَّت آذانهم عن هـذه النُّذُر، حتَّى إذا تحقَّقت؛ إذ تداول الأُمويُّون المال بعد أنْ حَرَموه أهلَه، واستعبدوا النّاس، وقد أقاموا عليهم وُلاةً طُغاةً قُساةً كزياد وابنه عُبيد الله، وكالحجَّاج، وكانوا يأملون في الأمن والأمان حين وادع الإمام الحَسَنُ مُعاويةَ، ولكنَّهم حُرِموا السّلام بعد أنْ حُرِموا العطاء؛ إذ وجَّهَهُم مُعاوية لحرب الخَوَارج، آثروا الدُّنيا مع مُعاوية على الدِّين مع عليّ، فلمَّا لم ينالوا الدُّنيا وقد خسروا الدِّين لم يملكوا ـ بعد أنْ خذلوا عليّاً ـ إلاَّ أنْ يُقدِّسوه[4].

8 ـ ربَّاني هذه الأُمَّة:

حارب أسلافه من الخُلفاء لنَشْر الإسلام، ولدُخُول النّاس في دين الله، ولكنَّ الفتح الإسلامي لا يتميَّز عن تأسيس الإمبراطُوريَّات إلاَّ بمعنى عميق، وذلك حين يستوي فيه الغالب والمغلوب مادام يجمعهم دين الله، ولكنَّ الذين أرادوا أنْ يكتسبوا من مُشاركتهم في الغزوات والفُتُوحات امتيازات قد ظنُّوا في ذلك حقّاً مُكتسباً لهم بالسّيف.

أريد أنْ أقول: ما حارب عليه الخُلفاء الثّلاثة معنى ظاهر واضح بسيط، أمَّا ما حارب من أجله عليّ ـ وقد حارب المُسلمينَ، بل وصحابة كبار ـ فذلك معنى باطن غامض عميق، لقد حاربوا على تنزيله ـ والتّنزيل ظاهر ـ وحارب هُو على تأويله ـ والتّأويل باطن، لذا؛ انتقد عليّاً الواقفون عند الظّاهر من الظّاهريَّة وبعضُ أهل السّلَف، فضلاً عن الخَوَارج الذين

---

(1) جاء في لسان العَرَب في مادَّة دَوَلَ: «الدُّولة، بالضَمّ، اسم للشّيء الذي يُتَداوَل به بعينه... وفي حديث أشراط السّاعة: إذا كان المَغْنَم دُوَلاً جَمْع دُولة، بالضَمّ، وهُو ما يُتداوَل من المال فيكون لقوم دُون قوم.».

(2) جاء في لسان العَرَب في مُدَّة خَوَلَ: «.. والخَوَل: العبيد والإماءُ وغيرهم من الحاشية، وخَوَلُ الرّجل: حَشَمُه، الواحد خائل.».

(3) انظر نهج البلاغة، ص 452.

(4) ومن ثمَّ؛ طُبع التّشيُّع الاثنَيْ عشري على الخُصُوص بطابع الحُزن والنّدم.

لم يتعدَّ الإيمان تراقيهم، بينما قدّسه أهل الباطن من الصُّوفيَّة والشِّيعيَّة، كما قدَّره مُعتزلة بغداد، وأدقُّ ما وُصف به ما قاله عنه الحَسَن البَصْري "ربّاني" هذه الأُمَّة، بكُلِّ ما يحمله اللّفظ من سرٍّ عميق، ومن غُمُوض وجلال.

استشهد، ولم يُبلِّغ رسالته، أو بلَّغها، ولكنَّه لم يستوف مُراده؛ لأنَّ النّاس لم تُمكِّنه، (لو استوت قدمَيْ هذَيْن لبدّلت أشياء)، فمات شأنه شأن الأنبياء الباصرين، الذين يأتون إلى البلد ليس ببلدهم، وإلى قوم ليس بقومهم، في زمان ليس بزمنهم[1].

وحين يسبق داعيةٌ زمَنَه، ويكون غريباً بين قومه، فإنَّه يُخفق في نَشْر رسالته في حياته، ولكنَّه يبقى على مرِّ الزّمان للنّاس إماماً.

هذه المُحاولة للإجابة عن السُّؤالَيْن: لماذا بقيت المُوالاة على مرِّ الزّمان؟ ولمَ صمدت رغم صنُوف الاضطهاد؟ ولماذا عليّ دُون غيره من صحابة الرّسول، مع أنّه وحده من بين الخُلفاء الرّاشدين مَنْ حارب مُسلمين؟

ـ انقسام سياسي ثالث يُنشئ فرقة الخَوارج:

لمَّا لاحت كفَّة النَّصْر لعليٍّ، في معركة صفّين، خاصَّة بعد استشهاد عمّار بن ياسر الذي كان من أخلص أنصار ومُحبِّي عليّ، وكان يُقاتل تحت رايته، وقد جاوز عُمره التّسعين عاماً، فانفضَّ عند شهادته كثيرٌ من أصحاب مُعاوية عنه، لما عقلوه من حديث رسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) الشّهير الذي قال فيه لعمَّار: "ويحَ عمَّار، تقتله الفئة الباغية، يدعونه إلى النَّار، ويدعوهم إلى الجنَّة"، وهمَّ مُعاوية بالفرار مهزوماً، فأشار عليه عَمرو بن العاص بخدعة رَفْع المصاحف على أسنَّة الرّماح، إشارة إلى المُطالبة بالاحتكام إلى كتاب الله، وهُنا؛ اختلف جماعةٌ من أصحاب عليٍّ: أيقبلون هذا التّحكيم؛ لأنَّهم يُحاربون لإعلاء كلمة الله وقد دُعُوا إليها، أم لا يقبلون؛ لأنَّها خدعة حربيَّة لجأ إليها مُعاوية وصحبه لَمّا أحسوا بالهزيمة؟ وبعد جدالٍ وتردُّدٍ قبل عليٌّ التّحكيم، واختار مُعاويةُ عَمروَ بن العاص

---

(1) العبارة لجُبران خليل جُبران، والمقصود أنّه حمل للنّاس القيَم والمُثُل في زمن انصرف النّاس عنها إلى مطامع الدُّنيا.

ليُمثّله، واختار أصحاب عليٍّ أبا مُوسَى الأشعري؛ إذْ ذاك ظهر قوم من جُند علـيٍّ، أكثرهم من قبيلة تميم، نفروا من أنْ يُحكم أحد في كتاب الله، ورأوا أنَّ التّحكيم خطأ؛ لأنَّ حُكْـم الله في أمره واضح جليّ، والتّحكيم يتضمَّن شكّاً كُلّ فريق مـن المُحاربين أيّـهما المُحقّ، وليـس يصحُّ هذا الشّكُّ؛ لأنّـهم وقَتْلاهـم إنّمـا حـاربوا وهُـم مُؤمنـون ـ بـلا أدنـى شـكٍّ ـ أنّ الحقَّ في جانبـهم. وقـالوا: قـال الله تعـالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ ولـم يقـل حاكموهم! وهُم البُغاة. وهذه المعاني المُختلجة في نُفُوسهم صاغها أحدهم في الجُملة الآتيـة: «لا حُكْم إلاّ للّه»، فَسَرَت الجُملة سيرَ البرق إلى مَنْ يعتنق هذا الرّأي، وتجاوبَتْها الأنحاء، وأصبحت شعار هذه الطّائفة، وقـالوا لعلـيٍّ: إنْ عُـدتَ إلـى قتالـهم، وأقرَرْتَ علـى نفسـكَ بالكُفْر؛ إذْ أجبتَهُم إلى التّحكيم، وإلاّ نابذناكَ، وقاتلناكَ. فطلبوا من عليٍّ أنْ يُقرَّ على نفسـه بالخطأ، بل بالكُفْر، لقبوله التّحكيم، ويرجع عمّا أبرم مـع مُعاويـة مـن شُرُوط، فـإنْ فعـل، عادوا إليه، وقاتلوا معه، فقال لـهم علـيٌّ رضـوان الله عليـه: قـد أبَيْـتُ عليكـم في أوّل الأمْر فَأَبَيْتُم إلاّ إجابتهم إلى ما سألوا، فأجبناهم، وأعطيناهم العُهُود والمواثيـق، وليـس يُسـوّغ لنـا الغدر، فأبوا إلاّ خلعه وإكفاره بـالتّحكيم، وخرجـوا عليـه، فسُمّوا خَوَارج. وكـان موقـف عليٍّ في مُنتهى الدِّقّة، فكيف يرجـع عـن اتّفـاق أمضـاه، والدِّيـن يـأمر بالوفـاء بالعُـهُود، ولـو رجع، لتفرَّق عنه أكثر أصحابه، وكيف يُقرُّ علـى نفسـه بـالكُفْر، ولـم يُشـرك بـالله شـيئاً مُنذُ آمن، فضايقوه بالإكثار من «لا حُكْم إلاّ لله»، فـإذا خطـب في المسـجد قـاطعوه بقولـهم «لا حُكْم إلاّ لله»، فتجاوبت بها أنحاء المسجد، ورآه أحدهـم فتـلا قولـه تعـالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ يُعـرِّض بـه.

وزاد بعض النّـاس ميـلاً إلـى رأيـهم فَشَـلُ الحَكَمَيْـن في حُكْمـها، وخيبـة الآملـين في أنْ يحقـن التّحكيم الدّماء، ويُعيد المُسلمين إلى الوئام، حتّى انضمَّ إليهم بعض القُرّاء ـ من جيش علـيٍّ ـ فلمّا يئست هذه الجماعة من رُجُوع علـيٍّ إلـى رأيـهم، اجتمعـوا في منـزل أحدهـم، وخطـب خطيبهم يقول: «أمّا بعد؛ ما ينبغي قوم يُؤمنون بـالرّحمن، ويُنيبـون إلـى حُكْـم القُـرآن، أنْ تكون هذه الدُّنيا... آثر عندهم من الأمْر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكر، والقـول بـالحقّ، وإنْ مُنَّ وضُرَّ، فإنّه مَنْ يُمَنُّ ويُضَرُّ في هـذه الدُّنيـا فـإنَّ ثوابـه يـوم القيامـة رضـوان الله عَـزَّ وجَـلَّ، والخُلُود في جنّاته، فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظّالم أهلها إلى بعض كُور الجبال، أو

إلى بعض هذه المدائن، مُنكرين لهذه البدَع المُضلَّة»، ثُمَّ خرجوا إلى قرية قريبة من الكُوفة تُسمَّى "حروراء"، وسُمّوا حين ذاك بالحوريَّة نسبة إلى هذه القرية، وبالمحكمة - أيْ الذين يقولون لا حُكْم إلاَّ الله - وهُما اسمان كثيراً ما يُطلقان على الخَوَارج، وأمَّروا عليهم رجلاً اسمه "عبد الله بن وهب الرّاسبي". واسم الخَوَارج جاء من أنَّهم خرجوا على عليٍّ وصحبه، وإنْ كان منهم مَنْ يشتقُّ اسم الخَوَارج من الخُرُوج في سبيل الله، أخْذاً من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾.

وسُمّوا أيضاً "الشّراة" أيْ الذين باعوا أنفسهم لله، أخْذاً من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾. وبعد أنْ استفحل أمره،م وانتشر فسادهم في قَتْل مَنْ لا يرى رأيهم من شيعة عليٍّ بتُهمة الكُفْر، وقد حاورهم عليٌّ، وأرسل إليهم ابن عبَّاس لجدالهم، عسى أنْ يرجعوا عن خطئهم، وتمكَّن ابن عبَّاس من إقناع فريق منهم بالصّواب، فعادوا عن رأيهم، إلاَّ أنَّ الباقين بقوا مُصرِّين على موقفهم وأفعالهم، ولم تُفلح مُحاولات عليٍّ في إقناعهم، وردِّهم عن غيِّهم، عندها لم يجد عليٌّ بُدّاً من وَضْع حَدٍّ لجرائمهم التي يرتكبونها جهلاً باسم الإسلام، فحاربهم في الوقعة الشّهيرة بوقعة النّهروان، وهزمهم، وقتل منهم كثيراً، ولكنَّه لم يُبِدْهم، ولم يُبِدْ فكرتهم، وزادت هذه الهزيمة في إمعان الخَوَارج في كُرْه عليّ، حتَّى دبَّروا له مكيدة قَتْله، فَقَتَلَهُ عبد الرّحمن بن ملجم الخارجي، وكان زوجاً لامرأة قُتل كثير من أفراد أُسرتها في وقعة النّهروان.[1]

- مأساة كربلاء، وأثَرها الكبير في بَلْورة الشّيعة كجماعة دينيَّة مُتمايزة:

بدأ مُعاوية قُبيل وفاته حَمْلَة إجبار للنّاس في مُختلف الأمصار على البَيْعَة لابنه يزيد، رغم ما كان يُعرف عن يزيد من شُرب للخمر، وإهمال للصّلاة، ولعب بالقيان والقُرُود، وغير ذلك من مظاهر اللّغو والفُسْق والبُعْد عن التّقوى والصّلاح، وكان الكثيرون يُبايعون خوفاً وكرهاً؛ إذْ لا حيلة لهم أمام سيف الخليفة وجُنْده، لكنَّ عدداً من كبار الصّحابة لم يُبايع؛ ومنهم عبد الله بن عبَّاس، والحُسَين بن عليّ، وعبد الله بن الزُّبير، وعبد الله بن عُمر،

---

(1) مراجع هذه الفقرة: كتاب "مقالات الإسلاميّين واختلاف المُصلّين" لأبي الحَسَن الأشعري: ج1/ ص 4، و"فجر الإسلام" لأحمد أمين، ص 256 - 258.

وقد أوصى مُعاوية ـ قبل وفاته ـ ابنه يزيداً، أنْ لا يهدأ له بال، ولا يرقأ له جفن حتَّى يأخذ البَيْعَة من هؤلاء الأربع، مهما كان الثّمن، وهذا ما فعله يزيد؛ إذْ إنَّه ـ فور وفاة أبيه مُعاوية سنة 60 للهجرة، واستلامه للخلافة مكانه ـ أرسل إلى عامل أبيه على المدينة "الوليد بن عُتْبة بن أبي سُفيان" يطلب منه إحضار الحُسَين إليه، وأَخْذ البَيْعَة منه . . . . ولا أريد ـ هُنا ـ أنْ أسرد القصَّة كاملة، ولكنْ؛ في الوقت نفسه، لابُدَّ من توضيح الخلفيَّات وبعض المُلابسات الهامَّة والمُجريات الأساسيَّة؛ لا سيما بعض شعارات وخُطَب الحُسَين في خُرُوجه، وقبل وُقُوع المأساة في تلك الحادثة الخطيرة أيضاً في تاريخ الإسلام السِّياسي، والتي صبغت الشِّيعة بصبغتها إلى الأبد، لكي تتَّضح أسباب وبواعث نُمُوِّ وترسُّخ الفكْر الشِّيعي، وتمايز الشِّيعة كفرقة مُتبلورة قائمة، فأقول:

« إنَّ الحُسَين أبى البَيْعَة في قصر أمير المدينة، وتملَّص بقوله إنَّ البَيْعَة يجب أنْ تكون في المسجد أمام عامَّة المُسلمين، وفي اللّيلة نَفْسها، رَحَلَ مُستخفياً إلى مكَّة المُكرَّمة، يُرافقه أهله وأبناؤه وإخوانه والبقيَّة الباقية من عتْرة الرّسول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وآل عليّ، ومَنْ يلوذ بهم.

ولمَّا علم يزيد بخُرُوج الحُسَين إلى مكَّة، وعدم بيعته، أمر بالبحث عنه، لإجباره على البَيْعَة بأيِّ ثمن، وفي هذه الأثناء؛ كانت الرّسائل تصل الحُسَين من العراق، خاصَّة من الكُوفة إلى الإمام الحُسَين، تدعوه للقُدُوم، وتعدُه بالنُّصرة، والقيام معه... ولمَّا شعر الحُسَين أنَّ عُمَّال يزيد لن يكفُّوا عنه حتَّى يُبايع، أو يقتلوه، وأنَّهم قد يستحلُّون بقَتْله حُرمة بيت الله الحرام، ولم يرد أنْ تُسْتَحلُّ به حُرمة بيت الله، كما رأى في الرّسائل الكثيرة التي أتته من الكُوفة قيامٌ للحُجَّة عليه بوُجُوب المسير إليهم، والنُّهُوض بهم ومعهم في واجب الإصلاح، والتَّصدِّي للظُّلم والانحراف، ونُصرة الحقِّ، وإحياء الحُكُومة الإسلاميَّة العادلة، وما يقتضيه واجب الأَمْر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكر باليد واللّسان، قرَّر الرّحيل بأهله إلى الكُوفة التي كانت عاصمة أبيه في العراق، وفيها شيعته وأنصاره، وأرسل أمامه ابن عمِّه مُسلم بن عقيل، يأخذ له البَيْعَة من أهل الكُوفة، ويُخبره بوَضْعها، ووصلت أخبار خُرُوج الحُسَين إلى يزيد، فأرسل إلى واليه على البَصْرَة عُبيد الله بن زياد يأمره بالإسراع في المسير إلى الكُوفة، للتَّصدِّي

للحُسَين، وأخْذ البَيْعَة منه بالقُوَّة، وعدم إعطائه أيّ خيار آخر سوى البَيْعَة، وتتالى الأحداث، ويقبض عُبيد الله بن زياد على مُسلم بن عقيل، ويعدمه، ثُمَّ يعترض جيش عُبيد الله بن زياد بقيادة عُمَر بن سعد جماعة الحُسَين في منطقة بصحراء العراق تُسمَّى كربلاء، ويُصرُّ الحُسَين على موقفه برَفْض البَيْعَة، ولو كلَّفه حياته، لسان حاله يقول: إنْ لم يستقم دين مُحمَّد إلاَّ بقَتْلي فيا سُيُوف خُذيني، ويعرض على "عُمر بن سعد" ثلاث حُلُول: إمَّا أنْ يتركوه يرجع من حيثُ أتى، أو يذهب لأيِّ ثَغْر من ثُغُور المُسلمين، فيكون رجلاً من أهله له ما لهم، وعليه ما عليهم، أو يتركوه يذهب بنَفْسه إلى الشّام، ليرى الرّأي فيما بينه وبين يزيد، وقيل إنَّه لم يقترح عليهم إلاَّ أنْ يتركوه يذهب في بلاد الله العريضة، حتَّى ينظر ما يصير إليه أمر النّاس. فأرسل عُمر بن سعد لعُبيد الله بن زياد يُخبره بهذه الاقتراحات، فما كان من عُبيد الله بن زياد إلاَّ أنْ أجاب قائلاً: أمَّا بعد؛ فإنِّي لم أبعثكَ إلى حُسَين، لتكفَّ عنه، ولا لتطاولُه، ولا لتمنِّيه السّلامة والبقاء، ولا لتقعد له عندي شافعاً، انظرْ، فإنْ نزل حُسَين وأصحابه على الحُكْم، واستسلموا، فابعث بهم إلي سلماً، وإنْ أبوا، فازحفْ إليهم حتَّى تقتلهم، وتُمثِّل بهم، فإنَّهم لذلك مُستحقُّون، فإنْ قُتل حُسَين، فأوطئ الخيلَ صَدْرَهُ وظهره، فإنَّه عاق مشاق، قاطع ظلوم، وليس دهري في هذا أنْ يضرَّ بعد الموت شيئاً، ولكنْ؛ على قول: لو قد قتلْتُهُ فعلتُ هذا به، إنْ أنتَ مضيتَ لأمرنا فيه، جزيناكَ جزاء السّامع المُطيع، وإنْ أبيتَ، فاعتزلْ عَمَلَنا وجُنْدَنا، وخَلِّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر، فإنا قد أمرناه بأمرنا، والسّلام»[1].

وينقل الطّبري في تاريخه ـ أيضاً ـ أنَّ عُبيد الله بن زياد أمر الحرَّ بن يزيد الرّياحي ـ أيضاً ـ أنْ يتوجَّه بألف من جُنُوده من القادسيَّة، فيستقبل حُسَيْناً، قال: وإنَّه لم يزل الحرُّ بن يزيد الرّياحي مُوافقاً حُسَيناً حتَّى حضرت الصّلاة صلاة الظُّهر، فأمر الحُسَين الحجَّاج بن مسروق الجعفي أنْ يُؤذِّن، فَأَذَّنَ، فلمَّا حضرت الإقامة، خرج الحُسَين في إزار ورداء ونعلَيْن، فحمد الله، وأثنى عليه، ثُمَّ قال: «أيُّها النّاس؛ إنَّها معذرة إلى الله عزَّ وجلَّ إليكم، إنِّي لم آتكم حتَّى أتتني كُتُبكم، وقدمتْ عليَّ رُسُلُكم أنْ أقدم علينا، فإنَّه ليس لنا إمام، لعلَّ الله يجمعنا

(1) مقتل الحُسَين لأبي مخنف، ص 100 ـ 103.

بكَ على الهُدى، فإنْ كُنتُم على ذلك، فقد جئتُكُم، فإنْ تُعطوني ما أطمئنُّ إليه من عُهُودكم ومواثيقكم أقدم مصرْكُم، وإنْ لم تفعلوا، وكُنتُم لمقدمي كارهين، انصرفتُ عنكم إلى المكان الذي أقبلتُ منه إليكم». قال: فسكتوا عنه، وقالوا للمُؤذّن: أقمْ، فأقام الصّلاة، فقال الحُسَين عليه السّلام للحرِّ: أ تُريد أنْ تُصلّي بأصحابك؟ قال: لا، بل تُصلّي أنتَ، ونُصلّي بصلاتكَ. قال: فَصَلَّى بهم الحُسَين، ثُمَّ إنَّه دخل، واجتمع إليه أصحابه، وانصرف الحرُّ إلى مكانه الذي كان به، فدخل خيمة قد ضُربت له، فاجتمع إليه جماعة من أصحابه، وعاد أصحابه إلى صفّهم الذي كانوا فيه، فأعادوه، ثُمَّ أخذ كُلُّ رجل منهم بعنان دابّته، وجلس في ظلّها، فلمَّا كان وقت العصر؛ أمر الحُسَين أنْ يتهيَّؤوا للرّحيل، ثُمَّ إنَّه خرج، فأمر مُناديه، فنادى بالعصر، وأقام، فاستقدم الحُسَين، فَصَلَّى بالقوم، ثُمَّ سلَّم، وانصرف إلى القوم بوجهه، فحمد الله، وأثنى عليه، ثُمَّ قال: «أمَّا بعد؛ أيُّها النّاس، فإنَّكم إنْ تتَّقوا، وتعرفوا الحقَّ لأهله يكنْ أرضى لله، ونحنُ أهل البيت أولى بولاية هذا الأمْر عليكم من هؤلاء المُدَّعين ما ليس لهم، والسّائرين فيكم بالجور والعُدوان، وإنْ أنتم كرهتُمُونا، وجهلتُم حقّنا، وكان رأيكم غير ما أتتني كُتُبُكُم، وقدمتْ به عليَّ رُسُلُكُم، انصرفتُ عنكم»، فقال له الحرُّ بن يزيد: إنَّا ـ والله ـ ما ندري ما هذه الكُتُبُ التي تذكر! فقال الحُسَين: يا عُقبة بن سمعان؛ أخرج الخرجَيْن اللّذَيْن فيهما كُتُبُهُم إليَّ، فأخرج خرجَيْن مملوءَيْن صُحُفاً، فَنَشَرَهَا بين أيديهم! فقال الحرُّ: فإنَّا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليكَ، وقد أُمرنا إذا نحنُ لقيناكَ ألاَّ نُفارقكَ حتَّى نقدمكَ على عُبيد الله بن زياد! فقال له الحُسَين: «الموت أدنى إليكَ من ذلك».

ويروي الطّبري عن أبي مخنف، عن عُقبة بن أبي العيزار، أنَّ الحُسَين خطب أصحابه وأصحاب الحرِّ بالبيضة، فحمد الله، وأثنى عليه، ثُمَّ قال: «أيُّها النّاس؛ إنَّ رسول الله قال: من رأى سُلطاناً جائراً مُستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مُخالفاً لسُنَّة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعُدوان فلم يُغير عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أنْ يُدخله مُدخله، ألا وإنَّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشّيطان، وتَركوا طاعة الرّحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحُدُود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرَّموا حلاله، وأنا أحقُّ من غيري، قد

أتتني كُتُبُكُم، وقدمتْ عليَّ رُسُلُكُم بِبَيْعَتِكُم أنّكم لا تُسلِّموني، ولا تخذلوني، فإنْ تَمَمْتُم عليَّ بَيْعَتَكم، تُصيبوا رشدكم، فأنا الحُسَين بن عليّ وابن فاطمة بنت رسول الله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيَّ أُسوة، وإنْ لم تفعلوا، ونَقَضْتُم عهدكم، وخلعتُم بَيْعَتي من أعناقكم، فلعمري؛ ما هي لكم بنُكر، لقد فَعَلْتُمُوها بأبي وأخي وابن عمّي مُسلم، والمغرور مَنْ اغترَّ بكم، فحظُّكم أخطأتُم، ونصيبكم ضيَّعتُم، ومَنْ نَكَثَ فإنّما ينكث على نفسه، وسيُغني اللهُ عنكم، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وقال عُقبة بن أبي العيزار: قام حُسَين ـ عليه السّلام ـ بذي حسم، فحمد الله، وأثنى عليه، ثُمَّ قال: «إنّه قد نزل من الأمْر ما قد ترون، وإنَّ الدُّنيا قد تغيَّرتْ، وتنكَّرتْ، وأدبر معروفها، واستمرَّت جدّاً، فلم يبقَ منها إلاَّ صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أنَّ الحقَّ لا يُعمل به، وأنَّ الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المُؤمن في لقاء الله مُحقّاً، فإنّي لا أرى الموت إلاَّ شهادة، ولا الحياة مع الظّالمين إلاَّ برماً». قال: فقام زُهير بن القين البجلي، فقال لأصحابه: تكلَّمون أم أتكلَّم؟ قالوا: لا، بل تكلَّم، فحمد الله، فأثنى عليه، ثُمَّ قال: قد سمعنا ـ هداكَ الله يا بنَ رسول الله ـ مقالتكَ، والله؛ لو كانت الدُّنيا لنا باقية، وكُنَّا فيها مُخلَّدين إلاَّ أنَّ فراقها في نَصْرِكَ ومُواساتكَ لآثرنا الخُرُوج معكَ على الإقامة فيها، قال: فدعا له الحُسَين، ثُمَّ قال له خيراً، وأقبل الحرُّ يُسايره وهُو يقول له: يا حُسَين؛ إنّي أُذكِّركَ الله في نفسكَ، فإنّي أشهد لئن قاتلتَ لتُقتلنَّ، ولئن قُوتلتَ لتهلكنَّ فيما أرى، فقال له الحُسَين: «أ فبالموت تُخوِّفني؟ وهل يعدو بكم الخَطْبُ أنْ تقتلوني؟! ما أدري ما أقول لكَ، ولكنْ؛ أقول كما قال أخو الأوس لابن عمِّه ولقيه وهُو يُريد نُصرة رسول الله، فقال له: أين تذهب فإنَّك مقتول؟! فقال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى	إذا ما نوى حقّاً وجاهد مُسلما
وآسى الرِّجال الصَّالحين بنفسه	وفارق مثبوراً يغش ويرغما»[1]

وباختصار؛ وقعت الواقعة الأليمة، وبدأ القوم الأشرار برَمْي الحُسَين وأهله بأوَّل سهم، حينئذ؛ قام الحُسَين ومَنْ معه من فتية بني هاشم من آل عليٍّ يذبُّون عن الحُسَين، ووقع

(1) تاريخ الأُمم والمُلوك للطّبري: ج4/ أحداث سنة 61، ص 301 ـ 305.

النّزال، وانتهت المعركة غير المتكافئة باستشهاد الحُسَين، واثنَيْن وسبعين من عترة النّبي، وأهل بيته (صلّى الله عليه وآله وسلّم) صَرْعى وعَطْشى - بعد أنْ مَنَعَ عنهم جيشُ يزيد الماءَ - مُضرَّجين بدمائهم على أرض كربلاء، وقُطعت رُؤُوس الرّجال منهم، وحُملت على الحراب، وسيق مَنْ بقي من النّساء والولْدان من آل الرّسول - وفيهم زينب بنت عليّ - أسْرى مُهانين إلى قصر عُبيد الله بن زياد، ومن ثمَّ؛ إلى يزيد في الشّام، إلى آخر الأحداث المسطورة في كُتُب التّاريخ بالتّفصيل.

كان مصرع الحُسَين بن عليّ ﷺ في كربلاء هُو الحَدَث التّاريخي الكبير، الذي أدَّى إلى بَلْورة جماعة الشّيعة، وظُهُورها كفرقة مُتميِّزة ذات مبادئ سياسيَّة وصبْغَة دينيَّة خاصَّة، فكان لمأساة كربلاء أثرها الأكيد في نُمُوِّ رُوح التّعاطف والتّشيُّع لآل البيت، وازدياد أنصارها، حتّى إنّه يُمكن القول إنَّ الحركة الشّيعيَّة الفعْليَّة بدأ ظُهُورها في العاشر من مُحرَّم الحرام سنة 60 للهجرة. فقد ظهرت جماعة الشّيعة بعد مقتل الحُسَين كجماعة مُنظَّمة، تربطها روابط سياسيَّة وآراء دينيَّة، لها اجتماعاتها وزُعماؤها، ثُمَّ لها قُوَّاتها العسكريَّة، وكانت جماعة "التّوَّابين"[1] أوّل مظهر لذلك كُلّه، فيقول المسعودي[2]:

« وفي سنة خمس وستّين؛ تحرّكت الشّيعة بالكُوفة، وتلاقت بالتّلاوم والتّنادم حين قُتل الحُسَين، فلم يُغيثوه، ورأوا أنّهم قد أخطؤوا خطأً كبيراً بدُعاء الحُسَين إيَّاهم، ولم يُجيبوه، ولمقتله إلى جانبهم، فلم ينصروه، ورأوا أنّهم لا يغسل عنهم ذلك الجُرم إلاَّ قَتْل مَنْ قَتَلَهُ، أو القَتْل فيه، ففزعوا إلى خمسة نَفَر منهم: سُليمان بن صرد الخُزاعي، والمسيب بن نجبة الفزاري، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، وعبد الله بن وال التّميمي، ورفاعة بن شدَّاد البجلي، فعسكروا بالنّخيلة ».

ويصف الطّبري[3] تبلور الشّيعة بعد مصرع الحُسَين في جماعة التّوّابين فيقول: « فلم يزل القوم في جَمْع آلة الحرب والاستعدادات للقتال ودعاء النّاس في السِّرّ من الشّيعة وغيرها

(1) كان التّوّابون يستشهدون دائماً بقوله سُبحانه وتعالى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

(2) المسعودي: مُرُوج الذّهب ج 3/ ص 100 - 101.

(3) الطّبري: تاريخ الأُمم والمُلُوك: ج 7/ ص 46.

إلى الطّلب بدم الحُسَين ، فكان يُجيبهم القوم بعد القوم ، والثَّغر بعد الثَّغر ، فلم يزالوا كذلك حتّى مات يزيد بن مُعاوية . » .

كما بدأت عمليَّة تنظيميَّة لجماعات الشِّيعة في بعض المُدُن ، فقد كَتَبَ سُليمان بن صرد زعيم التوَّابين إلى شيعة المدائن ، وإلى شيعة البَصْرَة ، يحثُّهم جميعاً على الانضمام إلى حركة التوَّابين ، فاستجابوا إلى دعوته[1] .

وبدأت جماعة الشِّيعة تأخذ طابعاً دينياً ، حتَّى غلب الجانب الدِّيني في التَّشيُّع الجانب السِّياسي ، وبينما كانت الشِّيعة بعد وفاة الرّسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) لا تتعدَّى طائفة قليلة من الصَّحابة يرون عليَّ بن أبي طالب ـ لصفات فيه ـ أحقَّ النَّاس بالإمامة ، وبينما ناصر كثير من المُسلمين عليّاً حينما آل إليه الأمْر بعد مقتل عُثمان ؛ لأنَّه إمام المُسلمين ، أو لأسباب أُخرى ، فإنَّ دماء الحُسَين التي أُرقيت ـ وهي دماء سبْط الرّسول وحفيده ـ قد ركَّزت الانتباه إلى مدى ما لاقاه آل بيت النَّبي من اضطهاد وقَتْل ، ومن ثمَّ ؛ أصبح التَّشيُّع مقروناً بأحقيَّة آل البيت[2] .

ـ علَّة إصرار الحُسَين على رَفْض مَنْح الشَّرْعيَّة لخلافة يزيد بن مُعاوية ، وخُرُوجه لإصلاح ما فسدَ من نظام الحُكْم في أُمَّة الإسلام:

كان الحُسَين بن عليّ (عليه السلام) يرى مدى التّغيُّر الكبير الذي طرأ على نظام الحُكْم ، مُنذُ أنْ استقرَّ لمُعاوية الأمْر ، وكيف تحوَّلت الخلافة الرّاشدة إلى مُلْكٍ عضُوض[3] (أيْ قاسٍ وجائر) انعكس في المظاهر التَّالية :

---

(1) البلاذري : أنساب الأشراف : ج 5 / ص 206 .

(2) الدكتُور أحمد محمُود صُبحي : نَظَرِيَّة الإمامة : ص48 .

(3) طبقاً للحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره بسندهم عن حُذَيْفَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ : « تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ خلافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضاً ، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ خلافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ، ثُمَّ سَكَتَ » ، وكذلك الحديث الذي رواه التّرمذي (وأحمد في مُسنده وأبو داوود في سُننه وغيرهم) بسندهم عن سَفِينَةُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله : « الْخِلاَفَةُ فِي أُمَّتِي ثَلاَثُونَ سَنَةً ، ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ » ثُمَّ قَالَ لِي سَفِينَةُ : امْسِكْ عَلَيْكَ خِلاَفَةَ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ قَالَ : وَخِلاَفَةَ عُمَرَ وَخِلاَفَةَ عُثمان ، ثُمَّ قَالَ لِي : امسكْ خِلاَفَةَ عَلِيٍّ قال : فَوَجَدْنَاهَا ثَلاَثِينَ سَنَةً . قَالَ سَعِيدٌ : فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْخِلاَفَةَ فِيهِمْ ، قَالَ : كَذَبَ بَنو الزَّرْقَا ، بَلْ هُمْ مُلُوكٌ مَنْ شَرِّ المُلُوك .

(1) لم يعد الخليفة قريباً من عامَّة النّاس ومُستضعفيهم، بل صار بعيداً عنـهم، يسكن القُصُور، ويتَّخذ الحُجَّاب، ويبذخ في صَرْف الأموال على المظاهر والبطانة والأتباع . .

(2) لـم يعـد الأساس في توليـة المناصب الأمانـة والكفـاءة، بغَضّ النَّظَر عن قبيلة ونَسَب الشّخص، بل صار الحُكْم أُسَرِيّاً قبائليّاً خاصّاً بالخليفة وعشيرته وأُسرته من بني أُميَّة ومَنْ والاهم.

(3) ولم يعد هُناك تقبُّل لحُرِّيَّة وُجُود المُعارضين أو المُخالفين السِّياسيِّين ولو كانوا غير مُحاربين، بل بدأت الجواسيس والاعتقالات على الظَّنّ، واستُبيحت أعراض وأموال ودماء المُعارضين، بل بدأت الإعدامات السِّياسيَّة لأوَّل مرَّة في تاريخ الإسلام، كما حَدَثَ لحجر بن عدي الكندي، وعَمرو بن الحمق الخُزاعي وأصحابهما من شيعة عليّ بن أبي طالب الذين كانوا إذا سمعوا المُغيرة بن شُعبة وغيره من أصحاب مُعاوية وهُم يلعنون عليّاً على المنبر في الكُوفة يقومون فيردُّون اللَّعْنَ عليهم، ويتكلَّمون في ذلك، فلمَّا قدم زياد بن أبيه الكُوفة خطب خُطبة له مشهورة لم يحمد الله فيها، ولم يُصلِّ على مُحمَّد، وأرعد فيها، وأبرق، وتوعَّد، وتهدَّد. . ثُمَّ بلغه أنَّ حجر بن عدي وأصحابه يجتمعون فيتكلَّمون، ويُدبِّرون عليه وعلى مُعاوية، ويذكرون مُساويهما، ويُحرِّضون النّاس، فوجَّه صاحب شُرطه إليهم، فأخذ جماعة منهم فقُتلوا، وهرب عَمرو بن الحمق الخُزاعي إلى الموصل وعدَّة معه، وأخذ زياد بن أبيه حجر بن عدي الكندي وثلاثة عشر رجلاً من أصحابه، فأشخصهم إلى مُعاوية، فَكَتَبَ فيهم أنَّهم خالفوا الجماعة في لَعْن أبي تُراب، وزروا على الوُلاة، فخرجوا بذلك من الطّاعة! فلمَّا صاروا بمرج عذراء من دمشق على أميال، أمر مُعاوية بإيقافهم هُناك، ثُمَّ وجَّه إليه مَنْ يضرب أعناقهم، وكانوا أوَّل جماعة يُقتلون صَبْراً (أيْ إعداماً) في الإسلام.

(4) ولم يعد بيت المال ملك الأُمَّة، بل أصبح ملكاً للخليفة، يتصرَّف به كيفما شاء، ويرشي منه مَنْ يشاء، ليُقرِّبه، ويحرم مَنْ يشاء مِمَّنْ يُخالفه.

(5) وحلَّ التّعصُّب للجنس العَرَبي مكان المُساواة بين العَرَب والموالي من الأعاجم مِمَّنْ دخل في الإسلام، وتمتَّع بالمُساواة الكاملة مع سائر المُسلمين زمن عليّ بن أبي طالب. . .

(6) والأهمُّ من ذلك والأخطر منه رُؤية الحُسَين لابتداع الطّريقة الوراثيَّة الكسْرويَّة والقَيْصَريَّة في الحُكْم لأوَّل مرَّة في الإسلام، فالملِك يـهلك، ليخلفه ابنه، رغماً عن الأُمَّة، سواء رضيت بذلك أم لم ترضَ، فكان هذا أوَّل إلغاء لمبدأ الشُّورى والبَيْعَة بالرِّضى والاختيار، فإمرة يزيد لم تكن برضا الأُمَّة الحقيقي واختيارها، بل مهَّدها له أباه بالمال والخداع والقُوَّة والقَهْر.

(7) أضفْ إلى ذلك ما كان يراه الحُسَين من عَدَم أهليَّة مثل يزيد لهذا المنصب الدِّيني الخطير، وأنَّه لو تولاَّها أمثال يزيد لما بقي لشريعة جدِّه المُصطفى (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) من هيبة ولا أثر في النُّفُوس، ولانمحت قوانينها العادلة من صحيفة الشّرائع الإلهيَّة تدريجيَّاً، لذلك؛ رفض الحُسَين رَفْضَاً قاطعاً أنْ يُبايع شخصاً مثل يزيد بخلافة رسول الله في قيادة أُمَّة الإسلام، وكان يعلم أنَّ هذا الرّفض قد يُكلِّفه رأسه، وكان مُستعدّاً لهذا البَذْل في سبيل العقيدة والدِّين.

وثمَّة نُقطة يجدر التّنبيه إليها كتفسير لشدَّة إصرار الإمام الحُسَين على رَفْض البَيْعَة ليزيد ورَفْض حُكُومته، وهي أنَّه في ظلٍّ دولة يقوم نظامها السِّياسي على أُسُس دينيَّة لا تُعَدُّ البَيْعَة أو انتخاب الحاكم مُجرَّد عَمَلٍ سياسي، بل عملاً من صميم الدِّين، ففي إقدام الحُسَين على بَيْعة يزيد انحراف عن أصل من أُصُول الدِّين من حيثُ إنَّ السِّياسة الدِّينيَّة للمُسلمين لا ترى في ولاية العهد ووراثة الملك إلاَّ بدعة هرقليَّة دخيلة على الإسلام، ومن حيثُ إنَّ تأييد تبدُّل الخلافة الرّاشدة للمُلك العضوض، وما جرَّه ذلك من المظالم والجور والانحرافات التي أشرنا لبعضها أعلاه، وإعطاء الشَّرْعيَّة لها بالبَيْعَة يُعَدُّ خيانة لتعاليم الإسلام، ومن حيثُ إنَّ اختيار شخص يزيد مع ما عُرِف عنه من سُوء السِّيرة ومَيْله إلى اللّهو وشُرب الخمر ومُنادمة القُرُود، ليتولَّى منصب الخلافة عن رسول الله أكبر رزء يحلُّ بالنّظام السِّياسي للإسلام يتحمَّل وزره كُلُّ مَنْ شارك فيه، ورضي عنه، فما بالك إذا كان المقدم على ذلك هُو ابن بنت رسول الله؟!

كان خُرُوج الحُسَين - إذنْ - أمراً يتَّصل بالدّعوة والعقيدة أكثر ممَّا يتَّصل بالسِّياسة والحرب، ولقد أراد الحُسَين أنْ يُصلِح كثيراً من مسائل العقيدة، بعد أنْ اختلَّت الموازين أثناء خلافة مُعاوية، ذلك أنَّ مُعاوية لم يكن يدعم مُلْكَهُ بالقُوَّة فحسب، ولكنْ؛ بأيديُولُوجيَّة

تمسُّ العقيدة في الصّميم، فلقد كان يُعلن في النّاس أنَّ الخلافة بينه وبين عليٍّ قد احتكم فيها إلى الله، وقضى اللهُ له على عليٍّ![1] وكذلك؛ حين أراد أنْ يطلب البَيْعَة لابنه يزيد من أهل الحجاز أعلن أنَّ اختيار يزيد للخلافة كان قضاءً للقضاء، وليس للعبادة خيرةٌ في أمرهم، وهكذا؛ كاد يستقرُّ في أذهان المُسلمين أنَّ كُلَّ ما يعمل به الخليفة حتّى لو كانت طاعة الله في خلافه، قضاءٌ من الله قد قُدِّرَ على العباد!

ولقد كان مُعاوية يُعلن ـ أثناء ولايته في عهد عُثمان ـ أنَّ المال مال الله، لا مال المُسلمين، لِيَحتَجِنَ هذه الأموال، ويحتجزها لنفسه، كما كان يستند في إقامة مُلْكه إلى أيديُولُوجيَّة مُستمَدَّة من نَظَريَّة التّفويض الإلهي، والحقّ الدِّينيّ للمُلُوك، وكان في ذلك تشويهٌ ـ أيُّ تشويه ـ للسّياسة الشَّرْعيَّة للمُسلمين من حيثُ أراد أنْ يستغلَّ الدِّين من أجل المُلك، ويُخضع العقائد لأهواء الحاكم، فكان في خُرُوج الحُسَين بما يحمله من صفة دينيَّة بوصفه سِبْط الرّسول، إفسادٌ لكُلِّ الخُطط الأيديُولُوجيَّة التي أرسى مُعاوية قواعدها طوال أربعين سنة أقامها والياً، ثُمَّ خليفةً. ولقد اختلف المُسلمون في الحُكْم على حُرُوب عليٍّ، وموقف مُقاتليه، وحاول كثيرٌ من جُمهُور المُسلمين مُوالاة الفريقَيْن المُتحاربَيْن معاً، ولكنْ؛ عند خُرُوج الحَسَن ومقتله، أصبحت هذه المُحاولة التّوفيقيَّة مُتعذِّرة تماماً، وكان في استشهاد الحُسَين ما أدان الدّولة الأُمويَّة، وأصبح الأُمويُّون في نَظَر المُسلمين طُغاةً مُستبدِّين؛ لانتهاكهم قوانين الإسلام وشرائعه، وامتهانهم لمُثُله العليا[2].

وعن نتائج هذا الخُرُوج وآثار استشهاده فيه يقول الدُّكتُور أحمد محمُود صُبحي:
« ومن النّاحية السِّياسيَّة، وإذا كانت بواعث الحُسَين لم يُفصح عنها حين غادر المدينة، وقد ألحَّ عليه كبار أهل الحجاز في عدم خُرُوجه، وحين أصرَّ على الخُرُوج إلى اليمن، رغم أنَّ فيها شيعته، وحين رفض أنْ يخرج تاركاً أهله، فإنَّ هذه البواعث قد أفصحت كُلُّها عن نفسها بعد أنْ تمَّت المأساة. فكأنَّ الحُسَين قد اختار منيَّته ـ التي شعر أنَّه لابُدَّ واقعة ـ التي تدين الأُمويِّين، ولا تجعل لهم أدنى حُجَّة من الدِّين الذي يُفْتَرض عليهم أنْ يُراعوا أحكامه،

---

(1) ابن قُتَيْبَة: الإمامة والسِّياسة: 1/ 297.

(2) الدُّكتُور أحمد محمُود صُبحي: نَظَريَّة الإمامة لدى الشِّيعة الاثنَيْ عشريَّة: ص333 ـ 355 (القاهرة: دار المعارف بمصر، 1969م.)، نقلاً عن الدُّكتُور حَسَن إبراهيم: تاريخ الإسلام السِّياسي: 1/ 422.

فضلاً عن أنْ يكونوا حُماته بوصفهم خُلَفاء، وكأنَّ الحُسَين قد أراد أنْ يحسم بخُرُوجه ذلك الموقف المائع الذي استُغِلَّ نتجة مقتل عُثمان، فيتَّخذه حُجَّة للمُطالبة بالخلافة، ثُمَّ زاد الموقف تعقيداً حين اضطرَّ الحَسَن لمُبايعته مُكرهاً، فسلَّم أغلب المُسلمين بشَرْعيَّة خلافة مُعاوية، حتَّى كانت دماء الحُسَين، فحسمت ذلك الموقف المائع، وأصبح جُمهُور المُسلمين الذي سلَّم بخلافة مُعاوية بعد عام الجماعة في صفِّ المُعارضين لحُكم يزيد والأُمويِّين، وأعَرَب هذا الجُمهُور عن مُعارضته بالسَّيف حيناً، كما خرج أهل المدينة، ثُمَّ أهل مكَّة جميعهم، وفيهم البقيَّة الباقية من صحابة رسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، وخلعوا طاعة يزيد، ومَنْ ضَعُفَ عن الخُرُوج بالسَّيف أنكر بالقلب، وإنْ كان ذلك أضعف الإيمان، إلاَّ أنَّه خلع الإمامة الدِّينيَّة عن الخليفة القائم.

وإذا كان الحُسَين قد هُزِمَ في معركةٍ حَرْبيَّةٍ، فلم يعرف التَّاريخ هزيمةً كان لها من الأثَر لصالح المهزومين كما كان لدم الحُسَين، فلقد أثار مقتله ثورةَ ابن الزُّبير، وخُرُوج التَّوَّابين، ولم ينقضِ الأَمْر حتَّى أفضى ذلك إلى ثوراتٍ أُخرى، إلى أنْ زالت الدَّولة الأُمويَّة بعد أنْ أصبحت ثارات الحُسَين هي الصَّرخة المُدويَّة لتدكَّ العُرُوش الظَّالمة، وتُزيل الدُّول الفاسدة»[1].

فحركة الحُسَين - في خُرُوجه على يزيد - إنَّما كانت عزمة قلب كبير، ونفس ذابت في الإسلام، عزَّ عليها الإذعان، وعزَّ عليها النَّصر العاجل، فخرج الحُسَين بأهله وذويه ذلك الخُرُوج الذي يبلغ به النَّصر الآجل بعد موته، ويُحيي به قضيَّةً مخذولةً، ليس لها بغير ذلك حياة[2].

- خُلاصة المُشخَّصات الأُولى للفرَق الإسلاميَّة الرَّئيسيَّة:

بعد شهادة الإمام عليٍّ ﷺ وتنازل ابنه الحَسَن ﷺ عن الخلافة لمُعاوية حقناً لدماء المُسلمين عام 40 هـ، الذي سُمِّي بعام الجماعة، لتوقُّف الحرب الأهليَّة فيه بين المُسلمين واجتماعهم على رئيس واحد، أصبح المُسلمون مُنقسمين إلى تيَّار عامٍّ، وثلاثة فرَق رئيسيَّة: (1) الشِّيعة (2) والخَوَارج (3) والمُرجئة.

(1) المصدر السَّابق: ص339 - 340 بتصرُّف يسير جداً.

(2) المصدر السَّابق: ص342 نقلاً عن كتاب أبو الشّهداء لعبَّاس محمُود العقَّاد: ص107.

(1) فانضوى تحت عُنوان الشِّيعة كُلُّ الأفراد أو الجماعات الذين أعطوا ولاءهم فقط لقيادة أهل بيت النّبي ﷺ إيماناً منهم بأنَّ علياً بن أبي طالب والأئمَّة من أبنائه من عترة وذُرِّيَّة النّبي وأهل بيته الطّاهرين الكرام هُم - فقط - القادة الشّرعيُّون وأصحاب الحقّ في خلافة رسول الله وقيادة أُمَّته على منهج النُّبوَّة، مُنطلقين من تصوُّر يرى أنَّ الإمامة أمر ديني خطير وركن أساسي من أركان الإسلام، وصار هؤلاء يُشكِّلون حزب المُعارضة العَلَويَّة في فترة حُكْم بني أُميَّة، وقد انقسموا - فيما بينهم - إلى تيَّارات مُختلفة قام بعضها بثورات مُسلَّحة ضدَّ الأُمويِّين دُون أنْ تُكلَّل بالنّجاح، واختار البعض الآخر المُقاومة السِّلْميَّة بالتّوعية والفكْر ونَشْر العلم الصّحيح.

(2) في حين انضوى تحت عُنوان الخَوَارج ذلك الفريق من المُسلمين المُتطرِّفين - إذا صحَّ التّعبير - الذين رفضوا علياً ومُعاوية معاً! وكانوا - قبل ذلك - ممَّنْ رفض عُثمان أيضاً لِمَا رأوه - في الفترة الأخيرة من حُكْمه - من تبدُّل في سياسته، وإيثار أقربائه بالمناصب والأموال، ومُعاقبته المُعترضين على ذلك، وغير ذلك من أعمال نقموها عليه، وكان ممَّا تميَّز به هؤلاء رَفْضَهُم تحديد الخلافة بأيِّ أُسرة، أو قبيلة كانت، سواء كانت بني هاشم، أو آل عليّ، أو قُرَيْش، أو بني أُميَّة، أو غيرهم، بل رأوها تصلح في كُلِّ أحدٍ قام وثار لإرساء الحُكْم بالكتاب والسُّنَّة، مهما كانت قبيلته أو نَسَبه أو حَسَبه. وصار هؤلاء - أيضاً - حزباً مُعارضاً في عهد الحُكْم الأُموي، واتَّسمت مُعارضتهم بإيمانها بوُجُوب استخدام السّيف والقتال سبيلاً لإسقاط الظُّلم المُتمثِّل بحُكْم بني أُميَّة الفاسق الجائر في نَظَرهم، وإقامة حُكْم الله العادل في الأرض، لذلك؛ ظلَّت الخَوَارج شوكة في جنب الدّولة الأُمويَّة، يُهدِّدونها، ويُحاربونها حرباً تكاد تكون مُتواصلة في شدَّة وشجاعة نادرة، وأشرفوا في بعض مواقفهم على القضاء على الدّولة، وظلَّ المُهلَّب بن أبي صفرة يُجادلهم، ويُعاني في قتالهم الشّدائد والأهوال السّنين الطّوال، ممَّا لا محلَّ لذكْره هُنا[1]؛ غير أنَّنا نُشير إلى أنَّهم كانوا فرعَيْن: فرعاً بالعراق وما حولها، وكان أهمُّ مركز لهم (البطائح) بالقُرب من البَصْرَة، وقد استولوا على كرمان وبلاد فارس، وهدَّدوا البَصْرَة، وهؤلاء هُم الذين حاربهم المُهلَّب، واشتهر من رجالهم نافع

---

(1) قد ألَّف الأقدمون كثيراً من الكُتُب في أخبار الخَوَارج خاصَّة كالمدائن، ولكنَّها لم تصل إلينا، وقد جَمَعَ ابن أبي الحديد في الجُزْء الأوَّل من شَرْح نهج البلاغة أخبارهم مُطوَّلة في موضوعَيْن في كتابه، فارجعْ إليه.

بن الأزرق، وقَطَرِيّ بن الفُجاءَة. وفرعاً بجزيرة العَرَب: استولوا على اليمامة وحضرموت واليمن والطّائف، ومن أشهر أمرائهم فيها: أبو طالوت، ونجدة بن عامر، وأبو فديك.

ولم يتغلّب الأُمويُّون على هذَيْن الفرعَيْن إلاّ بعد حُرُوب طويلة شديدة، استمرَّت طُول عهد الدّولة الأُمويَّة.

ثُمَّ كانوا كذلك في عهد الدّولة العبَّاسيَّة، ولكنْ؛ لم يبقَ لهم من القُوَّة ما كان لهم في عهد الأُمويِّين، فقد ضعف شأنهم، وانحطَّ قُوَّادهم.

(3) أمَّا المُرجئة؛ فكانوا ـ في الواقع ـ حزباً سياسيّاً مُحايداً، له رأي فيما شَجَرَ بين المُسلمين من خلاف؛ يُوضحه المُؤرِّخ ابن عساكر بشكل دقيق فيقول: «إنَّهم (أيْ المُرجئة) هُم الشُّكَّاك الذين شكّوا، وكانوا في المغازي، فلمَّا قَدِموا المدينة بعد مقتل عُثمان، وكان عهدهم بالنَّاس، وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف، قالوا: تَركناكم وأمركم واحد، ليس بينكم اختلاف، وقدمنا عليكم وأنتم مُختلفون، فبعضكم يقول: «قُتِلَ عُثمان مظلوماً، وكان أولى بالعَدْل أصحابه»!، وبعضكم يقول: «كان عليٌّ أولى بالحقّ وأصحابه»!، وكُلُّهم ثقة وعندنا مُصدَّق، فنحنُ لا نتبرأ منهما، ولا نلعنهما، ولا نشهد عليهما، ونُرجئ أمرهما إلى الله، حتَّى يكون اللهُ هُو الذي يحكم بينهما».

ويُعلِّق أحمد أمين مُوَضِّحاً، فيقول: [.. فترى من هذا أنَّه (أيْ تيَّار المُرجئة) حزب سياسي لا يُريد أنْ يغمس يده في الفتن، ولا يُريق دماء حزب، بل ولا يحكم بتخطئة فريق وتصويب آخر، وأنَّ السَّبب المُباشر في تكوينه هُو اختلاف الأحزاب في الرّأي، والسّبب البعيد هُو الخلافة، فلولا الخلافة ما كانت خَوَارج، ولا شيعة، وإذنْ؛ لا يكون مُرجئة.

وكلمة المُرجئة مأخوذة من أرجأ بمعنى أمهل وأخَّر، سُمّوا المُرجئة؛ لأنَّهم يُرجئون أمر هؤلاء المُختلفين الذين سفكوا دماء بعضهم إلى يوم القيامة، فلا يقضون بحُكْم على هؤلاء ولا على هؤلاء؛ وبعضهم يشتقُّ اسمهم من أرجأ بمعنى بَعَثَ الرّجاء؛ لأنَّهم كانوا يقولون: لا تضرُّ مع الإيمان معصيَةٌ، كما لا تنفع مع الكُفْر طاعة، فهُم يُؤمِّلون كُلَّ مُؤمن عاص. والأوّل أنسب لما حكينا عن ابن عساكر.

وقد نشأت المُرجئة لَمّا رأت الخَوَارج يُكَفِّرون علياً وعُثمان والقائلين بالتّحكيم! ورأت من الشّيعة مَنْ يُكَفِّر أبا بكر وعُمر وعثمان ومَنْ ناصرهم! وكلاهما يُكَفِّر الأُمويّين، ويلعنهم، والأُمويُّون يُقاتلونهم، ويرون أنّهم مُبطلون، وكُلٌّ طائفة تدّعي أنّها على الحقّ، وأنّها وحدها على الحقّ، وأنّ مَنْ عداها كافر، وفي ضلال مُبين، فظهرت فكرة المُرجئة الذين يُسالمون الجميع، ولا يُكَفِّرون طائفة منهم، ويقولون إنّ كُلَّ الفرَق الثّلاث: الخَوَارج والشّيعة والأُمويّين، مُؤمنون، وبعضهم مُخطئ، وبعضهم مُصيب، ولسنا نستطيع أنْ نُعين المُصيب، فلنترك أمرهم جميعاً إلى الله، ومن هؤلاء بنو أُميّة: فهُم يشهدون أنْ لا إله إلاّ الله، وأنَّ مُحمَّداً رسول الله، فليسوا ـ إذاً ـ كُفّاراً، ولا مُشركين، بل مُسلمين، نُرجئ أمرهم إلى الله الذي يعرف سرائر النّاس، ويُحاسبهم عليها. وينتج من هذا أنّ موقفهم إزاء حُكْم الأُمويّين موقف تأييد، ولكنّه تأييد سلبي لا إيجابي، فليسوا ينحازون إليهم، ويحملون سُيُوفهم، يُقاتلون في جُيُوشهم، ولكنْ؛ هُم إزاء الأُمويّين مثلهم إزاء الشّيعة والخَوارج، وهُم ـ على ما يظهر ـ يرون حُكُومة الأُمويّين حُكُومة شَرْعيّة، وكفى ذلك تأييداً.

والواقع أنّ نُواة هذه الطّائفة كانت بين الصّحابة في الصّدْر الأوّل، فإنّا نرى أنّ جماعة من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) امتنعوا أنْ يدخلوا في النّزاع الذي كان في آخر عهد عُثمان، مثل أبي بَكْرَة، وعبد الله بن عُمر، وعُمْران بن الحصَيْن. وروى أبو بكرة أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قال: «ستكون فِتَنٌ، القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السّاعي إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت، فَمَنْ كان له إبل فلْيَلْحق بإبله، ومَنْ كان له غنمٌ فليلحق بغنمه، ومَنْ كان له أرضٌ فليلحق بأرضه، قال: فقال رجل: يا رسول الله؛ مَنْ لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: يعمد إلى سيفه فيدقّ على حَدّه بحجر، ثُمَّ لينجُ، إنْ استطاع النّجاة».

هذه النّزعة إلى عدم الدُّخُول في الحُرُوب التي بين المُسلمين بعضهم وبعض هي الأساس الذي بُني عليه مذهب الإرجاء [1]، ولكنّه لم يتمكّن كمذهب ـ كما رأينا ـ إلاّ بعد ظُهُور الخَوَارج والشّيعة.

---

(1) يقول النّووي في شَرْحه على صحيح مُسلم: إنّ القضايا (يُريد قضايا الفتن التي كانت بين الصّحابة) كانت مُشتبهة، حتّى إنّ جماعة من الصّحابة تحيّروا فيها، فاعتزلوا الطّائفتَيْن، ولم يُقاتلوا، ولم يتيقّنوا الصّواب، إلخ.

وبعد أنْ كان مذهباً سياسياً أصبح ـ فيما بعد ـ يبحث في أُمُور لاهوتيَّة، وكانت نتيجة بحثهم تتَّفق ورأيهم السِّياسي، فأهمُّ ما بحثوه فيه تحديد «الإيمان» و«الكُفْر» و«المُؤمن» و«الكافر»، وقد دعا إلى هذا البحث أنَّهم رأوا الخَوَارج يُكَفِّرون مَنْ عداهم والشِّيعة كذلك، غلا الخَوَارج، فعدُّوا كُلَّ كبيرة كُفْراً، وغلت الشِّيعة، فعدُّوا الاعتقاد بالإمام رُكناً أساسياً من أركان الإيمان، فكانت النّتيجة الطَّبيعيَّة أنْ يُعرض على بساط البحث: ما الكافر؟ وما الإيمان؟ فرأى كثير من المُرجئة أنَّ الإيمان هُو المعرفة بالله وبرُسُله، فَمَنْ عرف أنْ لا إله إلاَّ الله مُحمَّداً رسول الله فهُو مُؤمن، وهذا ردُّ المُرجئة على الخَوَارج الذين يقولون إنَّ الإيمان معرفة بالله وبرُسُله، والإتيان بالفرائض، والكفُّ عن الكبائر؛ فَمَنْ آمن بالله ورُسُله، وتَرَكَ الفرائض، وارتكب شيئاً من الكبائر كان مُؤمناً عند المُرجئة؛ كافراً في نَظَر الخَوَارج، ورداً ـ أيضاً ـ على الشِّيعة الذين يعتقدون أنَّ الإيمان بالإمام والطّاعة لهُو جُزء من الإيمان.

والخُلاصة؛ أنَّ المُرجئة لا يعدُّون إيماناً إلاَّ الاعتقاد القَلْبي بالله ورسوله؛ وليست الأعمال الظّاهرة جُزءاً من الإيمان.

ولهذا الكلام كُلّه نتيجة تتَّفق ورأيهم السِّياسي، فهُم لا يحكمون بالكُفْر على الأُمويِّين ولا على الخَوَارج والشِّيعة، بل لا يجزمون بكُفْر الأخطل ونحوه من النّصارى واليهُود؛ لأنَّ الإيمان محلُّه القلب، وليس يطّلع عليه إلاَّ الله، وذلك يدعو إلى مُسالمة النّاس جميعاً.][1]

(4) وشكَّل عامَّة بقيَّة المُسلمين التَّيَّار العامَّ الذي اقتربت أفكاره من "المُرجئة" لحَدٍّ كبير، وإنْ كان هُو تيَّار أعمُّ من "المُرجئة"، وقد أطلق الأُمويُّون (مُعاوية) على أصحاب هذا التَّيَّار العام اسم "أهل الجماعة" كتدبير سياسي ذكي يهدف إلى رَمْي الفِرَق الأُخرى بأنَّها خارجة عن جماعة المُسلمين، مُنشقَّة عنهم، وأضاف العبَّاسيُّون لهذا التَّيَّار العامِّ اسم أهل السُّنَّة، فصاروا: "أهل السُّنَّة والجماعة".

فتيَّار "أهل السُّنَّة والجماعة" تيَّار عامٌّ ضمَّ في داخله طيفاً من الآراء، يجمعها القبول بالأمْر الواقع، والرّضا بالحُكْم الأُموي الفعْلي، والإخلاص له، ليس بالضّرورة حُبّاً بكُلِّ

---

(1) أحمد أمين، "فجر الإسلام"، ط11 بيرُوت: دار الكتاب العَرَبي، 1975، ص279 ـ 280 باختصار وتصرُّف.

تصرُّفاته، بقدر ما كان مبدأً منهم يقوم على وُجُوب الحفاظ على الجماعة، وطاعة أُولي الأَمْر، الذين هُم ـ في رأيهم ـ كُلُّ مَنْ تولَّى زمام الأَمْر بشكل فعْليّ، بغَضّ النَّظَر عن الطَّريقة التي وصل بها للحُكْم، سواء كانت باستخدام القُوَّة والشّوكة، أو باستخلاف مَنْ سبقه، أو بالبَيْعَة الحُرَّة من أعيان الأُمَّة، إلخ، ومن غير اشتراط أنْ يكون أفضل النّاس من حيثُ العلم والدِّين والتّقوى بالضّرورة، ولا أنْ يكون لزاماً من عتْرة النّبي وآل بيته (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، بل تصلح في كُلِّ قرشي، بل حتّى في غير القرشي إنْ تغلَّب على الأَمْر، فكانوا مع الحُكْم الأُموي، وحُكْم سائر الأُسر التّالية التي مَلَكَتْ أُمُور المُسلمين، عَمَلاً بقوله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾، مُنطلقين من أنَّ كُلَّ مَنْ تولَّى زمام الأُمُور فهُو وليّ الأَمْر الذي أوجب الله ـ تعالى ـ طاعته، وحرَّم الخُرُوج عليه، حتّى لو صَدَرَ منه فُسْق، أو جور، أو استئثار بالأموال، ممَّا لا يكاد يخلو منه أكثر الوُلاة والأُمراء، فيجب طاعته؛ لأنَّ الصّبر على الجور، واستئثار الوُلاة مع بقاء وَحْدَة المُجتمع، خيرٌ من شقِّ عصا الطّاعة والثّورة والعصيان التي ستهدم وَحْدَة المُجتمع، وتشقُّ صفَّه، وتُمزِّقه، وتجرُّ عليه فتناً وحُرُوباً أهليَّة وهَرَجاً ومَرَجاً يُوقع المُسلمين في حالة تكون أسوأ من الأثرة أو الجور الذي أرادوا التَّخلُّص منه. هذا؛ مع تقدير أصحاب هذا التّيَّار وحُبِّهم لجميع الصّحابة وجميع أهل بيت النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وأزواجه وعتْرته، والتَّرضِّي عليهم جميعاً.

وفي مُشاجرات الصّحابة يميل فريق من عُلماء هذا التّيَّار العامّ من الفُقَهاء والمُحدِّثين من أهل السُّنَّة والجماعة إلى إعطاء الحقِّ في المُشاجرات التي جَرَتْ بين الصّحابة إلى الإمام عليّ ﷺ وتصويب حُرُوبه، واعتبار الخارجين عليه بُغاة مع عدم تضليلهم، أو الطَّعْن بعد التُّهم؛ لأنَّ فيهم عديد من الصّحابة، والصّحابة عندهم كُلُّهم عُدُول، لذلك؛ اعتبروهم مُجتهدين أخطؤوا في الاجتهاد، وكمثال على ذلك يقول الإمام عبد القاهر البغدادي أحد كبار أئمَّة أهل السُّنَّة والجماعة عن حرب عليٍّ وأصحابه يوم الجَمَل: [وقال أهل السُّنَّة والجماعة بتصويب عليٍّ وأتباعه يوم الجَمَل، وقالوا: إنَّ الزُّبير رجع عن القتال يومئذ تائباً، فلمَّا بلغ وادي السّباع قَتَلَهُ بها عَمرو بن جرموز غُرَّةً، وبشَّر عليٌّ قاتله بالنّار، وهَمَّ طلحةُ بالرُّجُوع،

فرماه مروان بن الحَكَم، وكان مع أصحاب الجَمَل، بسهمٍ قَتَلَهُ، وعائشة رضي الله عنها قصدتْ الإصلاحَ بين الفريقَيْن، فَغَلَبَهَا بنو أزد وبنو ضبَّة على أمرها، حتَّى كان من الأمْر ما كان][1]، ويقول عبد الرّؤوف المناوي في كتابه الشّهير "فيض القدير" في شرح الجامع الصّغير للسّيوطي، شارحاً لحديث "ويحَ عمَّار تقتله الفئة الباغية" ما نصُّه: [(ويحَ عمَّار) بالجرِّ على الإضافة، وهُو ابن ياسر (تقتله الفئة الباغية) قال القاضي في شرح المصابيح يُريد به مُعاوية وقومه. انتهى. وهذا صريح في بغي طائفة مُعاوية الذين قتلوا عمَّاراً في وقعة صفِّين، وأنَّ الحقَّ مع عليٍّ وهُو من الإخبار بالمغيبات. (يدعوهم) أيْ عمار يدعو الفئة، وهُم أصحاب مُعاوية الذين قتلوه بوقعة صفِّين في الزّمان المُستقبل (إلى الجنَّة) أيْ إلى سببها؛ وهُو طاعة الإمام الحقِّ (ويدعونه إلى) سبب (النّار) وهُو عصيانه ومُقاتلته، قالوا: وقد وقع ذلك في يوم صفِّين دعاهم فيه إلى الإمام الحقِّ، ودعوه إلى النّار، وقتلوه، فهُو مُعجزة للمُصطفى، وعَلَمٌ من أعلام نُبُوَّته. . وهذا الحديث من أثبت الأحاديث وأصحِّها، ولَمَّا لم يقدر مُعاوية على إنكاره قال: إنَّما قَتَلَهُ مَنْ أخرجه. فأجابه عليّ بأنَّ رسول الله - إذنْ - قَتَلَ حمزة حين أخرجه! قال ابن دحية: وهذا من عليٍّ إلزامٌ مُفحمٌ، لا جوابَ عنه، وحُجَّةٌ لا اعتراضَ عليها. وقال الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتاب الإمامة: أجمع فُقَهَاء الحجاز والعراق من فريق الحديث والرّأي منهم مالك والشّافعي وأبو حنيفة والأوزاعي والجُمهُور الأعظم من المُتكلِّمين والمُسلمين أنَّ عليّاً مُصيبٌ في قتاله لأهل صفِّين، كما هُو مصيبٌ في أهل الجَمَل، وأنَّ الذين قاتلوه بُغاة ظالمون له، لكنْ؛ لا يُكَفَّرون ببَغْيهم، وقال الإمام أبو منصور في كتاب الفَرْق بين الفِرَق في بيان عقيدة أهل السُّنَّة أجمعوا أنَّ عليّاً مُصيب في قتاله أهل الجَمَل طلحة والزُّبير وعائشة بالبَصْرَة وأهل صفِّين مُعاوية وعسكره][2].

في حين رأى فريق آخر من أهل السُّنَّة والجماعة التّوقُّف في الأمْر وعدم الحُكْم بالصّواب لأيٍّ من الفريقَيْن، واعتبارهما كلاهما مُجتهدَيْن مأجورَيْن؛ أيْ كموقف المُرجئة تماماً.

---

(1) انظر كتاب "الفَرْق بين الفِرَق" لعبد القاهر البغدادي، ج1/ ص 101 - 102.

(2) العلاَّمة عبد الرّؤوف المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصّغير، ط1، مصر: المكتبة التّجاريّة الكُبرى، 1356هـ، ج 6/ ص 365 - 366.

كلمة أخيرة في هذا الباب:

لاحظنا أنَّ انقسام المُسلمين لتلك الفرَق الرّئيسيَّة الثّلاث كان أساسه - في البداية - أسباباً سياسيَّةً اجتماعيَّةً أكثر منها أسباباً عقائديَّة إيمانيَّة، وعلى الرّغم من أنَّه حصلت بين المُسلمين - فيما بعد - اختلافات في كثير من القضايا العقائديَّة والإيمانيَّة والفقهيَّة والسُّلُوكيَّة، إلاَّ أنَّ كُلَّ هذه لم تُؤدِّ - في أغلبها - إلى نُشُوء فرَق مُتواجهة ومُتباعدة ومُتعادية، كما أنشأت تلك الاختلافات السِّياسيَّة، بل كان أتباع الفرَق يتقبَّلون الاختلاف فيما بينهم بالفتوى والتّفسير وحتَّى الاختلافات العقائديَّة، ويتسامحون فيها، أمّا ما لا يتسامحون فيه، ويبقي أساس انشعاب الفرَق الإسلاميَّة المُتباعدة المُتنافرة، فهُو مواقفهم المُختلفة المُتعلِّقة بموضوع الإمامة؛ أيْ الحُكْم والرّئاسة [1] والحُكْم على مَنْ سَلَف من الصّحابة والخُلفاء الرّاشدين في هذا الإطار، والموقف ممَّنْ تلاهم من الخُلفاء، وتحوّل الانقسام السِّياسي، ليأخذ لباس الانقسام الدِّيني بالمعنى العقائدي والفقهي للكلمة، وأخذت تتشكَّل لدى كُلِّ فريق تفسيرات وعقائد وفتاوى ومُدوَّنات حديثيَّة خاصَّة به، تنسجم مع موقفه السِّياسي، وتدعم آراءه، وكثر وَضْع الأحاديث النَّبويَّة المكذوبة من أصحاب الأهواء من ضعاف الإيمان لدى كُلِّ فريق لتأييد مشرب أصحابه ومذهبهم السِّياسي المذكور.

وإذْ وصلنا إلى هُنا؛ فقد آن الأوان لننتقل لدراسة تطوُّر هذه الفرَق الرّئيسيَّة، وما حصل فيها من انقسامات داخليَّة جديدة، وما استقرَّت عليه عقائدها، وبقيت إلى اليوم.

---

(1) وهُنا نقول: إنَّه طالما أنَّ اختلاف المُسلمين كان - بالأساس - سياسيّاً، وكان دينهم واعتقادهم واحداً، وقد مضت تلك الحقبة، ومضى معها أصحابها وخُلفاؤها الذين وقع الاختلاف حولهم، ومضت معهم أسباب الاختلاف مُنذُ قُرُون، وأكل عليها الدّهر، وشرب، فينبغي أنْ يرجع المُسلمون إلى وحدتهم الأساسيَّة، وينبذوا الطّائفيَّة والتَّفرُّق، ولا يجعلوا اختلافاتهم في بعض آرائهم الفقهيَّة، أو تفسيراتهم العقائديَّة، سبباً لبقاء التّمايز الطّائفي؛ لأنَّ مثل هذه الاختلافات في الفقه والتّفسير تُوجد داخل كُلِّ فرقة أيضاً، ولا يمنع من بقائها فرقة واحدة.

الباب الثّاني:

الانقسامات ضمن الفرَق الرّئيسة ، وظُهُور المذاهب الباقية إلى اليوم

الفَصْل الأوَّل:

الانقسامات الكلامِيَّة والفِقْهِيَّة ضمن أهل السُّنَّة

تمهيد:

خلافاً للشِّيعة والخَوَارج الذين انقسموا ـ على أُسُسٍ سياسيَّة ـ فرَقاً دينيَّةً عديدةً تباعدت عن بعضها، واستقلَّت، وسارَ كُلٌّ منها في اتِّجاهه الخاصِّ ـ كما سيتبيَّن مُفصَّلاً في الفَصْلَيْن القادمَيْن ـ؛ بقي أهل السُّنَّة والجماعة جماعةً إسلاميَّةً عامَّةً واحدةً، هي الجُمهُور الأعظم لأهل الإسلام الذي يُشكِّلون النِّسبة الرَّئيسيَّة من مُسلمي العالم، التي استمرَّت على منهج الالتزام بالجماعة وتأييد خلافة جميع الخُلفاء الرَّاشدين الأربعة، ثُمَّ القبول والطَّاعة لخلافة الذين جاءوا من بعدهم من الخُلفاء الأُمويِّين، ثُمَّ العبَّاسيِّين، وكُلِّ مَنْ تَوَسَّدَ سُدَّةَ القيادة، وحَكَمَ المُسلمين من خُلفاء أومُلُوك أو سلاطين... لا يُجيزون الخُرُوج على أحدٍ منهم، مع التَّرحُّم والتَّرَضي على جميع السَّلَف الصَّالح وأهل القُرُون المُباركة الأُولى؛ سواء من أهل البيت أو من الصَّحابة رضي الله عنهم أجمعين، وعدم الخوض فيما شَجَرَ بينهم من نزاع؛ لأنَّهم ـ في عقيدتهم ـ عُدُولٌ جميعاً، وكُلُّهم مُجتهدون، والمُجتهد مأجور: فإنْ أصاب، فله أجران، وإنْ أخطأ، فله أجر واحد، وشعارهم يقول: [كما طهَّر الله سُيُوفنا من دمائهم، نسأله ـ تعالى ـ أنْ يُطهِّر ألسنتنا من الخوض في أعراضهم].

وقد أوضحنا آخر الباب الأوَّل: (نشأة الفرَق الرَّئيسيَّة)، في فقرة: « خُلاصة المُشخّصات الأُولى للفرَق الإسلاميَّة الرَّئيسيَّة » المبادئ الأساسيَّة لهذا التَّيَّار الإسلامي العامِّ الذي انضوى تحته عوامُّ المُسلمين الذين عبَّرت أفكار "المُرجئة" عن موقفهم السِّياسي إلى حَدٍّ كبير، إلى أنْ أخذ هذا التَّيَّار اسم "الجماعة" عندما استقرَّ الحُكْم لمُعاوية، بعد تنازل الحَسَن بن

عليّ له عن الخلافة، في العام الذي سُمّيَ بعام الجماعة، ثُمَّ اشتهر هذا التّيّار العامُّ مُنذُ بداية القرن الهجري الثّاني، لدى قيام الدّولة العبّاسيّة، باسم "أهل السُّنَّة والجماعة"، واستمرَّ الاسم إلى اليوم.

ومع مُرُور الزّمن وظُهُور وتبلور آراء المذاهب الأُخرى سواء الشّيعيّة أو الخَوَارجيّة، تمّ كذلك بلورة الأُصُول الجامعة لأهل السُّنَّة والجماعة التي تُميِّزهم من غيرهم من الفرَق التي أصبحت تُعتبر في نَظَر الجماعة، وفي نَظَر الدّولة الأُمويّة من أهل الأهواء والبدَع، وهي الأُصُول التي تُحدِّد موقف أهل السُّنَّة من الآراء التي كانت تطرحها تلك المذاهب، أو غيرها من الفرَق، وقد لخّص الإمام أبو الحَسَن الأشعري - أحد أبرز المُنظِّرين الفكْريِّين لمذهب أهل السُّنَّة - الأُصُول الجامعة لأهل السُّنَّة في قائمة مُفصّلة، سنذكرها بعد قليل عند بيان البنيان العقائدي أو المذهب الكلامي لأهل السُّنَّة والجماعة.

- الاختلاف في الفَهْم خصِيصةٌ أصيلةٌ من خصائص البشر:

ولكنَّ هذا لا يعني أنَّه لم تحصل - بين أهل السُّنَّة أنفسهم - اختلافات في الرّأي، سواء على مُستوى الأُصُول؛ أيْ العقائد، أو على مُستوى الفُرُوع؛ أيْ الأحكام الفقهيّة، بل إنّي زعيم بأنَّ التّوافق في كُلِّ الجُزئيّات والتّفسيرات والاستنباطات للفُرُوع والأحكام أمر مُحال، كيف، والاختلاف في الفَهْم والرّأي والنَّظَر خصِيصةٌ أصيلةٌ من خصائص البشر، لا يُمكنهم اجتنابها، ولا انفكاك لهم عنها، وبالتّالي؛ فمادام المُسلمون بشراً، فمن الطّبيعي جداً أنْ لا يجتمعوا في فَهْمهم لتفاصيل تعاليم الإسلام على رأي واحد في أُصُول الدِّين وفُرُوعه، أو في قضايا الإسلام السِّياسيّة والاجتماعيّة والتّاريخيّة. بل من الطّبيعي جداً أنْ تختلف أفهامهم، وتتنوّع فتاواهم وتفسيراتهم لتعاليم الدِّين وعقائده وأحكامه، فطبيعة البشر من ناحية، وطبيعة اللُّغة التي نزلت، ودُوِّنت بها مصادر التّعاليم الدِّينيّة نفسها، أعني القُرآن الكريم والسُّنَّة النّبويّة الشّريفة من ناحية ثانية، وكيفيّة تناقل ووُصُول تلك النُّصُوص للأجيال اللاّحقة من عُلماء الإسلام من ناحية ثالثة، وطبيعة الحياة الاجتماعيّة والسِّياسيّة والتّوزُّع الجَغرافي والخَلْفيّات الثّقافيّة في كُلِّ مُجتمع من المُجتمعات التي انتشر فيها الإسلام من ناحية

رابعة، كُلُّها تُؤدِّي ـ بالضّرورة ـ لآراء مُختلفة ومشارب مُتنوِّعة في استنباط تفاصيل الدِّين والفُرُوع الجُزئيَّة فيه.

فأوَّلاً؛ تحتمل عديد من ألفاظ آيات القُرآن الكريم أكثر من تفسير، ومثلها كثير من أقوال النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ومواقفه، كما أنَّ هُناك سبباً مُهمّاً آخر للاختلاف في فَهْم السُّنَّة النَّبويَّة غير النّاحية اللُّغويَّة، وهُو الاختلاف في درجة الثّقة بما نُقل عبر سلسلة من الرُّواة من سُنن وسيرة وأحوال النّبي الأعظم (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وبما وصل إلى مُسلمي العُصُور الأُولى من أحداث السّيرة والتّاريخ الإسلامي، فهُناك اختلاف في الثّقة في الرُّواة، وهُناك اختلاف بين الرُّواة أنفسهم؛ إذْ كثيراً ما تختلف نُقُولهم، أو تتضارب. وحتّى عندما يتوحَّد النَّصُّ، أو الواقعة المنقولة، فإنَّ الاختلاف في فَهْمها من طبيعة البشر الأساسيَّة، فهُناك أُناسٌ يفهمون الكلام فَهْماً سَطْحيّاً جامداً، يتوقَّفون عنده، ولا يُمكنهم الغوص أكثر من ذلك، في حين أنَّ هُناك آخرون حَبَاهم الله ـ تعالى ـ بذكاء أحدّ، وإحساسٍ مُرهفٍ، وقُدرة أكبر على استشراف ما هُو أعمق من الظّاهر، كما أنَّ هُناك مَنْ يرى أنَّ المُراد هُو حَرْفيَّة النَّصِّ، وهُناك مَنْ يرى أنَّ المُراد هُو رُوح النَّصِّ ومقصده، لا حَرْفيَّته بالضّرورة، ثُمَّ هُناك مَنْ يغلب عليهم المشرب العَقْلاني في التّعامل مع النُّصُوص، وآخرون يغلب عليهم المشرب الوُجداني، وغيرهم يغلب عليهم المشرب العملي، ولابُدَّ أنْ ينعكس ذلك ـ بنحوٍ أو بآخرٍ ـ على طريقة فَهْمهم للدِّين، وتعاملهم مع نُصُوصه وتعاليمه. هذا؛ بالإضافة للأثر المعروف للعوامل السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والجَغرافيَّة في إيجاد تصوُّرات مُختلفة وآراء ومواقف مُتفاوتة.

لذا؛ فإنَّ ظاهرة وُجُود مدارس ومذاهب فكْريَّة وفقْهيَّة مُختلفة في الإسلام ظاهرة طبيعيَّة لا يُمكن اجتنابها، وهذه الظّاهرة لم يسلم منها أيُّ دين، بل شملت جميع أديان الإنسان قبل الإسلام؛ سواء منها الأديان السّماويَّة الإبراهيميَّة: اليهُوديَّة، والمسيحيَّة، أو الأديان العالميَّة الأُخرى؛ كالهندُوسيَّة، والبُوذيَّة، وغيرها.

وقد انعكس ذلك كُلُّهُ ـ في البداية ـ في ظُهُور مدارس عقائديَّة مُتعدِّدة بين أهل السُّنَّة، كالمُرجئة، والصّفاتيَّة، والجَهميَّة، والمُشبِّهة، والقَدَريَّة... إلخ، ثُمَّ ذابت تلك الأفكار

وتبلورت ضمن المذاهب العقائديَّة، أو المدارس الكلاميَّة الرّئيسيَّة بين أهل السُّنَّة، وهي: المُعتزلة، والحَشَويَّة، الأثريَّة، والأشاعرة، والماتريديَّة، كما انعكس الاختلاف في الفَهْم والاستنباط على مُستوى الفُرُوع بنشأة آراء فقْهيَّة مُختلفة مُنذُ عهد الصّحابة والتّابعين، ممَّا أدَّى ـ بالتّالي ـ لنشأة المذاهب الفقْهيَّة المُتعدِّدة، التي حظي أربعة منها بانتشار واسع، وبخدمة جيِّدة من قبَل تلاميذ أفذاذ نقَّحوها، وراجعوها.. فأخذت ـ زمن العبَّاسيِّين ـ الصفة الرَّسْميَّة، فكُتب لها البقاء والاستمرار إلى يومنا هذا؛ وهي: بحسب الأقدميَّة: المذهب الفقْهي الحَنَفي، ثُمَّ المالكي، ثُمَّ الشّافعي، ثُمَّ الحَنْبَلي، بالإضافة للمذهب الظّاهري الذي شكَّل مدرسة فقْهيَّة مُتميِّزة بين أهل السُّنَّة حظيت بأتباع في كُلِّ عصر، ولازال بعض الفُقَهَاء والمُتشرِّعين في عصرنا يرجعون إليه، ويستفيدون من بعض آرائه في عدد من الفتاوى والمسائل.

هذا؛ علاوة على نشأة التَّصوُّف الذي لا يُعدُّ مذهباً مُستقلاً، وإنَّما مثَّل تيَّاراً إسلامياً رُوحيّاً خاصّاً مُتميِّزاً بمبادئه النَّظَريَّة، ومنهاجه العَمَلي، لعب ـ ولا يزال ـ أخطرَ وأهمَّ دورٍ في الحياة الدِّينيَّة والاجتماعيَّة لأهل السُّنَّة الجماعة.

وفيما يلي شَرْح الخُطُوط العريضة لكُلِّ تلك المدارس الفكْريَّة، والمذاهب الفقْهيَّة، والمدارس الأخلاقيَّة والعمليَّة التي نشأت بين أهل السُّنَّة والجماعة:

أوَّلاً: الانقسامات العَقَائديَّة أو الكلاميَّة:

بداية ظُهُور التيَّارات الفكْريَّة المُختلفة، ونشأة ما عُرف بعلم الكلام:

واجهت العَقْل المُسلم أسئلة فكْريَّة مُتعدِّدة، اقتضتها ظُرُوف الجماعة المُسلمة، وتجاربها الصّحيحة والخاطئة، ويرى الباحثون أنَّ من أوَّل ما اختلفت فيه الآراء، وتضاربت فيه الأنظار ـ بعد مسألة الإمامة التي تُعَدُّ أُمَّ المسائل الخلافيَّة ـ مسألةٌ لها بها ارتباط قويٌّ، وهي حُكْم عُصاة المُؤمنين، أو مُرتكبي الكبائر: هل يُعتبرون مُؤمنين صحيحي الإسلام، أم مُنافقين أم كُفَّاراً؟؟ وإذا كانوا مُسلمين؛ فهل يخلدون بسبب كبائرهم في النّار، أم يُعذَّبون بُرهة، ثُمَّ ينتقلون إلى الجنَّة لبذرة الإيمان الموجودة فيهم، وكونهم يشهدون الشّهادتَيْن؟؟

وجرَّ هذا الخلاف إلى البحث في حقيقة الإيمان: ما هُـو الإيمـان؟ ومـا هـي عنـاصره؟ هـل هُـو مُجرَّد التَّصديق القلبي أم تدخل فيه الأعمال من إتيان الفرائض وتَرْك الكبائر؟. . . وكان من الطَّبيعي أنْ تُطرَحَ هذه الأسئلةُ أمام العَقْـل المُسلم، نَظَراً للحُـرُوب الأهليَّة التي وقعـت بين المُسلمين، وقسَّمتهم فرَقاً وأحزاباً سياسيَّة يُكَفِّر بعضها الآخر، بل استباح بعضها - كـالخَوَارج - دماء مُخالفيهم، وحكَموا بأنَّهم كُفَّار مُخلَّدون في النَّار، وقالوا: إنَّ مُرتكب الكبـيرة يخـرج عن الإسلام، فكان من الطَّبيعي أنْ تُطرَحَ تلك القضايا على بساط البحث في تلك الفترة. .

كما يدلُّنا تاريخ الفكْر البشري على أنَّ من أُولى المسائل التـي تعـرض - أيضـاً - للعَقْـل، عندما يُفكِّر في الأُمُور الدِّينيَّة بعُمـق، مسـألة الجَبْر والاختيـار: هـل إرادتنـا تعمـل مـا تشـاء، وتترك ما تشاء، وتُشكِّل عملها، أم أنَّا مُجبرون على ما نعمل، فلا نسـتطيع أنْ نعمـل غـيره! وأنَّ إرادتنا معلولة بعلَلٍ، فإذا حصلت العلَل حصل المعلـول لا محالـة؟ وهـي مسـألة شـغلت الفلاسفة وعُلماء الدِّين جميعاً في العُصُور المُختلفة، تعترضكَ في الأخـلاق، وفي الدِّيـن، وفي فلسفة التَّاريخ، وفي علـم الكلام، وفي الفلسفة على العُمُوم. وقد نشأت الأبحـاث الدِّينيَّـة في هذا الموضوع لَمَّا نَظَرَ الإنسان فرأى أنَّه - من ناحية - يشعر بأنَّه حُرُّ الإرادة يعمل مـا يشـاء، وأنَّـه مسؤول عن عمله، وهذه المسؤوليَّة تقتضي الحُرِّيَّة، فلا معنـى لأنْ يُعـذَّب، ويُثـاب، إذا كـان كالرِّيشة في مَهَبِّ الرِّيح، لابُدَّ أنْ تتحرَّك بحَرَكَته، وتسكن بسكُونه. ومن ناحية أُخرى؛ رأى أنَّ اللهَ عالمٌ بكُلِّ شيء أحاط علمه بما كان، وما سيكون، وعلم ما سيصدر عن كُـلِّ فَـرْدٍ مـن خيرٍ أو شرٍّ، وظنَّ أنَّ هذا يستلزم - حتماً - أنَّه لا يستطيع أنْ يعمل إلاَّ على وُفـق مـا عَلِـمَ الله، فَحَارَ في ذلك بين الجَبْر والاختيار، وأخذ يُفكِّر: هل هُو مُجبَر أو مُختار؟!

وقد وَرَدَتْ آيات في القُرآن قد تُشعر بالجَبْر مثل: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ البقرة/ 7، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هُود/ 34، ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ الزُّمـر/ 19 ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ النَّحل/ 36. وهُناك آيات تُشْعرُ بالاختيـار، وأنَّ الإنسـان مسـؤول عـن عملـه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ

ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان/ 3، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام/ 153، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف/ 29 ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النّساء/ 110 ـ 111، إلى كثير من أمثال هذه الرّوايات؛ وَوَرَدَتْ أحاديث كثيرة ـ إنْ صحَّت ـ تدلُّ على تعرُّضه ـ عليه السّلام ـ لمسألة القَدَر تصريحاً وتلميحاً، فعن جابر بن عبد الله قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم: [لا يُؤمنُ عبدٌ حتَّى يُؤمنَ بالقَدَرِ؛ خيرِه وشرِّه، حتَّى يعلَمَ أنَّ ما أصابهُ لم يكنْ ليُخطئَهُ، وأنَّ ما أخطأهُ لم يكُنْ ليُصيبَهُ][1]. وعن عبد الله بن حبيب أبي عبد الرّحمن السّلمي عن عليٍّ ـ عليه السّلام ـ قال: [كُنَّا في جنازة فيها رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد، فجاء رسول الله ﷺ فجلس ومعه مخصرةٌ (عصا خفيفة)، فجعل ينكت بالمخصرة في الأرض، ثُمَّ رفع رأسه فقال: "ما منكم من أحد، ما من نفسٍ منفوسة، إلاَّ قد كَتَبَ اللهُ مكانها من النّار أو [من] الجنَّة، وإلاَّ قد كُتِبَتْ شقيَّةً أو سعيدةً"، قال: فقال رجلٌ من القوم: يا نبيَّ اللّه، أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل، فَمَنْ كان من أهل السّعادة ليكوننَّ إلى السّعادة، ومَنْ كان منّا من أهل الشّقوة ليكوننَّ إلى الشّقوة؟ قال: "اعملوا، فكلٌّ ميسَّرٌ [لما خُلق له]: أمَّا أهل السّعادة؛ فيُيسَّرون للسّعادة، وأمَّا أهل الشّقوة؛ فيُيسَّرون للشّقوة"، ثُمَّ قرأ نبيُّ اللّه ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ اللّيل/ 5 ـ 10.][2]

فلمَّا هدأت حركة الفُتُوحات، والتفت المسلمون إلى التّفكير والتّعمُّق في قضايا الدِّين ظهرت هذه المسألة، وكان قد تكلَّم فيها من قبلُ فلاسفة اليُونان، ونَقَلَها عنهم السّريانيُّون، كما بَحَثَ فيها النّصارى. فظهر في الإسلام قومٌ يقولون بحُرِّيَّة الإرادة، مُعارضين ـ في ذلك ـ

(1) سُنَن التّرمذي: ج3/ كتاب الإيمان، بَابُ مَا جَاءَ أنَّ الإيمانَ بالقَدَرِ خيرِهِ وشَرِّهِ، ح 2231، وقال التّرمذي عنه: وفي البابِ عن عُبادة وجابرٍ وعبدِ الله بنِ عَمرو. هذا حديثٌ غريبٌ من حديثِ جابرٍ لا نعرفهُ إلاَّ من حديث عبد الله ابنِ ميمونٍ، وعبدُ الله بنُ ميمونٍ مُنكرُ الحديث.

(2) سُنَن أبي داود: باب في القَدَر، ج3/ حديث رَقْم 4694.

الفكْرة الشّائعة بأنَّ الإنسان مُسيَّر، لا مُخيَّر، روى التّرمذي في جامعه (أيْ سُننه) بسنده عن عبد الله بن بريدة، عن يحيى بن يعمر قال: [أوّل مَنْ تكلّم في القَدَر معبد الجهني قال: خرجتُ أنا وحميد بن عبد الرّحمن الحميري حتّى أتينا المدينة، فقلنا: لو لقينا رجلاً من أصحاب النّبيِّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فسألناه عمّا أحدث هؤلاء القوم، فلقيناه ـ يعني عبد الله بن عُمر ـ وهُو خارج من المسجد، فاكْتَنَفْتُهُ أنا وصاحبي، فَظَنَنْتُ أنَّ صاحبي سيكلُ الكلام إليَّ، فقلتُ: يا عبد الرّحمن؛ إنَّ قوماً يقرؤون القُرآن، ويتقفّرون العلم، ويزعمون أنْ لا قَدَرَ، أنَّ الأمْر أُنُفٌ، قال: فإذا لقيتَ أُولئك فأخبرهم أنّي منهم بريء، وأنّهم منّي برآء، والذي يحلف به عبد الله، لو أنَّ أحدهم أنفق مثل أُحُد ذهباً ما قُبِلَ ذلك منه حتّى يُؤمن بالقَدَر خيره وشَرِّه. قال: ثُمَّ أنشأ يُحدِّث، قال: قال عُمر بن الخطّاب: كُنّا عند رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فجاءه رجل شديد بياض الثّياب، شديد سواد الشّعر، لا يُرى عليه أثر السّفر، ولا يعرفه منّا أحد، حتّى أتى النّبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، فألزق رُكبته بركبته، ثُمَّ قال: يا مُحمَّد؛ ما الإيمان؟ قال: أنْ تُؤمن بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله واليوم الآخر والقدر خيره وشَرِّه، . . إلى آخر الحديث، وفي آخره أنَّ النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قال لعُمر: يا عُمر! هل تدري مَنْ السّائل؟ ذاك جبرائيل أتاكم يُعلِّمكم أمر دينكم.][1].

وقد سُمِّيَ هؤلاء الذين يقولون بأنَّ الإنسان حُرُّ الإرادة باسم القَدَرِيَّة؛ إمّا لقولهم بقُدرة الإنسان على إيجاد أفعاله، أو اتّهاماً لهم بأنْ قولهم هذا يُؤدِّي لإنكار قَدَرِ الله ـ تعالى ـ السّابق المحتوم، في حين كان يرى أصحاب حُرِّيَّة الإرادة أنْ أولى النّاس بأنْ يُطلق عليه اسم القَدَرِيَّة هُم الذين يقولون بأنَّ القَدَر يحكم جميع أعمال الإنسان، ويُحتِّمها عليه؛ خيراً كانت أو شَرّاً، وعلى كُلِّ حال؛ فقد لصق الاسم بالطّائفة الأُولى، وصار لقباً لها.

وقد ذكروا أنَّ من أسبق النّاس قولاً بالقَدَر مَعْبد الجُهَنِيّ، وغَيْلان الدِّمَشْقِيّ. أمّا معبد؛ فقد قال عنه الذّهبي في ميزان الاعتدال: «إنّه تابعي صدوق، لكنّه سنَّ سُنَّة سيِّئة، فكان أوّل مَنْ تكلّم في القَدَر، وقَتَلَهُ الحجّاج صَبْراً؛ لخُرُوجه مع ابن الأشعث». فترى ـ من هذا ـ أنَّ قَتْله كان قَتْلاً سياسيّاً، وإنْ كان كثيرٌ يدَّعون أنّه قَتَلَهُ لزندقته، وكان يُجالس الحَسَن

---

(1) سُنن التّرمذي: كتاب الإيمان / باب ما جاء في وصف جبرائيل للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الإيمان والإسلام.

البَصْري أوَّلاً، وقد سَلَكَ سبيله كثيرٌ من أهل البَصْرَة. وأمَّا غيلان الدّمشقي؛ فكان يسكن دمشق، وأبوه كان مولى لعُثمان بن عفَّان. قال الأوزاعي: «قدِمَ علينا غيلان القَدَري في خلافة هشام بن عبد الملك، فتكلَّم غيلان، وكان رجلاً مُفوَّهاً، ثُمَّ أكثر النّاس الوقيعة فيه والسّعاية بسبب رأيه في القَدَر، وأحْفَظوا هشام بن عبد الملك عليه، فأمر بقَطْع يدَيْه، ورجليْه، وقَتْلِه، وصَلْبِه!».

وقد رُوِيَ أنَّ غيلان وقف يوماً على ربيعة الرّأي، فقال له: أنت الذي تزعم أنَّ الله يُحبُّ أنْ يُعْصَى؟! فقال له ربيعة: أنت الذي تزعم أنَّ الله يُعْصَى قَسْراً؟!. وَحُكِيَ «أنَّ عُمر ابن عبد العزيز بلغه أنَّ غيلان وفُلاناً نطقا في القَدَر، فأرسل إليهما، فقال: ما الأمْر الذي تنطقان به! فقالا: هُو ما قال الله يا أمير المُؤمنين، قال: وما قال الله؟ قالا: قال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ ثُمَّ قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، ثُمَّ سكتا؛ فقال عُمر: اقرأا، فقرأا حتَّى بلغا ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ الإنسان/ 29_30؛ قال عُمر: كيف تريان؟ تأخذان الفُرُوع، وتدعان الأُصُول!؟ قال ابن مُهاجر: ثُمَّ بلغ عُمر أنَّهما أسرفا، فأرسل إليهما وهُو مغضَب. فقال عُمر ـ وكُنتُ خلفه قائماً، حتَّى دخلا عليه، وأنا مُستقبلهما، فقال لهما: ألم يكن في سابق علم الله حين أمر الله إبليس بالسُّجُود ألاَّ يسجد؟ قال: فأومأتُ إليهما برأسي أنْ قُولا نَعَم، وإلاَّ فهُو الذّبح، فقالا: نعم، فقال: أولم يكن في سابق علم الله حين نهى آدم وحوَّاء عن الشّجرة أنْ يأكلا منها، فألهمهما أنْ يأكلا منها؟ فأومأتُ إليهما برأسي فقالا: نَعَم، فأمر بإخراجهما، وأمر بالكتاب إلى سائر العُمَّال بخلاف ما يقولان، وأمسكا عن الكلام. فلم يلبثا إلاَّ يسيراً حتَّى مرض عُمر، ومات، ولم يُفِدِ الكتاب، وسال بعد ذلك منهما السّيل»[1].

فترى من هذا انتشار القول في القضاء والقَدر في هذا العصر، وشدَّة الجَدَل في هذا الأمْر بين المُتخاصمين. وقد اختلف الباحثون في منبع هذه الحركة: هل هُو العراق أو الشّام؟! وأيّاً كان الأمْر، فالقول في القضاء والقَدَر كثُر في العراق، وفي الشّام، وحتَّى في المدينة.

---

(1) "فجر الإسلام": أحمد أمين: ص 285_286.

وعلى العكس من هؤلاء القَدَرِيَّة طائفة الجَبْرِيَّة، وكان من أوَّلهم "جُهَمُ بن صفوان" - ومن هُنا سُمِّيت هذه الفرقة بالجُهَمِيَّة -، وكان يقول: إنَّ الإنسان مجبورٌ، لا اختيار له، ولا قُدرة، وإنَّه لا يستطيع أنْ يعمل غير ما عمل، وإنَّ الله قدَّر عليه أعمالاً لا بُدَّ أنْ تصدر منه، وإنَّ الله يخلق فيه الأفعال كما يخلق في الجماد، فكما يجري الماء، وكما يتحرَّك الهواء، ويسقط الحجر، فكذلك تصدر الأفعال عن الإنسان، يُصْدِرُها اللهُ فيه، وتُنْسَبُ إلى الإنسان مجازاً، كما تُنْسَبُ إلى الجمادات، فكما يُقال: أثمرت الشّجرة، وجرى الماء، وطلع الشّمس، وأمطرت السّماء، وأنبتت الأرض، كذلك يُقال: كَتَبَ مُحمَّد، وقضى القاضي، وأطاع فُلان، وعصى فُلان، كُلُّها من نوع واحد على طريق المجاز، والثّواب والعقاب جَبْر، كما أنَّ الأفعال جَبْر، والله قدَّر لفُلان فعْل كذا، وقدَّر له أنْ يُثاب، وقدَّر على الآخر المعصية، وقدَّر للآخر أنْ يُعاقَب!

واشتهر بهذا القول جُهَمُ بن صَفْوان، وهُو من أهل خُراسان، من الموالي، وأقام بالكُوفة، وكان فصيحاً خطيباً، يدعو النّاس، فيجذبهم إلى قوله. ظهر مذهبه ترمذ؟؟؟؟؟، وكان كاتباً (وزيرا) للحارث بن صريح، وقد خرج الحارث هذا على بني أُميَّة في خُراسان، فاتَّبعه كثير من أهلها، وكان يدعو إلى العمل بكتاب الله، وسُنَّة رسوله، واستعمال أهل الخير والفضل، وقد هُزِم الحارث، وأُسر جُهَمُ بن صفوان، فَقُتل، ثُمَّ قُتل الحارث سنة 128 هـ، ومن هذا ترى أنَّ الجُهَمَ - أيضاً - قُتل لأمرٍ سياسي، لا علاقة له بالدِّين.

ولم يشتهر الجُهَمُ بمسألة الجَبْر فحسب، بل تعرَّض لشيء آخر لا يقلُّ عنه أهمِّيَّة؛ وهُو القول بنَفْي صفات الله الزّائدة على ذاته، ذلك أنَّه وَرَدَتْ في القُرآن آيات كثيرة تدلُّ على أنَّ لله صفاتٍ من سَمْع وبَصَر وكلام.. إلخ، فَنَفَى جُهَمُ ظاهر هذه الآيات، وقال: إنَّ ظاهرها يدلُّ على التّشبيه؛ إذْ لا يصلح وصف الله بصفة يُوصف بها خَلْقه؛ لأنَّ ذلك يقتضي تشبيهه بالمخلوق، وهُو مُستحيلٌ على الله، فيجب تأويل ذلك، وصرفه عن ظاهره؛ لأنَّ ظاهره غير مُراد، وأدَّاه ذلك للقول - أيضاً - بأنَّ القُرآن مخلوق خَلَقَهُ الله، وكان ذلك نتيجة طبيعيَّة لنَفْيه الصّفات، فإذا كان الله لا يتكلَّم بالمعنى المفهوم لدى الإنسان من التّكلُّم بالحُرُوف والأصوات، بل هُو يخلق الكلام، ويُظهره، كان كلامه - أيْ القُرآن وسائر الكُتُب السّماويَّة -

مخلوقة من قِبَلِهِ، كما قال: إنَّ الله - تعالى - لا يُرى بالعين يوم القيامة؛ لأنَّه لا تُدركه الأبصار، وليس بجسم، وليس له أبعاد حتَّى يُرى . . ، وقال: «إنَّ الجنَّة والنَّار تفنيان، ويفنى أهلهما، حتَّى يكون الله - سُبحانه - آخراً، لا شيء معه، كما كان أوَّلاً، لا شيء معه»[1] و «إنَّ الجنَّة والنَّار تفنيان بعد دُخُول أهلهما فيهما، وتلذُّذ أهل الجنَّة بنعيمها، وتألُّم أهل الجنَّة بجحيمها؛ إذْ لا يُتصوَّر حَرَكَات لا تتناهى آخراً، كما لا تُتصوَّر حَرَكَات لا تتناهى أوَّلاً»[2].

وعلى أيِّ حال؛ فإنَّ تلك الآراء الخلافيَّة: الإمامة وشرُوطها، حُكْم مُرتكب الكبيرة، الإنسان مُجبَرٌ أم مُخَيَّرٌ، صفات الله الخَبَريَّة، وطريقة فَهْمها وتفسيرها، ما معنى كلام الله؟ وهل هُو مخلوق أم هُو صفة لله غير مخلوقة؟ هل الله - تعالى - يُرى بالعين أم لا؟ هل الجنَّة والنَّار مخلوقتان أم لا؟ . . . إلخ. شكَّلت جميعها بداية ما عُرف بعلم الكلام؛ أيْ علم الجَدَل، والعقائد الدِّينيَّة، وأُصُول الدِّين، وسبب تسميته بعلم الكلام هُو أنَّ أهمَّ وأخطرَ المسائل التي بُحِثت فيه كانت مسألة الكلام الإلهي: أيْ هل القُرآن مخلوق أم غير مخلوق؟ يرى آخرون أنَّ التَّسمية جاءت من كون المُجادلين والمُقرِّرين في هذا العلم يبدؤون كلامهم - عادة - بقولهم: الكلام في كذا وكذا . . . والكلام في كذا هُو كذا . . إلخ، فأخذ هذا العلم اسم "علم الكلام".

هكذا ظهرت الأفكار والمذاهب الكلاميَّة المُختلفة التي تذكر كُتُبُ الفرَق أسماء عديدة لها، والتي مرَّ معنا بعضها كالجُهَميَّة والقَدَريَّة والجَبْريَّة . . . ، إلاَّ أنَّ هذه الفرَق والآراء الصَّغيرة لم يعد لها وُجُود مُستقلٌّ، بل ذابتْ، وامتُصَّت آراؤها في الفرَق الأكبر التي ظهرت وتبلورت شيئاً فشيئاً، ولن نتعرَّض لكُلِّ الفرَق والأسماء التي ذُكرت في كُتُب الفرَق والمذاهب، بل سنقتصر - فيما يلي - على شَرْح الفرَق الرَّئيسيَّة التي كان لها شأن كبير، وبقيت مُستمرَّة ومُتطوِّرة إلى يومنا هذا؛ وهي الفرَق الكلاميَّة الرَّئيسيَّة بين أهل السُّنَّة والجماعة؛ أعني:

(1) التَّيَّار العامّ أو السَّواد الأعظم: المُحدِّثين والفُقَهَاء أهل السُّنَّة والجماعة.

---

(1) "مقالات الإسلاميِّين واختلاف المُصلِّين": أبو الحَسَن الأشعري: 1/ 164.

(2) "المِلَل والنِّحَل": الشَّهرستاني: 1/ 87.

(2) المُعتزلة.

(3) أصحاب الحديث الأَثَريَّة: ورأيتُ أنَّ الدِّقَّة تقتضي تقسيمهم إلى قسمَيْن: القسم الأوَّل: الحَشَويَّة المُشَبِّهَة (الصُّرحاء في التّشبيه)، والقسم الثّاني: الأَثَريَّة من الحنابلة (واختلفوا في الحَشَويَّة والتّشبيه بين مُقترب من ذلك، ومُجانب له، ومُتوسِّط فيه).

(5) الأشاعرة.

(6) الماتريديَّة.

(1) السَّواد الأعظم: أهل السُّنَّة والجماعة:

ذكرنا أنَّ أهل السُّنَّة والجماعة مثَّلوا ذلك التَّيَّار العامَّ أو "السَّواد الأعظم" الذين والوا جميع أُولي الأَمْر، والتزموا الجماعة، فترضَّوا على جميع الخُلفاء الرّاشدين الأربعة، وقالوا بأفضليَّتهم على مَنْ سواهم من الصّحابة، حسب ترتيبهم في الخلافة، وقبلوا ـ من النّاحية السِّياسيَّة ـ حُكْم مَنْ ولي الأَمْر بعدهم، أوتغلَّب على الحُكْم من بني أُميَّة، ثُمَّ بني العبَّاس، ومَنْ بعدهم، كما ترضَّوا، وترحَّموا على جميع صحابة النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وأهل بيته وأزواجه وقرابته، ورجعوا إليهم جميعاً في أخذ عُلُوم الدِّين: القُرآن والحديث والسِّيرة، حتَّى ظهر بينهم القُرَّاء والفُقَهَاء والمُحدِّثون، من كبار التّابعين، ومن أشهرهم تلاميذ ابن عبَّاس في مكَّة، وابن مسعود في الكُوفة، علاوة على تلاميذ سائر عُلماء الصّحابة الذين انتشروا في مكَّة، والمدينة، والكُوفة، والبَصْرَة، والشّام، ومصر، الذين ظهر منهم فُقَهَاء المدينة السّبعة، وأوائل مُدوِّني الحديث... إلى أنْ وصل العهد إلى كبار أئمَّة الفقه والحديث؛ سواء كانوا من أصحاب الرّأي؛ كأكثر فُقَهَاء العراق كالنّخعي، وأبو حنيفة، وابن أبي ليلى... إلخ، أو من أصحاب الحديث كأكثر فُقَهَاء المدينة والشّام؛ كمالك، والأوزاعي، وأحمد بن حَنْبَل؛ وإسحق بن راهويه، وداود بن عليّ الظّاهري، أو مَنْ جَمَع بين المشربَيْن؛ كالشّافعي، والإمام مالك بن أنس أيضاً، واللّيث بن سعد، والطّبري.. إلخ.

وكان هؤلاء المُحدِّثون والفُقَهَاء ـ الذين يُمثِّلون سَلَف أهل السُّنَّة ـ يُظهرون رأي السُّنَّة كُلَّما ظهرت آراء للمذاهب الأُخرى؛ سواء الشِّيعيَّة أو الخَوَارجيَّة، بدت لهم مُخالفة للسُّنَّة،

فبدأت تتبلور - مع الوقت - مجموعة من الأُصُول الجامعة لأهل السُّنَّة والجماعة التـي تُميِّزهم من غيرهم من الفِرَق التي أصبحت تُعْتَبر - مُنْذُ عهد الأُمويِّين - بأنَّها من أهل الأهواء والبدَع.

هذا؛ وقد لخَّص الإمام أبو الحَسَن عليّ بـن إسـماعيل الأشـعري (270 - 330 هـ) - أحـد أبرز المُنظِّرين الفكْريِّين لمذهب أهـل السُّـنَّة - في كتابه القيِّـم: "مقـالات الإسـلاميِّين واختـلاف المُصلِّين"، الذي ذَكَرَ فيه بالتَّفصيل مقالات جميع الفِرَق والمذاهب الإسلاميَّة، تلـك الأُصُـول الجامعـة لأهـل السُّـنَّة، في قائمـة مُفصَّلـة، تُمثِّـل - في الواقـع - البنيـان العقـائدي، أو المذهـب الكلامي لأهل السُّنَّة والجماعة، نذكرها بنصِّها فيما يلي:

قال، تحت عُنوان "حكاية جُملة قول أصحاب الحديث وأهل السُّنَّة":

[جُملة ما عليه أهل الحديث والسُّنَّة:

- الإقرار بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورُسُله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثِّقات عـن رسول الله، لا يردُّون من ذلك شيئاً، وأنَّ الله - سُبحانه - إلهٌ واحدٌ فَرْدٌ صمدٌ لا إلَهَ غـيره، لـم يتَّخذ صاحبة، ولا ولداً، وأنَّ مُحمَّداً عبده ورسـوله، وأنَّ الجَنَّـة حـقٌّ، وأنَّ النَّـار حَـقٌّ، وأنَّ السَّاعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث مَنْ في القُبُور.

- وأنَّ الله - سُبحانه - على عرشه كما قـال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، وأنَّ لـه يدَيْن بلا كيف، كما قال: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾، وكما قال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾، وأنَّ له عينَيْن بلا كيف، كما قال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾، وأنَّ له وجهاً، كما قال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾.

- وأنَّ أسـماء الله لا يُقَـال إنَّـها غير الله كمـا قـالت المُعتزلـة والخَـوَارج. وأقـرُّوا أنَّ الله - سُبحانه - علماً، كما قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾، وكما قال: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾.

- وأثبتوا السَّمْعَ والبَصَرَ، ولم ينفوا ذلك عن الله، كما نفته المُعتزلـة، وأثبتـوا للَّـه القُـوَّة كما قال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾.

ـ وقالوا: إنَّه لا يكون في الأرض من خيرٍ ولا شرٍّ إلاَّ ما شاء الله، وإنَّ الأشياء تكون بمشيئة الله، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وكما قال المسلمون: ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون.

ـ وقالوا: إنَّ أحداً لا يستطيع أنْ يفعل شيئاً قبل أنْ يفعله، أو يكون أحد يقدر أنْ يخرج عن علْمِ الله، أو أنْ يفعل شيئاً عَلِمَ الله أنَّه لا يفعله، وأقرّوا أنَّه لا خالق إلاَّ الله، وأنَّ سيِّئات العباد يخلقها الله، وأنَّ أعمال العباد يخلقها الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ العباد لا يقدرون أنْ يخلقوا شيئاً، وأنَّ الله ـ سُبحانه ـ وفَّق المُؤمنين لطاعته، وخَذَلَ الكافرين، ولطف بالمؤمنين، ونَظَرَ لهم، وأصلحهم، وهداهم، ولم يلطف بالكافرين، ولا أصلحهم، ولا هداهم، ولو أصلحهم، لكانوا صالحين، ولو هداهم، لكانوا مُهتدين، وأنَّ الله ـ سُبحانه ـ يقدر أنْ يُصلح الكافرين، ويلطف بهم، حتَّى يكونوا مُؤمنين، ولكنَّه أراد أنْ لا يُصلح الكافرين، ويلطف بهم، حتَّى يكونوا مُؤمنين، ولكنَّه أراد أنْ يكونوا كافرين كما علم، وخَذَلَهُم، وأضَلَّهُم، وطَبَعَ على قُلُوبهم، وأنَّ الخير والشَّرَّ بقضاء الله وقَدَره، ويُؤمنون بقضاء الله وقَدَره؛ خيره وشَرِّه، حُلوه ومُرِّه، ويُؤمنون أنَّهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، إلاَّ ما شاء الله كما قال، ويُلْجِئُون أمرهم إلى الله ـ سُبحانه ـ، ويُثْبِتُون الحاجة إلى الله في كُلِّ وقت، والفَقْر إلى الله في كُلِّ حال.

ـ ويقولون: إنَّ القُرآن كلام الله غير مخلوق، والكلام في الوَقْف، واللَّفظ مَنْ قال باللَّفظ، أو بالوَقْف، فهُو مُبتدع عندهم، لا يُقال اللَّفظ بالقُرآن مخلوق، ولا يُقال غير مخلوق.

ـ ويقولون: إنَّ الله ـ سُبحانه ـ يُرَى بالأبصار يوم القيامة، كما يُرَى القمر ليلة البدر، يراه المُؤمنون، ولا يراه الكافرون؛ لأنَّهم عن الله محجوبون؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ وأنَّ مُوسَى ـ عليه السَّلام ـ سأل الله ـ سُبحانه ـ الرُّؤية في الدُّنيا، وأنَّ الله ـ سُبحانه ـ تجلَّى للجبل، فجعله دكّاً، فأعلمه ـ بذلك ـ أنَّه لا يراه في الدُّنيا، بل يراه في الآخرة.

ـ ولا يُكَفِّرونَ أحداً من أهل القِبْلة بذنبٍ يرتكبه، كنحو الزِّنا، والسَّرقة، وما أشبه ذلك من الكبائر، بل هُم ـ بما معهم من الإيمان ـ مُؤمنون، وإنْ ارتكبوا الكبائر، والإيمان عندهم هُو الإيمان بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورُسُله، وبالقَدَر خيره وشَرِّه، حُلوه ومُرِّه، وأنَّ ما أخطأهم

لم يكن ليُصيبهم، وما أصابهم لم يكن ليُخطئهم. والإسلام هُو أنْ يشهد أنْ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ مُحمَّداً رسول الله على ما جاء في الحديث والإسلام عندهم غير الإيمان.

- ويُقرُّون بأنَّ الله - سبُحانه - مُقلِّب القُلُوب.

- ويُقرُّون بشفاعة رسول الله، وأنَّها لأهل الكبائر من أُمَّته، وبعذاب القبر، وأنَّ الحوض حقٌّ، والصِّراط حقٌّ، والبعث بعد الموت حقٌّ، والمُحاسبة من الله - عَزَّ وجَلَّ - للعباد حقٌّ، والوُقُوف بين يدَيْ الله حقٌّ.

- ويُقرُّون بأنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ يزيد وينقص، ولا يقولون مخلوقٌ، ولا غير مخلوقٍ، ويقولون: أسماء الله هي الله.

- ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنّار، ولا يحكمون بالجنَّة لأحد من المُوحِّدين، حتَّى يكون الله - سبُحانه - يُنزلهم حيثُ شاء، ويقولون: أمرهم إلى الله، إنْ شاء عذَّبهم، وإنْ شاء غَفَرَ لهم.

- ويُؤمنون بأنَّ الله - سُبحانه - يُخرج قوماً من المُوحِّدين من النّار على ما جاءت به الرّوايات عن رسول الله (صلَّى الله عليه وسلَّم).

- ويُنكرون الجَدَل والمراء في الدِّين، والخُصُومة في القَدَر والمُناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجَدَل، ويتنازعون فيه من دينهم بالتّسليم للرّوايات الصّحيحة، ولما جاءت به الآثار التي رواها الثّقات عدلاً عن عَدْل، حتَّى ينتهي ذلك إلى رسول الله، ولا يقولون: كيفَ ولمَ؛ لأنَّ ذلك بدْعة.

- ويقولون: إنَّ الله لم يأمر بالشَّرِّ، بل نهى عنه، وأمر بالخير، ولم يرضَ بالشَّرِّ، وإنْ كان مُريداً له.

- ويعرِفون حقَّ السَّلَف الذين اختارهم الله - سُبحانه - لصُحْبَة نبيِّه، ويأخذون بفضائلهم، ويُمسكون عمَّا شَجَرَ بينهم؛ صغيرهم وكبيرهم، ويُقدِّمون أبا بكر، ثُمَّ عُمر، ثُمَّ عُثمان، ثُمَّ عليّاً، رضوان الله عليهم، ويُقرون أنّهم الخُلفاء الرّاشدون المهديُّون أفضل النّاس كُلّهم بعد النّبي ﷺ.

- ويُصدِّقون بالأحاديث التي جاءت عن الرّسول ﷺ أنَّ الله - سُبحانه - ينـزل إلى السّماء الدُّنيا، فيقـول: هـل مـن مُستغفر؟ كما جاء الحديث عن رسـول الله، ويأخذون بالكتاب والسُّنَّة، كما قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾.

- ويرون اتِّباع مَنْ سَلَف من أئمَّة الدِّين، وأنْ لا يبتدعوا في دينهم ما لم يأذن به الله.

- ويُقرُّون أنَّ الله - سُبحانه - يجيء يوم القيامة كما قال: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا ﴾ وأنَّ الله يَقْرُبُ من خلقه كيف شاء؛ كما قال: ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾.

- ويرون العيد والجُمعة والجماعة خلف كُلِّ إمام برٍّ وفاجرٍ.

- ويُثْبِتُون المَسْحَ على الخُفَّين سُنَّة، ويرونه في الحَضَر والسَّفَر.

- ويُثْبِتُون فَرْضَ الجهاد للمُشركين مُنـذُ بعث الله نبيَّه إلى آخر عصابة تُقاتل الدَّجَّال وبعد ذلك.

- ويرون الدُّعاء لأئمَّة المُسلمين بالصَّلاح، وأنْ لا يخرجوا عليهم بالسَّيف، وأنْ لا يُقاتلوا في الفتنة.

- ويُصدِّقون بخُرُوج الدَّجَّال، وأنَّ عيسى بن مريم يقتله.

- ويُؤمنون بمُنكر ونكير، والمعراج، والرُّؤيا في المنام، وأنَّ الدُّعاء لموتى المُسلمين، والصَّدَقَة عنهم بعد موتهم تصل إليهم.

- ويصدِّقون بأنَّ في الدُّنيا سَحَرَة، وأنَّ السَّاحر كافر، كما قال الله، وأنَّ السِّحْر كائن موجود في الدُّنيا.

- ويرون الصَّلاة على كُلِّ مَنْ مات من أهل القِبْلَة برِّهم وفاجرهم وموارثتهم.

- ويُقرُّون أنَّ الجنَّة والنَّار مخلوقتان.

- وأنَّ مَنْ مات مات بأجله، وكذلك مَنْ قُتِل قُتل بأجله، وأنَّ الأرزاق من قِبَل الله - سُبحانه - يرزقها عباده حلالاً كانت أم حراماً، وأنَّ الشَّيطان يُوسوس للإنسان، ويُشكِّكه، ويخبطه.

ـ وأنَّ الصّالحين قد يجوز أنْ يخصَّهم الله بآيات تظهر عليهم .

ـ وأنَّ السُّنَّة لا تُنسخ بالقرآن .

ـ وأنَّ الأطفال أمرهم إلى الله ؛ إنْ شاء عذَّبهم ، وإنْ شاء فعل بهم ما أراد .

ـ وأنَّ الله عالم ما العباد عاملون ، وكَتَبَ أنَّ ذلك يكون ، وأنَّ الأُمُور بيد الله .

ـ ويرون الصّبر على حُكْم الله ، والأخذ بما أمر الله به ، والانتهاء عمَّا نهى الله عنه ، وإخلاص العمل ، والنّصيحة للمُسلمين ، ويدينون بعبادة الله في العابدين ، والنّصيحة لجماعة المُسلمين ، واجتناب الكبائر ، والزّنا ، وقول الزُّور ، والعَصَبيَّة ، والفخر ، والكبَر ، والإزراء على النّاس ، والعجب .

ـ ويرون مُجانبة كُلّ داعٍ إلى بدْعة ، والتّشاغل بقراءة القُرآن ، وكتابة الآثار ، والنَّظَر في الفقْه ، مع التّواضع ، والاستكانة ، وحُسْن الخُلُق ، وبَذْل المعروف ، وكَفّ الأذى ، وتَرْكَ الغيبة والنّميمة والسّعاية ، وتفقُّد المأكل والمشرب .

فهذه جُملة ما يأمرون به ، ويستعملونه ، ويرونه ، وبكُلّ ما ذكرنا من قولهم نقول ، وإليه نذهب ، وما توفيقنا إلاّ بالله ، وهُو حسبنا ، ونعم الوكيل ، وبه نستعين ، وعليه نتوكَّل ، وإليه المصير][1] .

(2) المُعتزلة:

لم تكن المُعتزلة أوَّل الفرَق الكلاميَّة نُشُوءاً ، فقد سَبَقَتْهَا في النّشأة فرَقٌ كالجُهَميَّة ، والقَدَريَّة ، ولكنَّ المُعتزلةَ أهمُّ فرقة عرضت موضوعات علم الكلام في نَسَقٍ مذهبيٍّ مُتكامل ، بل لقد أصبحت مسائل علم الكلام تُناقَش في إطار الحُدُود التي وَضَعَهَا رجال المُعتزلة [2] ،

(1) أبو الحَسَن الأشعري : "مقالات الإسلاميِّين واختلاف المُصلّين" : ج1/ ص 290 ـ 295 .

(2) لويس جارديه وجُورج قنواتي : فلسفة الفكْر الدّيني بين الإسلام والمسيحيَّة ، نقله إلى العَرَبيَّة الشّيخ الدُّكتُور صُبحي الصّالح ، والأب الدُّكتُور فريد جبر ، بالجامعة اللُّبنانيَّة ، بيرُوت : دار العلم للملايين ، 1967م ، ج1/ ص 91 .

ويعترف لهم خُصُومهم - فضلاً عن المُنصفين - بذلك، يقول أبو الحُسَين المَلَطي[1] - وهُو من الخُصُوم -: إنَّهم أرباب الكلام، وأصحاب الجَدَل، والتَّمييز، والنَّظَر، والاستنباط، والحُجج على مَنْ خالفهم وأنواع الكلام، والمُفرِّقون بين علم السَّمْع وعلم العَقْل، والمُنصفون في مُناظرة الخُصُوم، ويقول عنهم الإسفراييني[2] - من الخُصُوم أيضاً -: إنَّهم أوَّل فرقة أرسوا قواعد الخلاف، أمَّا من المُنصفين؛ فيقول عنهم القاسمي: إنَّهم أوَّل مَنْ ظهر من الفرَق الإسلاميَّة في صدر حضارة الإسلام بقواعد الأُصُول على الجَمْع بين المنقول والمعقول، وإنَّهم من أعظم الفرَق رجالاً، وأكثرهم أتباعاً[3].

ولا ترجع أهميَّة المُعتزلة إلى دورها البارز في علم الكلام فحسب، أو أنَّها تُمثِّل النَّزعة العَقْليَّة في الفكْر الإسلامي فقط، بل إلى مكانتها في الحضارة الإسلاميَّة إبَّان ازدهارها، ولا أعني بذلك - فقط - أنَّهم كانوا أشدَّ المُدافعين عن الإسلام فكْراً وجَدَلاً ضدَّ أصحاب الدّيانات الأُخرى، فضلاً عن الزّنادقة، وإنَّما هُناك خصائص حضاريَّة لم تجد - بعدُ - من عناية الباحثين قدر بيان نزعتهم العَقْليَّة؛ إيجابيَّتها أو سلبيَّتها، مناقبها ومثالبها، محاسنها ومُساوئها.

من أهمِّ هذه الخصائص الحضاريَّة ما يأتي:

إنَّ المسار التّاريخي للمُعتزلة قد صاحب المسار التّاريخي للحضارة الإسلاميَّة ازدهاراً وانهياراً، بمعنى؛ أنَّ ازدهار الاعتزال كان في أوج الحضارة الإسلاميَّة في القرن الثّالث الهجري، كما أنَّ غياب المُعتزلة عن مسرح الحياة الإسلاميَّة قد اقترن بتدهور هذه الحضارة، ولم تكن الحال كذلك بالنّسبة لأيَّة فرقة كلاميَّة أُخرى. فهل كان ذلك محض مُصادفة؟

إنَّ الأغلبيَّة السّاحقة من رجال هذه الفرقة كانت من الموالي، بل من أصحاب الحرَف، وأهميَّة ذلك حضاريّاً ترجع إلى ما يأتي:

---

(1) الملطي (أبو الحُسَين مُحمَّد أحمد بن عبد الرّحمن الملطي الشّافعي): "التّنبيه والرّدّ على أهل الأهواء والبدَع" ط2، القاهرة: المكتبة الأزهريَّة للتُّراث، 1977، بتحقيق الشّيخ مُحمَّد زاهد الكوثري، ص 35-36.

(2) الإسفراييني (أبو المُظفَّر طاهر بن مُحمَّد): "التّبصير في الدّين وتمييز الفرقة النّاجية عن الفرَق الهالكين" الطّبعة القديمة، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1955، بتحقيق مُحمَّد زاهد الكوثري، ص 53.

(3) جمال الدّين القاسمي: تاريخ الجَهْميَّة والمُعتزلة.

أ ـ إنَّ مبدأ المُساواة قد تحقَّق في الحضارة الإسلاميَّة على نحو جعل رُوَّاد الفكْر أُناساً من الشُّعُوب المغلوبة، بل من الطَّبقات الدُّنيا.

ب ـ لا يُعَدُّ كونهم من الموالي سبباً للتَّشكُّك في إيمانهم، أو اعتبار رواسب حضاريَّة ودينيَّة قد خالطت اعتقادهم؛ إذْ إنَّ مُعظم حَمَلَة العلم في الإسلام ـ كما لاحظ ابن خلدون بحقٍّ ـ كانوا من العجم، ذلك أنَّ الملَّة في أوَّلها لم يكن فيها علم ولا صناعة لِمُقتضى أحوال السَّذاجة والبداوة في العَرَب، ولمَّا كان علم الكلام ـ مثله في ذلك كمثل سائر العُلُوم التي تلتزم نوعاً من التَّحضُّر ـ كان الموالي أسرع من عَرَب البادية إلى نيلها والنُّبُوغ فيها؛ لأنَّهم أقدر عليها للحضارة الرَّاسخة فيهم [1].

ج ـ ويُشير ابن خلدون إلى سبب آخر في ذلك، وهُو أنَّ العَرَب حين خرجوا من البداوة إلى الحضارة شغلتهم الرِّياسة، ومُقتضيات أعباء الدَّولة من السِّياسة والإدارة عن القيام بالعلم والنَّظَر، وسيأتي بيان ذلك بصدد ظُرُوف نشأة المُعتزلة.

نشأة المُعتزلة:

هُناك عدَّة روايات عن كيفيَّة ابتداء هذه الفرقة، واتِّخاذها هذا الاسم أوَّل مرَّة، أشهرها وأدعاها للقبول ـ في رأيي ـ هي التي تقول: «أنَّه دخل واحد على الحَسَن البَصْري ـ وهُو يُلقي درساً في مسجد البَصْرَة ـ فقال: يا إمام الدِّين؛ لقد ظهرت في زماننا جماعةٌ يُكَفِّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كُفْر يُخْرَجُ به عن الملَّة، وهُم وعيديَّة الخَوَارج، وجماعةٌ يُرجِئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضرُّ مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس رُكناً من الإيمان، ولا يضرُّ مع الإيمان معصيَّةٌ، كما لا ينفع مع الكُفْر طاعة، وهُم مُرجئة الأُمَّة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟؟ فتفكَّر الحَسَن في ذلك، وقبل أنْ يُجيب، قال واصل بن عطاء: ـ وكان تلميذاً للحَسَن البَصْري وحاضراً في دَرْسه ـ أنا لا أقول إنَّ صاحب الكبيرة مُؤمن مُطلقاً، ولا كافرٌ مُطلقاً، بل هُو في منزلة بين المنزلتَيْن، لا مُؤمن ولا كافر، ثُمَّ قام، واعتزل إلى أُسطوانة (أيْ عمود) من أُسطوانات المسجد يُقرِّرُ ما أجاب

---

(1) ابن خلدون: المُقدِّمة، (فَصْل في أنَّ حَمَلَةَ العلم في الإسلام أكثرهم العجم)، ص 401 ـ 402.

به على جماعة من أصحاب الحَسَن، فقال الحَسَن: «اعتزل عنَّا واصل» فسُمِّيَ هُو وأصحابه مُعتزلة»[1].

ويقول رأيٌ آخرُ إنَّ «الاعتزال» أقدم من ذلك، فالمُعتزلة هُم الذين لم يشتركوا في حرب الجَمَل، ولم يُشهروا سُيُوفهم في موقعة صفِّين نتيجة لعقيدة مُعيَّنة تخلص في أنَّهم لم يستبينوا أيَّ الفريقَيْن كان صاحب حقٍّ، وأيُّهما الباغي، والتمسوا الآية الكريمة: ﴿ طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ ولمَّا لم يعرفوا الباغي التزموا جانب الاعتزال[2].

وثمَّة رأيٌ ثالثٌ يقول: إنَّ مذهب الاعتزال من حيثُ الفكْرة والعقيدة اللَّتَيْن قال بهما واصل بن عطاء وعَمرو بن عُبَيْد، إنَّما ينتهي في الواقع إلى عليِّ بن أبي طالب؛ لأنَّ واصلاً أخذ عن مُحمَّد بن عليِّ بن أبي طالب (المعروف بمُحمَّد بن الحَنَفيَّة)، وأنَّ مُحمَّداً أخذ عن أبيه الإمام عليٍّ ﷺ. ويُؤيِّد هذا الرَّأي أنَّ الزّيديَّة - وهُم من شيعة عليٍّ - مُعتزلةٌ في أُصُولهم كُلِّها إلاَّ مسألة الإمامة، وأنَّ زيداً كان تلميذاً لواصل بن عطاء تلميذ مُحمَّد بن الحَنَفيَّة.

وقد حاول بعض الباحثين[3] إيجاد صلة بين الاعتزال بالمفهوم السِّياسي وبين الاعتزال بالفهوم الكلامي، مُستندين - في ذلك - إلى أنَّ مُشكلة الحُكْم على فاعل الكبيرة ذات طابع سياسي، وأنَّ المُعتزلة - جميعاً - أعداء الأُمويِّين، وإلى ارتباط واصل بين عطاء بزيد بن علي، واحتضان الزّيديَّة لأُصُول المُعتزلة، وحين انقطعت الصِّلة بين العبَّاسيِّين والعَلَويِّين مُنذُ قيام الدَّولة العبَّاسيَّة بقي فرع بغداد على علاقة طيِّبة بالشِّيعة المُعتدلة، وهُو رأي مُوافق لما قال به الملطي - مع أنَّه من خُصُوم المُعتزلة - إذْ يقول: المُعتزلة وهُم أرباب الكلام، وأصحاب الجَدَل، والتَّمييز، والنَّظَر، والاستنباط، والحُجج على مَنْ خالفهم، وهُم سمَّوا أنفسهم مُعتزلة، وذلك عندما بايع الحَسَن بن عليٍّ - عليه السَّلام - مُعاوية، وسلَّم إليه الأَمْر؛ إذْ اعتزلوا الحَسَن

---

(1) الشَّهرستاني: "المِلَل والنِّحَل" 1/ 48.

(2) فجر الإسلام: أحمد أمين، ص 291.

(3) مقالة نيبرج عن المُعتزلة في مُقدِّمة كتاب الانتصار.

ومُعاوية وجميع النّاس، وذلك أنّهم كانوا أصحاب علي، ولزموا منازلهم ومساجدهم، وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة، فسُمّوا ـ بذلك ـ مُعتزلة [1].

ولعلّ قيمة هذه الرّواية أنّها تُلقي الضّوء على الصّلات الأُولى بين المُعتزلة والشّيعة، فضلاً عن أنَّه كثيراً ما يصحب السُّخط على مُجريات أُمُور السِّياسة من بين أهل التُّقى والورع اعتكافٌ على العلم والعبادة، يقول الدُّكتُور النَّشَّار: اعتزلَ ـ إذنْ ـ الحياةَ العامَّةَ جماعةٌ من خُلَّص المُؤمنين، رأوا الأمْر بين يدَيْ مُعاوية الطّليق، فزهدوا الدُّنيا وأمرها، ولجأوا إلى التَّعبُّد بالعلم، وسُرعان ما تناسوا السّبب السِّياسي في اعتزالهم [2].

غير أنَّه ـ من ناحية أُخرى ـ يعيب هذه الرّواية أنَّ رأس المُعتزلة هُو واصل ابن عطاء لم يكن مُشايعاً لعلي، بلى إنَّه أدان الفريقَيْن المُتحاربَيْن: عليّ وخُصُومه، وأنَّ الاعتزال ـ بالمفهوم السِّياسي ـ إنَّما أُطلق على فريق من الصّحابة من أمثال سعد بن أبي وقّاص، وعبد الله بن عُمر بن الخطّاب، وأُسامة بن زيد، ممَّنْ اعتزلوا عليّاً وخُصُومه، ومن ثمَّ؛ فإنَّ المُعتزلة المُتكلّمين إنَّما هُم امتداد للمُعتزلة السِّياسيِّين، الذين وقفوا موقف الحيادي في النّزاع بين أنصار عليّ ومُعاوية، ثُمَّ بين أنصار ذُرِّيَّة عليّ والخُلفاء الأُمويِّين فيما بعد.

على أنَّه من العسير أنْ نجد صلة واضحة بين المُعتزلة السِّياسيِّين والمُعتزلة الكلاميِّين إلاَّ في الاشتراك اللُّغوي للفظ الاعتزال: الحياد بين فئتَيْن مُتنازعتَيْن، أو تعليق الحُكْم بصدد رأيَيْن مُختلفَيْن.

وإذا كانت المصادر التّاريخيَّة لا تمدُّنا بالرّأي الحاسم في الموضوع، وإذا كانت حادثة خُرُوج واصل على الحَسَن البَصْري، أو حتَّى رأي واصل بصدد فاعل الكبيرة لا يُفسِّر الوزن الحقيقي لفرقة كالمُعتزلة في مجال الفكْر الإسلامي بعامَّة وعلم الكلام بخاصَّة، وحينما يعجز ظاهر التّاريخ علينا أنْ نسبر باطنه، ومن ثمَّ؛ فإنَّ التّفسير العَقْلي هُو وحده يُفسِّر قيام المُعتزلة والدّور الذي قامت به في الفكْر الإسلامي، ذلك إنَّه لا يصحُّ تعليق عظائم الأُمُور ـ لاسيما في

---

(1) الملطي (أبو الحُسَين): "التّنبيه والرَّدّ على أهل الأهواء والبدَع" بتحقيق مُحمَّد زاهد الكوثري، ص 36.

(2) د. عليّ سامي النَّشّار: نشأة الفكْر الفلسفي في الإسلام، الإسكندريَّة: دار المعارف، ج 1/ ص 439 ـ 431.

مجال الفكر - على أنفه الأحداث، وإنَّما المُشكلة الحقيقيَّة التي عنها انبثق المُعتزلة - باعتبارهم أصحاب النَّظَر العَقْلي - هي في الإسلام، كما هي سائر الأديان: ففي كُلِّ دين كتاب مُقدَّس، وأقوال مأثورة، ولكنْ؛ ماذا لو تعارض ظاهر النَّصِّ مع العَقْل؟ أيُّهما المُرجَّح: تقديس النَّصِّ والنَّأي به عن النَّظَر العَقْلي، وذلك هُو موقف النَّصِّيِّين من أهل الظَّاهر أم تأويل ظاهر النَّصِّ كي يتمشَّى مع العَقْل، فيتسنَّى إقناع المُخالفين خُصُوصاً من أصحاب الدّيانات الأُخرى؟! أُولئك هُم المُؤوِّلة؛ ومنهم المُعتزلة، يقول القاسم الرّسي: ثلاث حُجج احتجَّ بها المعبود على العباد وهي: العَقْل والكتاب والرّسول. . . والعَقْل أصل الحُجَّتَيْن الأخيرتَيْن؛ لأنَّهما عُرِفا به، ولم يُعرَف بهما [1]. ومن الخطأ فَهْم عبارة الرَّسِّي أنَّ العَقْل مُقَدَّمٌ على الكتاب، أو الاستدلال على الإيمان تقديماً مُطلقاً، وإنَّما المُراد أنَّ الكتاب وكونَه من عند الله، والرّسولَ وكونَه مُوحى إليه، كُلُّ ذلك قد عُرِفَ بالعَقْل، فالعَقْل هُو الذي أوصلنا للشَّرْع، ولولاه لما وصلنا للشَّرْع، وإسقاط العَقْل مُؤدٍّ لإسقاط الشَّرْع نفسه، وبالتَّالي؛ فطالما أنَّ الله زَرَعَ فينا العَقْل، وتعبَّدنا به، وجعله حُجَّة ودليلاً قاطعاً ومُوصلاً لمعرفته، ومعرفة حقِّيَّة رسوله ودينه، فلا يُمكن أنْ يأتينا بشيء يُناقض بديهيَّة العَقْل، ومن هُنا؛ قالوا: إنَّه إذا تعارض ظاهر النَّصِّ مع العَقْل، فذلك يعني أنَّ النَّصَّ من المُتشابه المُؤوَّل، أو المجاز المُستعار الذي يلزم فَهْم ظاهره بنحو لا ينقض العَقْل، بل يتَّسق معه.

إنَّ وَضْع المُشكلة على هذا النّحو هُو وحده الذي يُفسِّر النّشأة الحقيقيَّة للمُعتزلة، فضلاً عن الدّور الخطير الذي أدّوه في الحضارة الإسلاميَّة، وذلك بعد أنْ عجزت الأدلَّة التّاريخيَّة عن تقديم إجابة حاسمة.

تسميات أُخرى للمُعتزلة:

ليس اسم المُعتزلة هُو وحده الذي أُطلق على هذه الفرقة، ويُحبُّ المُعتزلة أنْ يتسمّوا باسم الفرقة العَدْليَّة؛ حيثُ العَدْل أهم أُصُوله الخمسة؛ إذْ يتضمَّن أغلب نَظَراتهم، فضلاً

---

(1) القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرّسي: "أُصُول العَدْل والتّوحيد" تحقيق د. مُحمَّد عمارة، مصر: منشورات دار الهلال. ج1، ص 96.

عن أنَّ الأُصُول الثّلاثة الأخيرة لازمة عنه، ويُحبُّون أنْ يُسمُّوا أنفسهم بأهل العَدْل والتّوحيد، أمَّا خُصُومهم؛ فقد نبذوهم بعدَّة ألقاب منها (المُعطِّلة) لتنزيههم الله عن صفات المُحْدَثِين تنزيهاً ينطوي على كثيرٍ من الصّفات السّلبيَّة إلى حَدِّ التّعطيل في رأي الخُصُوم، ومنها (القَدَريَّة) لقولهم بحُرِّيَّة الإنسان، أو بالأحرى أنَّ (قَدَر) الإنسان بيده، يقول ابن الأثير: سمّوا القَدَريَّة؛ لأنَّهم أثبتوا للعبد قُدرة تُوجِدُ الفعل بانفرادها واستقلالها دُون الله تعالى، ونفوا أنْ تكون الأشياء بقَدَر الله وقضائه! ولا يُوافق المُعتزلة على هذه التُّهمة مُطلقاً، فهُم لا يُنكرون ـ بحالٍ من الأحوال ـ علم الله السّابق، وقضاءه، وقَدَرَهُ، بل كُلُّ ما يقولونه: إنَّ علم الله السّابق المُثبت في كتاب عنده هُو علمٌ كاشف لا يُؤدِّي للجَبْر، بل الله خَلَقَ الإنسان بإرادته، حُرٌّ مُختارٌ يخلق أفعاله فَيُسْأل عنها، لذلك؛ يرفضون تسميتهم بالقَدَريَّة، ويقولون لخُصُومهم: أنتم أولى بهذه التّسمية؛ لأنَّكم تقولون: إنَّ الله هُو خالق أفعال العباد ومقدِّرُها عليهم قَدَراً لازماً، ومُثبت الشّيء أحقُّ بالنِّسبة إليه من نافيه، ويبدو أنَّ نُفُور كُلٍّ فريق من أنْ يُلقَّب بهذه التّسمية راجع إلى اعتقاد الفريقَيْن بالحديث المرويّ: «القَدَريَّة مجوس هذه الأُمَّة»، ويُفسِّره الخُصُوم أنَّ المُعتزلة قد أثبتوا فاعلين: الله والإنسان، كما أنَّ المجوس قد أثبتوا إلهَيْن: النُّور والظُّلمة! ومعلوم أنَّ لَفْظَ القَدَريَّة قد أُطلق ـ أصلاً ـ على رُوَّاد القول بحُرِّيَّة إرادة الإنسان من المُتكلِّمين، وأعني بهم معبد الجُهَمي، وغيلان الدّمشقي، وعَمرو المقصوص، ولَمَّا كان هذا القول قد تبنَّاه المُعتزلة من بعدهم، فقد حاول خُصُومهم لصق التّسمية بهم.

ولُقِّبَ المُعتزلة بالجُهْمِيَّة[1]، ويبدو أنَّ الإمام أحمد بن حَنْبَل هُو أوَّل مَنْ أطلق عليهم هذا الاسم في كتابه: الرَّدُّ على الجُهْمِيَّة؛ لأنَّ مناظراته كانت في زمنه مع الجمهيَّة في القول بنفي الرُّؤيا والصّفات وخَلْق القُرآن، فضلاً عن التّأويل العَقْلي، واعتبار العَقْل مصدر المعرفة، يقول القاسمي: إنَّ تلقيبهم (أيْ المُعتزلة) بالجُهَميَّة إنَّما كان لما وجد من مُوافقتهم الجُهَميَّة في تلك المسائل، مُع مراعاة سَبْقهم فيها على المُعتزلة، وتمهيدهم السّبيل للتَّوسُّع فيها[2]، على أنَّ المُعتزلة لا يعدُّون الجُهْمَ من رجالهم أو طبقاتهم، لاختلافهم معه في مسائل جوهريَّة، فقد

---

(1) نسبة إلى الجُهَم بن صفوان من أوائل أصحاب الآراء الكلاميَّة.

(2) القاسمي الدّمشقي: تاريخ الجُهَميَّة والمُعتزلة، ص 45.

كان الجَهْمُ مُجبِّراً، والمُعتزلة قَدَريَّة، والإيمان عند الجُهَم اعتقاد في القلب، بينما هُو لدى المُعتزلة اعتقاد وقول وعمل؛ أيْ ما وَقَرَ في القول، ونَطَقَ به اللِّسان، وصَدَّقَهُ العمل.

هذه تسميات أطلقها الخُصُوم وُفقاً لموضوع الخلاف، فالصِّفاتيَّة الذين يُثبتون لله الصِّفات الخَبَريَّة يصفون المُعتزلة بأنَّهم مُعطِّلة، والقائلون بالجَبْر يُسمُّون المُعتزلة باسم القَدَريَّة، والمُرجئة ـ الذين يُرجئون الحُكْم على فاعل الكبيرة إلى يوم القيامة، إنْ شاء عذَّبه الله، وإنْ شاء غفر له ـ يُلقِّبون المُعتزلة بالوعيديَّة؛ لأنَّهم يقولون إنَّ الله صادق في وعيده، فلا يتخلَّف عذابه، كما أنَّه صادق في وعده، فلا يتخلَّف ثوابه.

والقَصْدُ من ذكْر هذه الألقاب المُتعدِّدة أنْ يعرف القارئ أنَّ المُعتزلة هُم المقصودون إنْ وَرَدَ اسمٌ من هذه الأسماء في كتاب من كُتُب الفِرَق وأصحاب المقالات من الخُصُوم، أمَّا بصدد البحث الموضوعي؛ فلا يُشار إليهم إلاَّ تحت اسم المُعتزلة.

أهم أُصُول المُعتزلة:

تَجْمَعُ رجالَ المُعتزلة ومُفكِّريهم أُصُول خمسةٌ، لا يُعَدُّ مُعتزلياً مَنْ لا يُؤمن بها كُلِّها، يقول الخيَّاط [1]: لسنا ندفعُ أنْ يكونَ بشرٌ كثيرٌ يُوافقوننا في العَدْل، ويقولون بالتَّشبيه، وبشرٌ كثيرٌ يُوافقوننا في التَّوحيد والعَدْل، ويُخالفوننا في الوعد والوعيد والأسماء والأحكام، وليس يستحقُّ أحدٌ منهم اسم الاعتزال حتَّى يجمعَ القولَ بالأُصُول الخمسة وهي:

(1) التَّوحيد. (2) العَدْل. (3) الوعد والوعيد. (4) المنزلة بين المنزلَتَيْن. (5) الأمْر بالمعروف، والنَّهْي عن المُنكر.

وعبارة الخيَّاط تُفيد تداخل آراء الفِرَق الإسلاميَّة الفكْريَّة كاتِّفاق الشِّيعة مع المُعتزلة في التَّوحيد والعَدْل مثلاً، واختلافهم معهم في الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلَتَيْن، أو اتِّفاق الجُهَميَّة مع المُعتزلة في التَّوحيد، واختلافهم في العَدْل (أيْ القَدَر)، ومن ثَمَّ؛ لا يُعَدُّ الجُهَم مُعتزلياً.

---

(1) الانتصار، تحقيق نيبرج، ص 123 ـ 126.

ولم يظهر اصطلاح "الأُصُول الخمسة" لدى المُعتزلة، فضلاً عمَّا تَفَرَّعَ عنه من نَظَريَّات في عهد المُؤسِّس الأوَّل ـ واصل بن عطاء ـ، فقد كانت بعض الموضوعات ـ على حَدِّ تعبير الشّهرستاني ـ غير ناضجة، بل إنَّ كثيراً من المسائل ـ لا سيما ما يتَّصل منها بدقيق الكلام ـ لم ينشأ إلاَّ لدى رجال الطَّبقة السَّادسة، وعلى رأسهم "أبو الهُذيل العلاَّف" الذي يُعَدُّ المُؤسِّس الثَّاني لمذهب المُعتزلة.

وفيما يلي شَرْح مُوجز للأُصُول الخمسة كما اكتملت ونَضَجَتْ لدى المُعتزلة:

أوَّلاً: التَّوحيد: أجمعت المُعتزلة على: «أنَّ الله واحدٌ، ليس كمثله شيء، وهُو السَّميع البصير، وليس بجسم، ولا شبح، ولا جُثَّة، ولا صُورة، ولا لحم، ولا دم، ولا شخص، ولا جوهر، ولا عَرَض، ولا بذي لون، ولا طَعْم، ولا رائحة، ولا مجسَّة، ولا بذي حرارة، ولا بُرُودة، ولا رُطُوبة، ولا يبوسة، ولا طُول، ولا عَرْض، ولا عُمْق، ولا اجتماع، ولا افتراق، ولا يتحرَّك، ولا يسكن، ولا يتبعَّض؛ فليس بذي أبعاض، أوأجزاء، ولا جوارح، أو أعضاء، وليس بذي جهات، ولا بذي يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت، ولا يُحيط به مكان، ولا يجرى عليه زمان، ولا تجوز عليه المماسَّة، ولا العُزلة، ولا الحُلُول في الأماكن، ولا يُوصف بشيء من صفات الخَلْق الدَّالَّة على حدثهم، ولا يُوصف بأنَّه مُتناه، ولا يُوصف بمساحة، ولا ذهاب في الجهات، وليس بمحدُود، ولا والد، ولا مولود، ولا تُحيط به الأقدار، ولا تحجبه الأستار، ولا تُدركه الحواسُّ، ولا يُقاس بالنَّاس، ولا يُشبه الخَلْق، بوجه من الوُجُوه، ولا تجرى عليه الآفات، ولا تحلُّ به العاهات، وكُلُّ ما خطَرَ بالبال، وتَصَوَّرَ بالوَهْم فغير مُشبه له، لم يزل أوَّلاً سابقاً، مُتقدِّماً للمُحدثات، موجوداً قبل المخلوقات، ولم يزل عالماً قادراً حيَّاً، ولا يزال، كذلك لا تراه العُيُون، ولا تُدركه الأبصار، ولا تُحيط به الأوهام، ولا يَسْمَعُ بالأسماع (أيْ بالحاسَّة)، شيءٌ لا كالأشياء، عالمٌ قادرٌ حيٌّ، لا كالعُلماء القادرين الأحياء، وأنَّه القديم وحده، لا قديم غيره، (إشارة إلى نَفْي قِدَمِ القُرآن؛ لأنَّه غير ذات الله، بل هُو كلماته المقولة في وقت مُعيَّن، وبالتَّالي؛ الحادثة، وبالتَّالي؛ فالقُرآن مخلوق)، ولا إله سواه، ولا شريك له في مُلكه، ولا وزير له في سُلطانه، ولا مُعين على إنشاء ما أنشأ وخَلَقَ ما خَلَقَ، لم يخلق الخَلْقَ على مثالٍ سَبَقَ،

وليس خَلْقُ شيءٍ بأهونَ عليه من خَلْقِ شيءٍ آخر، ولا بأصعب عليه منه، لا يجوز عليه اجترار المنافع، ولا تلحقه المضارُّ، ولا يناله السُّرُور واللَّذَّات، ولا يصل إليه الأذى والآلام، ليس بذي غاية، فيتناهى، ولا يجوز عليه الفناء، ولا يلحقه العَجْز والنَّقْص، تقدَّس عن مُلامسة النّساء، وعن اتِّخاذ الصّاحبة والأبناء»[1]. وتبعاً لذلك؛ نفوا أنْ يكون لله صفات أزليَّة غير ذاته (أيْ زائدة على ذاته) من علم، وقُدرة، وحياة، وسَمْع، وبَصَر، بل هُو عالم قدير حيٌّ سميع بصير بذاته، وقالوا: إنَّ وُجُود صفات قديمة غير ذاته مثل العلم والقُدرة والحياة... إنَّما هُو قول بتعدُّد القُدماء المُفضي إلى الشِّرْك. وحاربوا الثّنويَّة من الفُرْس القائلين بنَظَريَّتَيْ النُّور والظُّلمة، وحملوا على المُشَبِّهَة الذين ذهبوا إلى تجسيد الذّات الإلهيَّة.

ويُشارك المُعتزلة - في هذا المفهوم التّنزيهي المُطلق للذّات الإلهيَّة - جميع الشِّيعة، بجميع فرَقهم قاطبةً، وجميع الخَوَارج كذلك.

ثانياً: العَدْل: معناه أنَّ الله - سُبحانه وتعالى - عادل، فلا يُمكن أنْ يصدر منه ظُلْم، ولا يُمكن أنْ يأمر بما لا يُطاق، ولا يُمكن أنْ يُجبر الإنسان على المعصية، ثُمَّ يُعذِّبه عليها، ولا يُمكن أنْ يفعل إلاَّ ما هُو الأصلح للعباد، والأنفع لهم، وتُسمَّى هذه بقاعدة اللُّطف الإلهي.

والله - تعالى - لا يُضِلُّ أحداً (بالمعنى المُباشر الابتدائي للإضلال المُتعمَّد بلا سبب) ولا يُغْويه، ولا يُجبر أحداً على معاصيه، أمَّا الآيات التي فيها أنَّ الله يُضلُّ مَنْ يشاء، ويهدي مَنْ يشاء؛ فمعناها أنَّ الله - تعالى - وَضَعَ قانوناً وسُنَّة في حياة البشر، بأنَّ مَنْ ارتكب المعاصي، وتجبَّر، وطغى، اسْوَدَّ قلبه، وأظلمت سريرته، فلم تعد ترى الحقَّ، فالضّلالُ نتيجةٌ لعمل الإنسان، وهُو مسؤولٌ عنه، وإنَّما نُسِبَ الإضلال إلى الله؛ لأنَّه هُو واضع هذا القانون الكوني، بل مُقتضى عَدْله أنْ يجعل النّاس أحراراً مُختارين مُستطيعين أنْ يخلقوا أفعالهم، فليس هُو بخالقٍ لتلك الأفعال، ومادام الإنسان يخلق أفعاله، فهُو مسؤول عنها من خيرٍ وشَرٍّ، يُثاب لفعْله الخيرَ، ويُعاقب لاقترافه الشَّرَّ، وهُم - بذلك - يُخالفون جُمهُور الجَبْريَّة الذين يقولون: إنَّ الإنسان مُجبَرٌ، لا مُختارٌ، ومُسيَّرٌ، لا مُخَيَّرٌ، وإنَّما يقولون بذلك، لكي يُقيموا الحُجَّة على عَدْل الله، وإنَّه - تبعاً لذلك - لا يُمكن أنْ تصدر عنه معاصي

---

(1) أبو الحَسَن الأشعري: مقالات الإسلاميِّين، 1/ 155 - 156.

الإنسان؛ لأنَّ الإنسان خالق لأفعاله، وهُم ـ من أجل ذلك ـ يُطلقون على أنفسهم لَقَبَ «أهل العَدْل والتّوحيد»، أو «العَدْليَّة».

ومن مُقتضيات العَدْل الإلـهي ـ أيضاً ـ أنَّ أفعال الله ـ تعالى ـ كُلَّها مُعلَّلة بالأغراض الحكيمة؛ أيْ الأهداف المحمُودة، ردّاً على مَنْ نفى أنْ يكون لأفعال الله غرض مُحدَّد؛ لأنَّ هذا برأيه يجعل الله ـ تعالى ـ ناقصاً مُحتاجاً لذلك الغرض، مع أنَّه غنيٌّ عن العالمين، والمُعتزلة يُجيبون بأنَّ الغاية والغرض هي للفعل نفسه، لا للذّات الإلـهيَّة، ومن مُستلزمات العَدْل الإلـهي قولهم بالحَسَن والقُبح العَقْلي للأشياء، وأنَّ الحُكْم على الفعل بأنَّه حَسَن أو قبيح هُو لوُجُوه تعود إلى الفعل، وليس لمُجرَّد أمْر الله به، أونَهْيه عنه، فالله أمَرَ بالصِّدْق؛ لأنَّه حَسَن، ونهى عن الكذب؛ لأنَّه قبيح، فالأفعال إنَّما تُوصف بالحَسَن، والقُبح لصفات تخصُّها كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟

ثالثاً: المنزلة بين المنزلتَيْن: وقد سَلَف الحديث عنها عند اعتزال "واصل بن عطاء" مجلس الحَسَن البَصْري، والمعنى أنَّ مُرتكب الكبيرة في منزلة مُتوسِّطة بين الكُفْر والإيمان، وهي منزلة الفُسق، وهذا الحُكْم يُعتبر وسطاً بين الخَوارج الذين كفَّروا صاحب الكبيرة، والمُرجئة الذين اعتبروه مُؤمناً، ويقول واصل: إنَّ صاحب الكبيرة إذا خرج من الدُّنيا على غير توبة فهُو من أهل النّار خالداً فيها، لكنَّه يُخفَّف عن العذاب.

رابعاً: الوعد والوعيد: ومُقتضى ذلك أنَّ الوعد والوعيد أمران نافذان، فَوَعْدُ الله بالثّواب، ووعيده بالعقاب، ووَعْدُهُ بقبول توبة التّائب أُمُور نافذة، لابُدَّ من الإيمان بها، وبذلك؛ لا يكون العفو بغير توبة، كما أنَّ فاعل الخير لابُدَّ من أنْ ينال جزاءه من الثّواب، والمُعتزلة ـ في ذلك ـ يردُّون على المُرجئة الذين يقولون: لا تضرُّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكُفْر طاعة؛ إذْ لو صحَّ ذلك لكان وعيد الله ـ تعالى ـ في مقام اللَّغو.

خامساً: الأمْر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكر: وهذا هُو الأصل العملي الوحيد من أُصُولهم الخمسة؛ إذْ الأُصُول الأربعة الأُولى تتعلَّق بالنَّظَر والاعتقاد. وقد مارس المُعتزلة هذا الأصل عملياً، فقد عُرِفَت سيرةُ رجالهم بجهاد الزّنادقة والفُسّاق، فضلاً عن التَّصدِّي للمُعترضين على الإسلام. وقد التزموا الأمْر والنَّهْي عن المُنكر؛ لأنَّ الزّندقة كانت قد

انتشرت بين النّاس انتشاراً ملحوظاً، وتعدَّدت أوكارها، فأصبح أمر العقيدة في خَطَر، وذلك حتَّم المُعتزلة على المُسلمين - حفاظاً على الحقّ - أنْ يُسارعوا إلى الأَمْر بالمعروف، وهُو هُنا الدّفاع عن الإسلام والمُنافحة عنه، والنَّهْي عن المُنكر؛ أيْ مُحاربة الفُسَّاق والمُجَّان والزّنادقة، ولذلك؛ استحلَّ المُعتزلة الاستعانة بالخُلفاء في القضاء على الزّنادقة، لكنْ؛ استطال بهم الأَمْر - فيما بعد - حتَّى استغلّوا الخُلفاء في نَشْر مذهبهم، وما يرونه حقّاً لا مريَّة فيه، مثل موضوع خَلْق القُرآن، حتَّى ولو استخدم الخُلفاء في ذلك السّبيل القسوةَ والأذى، بل القَتْل أحياناً، لجزم رُؤُوس المُعتزلة آنذاك أنَّ القول بقدَم القُرآن يُؤدِّي لإثبات شريك في القدَم لله عزَّ وجَلَّ، ويُعطي الحُجَّة للنّصارى في تأليههم للمَسيح؛ لأنَّه كلمة الله، ومن هُنا؛ كانت فتنة تعميم وُجُوب القول بخَلْق القُرآن أيَّام المأمون والمُعتصم والواثق العبَّاسيِّين كصُورة من صُور الشِّدَّة التي عَمَدَ إليها المُعتزلة في أَمْرهم بالمعروف، ونَهْيهم عن المُنكر، ولو باستخدام العُنْف.

ومن شُرُوط الأَمْر بالمعروف عندهم - كما يقول القاضي عبد الجبَّار الهمذاني: من كبار شُيُوخ المُعتزلة - أنْ يعلم أنَّ ذلك لا يُؤدِّي إلى مضرَّة أعظم منه، فإنَّه لو علم، أو غلب على ظنِّه أنَّ نَهْيه عن شُرب الخمر يُؤدِّي إلى قَتْل جماعة من المُسلمين لم يجب، كذلك أنْ يعلم أو يغلب على ظنِّه أنَّ لقوله فيه تأثيراً، فإنْ لم يعلم ذلك، أو لم يغلب على ظنِّه فإنَّه يحسن، وإنْ لم يجب.

وكذلك أنْ يعلم، أو يغلب على ظنِّه أنَّه لا يُؤدِّي إلى مضرَّة في ماله، أو في نفسه، فإنْ كان في تحمُّل الرّجل لذلك الضّرر إعزازٌ للدِّين فإنَّه يحسُن، وإلاَّ فلا، وعلى هذا؛ يُحْمَلُ ما كان من الحُسَين بن علي؛ إذْ كان في صبره على ما صَبَرَ إعزاز لدين الله عَزَّ وجَلَّ، وبهذا؛ نُباهي سائر الأُمم، فنقول: لم يبق من ولد الرّسول - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - إلاَّ سبط واحد، فلم يترك الأَمْر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكر حتَّى قُتِلَ في ذلك: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ آل عُمران / 110[1].

---

(1) القاضي عبد الجبَّار: شرح الأُصُول الخمسة: ص 145.

وربَّما كان هذا الأصل من عوامل التّقارب بين المُعتزلة والشّيعة الزّيديَّة، بل ربَّما كان هُناك تأثير مُتبادل بين الفرقَتَيْن بهذا الصّدد، ومعلوم أنَّ أوَّل مبادئ الزّيديَّة الخُرُوج على الحاكم الظّالم أو الفاسق.

وترى المُعتزلة النَّهْي عن المُنكر باللِّسان واليد والسّيف (مقالات الإسلاميِّين 1/ 11)، وقد طبَّقوا هذا المبدأ، فكانت لهم يدٌ في مقتل الخليفة الأُموي الوليد بن يزيد بعد أنْ جهر بالفُسق، ورمى المُصحف أمام الحاضرين، وكمثال على مُحاربتهم الزّندقة، والتَّحلُّل فرار الشّاعر الزّنديق "بشار بن بُرد" إلى البَصْرَة، خائفاً على نفسه من واصل بن عطاء، وتهديد "عَمرو بن عُبيد"، "ابنَ أبي العوجاء"؛ لأنَّه يُفسد الشّباب، كذلك نصيحتهم الخُلفاء، فحين قال الخليفة العبَّاسي المنصور لعَمرو بن عُبيد: أعنِّي بأصحابك، أجابه: "ارفع علم الحقِّ يتبعكَ أهله" [1].

أقطاب المُعتزلة ومشاهير رجالهم ومُؤلِّفيهم، وأشهر ما بقي من تُراثهم:

ذكْرُ سند المُعتزلة كما يروونه هُم، وكما ذكره العلاَّمة الإمام أحمد بن يحيى بن المُرتضى في كتابه طبقات المُعتزلة (ملاحظة: تواريخ الوفيات فيها اختلاف كبير):

الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السّلام

ابنه: مُحمَّد بن الحنيفة (21 ـ 81 هـ)

ابنه: أبو هاشم عبد الله بن مُحمَّد بن عليّ بن أبي طالب (ت 99 أو 98 هـ)

(مُعتزلة البَصْرَة) | (مُعتزلة بغداد: قريبون من الشّيعة)

واصل بن عطاء (نشأ بالبَصْرَة) (80 ـ 131 هـ)

عَمرو بن عبيد (أبو عُثمان البَصْري) (80 ـ 144 هـ)

غيلان بن مُسلم الدّمشقي الشّهيد

↓

عُثمان الطّويل (وطبقة) (حولي 200 هـ)

المُعتزلة من خُلفاء بني عبّاس:

(1) راجع الأغاني للأصفهاني: 2/ 24، والعقد الفريد لابن عبد ربِّه: 1/ 306. مُستفاد من "في علم الكلام: دراسة فلسفيَّة لآراء الفرَق الإسلاميَّة في أُصول الدِّين، (1) المُعتزلة" للدُكتور أحمد محمُود صُبحي 166 ـ 167.

المأمون (218 هـ)

المُعتصم (227 هـ)

الواثق (232 هـ)

أبو هُذَيل العلاَّف العبدي (134 ـ 235 هـ)

أبو بكر بن الأصم ـ مُعمَّر بن عبَّاد (215 هـ)

النَّظَّام: إبراهيم بن سيَّار بن هانئ البَصْري (231 هـ)

هشام الفُوطي (218 هـ)

عَمرو بن بحر الجاحظ (255 هـ)

أبو يعقوب يُوسُف الشَّحَّام (نحو 280 هـ)

عبَّاد بن سُليمان (300 هـ)

أبو عليّ الجبائي البغدادي (303 هـ)

ابنه أبو هاشم عبد السّلام الجبائي البغدادي (331 هـ.)

أبو إسحاق بن عيَّاش البَصْري

أبو عبد الله الحُسَيْن بن عليّ البَصْري (367)

أبو سهل: بشر بن المُعتمر الهلالي البغدادي (210 هـ)

ثمامة بن الأشرس (234 هـ)

أحمد بن أبي داوود (240 هـ)

أبو مُوسَى المردار (226 هـ)

جَعْفَر بن مبشر (234 هـ)

جَعْفَر بن حرب (236 هـ)

الخيَّاط: أبو الحُسَيْن الخيَّاط عبد الرّحيم بن مُحمَّد بن عُثمان (ت بعد 300 هـ بقليل)

أبو القاسم البلخي الكعبي (319 هـ)

أبو جَعْفَر الإسكافي (340 هـ)

قاضي القُضاة أبو الحَسَن عبد الجبَّار أحمد بن عبد الجبَّار الهمداني الأسد آبادي (415 هـ) إمام المُعتزلة المُطلق في عصره، وصاحب موسوعة: "المُغني في أبواب التّوحيد والعَدْل"، ويقع في 20 مُجلَّداً، و"شرح الأُصُول الخمسة"، و"تثبيت دلائل النُّبوَّة"، و"تنزيه القُرآن عن المطاعن".

أبو الحُسَيْن مُحمَّد بن عليّ بن الطَّيب البَصْري (436 هـ)

أبو القاسم جار الله محمُود بن عُمر الخوارزمي المُعتزلي الزّمخشري (467 ـ 538 هـ) (صاحب تفسير الكشَّاف)

الإمام أحمد بن يحيى بن مُرتضى (764 ـ 840 هـ) ولي الإمامة مُدَّة قصيرة (793 ـ 794) وسُمّي المهدي لدين الله، وله: "طبقات المُعتزلة".

ابن أبي الحديد (عبد الحميد بن هبة الله بن مُحمَّد بن الحُسَين بن أبي الحديد البغدادي (586 ـ 656 هـ) (وله شرح نهج البلاغة في عدَّة مُجلَّدات)

مُحمَّد بن إبراهيم بن عليّ بن مُرتضى اليماني الشّهير بابن الوزير (675 (أو 775؟) ـ 840 (839؟))
صاحب الكتاب الشّهير "إيثار الحقّ على الخلق"

تعقيب نهائي على دور المُعتزلة:

قام المُعتزلة بدور رئيسي في الحياة العَقْليَّة للحضارة الإسلاميَّة مُنذُ القرن الثّاني إلى الخامس الهجري حتّى تواروا بعد ذلك - كمذهب مُستقلٍّ - عن مسرح الفكْر، (وإنْ بقيت كثير من أفكارهم لدى الشّيعة)، وفي تبرير أُفُول نجمهم قيلت عدَّة تفسيرات:

1 - مُعاداة الدّولة لهم مُنذُ عهد المُتوكِّل باستثناء فترات لقوا فيها رعاية بني بُويه، غير أنَّ اضطهاد السُّلطة غير كاف في تبرير ذلك، على العكس؛ فإنَّ اضطهاد السُّلطة يكون - في كثير من الأحيان - من عوامل تشبُّث المُضطَّهَد بأسباب البقاء، والشّيعة والخَوَارج أوضح مثلَيْن على ذلك، ولم يكن عداءُ الدّولة للمُعتزلة أشدَّ من يوم من الأيّام من عدائها للشّيعة والخَوَارج.

2 - خطأ المُعتزلة القاتل في استعدائهم الدّولة على خُصُومهم بصدد مُشكلة "خَلْق القُرآن"، ليس فحسب لأنَّ مُمثِّلي «حُرِّيَّة الفكْر» قد مارسوا تقييد الفكْر والحَجْر على الرّأي، وذلك من المُتناقضات المُقتضية للانهيار، وإنَّما لأنَّهم مارسوا ذلك مع إمامٍ جليلٍ من أئمَّة الفقْه، ومن ثمَّ؛ كان رَدُّ الفعْل ضدَّهم - من العامَّة، لا من السُّلطة فحسب، مُنذُ عهد المُتوكِّل - جارفاً.

3 - الاستعلاء الفكْري لدى المُعتزلة، فما كانوا ليأبهوا برضا العامَّة، أو سُخْطهم فيما يُعلنون وما يعتقدون: فلا شفاعة للنّبي على الكبائر دُون توبة، ولا ينفع الميِّت بعد موته دُعاء الأهل، ولا استغفار الأحباب - وربَّما قراءة القُرآن أيضاً -، آراءٌ كُلُّها تصدم وُجدان العامَّة وعواطفهم، فشفاعة النّبي عن الكبائر تنطوي على تكريم الله لنبيِّه بأكثر ممَّا تنطوي على مغفرة لفاعلي الكبائر، ومقام الموت يقتضي مُراعاة مشاعر أهل الميِّت، لا أنْ يُعلن أنَّ شيئاً من الدُّعاء لن ينفعه؛ لأنَّه بموته قد انتهى عمله.

ولقد نقم النّاس على "القاضي عبد الجبّار" أنَّه قال في حقِّ "الصّاحب بن عبّاد" عند موته وهُو في نَظَر النّاس وليُّ نعْمته: أنا لا أترحَّم عليه؛ لأنَّه لم يُظهِر توبتَه!، يقول الكتبي مُعلِّقاً: وَطَعَنَ النّاسُ عليه بذلك، ونعتوه مع كثر إحسان الصّاحب عليه، ولا يشفع للقاضي عبد الجبّار عند العامَّة أنْ يكون القاضي قد آثر نُصرة مبدئه في خُلُود فاعل الكبيرة في النّار على

طلب المغفـرة للمُحسـن إليه، مع علمه بمُجُونـه، ومجـالس لَـهْوه، ومُشـاركته في اغتصـاب الأموال، ومُصادرة الأملاك.

وحين أرسل المأمون كُتُبه إلى عُمَّاله بإيعـاز مـن المُعتزلـة ينـهى فيـها عـن الاعتقـاد بقِـدَم القُرآن، نُسبت هذه العقيدة إلى «السَّواد الأعظم من حشو الرّعيَّة وسَفَلَة العامَّة»، فكان هذا هُو موقف المُعتزلة من العامَّة، وقد كان لهؤلاء دورهم في القضاء على المُعتزلة فكْراً وتُراثاً.

والواقع؛ أنَّه ما كان يُمكن لعقُول العامَّة أنْ تستسيغ آراء المُعتزلة، بخلاف مـا كـان مـن مُعتقدات الحنابلة وآراء الأشاعرة، وربَّما أخطـأ المُعتزلـة خطـأً بالغـاً في أنْ لا يلتمسـوا أسـباب تبسيط أُصُولهم للعامَّة، فضلاً عن الاستيلاء الفكْري عليهم.

ومهما قيل في التماس أسباب نهاية أكبر حركة عَقْليَّة في حضـارة الإسـلام، فإنَّـه يجـب ألاَّ يغيب عن البال أنَّ الأفكـار كالأزهـار، لا تعيـش إلاَّ في جوٍّ مُلائـم، ومـن ثـمَّ؛ ازدهـرت حركة الاعتزال في ربيع الفكْر الإسلامي، وما إنْ أقبل الصّيف حتَّى استرخت العُقُول عـن أنْ تتبنَّى الرّأي الجريء، فَذَوَتْ ـ بذلك ـ شجرة الاعتزال، لتحتضن بُذُوره حركةٌ أشدُّ قُدرة على مُقاومة حَرِّ الصّيف، ثُمَّ أعاصير الشّتاء، وأعني ـ بذلك ـ الزّيديَّة.

ويُمكن أنْ نحصر الملامح الرّئيسيَّة للفكْر المُعتزلي على النّحو الآتي:

1 ـ النّـزعة العَقْليَّة: إذا تعرَّض ظاهر النَّصِّ مع العَقْل فإنَّ المُرجَّح هُو العَقْل، فـالله قـد لطف بالنّاس، وهداها بـالعَقْل وبالرّسـول والكتـاب، ولكـنْ؛ يُعْـرَف الرّسـول والكتـاب بالعَقْل، ولا يُعْرَف العَقْل بالرّسول والكتاب، ذلك هُو سندهم في ترجيح حُجَّة العَقْل.

في ضوء ذلك؛ عُرِفَتْ أُصُولهم الخمسة، بـل في ضـوء ذلـك الـتزموا بمـا الـتزموا بـه مـن نَظَريَّات كاعتبارهم المعلوم ـ وإنْ لم يكن موجوداً ـ شيئاً، وفي ضـوء ذلـك أيضـاً يرجـع إليـهم الفضل في نشأة علم الكلام، وفي تحديد موضوعاته، وأساليب الجَدَل فيه، أمَّـا علـى الصّعيـد الخـارجي؛ فإليـهم يرجـع الفضـل في الـذّود عـن الإسـلام بحُجـج العَقْـل ضـدَّ المُخـالفين مـن أصحاب الدّيانات الأُخرى، ومن الزّنادقة.

2 ـ المضمون الأخلاقي للدِّين: تتعلَّق النّزعة العَقْليَّة بالمنهج، ويتعلَّق المضمون الأخلاقي بالمذهب، والمُشكلة هُنا هي: هل مدرج الدِّين بما في ذلك أوامر الله ونواهيه تتبع قِيَم الأخلاق أم أنَّ قداسة الدِّين وشَرْع الله يقتضيان أنْ يستقلَّ الدِّين عن تقييمات البشر الأخلاقيَّة؟ إنَّ ما يصل الأُصُول الأربعة الأخيرة ـ إذا استُثْني التّوحيد ـ إنَّما هُو هذا الرّبط المُحكم بين الدِّين والأخلاق: العَدْل، وما يندرج تحته من موضوعات كاللُّطف الإلهي، ووُجُوب الصّلاح، والأصلح على الله، وحُرِّيَّة إرادة الإنسان، والحَسَن والقُبح العَقْليَّين، ومدى مسؤوليَّة الإنسان عن الفعْل المُتولِّد، والوعد والوعيد، وأنَّه استحقاق وأعواض، والمنزلة بين المنزلَتَيْن، ومفهوم التّوبة، واقتضاؤها ردّ المظالم، والإيمان، واقتضاؤه العمل الصّالح، ثُمَّ الأمْر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكر، كُلُّها اتِّجاهات لم يُحدِّدها، بل لا تَتَّضح الرّابطة بين آراء المُعتزلة فيها إلاَّ على أساس قاعدة أقاموا عليها آراءهم: الدِّين ينطوي على المضامين الأخلاقيَّة التي يحكم بها العَقْل والوُجدان، وربَّما أسرفوا في ذلك حتَّى جعلوا الدِّين تابعاً للأخلاق، ومن ثمَّ؛ كان ما أخذه عليهم خُصُومهم من قَوْلهم بفكْرة الوُجُوب على الله أنْ يفعل الأصلح لعباده.

وقد نجح المُعتزلة؛ حيثُ يُمكن أنْ يُفلح المنهج العَقْلي والنَّسَق الأخلاقي في مجال الدِّين، نجحوا في أنْ يُنقِّحوا تصوُّر الإنسان للأُلُوهيَّة من شوائب الحسِّ، ومُلابسات الجسم، وإنْ أدَّى بهم ذلك ـ أحياناً ـ إلى أنْ تتغلَّب صفات السَّلْب على تصوُّرهم للذّات الإلهيَّة، فضلاً عن تجريدهم علاقة الإنسان بربِّه من كُلِّ تصوُّر ذوقي، والمنهج الذّوقي ربَّما كان أنجح في أنْ يتقرَّب الإنسان من ربِّه، وإنْ كان منهج العَقْل لازماً كي يُنَزِّهَهُ.

ومهما أَخَذَ البعض من أُمُور على المُعتزلة؛ سواء في مجال الفكْر أم في مجال التّطبيق، فإنَّ هذا كُلَّه لا يحول دُون أنْ تبقى فرقة المُعتزلة، في علم الكلام بخاصَّة، وفي الفكْر الإسلامي بعامَّة، مُمثِّلةً للتّفكير العَقْلي في أوج ازدهار الحضارة الإسلاميَّة [1].

---

(1) "في علم الكلام: دراسة فلسفيَّة لآراء الفرَق الإسلاميَّة في أُصُول الدِّين، المُعتزلة" للدُّكتُور أحمد محمُود صُبحي، ص 349 ـ 352.

يقول المرحوم الأُستاذ أحمد أمين : [كان لاضطهاد المُعتزلة ونُصرة المُحدِّثين مُنذُ عهد المُتوكِّل أثر كبير في حياة المُسلمين مُنذُ ذلك العهد وإلى اليوم ، فلقد استتبع الوُقُوف عند النَّصِّ ، وتضييق دائرة العَقْل نَمَطاً من التَّفكير يسود فيه التَّقليد دُون الاجتهاد ، والوُقُوف عند حَرْفية النُّصُوص دُون التَّعمُّق في مراميها ومغازيها ، والنَّظَر إلى الفلسفة والبحث العَقْلي نَظَرَ بُغض وكراهية . . . هذا هُو ما ساد عقُول كثيرٍ من المُسلمين مُنذُ خُنق الاعتزال ، فاحترمت نُصُوص الكُتُب أكثر ممَّا احترم نَقْد العَقْل ، واحترم العالم الواسع الاطِّلاع بالنُّصُوص الدِّينيَّة واللُّغويَّة أكثر ممَّا احترم قليل الحفظ واسع أُفُق العَقْل ، وأُكرِم العالمُ المُقلِّدُ أكثر ممَّا أُكْرِم المُجتهد ، ونُظِر إلى الفقيه والمُحدِّث بخير ممَّا نُظِرَ إلى الفيلسوف والمُفكِّر النَّاقد .][1] .

(3) الحَشَويَّةُ الأَثَريَّةُ مِنْ أصحاب الحديث:

ويسمُّون أنفسهم كذلك أهل السُّنَّة ، وأهل الحديث وأصحاب الحديث والأَثَريَّة ، في حين يُسمِّيهم مُخالفوهم الحَشَويَّة ، ويرون أنَّهم من المُشَبِّهَة المُجسِّمة :

والواقع أنَّه من الصَّعب الحديث عن الحَشَويَّة كفرقة مُعيَّنة ؛ لأنَّهم فئاتٌ مُختلفةٌ تجمعها رُوح واحدةٌ ، تتَّسم بالتَّعصُّب للنُّصُوص والفَهْم الحَرْفي لها .

فالحَشْو اتِّجاهٌ عامٌّ ، ومنهجٌ في التَّفكيرِ يدعو أصحابه إلى قبول الأفكار والأخبار الشَّائعة ، وخاصَّة تلك المنسوبة إلى مصدرٍ يحظى بالاحترام والثِّقة ، دُون تمحيصٍ أو نَقْد كافٍ لمُحتواها ، أو للطَّريق الذي وَرَدَتْ منه . وقد يَتحدَّثُ البعض عن الحَشَويَّة كفرقة ، ومقصودهم كُلّ مَنْ تَبِعَ المنهج المذكور في أُمُور العقيدة ؛ يقول ابن رُشْد مثلاً : « أمَّا الفرقة الحَشَويَّة ؛ فإنَّهم قالوا : إنَّ طريق معرفة وُجُود الله - تعالى - هُو السَّمْع لا العَقْل ؛ أعني أنَّ الإيمانَ بوُجُوده الذي كُلِّفَ النَّاسُ التَّصديقَ به ، يكفي فيه أنْ يُتَلَقَّى من صاحب الشَّرْع ، ويُؤْمَنَ به إيماناً ، كما تُتَلَقَّى منه أحوالُ المعاد (أيْ الآخرة) ، وغيرُ ذلك ممَّا لا مدخل للعَقْل فيه ، وهذه الفرقة الضَّالَّة ، الظَّاهرُ من أمرها أنَّها مُقصِّرة عن مقصود الشَّارع في الطَّريق التي نَصَبَهَا للجميع ، مُفضية إلى

---

(1) ظُهر الإسلام' أحمد أمين : ج1/ ص 40 .

معرفة وُجُود الله تعالى . . وذلك أنَّه يظهر من غير آية من كتاب الله ـ تعالى ـ أنَّه دعا النَّاس إلى التَّصديق بوُجُود الباري ـ سبُحانه ـ بأدلَّة عَقْليَّة منصوص عليها »[1] .

ويُمكن أنْ تُستَخْلص عناصر الموقف الحَشَوي ـ كما يُفهم من النَّص السَّابق وغيره ـ على النَّحو التَّالي :

1 ـ الاعتماد على النَّصِّ وحده طريقاً إلى المعرفة الاعتقاديَّة خاصَّة ، والدِّينيَّة بصفة عامَّة ، ورَفْض العَقْل وأدلَّته .

2 ـ سُوء الفَهْم للنُّصُوص الدِّينيَّة نفسها ؛ حيثُ إنَّ هذه النُّصُوص ـ كما سبق بيانه ، وكما يُشير ابن رُشْد في نصِّه الآنف الذِّكْر ـ تعتدُّ بالعَقْل ، وتتضمَّن براهين عقليَّة لإثبات العقائد الدِّينيَّة الواجب اعتناقها ، ولا تكتفي بتقرير هذه العقائد عارية عن البَرْهَنَة والاستدلال .

3 ـ النُّزُوع إلى الفَهْم الحَرْفي لتلك النُّصُوص ، ممَّا يُؤدِّي إلى التَّجسيم والتَّشبيه ؛ أيْ نسبة صفات المخلوقات أو الأشياء الماديَّة الجسْميَّة إلى الله سبُحانه .

وينبغي فيما يتعلَّق بهذا العُنصر الأخير أنْ نذكر أنَّ اتِّجاه التَّجسيم والتَّشبيه غير مقصور على « الحَشَو » أو القبول السَّاذج للنُّصُوص المنقولة دُون نَقْد علمي ، أو الفَهْم الحَرْفي لها دُون اعتبار لمُقتضيات التَّنزيه التي يُوجبها كُلٌّ من النَّصِّ والعَقْل معاً ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الشُّورى / 11 ، فقد ظهر التَّجسيم والتَّشبيه ـ أيضاً ـ على أُسُس عَقْليَّة كلاميَّة ، وعلى أُسُس صُوفيَّة ، فيما بعد .

ولكنْ ؛ يبدو أنَّ رُوح الحَشو هي المجال الخصب لنُمُوِّ النَّزعات التَّشبيهيَّة التي تُسيء إلى نقاء العقيدة الإلهيَّة ، بتصوير ذات الله ـ سبُحانه ـ وصفاته في ضوء المقاييس الإنسانيَّة والماديَّة ، أو كما يقول المُتكلِّمون في ضوء قياس الغائب عن الشَّاهد ، وقد نبَّه على هذا الارتباط بين التَّشبيه والحَشَو أحد المُتكلِّمين المُتحدِّثين ؛ إذْ قال : « كان عدَّة من أحبار اليهُود ورُهبان النَّصارى وموابذ المجوس أظهروا الإسلام في عهد الرَّاشدين ، ثُمَّ أخذوا بعدهم في بثِّ ما عندهم من أساطير بين مَنْ تروج عليهم ؛ ممَّنْ لم يتهذَّب بالعلم من أعراب الرُّواة وبُسطاء

---

(1) ابن رُشْد : الكَشْف عن مناهج الأدلَّة في عقائد المِلَّة : ص 134 .

مواليهم، فتلقَّفوها منهم، وردَّدها الآخرون بسلامة باطن، مُعتقدين ما في أخباره في جانب الله من التّجسيم والتّشبيه»[1].

وسواء كانت البذرة الأُولى للتّشبيه وافدة على البيئة الإسلاميَّة في غُضُون مؤامرة على عقيدة التّوحيد الخالصة، أو هي وليدة هذه البيئة نفسها نتيجة سُوء الفَهْم لبعض النُّصُوص الإسلاميَّة، فإنَّ الحشو والتّشبيه وما ينتهيان إليه من تجسيم وتمثيل قد نَبَتَا في صُفُوف المُسلمين، وصار لهما مُمثِّلون بين الفرَق المُختلفة، فأغلب الحَشَويَّة هُم من بين المُحدِّثين من رُواة الأحاديث الذين يتلقَّبون بأهل السُّنَّة وأصحاب الحديث أو الأَثَريَّة، كما هُناك حَشَويَّة مُشبِّهة مُنتشرة - بشدَّة - بين الحنابلة، وإنْ تبرَّأ منها بعض مُحقِّقي الحنابلة أنفسهم[2]، وهُناك - أيضاً - حَشَويَّة بين الشِّيعة يظهرون في عُصُور مُختلفة، ويُسَمَّون عندهم بالأخباريّين[3]، ويُوجد حَشَويَّة بين المُشتغلين بالتّفسير كمُقاتل بن سُليمان والهُجَيْمي وغيرهما[4]، وحَشَويَّةٌ بين أهل التَّصوُّف كالسّالميَّة والحلمانيَّة ومَنْ تأثّر بهما[5]، كما ظهرت فرَق كلاميَّة تنزع بأسرها إلى التّشبيه والتّجسيم كالكراميَّة، ولعلَّهم أبرز مثال لهذه النّزعة بين أهل السُّنَّة[6]، وليس هؤلاء جميعاً من الحَشَويَّة النّصيّين، فمنهم فرَق وطوائف مُسرفة في التّأويل والنّزعة العَقْليَّة.

وبرغم أنَّ أكثر هذه الفئات قد انقرض من الحياة الفكريَّة الإسلاميَّة؛ فإنَّ نزعة الحَشَويَّة، وما قد تجرُّه من تشبيه وتجسيم، لا زالت تظهر - من حين - لآخر حتَّى العُصُور المُتأخِّرة في بعض أطراف العالم الإسلامي[7]... وممَّا عرضناه آنفاً يتبيَّن انحراف منهجهم عن

---

(1) الشّيخ مُحمَّد زاهد الكوثري في مُقدِّمته لكتاب ابن عساكر "تبيين كذب المُفتري فيما نُسب إلى الإمام الأشعري": ص10.

(2) انظر ابن الجوزي: دَفْع شبه التّشبيه: ص 27 وما بعدها، وابن حزم: الفَصْل في المِلَل والأهواء والنِّحَل: ج 2/ ص 177 وما بعدها.

(3) انظر الدُّكتُور عليّ سامي النّشّار: نشأة الفكْر الفلسفي في الإسلام: ج1/ ص 602 - 603، المُفيد: أوائل المقالات، ص 9، السّنهوتي: التّشبيه والتّنزيه - المُقدِّمة، رسالة خطِّيَّة بدار العلُوم.

(4) انظر الشّهرستاني: المِلَل والنِّحَل: ج 1/ ص139 وما بعدها.

(5) انظر النّشّار: نشأة الفكْر الفلسفي: ج1/ ص612 - 616 والبغدادي: الفَرْق بين الفِرَق: ص 245 - 250.

(6) انظر النّشّار: نشأة الفكْر الفلسفي: ج1/ ص 612 - 616 والبغدادي: الفَرْق بين الفِرَق: ص 202 - 214، وسهير مُختار: التّجسيم: المُقدِّمة.

(7) انظر حَسَن عبد اللّطيف الشّافعي: رسالة الدُّكتُوراه: "نصير الدِّين الطُّوسي" ص 45، رسالة خطِّيَّة بجامعة لندن.

المنهج الذي رَسَمَهُ القرآن الكريم لإثبات العقائد الدِّينيَّة، والذي يستند إلى كُلٍّ من العقل والنَّقل معاً، وهي في هذا تُمثِّل التَّطرُّف نحو الالتزام الخاطئ بالنُّصُوص، ورَفْض العَقْل في مجال الاعتقاد.

أمَّا كلمة «الحَشَوِيَّة» نفسها؛ فقد قال البعض: إنَّها مأخوذة من الحشو والإدخال، لأنَّ هؤلاء السُّذَّج أو المُغرضين من الرُّواة كانوا «يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المرويَّة عن رسول الله ﷺ أيْ يُدخلونها فيها، وليست منها»[1]، وهُناك تفسيرات أُخرى تاريخيَّة لظُهُور هذا المُصطلح؛ إذْ يعزوه البعض إلى الحَسَن البَصْري الذي كان من أجلة التَّابعين الذين نَشَروا العلم في البَصْرَة، ويُلازم مجلسه نُبلاء أهل العلم، وقد حَضَرَ مجلسه يوماً أُناسٌ من رُعاة الرُّواة تكلَّموا بالسَّقْط عنده فقال: رُدُّوا هؤلاء إلى حشا الحلقة - أيْ طرفها - فسُمُّوا «الحَشَوِيَّة». بينما يردُّه البعض الآخر إلى ما ينتهي إليه رأي هؤلاء القوم، من القول بأنَّ الله - تعالى - ذُو مكان؛ أيْ أنَّه يُصبح في حشو العالم؛ أيْ داخله[2].

هذا، وقد عنى مُؤرِّخو الفرَق القُدماء، وبعض الدّراسات الحديثة باتِّجاهات الحشو والتَّشبيه بين المُتكلِّمين، والذي نودُّ أنْ نُشير إليه - أخيراً - أنَّ بعض الفئات المُشبِّهَة يبدأ من موقف حَشَوي أصلاً، ثُمَّ ينزع إلى استخدام العَقْل أو بعض المناهج الصُّوفيَّة، لدَعْم آرائه وتبريرها، وتُمثِّل هذا - بوُضُوح - فرقتا الكرّاميَّة والسَّالميَّة، وكلامنا - هُنا - قاصر على الموقف الحَشَوي الأصلي[3].

عقيدة الحَشَوِيَّة في الصِّفات الإلهيَّة الخَبَرِيَّة:

لخَّصها عبد القاهر البغدادي في الفَرْق بين الفرَق، والشّهرستاني في المِلَل والنِّحَل، فقال:

[- وأمَّا مُشبِّهة الحَشَوِيَّة؛ فحكى الأشعري عن مُحمَّد بن عيسى أنَّه حكى عن مُضر، وكهمس، وأحمد الهجيمي: أنَّهم أجازوا على ربِّهم المُلامسة والمُصافحة، وأنَّ المُسلمين

(1) المُفيد: أوائل المقالات: ص 9.

(2) الكوثري: مُقدِّمته لكتاب "تبيين كذب المُفتري فيما نُسب إلى الإمام الأشعري" لابن عساكر: ص 5 وما بعدها.

(3) المدخل إلى دراسة علم الكلام: الدُّكتُور حَسَن محمُود الشّافعي: ص 68 - 72.

المخلصين يُعانقونه في الدُّنيا والآخرة إذا بلغوا في الرّياضة والاجتهاد إلى حَدِّ الإخلاص والاتِّحاد المحض. وحكى الكعبي عن بعضهم أنَّه كان يجوز الرُّؤية في دار الدُّنيا، وأنْ يزوره، ويزورهم.

وحكى عن داوود الجواربي أنَّه قال: اعفوني عن الفرج واللّحية، واسألوني عمَّا وراء ذلك. وقال: إنَّ معبوده جسم، ولحم، ودم، وله جوارح وأعضاء من يد، ورجل، ورأس، ولسان، وعينَيْن، وأُذنَيْن، ومع ذلك؛ جسم لا كالأجسام، ولحم لا كاللُّحُوم، ودم لا كالدّماء، وكذلك سائر الصّفات، وهُو لا يُشبه شيئاً من المخلوقات، ولا يُشبهه شيء. وحُكي عنه أنَّه قال: هُو أجوف من أعلاه إلى صدره، مُصمت ما سوى ذلك، وأنَّ له وَفْرة سوداء، وله شعر قطط.

وأمَّا ما وَرَدَ في التّنزيل من الاستواء، والوجه، واليدَيْن، والجنب، والمجيء، والإتيان، والفَوْقيَّة، وغير ذلك، فأجروها على ظاهرها؛ أعني ما يُفهم عند الإطلاق على الأجسام.

وكذلك ما وَرَدَ في الأخبار من الصُّورة وغيرها في قوله عليه الصّلاة والسّلام: (خَلَقَ آدم على صُورة الرّحمن). وقوله: (حتَّى يضع الجَبَّارُ قَدَمَهُ في النّار). وقوله: (قلب المُؤمن بين أُصبَعَين من أصابع الرّحمن). وقوله: (خمَّر طينة آدم بيده أربعين صباحاً). وقوله: (وَضَعَ يده أو كفَّه على كتفي). وقوله: (حتَّى وجدتُ بَرْد أنامله في صدري) إلى غير ذلك؛ أجروها على ما يتعارف في صفات الأجسام.

وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها ونسبوها إلى النّبي عليه الصّلاة والسّلام، وأكثرها مُقتبسة من اليهُود، فإنَّ التّشبيه فيهم طباع، حتَّى قالوا: اشتكت عيناه، فعادته الملائكة، وبكى على طوفان نوح، حتَّى رمدت عيناه، وأنَّ العرش ليئطّ من تحته كأطيط الرّحل الحديد، وإنَّه ليفضل من كُلِّ جانب أربع أصابع. وروى المُشَبِّهَة عن النّبي عليه الصّلاة والسّلام أنَّه قال: (لقيني ربِّي، فصافحني، وكافحني، ووَضَعَ يده بين كتفي، حتَّى وجدتُ بَرْد أنامله). وزادوا على التّشبيه قولهم في القُرآن: إنَّ الحُرُوف والأصوات والرّقوم المكتوبة قديمة أزَليَّة. وقالوا: لا يُعقل كلام ليس بحُرُوف، ولا كلم. واستدلّوا بأخبار، منها ما رووا عن النّبي عليه الصّلاة والسّلام: (يُنادي الله - تعالى - يوم القيامة بصوت يسمعه الأوّلُون

والآخرون)، ورووا أنَّ مُوسَى عليه السّلام كان يسمع كلام الله كجَرِّ السّلاسل. قالوا: وأجمعتْ السَّلَفُ على أنَّ القُرآن كلام الله غير مخلوق، ومَنْ قال: هُو مخلوق فهُو كافر بالله، ولا نعرف من القُرآن إلاَّ ما هُو بين أظهرنا، فنُبصره، ونسمعه، ونقرؤه، ونكتبه...][1]

أشهر رجالات الحَشَويَّة الأثَريَّة ومُصنِّفيهم وتُراثهم:

تذكر كُتُب الفرَق؛ مثل المِلَل والنِّحَل، والفَرْق بين الفِرَق، ونحوها، أسماء قُدماء الحَشَويَّة الأثَريَّة الذين اتُّهموا بالتَّشبيه كما يلي:

الحَشَويَّة القُدماء:

1) مُضر بن مُحمَّد بن خالد بن وليد.

2) أبو مُحمَّد الضَّبِّي الأسدي الكُوفي.

3) كهمش (أو كمهس) بن الحَسَن أبو عبد الله البَصْري (149 هـ).

4) أحمد بن عطاء الهجيمي البَصْري.

5) داود الخوارزمي الجواربي (وهُو الذي قال: اعفوني من الفَرْج واللِّحية، واسألوني عمَّا وراء ذلك!!).

6) مُقاتل بن سُليمان، المُفسِّر (150 هـ).

الحَشَويَّة اللاَّحقون أصحاب التَّصانيف:

1) الحافظ أبو عاصم خُشَيْش بن أصرم بن أسود النَّسائي (254 هـ)، وله في ذلك كتاب: "الاستقامة في الرَّدِّ على أهل البدَع!".

2) أبو حلمان الدّمشقي: (ونشأت عنه الفرقة الحلمانيَّة).

3) أبو عبد الله مُحمَّد بن كرَّام (255 هـ): مُؤسِّس فرقة الكرَّاميَّة.

---

(1) المِلَل والنِّحَل: الشّهرستاني: ج1/ ص 104-105.

4) مُحمَّد بن الهيصم.

5) الدّارمي: عُثمان بن سعيد السّجزي (282 هـ): صاحب كتاب "النّقض على بشر المريسي" (حيثُ إنَّ بشر المريسي من أصحاب الرّأي والتّأويل)، وهذا الكتاب يتضمَّن الكثير من آراء المُشَبِّهَة الصّريحة في التّشبيه، وقد أعاد أهل الحديث طباعته في باكستان تحت عُنوان: "رَدُّ الإمام الدّارمي بشر بن سعيد على بشر المريسي العنيد"، حقّقه: الشّيخ مُحمَّد حامد الفقي.

6) أبو بكر بن أبي عاصم: أحمد بن أبي عَمرو بن عاصم الضّحّاك بن مخلد الشّيباني (286 هـ).

7) عبد الله بن الإمام أحمد بن حَنْبَل (213 ـ 290 هـ): وله كتاب "السُّنّة"، ملأه بالأخبار والأحاديث الصّريحة بالتّشبيه والتّجسيم.

8) ابن خُزَيْمَة: الإمام أبو بكر مُحمَّد بن إسحق بن خزيمة السّلمي النّيسابوري الشّافعي مذهباً، الحَشَوي عقيدةً: (233 ـ 311 هـ) وله كتاب "التّوحيد وإثبات صفات الرَّبِّ عَزَّ وجَلَّ" طَبَعَهُ السَّلَفيَّةُ أهل الحديث المُعاصرون مراراً، وعلّق عليه الكوثري بأنّه أولى باسم كتاب الشِّرْك منه باسم كتاب التّوحيد؛ لما ملأه من روايات فيها التّشبيه والتّجسيم لِلّهِ عَزَّ وجَلَّ.

9) أبو بكر الخلاّل: أحمد بن مُحمَّد بن هارون، أبو بكر الخلاّل البغدادي الحَنْبَلي الفقيه المُحدِّث (311 هـ)، وله في هذا الموضوع كتاب: "السُّنّة".

10) البربهاري الحَنْبَلي: أبو مُحمَّد الحَسَن بن عليّ بن خلف البغدادي الحَنْبَلي (233 ـ 329 هـ)، أحيا أفكار الحَشَويَّة في كتابه: "شرح كتاب السُّنَّة"، وهُو الذي رُوي عنه قوله في كتابه ذاك: أنَّ مَنْ فوق المئذنة أقرب إلى الله ـ تعالى ـ ممَّنْ هُو على الأرض!

11) العسّال: المُحدِّث مُحمَّد بن أحمد إبراهيم الأصبهاني أبو أحمد (269 ـ 349)، وله في موضوع الصّفات كتاب: "السُّنَّة".

12) الطّبراني: أبو القاسم سُليمان بن أحمد اللّخمي الطّبراني (260 ـ 360)، وله أيضاً في هذا الموضوع كتاب: "السُّنَّة".

13) الآجري: أبو بكر مُحمَّد الحُسَين بن عبد الله الآجري الشّافعي (...ـ 360)، وله في الموضوع كتاب "الشّريعة" الذي طَبَعَهُ السَّلَفِيَّة أهل الحديث المُعاصرون في مصر بتحقيق مُحمَّد حامد الفقي.

14) أبو الشّيخ: الحافظ عبد الله بن مُحمَّد بن جَعْفَر بن حيَّان الأصبهاني، أبو مُحمَّد وأبو الشّيخ (274 ـ 369)، وله أيضاً كتاب: "السُّنَّة".

15) الدّارقطني: أبو الحَسَن عليّ بن عُمر البغدادي الشّافعي (306 ـ 385 هـ)، وله عدَّة كُتُب في أحاديث التّشبيه منها: كتاب "النُّزُول"، وكتاب "الصّفات"، وغيرهما، وكُلُّها طُبعت حديثاً من قبَل أهل الحديث الذين يُوافقون المُؤلّف في مشربه.

16) ابن بطّة العبكري: عبيد الله بن مُحمَّد بن مُحمَّد بن حمدان أبو عبد الله الحَنْبلي (304 ـ 387)، وله في ذلك كتاب "الشَّرْح والإبانة عن أُصُول أهل السُّنَّة والدّيانة".

17) الحافظ ابن منده: أبو عبد الله مُحمَّد إسحق بن مُحمَّد بن يحيى بن منده (310 ـ 395)، وله كتاب "الرَّدُّ على الجُهَمِيَّة"، و"كتاب "الإيمان".

18) أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التّميمي الحَنْبَلي (. . . ـ 410)، وله كتاب "اعتقاد الإمام المُبجَّل أبي عبد الله أحمد بن حَنْبَل"، طُبع في القاهرة بتحقيق مُحمَّد حامد الفقي.

19) اللالكائي: أبو القاسم هبة الله بن الحُسَين بن منصور الطَّبَري الرّازي الشّافعي (418 هـ)، له كتاب: "شرح أُصُول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة"، طُبِع في مكّة، كما له كُتُب أُخرى في الموضوع نفسه؛ منها: كتاب "شَرْح السُّنَّة"، و"مذاهب أهل السُّنَّة".

20) أبو مُحمَّد بن عبد الله يُوسُف الجُويني والد إمام الحَرَمَيْن (. . . ـ 438)، وله كتاب: "رسالة في إثبات الاستواء والفَوْقيَّة ومسألة الحَرْف والصّوت والقُرآن المجيد"، طُبع ضمن مجموعة الرّسائل المُنيريَّة.

21) أبو نصر السّجزي الوائلي البكري المُحدِّث (. . . ـ 444)، وله: "الإبانة عن أُصُول الدِّين".

22) أبو عُثمان الصّابوني: شيخ الإسلام إسماعيل بن عبد الرّحمن بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن عامر النّيسابوري (373 ـ 449 هـ/ 983 ـ 1057م)، له "عقيدة السَّلَف وأصحاب الحديث"، كما له "ذمُّ الكلام"، و"الفاروق في الصّفات".

(4) الحنابلة الأَثَريَّةُ مِنْ أصحابِ الحديثِ:

في الواقع؛ هُناك ما يدعو للفَصْل بين كثير من الحنابلة وإمامهم أحمد بن حَنْبَل ﷺ، والحديث عنهم كفئة أو فرقة مُستقلّة من الفرَق الكلاميَّة، وذلك بسبب انتشار الفكْر الحَرْفي المُتشدِّد، وأحياناً؛ الحَشَوي التّشبيهي بين كثير منهم، رغم مُخالفة بعضهم لهذا الاتِّجاه ومُحاربتهم له، إلاّ أنَّ هؤلاء المُخالفين بقوا قلّة في وسط الكثرة التي مالت لما يُقارب فكْر الحَشَويَّة في التّشبيه والتّجسيم للذّات الإلهيَّة.

كان الإمام أحمد بن حَنْبَل ﷺ واحداً من عُلماء السَّلَف المُلتزمين ـ في دقَّة ـ بموقف الكتاب والسُّنَّة في العقيدة، ولم يكن الرّجل عدواً للعَقْل ولا حَشَوياً، وهُو إنْ كان يجعل المرجع الأخير في أمر الحُكْم الشّرْعي ـ عقائدياً كان أو عملياً ـ النَّصّ الصّحيحَ، فإنّه لم يكن حَرْفياً قطُّ في فَهْمه، ولا كان يُولي بعض النُّصُوص أهمِّيَّة قد تطغى على ما سواها، أو تجعل منها قضيَّة لم يشتغل بها السَّلَف في القُرُون الفاضلة [1].

انتشار الفكْر الحَشَوي التّشبيهي بين كثير من الحنابلة مع مُخالفة عدد منهم لهذا الاتِّجاه:

أمَّا المُتسبون لاسمه أو مذهبه؛ فإنّهم كانوا يتراوحون ـ كما يبدو لدارس علم الكلام ـ بين اتِّجاهات ثلاث:

أ ـ اتِّجاه نزع نحو مزيدٍ من العَقْل في مجال التّفكير الكلامي، ودعاه ذلك إلى الاقتراب من المواقف الأشعريَّة، بل إلى تبنّي بعض الأفكار المنهجيَّة أو الموضوعيَّة الاعتزاليَّة أحياناً،

---

(1) انظر ابن تيميَّة: دَرْءُ تعارُض العَقْل والنَّقْل، تحقيق مُحمَّد رشاد سالم، القاهرة، 1972م، 7/ 154 ـ 156.

ويتمثَّل ذلك في مجموعةٍ مثل ابن عقيل صاحب الفُنُون وشيخ حنابلة بغداد، وأبي يعليّ صاحب المُعتمد وغيره من الكُتُب، وعبد الرّحمن ابن الجوزي البغدادي صاحب المُؤلَّفات العديدة في العقائد والتّاريخ وغيرهما[1]، وكُلُّهم قد لفتوا - بمواقفهم المُشار إليها - نَظَرَ زُملائهم من شُيُوخ الحنابلة فيما بعد؛ وخاصَّة ابن قُدامة وابن تيميَّة[2] اللَّذَيْن انتقدا مسلكهم، ولعلَّ أوَّلهم - أعني ابن عقيل - أكثرهم وُضُوحاً في هذه النّزعة العَقْلانيَّة، حتَّى رماه الحنابلة التّقليديُّون بالخُرُوج على أهل السُّنَّة، والميل إلى الاعتزال![3].

ب - اتِّجاه زاد نُزُوعُه نحو حَرْفيَّة النَّصّ، وبالغ في التزام الظَّواهرِ المُباشرة لها، بعيداً عن أيّ دور للعَقْل في العقيدة، فأثبت لله - تعالى - الجهة والمكان، وتشدَّدَ في مسألة الجهة والأينيَّة لله عَزَّ وجَلَّ، وتعصَّب لها، أو تعصَّب في إيلاء بعض الأُمُور أهمِّيَّةً لم تكن لها من قبل، كمسألة الحَرْف والصّوت؛ أيْ إثبات أنَّ حُرُوف القُرآن المقروءة وصوت تلاوتها هي أيضاً غير مخلوقة وقديمة (!!)، وقد جرَّهم تعصُّبهم وحَرْفيَّتهم الشّديدة إلى حَدّ الدُّخُول في فِتَنٍ ومعاركَ كلاميَّةٍ أحياناً، ودمويَّةٍ أحياناً أُخرى - كما حَدَثَ مراراً في بغداد ودمشق والقاهرة - ضدَّ الشّيعة أو المُعتزلة أو الأشاعرة أو ضدَّ هؤلاء مُجتمعين[4]، ممَّا قد يُخالف مسلك الإمام الذي ينتسبون إليه؛ أيْ أحمد بن حَنْبَل، وممَّا أدَّى إلى وصف كثير من عُلماء أهل السُّنَّة لهم بأنَّهم حَشَويَّة مُتقشِّفة[5] يتستَّرون بالبلكفة[6]، وأنَّهم مُشبِّهة مُجسِّمة، وإنْ كان بعضهم ليس بالحَشَويّ، أو المُجسِّم الصّريح، إلاَّ أنَّ في كلام كثيرٍ منهم ما يُؤوِّل إلى التّشبيه

---

(1) انظر ابن عقيل: كتاب الفُنُون: 1/ 30 وما بعدها، وأبو يعلى: المُعتمد في أُصُول الدِّين: ص 35، 41 - 42، وعبد الرّحمن بن الجوزي الحَنْبَلي البغدادي: تلبيس إبليس: 135 وما بعدها.

(2) انظر ابن تيميَّة: دَرْءُ تعارُض العَقْل والنَّقْل 4/ 208، وابن قُدامة: تحريم النَّظَر في كُتُب أهل الكلام، ط لندن، 1962م، ص 8 وما بعدها.

(3) السّابقَيْن.

(4) انظر ابن عساكر: تبيين كذب المُفتري ص 4 وما بعدها، والبيهقي: الأسماء والصّفات / المُقدِّمة، والعزّ بن عبد السّلام: إيضاح الكلام، ط القاهرة، ص 2 - 13.

(5) النَّسَفي: بحر الكلام 5، والتّمهيد له أيضاً ل 2 أ.

(6) انظر ابن رُشْد: "الكَشْف عن مناهج الأدلَّة في عقائد الملَّة": ص 171، وتقي الدِّين الحصني: "دَفْع شُبهة مَنْ شَبَّه وتمرَّد ونَسَبَ ذلك إلى الإمام أحمد"، ط القاهرة: الحلبي، 1350 هـ، ص 16 وما بعدها.

للذّات الإلـهيَّة بشكلٍ واضحٍ[1]. وكان هذا هُو الاتِّجاه الغالب على الحنابلة، بعكس أصحاب الاتِّجاه التّنزيهي المُشار إليه آنفاً، الذين كانوا قلّةً بين الحنابلة.

ج ـ وهُناك بين الحنابلة المُتأخِّرين فريقٌ حاول ـ في نَظَره ـ أنْ يتَّخذ موقفاً وَسَطاً، ساعياً ـ من خلاله ـ إلى الجَمْع بين العَقْل والنَّقْل؛ أيْ الميل إلى الاحتكام إلى ظاهر النَّصِّ في النّهاية أو الصُّدُور عنه في البداية، دُون إهمال لدور العَقْل في كلتا الحالتَيْن، وإنْ زادت نسبة الاعتماد لديهم على ظاهر النَّقْل خاصَّةً في موضوع الصّفات الإلـهيَّة، فصار كلامهم مُختلطاً: أحياناً؛ تجد فيه مُحاولة الابتعاد عن التّجسيم والتّشبيه بإصرارهم على عبارة بلا كيف أو بلا تكييف، وأحياناً؛ تجد فيه ما يُؤوَّل إلى التّجسيم والتّشبيه الصّريحَيْن، وممَّنْ مثَّل هذا الاتِّجاه لدى الحنابلة: ابن قُدامة المقدسي، ومن قبله ابن الزّاغوني، والتّميميُّون[2] الذين ظهر من بينهم ـ فيما بعد ـ الإمام الشّهير ابن تيميَّة الحرَّاني، والذي أثارت أفكاره وتعصُّبه في قضيَّة الصّفات الإلـهيَّة الخَبَريَّة ومسألة إثبات الجهة والمكان لله ـ تعالى ـ وغيرها من المسائل لَغَطاً كبيراً في أوساط أهل السُّنَّة بين مُؤيِّد ومُعارض، أثارت في عصره أئمَّة المذاهب الأربعة عليه، حتَّى أوعزوا للسُّلطان بسَجْنه، فسُجن في قلعة دمشق، وبقي سجيناً فيها، حتَّى أدركته الوفاة. وقد تبنَّى أفكاره ـ فيما بعد ـ إمام الدّعوة التّجديديَّة التّوحيديَّة والحركة الإصلاحيَّة السَّلَفيَّة في نجد الإمام مُحمَّد بن عبد الوهاب النّجدي (رحمه الله) (1115 ـ 1206 هـ) (والتي اشتهرت باسم بالدّعوة الوهابيَّة).

أهمُّ خصائص منهج الحَرْفيِّيْن المُتشدِّدين من الحنابلة أهل الحديث:

1 ـ لا يجوِّزون تأويل ما وَرَدَ في الأحاديث والآيات حول صفات الباري عَزَّ وجَلَّ، أو الخُرُوج بها عن معناها الحَرْفي الظّاهر منها، والمفهوم بحسب اللّغة، فكُلُّ الآيات والأحاديث التي تُثبت أسماء الجوارح لله عَزَّ وجَلَّ، أو تُثبت له أيَّ صفة أُخرى؛ مثل المجيء، أو النُّزُول،

---

(1) انظر الذّهبي: بيان زغل العلم والطّلب، ط دمشق، 1928م، ص 21 ـ 23.

(2) انظر "السّيف الصّقيل في الرّدّ على ابن زفيل": تقي الدِّين السّبكي، ص 3 ـ 6 وما بعدها. وانظر عبد الرّحمن ابن الجوزي الحَنْبلي: "دفع شُبَه التّشبيه بأكفّ التّنزيه" بتحقيق الشّيخ الكوثري، القاهرة، ص26 وما بعدها، وابن قُدامة: اللّمعة (لمعة الاعتقاد)، مكتبة السُّنَّة المُحمَّديَّة بالقاهرة، ص 3 وما بعدها.

أو الغضب، أو الاستواء على العرش ...إلخ، يجب القبول بمعناها الظّاهر، ولا يجوز ـ بحال من الأحوال ـ أنْ تُحملَ على المجاز، أو تُصرف عن ظاهرها اللُّغوي، لذلك؛ اعتقدوا أنَّ اللهَ ـ تعالى ـ جسمٌ وجوهرٌ ومحلٌّ للحوادث، وأثبتوا له جهةً ومكاناً وصُورةً وأبعاضاً، وفي هذا يصفهم عبد الرّحمن بن الجوزي الحَنْبَلي فيقول: «حملوا ظاهر ما تعلّق من صفات الباري ـ سُبحانه ـ على مُقتضى الحسِّ، فشبَّهوا؛ لأنَّهم لم يُخالطوا الفُقَهَاء، فيعرفوا حَمْلَ المُتشابه على مُقتضى الحُكْم»[1].

2 ـ ولأنَّهم حملوا الصّفات على مُقتضى الحسِّ، وسمعوا الآيات والأحاديث التي فيها ألفاظ: مثل ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أو ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أو ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ . . . إلخ، أو أحاديث فيها جُمل مثل: "قُلُوب العباد بين أصبعَين من أصابع الرّحمن"، أو "أنَّ الله ـ سُبحانه وتعالى ـ خلق آدم على صُورته" . . . إلخ، فأثبتوا للَّه ـ تعالى ـ صُورةً، ووجهاً زائداً على الذّات، وعينَيْن، وفَماً، ولهوات، وأضراساً، ويدَيْنِ، وأصابعَ، وكَفّاً، وخنصراً، وإبهاماً، وصدراً، وفخذاً، وحقواً (أيْ خصراً) وجنباً، وساقَيْنِ، ورجلَيْنِ. . . .، وقالوا: ما سمعنا بذكْر الرّأس، وقالوا: يجوز أنْ يَمَسَّ ويُمَسَّ، ويُدني العبد من ذاته، وقال بعضهم: ويتنفَّس، والحاصل أنَّهم تصوَّرا الله ـ تعالى ـ صُورةً ذات أعضاءٍ وأبعاضٍ، وتعصَّبوا بشدَّة لعقيدتهم تلك، حتَّى قالوا: إنَّ من يُنكر المعنى الحَرْفي الظّاهر لتلك النُّصُوص، التي أسموها صفات لله تعالى، ويُؤوِّلها على معان مجازيَّة استعاريَّة، فهُو مُعطِّل لصفات الله، مُنكر لها، وبالتّالي؛ كافر خارج عن الإسلام؛ لأنَّه يُكذِّب بآيات الله ـ تعالى ـ وأحاديث نبيِّه (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)!

وفي هذا يصفهم تقي الدِّين الحصني فيقول: «وقد أخذوا بالظّواهر في الأسماء والإضافات، فسمّوا الصّفات تسمية مُبتدعة، لا دليل لهم في ذلك من النَّقْل، ولا من العَقْل، ولم يلتفتوا إلى النُّصُوص الصّارفة عن الظّواهر إلى المعاني الواجبة لله سُبحانه وتعالى، ولا إلى إلغاء ما تُوجبه الظّواهر من سمات الحدث، ولم يقنعوا أنْ يقولوا صفة فعلٍ

(1) الإمام عبد الرّحمن ابن الجوزي البغدادي الحَنْبَلي: "تلبيس إبليس": ج1 / ص 142.

حتّى قالوا: صفة ذات، ثُمَّ لَمّا أثبتوا أنَّها صفات، قالوا: لا نحملها على ما تُوجبه اللُّغة مثل اليد على النّعمة، أو القُدرة ولا المجيء على معنى البرّ واللُّطف، ولا السّاق على الشّدَّة، ونحو ذلك، بل قالوا: نحملها على ظواهرها المُتعارفة، والظّاهر هُو المعهود من نُعُوت الآدميّين، والشّيء إنّما يُحمَل على حقيقته إذا أمكن، فإنْ صرف صارف حُمل على المجاز، وهُم يتحرَّجون من التّشبيه، ويأنفون من إضافته إليهم، ويقولون: نحنُ أهل السُّنَّة، وكلامهم صريح في التّشبيه»[1].

3 ـ يُفسِّرون قوله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ تفسيراً حَرْفيّاً بأنَّ معناه أنَّ الله اعتلى عرشه، واستقرَّ عليه، فصار فوق العرش، ولَمّا كان العرش في السّماء فالله فوقنا، كما هُو في السّماء لأنَّه ـ تعالى ـ يقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ . ويتعصَّبون في ذلك فيقولون: إنَّ مَنْ قال: إنَّ الله ليس في السّماء، أو ليس فوق عرشه فهُو كافر. فحدَّدوا لله ـ تعالى ـ جهةً مُحدَّدةً هي جهة العُلُوِّ والفَوْقيَّة بالنّسبة لنا، وحدَّدوه بمكانٍ مُحدَّدٍ هُو السّماء وفوق العرش.

4 ـ يُجوِّزون على الله الانتقال والحركة والنُّزُول والصُّعُود والاستقرار والتَّمكُّن. يروي ابن بطُّوطة أنَّه رأى في بعض رحلاته رجلاً منهم يخطب على المنبر في الشّام، فتلا حديث النُّزُول: [يَنْزِلُ رَبُّنَا ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟! مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟! مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟!][2] ثُمَّ قال: ينزل كنُزُولي هذا، ونَزَلَ درجةً من على المنبر، فأنكر عليه بعض الحاضرين، فهاج العامَّة على المُنكر، وضَرَبوه ضَرْباً شديداً!![3]

5 ـ يرون أنَّ الإيمان مُؤلَّف من تصديق وقول وعمل، وأنَّ الأعمال جُزء من حقيقة الإيمان، وأنَّ الإيمان يزيد وينقص حقيقةً.

---

(1) "دَفْع شُبَه مَنْ شَبَّهَ وتمرَّدَ ونَسَبَ ذلك إلى الإمام أحمد": أبو بكر تقي الدِّين الحصني: ج 1/ ص 6 ـ 7.

(2) أخرجه البُخاري ومُسلم في صحيحَيْهما بهذا اللَّفظ، ورواه التّرمذي وأبو داود بلفظ آخر قريب منه، ورواه غيرهما من أصحاب السُّنن كُلُّهم بسندهم عن أبي هُريرة.

(3) انظر "السّيف الصّقيل في الرّدّ على ابن زفيل": تقي الدِّين السّبكي، ص 6.

6 ـ يرفضون القول بالجَبْر، ويعتبرون نَظَرِيَّة الكَسْب التي قالها الإمام الأشعري (سيأتي شرحها في فَصْل الأشاعرة التّالي) تُوَدِّي للجَبْر، لأنّها تنفي أيَّ قُدرة وتأثير للعبد في إيجاد فعْله، وتجعل العباد فاعلين لأفعالهم مجازاً لا حقيقةً، في حين يرى أهل الحديث أنَّ العباد فاعلين لأفعالهم على الحقيقة لا المجاز، ويرون أنّه لا يُوجد أيُّ تعارض بين أنْ يكون العبد هُو الفاعل الحقيقي لفعْله، وأنْ يكون الله ـ تعالى ـ أيضاً هُو الخالق لفعْله، لأنّه هُو خالق العبد، وهُو الذي خَلَقَ فيه كُلَّ شيء من الحول والقُوَّة والقُدرة والاستطاعة.

7 ـ يُؤمنون بأنَّ أفعال الباري مُعلّلة بالحُكْم والأغراض، رافضين نَفْيَ الأشاعرة لتعليل أفعال الباري ـ عَزَّ وجَلَّ ـ بالعلَل والأغراض؛ بحُجَّة أنَّ هذا يجعل الباري مُحتاجاً لتلك الأغراض؛ لأنَّهم (أيْ أهل الحديث) يقولون: إنَّ نَفْيَ تعليل أفعال الباري يجعل أفعاله عَبَثِيَّةً، لا هدف لها، ولا غاية من ورائها، وهذا خلاف صريح نُصُوص القُرآن التي تُبيِّن كثيراً من أغراض أفعال الله ـ تعالى ـ وتصف أفعاله بالحكمة، ويرون أنَّ تعليل الفعل بالغرض لا يجعل الله ـ تعالى ـ مُحتاجاً لهذا الغرض؛ لأنَّ الغرض ليس لذات الله، بل لفعله ولمصلحة عباده، تماماً كما أنَّ تشريعات الله كُلَّها لجَلْب المنافع ودَرْء المفاسد، وهذا لا يعني أنَّ الله ـ تعالى ـ مُحتاج لجَلْب المنافع ودَرْء المفاسد، بل العباد مُحتاجون لها.

8 ـ كثيرٌ منهم لا يُجيز التّقليد في الفُرُوع؛ لأنَّ الاتِّباع المُطلق لإمام واحدٍ من أئمّة الفقْه قد يُصبح نوعاً من أنواع الشِّرْك؛ لأنَّ فيه التّسليم والطّاعة الكاملة في الحلال والحرام لغير الله تعالى، بل يعتمدون في فقْههم على الاستنباط المُباشر من ظاهر الأحاديث والأخبار.

9 ـ يأخذون بأخبار الآحاد، حتّى الفَرْديَّة والغريبة، أيْ الآحاديَّة المحضة منها في أُصُول الدِّين والاعتقادات التي مبناها على اليقين، انطلاقاً من موقفهم الذي يرى أنَّ أخبار الآحاد الصّحيحة السّند تُفيد القَطْعَ والعلمَ واليقينَ، وليس الظَّنّ كما يرى سائر الفُقَهَاء.

10 ـ يُولون موضوع توحيد العبادة والابتعاد عن أيِّ مظهر من مظاهر الشِّرْك أهمِّيّة بالغة؛ لأنَّ توحيد العبادة أساس الدِّين وأساس دعوة كُلِّ النّبيِّين، ولأنَّ الله كما قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النّساء/ 48، ولأنّه ـ سُبحانه ـ

لا يقبل عمل عامل ما لم يكن مُوحِّداً بريئاً تماماً من الشِّرْك، وقد يرى مُخالفوهم أنَّهم يتشدَّدون أو يُبالغون في هذا المنحى، حتَّى إنَّهم يعتبرون كثيراً من الأعمال التي يستبيحها بقيَّة المُسلمين شرْكاً بالله ـ تعالى ـ مثل الحلْف بغير الله، أو نداء: يا رسول الله، أو شَدِّ الرِّحال لزيارة قبر النّبيِّ، أو الوليِّ، أو بناء القباب والأضرحة على القُبُور، والتَّمسُّح بها، والتَّشفُّع بأصحابها عند الله، أو التَّوسُّل في الدُّعاء باسم الرّسول وغيره من الصّالحين. . . إلخ.

11 ـ يُركِّزون جداً على نَبْذ البدَع والمُحْدَثات في الدِّين، عملاً بما وَرَدَ عن النّبي ﷺ في الحديث الصّحيح: [كُلُّ مُحْدَثَةٍ بدعة، وكُلُّ بدعة ضلالة، وكُلُّ ضلالة في النّار]، لكنَّ فَهْمَهُم للبدَع فَهْمٌ مُتشدِّدٌ جداً، فهُم مثلاً لا يرون ـ كما يرى سائر الفُقَهَاء ـ انقسامها إلى بدَعٍ حَسَنَةٍ وبدَعٍ سيِّئةٍ، بل كُلُّها سيِّئةٌ مُحرَّمةٌ، وكُلُّ أمرٍ لم يفعله رسول الله ﷺ، بل تَرَكَ فعله، يكون فعله من البدَع المُحرَّمات، حتَّى ولو كان ذلك الفعل يدخل تحت أصل عامٍّ من الأُصُول التي حَثَّ عليها الشّارع؛ إذْ يقولون: إنَّ الدِّين اكتمل برحلة النّبي ﷺ ولو كان في هذا الفعل المُحْدَث خيرٌ لكان فَعَلَهُ النّبي ﷺ، فلمَّا تَرَكَه عُلِمَ أنَّه ليس من الدِّين، ولا خير فيه، وإلاَّ لكان الدِّين الذي تَرَكَه النّبي ﷺ بيننا ناقصاً، في حين يُخالفهم بقيَّة الفُقَهَاء في كُلِّ ذلك، فلا يرون في تَرْك الرّسول ﷺ لفعلٍ ـ وحده ـ دليلاً على بدعيَّته وحُرمة عمله، مادام يدخل تحت أصل من الأُصُول العامَّة التي المشروعة في الدِّين.

12 ـ اتِّساقاً مع تعبُّدهم الحَرْفي الشّديد بالنُّصُوص، فإنَّهم يتميَّزون بعدم التّسامح والتّساهل مع المذاهب الأُخرى التي يعتبرونها بدعيَّة؛ حيثُ يعتبرون هذا التّسامح مُداهنة في الحقِّ، ومُلاينة مع أهل البدَع الذين يجب مُقاطعتهم والتّعامل بالشِّدَّة والغلظة معهم، وبالتّالي؛ يتميَّزون بشدَّة التّعصُّب لموقفهم النّاجم عن الجزم بأنَّه على الحقِّ الصّراح، وعدم التَّردُّد في تكفير مُخالفيهم خاصَّة في موضوع الصِّفات وتوحيد العبادة، حتَّى إنَّ التكفير عندهم أسهل من شُرْبة ماء، ويرون أنَّ الحقَّ في الفُرُوع والأُصُول واحد لا يتعدَّد، وأنَّهم هُم وحدهم أهل السُّنَّة والجماعة الحقيقيُّون، والفرقة النّاجية الوحيدة دُون سائر فرَق المُسلمين ومذاهبهم، الذين يُعتبرون جميعاً ـ في نَظَرهم ـ فرَقاً ضالَّةً مصيرها إلى النّار!

بعض أشهر العلماء والمصنفين المتأخرين والمعاصرين من أهل الحديث أو الحنابلة الجُدُد وتراثهم:

1) القاضي أبو يعلى ابن الفرّاء الحَنْبَلي: مُحمَّد بن حُسَين بن مُحمَّد خلف أبو خازم (. . . ـ 458) له في موضوع الصّفات كتاب مُهِمٌّ أسماه: "إبطال التّأويل".

2) الخواجة عبد الله الأنصاري: عبد الله بن مُحمَّد بن عليّ الأنصاري الهروي الصُّوفي الحَنْبَلي (396 ـ 481)، له: "الفاروق في الصّفات" و"ذَمُّ الكلام وأهله".

3) المُوفَّق بن قُدامة: شيخ الإسلام مُوفّق الدِّين أبو مُحمَّد عبد الله بن أحمد بن مُحمَّد بن قُدامة المقدسي، ثُمَّ الدّمشقي الصّالحي الحَنْبَلي (541 ـ 615) له كتاب "ذَمّ التّأويل" و"تحريم النَّظَر في كُتُب أهل الكلام" رَدَّ فيه على ابن أبي عقيل صاحب الاتِّجاه العَقْلاني بين الحنابلة.

4) الإمام ابن تيمية: أبو العبَّاس تقي الدِّين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السّلام بن عبد الله الشّهير بابن تيمية الحرّاني الدّمشقي (661 ـ 728) الذي أحيا مذهب الأَثَرِيَّة من أصحاب الحديث، وكَتَبَ فيه العديد من الكُتُب في موضوع الصّفات والرَّدّ على الأشاعرة والمُعتزلة والشِّيعة وجميع المُخالفين لمشرب أهل الحديث، منها: "الرّسالة التّدمريَّة في تحقيق الإثبات لأسماء الله وصفاته وبيان حقيقة الجَمْع بين الشَّرْع والقدر" و"الفتوى الحمويَّة الكُبرى" نَشَرَهُمَا قُصي مُحبُّ الدِّين الخطيب صاحب المكتبة السَّلَفيَّة في القاهرة، و"العقيدة الواسطيَّة" و"بيان تلبيس الجُهَمِيَّة في تأسيس بدَعهم الكلاميَّة" رَدٌّ على كتاب "تأسيس التّقديس" لفخر الدِّين الرّازي، و"دَرْء تعارض العَقْل والنَّقْل" و"منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نَقْض كلام الشِّيعة والقَدَريَّة" وعشرات الرّسائل والكُتُب الأُخرى التي جُمعت كُلُّها، وطُبعت مراراً وتكراراً.

5) ابن قيِّم الجوزيَّة: مُحمَّد بن أبي بكر بن أيُّوب بن سعد الزّرعي الدّمشقي (691 ـ 751) أبو عبد الله شمس الدِّين (والزّرع نسبية لقرية أذرع بحوران) وهُو تلميذ ابن تيمية المُخلص، وحامل أفكاره وشارحها، وله أيضاً كُتُب عديدة في مجال الصّفات منها: "اجتماع الجُيُوش الإسلاميَّة على غزو الفرقة المُعطّلة الجُهَميَّة" و"الصّواعق المُرسلة على الجُهَميَّة والمُعطّلة" والقصيدة النُّونيَّة الطّويلة التي أسماها "الكافية الشّافية في الانتصار للفرقة النّاجية".

6) الحافظ الذّهبي : شمس الدِّين أبو عبد الله مُحمَّد بن أحمد بن عُثمان قايماز الحَنْبلي التُّركماني . (773 ـ 748) وله كتاب "العُلُوُّ للعليِّ الغفَّار" وكتاب "ذغل العلم" وغيرها .

7) ابن أبي العزِّ الحَنَفي : صدر الدِّين مُحمَّد بن علاء الدِّين عليّ بن مُحمَّد (من عُلماء القرن الثّامن الهجري) ابن أبي العزِّ الحَنَفي الأذرعي الصّالحي الدّمشقي .

8) ابن قائد النّجدي : الشّيخ عُثمان بن أحمد المعروف بابن قائد النّجدي (. . . . . 1097) له "نجاة الخَلَف في اعتقاد السَّلَف" .

9) الشّيخ مُحمَّد بن أحمد السّفاريني الحَنْبلي الأثري : (سفارين قرية قُرب نابلس بفلسطين ، الأثري الحَنْبلي (كان حيّاً : سنة 1173 هـ) وله "الدُّرَّة المُضية في عقد أهل الفرقة المرضيَّة" ، ثُمَّ شَرَحَهُ باسم "لوامع الأنوار البهيَّة وسواطع الأسرار الأثريَّة" .

10) الإمام مُحمَّد بن عبد الوهاب النّجدي (1115 ـ 1206 هـ) : إمام الحركة الإصلاحيَّة السَّلَفيَّة في نجد وما حولها (التي اشتهرت عند النّاس باسم الدّعوة الوهابيَّة ، وباسم الدّعوة السَّلَفيَّة) والتي قامت على أساسها المملكة العَرَبيَّة السُّعُوديَّة ، وله العشرات من الرّسائل والكُتُب يطول ذكْرها .

11) القنوجي : صديق حَسَن خان بن حَسَن بن عليّ بن لطف الله الحُسَيني (نَسَباً) البُخاري القنوجي أبو الطّيب (1248 هـ . ـ 1307 هـ / 1832م . ـ 1889) تزوَّج ملكة بهوبال ، ولُقِّبَ بنواب عالي الجاه أمير الملك بهادر .

12) الشّيخ حافظ ابن أحمد الحَكَمي (من تهامة) (1342 ـ 1377 هـ) وله كتاب حافل في موضوع الصّفات على مشرب أهل الحديث والأثر سمّاه : "معارج القبول بشرح سُلَّم الوُصُول إلى علم الأُصُول في التّوحيد" شَرَحَ فيه قصيدته "سُلَّم الوُصُول إلى علم الأُصُول في توحيد الله واتّباع الرّسول" وكتاب "أعلام السُّنَّة المنشورة لاعتقاد الطّائفة النّاجية المنصورة" و"الجوهرة المُنيفة في تحقيق العقيدة" .

ومن أشهر المُعاصرين من أهل الحديث والأثر ممَّنْ كَتَبَ ودافع كثيراً عن هـذا المشـرب، في القـرن الماضي وإلى يومنـا هـذا ـ وتلقَّبوا بِـ "السَّلَفيَّة" و"أهـل السُّنَّة" و"الأثَريَّة"، في حـين اشتهروا عند مُخالفيهم باسم "الوهابيَّة" نسبةً للمرحوم الشّيخ مُحمَّد بن عبد الوهاب الذي مرَّ ذكْره، والذي كان له أكبر دور في إحياء هذا المشرب في القرنَيْن الماضيَيْن:

الشّيخ مُحمَّد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السُّنَّة المُحمَّديَّة في مصر.

وقُصيّ مُحبّ الدِّين الخطيب صاحب دار المطبعة السَّلَفيَّة ومكتبتها بالقاهرة.

ومُحمَّد خليل هرَّاس المُدرِّس بالأزهر الشّريف.

وعلاَّمة الشّام مُحمَّد بهجت البيطار الأثَري (1978م).

والشّيخ المُحدِّث ناصر الدِّين الألباني.

بالإضافة للكثير الذي لا يُحصى من عُلماء المملكـة العَرَبيَّـة السُّعُوديَّة، وعلى رأسـهم الشّيخ عبد الله بن عبد العزيز بن باز، وابن عثيمين، وابن بطِّين، وأبـو بكـر الجزائـري و . . . إلخ. وعُلماء آخرون في سائر أقطار شبه الجزيرة العَرَبيَّة وما جاورها من الأُردن ومصـر وبـلاد الشّام وشمال أفريقيا، لا سيما الجزائر، عدا عن أقطاب كبار لأهل الحديـث الأثَريَّـة في الـهند وباكستان، ونذكر من أشهر دُعاتهم ومُؤلِّفيهم في شبه القارَّة الهنديَّة:

أبو سعيد مُحمَّد حُسَين البتالوي (1338 هـ.) صاحب مجلَّة "إشاعة السُّنَّة".

وعبد العزيز الرّحيم آبادي (1336 هـ.).

وعبد السّلام المباركفوري (1342 هـ.).

وأبو القاسم البنارسي (1369 هـ.).

ومُحمَّد إسماعيل السَّلَفي (1387 هـ.) وغيرهم الكثير في شبه القارَّة الهنديَّة.

(5) الأشاعرة:

يُمثِّل ظُهُور المذهب الأشعري نُقطة تحوُّل هامَّة في الفكْر الإسلامي بعامَّة، وعلم الكلام بخاصَّة، فمن جهة؛ أصبحت أغلبيَّة أهل السُّنَّة ـ وهُم بدورهم يُمثِّلون أغلبيَّة المُسلمين ـ تدين بهذا المذهب الكلامي، ومن جهة أُخرى؛ أصبح علم الكلام مُعترفاً به كعلم من عُلُوم الدِّين، بعد أنْ كان المُحدِّثون وأئمَّة الفقْه (أيْ الذين كانوا يُمثِّلون تيَّار أهل السُّنَّة التَّقليدي العامّ) يكرهون، بل يُحَرِّمون الخوض في هذا العلم، ويُنَفِّرُونَ النَّاسَ من الاقتراب منه.

وقد ظهر هذا المذهب في القرن الرَّابع الهجري على إثر انقلاب مُفاجئ في مُعتقد مُؤسِّسه الإمام أبي الحَسَن عليّ بن إسماعيل الأشعري (270 ـ 330)، من الاعتزال ـ الذي كان قد استمرَّ عليه عشرين عاماً ـ إلى مذهبه الجديد، انقلاباً ترافق بخُصُومة عنيفة للمُعتزلة! وقد تزامن هذا التَّحوُّل مع بداية أُفُول عصر المُعتزلة بنحوٍ، مثَّل انقلاب رُوح العصر على ذاته، ومن ثمَّ؛ اكتسب تحوُّل الأشعري أهمِّيَّة خاصَّة أثارت الباحثين في فكْره ومذهبه، قُدامى ومُحْدَثين.

إنَّ دراسة حياة أبي الحَسَن الأشعري وتكوينه الفكْري والأسباب التي أدَّت إلى تحوُّله عن الاعتزال مُهمَّة جداً لفَهْم عوامل هذا التَّحوُّل ودوافعه ومُبرِّراته، فضلاً عن نتائجه.

مُؤسِّس المذهب الإمام أبو الحَسَن الأشعري:

هُو أبو الحَسَن عليّ بن إسماعيل بن إسحق ـ ينتهي نسبه إلى أبي مُوسَى الأشعري ـ وُلد بالبَصْرَة عام 260 هـ، وفي نشأته ونسبه مُكوِّنات ربَّما لعبت دورها في تحوُّله: فقد كان أبوه إسماعيل بن إسحاق ـ والمُلقَّب بأبي بشر ـ من أهل السُّنَّة والجماعة، كما كان مُحدِّثاً، وقد أوصى عند وفاته إلى زكريَّا بن يحيى السَّاجي الذي كان إماماً في الفقْه والحديث وعنه روى أبو الحَسَن بعض الأحاديث.

وقد دَرَسَ أبو الحَسَن الفقه على أحد أئمة الفقه الشّافعي ببغداد؛ هُو أبو إسحق المروزي (ت340 هـ)، كما تعلّم الكلام على مذهب المُعتزلة على يدَيْ أحد أقطابهم؛ وهُو أبو عليّ الجبائي (303 هـ)، فكان تلميذاً له، إلى أنْ بلغ الأشعري سنّ الأربعين[1].

الحوار والتّحوُّل:

تدور أشهر مُناظرة بين الأشعري وشيخه المُعتزلي الجبائي حول: وُجُوب فعل الصّلاح والأصلح على الله، وهي فكرة لابُدَّ أنْ تُثير تساؤلَيْن:

1 ـ هل يجب على الله شيء؟

2 ـ هل جميع أفعال الله تعليليّة؟ كيف ذلك وهُو: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ الأنبياء/ 23؟، وهل يتقيَّد الفعل الإلهي بضرورة مُراعاة مصالح العباد؟ أليس في ذلك تقييد للمشيئة؟

1 ـ مُناظرة في أفعال الله: هل هي تعليليّة؟:

سأل الأشعري أستاذه الجبائي: ما قولك في ثلاثة: مُؤمن وكافر وصبي، فقال الجبائي: المُؤمن من أهل الدّرجات، والكافر من أهل الهلكات، والصّبي من أهل النّجاة، فقال الأشعري: فإنْ أراد الصّبي أنْ يرقى إلى أهل الدّرجات هل يُمكن؟ قال الجبائي: لا؛ لأنّه يُقَالُ له: إنَّ المُؤمن قد نال هذه الدّرجة بالطّاعة، وليس لك مثلها، قال الأشعري: فإنْ قال: التّقصير ليس منّي، فلو أحييتني كُنتُ عملتُ من الطّاعات كعمل المُؤمن، قال الجبائي: يقول له الله: كنتُ أعلمُ أنّكَ لو بقيتَ لعصيتَ، ولعُوقبتَ، فراعيتُ مصلحتكَ وأمَتُّكَ قبل أنْ تنتهي إلى سنّ التّكليف، قال الأشعري: فلو قال الكافر: يا ربُّ؛ علمتَ حاله كما علمتَ حالي، فهلا راعيتَ مصلحتي مثله، فَأَمَتّني صغيراً؟ فانقطع الجبائي[2].

---

(1) البغدادي: تاريخ بغداد: ج11/ ص347، والسّبكي: طبقات الشّافعيّة: ج2/ ص248 وربّما كانت صُحبة صداقة لا تلمذة؛ إذ توفّي المروزي بعد الأشعري بمُدّة.

(2) السّبكي: طبقات الشّافعيّة: ج2/ ص 250 ـ 251 وانظر ـ أيضاً ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 3/ ص398 مع اختلاف بسيط وإضافة: قال الجبائي للأشعري: إنّكَ مجنونٌ، فَرَدَّ الأشعري: لا، بل وقف حمار الشّيخ في العقبة! ويُعلّق ابن خلكان بقوله: هذه مُناظرة دالّة على أنَّ الله ـ تعالى ـ يختصُّ برحمته مَنْ يشاء، كما يختصُّ بعذابه مَنْ يشاء، وأنَّ أفعاله غير مُعلّلة بشيء من الأغراض، كما علّق عليها السّبكي بقوله: من أُصُولنا أنّه ـ تعالى ـ لا يجب عليه شيء، ولا يفعل شيئاً لشيء يبعثه، بل هُو مالك المُلك وربُّ العالمين، لا يُسأل عمّا يفعل، وهُم يُسألون.

ولا شكَّ أنَّ المُعتزلة قد أسرفوا على أنفسهم حين غلوا في تحكيم العَقْل إلى حَدٍّ مُحاولة تعليل كُلِّ فعْل إلهي، كأنَّهم قد اطلعوا على أسرار الله ﷻ وحكمته في كُلِّ شيء، وفَاتَهُم قُصُور العَقْل الإنساني عن الإحاطة بالكون ومجرى القضاء فيه، لقد كان يُمكنهم الإيمان بإحكام التّدبير والنّظام في الكون بالإجمال دُون أنْ يُقحموا أنفسهم في الجُزئيّات لتعليل كُلِّ فعل إلهي وُفقاً لمبدأ الصّلاح الأصلح[1].

ترجع أهمِّيَّة هذه المُناظرة إلى أنَّها تُحدِّد مسار آراء أبي الحَسَن الأشعري بخاصّة، واتِّجاهات المذهب الأشعري بعامَّة، ذلك أنَّ العَقْل الإنساني قاصر عن الإحاطة بالحكمة في أفعال الله، وأنَّ الأحكام التّوقيفيَّة في أفعال الله تترجَّح على الأحكام التّوفيقيّة أو التّعليليّة، وأنَّ الفعل الإلهي لا يخضع لتقييم العَقْل البشري وموازينه، ومن ثمَّ؛ فإنَّ هذا المبدأ العامَّ إنَّما يُحدِّد مَعْلَماً هاماً من معالم الفكْر الأشعري، فذهب على سبيل المثال إلى:

1 ـ إمكان تكليف ما لا يُطاق، فذلك من الله جائز.

2 ـ جواز تعذيب الأطفال ـ الأطفال المُشركين يوم القيامة ـ. فذلك من الله عدْل[2].

3 ـ حُسْن الأفعال أو قُبحها بمُقتضى الأَمْر أو النَّهْي الإلهيّين، لا بمُقتضى العَقْل.

2 ـ مُناظرة في أسماء الله: هل هي توقيفيَّة؟:

دخل رجل على الجبائي فقال: هل يجوز أنْ يُسمَّى الله ـ تعالى ـ عاقلاً؟ فقال الجبائي: لا، لأنَّ العَقْل مُشتقٌّ من العقال، والعقال بمعنى المانع، والمَنْع في الحقِّ الله ـ تعالى ـ مُحال،

---

(1) على أنَّه ينبغي أنْ نُلاحظ أنَّ كُلَّ الرّوايات التي وصلتنا عن مُفارقة الأشعري للجبائي روايات أشعريَّة، ومن ثمَّ؛ ينبغي أنْ تُؤخذ بحَذَر. جاءت روايات مُفارقة واصل للحَسَن البصري من قِبَل خُصُوم المُعتزلة لتُعطي انطباعاً أنَّه انشقاق وخُرُوج على الجماعة. وجاءت روايات مُفارقة أبي الحَسَن الأشعري للجبائي من قِبَل خُصُوم المُعتزلة ـ أيضاً ـ لتُعطي انطباعاً أنَّه إفحامُ تلميذ لشيخه من جهة، وتهافت مبدأ الصّلاح الأصلح من جهة ثانية، ومُفارقة الأقوال الباطلة ـ آراء المُعتزلة ـ من جهة ثالثة.

(2) هكذا يتَّخذ لفظ العَدْل معنى مُغايراً تماماً لمعناه لدى المُعتزلة، فبينما مفهومه لديهم ما يقتضيه العَقْل من الحكمة أو إصدار الفعل على وجه الصّواب والمصلحة، نجد معناه لدى الأشاعرة. التّصرُّف في المُلك على مُقتضى المشيئة والعلم (المِلَل والنِّحَل ج1/ ص25)، أيْ أنَّ العَدْل مبدأ رئيسي في الفعل الإلهي يحكم المشيئة لدى المُعتزلة، بينما هُو مبدأ تابع للمشيئة لدى الأشاعرة.

فامتنع الإطلاق، فقال الأشعري: فعلى قياسكَ لا يُسمَّى الله سُبحانه ـ حكيماً ـ لأنَّ هذا الاسم مُشتقٌّ من حكمة اللّجام، وهي الحديدة المانعة للدّابّة عن الخُرُوج، فإذا كان اللّفظ مُشتقّاً من المَنع ـ والمَنع على الله مُحال ـ لزِمكَ أنْ تمنع إطلاق « حكيماً » عليه ـ سُبحانه وتعالى ـ فلم يحرْ جواباً. إلاّ أنّه قال له: فلمَ منعتَ أنتَ أنْ يُسمَّى الله سُبحانه عاقلاً، وأجزتَ أنْ يُسمَّى حكيماً؟ قال الأشعري: لأنَّ طريقي في مأخذ أسماء الله السّماع الشّرْعي، لا القياس اللُّغوي، فأطلقتُ حكيماً؛ لأنَّ الشَّرْع أطلقه، ومَنَعْتُ « عاقلاً » لأنَّ الشَّرْع مَنَعَهُ، ولو أطلقه الشَّرْع لأطلقتُه»[1].

وهكذا يتحدَّد مسار تفكير الأشعري ومذهبه: أنْ يكون المرجع في تحديد أسماء الله: السَّمْع دُون العَقْل، ولا يعني ذلك إنكار الأشاعرة للعَقْل في مسائل العقيدة، وإنَّما أنْ يكون موقفهم إلى السَّمْع أو إلى النَّقْل أقرب وأرجح.

3 ـ رُؤيا النّبي:

تنسب الرّوايات الأشعريَّة تحوُّل أبي الحَسَن إلى إشارةٍ من النّبي في رُؤيا؛ إذْ لَمّا تبحَّر في كلام الاعتزال، وبلغ غايةً كان يُورد فيها الأسئلة على أستاذه، فلا يجد منه جواباً شافياً، تحيَّر ذلك، فحُكي عنه أنّه قال: وَقَعَ في صدري في بعض اللّيالي شيء مِمّا كُنتُ فيه من العقائد، فَقُمْتُ، وصلّيتُ ركعتَيْن، وسألتُ الله أنْ يهديني الطّريق المُستقيم، ونمتُ، فرأيتُ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في المنام، فَشكَوْتُ إليه بعض ما في من الأمْر، فقال: عليكَ بسُنّتي، فانتهيتُ، وعارضتُ مسائل الكلام بما وجدتُ في القُرآن، فأثبتُّهُ، ونَبَذْتُ ما سواه وراء ظَهْري[2].

4 ـ وخُطبة منبريَّة:

وتُحدِّد الرّوايات الأشعريَّة ـ حسبما ذَكَرَ ابن عساكر والسُّبْكي وابن خَلّكان ـ تحوُّله المُفاجئ بخُطبة منبريَّة؛ إذ غاب عن النّاس خمسة عشر يوماً في بيته، ثُمَّ خرج إلى الجامع

---

(1) السّبكي: طبقات الشّافعة ج2/ ص251 وما بعدها. وليس بمُستبعد أنْ يكون الأشعري أقدر على الجَدَل والمُناظرة من أستاذه الجبائي كما يروي الأشاعرة، بينما كان هذا باعترافهم صاحب تصنيف وقَلَم. السّبكي: طبقات الشّافعة ج2/ ص246ـ247.

(2) ابن عساكر: تبيين كذب المُفتري فيما نُسب إلى الإمام الأشعري: ص40.

بالبَصْرَة، وصعد المنبر بعد صلاة الجُمعة قائلاً: معاشر النّاس، إنَّما تغيَّبتُ عنكم هذه المرَّة؛ لأنّي نَظَرتُ، فتكافَأَتْ عندي الأدلَّة، ولم يترجَّح عندي شيء، فاستهديتُ اللهَ، فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كُتُبي هذه، وانخلعتُ من جميع ما كُنتُ أعتقده، كما أنخلع من ثوبي هذا، وانخلعَ من ثوبٍ كان عليه، ورمى به، ودَفَعَ الكُتُب التي ألَّفها على مذهب أهل السُّنَّة إلى النّاس[1]. وتُحدِّد رواية ابن خلكان ما انخلع عنه من مُعتقدات حين صاح قائلاً: مَنْ عَرَفَني، فقد عَرَفَني، ومَنْ لم يعرفني، فأنا أُعَرِّفه بنفسي، أنا فُلان ابن فُلان، كُنتُ أقول بخَلْق القُرآن، وأنَّ الله لا تراه الأبصار، وأنَّ أفعال البشر أنا فاعلها، وأنا تائب مُقلع مُخرج لفضائح المُعتزلة ومعايبهم.

منهجه:

يستند منهج الأشعري، الذي حدَّدَ موقفه من المُعتزلة، إلى عاملَيْن رئيسيَّيْن:

الأوَّل: إنَّ إعطاء قيمة مُطلقة للعَقْل لا يُؤدِّي إلى نُصرة الدِّين، إنَّه استبدال العَقْل بالعقيدة، وكيف تكون مُعتقداتنا عن الله إذا كان العَقْل هُو المرجع عند التّعارض على النَّقْل؟

الثّاني: أنَّه لابُدَّ من الإيمان أنَّ في الدِّين أحكاماً توقيفيَّة[2]، ذلك مبدأٌ جوهريٌّ في الاعتقاد، ولا يكون بدُونه إيمان، وما عسى أنْ يكون الدِّين إذا استباح الإنسان لعَقْله أنْ يخوض في كُلِّ فعل أو أمر إلـهي، إنَّ ذلك يتنافى تماماً مع مفهوم الإيمان وما يقتضيه من تصديق وتسليم.

على أنَّ ذلك لا يعني مُعارضةً للعَقْل؛ إذْ انتقد الأشعري الجُمُود والتّقليد بقوله: إنَّ طائفةً من النّاس جَعَلُوا الجهل رأس مالهم، وثقل عليهم النَّظَر والبحث عن الدِّين، ومالوا إلى التّخفيف والتّقليد، وطعنوا على مَنْ فتّش عن أُصُول الدِّين، ونسبوه إلى الضّلال[3]، ويقول في نصٍّ آخر أوضح وأصرح في الدّلالة على نهجه: حُكْمُ مسائل الشَّرْع التي طريقها

---

(1) ابن عساكر: تبيين كذب المُفتري ص39، والسّبكي: طبقات الشّافعيَّة ج2/ ص245، وابن خلكان: وفيات الأعيان ج2/ ص446.

(2) راجع في ذلك مُناظرته مع الجبائي حول أفعال الله، وكذلك مُناظرته الأُخرى حول أسمائه تعالى.

(3) الأشعري: استحسان الخوض في علم الكلام: ص87.

السَّمْع أنْ تكون مردودة إلى أُصُول الشَّرْع التي طريقها السَّمْع، وحُكْم مسائل العَقْليَّات والمحسوسات أنْ يُرَدَّ كُلُّ شيء من ذلك إلى بابه، ولا تُخْلَطُ العَقْليَّات بالسَّمْعيَّات، ولا السَّمْعيَّات بالعَقْليَّات.

ولقد تلمَّس الأشعري الحُلُول الوُسْطى في المُشكلات الكلاميَّة التي عالجها، يتَّضح ذلك في آرائه في مسائل صفات الله وخَلْق القُرآن، ومع خُصُومته للمُعتزلة؛ فإنَّه لم يُهْمِلْ منهج العَقْل، وذلك ممَّا أثار عليه الحنابلة، واتَّهموه أنَّه لم يتخلَّص تماماً من ميلٍ إلى الاعتزال[1]، على أنَّ ذلك لا يعني أنَّه كان إلى العَقْل أميلَ من النَّقْل، على العكس؛ فإنَّه إذا اتُّهم بأنَّه لم يلتزم الوَسَط بين النَّقْل والعَقْل في بعض المسائل - كما يرى العالم المُعاصر زاهد الكوثري - وأنَّه كان يميل إلى طرف من الطَّرفَيْن، فإنَّ هذا الطَّرف هُو - بلا شكٍّ - جانب النَّقْل: إنَّه إذا تعارض العَقْل والنَّقْل فإنَّ النَّقْل هُو المُقدَّمُ؛ إذْ يجب أنْ يَتْبَعَ العقلُ النَّصَّ، ولا يحيد عنه.

وليس أدلَّ على ميله إلى جانب النَّقْل دُون العَقْل من مُخالفة مذهَبَيْ الحُلُول الوُسْطى الآخَرَيْن المُعاصرَيْن له، واللَّذَيْن تبعهما شرائح أُخرى مُهمَّة لأهل السُّنَّة، لاتِّجاهه، فقد خالف الماتريدي نَظَريَّة الأشعري في أفعال العباد المُسمَّاة بنَظَريَّة الكسب (سيأتي شَرْحها بعد قليل)؛ لأنَّها - في رأي الماتريديَّة - ليست إلاَّ صُورة من الجَبْر، كذلك خالف الطَّحاويُّ الأشعريَّ في إجازته على الله تكليف ما لا يُطاق. والواقع أنَّ هذَيْن الرَّأيَيْن للأشعري: الكسب وتكليف ما لا يُطاق، مثلهما مثل بعض آرائه الأُخرى لا تُعبِّر عن ميله للنَّقْل، بقدر ما تُعبِّر عن بُعْده عن الاتِّجاه العَقْلي، كَرَدِّ فعل عنيف على اعتزاليَّته السَّابقة.

أهمُّ العقائد الأشعريَّة:

1 - في موضوع الصِّفات (أيْ صفات الله تعالى):

أ - *الله - تعالى - ليس كمثله شيء*: واحدٌ عالمٌ قادرٌ حيٌّ سميعٌ بصيرٌ، لا يُشبهه في ذاته ولا صفاته شيء، ولا يُشبه شيئاً؛ لأنَّه لو أشبَهَ المُحْدَثَات لكان في حُكْمها... ولم يُفارق

---

(1) ابن تيمية: مُوافقة صريح المعقول لصحيح المنقول: ج2/ ص10.

الأشعري المُعتزلة عندما أثبت العلم والقُدرة والحياة صفات ذات للَّه تعالى[1]، وخالفَ المُشَبِّهَة المُجسِّمَةَ في تأكيده أنَّ الله ـ تعالى ـ ليس بجسمٍ؛ لأنَّ الجسم هُو الطَّويل العريض العميق، فإنْ قيل جسمٌ لا كالأجسام، كان ردُّهُ أنَّنا لا نُطلق على الباري اسماً لم يُسمِّ به نفسَه، ولا سمَّاه به رسولُه. لكنَّ وجه اختلافه مع المُعتزلة في هذه النُّقطة، ليس في الفكْرة ذاتها، وإنَّما في الدّليل المُوصل إليها، فدليل المُعتزلة العقْل، ودليله السَّمْع.

ب ـ صفات الله ـ تعالى ـ ليست عين ذاته ولا غير ذاته: أثبت الأشعري صفات أزليَّةً سبعاً للَّه تعالى: فاللهُ عالمٌ قادرٌ حيٌّ مُريدٌ سميعٌ بصيرٌ مُتكلِّمٌ، وهُو عالمٌ بعلْمٍ (قديم قدَمَ الذّات) وقادرٌ بقُدرة قديمة وحيٌّ بحياة . . . وسميعٌ بسَمْعٍ، وبصيرٌ ببَصَرٍ، ومُتكلِّمٌ بكلامٍ، خلافاً للمُعتزلة الذي يُثبتون هذه الصّفات، لكنَّهم يرون أنَّ صفات الله هي عين ذاته، فليس هُناك شيء اسمه علمٌ قديمٌ أو قُدرة أو سمعٌ أو كلامٌ، بل الذّات الإلهيَّة نفسها عندما تتعلَّق بالمعلومات تتَّصف بالعلم، وهي نفسها عندما تتعلَّق المقدورات تُوصف بالقُدرة . . إلخ؛ لأنَّ القول بوُجُود علم قديم وقُدرة قديمة ... وسَمْع قديم، وكلام قديم ...إلخ، غير نفس الذّات، يُؤدِّي في نَظَر المُعتزلة للقول بتعدُّد القُدماء. ولكنْ؛ هل معنى مُخالفة الأشعري للمُعتزلة في قولهم صفات الله عين ذاته أنَّه يُثبت هذه الصّفات مُغايرةً للذّات؟؟ لا يستطيع الأشعري أنْ يتبنَّى هذا الموقف؛ لأنَّ هذا هُو الاعتقاد المَسيحي، وما ترتَّب عليه من تثليث، لذلك؛ قال الأشعري: «صفات الله قائمة بذاته ليست عين ذاته ولا غير ذاته، لا هي هُو ولا هي غيره».

ج ـ الصّفات الخَبَريَّة ـ أيْ التي وَرَدَتْ في القُرآن والحديث ـ تُجْرى على ظاهرها، ولا تُؤَوَّل، أو تُحْمَلُ على المجاز، إلاَّ بحُجَّة ودليل، فمثلاً في قوله ـ تعالى ـ ? لما خلقتُ بيدي؟ ينفي الأشعري تفسير اليدَيْن بمعنى مجازي هُو النّعمة أو القُدرة، كما ينفي أنْ يكون المُراد باليدَيْن الجارحة لأنَّ هذا يُؤدِّي للتّجسيم، فلا يبقى إلاَّ أنْ يكون معنى قوله ـ تعالى ـ ?بيديّ؟ إثباتُ يدَيْن ليستا قُدرتَيْن ولا نعمتَيْن من جهة، ولا جارحتَيْن من جهة أُخرى، وإنَّما يدان

---

(1) صفات الذّات هي التي يُوصف بها الله ـ تعالى ـ ولا يُوصف بأضدادها.

ليستا كالأيدي، ومع أنَّ قول الأشعري صريح في نَفْيه التّجسيم أو الكيفيَّة؛ إذْ يقول: (للَّه يدان بلا كيف) فإنَّ اليدَيْن عنده تدلاَّن على التّثنية [1]، لالتزامه بما وَرَدَ في النَّصِّ «وكلتا يدَيْه يُمْن». ومثل ذلك إنكاره على المُعتزلة تأويل استواء الله على عرشه؟ الرّحمن على العرش استوى؟ بالاستيلاء أو الاستعلاء، بل الاستواء في نَظَره فعْلٌ أحدثه الله ـ تعالى ـ سمّاه استواءً دُون علمٍ لنا بكيفيّته! وهكذا يُثبت الأشعري كُلَّ الصّفات الخَبَريّة التي يُوهم ظاهرها التّجسيم، ولكنَّه يُخرجُ نفسَه عن التّجسيم والتّشبيه بقوله، عقب كُلِّ إثباتٍ لصفةٍ خَبَريَّة، : «بلا كيف» حتّى سُمّيَ هُو ومَنْ اتّبعه في ذلك بـ «البلاكفة».

د ـ ثُبوت رؤية المُؤمنين لله ـ تعالى ـ بالعين يوم القيامة كما وَرَدَ في الحديث: «يراه المُؤمنون يوم القيامة، ولا يُضامون في رُؤيته»، وهي رُؤية لا تستلزم تجسيم الله أو تشبيهه؛ إذ ليس من الضّروري ـ كما يقول الأشعري ـ أنْ تقتضي هذه الرُّؤيا مُقابلة المرئي للرّائي واتّصال الشّعاع منه إليه وسائر مُستلزمات الرُّؤية البَصَريَّة المعروفة لدينا؛ لأنّها «رُؤية بلا كيف».

هـ ـ التّمييز بين الكلام النّفسي والكلام اللّفظي: ميَّز أبو الحَسَن الأشعري في موضوع كلام الله بين: الكلام النّفسي؛ وهُو صفة أزليَّة لله عَزَّ وجَلَّ، وهُو القُرآن، فالقُرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأنَّه صفته سُبحانه، وبين الكلام اللّفظي الذي هُو الحُرُوف والأصوات المُنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء؛ وهي دلالات على الكلام الأزلي، والدّلالةُ مخلوقةٌ مُحْدَثةٌ، والمدلول قديمٌ أزليٌّ.

2 ـ في موضوع أفعال الإنسان والجَبْر والاختيار:

طَرَحَ الأشعري نَظَريَّة مُعضلةً في موضوع أفعال العباد عُرِفَتْ باسم «نَظَريَّة الكَسْب» عَسُرَ على الكثيرين شَرْح حقيقتها وتمييزها من الجَبْر، وخُلاصتها أنَّ الله ـ تعالى ـ هُو خالق أفعال العباد ومُريدها، والله يخلق الاستطاعة في العبد عند قيامه بالفعل، وليس قبلها؛ أيْ أنَّ العبد ليس له أيُّ دخل أو تأثير في إيجاد الفعل، بل المُؤثّر والمُوجد الوحيد لها هُو الله،

(1) كان بعض مَنْ سبقه من الصّفاتي كأبي العبّاس القلانسي قد أنكر دلالة اليدَيْن على التّثنية في قوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ لما في ذلك من دلالة حسّيّة.

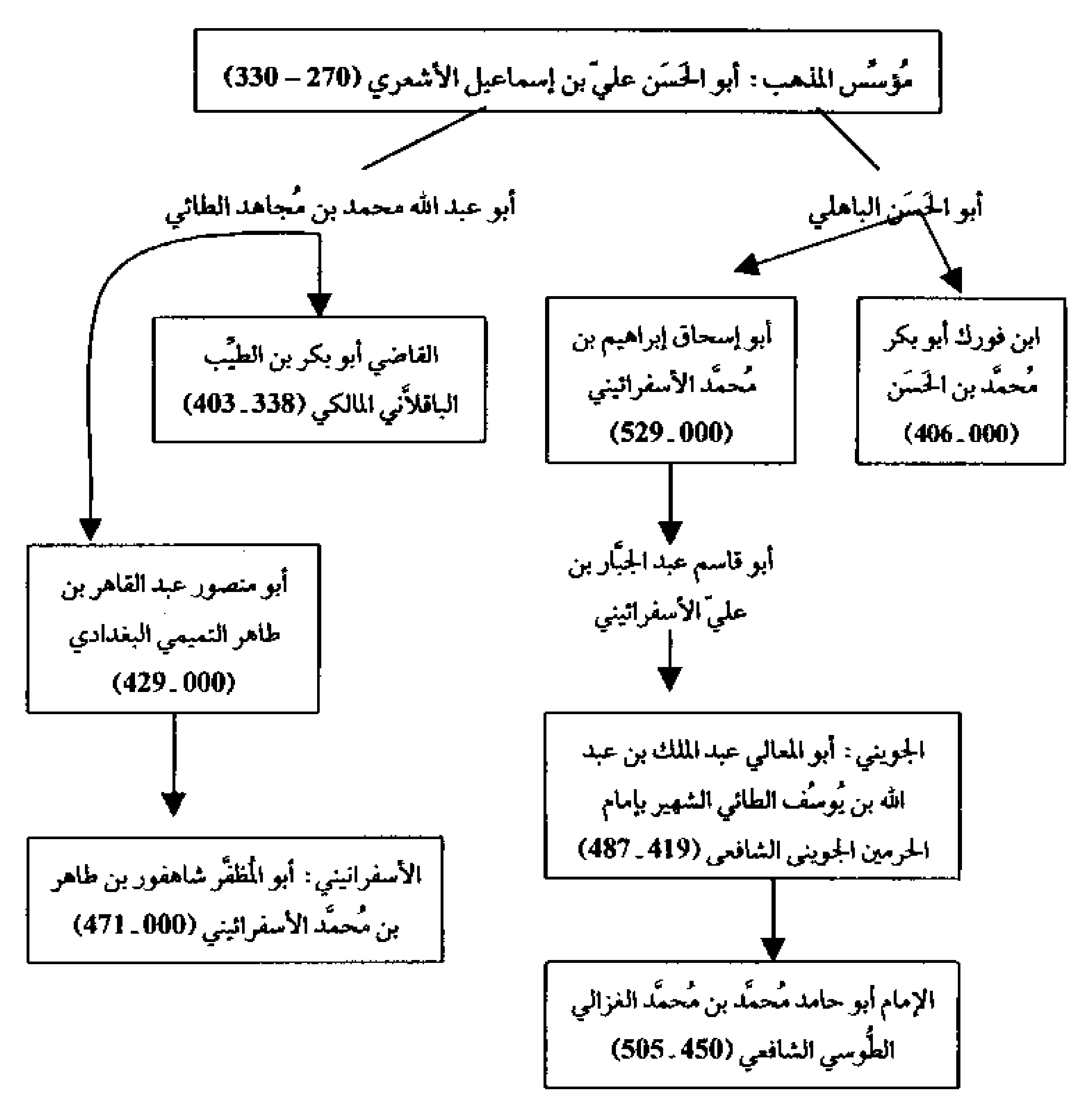
فالعبد يُسمَّى فاعلاً على سبيل المجاز؛ لأنَّ الفاعل الأوحد لكُلِّ فعل في الكون هُو الله، ومع كُلِّ ذلك لا يُسند الفعل إلى الله رغم أنَّه الخالق والمُريد والمُحدث والمُحرِّك؛ بل يُسند إلى العبد؛ لأنَّه اكتسبه؛ إذْ لا يُضاف إلى المُوجد ما يُضاف إلى المُكتَسب، فالعبد يُسمَّى كاتباً أو قائماً أو قاعداً ولو كان الله هُو الذي أوجد فيه ذلك وأراده؛ لأنَّ الله يُريد الفعل خَلْقاً، ويُريده الإنسان كَسْباً، فجهتا الإرادة مُستقلَّتان، ومن ثمَّ؛ جاز اجتماعهما جميعاً على مُراد واحد من غير تعارض.

3 ـ في موضوع تعريف الإيمان وحُكْم مُرتكب الكبيرة:

يقول الأشعري: إنَّ الإيمان هُو التّصديق دُون العمل، ومن ثمَّ؛ فهُو يُعارض المُعتزلة لاشتراطهم العمل لاكتمال الإيمان، كما يُعارضهم في المنزلة بين المنزلتَيْن؛ إذْ لا يجوز في رأيه أنْ يُقال لفاعل الكبيرة لا مُؤمن ولا كافر، وإنَّما الفاسق من أهل القبلة مُؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فارتكابه الكبيرة لا يُبطل اسم الإيمان الذي لم يُفارقه. وبالتّالي؛ فَمَنْ مات مُصراً على الكبائر، فهُو إلى الله، إنْ شاء عذَّبه، وإنْ شاء غفر له، وأدخله الجنَّة بفضل إيمانه، خلافاً للمُعتزلة القائلين بخُلُوده في النّار.

أقطاب الأشاعرة ومشاهير مُصنِّفيهم وتُراثهم:

الواقع أنَّ المذهب الأشعري لم يبقَ على نفس الصُّورة التي طرحها به مُؤسِّسه، بل تطوَّر، وتعمَّق، ونشأت فيه تيَّارات مُتفاوتة، فهُناك من أئمَّة أتباعه وحَمَلَته مَنْ مال به إلى قولٍ بالجَبْر الصّريح كالإمام فخر الدِّين الرّازي، وهُناك مَنْ ابتعد عن ذلك، كما أنَّ هُناك من كبار أتباعه مَنْ اقترب فيه ـ خاصَّة في موضوع رُؤيَة الباري عَزَّ وجَلَّ ـ من موقف المُعتزلة، وهُناك مَنْ ابتعد عن ذلك، ويطول الأمْر في بيان تطوُّرات المذهب الأشعري وتيَّاراته المُختلفة، وإنَّما نكتفي هُنا بذكْر أقطاب الأشاعرة ومشاهير رجالهم ومُؤلِّفيهم:



وفيما يلي ؛ أهمُّ تُراث أولئك الأقدمين والمُؤسِّسين للمذهب الأشعري المذكورين في الجدول أعلاه :

ـ فأمَّا الإمام أبو الحَسَن الأشعري ؛ فأشهر ما كَتَبَهُ هُو رسالته الصَّغيرة "الإبانة عن أُصُول الدِّيانة" التي هي أوَّل ما ألَّفه بعد تَركه الاعتزال ، والبعض يرى أنَّها آخر ما ألَّفه ، ولهذا الاختلاف أهميَّة ؛ لأنَّه نحى في هذه الرِّسالة منحىً نقليّاً صرفاً مُطابقاً تماماً لمنحى الحنابلة الأثريَّة أهل الحديث القريبين من المُشبِّهَة ، بعكس منحاه الوسطي بين العَقْل والنَّقْل ، الذي نُشاهده في سائر كُتُبه . فإنْ كانت الرِّسالة آخر تأليف له فهذا يعني أنَّه في آخر عُمره رجع ، أو

استقرَّ على مذهب الأثريَّة أهل الحديث . والواقع أنَّ طبائع الأُمور تؤيِّد أنْ لا تكون هذه الرّسالة هي آخر ما ألَّفه ، بل على العكس ؛ أنْ تكون هي أوّل ما كَتَبَهُ بعد تَرْكه الاعتزال ، ذلك أنَّ الإنسان عندما يرتدُّ عن مذهب ما فإنَّه يكون في بداية ارتداده قاطعاً جارفاً لا يرى أيَّ خير في مذهبه السّابق ، لكنَّه غالباً ما يبدأ بعد ذلك بالعودة ، رُويداً رُويداً ، إلى توازنه في التّفكير وإلى طبيعته الأصليَّة - ومصداقها هُنا المنهج العَقْلي لدى الأشعري -. فالمُرجَّح أنْ تكون هذه الرّسالة أوّل ما ألَّفه بعد ارتداده عن الاعتزال ، ثُمَّ أخذ بعد ذلك يُؤلِّف سائر كُتُبه الكلاميَّة وأشهرها : "اللّمع في الرَّدِّ على أهل الزّيغ والبدَع" وكتاب "استحسان الخوض في علم الكلام" وكتاب "مقالات الإسلاميِّين واختلاف المُصلِّين" .

- ويأتي بعد الأشعري في الأهميَّة القاضي أبو بكر مُحمَّد بن الطّيب الباقلاَّني المالكي (338 - 403 هـ) وقد كان لكُتُبه الكثيرة في نُصرة وتدعيم الفكْر الأشعري أثر كبير في انتشار هذا المذهب بين المالكيَّة ، ومن أشهر كُتُبه "الإنصاف فيما يجب اعتقاده ، ولا يجوز الجهل به" ، وكتاب "التّمهيد في الرَّدِّ على المُلحدة المُعطِّلة والرّافضة والخَوارج والمُعتزلة" ، وعُرف أيضاً باسم كتاب "تمهيد الدّلائل" ، وكتاب "إعجاز القُرآن" ، وكتاب "الانتصار لنَقْل القُرآن" ، وكتاب "البيان عن الفرَق بين المُعجزات والكرامات" .

- الإمام أبو منصور عبد القاهر البغدادي (ت 429 هـ) وأشهر كُتُبه "أُصُول الدِّين" ، ويُعرف - أيضاً - باسم "التّبصرة البغداديَّة" ، ثُمَّ كتاب "الفَرْق بين الفرَق" ، وكتاب "الأسماء والصّفات" .

- إمام الحَرَمَيْن الجُويني الشّافعي (419 - 487 هـ) وله "الإرشاد إلى قواطع الأدلَّة في أُصُول الاعتقاد" ، و"لمع الأدلَّة في قواعد أهل السُّنَّة والجماعة" ، و"الشّامل في أُصُول الدِّين" ، و"غياث الأُمم في التيَاث الظُّلم" وغيرها .

- الإسفرائيني أبو الظّفر شهفور (أو شاهبور) بن طاهر الشّافعي (ت 471 هـ) وأشهر كُتُبه في هذا الموضوع كتاب : "التّبصير في الدِّين وتمييز الفرقة النّاجية عن الفرَق الهالكين" .

- الإمام الغزالي حُجَّة الإسلام أبو حامد مُحمَّد بن مُحمَّد الطّوسي الشّافعي (450 - 505) وكان مُتكلِّماً بارعاً وأُصُوليّاً نحريراً وفقيهاً ، علاوة على طُول باعه في التَّصوُّف ، والرَّدّ

على الفلاسفة، ومن هُنا؛ أخذ اسم حُجَّة الإسلام، وقد كَتَبَ كثيراً في موضوع العقائد، ونالت كُتُبه شهرة وتداولاً كثيراً، ومن أشهرها كتاب "الاقتصاد في الاعتقاد"، و"الأربعين في أُصُول الدِّين"، وكتاب "قواعد العقائد"؛ وقد أدرجه ضمن كتابه الشّهير في التّصوُّف: "إحياء عُلُوم الدِّين". كما له في الرَّدِّ على الإسماعيليَّة كتاب: "فضائح الباطنيَّة وفضائل المُستظهريَّة"، وله في الرَّدِّ على الفلاسفة كتاب: "تهافت الفلاسفة"، وله في الرَّدِّ على المُسارعين في تكفير المُخالفين في المذهب والفرقة كتاب "فيصل التّفرقة بين الإسلام والزّندقة"، وله "المقصد الأسنى في شَرْح أسماء الله الحسنى"، وغيرها الكثير من الكُتُب ممَّا يطول ذكْره.

- الشّهرستاني: أبو الفتح مُحمَّد بن عبد الكريم الشّهرستاني (479 - 548 / 1086 - 1153م): وأشهر كُتُبه "نهاية الإقدام في علم الكلام"، علاوة على كتابه الشّهير في علم الأديان والعقائد المُسمَّى: "المِلَل والنِّحَل".

- ابن عساكر الدّمشقي: أبو القاسم عليّ بن حَسَن بن هبة الله الدّمشقي الشّافعي (499 - 571 أو 572 هـ / 1105 - 1176م) صاحب الكتاب الهامّ في شرح المذهب الأشعري: "تبيين كذب المُفتري فيما نُسب إلى أبي الحَسَن الأشعري".

- إمام المُتكلِّمين فخر الدِّين مُحمَّد بن عُمر الخطيب الرّازي الشّافعي (544 - 606) صاحب الكُتُب العديدة في علم الكلام الأشعري والفلسفة؛ من أشهرها كتابه "الأربعين في أُصُول الدِّين"، و"أساس التّقديس"، علاوة على تفسيره الضّخم الذي سمَّاه بمفاتيح الغيب، وعُرِف باسم "التّفسير الكبير" في 32 مُجلَّداً ضمَّنه الكثير من المباحث الكلاميَّة ومُناقشة الأثريَّة المُشبِّهَة والمُعتزلة وغيرهم.

- الآمدي: الإمام المُتكلِّم سيف الدِّين عليّ بن عليّ بن مُحمَّد الآمدي الشّافعي (551 - 631) وأشهر كُتُبه "غاية المرام في علم الكلام".

- صفي الدِّين بن عبد الرّحيم الأرومي (. . . - 715) صاحب كتاب "زُبدة الكلام في علم الكلام".

- شمس الدِّين الأصفهاني: محمُود بن عبد الرّحمن بن أحمد (. . . - 746) (شارح تجريد الاعتقاد لنصير الدِّين الطُّوسي في كتابه الذي أسماه "تشييد القواعد في شرح تجريد العقائد".

ـ الأيجي : العلاَّمة القاضي عضد الدِّين بن عبد الرّحمن بن أحمد الإيجي (. . . ـ 756) صاحب أحد أشهر الكُتُب في المذهب الأشعري "المواقف في علم الكلام"، والذي شُرِحَ عشرات الشُّرُوح من قِبَل مَنْ تلاه من أئمَّة الأشاعرة . كما له كتاب "العقائد العضديَّة"، التي شرحها العلامة الدّواني وحشّى عليها في القرن الماضي الشّيخ مُحمَّد عبده المصري .

ـ تقي الدِّين السّبكي : عليّ بن عبد الكافي بن عليّ بن تمَّام (والد تاج الدِّين السّبكي صاحب طبقات الشّافعيَّة الكُبرى) (683 ـ 756) وأشهر كُتُبه في هذا المجال "السّيف الصّقيل في الرَّدّ على ابن زفيل" الذي رَدَّ فيه على القصيدة النُّونيَّة لابن قيِّم الجوزيَّة من أهل الحديث والأثَر ، ونَشَرَهُ الإمام وكيل المشيخة العُثمانيَّة الشّيخ مُحمَّد زاهد الكوثري ، في القرن الماضي ، مع تعليقاته عليه .

ـ التّفتازاني : سعد الدِّين مسعود بن عُمر (712 ـ 792/ 1322 ـ 1400م) وأشهر كُتُبه "المقاصد في علم الكلام"، و"شرح المقاصد"، بالإضافة إلى كتابه "شرح العقائد النَّسَفيَّة"، الذي أصبح الكتاب الدّرْسي المُقرَّر في العديد من الجامعات الإسلاميَّة ؛ كالأزهر وكُلِّيَّات الشّريعة في العراق ، وباكستان ، وأفغانستان . . إلخ .

ـ الشّريف الجرجاني : السَّيِّد الشّريف عليّ بن مُحمَّد الجرجاني (740 ـ 816/ 1340 ـ 1413م)، صاحب "شرح المواقف في علم الكلام".

ـ القوشجي : عليّ بن مُحمَّد القوشجي علاء الدِّين الحَنَفي (ت 879 هـ / 1474م) صاحب شرح تجريد الاعتقاد للطّوسي ، والذي اشتهر بالشّرح الجديد ، وكان من الكُتُب المُقرَّرة في تدريس العقائد في المدارس الدِّينيَّة في الدّولة العُثمانيَّة .

ـ المولى حَسَن جلبي بن الفراني (. . . ـ 886) .

ـ السّنوسي : مُحمَّد بن يُوسُف بن عُمر بن شعير بن شعيب السّنوسي الحَنَفي عالم تلمسان في عصره (832 ـ 895) صاحب "عقيدة أهل التّوحيد" ويُسمَّى « العقيدة الكُبرى »، و"أُمّ البراهين"، وغيرها الكثير من كُتُب العقائد على المشرب الأشعري .

- الدّواني: القاضي المُتكلّم والفيلسوف جلال الدّين مُحمَّد بن أسعد الصّديقي الدّواني (830 - 918) من بلاد كازرون من أعمال شيراز في فارس، وسكَنَ شيراز، وله كُتُب هامَّة في بَسْط العقائد الأشعريَّة؛ مثل "الحاشية على شَرْح القوشجي للتّجريد"، و"شَرْح العقائد العضديَّة"، وغيرها.

- الشّيخ إبراهيم بن اللّقاني المالكي (صاحب جوهرة التّوحيد وشَرْحها) (1000 - 1041) صاحب "إتحاف المُريد بشَرْح جوهرة التّوحيد"؛ من الكُتُب الأشعريَّة المُدرَّسة في كثير من المدارس الدّينيَّة.

- الملاّ عبد الحكيم السّيالكوتي (اللاّهوري) (ت 1067 هـ) وله - أيضاً - الكثير من الكُتُب والشُّرُوح والحواشي على أهمّ الكُتُب الكلاميَّة السّابقة كحاشيته على تفسير البيضاوي، وحاشيته على شَرْح المواقف العضديَّة للشّريف الجرجاني، وحاشيته على شَرْح الجلالي الدّواني على العقائد العضديَّة... إلخ.

(6) الماتريديَّة:

وهُم يُشكّلون مع الأشاعرة الجناح الكلامي الثّاني لأهل السُّنَّة، والماتريديَّة أتباع أبي منصور الماتريدي (ت 333 هـ) الذي كان - بدوره - تابعاً للإمام أبي حنيفة ومذهبه في العقيدة والفقه جميعاً، ثُمَّ حاول عرض آراء الإمام في العقيدة بلُغة مُتكلّمي عصره، فجاء مذهبه قريباً من مذهب الأشعري، حتّى إنَّ القُدماء لَيَعُدُّون مسائل الخلاف بين المذهبَيْن، فيحصرونها في بضع عشرة مسألة[1].

أبرز الخلافات والفُرُوق بين الأشاعرة والماتريديَّة:

1) في المسائل الإلهيَّة يُؤكّد الماتريديَّة قدَم الصّفات الإلهيَّة، ويُعارضون المُعتزلة في القول بحُدُوث صفات الفعل التي يعدُّون منها: الإرادة والكلام، كما يختلفون مع الأشاعرة في

---

(1) كمال الدّين أحمد البياضي الحَنَفي: "إشارات المرام من عبارات الإمام" ط القاهرة: الحلبي، 1949م، ص 22 و53، والمقريزي: الخُطط: (ط القاهرة، 1964م): 4/ 189.

ميلهم إلى القول بحُدُوث الصِّفات الفعليَّة، باعتبارها مُجرَّد تعلُّقات للقُدرة، ويُقرِّر الماتريديَّة أنَّ كُلَّ الصِّفات السَّبعة قديمة، ويُضيفون إليها صفة التَّكوين؛ وهي عندهم غير القُدرة وتعلُّقاتها، وهي المعنى الذي يُصحِّح صُدُور الأثَر عن المُكوِّن وهُو الله، فلابُدَّ أنْ تكون قديمة وإلاَّ كان الله محلاًّ للحوادث[1]. أمَّا في مسألة الكلام؛ فيبدو أنَّهم أخذوا بالتَّفرقة بين الكلام النَّفسي واللَّفظي مثل الأشاعرة[2].

2) يتَّخذ الماتريديَّة موقفاً وَسَطاً فيما يتعلَّق بالحُرِّيَّة الإنسانيَّة، فرغم أنَّهم لا يقولون باستقلال القُدرة الإنسانيَّة بالإيجاد كالمُعتزلة، لا يقولون ـ أيضاً ـ بالكَسْب الأشعري الذي لا يعترف إلاَّ بقُدرة إنسانيَّة مُصاحبة للفعل، لا دخل لها في التَّأثير في إيجاده، بل يقولون بقُدرة إنسانيَّة سابقة على الفعل صالحة للفعل والتَّرْك، ولها أثَر في إيجاد الفعل، غير أنَّها لا تستقلُّ بالإيجاد[3]، فالله هُو الخالق المُكوِّن لكُلِّ شيء.

3) وأخيراً؛ فإنَّ الماتريديَّة يذهبون في التَّحسين والتَّقبيح إلى مدىً أبعد ممَّا ذهب إليه الأشاعرة: فيقولون بأنَّ الحُسَن والقُبح ذاتيٌّ في الأشياء، ويُمكن للعَقْل إدراكهما، ولكنْ؛ لا يُوافقون المُعتزلة ـ في الوقت نفسه ـ في قولهم بأنَّ الإنسان مُكَلَّفٌ قبل وُرُود الشَّرْع، وأنَّ العَقْل يحكم، ويُوجِبُ ويُحَرِّمُ[4].

ويرى بعض العُلماء أنَّ مواقف الماتريديَّة التي أوردنا نماذج لها، هي أكثرُ تمثيلاً لمواقف السَّلَف وللرُّوح الأصيلة في الفكْر الإسلامي من الأشاعرة[5]. وأيَّاً ما كان الأمْر، فقد تقاسمت الأشاعرة والماتريديَّة الهَيْمَنَةَ على الفكْر الكلامي السُّنِّي، وإنْ نازعها الحنابلة أو أصحاب الحديث والأثَر في هذه السَّيطرة أيضاً حتَّى العصر الحديث، ولكنَّ الماتريديَّة ذاعت

---

(1) انظر كمال الدِّين أحمد البياضي الحَنَفي: "إشارات المرام من عبارات الإمام" ص 223 وما بعدها.

(2) المصدر السَّابق: ص 138ـ 145، والكمال بن الهمام الحَنَفي: "المُسايرة": ص 81 وما بعدها.

(3) انظر كمال الدِّين أحمد البياضي الحَنَفي: "إشارات المرام من عبارات الإمام" ص 252 ـ 290 والكمال بن الهمام الحَنَفي: "المُسايرة": 2/ 1 ـ 35.

(4) انظر حَسَن عبد اللَّطيف الشَّافعي: تحقيق "غاية المرام في علم الكلام للآمدي": ص 250، وغرابة الأشعري: ص 194، وابن الهمام: المُسايرة ص 35 وما بعدها.

(5) محمود قاسم: مُقدِّمة "مناهج الأدلَّة في عقائد المِلَّة"، القاهرة، 1964م: ص 10 وما بعدها.

وسيطرت ـ بحُكْم ظُهُورها فيما وراء النّهر، وانتسابها إلى أبي حنيفة ـ على الجنس التُّركي المُتمسِّك بمذهب «الإمام الأعظم» وسائر الأوساط الحَنَفيَّة في أفغانستان وشبه القارَّة الهنديَّة، ويُمكن أنْ نُميِّز في تاريخ هذه المدرسة عهدَيْن بارزَيْن:

أوَّلاهما: الفترة التي نشأ فيها المذهب، ونَمَا، وازدهر في آسيا الوُسْطى على يد مُؤسِّسه، وَمَنْ بَعَدَهُ منْ عُلماء ما وراء النّهر، يُمثِّلها إنتاج الماتريدي نفسه ككتاب «التّوحيد»، وكتاب «تأويلات أهل السُّنَّة»، وغيرهما، وكُتُب النَّسَفيَّيْن أبي المُعين صاحب «بحر الكلام» و «التّبصرة» وغيرهما، ونجم الدِّين صاحب «العقائد النّفسيَّة» وغيرهما.

والثّانية: هي الفترة التي انتقلت فيها رعاية المذهب إلى عُلماء التُّرْك في آسيا الصُّغرى، وإنْ ظلَّ السّابقون يُشاركون ـ أيضاً ـ في شَرْحه وتطويره، وهُناك إنتاج لرجال هذه الفترة التي تمتد حتَّى وقتنا الحاضر ـ أمثال خضر بك، وطاش كبري زاده، والحصني، والبياضي، وغيرهم من السّابقين، حتَّى الكوثري ومُصطفى صبري في المُعاصرين، وهي فترة تحتاج إلى عناية خاصَّة، بل إنَّ تاريخ المذهب الماتريدي كُلَّه بحاجة مُلحَّة إلى مزيد عناية من المُشتغلين بالدّراسات الكلاميَّة، بجانب ما تيسَّر له في النّصف الأخير من القرن الحالي من عناية مشكورة، والحمد لله [1].

أشهر عُلماء المذهب الكلامي الماتريدي وتُراثهم:

1 ـ الإمام الأعظم أبو حنيفة: النُّعمان بن ثابت الكُوفي (80 ـ 150 هـ)، وله "الفقْه الأكبر"، و"الفقْه الأبسط"، و"العالم والمُتعلِّم"، و"الوصيَّة"، و"رسالة أبي حنيفة إلى عُثمان البتِّي".

2 ـ الإمام أبو جَعْفَر الطّحاوي (أحمد بن مُحمَّد بن سلامة الأزدي الطّحاوي): (239ـ 321 هـ)، وله كتاب "بيان عقيدة فُقَهَاء المِلَّة: أبي حنيفة وأبي يُوسُف ومُحمَّد بن الحَسَن رحمهم الله"، والتي اشتهرت باسم "العقيدة الطّحاويَّة"، كما له كتاب: "بيان السُّنَّة والجماعة".

3 ـ الإمام الماتريدي: إمام الهُدى؛ أبو منصور مُحمَّد بن مُحمَّد بن محمُود الحَنَفي الماتريدي السّمرقندي (238 ـ 333 هـ)، وله كتاب "التّوحيد"، و"التّأويلات في تفسير القُرآن

---

(1) الدُّكتور حَسَن محمُود الشّافعي: "المدخل إلى دراسة علم الكلام"، كراتشي: باكستان، 1409 هـ/ 1988م. ص 82 ـ 84.

الكريم"، الذي اشتهر باسم "تأويلات أهل السُّنَّة"، كما له كُتُب عديدة في الرَّدِّ على المُعتزلة والشِّيعة مثل: رَدُّ الأُصُول الخمسة لأبي مُحمَّد الباهلي"، و"رَدُّ الإمامة لبعض الرّوافض"، و"رَدُّ وعيد الفُسَّاق"، و"رَدُّ أوائل الأدلَّة"... إلخ.

4 ـ الإمام أبو المُعين النَّسَفي: ميمون بن مُحمَّد بن مُعتمد المكحولي النَّسَفي الحَنَفي (ت 508)، وهُو ـ بالنّسبة للماتريديَّة ـ كالباقلاني والغزالي بالنّسبة للأشعريَّة، فهُو الذي قام بنُصرة المذهب الماتريدي، وكتابه "تبصرة الأدلَّة" يُعَدُّ اليُنبوع الثّاني للماتريديَّة بعد كتاب "التّوحيد" لأبي منصور الماتريدي، وليست "العقائد النَّسَفيَّة" لأبي البركات النَّسَفي (ت 710) إلاَّ فَهْرسة لكتاب أبي المُعين النَّسَفي "تبصرة الأدلَّة". وتتلمذ عليه نُور الدِّين الصّابوني الحَنَفي (ت 580)، وألَّف كتابه الذي سيأتي ذكْره، وكان الصّابوني يُجادل فخر الدِّين الرّازي، مُعتمداً على كتاب شيخه أبي المُعين؛ أيْ "تبصرة الأدلَّة".

5 ـ النَّسَفي: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمُود النَّسَفي الحَنَفي (710 هـ)، وله كتاب "العقائد النَّسَفيَّة" الذي غدا مع شَرْحه للتّفتازاني الكتاب الدّراسي الأوَّل في جميع أوساط المدارس الشَّرْعيَّة الحَنَفيَّة في مصر والشّام والعراق وباكستان وأفغانستان وما وراء النّهر... إلخ.

6 ـ الكمال ابن الهمام: كمال الدِّين مُحمَّد بن عبد الواحد السّيواسي، ثُمَّ الإسكندري المعروف بابن الهمام الحَنَفي (861 هـ) من أشهر فُقَهَاء الأحناف ومُتكلِّمي المذهب الماتريدي، وله في الكلام كتاب "المُسايرة في العقائد المُنجيَة في الآخرة"، شَرَحَهُ كثيرون؛ من أشهرهم الكمال بن أبي الشّريف المقدسي الحَنَفي (822 ـ 906 هـ) سمَّاه: "المُسامرة شَرْح المُسايرة" في علم الكلام.

7 ـ الخيالي: أحمد بن مُوسَى الخيالي الرُّومي الحَنَفي شمس الدِّين (ت886 هـ)، له حواش كثيرة على المُصنَّفات الكلاميَّة الشّهيرة مثل حاشيته على "شَرْح تجريد الكلام"، وحاشيته على "شَرْح العقائد العضديَّة للدّواني"، وحاشيته على "شَرْح العقائد النَّسَفيَّة للتّفتازاني".. إلخ.

8 ـ الملاّ عليّ بن سُلطان مُحمَّد القاري الهَروي الحَنَفي (ت 1014 هـ) صاحب "شَرْح على الفقْه الأكبر للإمام أبي حنيفة".

9 ـ المغنيساوي أبو المُنْتَهى: أحمد بن مُحمَّد الحَنَفي (ت حُدُود 1090 هـ) صاحب "شَرْح الفقْه الأكبر للإمام أبي حنيفة".

10 ـ كمال الدِّين البياضي: العلاَّمة أحمد بن الحَسَن بن يُوسُف الرُّومي البسنوي الأصل (وُلِدَ في اسطنبول) الحَنَفي القاضي (1044 ـ 1098 هـ)، ويُعَدُّ كتابه الشَّهير: "إشارات المرام من عبارات الإمام" من أجمع الكُتُب للعقائد الماتريديَّة وبيان الفَرْق بينها وبين العقائد الأشعريَّة، وقد أوصلها المُؤلِّف إلى خمسين اختلافاً، بيَّنَهَا وشَرَحَهَا بشكلٍ مُمتازٍ جداً.

11 ـ المولى حَسَن أبو عذبة بن عبد المُحسن (كان حيّاً سنة 1172 هـ ـ 1759م) له كتاب هامٌّ اسمه "الرَّوضة البهيَّة فيما بين الأشاعرة والماتريديَّة"، طُبِع في حَيْدَر آباد الدَّكن من الهند، مع كُتُب أُخرى عديدة.

ثانياً: الانقسامات الفقْهيَّة:

تمهيد:

يعود الاختلاف في الرَّأي الفقْهي والحُكْم الشَّرْعي في المسائل الفرعيَّة إلى عصر الصَّحابة رضي الله عنهم نفسه، ولذلك مُبرِّرات عديدة، أشرنا لبعضها في بداية هذا الباب تحت عُنوان "الاختلاف في الفَهْم خصيِّصةٌ أصيلةٌ من خصائص البشر"، فَرَاجِعْهَا، وقد ظهرت عدَّة اختلافات بين الصَّحابة في الفتوى؛ سواء في بعض فُرُوع الطَّهارة والعبادات، أو في بعض مسائل النِّكاح، والرَّضاع، والطَّلاق، أو في مسائل الميراث، أو الحُدُود، والدِّيات، أو البُيُوع وغير ذلك، ومن الطَّبيعي أنْ تنعكس هذه الاختلافات الفقْهيَّة في تلاميذ الصَّحابة، أيْ التَّابعين؛ حيثُ يتبع التَّلاميذ رأي أُستاذهم، ومع توسُّع الفقْه والأحكام والاختلافات بدأت تنشأ المذاهب الفقْهيَّة، وقد نشأ بين الفُقَهاء تيَّاران بارزان: عُرِف أحدهما باسم "أصحاب الرَّأي"، وعُرِف الآخر باسم "أصحاب الحديث".

النّزاع بين الرّأي والحديث، وظهُور انصار لكُلٍّ من المبداين:

كان كبار الصّحابة في العصر الأوّل يستندون في فتواهم إلى الكتاب، ثُمَّ السُّنَّة، فإنْ أعجزهم ذلك أفتوا بالرّأي؛ وهُو القياس بأوسع معانيه، ولم يكونوا يميلون إلى التَّوسُّع في الأخذ بالرّأي، لذلك؛ أُثر عنهم ذَمُّ الرّأي. ولمّا جاء الخَلَف وُجِدَ منهم مَنْ يقف عند الفتوى على الحديث، ولا يتعدّاه، ويُفتي في كُلِّ مسألة بما يجده من ذلك، دُون أنْ تكون هُناك روابط تربط المسائل بعضها ببعض، وَوُجِدَ فريقٌ آخر يرى أنَّ الشّريعة معقولةُ المعنى، ولها أُصُول ترجع إليها، فكانوا لا يُخالفون الأوّلين في العمل بالكتاب والسُّنَّة ما وجدوا إليهما سبيلاً، ولكنَّهم ـ لاقتناعهم بمعقوليَّة الشّريعة، وابتنائها على أُصُول مُحكمة فُهمَت من الكتاب والسُّنَّة ـ كانوا لا يُحجمون عن الفتوى برأيهم فيما لم يجدوا فيه نصّاً، كما كان يفعل الفريق الأوّل، وفوق ذلك؛ كانوا يُحبُّون معرفة العلَل والغايات التي من أجلها شُرِّعت الأحكام، وربَّما ردُّوا بعض الأحاديث لمُخالفتها لأُصُول الشّريعة، ولاسيَّما إذا عارضتها أحاديثُ أُخرى، وكان أكثرُ ظُهُور هذا المبدأ في أهل العراق.

سأل ربيعةُ بن فروخ (المعروف بربيعة الرّأي) سعيدَ بن المُسيّب شيخَ فُقَهاء أهل المدينة من التّابعين عن عَقْل إصبع المرأة: ما عقل الإصبع الواحدة؟ فقال: عشرةٌ من الإبل، فقال: إصبعان؟ قال: عشرون. فقال: ثلاث؟ قال: ثلاثون. قال: أربع؟ قال: عشرون. قال: فعندما عظم جُرحها نقص عقلها؟! فقال له سعيدٌ: أعراقيٌّ أنت؟ هي "السُّنَّة"! وذلك أنَّ سعيداً كان يقول إنَّ المرأة تُعاقل الرّجل إلى ثُلث الدّيَة، فإذا زادت على ذلك كانت ديتها على النّصف من ديته، ومعنى تُعاقل الرّجل تكون ديتها كديته، فأجرى ذلك على ظاهره، ولو أدّى ذلك إلى نتيجة غير معقولة؛ لأنَّه لا شأن للعَقْل في التّشريع، فالأصابع الثّلاث ديتها أقلّ من ثلث الديَّة، ولذلك؛ كانت ديَّة أصابعها الثّلاث ثلاثون رأساً، أمّا الأربعة؛ فهي أكثر من الثُّلث، ولذلك؛ تكون ديتها على النّصف من ديَّة الرّجل، يعني عشرين رأساً، وهذه نتيجة لم يفهم ربيعة وجهها، فاستَفْهَمَ سعيداً عنها، لكنَّ سعيداً لم يُعجبه هذا السُّؤال، وأخذ منه أنَّ ربيعةَ ممَّنْ يجعل للرّأي مجالاً في التّشريع مع وُجُود النّصٍّ كما شاع عن أهل العراق، ولذلك؛ قال له: أعراقي أنت؟ والعراقيُّون يقولون في هذا ديتها على النّصف من ديَّة الرّجل

في الأطراف كما في النّفس، ويرفضون مثل هذه النّتيجة التي يُحيلها العَقل، ويقولون: إنَّ المُراد بالنّسبة في قول سعيد أنَّها السُّنَّة سنَّة زيد بن ثابت، فإنَّه كان يُفتي بذلك.

وهكذا ظهر أهل الحديث وأهل الرّأي: الأوَّلون يقفون عند ظواهر النُّصُوص بدُون بحثٍ في عللها، وقلّما يُفتون برأيٍ، أمَّا الآخرون؛ فيبحثون عن علَل الأحكام، وربْط المسائل بعضها ببعض، ولا يُحْجمُون عن الرّأي إذا لم يكن عندهم أثر، وكان أهل الحجاز أهل حديث، وأكثر أهل العراق أهل الرّأي، ولذلك؛ قال سعيد بن المُسيّب لربيعة لمَّا سأله عن علَّة الحُكْم: أ عراقي أنت؟!

وممَّنْ اشتهر بالرّأي والقياس من فُقَهَاء العراق إبراهيم بن يزيد النّخعي الكُوفي فقيه العراق، وهُو شيخ حمَّاد بن أبي سُليمان شيخ أبي حنيفة، الفقيه المُقدَّم من أهل العراق، وقد أخذ إبراهيم الفقه عن خاله علقمة بن قيس النّخعي الكُوفي؛ وهُو من مُتقدّمي فُقَهَاء التّابعين من الطّبقة الأُولى منهم، وكان أنبل أصحاب ابن مسعود. وكان إبراهيم يُعاصر عامر بن شراحيل الشّعبي مُحدّث الكُوفة وعالمها، وكان الأمْر بعيداً بينهما، فإنَّ الشّعبي كان صاحب حديث وأثر، إذا عرضت له الفتيا، ولم يجد فيها نصَّاً انقبض عن الفتوى، وكان يكره الرّأي. وقال مرَّة: أ رأيتم لو قُتل الأحنف، وقُتل معه صغير، أ كانت ديتهما سواء أم يَفْضُل الأحنف لعَقْله وحلمه؟! قالوا: بل سواء، قال فليس القياس بشيء. فالفَرْق بين الرّجلَيْن أنَّ الشّعبي ومَنْ على طريقه من رجال الحديث والأثر يقفون عند السُّنَّة لا يتعدّونها، وينقبضون أنْ يقولوا بآرائهم فيما فيه سُنَّة، وما ليس فيه سُنَّة، ولا يحكم العَقْل في شيء من ذلك، وليس هُناك مصالح مُنضبطة اعتبرها الشّارع في تشريعه يرجعون إليها عند الفتيا؛ كأنَّه لا رابطة بين الأحكام الشّرْعيَّة. وقد تألَّم سعيد بن المُسيَّب شيخ فُقَهَاء أهل الحديث من ربيعة لمَّا سأله عن المعقول في ديَّة الأصابع، وكان أهل المدينة يُسمّون ربيعة هذا بربيعة الرّأي، لما يبحث في علَل الشّرْعَة، حتَّى قال عبد الله بن سوار القاضي: ما رأيتُ أحداً أعلم من ربيعة بالرّأي، فقيل له: ولا الحسَن وابن سيرين؟ فقال: ولا الحسَن وابن سيرين. أمَّا إبراهيم النّخعي ومَنْ على طريقته من فُقَهَاء العراق وبعض فُقَهَاء المدينة؛ فإنَّهم كانوا يستندون - أيضاً - في فتاويهم إلى الكتاب والسُّنَّة، إلاَّ أنَّهم فهموا أنَّ هذه الشّريعة لابُدَّ أنْ تكون لها مصالح

مقصودة التّحصيل من أجلها شرعت وصح لهم اعتبار هذه المصالح فجعلوها أساساً للاستنباط فيما لم يروا فيه كتاباً ولا سُنَّة، ولهم في ذلك سَلَف صالح، فإنَّ الصّحابة قاسوا في كثير من المسائل التي عَرَضَتْ لهم، ولم يكن عندهم فيها كتاب ولا سُنَّة، ولم تكن آراؤهم إلاَّ نتيجة اعتبار تلك المصالح.

وكان أهل الحديث يُعيبون أهل الرّأي بأنّهم يتركون بعض الأحاديث لأقيستهم، وهذا من الخطأ عليهم، ولم نرَ فيهم مَنْ يُقَدِّمُ قياساً على سُنَّة ثبتتْ عنده، إلاَّ أنَّ منهم مَنْ لم يُرْوَ له الأثر في الحادثة، أو رُوِيَ له، ولم يثق بسنده، فأفتى بالرّأي، فربَّما كان ما أفتى به مُخالفاً لسُنَّة لم تكن بمعلومة له، أو عُلِمَتْ، ولكنَّه لم يثق بروايتها، أو عارضها ما هُو أقوى في نَظَره، كما روى سُفيان بن عيينة قال: اجتمع أبو حنيفة والأوزاعي في دار الحنَّاطين بمكّة، فقال الأوزاعي لأبي حنيفة: ما بالكم لا ترفعون أيديكم عند الرُّكُوع، وعند الرَّفْع منه؟ فقال أبو حنيفة: لأجل أنَّه لم يصحّ عن رسول الله ﷺ فيه شيء، قال: كيف، وقد حَدَّثني الزّهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنَّه كان يرفع يدَيْه إذا افتتح الصّلاة، وعند الرُّكُوع، وعند الرَّفْع؟ فقال أبو حنيفة: حدَّثنا حمَّاد عن إبراهيم، عن علقمة، عن أسود، عن ابن مسعود أنَّ رسول الله ﷺ كان لا يرفع يدَيْه إلاَّ عند افتتاح الصّلاة، ولا يعود إلى شيء من ذلك. فقال الأوزاعي: أُحَدِّثُكَ عن الزّهري، عن سالم عن أبيه، وتقول: حَدَّثني حمَّاد عن إبراهيم؟ فقال له أبو حنيفة: كان حمَّاد أفْقَهَ من الزّهري، وكان إبراهيم أفْقَهَ من سالم، وعلقمة ليس بدُون ابن عُمر، وإنْ كان لابن عُمر صُحْبَةٌ، أو فَضْلُ صُحْبَة، فالأسود له فَضْل كثير، وعبد الله هُو عبد الله. فَسَكَتَ الأوزاعي. وهذه المُحاورة - بدُون أنْ نُناقش أقوالها - تدلُّ على ما كان لكُلِّ فريق عند الآخر، وتدلُّ على أنَّ الجميع واقفون عند حَدِّ السُّنَّة، متى وثقوا بها، ومن روايتها.

ظُهُور المذاهب الفقهيَّة المُتعدِّدة:

شهد عهد أتباع التّابعين ومَنْ بعدهم؛ أيْ القرنَيْن الهجريَّيْن الثّاني والثّالث، ظُهُور مجموعة من الأسماء اللاّمعة لفُقَهَاء كبار، قيَّض الله لهم تلاميذ كُثُر، دوَّنوا فتاواهم، وحفظوا أقوالهم، ونقلوها لمَنْ بعدهم، فصار لهم مُقلِّدون وأتباع، ونشأت - من ذلك - المذاهب الفقهيَّة الإسلاميَّة المُختلفة، فمنها مَنْ قيَّض الله - تعالى - له عُلماء كبار وتلامذة أفذاذ

خَدَموه، ونَشَروه، فانتشر في الأمصار، فنال اعتراف الدّولة العبّاسيَّة كمذهب رسمي، وهي المذاهب الفقهيَّة السُّنِّيَّة الأربعة المعروفة: مذهب أبي حنيفة (الحَنَفي)، ومذهب مالك بن أنس (المالكي)، ومذهب الشّافعي (الشّافعي)، ومذهب أحمد بن حَنْبَل (الحَنْبَلي).

ومنها مَنْ لم يتوفَّر له مَنْ يخدمه، وينشط في نَشْره، فسار أُناسٌ عليه مُدَّة، ثُمَّ قلَّ أتباعُهُ تدريجيّاً، حتَّى غلبت عليهم المذاهب الأُخرى، فاضمحلَّ، وانقرض، ومن أمثلة تلك المذاهب الفقهيَّة التي انقرضت بعد أنْ اشتهرت وكان لها أتباع ومُقلِّدون:

- مذهب الإمام الأوزاعي (88 - 157 هـ): وُلد في بعلبك، وتُوفِّي في بيرُوت، وكان من أصحاب الحديث الكارهين للقياس، وانتشر العمل بمذهبه بين أهل الشّام، ثُمَّ انتقل مذهبه إلى الأندلس مع الدّاخلين إليها من أعقاب بني أُميَّة، ثُمَّ اضمحلَّ أمام مذهب الشّافعي في الشّام، وأمام مذهب مالك في الأندلس، وذلك في مُنتصف القرن الثّالث.

- مذهب اللَّيث بن سعد (حوالي 92 - 175 هـ) هُو اللَّيث بن سعد بن عبد الرّحمن الفَهْمي أبو الحارث المصري، أصله من أصفهان، واستوطن مصر، وعاش فيها، وانتشر مذهبه الفقْهي فيها. وقال الشّافعي: «اللَّيث أَفْقَهُ من مالك، إلاَّ أنَّ أصحابه لم يقوموا به». وكان ابن وهب يقرأ عليه مسائل اللَّيث، فمرَّت به مسألةٌ، فقال رجلٌ من الغُرباء: أحسنَ - والله - اللَّيثُ، كأنَّه كان يسمع مالكاً يُجيب، فيُجيب، فقال ابن وهب للرّجل: بل كان مالكٌ يسمع اللَّيثَ يُجيب، فيُجيب! والله، الذي لا إله إلاَّ هُو، ما رأينا أحداً - قطُّ - أَفْقَه من اللَّيث.

- مذهب أبي ثور (حوالي 170 - 240 هـ) مُفتي العراق، الإمام المُحدِّث الحُجَّة أبو ثور الكلبي البغدادي الفقيه، قال الخطيب: كان أبو ثور يتفقَّه - أوّلاً - بالرّأي، ويذهب إلى قول العراقيِّين، حتَّى قدم الشّافعي، فاختلف إليه، ورجع عن الرّأي إلى الحديث، وقيل: سُئل أحمد عن مسألة، فقال للسّائل: سَلْ غيرنا، سَل الفُقَهَاء، سَلْ أبا ثور.

- مذهب داوود بن عليّ الأصبهاني المعروف بداود الظّاهري (202 - 324 هـ) وُلد بالكُوفة، وأخذ العلم عن إسحق بن راهويه وأبي ثور، وكان في بداية أمره من المُتعصِّبين للشّافعي، المُنافحين عن مذهبه، ثُمَّ استقلَّ بمذهب خاصٍّ أساسه العمل بظاهر الكتاب

والسُّنَّة، ورَفَضَ القياس والاستحسان، وكُلَّ الأدلَّة غير النَّصِّيَّة رَفْضَاً باتَّاً، وقال: إنَّ في عُمُومات النُّصُوص من "الكتاب" و"السُّنَّة" ما يفي بكُلِّ جواب. وقد استمرَّ مذهب داود مُتَّبعاً مُدَّة من الزّمن، ثُمَّ سار نحو الاضمحلال، إلى أنْ قام عالمٌ أندلسيٌّ فَذٌّ بإحيائه في مُنتصف القرن الهجري الخامس: وهُو الإمام ابن حَزْم الأندلسي الظّاهري (ت 456 هـ) الذي أحيا الفقْه الظّاهري في كتابه الشّهير بـ "المُحَلَّى"، وأرسى قواعد وأُصُول المذهب الظّاهري في كتابه الأُصُولي الهامّ: "الإحكام في أُصُول الأحكام".

ـ مذهب أبي جَعْفَر مُحمَّد بن جرير الطَّبَري (224 ـ 310 هـ) صاحب التّفسير الشّهير بتفسير الطَّبَري، وصاحب التّاريخ المعروف باسمه أيضاً، وُلد بآمل في طبرستان في شمال إيران، وطاف البلاد، وتفقَّه في العراق في أوّل أمره على مذهب الشّافعي، ثُمَّ أخذ فقْه أهل الرّأي عن أبي مُقاتل بالرّي، ثُمَّ استقلَّ بآرائه الفقْهيَّة التي دوَّنها في كُتُبه القيِّمة جداً؛ مثل: "تهذيب الآثار"، و"اختلاف الفُقَهَاء"، ولم يُقيَّض له مَنْ يُواصل مذهبه، فاضمحلَّ، وانقرض.

نكتفي بهذه الأسماء، وننتقل ـ فيما يلي ـ إلى الحديث الأكثر تفصيلاً عن المذاهب الفقْهيَّة الأربعة التي حظيت بالانتشار والاستمرار، ونالت الصّفة الرّسميَّة في العهد العبَّاسي، فسيطرت على ساحة الفقْه السُّنِّي، لا سيما بعد سَدِّ باب الاجتهاد، وانتشار التّقليد المحض، بدءاً من القرن الهجري الرّابع فما بعد.

(1) المذهب الحَنَفي:

الإمام أبو حنيفة (80 ـ 150 هـ):

هُو الإمام أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت الكُوفي، فارسيُّ النَّسَب؛ حيثُ والد جَدِّه كان من أهل كابل (عاصمة أفغانستان الحاليَّة)، وُلد بالكُوفة، وعمل في تجارة الخزّ[1]، وعاش في الكُوفة، ولُقِّب بالإمام الأعظم؛ لعلْمه وفقْهه.

---

(1) راجع أسباب اختلاف الفُقَهَاء: 32.

قال أبو يُوسُف: إنَّ أبا حنيفة تُوفِّي في النّصف من شوال سنة 150 هـ في بغداد، ودُفن في الجانب الشّرقي منها؛ في مقبرة الخيزران، وتُسمَّى اليوم الأعظميَّة.

يقول أبو حنيفة: «كُنتُ أنظر في الكلام، حتَّى بَلَغْتُ فيه مبلغاً يُشار إليَّ فيه بالأصابع. فجاءتني امرأةٌ يوماً، وقالت: رجلٌ له امرأةٌ أَمَةٌ أراد أنْ يُطلِّقها للسُّنَّة، كيف يُطلِّقها؟ فلم أدر ما أقول، وأمرتُها أنْ تسأل حمَّاد بن أبي سُليمان. فلمَّا أعلمها، عادت إليَّ، فأخبرتني. فقلت: لا حاجة لي في الكلام. وجلستُ إلى حمَّاد، أستمع إليه، وأحفظ منه»[1].

وقال للمنصور العبَّاسي: أخذتُ العلم عن حمَّاد، عن إبراهيم، عن عُمر بن الخطَّاب، وعليّ بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عبَّاس[2].

أدرك أبو حنيفة أربعةً من الصّحابة؛ وهُم: أنس بن مالك، وعبد الله بن أبي أوفى في الكُوفة، وسهل بن سعد السّاعدي في المدينة، وأبو طُفيل عامر بن وائلة في مكَّة.

وكان أبو حنيفة في مذهبه السِّياسي مُناصراً للعَلَويِّين، لا يرى لبني أُميَّة حقَّاً، ولا سُلطاناً، ولكنَّه لم يحمل السّيف ليثور، ولمَّا خرج زيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك، ولم يخرج معه أبو حنيفة، سُئل عن ذلك، فقال: «حَبَسَني عنه ودائع النّاس. وأنا أُعينه بمالي»، وبَعَثَ إليه بعشرة آلاف درهم[3]. وقد دعاه ابن أبي هبيرة لاستلام القضاء، فامتنع عن ذلك، فضربه بالسُّوط، وتوعَّده، فَفَرَّ إلى مكَّة. وبعد قيام الدّولة العبَّاسيَّة عاد إلى العراق، وبايع السَّفَّاح. وقَرَّبَهُ المنصور.

ولمَّا اشتدَّ ظُلم العبَّاسيِّين للعَلَويِّين، وخرج مُحمَّد بن عبد الله النَّفْس الزّكيَّة وأخوه إبراهيم كان لابُدَّ لأبي حنيفة من أنْ يتَّخذ موقفاً مُعادياً للعبَّاسيِّين تأييداً للعَلَويِّين.

فضَّل أبو حنيفة أبا بكر وعُمر، وأَحَبَّ عليّاً وعُثمان، وآمن بالأقدار، ولم يتكلَّم في القَدَر، كما مَسَحَ على الخُفَّين، وقال: «مَنْ قال: إنَّ القُرآن مخلوق فهُو مُبتدع. فلا يقولنَّ أحد بقوله، ولا يُصلِّينَّ أحد خلفه».

---

(1) راجع الطّبقات السّنيَّة 1/ 91، وكتاب أبو حنيفة: ص 24.

(2)راجع الطّبقات السّنيَّة: 1/ 93.

(3) راجع أبو حنيفة: ص 31.

وكان هادىء النّفس، تالياً للقُرآن، مُجادلاً، ومُعلّماً، فاستنبط فقهه من القُرآن الكريم، ومِمّا صحّ عنده من الحديث، مع استعماله الرّأي والقياس.

وصيّة أبي حنيفة:

ومن وصيّة أبي حنيفة لأصحابه: إنّ مذهب أهل السُّنّة والجماعة مبنيٌّ على اثنتَيْ عشرة خصلة، فَمَنْ كان يستقيم عليها لا يكون مُبتدعاً، ولا صاحب هوى... فعليكم بهذه الخصال، حتّى تكونوا في شفاعة سيّدنا مُحمَّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

1 ـ الإيمان: وهُو الإقرار باللّسان وتصديق بالقلب.

2 ـ الإقرار بالأعمال الثّلاثة (فريضة وفضيلة ومعصية).

3 ـ الإقرار بأنّ الله على العرش استوى.

4 ـ الإقرار بأنّ القُرآن كلام الله ـ تعالى ـ غير مخلوق، ووحيه وتنزيله لا هُو، ولا غيره (أيْ أنّ القُرآن لا هُو عين الله، ولا هُو غيره).

5 ـ الإقرار بأنّ أفضل هذه الأُمّة بعد مُحمّد ﷺ هُم الخُلفاء الرّاشدون الأربعة بالتّتابع: أبو بكر، ثُمّ عُمر، ثُمّ عُثمان، ثُمّ عليّ بن أبي طالب، رضوان الله عليهم.

6 ـ الإقرار بأنّ الله سُبحانه خَلَقَ الخَلْقَ، ولم يكن لهم طاقة؛ لأنّهم ضُعفاء عاجزون، فالله ـ تعالى ـ خالقهم ورازقهم.

8 ـ الاستطاعة مع الفعْل، لا قبل الفعْل، ولا بعده.

9 ـ المَسْحُ على الخُفّيْن مُباحٌ... للمُقيم يوماً وليلة، وللمُسافر ثلاثة أيّام ولياليها. والقصر والإفطار في السّفَر رُخصة بنَصّ الكتاب.

10 ـ الإقرار بأنّ الله ـ تعالى ـ أمر القلم أنْ يكتب. فقال القلم: ماذا أكتب يا ربُّ؟ فقال الله ـ تعالى ـ: اكتبْ ما هُو كائن إلى يوم القيامة.

11 ـ الإقرار بأنّ عذاب الله كائن لا محال، وسُؤال مُنكر ونكير حقٌّ. والجنّة والنّار حقٌّ، وهُما مخلوقتان لأهلهما. والميزان حقٌّ.

12 ـ الإقرار بأنَّ الله يُحيي هذه النُّفُوس بعد الموت، ويبعثها في يوم كان مقداره خمسين ألف للجزاء والثّواب وأداء الحُقُوق. وأنَّ أهل الجنَّة فيها خالدون، كما أنَّ أهل النّار في النّار خالدون.

وقد دارَسَ أبو حنيفة أئمَّة الشِّيعة كزيد بن عليّ ومُحمَّد الباقر وجَعْفَر الصّادق وعبد الله بن الحَسَن بن الحَسَن، وزارهم في ديارهم، وأخذ عنهم. تتلمذ مُدَّة سنتَيْن على الإمام زيد بن علي، كما عدَّ الإمام جَعْفَر الصّادق من شُيُوخه، وإنْ كان في سنّه. ولم يُجِزْ أبو حنيفة سَبَّ السَّلَف.

فقه المذهب الحنَفي:

لم يُعْرَف لأبي حنيفة كتابٌ في الفقْه، ولكنَّ تلامذتَه كانوا يُدوِّنون فتاويه، ومُسنده من جَمْع تلاميذه وترتيبهم وتبويبهم ونَشْرهم كما قال بعض العُلماء، ورجَّحوه. يقول ابن حجر العسقلاني: «أمَّا مُسند أبي حنيفة؛ فليس من جَمْعه. والموجود من حديث أبي حنيفة إنَّما هُو كتاب الآثار الذي رواه مُحمَّد الحَسَن».

يشتمل مُسند الإمام أبي حنيفة على خمسماية وأربعة وعشرين حديثاً مُقسَّمة على واحد وثلاثين باباً.

تأثَّر أبو حنيفة بآراء إبراهيم النّخعي في تكوين منطقه الفقْهي، وذلك بما تلقَّاه عن شيخه حمَّاد من فقْه إبراهيم ورواياته، ثُمَّ أكمل دراسته بما تلقَّاه من غير حمَّاد من رواياتٍ، وما استنبطه من أقيسةٍ وبراهينَ، بعد أنَّ حلَّ محلَّ حمَّاد في حلقته، حتَّى أصبح فقيه الرَّأي في العراق.

وقد أخذ من فقْه مكَّة والمدينة، ولم يمتنع عن التّحديث عن النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم). كما كان يُكثرُ من التّفريع، وفَرْض الفُرُوض، ولا يكتفي بما يُسْأَل عنه، وكان يُفتي في مسائل لم تقع، ويفرض وُقُوعها.

وقال: «إنّي آخذ بكتاب الله، فإنْ لم أجد، فبسُنَّة رسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم). فإنْ لم أجد، أخذتُ بقول أصحابه... آخذ بقول مَنْ شئتُ منهم، وأدَعُ مَنْ شئتُ منهم، ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم».

أُصُول أبي حنيفة لاستنباطه الفقْهي:

عند أبي حنيفة سبعة أُصُول لاستنباطه الفقْهي:

1 ـ الكتاب: يقول: «إنَّ قراءة القُرآن في الصّلاة بالفارسيَّة تُجزئ، ويُعتبر الشّخص أدّى رُكن القراءة، سواء كان عاجزاً عن القراءة بالعَرَبيَّة أم غير عاجز. ولكنْ؛ يُكره ذلك عند عدم العَجْز». وقيل: إنَّ أبا حنيفة قد رجع عن هذا القول. ويرى بعض العُلماء أنَّ أبا حنيفة قد أجاز ترجمة القُرآن. . وأيٌّ ترجمة صحيحة هي قُرآن.

ويرى أبو حنيفة أنَّ السُّنَّة مُبيِّنةٌ للكتاب إنْ احتاج إلى بيان، وأنَّ بيان السُّنَّة للقُرآن ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

1) بيان التّقرير 2) وبيان التّفسير 3) وبيان التّبديل؛ وهُو النَّسْخ. ونَسْخ القُرآن بالقُرآن جائز، كما أنَّ نسخ القُرآن بالسُّنَّة جائز، إذا كانت ثابتة بالتّواتر.

والكتاب عامٌّ وخاصٌّ، وحُكْم الخاصِّ من الكتاب وُجُوب العمل به لا محالة، فإنْ قابله خبر الواحد أو القياس، فإنْ أمكن الجَمْع بينهما بدُون تغيير في حُكْم الخاصِّ يُعمل بهما، وإلاَّ يُعمل بالكتاب، ويُترك ما يُقابله. وكذلك في الكتاب مُطلق ومُقيَّد، فلامُقيَّد يُعمل به أدباً، والمُطلق من كتاب الله ـ تعالى ـ إذا أمكن العمل بإطلاقه، فالزّيادة عليه بخبر الواحد، والقياس لا يجوز مثاله في قوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ فالمأمُور به هُو الغَسْل على الإطلاق، فلا يُزاد عليه شرط النِّيَّة والتّرتيب والمُوالاة والتّسمية بالخبر، ولكنْ؛ يُعمل بالخبر على وجه لا يتغيَّر به حُكْم الكتاب، فيُقال: الغَسْل المُطلق فرض بحُكْم الكتاب، والنِّيَّة سُنَّة بحكْم الخبر.

2 ـ السُّنَّة: إنَّ الثّابت من الأوامر بالدّليل القطعي، كالقُرآن أو السُّنَّة المُتواترة، فَرْضٌ، أمَّا الأمْر الثّابت بدليل ظنّي كخبر الآحاد؛ فهُو واجبٌ، وذلك مثل صلاة الوتر والعيدَيْن، وهُو دُون مرتبة الفَرْض، وإنْ كان الإتيان به لازماً وتَرْكه حرامٌ، وفَرْقه عن الفرض أنَّ مُنْكِرَهُ ليس بكافر. وعلى هذا النّحو ما نهى الشّارع عنه، فإنْ ثبت هذا النَّهْيُ بدليلٍ قطعيٍّ فهُو حرامٌ كقَتْل النَّفْس، وشُرْب الخمر، والسّرقة، والزّنا. . ، أمَّا إنْ ثبت النَّهْي بدليلٍ ظنّيٍّ؛ فهُو

مكروهٌ كراهة تحريم: وحُكْمه الثّواب على تَرْكه، والعقاب على فعْله، ولا يَكْفُرُ مُنْكرُهُ. أمَّا ما نهى الشّارع عنه بدليلٍ ظنّيٍّ نهياً غير جازمٍ، ومن غير إشعارٍ بالعُقُوبة؛ فهُو المكروه كراهة تنزيه: وحُكْمه يُثاب تاركه، ويُلام فاعله.

والسُّنَّةُ هي الأصل الثّاني بعد كتاب اللّه - تعالى - في استنباط الأحكام الشَّرْعيَّة، أمَّا مدى اعتماد الإمام أبو حنيفة على السُّنَّة؛ فنتبيَّنه من خلال منهجه في الاستنباط وشُرُوط قبول الأخبار عنده.. ومن أُصُوله رحمه اللّه تعالى:

[1 - قبول مُرسلات الثّقات إذا لم يُعارضها ما هُو أقوى منها، والاحتجاج بالمُرسل كان سُنَّة مُتوارثة، جَرَتْ عليه الأُمَّة في القُرُون الفاضلة، حتَّى قال ابن جرير: رَدُّ المُرسل مُطلقاً بدْعة حَدَثَتْ في رأس المائتَيْن.

2 - ومن أُصُوله؛ عَرْض أخبار الآحاد على الأُصُول المُجتمعة عنده بعد استقرائه موارد الشَّرْع، فإذا خالف خبر الآحاد تلك الأُصُول يأخذ بالأصل عَمَلاً بأقوى الدّليلَيْن، ويَعُدُّ الخبر المُخالف له شاذاً. وليس في ذلك مُخالفة للخبر الصّحيح، وإنَّما فيه مُخالفة لخبر بدت علَّة فيه للمُجتهد. وصحَّة الخبر فرعُ خُلُوِّه من العلَل القادحة عند المُجتهد.

3 - ومن أُصُوله: عَرْض أخبار الآحاد على عُمُومات الكتاب وظواهره، فإذا خالف الخبر عامّاً أو ظاهراً في الكتاب، أخذ بالكتاب وتَرَكَ الخبر عملاً بأقوى الدّليلَيْن؛ لأنَّ الكتاب قطعي الثُّبُوت، وظواهره وعُمُوماته قطعيَّة الدّلالة عنده.

أمَّا إذا لم يُخالف الخبر عامّاً أو ظاهراً في الكتاب، بل كان بياناً لُمجمل فيه، فيأخذ به؛ حيثُ لا دلالة فيه بدُون بيان.

4 - ومن أُصُوله في الأخذ بخبر الآحاد: أنْ لا يُخالف السُّنَّة المشهورة، سواء أكانت سُنَّة فعْليَّة أو قَوْليَّة؛ عملاً بأقوى الدّليلَيْن.

5 - ومن أُصُوله، أنْ لا يُعارض خبر مثله، وعند التّعارض يُرجّح أحد الخبرَيْن على الآخر، بوُجُوه ترجيح تختلف أنظار المُجتهدين فيها؛ ككون أحد الرّاوييْن فقيهاً أو أفْقَه بخلاف الآخر.

6 ـ ومن أُصُوله أنْ لا يعمل الرّاوي بخلاف خبره، كحديث أبي هُريرة في غسل الإناء من وُلُوغ الكلب سبعاً، فإنَّه مُخالف لفتيا أبي هريرة، فتَرَكَ أبو حنيفة العمل به لتلك العلَّة.

7 ـ ومن أُصُوله. ردُّ الزّائد ـ مَتْناً كان أو سَنَداً ـ إلى النّاقص احتياطاً في دين اللّه تعالى.

8 ـ ومن أُصُوله: عدم الأخذ بخبر الآحاد فيما تعمُّ به البلوى ـ أيْ فيما يحتاج إليه الجميع حاجة مُتأكِّدة مع كَثْرَة تَكرُّره ـ فلا يكون طريق ثُبُوت ذلك غير الشُّهرة أو التّواتر، ويدخل في ذلك الحُدُود والكَفَّارات التي تُدرأ بالشُّبْهَة.

9 ـ ومن أُصُوله: أنْ لا يترك أحد المُختلفين في الحُكْم من الصّحابة الاحتجاج بالخبر الذي رواه أحدهم.

10 ـ ومنها استمرار حفظ الرّاوي لمرويِّه من آن التَّحمُّل إلى آن الأداء من غير تخلُّل نسيان.

11 ـ ومنها عدم مُخالفة ـ الخبر للعمل المُتوارث بين الصّحابة والتّابعين، وبمُقتضى هذه القواعد تَرَكَ الإمام أبو حنيفة ـ رحمه اللّه ـ العمل بأحاديث كثيرة من الآحاد...

والحقُّ أنَّه لم يُخالف الأحاديث عناداً، بل خالفها اجتهاداً لحُجج، واضحة ودلائل صالحة، وله بتقدير الخطأ أجر، وبتقدير الإصابة أجران.

هذا؛ وأمَّا مقدار الأحاديث التي استدلَّ بها في مذهبه.. فالجواب عليه ما ثبت في المسانيد الخمس عشرة المنسوبة إليه.. بل ومُضافاً إليها من الأحاديث والآثار الثّابتة في السَّنَد المُتَّصل، وهي بالآلاف، والتي تصدَّى لجَمْعها في وقت مُبكِّر غير واحد من العُلماء، والذي وصلنا منها ما جَمَعَهُ الطّحاوي في معاني الآثار ومُشكل الآثار، وهُو من الفُقَهاء المُتقدِّمين رُتْبة وتاريخاً في المذهب، وما جَمَعَهُ أخيراً السَّيِّد مُحمَّد مُرتضى الزُّبيدي في كتابه الموسوم بـ (عُقُود الجواهر المُنيفة في أدلَّة مذهب الإمام أبي حنيفة ممَّا وافق فيه الأئمَّة السِّتَّة أو أحدهم) والذي جاء في مُقدِّمته: ما نصّه: قصدتُ بهذا التّأليف الرّدّ على بعض المُتعصِّبين ممَّنْ اعتسف عن واضح المشارع، ونسب إلى إمامنا أنَّه يُقدِّم القياس على النَّصِّ الثّابت عن الشّارع، ولعمري هذه النّسبة إليه غير صحيحة، فإنَّ الصّحيح المنقول في مذهبه تقديم النَّصِّ على القياس. والمقصود بالنَّصِّ هُنا هُو الحديث الشّريف بالجُملة.. وإنْ كان عبارة النَّصِّ تشمل الآية الكريمة عند العُلماء.. وقد أجمعوا على أنَّ القُرآن مُقدَّم على ما سواه.... والذي

أجمع عليه أهل مذهبه أنَّه - رضي الله عنه - يأخذ بخبر النّبي صلَّى الله عليه وسلَّم ما جاء، فإنْ اختلف خبران، وكان لأحدهما وجه في التّأويل يُوافق به الخبر الآخر الذي ليس له إلاَّ وجه واحد في الظّاهر وُفق بينهما. فإنْ لم يجد خبراً عن النّبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - أخذ من آثار الصّحابة ما كان أقرب إلى كتاب الله وسنَّة نبيِّه، ويُسمَّى ذلك اجتهاداً.

كما أُثر عنه (أبو حنيفة) ﷺ قوله: كذبَ - والله - وافترى علينا مَنْ يقول: إنَّنا نُقدِّم القياس على النَّصِّ، وهل يُحتاجُ - بعد النَّصِّ - إلى قياس؟!

وقال: نحنُ لا نقيس إلاَّ عند الضّرورة الشّديدة، وذلك أنَّنا ننظر في دليل المسألة من الكتاب والسنَّة أو أقضية الصّحابة، فإنْ لم نجد دليلاً قسنَا حينئذ مسكوتاً عنه على منطوق به.

وقال الحافظ مُحمَّد بن يُوسُف الصّالحي الشّافعي مُحدِّث الدّيار المصريَّة في (عقُود الجُمان): كان أبو حنيفة من كبار حُفَّاظ الحديث وأعيانهم، ولولا كثرة اعتنائه بالحديث ما تهيَّأ له استنباط مسائل الفقْه، وذكَرَهُ الذّهبي في طبقات الحُفَّاظ - ولقد أجاد، وأفاد.

وفي سبب قلَّة الرّواية عنه.. بالمُقارنة مع بقيّة الفُقَهاء يقول الصّالحي: إنَّما قلَّت الرّواية عنه - وإنْ كان متَّسع الحفْظ - لاشتغاله بالاستنباط، وكذلك لم يَرْوِ عن مالك والشّافعي إلاَّ القليل بالنّسبة إلى ما سمعاه للسّبب نفسه. كما قلَّت رواية أمثال أبي بكر وعُمر من كبار الصّحابة رضي الله عنهم إلى كثرة اطّلاعهم. وقد كثرتْ رواية من دُونهم بالنّسبة إليهم.

وعليه؛ لابُدَّ من الاعتراف بأنَّ أبا حنيفة لم يكن من رُواة مئات الآلاف من الأحاديث، وإنَّما كان عنده صناديق من الحديث انتقى منها نحو أربعة آلاف حديث؛ نصفه من حمَّاد بن أبي شيبة شيخه الخاصِّ الذي تخرَّج به، ونصفه الآخر من باقي شُيُوخه، وكان يكتفي - فيما سوى ذلك - بالاطّلاع على باقي الأحاديث من رواية أصحابه البارعين في شتَّى العُلُوم أركان المجمع الفقْهي الذي كان يرأسه هُو، وتُبحث فيه المسائل من كُلِّ ناحية، ثُمَّ تثبت في الدّيوان.][1].

(1) مُستفاد من مُقدِّمة كتاب "شرح الملاَّ عليّ القاري الهروي الحَنَفي، على مُسند الإمام الأعظم أبو حَنيفَة النُّعمان بن ثابت الكُوفي" مع تعليق الشّيخ خليل مُحيي الدِّين الميس مدير أزهر لُبنان، ط1، بيرُوت: دار الكُتُب العلميَّة، 1405 هـ/ 1985م.

3 ـ **أقوال الصّحابة**: أخذ أبو حنيفة برأي الصحابي، واعتبره واجب الإتباع، وهُو مُقدَّم على القياس. وإذا طرح موضوع عليه ولا رأي للصّحابة فيه اجتهد. وكان لا يتبع رأي التّابعي.

4 ـ **الإجماع**: الإجماع أصل من أُصُول الفقْه الحَنَفي، وعليه الاجتهاد عندهم. جاء في كتاب المناقب: «كان أبو حنيفة شديد الإتباع، لما كان عليه النّاس في بلده».

5 ـ **القياس**: أكثر أبو حنيفة من القياس؛ لأنّه ـ في اجتهاده ـ لم يقف عند بحث أحكام المسائل التي تقع، بل يعمل على التّوسُّع في استنباطها، ويبحث في المسائل التي لم تقع، ويتصوَّر وُقُوعها.

6 ـ **الاستحسان**: أكثر أبو حنيفة من الاستحسان، حتّى نازعه أصحابه القياس. وطعن به كثير من الفُقَهَاء لتَرْكه القياس بالاستحسان.

7 ـ **العُرف**: اعتبر أبو حنيفة العُرف أصلاً فقْهيّاً للاستنباط، وأخذ بالمنهج الذي يَعتبر العُرف العامَّ دليلاً؛ حيثُ لا نصّ.

مُميِّزات فقْه أبي حنيفة:

كان لفقْه أبي حنيفة طابع مُستقلٌّ تميَّز بعدَّة أُمُور منها:

ـ التَّيسير في العبادات.

ـ رعاية جانب الفقير والضّعيف.

ـ تصحيح تصرُّفات الإنسان كُلّما أمكن.

ـ احترام حُرِّيَّة الإنسان وإنسانيّته.

ـ عدم الحجر، إلاّ لجُنُون أو صغر، وعدم جوازه على السّفيه.

ـ رعاية سيادة الدّولة مُمثَّلة في الإمام.

ولا يقوم المذهب الحَنَفي على أقوال أبي حنيفة وحده، وإنّما على أقواله وأقوال أصحابه وتلامذتهم، أمّا أشهر أصحابه؛ فهُما اثنان: أبو يُوسُف يعقوب بن إبراهيم (112 ـ

183 هـ) قاضي القُضاة في بغداد في عهد هارون الرّشيد، ومُحمَّد بن الحَسَن الشّيباني (ت 189 هـ) الذي تُوفِّي وهُو مُصاحب للرّشيد، وقد خالف الأخيران إمامهم أبا حنيفة في أكثر من نصف فتاويه، ثُمَّ يلحق بهما زفر بن الهُذَيل (110 ـ 157 هـ) والحَسَن بن زياد اللُّؤلؤي الكُوفي (ت 204 هـ)، ثُمَّ كان الإمام الطّحاوي (أبو جَعْفَر أحمد بن مُحمَّد بن سلامة الأزدي) (230 ـ 321 هـ) من المُتأخِّرين ذوي الفضل الكبير في خدمة ونُصرة وتدعيم المذهب الحَنَفي بكُتُبه الحديثيَّة المُمتازة؛ وأشهرها كتابه "شَرْح معاني الآثار".

(2) المذهب المالكي:

الإمام مالك بن أنس (93 ـ 179 هـ):

هُو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عَمرو الأصبحي اليمني. انتقل جَدُّ أبيه ـ وهُو أبو عامر بن عَمرو ـ من اليمن إلى المدينة المُنوَّرة بعد غزوة بدر الكُبرى، وصَاهَرَ بني تميم، وحَضَرَ المغازي كُلَّها مع رسول اللَّه ﷺ إلاَّ بدراً، فهُو صحابي جليل. أمَّا أبوه أنس، وجَدُّه مالك؛ فمن التّابعين. وأمَّا الإمام مالك وكُنيته أبو عبد اللَّه؛ فمن تابعي التّابعين، وعُرِف بإمام دار الهجرة.

مولده ونشأته:

وُلد مالك ـ على أكثر الأقوال ـ سنة ثلاث وتسعين للهجرة في ذي المروة شمال المدينة المُنوَّرة، ثُمَّ انتقلت الأُسرة إلى المدينة المُنوَّرة، وبها نشأ الإمام، فرأى آثار الصّحابة والتّابعين، كما رأى قبر النّبي ـ صَلى اللَّه عَليه وآله وسلَّم ـ فيها فانطبع في نفسه تقديسها، ممَّا دعاه أنْ لا يطأ أديمها بدابَّة قطُّ. وكان ما عليه أهل المدينة أصلاً من أُصُول استنباطه.

نشأ الإمام مالك في بيت مجد من بُيُوت العلم، فَجَدُّهُ مالك بن أبي عامر كان من كبار التّابعين وعُلمائهم. وشارك هذا الجَدُّ المُبارك في مهمَّة دينيَّة رَسْميَّة، وهي مهمَّة كتابة المصاحف في عهد الخليفة الثّالث عُثمان بن عفَّان، رضي اللَّه عنه، فكان مالك الجَدُّ، ممَّنْ كَتَبوها، في حين لم يكن يُندَب في ذلك العهد لهذه المهمَّة إلاَّ أشخاص بارزون.

ولقد كانت البيئة العامَّة للبلد الذي عاش فيه تُوعز بالعرفان، وتُنمّي المواهب؛ إذْ هي مدينة الرّسول الأعظم ـ مُحمَّد صَلى اللَّه عَليه وآله وسلَّم ـ موطن الشَّرْع، ومبعث النُّور، ومعقد الحُكْم الإسلامي الأوَّل، ومرجع العُلماء في العصر الأُموي الأوَّل، حتَّى إنَّ ابن مسعود كان يُسأل عن الأَمْر في العراق، فيُفتي، فإذا رجع إلى المدينة، وَوَجَدَ ما يُخالفه لا يحطُّ عن راحلته حتَّى يرجع، فيُخبر مَنْ أفتى.

في ظلِّ هذه البيئة الخاصَّة والعامَّة نشأ مالك، وحفظ القُرآن في صدر حياته، ثُمَّ اتَّجه ـ بعد ذلك ـ إلى حفْظ الحديث، وجَالَسَ العُلماء. ويحكي عن نفسه؛ فيقول: "إنَّه استأذن أُمَّه في مُجالسة العُلماء، فَألْبَسَتْهُ أحسن الثّياب، وعَمَّمَتْهُ، ثُمَّ قالت له: اذهبْ إلى ربيعة، فتعلَّمْ من أدبه قبل علْمه". فجلس بنصيحة أُمّه إلى ربيعة الرّأي؛ وهُو حَدَثٌ صغير.

طَلَبُهُ للعلم ومنزلته العلميَّة:

كان الإمام مالك ﷺ دؤوباً على طَلَب العلْم، وصَرَفَ نفسه إليه في جدٍّ ونشاط وصبر، يترقَّب أوقات خُرُوج العُلماء من منازلهم إلى المسجد. وقد حَدَّثَ الإمام مالك عن نفسه؛ فقال: "إنَّه انقطع إلى ابن هرمز سبع سنين لم يخلطه بغيره"، وأنَّه كان يُلازمه من بكرة النّهار إلى اللَّيل. وقد رأى فيه ابن هرمز النّجابة، وتنبَّأ له بمُستقبل زاهر، فقد قال لجاريته يوماً: "مَنْ بالباب"؟ فلم تَرَ إلاَّ مالكاً، فقالت: ما ثمَّ إلاَّ ذاك الأشقر، فقال: "ادعيه، فذلك عالم النّاس". وأخذ الإمام ـ أيضاً ـ عن نافع مولى ابن عُمر، فانتفع بعلمه كثيراً. وهكذا نجد أنَّ مالكاً لم يدَّخر جهداً في طَلَب العلم، كما أنَّه لم يدَّخر في سبيله مالاً، حتَّى لقد قال تلميذه ابن القاسم: "أفضى بمالك طَلَبُ العلم إلى انقض سقف بيته، فباع خَشَبَهُ، ثُمَّ مالت عليه الدُّنيا من بعد".

ولَمَّا نَضَجَ فكْر مالك، واستوت رُجُولته، جلس في مجلس رسول اللَّه ﷺ للدَّرْس والإفتاء، وذلك بعد أنْ استوثق من رأي شُيُوخه فيه، وإقرارهم بأنَّه لذلك أهلٌ، ولقد قال رحمه اللَّه: "ما جلستُ للحديث والفتيا، حتَّى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أنّي موضع لذلك ـ ومنهم الزُّهري وربيعة ـ".

وكان الإمام مالك لا يروي إلاَّ عن الثّقات، حتّى قال الإمام النّسائي: "أُمناء اللّه على علم رسول اللّه ﷺ: شعبة بن الحجّاج، ومالك بن أنس، ويحيى بن سعيد القطان".

وقد التزم مالك في دراسة السّكينة والوقار والابتعاد عن لَغْو القول، وما لا يحسن بمثله، وكان يقول: "من آداب العالم ألاَّ يضحك إلاّ تبسُّماً"، وما كان ذلك فيه لجفوة في نفسه، بل كان يأخذ نفسه بذلك احتراماً للدّرس والحديث. قال بعض تلامذته: "كان مالك إذا جلس معنا كأنّه واحدٌ منّا، يتبسَّط معنا في الحديث، وهُو أشدُّ تواضعاً منّا له، فإذا أخذ في الحديث - أيْ حديث رسول اللّه ﷺ - تهيّبْنا كلامه، وكأنّه ما عرفنا، ولا عرفناه".

وكان يعنى في درسه بأنْ يُجيب عن المسائل الواقعة، ولا يُحبُّ أنْ يسير وراء الفرض والتّقدير. وقد سأله سائل عن مسألة فَرَضيَّة، فقال: "سَلْ عمَّا يكون، ودَعْ ما لم يكن". وسأله آخر عن مسألة أُخرى، فلم يُجبه، فقال له: لمَ لا تُجيبني؟ فقال: "لو سألتَ عمَّا يُنتفَع به، لأجبتُكَ".

وكان إذا سُئل عن مسألة لا يعلمها يقول: "لا أدري"، وقد أخذ هذه الكلمة عن شيخه ابن هرمز، فقد حَدَّثَ عن شيخه؛ فقال: "سمعتُ ابن هرمز يقول: ينبغي أنْ يُورِّث العالم جُلساءه قَوْلَ لا أدري، حتّى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه. فإذا سُئل أحدهم عمَّا لا يدري، قال لا أدري". كما كان يقول: "العلم آية مُحكمة أو سُنَّة مُبيَّنة ثابتة أو: لا أدري!".

منهجه في الفقه:

كان من طريقة الإمام مالك في فقهه أنْ يُقدِّم القُرآن أوّلاً وقبل كُلِّ شيء، ويستعين في فَهْمه بالحديث والسُّنَّة، ولكنَّه كان - كما ذَكَرْنا - يُدقِّق في رواية الحديث، حتّى لا يختلط الصّحيح بغير الصّحيح، وهُو يَعُدُّ عملَ أهل المدينة حُجَّة ومصدراً من مصادر الفقه الهامَّة، وهُو يلتزم السُّنَّة، ولا يُفارقها إلى الإفتاء، وكان كثيراً ما يُردِّد البيت التّالي:

وخيرُ أُمُور الدِّين ما كان سُنَّةً ... وشَرُّ الأُمُور المُحْدَثَات البدائعُ

وبعد الكتاب والسُّنَّة؛ كان يأخذ بفتوى الصّحابة ـ رضي اللّه عنهم ـ ؛ لأنّهم شاهدوا الرّسول ﷺ، وصاحبوه، وسمعوا منه، وأخذوا عنه. كما كان يأخذ بالإجماع، ويقصد به ما اجتمع عليه أهل الفقه والعلم.

وكان الإمام مالك ـ إذا لم يجد نصّاً ـ يأخذ بالقياس، والاستحسان، والعُرْف، وسَدّ الذّرائع، والمصالح المُرسلة (أيْ المُطلقة غير المُقيَّدة)، ولكنَّه يشترط في الأخذ بالمصالح المُرسلة عدَّة شُرُوط منها:

1 ـ ألاَّ تُنافي المصلحة أصلاً من أُصُول الإسلام، ولا دليلاً قَطْعيّاً من أدلَّته.

2 ـ أنْ تكون المصلحة مقبولة عند ذوي العُقُول.

3 ـ أنْ يرتفع بها الحَرَج، لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

شُيُوخه:

"جاء مالك في عصر الدّولة الأُمويَّة، وقد كثر العُلماء في المدينة، فأخذ يستقي العلم من شُيُوخهم غُلاماً صبيّاً، حتَّى إذا ما شدا في العلم، أخذ ينتقي مَنْ يأخذ عنهم العلم والحديث، وكان يقول: "إنَّ هذا العلم دين، فانظروا عمَّن تأخذون منه، لقد أدركتُ سبعين مِمَّنْ يقول: قال رسول اللّه ﷺ عند هذه الأساطين ـ وأشار إلى المسجد ـ فما أخذتُ عنهم شيئاً. وإنَّ أحدهم لو اؤتُمن على بيت مال لكان أميناً، إلاَّ أنَّهم لم يكونوا من أهل هذا الشّأن".

ونستطيع تقسيم شُيُوخ مالك ـ رضي اللّه عَنهُ ـ إلى قسمَيْن؛ أحدهما: أخذ عنه الفقه كربيعة الرّأي بن عبد الرّحمن ويحيى بن سعيد، والآخر أخذ عنه الحديث مثل نافع وأبي الزّناد وابن شهاب. أمَّا ابن هرمز؛ فقد أخذ منه ما يُعَدُّ تثقيفاً عامّاً مع علم الرّواية.

وأخذ الإمام مالك عن كثيرين غير هؤلاء الذين ذَكَرْناهم، حتَّى جاء في بعض الرّوايات أنَّ شُيُوخه جاوزوا تسعمائة شيخ، ثلثمائة من التّابعين، وأكثر من ستُّمائة من تابعي التّابعين.

آثاره:

كان المُجتهدون في عصر الصّحابة يمتنعون عن تدوين فتاويهم، ليبقى المُدوَّن من أُصُول الدِّين كتابَ اللّه وحده، ثُمَّ اضطرَّ العُلماء لتدوين السُّنَّة وتدوين الفتوى والفقه، إلاَّ أنَّ هذه

المجموعات لم تكن كُتُباً، بل كانت أشبه بالمُذكّرات الخاصّة، وكان من أقدم وأهمّ هذه الكُتُب كتاب المُوطّأ للإمام مالك.

والكتابان اللّذان يُعدّان أصلَيْن في مذهب الإمام مالك هُما: المُوطّأ، والمُدوّنة الكُبرى، وهُما جامعان لفقْهه جَمْعاً تاماً في الجُملة.

أمّا المُوطّأ؛ فهُو كتاب ألّفه الإمام مالك، وجَمَعَ فيه الصّحاح من الأحاديث والأخبار والآثار، وفتاوى الصّحابة والتّابعين، وذكر الرّأي الذي يراه. وقد ألّفه في الأربعين سنة، وذلك ما يدلُّنا على مدى مجهوده فيه. ويحسب كتاب المُوطّأ أنْ يقول فيه الإمام الشّافعي رضي اللّه عنه: "ما في الأرض كتاب من العلم أكثر صواباً من مُوطّأ مالك".

ويقول أحد تلاميذ الإمام مالك: عَرَضْنا على مالك المُوطّأ قراءة في أربعين يوماً، فقال: "كتاب ألّفتُهُ في أربعين سنة أخذتموه في أربعين يوماً، ما أقلّ ما تفقهون فيه". وقد قال القاضي أبو بكر بن العَرَبي: "المُوطّأ هُو الأصل واللّباب، وكتاب البُخاري هُو الأصل الثّاني في هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كمُسلم والتّرمذي". وقال الإمام النّسائي: "ما عندي بعد التّابعين أنبل من مالك، ولا أجلّ منه، ولا أوثق، ولا آمن على الحديث، ولا أقلّ رواية من الضُّعفاء".

وأمّا المُدوّنة الكُبرى؛ فقد رواها الإمام سحنون من بعده، وجَمَعَ فيها آراء الإمام مالك بالنّصّ، وهُو إنْ لم يُدرك الإمام، لكنّه أدرك تلميذه الإمام عبد الرّحمن بن القاسم، وعنه أخذ الإمام سحنون العلم. وكان يسأل ابن القاسم، فيُجيبه، فيقول له: هل سمعتَ ذلك من مالك؟ يقول: نعم، سمعتُهُ، وأحياناً؛ يقول: لم أسمع، ولكنْ؛ هذا رأيي في المسألة. فأثبت الإمام سحنون ما تلقّاه من ابن القاسم في المُدوّنة الكُبرى (أربعة مُجلّدات كبار)، فَجَمَعَتْ المُدوّنة فتاوى الإمام، وفتاوى أصحابه الذين ساروا على منهاجه، وكانت الصُّورة للمذهب المالكي الذي اشتقّ فقه الرّأي فيه من الحياة الواقعيّة، وقام على أساس جَلْب أكبر قَدْر من المنافع، ودَفْع أكبر قدر من المضارّ.

ولم يشأ الإمام مالك أنْ يحمل النّاس كُلّهم على مذهبه - كما أراد هارون الرّشيد - بل بيّن أنّ أصحاب رسول اللّه ﷺ، اختلفوا في الفُرُوع، وتفرّقوا في البُلدان، وكُلٌّ عند نفسه

مُصيب. كما بيَّن أنَّ اختلافهما رحمةً على هذه الأُمَّة، كُلٌّ يتبع ما يصحُّ عنده، وكُلٌّ على هُدى، وكُلٌّ يُريد اللَّه. ولو شاء مالك - رضي اللَّه عنه - لتمكَّن من جَمْع النَّاس على المُوطَّأ، ولكنَّه لم يفعل؛ لأنَّه كان يُريد وجه اللَّه، وينظر لصالح الأُمَّة العامِّ، ولا ينظر لنفسه.

وهذه النَّظْرَة الكريمة من الإمام مالك تُعلِّمنا ألاَّ نتعصَّب لمذهب دُون مذهب. ومَنْ تيسَّرت له دراسة مذهب من المذاهب الأربعة، فليتبعه مُحترماً بقيَّة المذاهب، كما احترم أصحاب المذاهب بعضهم بعضاً.

تلاميذه:

وهُم المصدر الثَّاني لفقْهه، وقد كانوا كثيرين جدّاً جاؤوا من شتَّى البقاع الإسلاميَّة، وتفقَّهوا على يدَيْه، ثُمَّ عادوا إلى بلادهم، وكانوا رُسُله إلى تلك البلاد النَّائية، فانتشر مذهبه في حياته أيَّما انتشار، خاصَّة وأنَّ اللَّه - تعالى - مَدَّ له في عُمره. نذكر من هؤلاء:

1 - عبد اللَّه بن وهب: نَشَرَ فقْه مالك في مصر.

2 - عبد الرَّحمن بن القاسم: لازم مالكاً نحو عشرين سنة، وتفقَّه بفقْهه، حتَّى صار يُرجع إليه في مسائل مالك وفتاويه.

3 - أشهب بن عبد العزيز القيسي العامري: صحب مالكاً، وتفقَّه عليه، وله مُدوَّنة يقال لها مُدوَّنة أشهب.

4 - أسد بن فُرات بن سنان: جَمَعَ بين فقْه المدينة وفقْه العراق.

5 - عبد الملك بن ماجشون: وكان فقيهاً، فصيحاً، دارت عليه الفتيا في زمانه إلى موته.

6 - عبد اللَّه بن عبد الحَكَم بن أعين.

7 - عبد الملك بن حبيب الأندلسي.

هؤلاء جميعاً هُم تلاميذ مالك - رضي اللَّه عنه - البارزون في نَقْل فقْهه ونَشْره في البلاد المُتَّسعة المُترامية الأطراف.

أصُول فقه المذهب المالكي:

لم يُدوِّن الإمام مالك أُصُول فقهه، أمَّا الفرُوع؛ فقد وَرَدَتْ في كتابه المُوطَّأ، وفي كُتُبه الأُخرى، أو نُقلت بواسطة أصحابه وتلامذته.

فالفتيا عنده مبنيَّةٌ على ما سَمِعَ من أحاديث الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، أو بشبيه ما سَمِعَ. فإنْ لم يكن ذلك، اجتهد مُستخرجاً الحُكْمَ من كتاب الله ـ تعالى ـ والسُّنَّة من نصّ الخطَّاب، أو فحواه، أو إشارته، أو مفهومه، مُوازناً بين النُّصُوص، فيزن السُّنَّة بما في الكتاب، ويستخدم القياس في استنباطه، وإنْ وجد مصلحة أفتى بما فيه المصلحة.

لذلك؛ نقول بأنَّ الفقه المالكي اعتمد على كتاب الله ـ تعالى ـ وسُنَّة نبيِّه (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وفتاوى الصّحابة، واجتهاد الرّأي بطريق القياس والمصالح المُرسلة، وغيرها.

الأُصُول عند المالكيَّة كما يُحدِّدها القرافيّ:

ذكر القرافي في كتابه تنقيح الأُصُول اثنَيْ عشر أصلاً عند المالكيَّة؛ وهي:

1 ـ الكتاب: المصدر الأوّل للشّريعة؛ وهُو فوق كُلِّ الأدلَّة، يُؤخذ بنصِّه الصّريح الذي لا يقبل تأويلاً، وبظاهره مادام لا يُوجد دليل على وُجُوه تأويله، ولابُدَّ من الاستعانة بالسُّنَّة لاستنباط بعض الأحكام من القُرآن الكريم؛ لأنَّها تتولَّى بيان بعض آياته المُتعلِّقة بالأحكام.

2 ـ السُّنَّة: كان الإمام مالك إماماً في الحديث، كما كان إماماً في الفقه، لذلك؛ اعتُبر سَنَدُهُ في بعض أحاديثه أصحَّ الأسانيد بشهادة البُخاري وأبي داوود. ولكنَّه كان يُقدِّم في بعض الأحوال ظاهر القُرآن على السُّنَّة، وفي بعضها يجعل السُّنَّة حاكمةً على ظاهر القُرآن، ويُقدِّم الظّاهرَ على خبر الآحاد، ويرفع المشهور عن خبر الآحاد، ويقبل الحديث والبلاغ المُرسَل إذا كان المُرسلون من الثّقات.

3 ـ الرّأي والحديث: اعتمد مالك كثيراً على الرّأي، وقدَّم القياس عند تعرُّضه مع خبر الآحاد.

4 ـ فتوى الصّحابة: اتَّخَذَ من فتاوى الصّحابة قاعدةً لغيرها من الأقضية والفتاوى من قَيْدٍ أو شرطٍ، واعتبرها شُعبة من شُعَب السُّنَّة النَّبويَّة الشّريفة.

5 ـ فتوى التّابعين: كان لبعض التّابعين ممّنْ عُرفوا بالصّدْق، وسابقته في الإسلام، ولفقْهم مكانة رفيعة عند مالك، فقبل ما يقولون من فقْه إذا كان أساسه سُنَّة، أو اتّفق مع العمل، ومنهم عُمر بن عبد العزيز، وسعيد بن المُسيَّب، وابن شهاب الزّهري، ونافع مولى عبد الله بن عُمر، وغيرهم.

6 ـ الإجماع: يقول مالك «إنّ الحُجَّة في إجماع أهل المدينة فقط». لذلك؛ يُقدّم عملَ أهل المدينة على خبر الآحاد في بعض الأحيان.

7 ـ القياس: لقد سلك مالك سبيل التّساوي بين الأشياء في الحُكْم عند تماثلها ووُجُود العلَّة. وأخذ بالقياس على نمط الأحكام المنصوص عليها في القُرآن والأحاديث الشّريفة. وزادت المالكيَّة بالقياس بأنّ القياس لا يكون على الأحكام الثّابتة من الأُصُول (من الكتاب والسُّنّة والإجماع)، بل يقيس القائس على الفُرُوع الثّانية بالاستنباط أيضاً. فيُقَاس عليها ما يكون مُماثلاً لها في مجموع أوصافها التي جعلت لها الحُكْم. وقاس مالك على مسائل استنبطها الصّحابة، وأخذوها بالقياس.

8 ـ الاستحسان: قال مالك: «الاستحسان تسعة أعشار العلم»[1]، وتقول المالكيَّة: «إنّ الاستحسان يُؤخذ به إذا قَبُحَ القياس» فيأخذون بالمصلحة الجُزئيَّة في مُقابل القياس الكُلّي.

9 ـ الاستصحاب: الاستصحاب قسمان: استصحاب البراءة، وهُو بقاء الذِّمّة على ما كانت عليه، حتّى يقوم الدّليل المُثبت حقّاً، واستصحاب الوصف المُثبت للحكْم، حتّى يَثْبُتُ خلافَه. ويعتبر الاستصحاب أصلاً من أُصُول الاستنباط الفقْهي، وهُو أصل سلبي، وقد أخذ به مالك، واعتبره حُجَّة.

10 ـ المصالح المُرسلة: عُرف عن المذهب المالكي بأنّه ينحو ناحية الحُكْم بأنّ أوامر الدّين والأخلاق والقوانين تتّجه إلى إسعاد النّاس، وأنّ المصلحة أو المنفعة تصلح قياساً ضابطاً لكُلّ ما هُو مأمور به في الدّين أو مَنْهي عنه، ومالك اعتبر المصلحة في الفقْه أصلاً قائماً بذاته، لذلك؛ أخذ بالمصلحة في المُعاملات، واعتبرها دليلاً مُستقلاً غير مُستند إلى سواه.

---

(1) راجع المذهب الفقهيَّة: 237 ـ مالك 322.

واتَّجه استنباط مالك في الأخذ بالمصالح المُرسلة إلى أُمُور؛ وهي:

(1) المُلاءمة بين المصلحة التي أخذ بها وبين مقاصد الشَّرْع؛ بحيثُ لا تُنافي أصلاً من أُصُوله، ولا دليلاً من أدلَّته القطعيَّة، بل تكون مُتَّفقة مع المصالح التي قَصَدَهَا الشَّارع.

(2) أنْ تكون معقولة في ذاتها.

(3) أنْ يكون الأخذ بها رَفْع حرج لازم في الدِّين.

11 ـ سَدُّ الذَّرائع: يقصد مبدأ سَدِّ الذَّرائع إلى النَّفْع العامِّ، أو دَفْع الفساد العامِّ، وهُو أصل من أُصُول الفقْه، لذلك؛ أخذ مالك به كثيراً.

12 ـ العادة والعُرْف: هُو أصل من الأُصُول الفقْهيَّة إذا لم يكن في الأَمْر نصٌّ قطعيٌّ.

وعند المالكيَّة؛ إذا خالف العُرْفُ القياسَ تُركَ القياسُ؛ لأنَّ العُرْفَ يُخصِّص العامَّ، ويُقيِّد المُطلقَ.

وقد تميَّز الفقْه المالكي بميِّزات منها: مُرُونة أُصُوله، وتوخِّي المصلحة، والاعتماد على أقضية الصَّحابة وفتاويهم، وتوافر قُوَّة عُقُول الفُقَهَاء، وسعة أُفُقهم، ومُرُونة أُصُولهم.

(3) المذهب الشَّافعي:

الإمام مُحمَّد بن إدريس الشَّافعي (150 ـ 204 هـ):

هُو الإمام أبو عبد اللَّه مُحمَّد بن إدريس بن العبَّاس بن عُثمان بن شافع بن السَّائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المُطَّلب بن عبد مناف جَدّ جَدِّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وشافع هذا صحابي من أصحاب رسول اللَّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وأبُوه السَّائب الذي أسلم يوم بدر، وأُمُّه يمانيَّة من الأزد.

وُلد الشَّافعي في غزَّة من أرض فلسطين سنة خمسين ومائة للهجرة (150) وليست غزَّة موطن آبائه، وإنَّما خرج أبوه إدريس إليها في حاجة، فوُلد له مُحمَّد ابنه، ومات هُناك.

تُوفِّي والده وهُو صغير لا يتجاوز العامَيْن، فذهبتْ به أُمُّه إلى مكَّة، وقد آثرت أنْ تهجر أهلها الأزد في اليمن، وتحمل طفلها إلى مكَّة، مخافة أنْ يضيع نَسَبُهُ وحقُّه في بيت مال المُسلمين من سهم ذوي القُربى، وكانت هذه أوَّل رحلة في حياة هذا الطِّفل التي كانت كُلُّها رحلات.

نشأته العلميَّة:

نشأ الشّافعي في مكَّة، وقد بدت عليه علائم النُّبوغ والذّكاء الشّديدَيْن مُنذُ الصّغر، فحفظ القُرآن وهُو ابن سبع سنين، وجوَّده على مُقرئ مكَّة الكبير إسماعيل بن قسطنطين، وأخذ تفسيره من عُلماء مكَّة الذين ورثوه عن ترجمان القُرآن ومُفسِّره عبد اللّه بن عبَّاس رضي اللّه عنهما. ثُمَّ اتَّجه ـ بعد حفظه القُرآن ـ لاستحفاظ أحاديث رسول اللّه ﷺ.

وقد أُولع مُنذُ حَدَاثَة سنِّه بالعَرَبيَّة، فرحل إلى البادية يطلب النّحو والأدب والشّعر واللُّغة، ولازم هُذيلاً عشر سنوات، يتعلَّم كلامها، وفُنُون أدبها، وكانت أفصح العَرَب، فبرز، ونبغ في اللُّغة العَرَبيَّة وهُو غُلام. قال الأصمعي ـ ومكانته في اللُّغة مكانته ـ: "صحَّحتُ أشعار هُذيل على فتى من قُرَيْش يقال له مُحمَّد بن إدريس". وفي مكَّة؛ كان يتردَّد على المسجد، يسمع من العُلماء بشغف شديد. وكان في ضيق العيش؛ بحيثُ لا يجد ثمن الورق الذي يُدوِّن عليه، فكان يعمد إلى التقاط العظام والخزف والدُّفُوف ونَحْوها؛ ليكتب عليها، وكان يقول: "ما أفلح في العلم إلاَّ مَنْ طَلَبه في القلَّة، ولقد كُنتُ أطلب ثمن القراطيس، فتعسر عليَّ".

ولم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من العُمر حين صار أستاذه مُسلم بن خالد الزّنجي ـ إمام أهل مكَّة ومُفتيها ـ يقول له: "أفت يا أبا عبد اللّه، فقد ـ واللّه ـ آن لك أنْ تُفتي"، وهكذا؛ اجتمع له في مكَّة النُّبوغ في اللُّغة والفقه والتّفسير. ولكنَّ همَّته في طلب العلم لم تقف به عند هذا الحَدِّ، فقد جاهد في سبيله، فكان كثير التّرحال. وكان العُلماء والفُقَهاء في ذلك العصر يشدُّون الرّحال إلى المدينة، ليروا عالمها المشهور مالك بن أنس ﷺ، وكان مالك صاحب مجلس في الحَرَم النَّبوي، فطرقت أخبار الإمام مالك أسماع عالمنا الشّافعي، فاشتاق لرُؤيته، وتلهَّف لسماع علمه، فحفظ كتابه المُوطَّأ، ورحل إلى المدينة، وهُناك لم يستطع أنْ

يظفر بالوُصُول إلى باب مالك إلاَّ بعد لأي وجهد، ونَظَرَ إليه مالك، وكانت له فراسة، فقال له: "يا مُحمَّد؛ اتَّق اللّه، واجتنب المعاصي، فسيكون لك شأن من الشّأن"، ثُمَّ قال له: "إذا ما جاء الغد تجيء، ويجيء مَنْ يقرأ لك"، قال الشّافعي: "فقلتُ: أنا قارئ، فقرأتُ عليه المُوطّأ حفظاً، والكتاب في يدَيَّ، فكُلّما تهيَّبتُ مالكاً، وأردتُ أنْ أقطع، أعجبه حُسْن قراءتي وإعرابي، فيقول: يا فتى؛ زِدْ. حتَّى قرأتُهُ عليه في أيَّام يسيرة. وقال: إنْ يكُ أحد يُفلح فهذا الغُلام". وبعد أنْ قرأ على مالك مُوطّأه، لزمه يتفقَّه عليه، ويُدارسه المسائل التي يُفتي بها الإمام الجليل، وتوطّدت الصّلة بينه وبين شيخه، فكان مالك يقول: "ما أتاني قرشي أفْهَم من هذا الفتى". وكان الشّافعي يقول: "إذا ذُكر العُلماء فمالك النّجم، وما أحدٌ أمَنُّ عليَّ من مالك". وبعد مُضي عشر سنوات على إقامته في المدينة؛ تُوفّي الإمام مالك. وأحسَّ الشّافعي أنَّه نال من العلم أشطراً، فاتَّجهت نفسه إلى عمل من أعمال الدّولة يتكسَّب به، بعد أنْ رهن داره، وعجزت أُمُّه عن معونته، فتولَّى عملاً بنجران من اليمن، وهُناك طفق يتردَّد على حلقات العلم، ويأخذ عن كبار العُلماء فيها، إلى أنْ وقع بينه وبين والي اليمن أثناء عمله شيء (بسبب ما أخذه عليه من الظُّلم) فوشى به الوالي إلى الخليفة هارون الرّشيد، الذي أمر بإحضاره إلى بغداد، (وفي محنته تفصيل سيأتي)، ولعلَّ هذه المحنة التي نزلت به قد ساقها اللّه ـ تعالى ـ إليه، ليصرف اهتمامه عن الولاية ونحوها، ويعود للاتّجاه بكُلّيَّته نحو العلم. وخرج الشّافعي ﷺ من التُّهمة التي نُسبت إليه، ليُطبِّق علمه وشُهرته الآفاق، فقد أصبح مُحمَّد بن الحَسَن تلميذ أبي حنيفة الذي آلت إليه رياسة الفقه في العراق أُستاذاً للشّافعي، تلقَّى عنه فقْه أهل الرّأي، ولَمَّا كان قد أخذ فقْه أهل الحديث عن مالك الذي آلت إليه رياسة الفقْه في المدينة فقد خرج من هذَيْن المذهبَيْن بمذهب يجمع بينهما، وهُو مذهبه القديم المُسمَّى بكتاب الحُجَّة (رواه عنه العديد من العُلماء، وكان الزّعفراني أتْقَنَهُم له رواية، وأحْسَنَهُم له ضبطاً). ثُمَّ قفل عائداً إلى مكَّة، وفي جعبته عُلُوم أهل الأرض في ذلك العصر بعد أنْ مضى عامان على إقامته في بغداد، وأخذ يُلقي دُرُوسه في الحَرَم المكِّي، والتقى به أكبر العُلماء في موسم الحجِّ، فكانوا يرون فيه عالماً هُو نسيج وحده، وفي هذه الأثناء التقى به أحمد بن حَنْبَل، قال إسحق بن راهويه: "لقيني أحمد بن حَنْبَل بمكَّة، فقال: تعال، أُريكَ

رجلاً لم ترَ عيناك مثله، فأراني الشّافعي. قال: فتناظرنا في الحديث، فلم أرَ أفْقَهَ منه، ثُمَّ تناظرنا في القُرآن، فلم أرَ أقرأ منه، ثُمَّ تناظرنا في اللُّغة، وما رأتْ عيناي مثله قطُّ، ومكث في مكَّة تسع سنوات، وهُناك ألَّف كتاب الرّسالة في علم أُصُول الفقْه.

ثُمَّ ارتحل ثانية إلى بغداد، وقد سبقته شُهرته إليها، وتَحَدَّثَ بذكْره المُحدِّثون والفُقَهَاء، ولُقِّب فيها بناصر الحديث، وأخذ ينشر آراءه الفقْهيَّة الأُصُوليَّة، ويُجادل على أساسها. وعقد في الجامع الغربي في بغداد حلقات العلم والفقْه، وأمَّهُ المُتعلِّمون والعُلماء، منهم المُمتحن، ومنهم المُستمع، ومنهم المُتعدِّ بمذهبه السّاحر بهذا المُتفقِّه الجديد على زَعْمه، فما يكادون يجلسون إليه ويستمعون له حتَّى يرجعوا عن قولهم، ويتركوا ما كانوا فيه، ويتبعوه، ومازال الشّافعي يصول ويجول، ويأتي كُلَّ يوم بجديد من فَهْم كلام اللّه، وفقْه حديث رسول اللّه ﷺ حتَّى حمل العُلماء على الإقرار بعلمه، وظهر أمره بين النّاس، وانفكَّت حلقات المُخالفين، حتَّى إنَّ أحدهم قال: "قدم الشّافعي بغداد وفي الجامع الغربي عشرون حلقة لأصحاب الرّأي، فلمَّا كان يوم الجُمعة لم يثبت منها إلاَّ ثلاث حلق أو أربع" وفي هذه القدمة، التي دامت عامَيْن، أعلن ﷺ كُتُبه، وقد أنْضَجَتْها الدّراسة والمُراجعة، ونَشَرها بين صحابته.

تَكَرَّرَتْ رحلات الشّافعي بين مكَّة وبغداد، وكانت خاتمة رحلاته إلى مصر، التي كان الدّافعُ إليها مَيْلَهُ للابتعاد عن مركز الخلافة والسِّياسة، وذلك بناء على دعوة والي مصر له، وانتهى به المطاف هُناك، وأملى مذهبه الجديد في كتابه "المبسوط"، الذي اشتهر - فيما بعد - باسم كتاب "الأُمّ"، وأعاد النَّظَر في آرائه وكُتُبه ومُؤلَّفاته، فَجَدَّدَ بعضها، ونسخ بكتابه المصري كتابه البغدادي، (المذهب الجديد هُو المُعتمد، وعليه العمل، إلاَّ أنَّ هُناك مسائل مُعيَّنة قد اختارها فُقَهَاء المذهب من القديم، ورجَّحوا الإفتاء بها، وَتَركوا الجديد فيها، ولقد أحصاها بعضهم بأربع عشرة مسألة، وبعضهم باثنتَيْن وعشرين مسألة، وهي منثورة في كُتُب المذهب)، وقال ﷺ: "لا أجعل في حلٍّ مَنْ روى عنِّي كتابي البغدادي".

وكان النّاس في مصر على مذهب الإمام مالك، فقدَّموا الشّافعي، واستمعوا إليه، وافتتنوا به. وقَصَدَهُ كثيرون من الشّام واليمن والعراق وسائر الأقطار للتَّفقُّه عليه.

آثاره:

الكُتُب التي تَركَها الشّافعي قسمان:

1) قسم يذكره المؤرِّخون منسوباً للشّافعي، مثل كتاب "الأُمّ"، والمرجَّح أنَّه دوَّنه بنفسه، وكتاب "الرّسالة".

2) قسم يذكرونه منسوباً إلى أصحابه على أنَّه تلخيصٌ لكتُبه، مثل "مُختصر البويطي"، و"مُختصر المزني"، وللشّافعي ﷺ في القسم الأوَّل المعنى والصّياغة، وله في الثّاني المعنى فقط.

شيُوخه:

تلقَّى الشّافعي الفقْه والحديث على شُيُوخ تباعدت أماكنهم، وتخالفت مناهجهم، فَجمَعَ فقْه أكثر المذاهب التي كانت في عصره، (وقد روى عن كثير من المشايخ، أشهرهم تسعة عشر: خمسة مكِّيَّة، وستَّة مَدَنيَّة، وأربعة يمانيَّة، وأربعة عراقيَّة)، وتلقَّى فقْه مالك عليه، وتلقَّى فقْه الأوزاعي عن صاحبه عُمر بن أبي سلمة من أهل اليمن، وتلقَّى فقْه اللَّيث ابن سعد فقيه مصر عن صاحبه يحيى بن حسَّان، ثُمَّ تلقَّى فقْه أبي حنيفة عن مُحمَّد بن الحَسَن فقيه العراق، وبذلك؛ يكون قد بَرَعَ في مدرسة الحديث في المدينة، ومدرسة الرَّأي في العراق. وكان ثمَّة مدرسة ثالثة تُعنى بتفسير القُرآن، وهي مدرسة مكَّة التي اتَّخَذَها ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - مقاماً له، وقد جعل الشّافعي ابن عبَّاس مَثَلَهُ الكامل، وترسَّم خُطاه، وسار في مثل سبيله. وانساغ كُلُّ ذلك العلم الكثير في نَفْس الشّافعي، فقدَّمه للنّاس في بيان رائع، وقَوْل مُحكَم.

محنته ووفاته:

اتُّهم الشّافعي ﷺ بالتَّشيُّع، وحيكت له المؤامرات في قصر الخليفة هارون الرّشيد، حتَّى بَعَثَ في طَلَبه، وسيقَ - وهُو في الرّابعة والثّلاثين من عُمره - في أقياده مع تسعة من العَلَويِّين إلى الرّشيد، وهُناك ضُربت رقاب العَلَويَّة التّسعة أمام الشّافعي واحداً بعد آخر، حتَّى جاء دوره، وكان مُحمَّد بن الحَسَن القاضي عند هارون الرّشيد حاضراً، واستطاع الشّافعي بذكائه وسُرعة خاطره أنْ يستميل إليه قلب الخليفة، وعقله، وأنْ يُقنعه ببراءته،

وأسلمه الخليفة للقاضي مُحمَّد ابن الحَسَن، وكان العلم رحماً بين أهله، ودافعَ عنه القاضي، وساهم في خلاصه، وقال فيه: "وله من العلم محلٌّ كبير، وليس الذي رفع عليه من شأنه"، وبرئت ساحة المُتَّهم، وأمر له الرّشيد بعطاء قدره خمسون ألفاً.

وفي آخر ليلة من رجب سنة أربع ومائتَيْن للهجرة انتقلت رُوحه الطّاهرة إلى ربِّها، عن أربع وخمسين سنة. وفي عصر اليوم التّالي؛ خَرَجَتْ مئات الأُلُوف تنقل الشّافعي إلى مثواه الأخير في القرافة بمصر.

أشهر تلاميذه وحَمَلَة مذهبه ورُواة كُتُبه:

خلَّف الشّافعي من تلاميذه أركاناً في العلم، يرعون علْمه، وينشرونه، ويُنافحون عنه. من هؤلاء:

في مكَّة: أبو بكر الحميدي؛ وكان فقيهاً، مُحدِّثاً، ثقة، حافظاً.

وفي العراق: أبو عليّ الحَسَن الصبَّاح الزّعفراني؛ ولم يكن بين تلاميذ الشّافعي أفصح منه لساناً، ولا أبصر منه باللُّغة العَرَبيَّة، وكان الزّعفراني راوي كُتُب الشّافعي في العراق. وأبو عليّ الحُسَين بن عليّ الكرابيسي؛ وكان عالماً مُصنِّفاً مُتقناً، وأبو ثور الكلبي، وأبو عبد الرّحمن أحمد بن مُحمَّد بن يحيى الأشعري البَصْري؛ وكان يُوصف بالشّافعي؛ وهُو أوَّل مَنْ خَلَفَهُ في العراق.

ومِمَّنْ أخذ عن الشّافعي، وإنْ لم يُعرَف بالتّبعيَّة له في مذهبه: الإمام أحمد بن حَنْبَل، أحد الأئمَّة الأربعة، وقد قال فيه الشّافعي: "خَرَجْتُ من بغداد، وما خَلَّفْتُ فيها أفْقَهَ، ولا أوْرَعَ، ولا أزْهَدَ، ولا أعْلَمَ، من أحمد"، وأيضاً؛ إسحق بن راهويه.

وفي مصر: حرملة بن يحيى؛ وروى عن الشّافعي من الكُتُب ما لم يروه الرّبيع، وأبو يعقوب يُوسُف بن يحيى البويطي: وقد استخلفه الشّافعي في حلقته، وأثَره على مُحمَّد ابن عبد الله بن الحَكَم، مع عظيم محبَّته لابن الحَكَم، ولكنَّه قدَّم الحقَّ على الأُخُوَّة والمحبَّة، كشأنه رحمه الله دائماً. قال: "ليس أحد أحقُّ بمجلسي من يُوسُف بن يحيى، وليس أحد من أصحابي أعلم منه"، وكان البويطي عالماً، فقيهاً، زاهداً، تُوفِّي في سجنه في محنة القول

بخَلْق القُرآن. وأبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني: وكان فقيها عالماً عابداً عارفاً بوُجُوه الجَدَل، حَسَنَ البيان. قال عنه الشّافعي - وهُو في سنّ الحَدَاثة -: "لو ناظر المزنيُّ الشّيطانَ لقطعه"، كما قال فيه: "المزني ناصر مذهبي"، وله في مذهب الشّافعي كُتُب كثيرة منها: المختصر، والمُختصر الصّغير. والرّبيع بن سُليمان المُرادي المُؤذِّن: راوية كُتُب الشّافعي وخادمه، صحب الشّافعي طويلاً، وأخذ عنه كثيراً، وخَدَمَهُ، واشتهر بصُحبته، وهُو آخر مَنْ روى بمصر عنه، وكان يروي بصدق وإتقان، فكانت الرّجال تشدُّ إليه الرّحالَ، لطَلَب كُتُب الشّافعي.[1]

فقْه المذهب الشّافعي:

كان الشّافعي من أصحاب مالك، يُدافع عن آرائه، حتّى سُمِّي ناصر الحديث. وبعد قُدُومه إلى بغداد عمل على المزج بين فقْه أهل العراق وفقْه أهل المدينة، فبدأ دراسة آراء مالك ناقداً فاحصاً، ثُمَّ قصد مكَّة، وهُناك اتَّخذَ له حلقةً للدّرس في المسجد الحرام، فابتدأ مذهبُه يتبلور شيئاً، فشيئاً.

بدأ الشّافعي دراسة الأحاديث، وإسنادها، ونَسْخَ بعضها بعضاً، ثُمَّ درس أدلّة القُرآن مع أدلّة السُّنَّة، فترَكَ أحمد بن الحَنْبَل حلقة ابن عيينة، ولزم حلقة الشّافعي، وقال: «ما رأيتُ أحداً أفْقَهَ في كتاب الله من هذا الفتى القرشي». ثُمَّ كتب الشّافعي رسالته إلى عبد الرّحمن بن مهدي في معاني القُرآن. وفي ذلك يقول الكرابيسي: «ما كُنَّا ندري ما الكتاب، ولا السُّنَّة، ولا الإجماع، حتَّى سمعنا الشّافعي يقوم بها»[2].

وفي بغداد؛ استعرض آراء الفُقَهَاء، وآراء الصّحابة، والتّابعين، كما استعرض خلافَ بعض الصّحابة، وَسَبَبَهُ، ودَرَسَ الآراءَ المُختلفة، وطبَّقها على ما انتهى إليه من أُصُول،

---

(1) مراجع هذه التّرجمة مُلخَّصة من الكُتُب التّالية:

1 - مُحمَّد أبو زهرة: "الشّافعي، حياته وعصره - آراؤه وفقْهه". دار الفكْر العَرَبي - ط الثّانية.

2 - البوهي، مُحمَّد لبيب: "الإمام الشّافعي".

3 - عبد الغني الدّقر: "الإمام الشّافعي، فقيه السُّنَّة الأكبر"، دار القلم: دمشق - بيرُوت، ط الأُولى 1972م.

(2) الشّافعي: 158.

واختار من بينها ما هُو أقرب إلى أُصُوله ، أمّا في مصر ؛ فقد أعاد دراسة آرائه السّابقة ، وأعاد كتابة رسالته .

بعد أنْ استقلّ الشّافعي بطريقته في الاجتهاد والفتيا والبحث بدأ في تأليف الكُتُب ، وتدوين المبادئ التي وَضَعَهَا للاستنباط ، ووَضَعَ آراءه في المسائل المُختلف فيها ، ثُمّ دوّن السُّنن والاختلاف بين الصّحابة .

فمن كُتُبه "الرّسالة" الذي يُعتبر أوّل مُؤلَّف شامل في أُصُول الاستنباط من النُّصُوص أو ما أصبح يُعْرَف ـ فيما بعد ـ باسم "علم أُصُول الفقه" ، وكتاب "الحُجَّة" ؛ وهُو ما سُمِّيتْ به كُتُبه التي كَتَبَها في العراق بالفقْه والفُرُوع . أمّا في مصر ؛ فقد أعاد النَّظَر في جميع ما ألَّفه ، فَغَيَّرَ ، وبَدَّلَ ، وقيل إنَّه ألَّف موسوعته الفقْهيَّة الكبيرة ؛ أيْ "كتاب الأُمّ" في مصر . ورُوي عنه كتاب "السُّنن" ، و"الأمالي الكُبرى" ، و"الاملاء الصّغير" .

علم الشّريعة:

أمّا علم الشّريعة ؛ فقد قسمه الشّافعي إلى قسمَيْن :

1 ـ علم العامَّة : وما هُو يجب معرفته من قبَل كُلّ مُسلم ؛ وهُو التكاليف المفروضة ، كالصّلاة ، والصّيام ، والزّكاة ، وتحريم الزّنا والقتْل والميتة ، وغيرها ، وهُو موجود في القُرآن نصّاً لا تأويل فيه ، وفي السُّنَّة المُتواترة .

2 ـ علم الخاصَّة : وهُو علم فُرُوع الشّريعة التي ليس فيها نصٌّ من كتاب ، أو فيها نصٌّ يحتمل التّأويل ، ولا فيها نُصُوصٌ مُتواترةٌ عن الرّسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) . . . . .

أدلّة الأحكام:

يعتبر الشّافعي أنَّ العلم خمسة أنواع مُرتَّبة على خمس مراتب هي :

1 ـ الكتاب: لقد تصدّى الشّافعي لِمَنْ اعتبر بأنَّ القُرآن ليس عَرَبيّاً خالصاً لوُرُود بعض الكلمات الأعجميَّة فيه ، ورَدَّ على هؤلاء بإثبات عَرَبيَّة القُرآن ، مُورداً الآيات الدّالَّة على عَرَبيَّته . وبنى على ذلك نتائج في الأحكام الشّرْعيَّة والاستنباط ؛ وهي وُجُوب تعلُّم العَرَبيَّة

على كُلِّ مُسلم، حتَّى يستطيع أنْ يشهد «أنْ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ مُحمَّداً رسول الله» ويتلو الكتاب. ويرى عدم جواز عَقْد الزّواج بغير العَرَبيَّة للقادر عليها.

وفي القُرآن عامٌّ وخاصٌّ: فالعامُّ هُو الاسم الذي يدلُّ على أشياء مُتغايرة في العدد، مُتَّفقة في المعنى، والخاصُّ ما يدلُّ على بعض ما يدلُّ عليه مفهوم العامِّ. وقد يكون الخاصُّ عاماً، وهذا ما يُعرِّفُهُ بعض عُلماء الأُصُول. والقُرآن مصدر المصادر للشّريعة الإسلاميَّة.

2 ـ السُّنَّة: اعتبر الشّافعي السُّنَّة مُفصِّلة للقُرآن تفصيلاً؛ إمَّا في مُجمله، أو تعييناً في معنى يحتمله. ويشترط في قبول أخبار الآحاد شُرُوطاً وثيقة في الرّاوي يجب توفُّرها حتَّى ينتهي الحديث إلى النّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم). ويقبل الحديث المُرسل، ويعتبره حُجَّة دُون حُجَّة السَّنَد، مُقيِّداً قبوله بشُرُوط. وأثبت أنَّ النَّسْخَ يكون في الكتاب، ويكون في السُّنَّة مُنفردَيْن، ولا يُمكن أنْ تنسخَ السُّنَّةُ الكتابَ، ولو كانت عامَّة أو مُشتهرة.

3 ـ الإجماع: الإجماع عند الشّافعي حُجَّة؛ خاصَّة إجماع الصّحابة؛ وهُو عنده قبل القياس، وأضعف في الاستدلال من الكتاب والسُّنَّة.

4 ـ أقوال الصّحابة: أخذ الشّافعي بقول الصّحابة بعد الكتاب والسُّنَّة والإجماع، وقدَّمه على القياس. ويأخذ بقول أحدهم إنْ لم يكن مُخالفاً، وإنْ وَجَدَ قولاً لأحدهم لا يعلم له مُخالفاً اتَّبعه، وإنْ وجدهم مُختلفين اختار منها ما هُو أقرب إلى الكتاب والسُّنَّة.

5 ـ القياس: يُعتبر الشّافعي أوَّل مَنْ وَضَعَ ضوابط للقياس، مُبيِّناً أُسُسه، فقد رَسَمَ حُدُوده، ورتَّب مراتبه، مُحدِّداً الشُّرُوط الواجب توفُّرها في الفقيه الذي يقيس. والقياس في نَظَره هُو الاجتهاد. قال الشّافعي: «إذا أَمَرَ النّبيُّ بالاجتهاد، فالاجتهاد لا يكون إلاَّ على طلب شيء. وطَلَب الشّيء لا يكون إلاَّ بدلائل، والدّلائل هي القياس»، ويُمنَعُ الاجتهاد بالرّأي إذا لم يكن نصٌّ من كتاب أو سُنَّة يُقاس عليها؛ لأنَّ المُجتهد يكون قد أخذ فيه بما يُستحسن، لا بما أعطاه الدّليل بنصِّه، أو بدلالته. وإنَّ الاجتهاد بطريق الاستحسان من غير الاعتماد على نصٍّ ثابت هُو اجتهاد باطل لا يمتُّ إلى الشَّرْع بصلة. لذلك؛ نُقل عن الشّافعي قوله: «مَنْ استحسن فقد شرَّعَ».

(4) المذهب الحَنْبَلي:

الإمام أحمد بن حَنْبَل (164 ـ 241 هـ):

وُلد الإمام أحمد بن حَنْبَل بن هلال بن أسد في بغداد، وهُو عَرَبيٌّ شيبانيٌّ (نسبة لبني شيبان) مَرْوَزيٌّ الأصل (نسبة لمدينة مرو الرّوذ شمال خراسان).

نشأته العمليَّة ومنهجه وأهمُّ عقائده:

عاش أحمد يتيماً، ولكنَّ أُسرته لاحظتْ ـ مُنذُ صغره ـ شَغَفَهُ في الدِّين، فعملت على أنْ يكون عالمَ دينٍ. فتعلَّم اللُّغة والقُرآن والحديث، وعَلِمَ بمآثر الصّحابة والتّابعين وأحوال الرّسول ﷺ وسيرته، وتفقَّه بالدِّين.

تميَّز من أقرانه بالتّقوى، والعناية بالعمل، والصّبر، والجَلَد، والانصراف عن الدُّنيا، فذاع صيته، واشتهر، ورُوي عن الشّافعي قوله: «ثلاثة من عجائب الزّمان: عَرَبي لا يعرب كلمة؛ وهُو أبو ثور، وأعجمي لا يُخطئ في كلمة؛ وهُو الحَسَن الزّعفراني، وصغير كُلَّما قال شيئاً صدَّقه الكبار؛ وهُو أحمد بن حَنْبَل». ورُوي عن الشّافعي ـ أيضاً ـ أنّه قال لمّا غادر العراق إلى مصر: «خَرَجْتُ من بغداد، وما خلَّفْتُ فيها أتقى ولا أفْقَهَ من أحمد بن حَنْبَل».

انقطع للعلم بعيداً عن السِّياسة، واختار أنْ يعيش مع السَّلف الصّالح، فَوَصَفَهُ بعض مُعاصريه «بأنَّه تابعيٌّ تخلَّف عن الزّمن»[1].

بعد أنْ استكمل تكوينه العلمي؛ دَرَسَ فقه الرّأي، واختار طريق الصّحابة والتّابعين، وقام برحلاتٍ مُتعدِّدةٍ إلى أكثر مراكز العلْم في ذلك العصر؛ كبغداد والبَصْرَة والحجاز؛ حيثُ التقى الشّافعي، فصار من أصحابه وخواصّه، ولم يزل صاحبه إلى أنْ ارتحل الشّافعي إلى مصر. آل على نفسه أنْ لا يترك العلم حتّى وفاته، وفي ذلك يقول: «مع المحبرة حتّى المقبرة».

دَوَّنَ الأحاديث، ولم ينطق بها إلاّ كما دوَّنها في كُتُبه، ولا يأخذ الحديث إلاّ إذا كان الرّاوي لا يزال حيّاً يُمكن أنْ يُلاقيه، بل ويُسافر إليه، إنْ أمكن السّفر.

---

(1) أحمد بن حَنْبَل بين محنة الدِّين والدُّنيا: ص 85.

لم يُحدِّث قبل أنْ يبلغ الأربعين اقتداء برسول الله ﷺ الذي بُعثَ وهُو في الأربعين، ولأنّه كره أنْ يفعل ذلك وشُيُوخه أحياء. وقيل: إنّه كان يحفظ ألف ألف (أيْ مليون) حديث!

كان تلاميذه كُثُر، وله مجلسان: أحدهما في منزله للخاصّة وأولاده، والثّاني في المسجد يحضره العامّة بعد العصر عادةً.

حياته حياةٌ سَلَفيَّةٌ خالصةٌ، وعلْمه وفقْهه علم السُّنَّة وفقْهها. ولم يقبل هديَّة أو مالاً من خليفة.[1]

تجنَّب أحمد الثّورات والفتن، وآثر الطّاعة لإمامٍ مُتغلّبٍ على الخُرُوج على الجماعة، عملاً بالسُّنَّة والسَّلَف من الصّحابة والتّابعين، متَّفقاً ـ بذلك ـ مع مالك في ترتيب منازل الصّحابة، وفي اختيار الخليفة. ويرى أنَّ مَنْ يسبّ أحداً من الصّحابة مشكوك في إسلامه.

وقد رتَّب الصّحابة بقوله: «خير الأُمَّة بعد نبيِّها أبو بكر الصّدّيق، ثُمَّ عُمر بن الخطّاب، ثُمَّ عُثمان بن عفّان، ثُمَّ بعد هؤلاء أصحاب الشُّورى الخمسة عليّ، والزُّبير، وطلحة، وعبد الرّحمن، وسعد. وكُلُّهم يصلح للخلافة، وكُلُّهم إمام. ثُمَّ بعد هؤلاء أهل بدر من المُهاجرين، ثُمَّ أهل بدر من الأنصار، ثُمَّ سائر الصّحابة».

ويعترف بخلافة الإمام عليّ، ويعتبرها شَرْعيَّة ويقول: «مَنْ لم يُثْبت الإمامة لعليٍّ فهُو أضلُّ من الحمار». وروى فضائل عليّ في الصّحاح، وقال: «وما لأحد من الصّحابة من الفضائل بالأسانيد الصّحاح مثل ما لعليّ».

ونهى عن الخُرُوج بالسّيف، وأنَّ صلاح الرّعيَّة يُؤدِّي إلى صلاح الرّاعي، فإذا استقام الشّعب على الجادَّة، وأقام السُّنَّة، واستمسك بأوامر الدِّين.. كان الحُكّام صالحين.

وعكف أحمد على دراسة السُّنَّة وحدها، وعلم الدِّين، وفقْهه، عن طريق المأثور عن رسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، فلم يتبع المُتشابه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله.

والإيمان عنده هُو قَوْلٌ وعَمَلٌ يزيد وينقص، والبرُّ كُلُّه من الإيمان. والمعاصي تُنْقص من الإيمان. والمُؤمن مَنْ شهد أنْ لا إله إلاّ الله وحده، لا شريك له، وأنَّ مُحمَّداً عبده

---

(1) ترجمة الإمام أحمد بن حَنْبَل مُلتقطة من تاريخ ابن خلكان، والطّبقات الكُبرى للشّعراني، وحلية الأولياء للأصفهاني: 9/ 162، وغيرها.

ورسوله، وأقرَّ بجميع ما أتى به الأنبياء والرُّسُل، وعقد قلبه على ما ظهر من لسانه، ولم يشكَّ في إيمانه. ومَنْ مات عاصياً ليُفوِّض أمره إلى ربِّه، إنْ شاء عفا عنه، وإنْ شاء عذَّبه. ولا نشهد على أهل القبلة بعمل يعمله أحدهم بجنَّة ولا نار، وإنَّما نرجو للصَّالح، ونخاف على المُسيء المُذنب، ونرجو له رحمة الله. وفي دُستُور الإيمان: لا يُكفَّر أحد من أهل التَّوحيد، وإنْ عملوا بالكبائر[1] وقد آمن أحمد إيماناً عميقاً بالقضاء والقَدَر خيره وشرِّه، كما يُقرِّر أنَّ الله ـ سُبحانه ـ يعلم بكُلِّ شيء، ويقدر على كُلِّ شيء، وما يفعله الإنسان فبقُدرة الله وإرادته، ولا يقع في الكون شيء لا يُريده الله.

كَتَبَ لبعض أصحابه: «لستُ بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيءٍ من هذا، إلاَّ ما كان في كتابٍ أو حديثٍ عن رسول الله أو عن أصحابه. فأمَّا غير ذلك؛ فالكلام فيه غير محمُود»[2]. فالله ـ عَزَّ وجَلَّ قديمٌ ـ لا أوَّلَ له، وكذلك صفاته، ومنها صفة الكلام، وقال في صفات الله تعالى: «هذه الأحاديث نرويها كما جاءت». وكلام الله ـ تعالى ـ أزليٌّ غير مخلوق، وهُو وَحْدَةٌ مُتَّصلة مُنزَّهة معصومة. والقُرآن عنده غير مخلوق، وهُو حادث بحُدُوث التَّكلُّم من الله بمشيئته وإرادته عندما تكلَّم وأنزل على النَّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) كلامه بالرُّوح الأمين. وقد كلَّفه ثباته على قوله بقِدَم القُرآن، وأنَّه غير مخلوق سجناً طويلاً، وجَلْداً بالسِّياط، وإيذاءً زمن المأمون العبَّاسي، ولمَّا سأله بعضهم: لماذا لا تأخذ برُخصة التَّقيَّة كما فعل غيرك؟ قال: «إذا أجاب العالم تقيَّةً، والجاهل بجهلٍ، فمتى يتبيَّن الحقُّ؟».

كان أحمد يكره تدوين المسائل، ويحضُّ على كتابة الأثر، ولهذا؛ نهى أصحابه وسامعيه عن كتابة الفقْه، وقال: «لا تنظروا فيما وَضَعَ إسحق، ولا سُفيان، ولا الشَّافعي، ولا مالك. عليكم بالأصل.». وذلك خوفاً من انصراف النَّاس عن علم الحديث والآثار إذا دُوِّنت آراء الفُقَهَاء.

بدأ أحمد جَمْعَ الأحاديث وهُو في السَّادسة عشرة من عُمره، وبقي طيلة حياته يجمع الحديث، وقد جَمَعَ مُسنده الذي اشتمل على ثلاثين ألف حديث، وقيل إنَّها أربعون ألف

---

(1) راجع المذاهب الفقهيَّة: ص344.

(2) ابن حَنْبَل: 130.

ويزيد، منها عشرة آلاف حديث مُكَرَّرَة [1]. ولم يتَّجه إلى التّرتيب والتّبويب والتّنظيم للأحاديث، بل انصرف إلى الجَمْع والتّدوين، وقال: «عملتُ هذا الكتاب إماماً، إذا اختلف النّاس في سُنَّةٍ عن رسول الله ﷺ فارجعوا إليه، فإنْ كان، وإلاَّ فليس بحُجَّة» [2] ولكنَّ أحاديثه لم تبلغ في الصّحَّة مبلغ البُخاري ومُسلم. وقد روى المُسند ابنُهُ عبدُ الله الذي رتَّب المُسند، ثُمَّ أُعيد ترتيبه من بعده. وفي المُسند أحاديث كثيرة ضعيفة. قال العراقي: «إنَّ في المُسند أحاديثُ ضعيفةٌ كثيرةٌ وأحاديثُ موضوعةٌ قليلةٌ». ونُقل عن الشّيخ تقي الدِّين ابن تيميَّة أنَّ الذي وقع فيه من هذا هُو من زيادات القطيعي، لا من رواية الإمام أحمد، ولا من رواية ابنه عبد الله عنه، وقد ألَّف الإمام ابن حجر العسقلاني كتاباً سمَّاه "القول المُسدَّد في الذَّبِّ عن المُسند للإمام أحمد"، أثبت فيه قول ابن تيميَّة من أنَّ أصل المُسند الذي رواه الإمام أحمد وابنه عبد الله (دُون الزّيادات التي زادها القطيعي فيما بعد) ليس فيه - حسب دراسته - أيّ حديث موضوع [3].

فقه المذهب الحَنْبَلي:

كانت فتاوى أحمد تعتمد على الأحاديث والأخبار والآثار المنقولة عن السَّلف الصّالح، ثُمَّ أفتى بالمصلحة إنْ أعوزه النَّصُّ أو الأثر المُتَّبع، وأكْثَرَ الفقهُ الحَنْبَليُّ من الأخذ بأصل الذّرائع، وجعل للوسائل حُكْمَ غاياتها، وللمُقدِّمات حُكْمَ نتائجها. وبنى أحمد فتاويه على النُّصُوص، وفتوى الصّحابة، والقياس، والإجماع، والاستصحاب الذي يعتبره الحنابلة أصلاً من أُصُول الفتيا، ويتوسَّعون فيه، كما أخذ بالمصالح المُرسلة، وسَدِّ الذّرائع [4].

وقد وَضَعَ الإمام أحمد بعض الكتابات في موضوعات فقْهيَّة ككتاب المناسك الكبير، وكتاب المناسك الصّغير، ورسالة صغيرة في الصّلاة. وله رسائل يُبيِّن فيها مذهبه في القُرآن، والرَّدّ على الجُهَميَّة والزّنادقة.

---

(1) راجع ضُحى الإسلام: 122 - المحنة 237.

(2) ترجمة الإمام أحمد في طبقات ابن السّبكي الكُبرى، مأخوذة من مُقدِّمة مُسند الإمام أحمد: ص 9.

(3) انظر مُقدِّمة كتاب "القول المُسدَّد في الذَّبِّ عن المُسند للإمام أحمد" ج1/ ص 4.

(4) راجع أسباب اختلاف الفُقَهاء: 46.

مُميِّزات الفقْه الحَنْبَلي:

يتميَّز الفقْه الحَنْبلي بالمميِّزات التّالية :

- اعتماده في الفتاوى على الأحاديث ، والأخبار ، وآثار السَّلَف الصّالح .
- ابتعاده عن الافتراضات ، وعدم الفتوى ، إلاَّ فيما يقع من الأُمُور .
- إطلاق حُرِّيَّة التّعاقد ، وَوَضْع الشُّرُوط التي يلتزم بها المُتعاقدان .

ثالثاً: التَّصوُّف:

ليس التَّصوُّف فرقةً دينيَّةً أومذهباً بالمعنى الضَّيِّق للكلمة ، إنَّما هُو مذهبٌ رُوحيٌّ وُجد ضمن كُلّ دينٍ ، اتَّخَذَه فئة من النّاس سُلُوكاً في العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، مُعرضين عن مباهج الحياة الدُّنيا وملذَّاتها وبهرجها ، مُقبلين إلى حياة التَّبتُّل والتَّأمُّل ، ضمن نظام تربوي خاصٍّ ، ورياضات رُوحيَّة ، تصل بصاحبها لمقام العرفان بالله ، واكتشاف الحقيقة ، ولمسها شُعُوريّاً في القلب والرُّوح . فالتَّصوُّف منهج تربوي رُوحي الغرض منه تصفية القلب عن غير الله ، والصُّعُود بالرُّوح إلى عالم التّقديس بإخلاص العُبُوديَّة للخالق ، والتَّجرُّد عمَّا سواه . وهذا المذهب قديم كقدَم النّزعة التي أوْجَدَتْهُ ، فإنَّ الإنسان ـ مُنذُ أُلوف من السّنين ـ أدرك أنَّ خلف هذه الغلف الجسدانيَّة سرّاً مكنوناً لا يستثيره إلاَّ التَّحكُّم التّامُّ بهذا البَدَن ، وبالشّهوات ، وعبر الرّياضات الرُّوحيَّة والمُجاهدات ، توصُّلاً إلى صفاء الرُّوح ، وتنقية السِّرّ ، وإضعاف سطوة الجسد وسُلطانه عليه ، لتشرق الرُّوح ، وتُضيء مكامنها ، مُكتشفةً الحقيقة الوُجُوديَّة . وقد وُجدَ هذا الاتّجاه في كُلّ أُمَّة راقية ، ولبس شكلاً مُناسباً لعُقُولها وأفكارها وتعاليمها ، فهُو معروف مُنذُ القدم في الهند ، وفي الصّين وفارس ، كما نشأ ضمن اليهُوديَّة والمسيحيَّة .

فليس التَّصوُّف في الإسلام إلاَّ انعكاساً طبيعياً لتلك النّزعة الرّاسخة في عُمق الوُجُود الإنساني ، والتي تُشكّل ـ في الواقع ـ لُبَّ الدِّين ورُوحه ، والذي ظهر لدى جماعات من المُسلمين مالوا إلى الزُّهد ، والانقطاع إلى الله ، والإقبال بالكُلِّيَّة عليه ، ومُحاربة النّفس والهوى ، ومُمارسة الرّياضات الرُّوحيَّة الإسلاميَّة التي أهمّها الإكثار من الذِّكْر والعبادة ، وقيام اللّيل ، والمُناجاة بالأسحار ، وقراءة القُرآن ، والاقتصاد في المأكل والمشرب والنّوم ،

والاعتكاف والعُزلة في أوقات مُعيَّنة، والخلوة والتأمُّل ضمن نظام مُعيَّن.. إلخ، ذلك كُلُّه عشقاً لله ـ تعالى ـ وطَلَباً لمعرفته، والوُصُول إليه عزَّ وجَلَّ.

اصالة التَّصوُّف الإسلاميَّة:

حاول بعض المُستشرقين وبعض مَنْ تبعهم من الكُتّاب المُسلمين تلمُّس تأثيرات فارسيَّة أو هنديَّة.. إلخ، لتبرير نشأة التَّصوُّف في الإسلام، (وأؤكِّد على كلمة النّشأة) وفي اعتقادي مُحاولاتهم هذه سَعْيٌ عَبَثيٌ ينمُّ عن تعصُّب أو جهل، ولا يخلو ـ أحياناً ـ من خُبث؛ لأنَّه يكتنز داخله فكرة أنَّ الإسلام دين جافٌّ فقير في الرُّوحانيَّات، فإذا وُجد فيه تيَّار رُوحاني عارم كالتَّصوُّف فلابُدَّ من البحث عن تأثير خارجي أوْجَدَهُ!!

إنَّه ليس من الصّعب على أيّ مُنصف ومُطَّلع اطّلاعاً بسيطاً على نُصُوص الإسلام أنْ يجد بُذُور الاتّجاه الصُّوفي في لُبّ تعاليم القُرآن الكريم وسُنَّة وسيرة خاتم النّبيّين (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، والشّواهد على ذلك كثيرة أكتفي بذكْر بضعة أمثلة:

ـ فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ في وصف زوال الدُّنيا وتفاهتها: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ الكهف/ 46.45.

ـ وحول الحُبّ الإلهي يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ آل عُمران/ 31، أو ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ المائدة / 54.

ـ وحول مُجاهدة النّفس ومُحاربة الهوى يقول سُبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ العنكبوت/ 69. ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ النّازعات/ 40 ـ 41.

وحول التّقوى وأنّها تُورث صاحبها صفاءً للباطن، واستشرافاً للحقّ يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الأنفال/ 29. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ البقرة/ 282.

ـ وحول كثرة الذِّكْر والتَّبتُّل والانقطاع إلى الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ الأحزاب/ 41 ـ 43، ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ المزمل/ 8 ـ 9.

ولا يتَّسع المقام لاستقصاء الشّواهد، وإلاّ خرجنا عن موضوع الكتاب، وأمَّا دلالات التَّصوُّف من الأحاديث النَّبويَّة الشّريفة ومن سيرته وأحواله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، فهي أكثر من أنْ تُحصى. .

لذا؛ نقول: إنَّه من الطّبيعي جداً أنْ يبرز هذا الاتِّجاه والميل لدى فريق من المُسلمين انطلاقا من تعاليم دينهم وقُرآنهم المجيد وسيرة وسُنَّة نبيِّهم الكريم (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وسَلَفهم الصّالح رضي الله عنهم، من جهة، ومن الجهة الأُخرى؛ كتعبير فطري عن ذلك الشّوق الصُّوفي الذي زَرَعَهُ اللهُ فيهم. ومن العوامل التي تُزكِّي نُمُوَّ هذا الاتِّجاه لدى جماعات من المُتديِّنين ما يرونه من انتشار الإقبال على الدُّنيا والتّكالب على المادَّة وقسوة القُلُوب في المُجتمع، وعدم التزام عامَّة النّاس من الدِّين إلاَّ أُمُوراً سطحيَّةً والتزامات ظاهريَّة، أو نزاعات سياسيَّة، وصراعات حزبيَّة، أُلبِسَت لباس الدِّين، فيشعرون بالغُربة في مثل هذا الجوِّ، ويقوى فيهم النُّزُوع لذلك الاتِّجاه الصُّوفي.

فالتَّصوُّف الإسلامي لا يحتاج لتأثيرات خارجيَّة في نشأته، وإنَّما نَشَأ في بيئة إسلاميَّة صرفة، ونَبَتَ من بذرة دينيَّة إسلاميَّة محضة، وتشرَّب من آيات القُرآن الكريم، وسُنَّة سيِّد المُرسلين (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم).

نعم؛ التَّصوُّف مثله مثل سائر التَّيارات الإسلاميَّة، التي نشأت في بدايتها في بيئة إسلاميَّة وبتأثير عوامل داخليَّة محضة؛ لكنَّها عندما نَمَتْ، وتوسَّعتْ، بدأت تتفاعل مع الحضارات المُجاورة لدى اتِّساع رُقعة الإسلام، فكان من الطّبيعي أنْ يحصل بينها وبين أفكار تلك الحضارات تلاقُحٌ فكري وتأثيرات حضاريَّة مُتبادلة... وهذا ينطبق على علم العقائد، والكلام، وعلى الفقه، وعلى الفلسفة الإسلاميَّة، بل حتَّى على عُلُوم الحديث، والتَّفسير، وليس التَّصوُّف فيها بدعاً من الأمْر، فقد تأثَّر بلا شَكٍّ، وأثَّر كذلك.

أمَّا عن مصدر كلمة التَّصوُّف؛ فقد اختلفت في ذلك الآراء، وأرْجَحُهَا لديَّ الرأي القائل إنَّها جاءت من الصُّوف الذي كان يلبسه المتصوِّفون زُهداً وتقشُّفاً. وقيل بأنَّها تعود إلى الصَّفاء؛ أيْ صفاء القُلُوب، أو إلى كلمة سُوفيا اليونانيَّة التي تعني الحكْمة.

وقد عرَّف شُيُوخ الصُّوفيَّة التَّصوُّف بجُمَل قصيرة ذات مغزى عميق في بيان جوهر هذا النّهج وحقيقته: فقد سُئل أبو مُحمَّد الحريري عن التَّصوُّف، فقال: هُو الدُّخُول في كُلِّ خُلُق سني، والخُرُوج من كُلِّ خُلُق دني. وسُئل عنه الجُنَيد، فقال: هُو أنْ يُميتكَ الحقُّ عنكَ، ويُحييكَ به. وسُئل الحُسَين بن منصور عن الصُّوفي، فقال: وَحْدَانيّ الذّات، لا يقبله أحد، ولا يقبل أحداً. وقال أبو حمزة البغدادي: علامة الصُّوفي الصّادق أنْ يفتقر بعد الغنى، ويذلَّ بعد العزِّ، ويخفي بعد الشّهرة. وعلامة الصُّوفي الكاذب أنْ يستغني بعد الفقر، ويعزَّ بعد الذُّلِّ، ويشتهر بعد الخفاء. وسُئل سمنون عن التَّصوُّف، فقال: أنْ لا تملك شيئاً، ولا يملككَ شيء. وسُئل رُويم عن التَّصوُّف، فقال: استرسال النّفس مع اللّه - تعالى - على ما يُريد. وقال الكتَّاني: التَّصوُّف خُلُقٌ، فَمَنْ زاد عليك في الخُلُق، فقد زاد عليك في الصّفاء!

وقال أبو مُحمَّد رُويم البغدادي، إنَّ التَّصوُّف قائم على التَّمسُّك بالفقر والافتقار، والتَّحقُّق بالبَذْل، وتَرْك الغرض والاختيار. وقال الجُنَيد البغدادي: التَّصوُّف ذكْرٌ مع اجتماع، ووَجْدٌ مع استماع، وتَحَمُّلٌ مع اتِّباع. والصُّوفي كالأرض يُطرح عليها كُلُّ قبيح، ولا يخرج منها إلاَّ كُلُّ مليح، وقال ذُو النُّون المصري: التَّصوُّف أنْ لا تملك شيئاً، ولا يملككَ شيء. والصُّوفي هُو الذي آثر اللهَ على كُلِّ شيء، فآثرهُ الله على كُلِّ شيء[1].

عناصر التَّصوُّف كما يُلخِّصها المؤرِّخ ابن خلدون:

وَضَعَ ابن خلدون أربعة عناصر أساسيَّة للتَّصوُّف؛ وهي:

1 - الكلام في المُجاهدات، وما يحصل من الأذواق، والمواجيد، ومُحاسبة النَّفْس على الأعمال.

2 - الكلام في الكَشْف والحقيقة المُدركَة من عالم الغيب.

(1) انظر جامع الفِرَق والمذاهب الإسلاميَّة: عبد الأمير مهنَّا وعليّ خريس: بيرُوت: المركز الثقافي العَرَبي، ص 54.

3 ـ التَّصرُّفات في العوالم والأكوان وأنواع الكرامات.

4 ـ ألفاظ مُوهمة الظّاهر، نطق بها أئمّة القوم (أيْ الشّطحات).

الحُبُ الإلهي عند الصُّوفيّة:

تشرح رابعة بنت إسماعيل العَدَويَّة الحُبَّ الإلهيَّ في التَّصوُّف، فتُبيِّن أنّه حياة الصُّوفي مع الخلق في جسمه، ومع الحقِّ ـ تعالى ـ في قلبه، فتقول:

إنِّي جعلتكَ في الفُؤاد مُحدِّثي	وأبحتُ جسمي مَنْ أراد جُلُوسي
فالجسمُ منِّي للجليس مُؤانس	وحبيبُ قلبي في الفُؤاد أنيسي[1]

وفسَّرتْ هذا الحُبَّ قائلةً:[2]

أُحبُّك حُبَّين: حُبَّ الهوى	وحُبّاً لأنَّكَ أهلٌ لذاكا
فأمَّا الذي هُو حُبُّ الهوى	فشُغلي بذكْركَ عمَّن سواكَ
و أمَّا الذي أنتَ أهلٌ له	فَكَشْفُكَ لي الحُجبَ حتَّى أراكَ
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاكَ لي	ولكنْ؛ لكَ الحمدُ في ذا وذاكا

فالمتصوِّفون يذوبون في حُبِّ الله ـ تعالى ـ ويحمدونه على كُلِّ شيء. فهُم يُحبُّونه حبّاً رُوحانيّاً خالياً من الرّغبات والنّزعات، ويعتقدون بأنْ لا فاعل في كُلِّ شيء إلاّ الله سُبحانه. قال معروف الكرخي: «إنَّ محبَّة الله شيء لا يُكتسب بالتّعليم، وإنّما هي هبة من الله، وفضل».

وقد طغى الشّوق إلى الله، والتّقرُّب منه على فئة كبيرة من المُتصوِّفة، ولاقت مقولة الفناء في الله ـ التي قال بها أبو يزيد البسطامي ـ رواجاً لا مثيل له بينهم. وكذلك رابعة العَدَويَّة التي أحالت ليلها صلاة ومُناجاة للباري ـ تعالى ـ وفناء ذاتها فيه، حتّى لتشعر بأنَّ نفسها وحبيبها واحد. وذهب ابن الفارض إلى أكثر من الحُبِّ، قائلاً بفناء الذّات في ذات الله الباقية:

---

(1) راجع ظُهر الإسلام: لأحمد أمين: 4/ 154.

(2) المصدر السّابق: 4/ 153.

ففي المَحْو بعد الصَّحْو لم أكُ غيرها ... وذاتي بذاتي إذا تجلَّت تجلَّت

وقال الحُسَين بن منصور الحلاَّج يصف فناءه بالله، وبقاءه فيه:

قد تحقَّقتُك في سرِّي ... فخاطبكَ لساني

فاجتمعنا لمعانٍ ... وافترقنا لمعاني

إنْ يكنْ غيَّبكَ التَّعظيم عن لحظ العياني ... فلقد صيَّرك الوَجْدُ من الأحشاء داني

ومال أكثر الصُّوفيَّة إلى الجَبْر، فاعتقدوا أنْ لا إرادة مُختارة للإنسان فيما يفعل، وأنَّ الإرادة والاختيار لله الواحد القهَّار ليس لأحد سواه. ولعلَّ هذا يُفسِّر تبنِّى أكثر الصُّوفيَّة للمذهب الأشعري القائل بالجَبْر. وقد سلَّموا وفوَّضوا أمرهم إلى الله - تعالى - واتَّكلوا عليه، حتَّى قال أحدهم: «لو كان رضا الله في أنْ يُدخلني النّار، لكُنتُ راضياً».

وقد برزَ التَّصوُّف - بشكل واسع - في القرنَيْن الرّابع والخامس الهجريَّيْن، حتَّى بلغ ذروته في القرنَيْن السّابع والثّامن [1].

الصُّوفيَّة والقول بوَحْدَة الوُجُود:

وَحْدَة الوُجُود من الموضوعات الصُّوفيَّة العرفانيَّة العميقة جداً التي تُعتبر قاسماً مُشتركاً بين صُوفيَّة جميع أهل الأديان، وهُو موضوع يعسر فَهْمُه على مَنْ ليس من أهل هذا الطّريق، وليس له باع طويل في اصطلاحاتهم وعباراتهم. وهُو - على أيِّ حال، وكما يقول بعض أصحابه - أمرٌ ذوقيٌّ أكثر من كونه أمراً عَقْليّاً استدلاليّاً، لذا؛ فالكلام فيه دُون الوُصُول لحاله، عَبَثٌ في عَبَث، وقد يُؤدِّي إلى إساءة الفَهْم، واستنتاج نتائج خاطئة منه، أو إسراع الجاهلين إلى تكفير القائل به، ورميه بالزّندقة والإلحاد.. وذلك كُلُّه حصل في تاريخ الإسلام للأسف..

---

(1) جامع الفرَق والمذاهب الإسلاميَّة: عبد الأمير مهنّا وعليّ خريس: بيرُوت: المركز الثّقافي العَرَبي، ص 54-58.

وقد صَدَرَتْ من قُدماء الصُّوفيَّة شطحات بهذا المعنى كقول الحلاَّج "أنا الحقُّ، أنا الحقُّ"، أو "ما في الجُبَّة إلاَّ الله"، أو قول أبي يزيد "سُبحاني ما أعظم شأني"، ولم يكن ذلك قولاً منهم بالحُلُول والاتِّحاد كما توهَّمه البعض، ولا كان تأليهاً لذواتهم والعياذ بالله، وإنَّما كان وُصُولاً ذوقياً إلى حقيقة أنَّه لا يُوجد في هذا الوُجُود إلاَّ هُو وأفعاله وصفاته، وليس في الدَّار غيره ديَّار، وبالتَّالي؛ فهُم نفوا عن أنفسهم الأنيَّة أصلاً، على العكس تماماً من تصوُّر أنَّهم أثبتوا إلهيَّتها، فأين هذا من ذاك؟؟ إنَّهم شعروا في لحظة من لحظات الاستغراق الكامل في التَّأمُّل الباطني والوَجْد الصُّوفي بالانمحاق والفناء عن الذَّات، وأنَّه ليس لهم وُجُود من أنفسهم، بل كُلّ ذرَّة من وُجُودهم هي في الواقع وُجُود الله، فهُم قائمون به، وفيه، ومنه، وإليه ؟ إنَّا للَّه، وَإِنَّا إِلَيْه راجعُونَ؟ وكُلُّ شيء هالك إلاَّ وجهه؟ ليس في المُستقبل، بل - كما يقول الإمام الغزالي - هُو الآن كذلك. وليس هذا معناه أنَّ ذات الإنسان من جهة نقصه وضعفه هي عين ذات الله الباقي، بل هذا من المحال؛ لأنَّ الإنسان مُمكن الوُجُود، والله - تعالى - واجب الوُجُود ومن المحالات العَقْليَّة صيرورة المُمكن واجباً. نعود، فنقول: إنَّه من العَبَث مُحاولة فَهْم قضيَّة هي في أصلها عرفانيَّة ذوقيَّة محضة، ولكنَّ بعض العُرفاء حاولوا تقريبها للأفهام بأمثلة وعبارات هي، وإنْ كانت قاصرة، إلاَّ أنَّها مُفيدة؛ لأنَّها - على الأقلّ - تُعطي أمثلة عن إمكان القول بوَحْدَة الوُجُود دُون أنْ يلزم عن ذلك حُلُول واتِّحاد: فمن ذلك مثال الإنسان وظلّه، والشّمس وحرارتها وشُعاعها، والبحر وأمواجه، وأصفار العدد والواحد الذي على يسارها الذي يُعطيها القيمة، أو عدد الواحد السّاري في كُلّ الأعداد، فالعدد 745 مثلاً هُو غير الواحد ظاهراً، ولكنْ؛ من أين تكوَّن إلاَّ من أعداد الواحد السّارية فيه؟ أو الإنسان وصُورته في المرآة: فصُورة الإنسان مثلاً التي تنطبع على المرآة لا هي ذاته، بدليل أنَّ ضرب الصُّورة في المرآة لا يضرُّه في شيء، ولا هي غيره؛ لأنَّها صُورته تماماً، كما أنَّه لا وُجُود لها إلاَّ به، فليس لها ذرَّة وُجُود مُستقلّ عن وُجُوده، بدليل أنَّ ذهابه من أمام المرآة لا يُبقي من الصُّورة شيء.

ومثال آخر أنْ يتصوَّر الإنسان في ذهنه شيئاً كجبل أو بحر.. إلخ، ثُمَّ يسأل: هل لهذا البحر أو الجبل أيُّ وُجُود مُستقلّ عن وُجُودي؟؟ طبعاً، لا، فكُلُّ ذرَّة من هذا البحر أو الجبل

مُسْتَمَدَّةٌ من وُجُود الإنسان الذي خَلَقَهَا في ذهنه ومُخيِّلته، ولو غفل هذا الإنسان عنـها لحظة لانْمَحَتْ مـن الوُجُـود. ولكنَّها هـل هـي عين ذاته؟ أيضـاً: لا؛ لأنَّـه أيـن الإنسـان الكـامل بأعضائه وعقله وحواسِّه، وهذا الجبل الوَهْمي الذي ليس له إلاَّ وُجُود ذهني محض؟

أقصد من هذه الأمثلة القاصرة أنْ أُوضح ـ فقط ـ للقـارئ أنَّه لا ينبغـي عليـه أنْ يُسـارع باتِّهام القـائلين بوَحْـدَة الوُجُـود بأنَّـهم يخرجـون عــن الدِّيـن، أو يُريـدون تأليـه أنفسـهم، أو إسـقاط التّكـاليف الشَّرْعيَّة عنهم؛ لأنَّ الـرَّبَّ عبدٌ، والعبـد ربٌّ، وانتـهى الأَمْـر؛ لأنَّ الصُّوفيَّة القائلين بوَحْدَة الوُجُود لا يقصدون التَّوصُّل أبداً لذلك الغرض الباطل، كيـف وهُـم من أشدِّ النّاس عبادة وتذلُّلاً وخُضُوعاً لله ـ تعالى ـ وعملاً بتكاليفه الشَّرْعيَّة؟؟ فإذا لم يستطع الإنسان أنْ يفهم معنى هذا الموضـوع، ومـا قـدر أنْ يُـدرك ويستوعب حقيقـة قَصْدهـم منـه، فليتركه لأهله، ولا يُنكره عليهم.

وقد كان الشّيخ مُحيي الدِّين بن العَرَبي أكثرَ مَنْ بَسَطَ الكلام في هذا الموضوع، وأطنب في الحديث عنه، وكَتَبَ في ذلك المُطوَّلات، وأنشد الأشعار، فمن ذلك قوله[1]:

يـــا خـــالقَ الأشـــياء في نفســـه	أنـــتَ لمـــا تخلقـــه جـــامعُ
تخلـــق مـــا لا ينتـــهي كونـــه	فيـــكَ فـــأنتَ الضَّيِّـــق الواســـع

أُمُور يُؤكِّد عليها الصُّوفيَّة، وصارت من خصائصهم:

1 ـ ضرورة الصُّحبة؛ أيْ مُصاحبـة شـيخٍ مُرشـد، ومُرَبٍّ مـأذون بالإرشـاد مـن الشّـيخ الـذي قبلـه، في سلسـلة متَّصلـة إلـى رسـول الله (صلَّـى الله عليـه وآلـه وسـلَّم)، واتِّبـاعه والاستسلام التَّامِّ لإرشـاده ووصايـاه، للتَّمكُّـن مـن قَطْـع مراحـل السّـير إلـى الله عَزَّ وجَلَّ، فالسّالك لا يستطيع السَّيْرَ وحده؛ لأنَّ طريق السَّيْر والسُّلُوك وَعرٌ مليءٌ بالمطبّات، ومَنْ لا شيخ لـه شيخه الشّيطان. والشّيخ يُرشـد المُريـد إلـى طُرُق تُخلِّصه مـن رُعُوناتـه النَّفسـيَّة، وأمراضه القلبيَّة، ويقود رُوحه إلى الله عَزَّ وجَلَّ.

---

(1) راجع ظُهر الإسلام لأحمد أمين: 2/ 60 و4/ 162.

2 ـ حُضُور حَلق الذِّكْر ، وقراءة الأوراد والأذكار الخاصَّة المنقولة عن مشايخ الطَّريق .

3 ـ كثرة الذِّكْر لله ـ تعالى ـ فإنَّها تجلو صدأ القلب ، وتصقل الرُّوح ، وتجعلها مُستعدَّة للكَشْف والعرفان . وإذا صلُح القلب صلُح الجسد كُلُّه .

4 ـ العجب بالنَّفس والغُرُور يُبعدان الإنسان عن الله ، في حين أنَّ الإيثار ومحبَّة الخَلْق والبُعْد عن الأنانيَّة يُوصل إلى الله وإلى الفناء في ذاته تعالى .

5 ـ محبَّة الله ـ تعالى ـ هي أعظم شيء في الدِّين ، وأغلى شيء في هذه الحياة الفانية ، وهي أقرب طريق لنَيْل القُرب من الله تعالى ، والله عظيم الرَّحمة والشَّفقة بعباده ، فَمَنْ أذنب وتاب أسرع الله ـ تعالى ـ له بالتَّوبة ؛ لأنَّه غفور رحيم .

6 ـ الصُّوفي مشغول بعيبه عن عُيُوب النَّاس ، وبإصلاح عُيُوب نفسه عن الحُكْم على الآخرين وإدانتهم .

7 ـ ولاية الله مُستمرَّة في كُلِّ الأعصار لا تنقطع ، ولا تخلو الأرض من وليٍّ للَّه ، والإيمان بالأبدال كُلَّما مات بَدَلٌ أبدله الله بغيره .

8 ـ العمل الدَّائم لبُلُوغ الولاية ؛ لأنَّ مَنْ بَلَغَ درجتها تحرَّر من المظاهر ، وخَضَعَ له الكون وقوانينه ، ومنها يأتي إيمان الصُّوفيَّة الرَّاسخ بكرامات الله لأوليائه .

9 ـ مَنْ عَرَفَ نفسه ، فقد عَرَفَ ربَّهُ ، فمعرفة النَّفس طريق مُوصل لمعرفة الله .

10 ـ لا يُوجد إلاَّ قانون أخلاقي واحد هُو قانون الحُبِّ العامِّ الذي ينبع من إنكار الذَّات .

11 ـ العَقْل ليس هُو طريق المعرفة الصَّالح إلى الأسرار الإلهيَّة . وإنَّما هُو العشق الإلهي ؛ لأنَّ المعرفة منحة ربَّانيَّة ، وطريقها الإشراق والكَشْف ، وليس العَقْل القاصر .

12 ـ الإنسان أفضل مخلوقات الله ـ تعالى ـ صُورة ومضموناً :

وتحسبُ أنَّكَ جِرمٌ صغيرٌ ... وفيكَ انطوى العالمُ الأكبرُ

13 ـ العبرة في الإنسان حقيقته الرُّوحيَّة ودرجة قُربه من الله، فلا تفرقة بين جنس وآخر، أو لون ودين؛ لأنَّ الأديان تنطلق من منبع واحد. والطُّرُق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق. فكُلُّ مَنْ عبد الله ـ تعالى ـ بصدق وإخلاص فهُو مُحبٌّ له. والأديان جميعها طُرُقٌ تُوصل في النّهاية إلى غاية واحدة، وإنْ كان بعضها أرقى من بعض، لكنَّها تقود جميعها إلى الله، يقول مُحيي الدِّين بن العَرَبي:

لقد صار قلبي قابلاً كُلَّ صُورة ... فمرعى لغُزلانٍ، وديرٌ لرُهبان

وبيتٌ لأوثان، وكعبةُ طائف ... وألواحُ توراة، ومُصحف قُرآن

أدينُ بدين الحُبِّ أنَّى توجَّهتْ ... ركائبه، فالحُبُّ ديني وإيماني

14 ـ ولابُدَّ للمُتصوِّف أنْ يمرَّ بمقامات ذَكَرَهَا أبو طالب المكِّي؛ وهي: التّوبة، الصّبر، الشُّكر، الرّجاء، الخوف، الزُّهد، التَّوكُّل، الرِّضا، والمحبَّة.

أمَّا الطُّوسي؛ فقد جعلها في كتاب اللّمع سبعاً؛ وهي: التُّوبة، والوَرَع، والزُّهد، والفقر، والصّبر، والتَّوكُّل، والرّضا.

أمَّا الأحوال؛ فقد ذكر منها عشرة؛ وهي: التَّأمُّل، والقُرب، والمحبَّة، والخوف، والرّجاء، والشّاق، والأُنس، والطُّمأنينة، والمُشاهدة، واليقين. وقالوا: إنَّ الأحوال مواهب، والمقامات مكاسب.

لمحة إلى بعض أشهر رجال التَّصوُّف المُصنِّفين فيه وتُراثهم:

1 ـ **ذُو النُّون المصري (157 ـ 245 هـ)**: أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري الأخميمي. وُلد في أخميم من صعيد مصر، وعُرف بالزُّهد والعُزلة، وكان أوَّل مَنْ تكلَّم في مصر في ترتيب الأحوال، ومقامات الأولياء، وعلاج أمراض القُلُوب، ولَمَّا تكلَّم بعُلُوم لَدُنِّيَّة جديدة على أهل مصر، اتَّهمه بعض جُهَّالها بالزّندقة، فسيق في جماعة مغلولين مُقيَّدين إلى المُتوكِّل العبَّاسي في بغداد، الذي لم يجد فيهم عيباً، فأطلقهم. أُثرَتْ عنه الكثير من الأقوال اللَّطيفة، والإشارات الدّقيقة، فمن ذلك أنَّه قال: المعرفة ثلاثة أقسام: حظٌّ

مُشترك بين عامَّة المُسلمين، ومعرفةٌ خاصَّةٌ بالفلاسفة والعُلماء، وعلمٌ بصفات التَّوحيد؛ وهُو خاصٌّ بالأولياء الذين يرون اللهَ في قُلُوبهم. وعن المحبَّة قال: حقيقة المحبَّة أنْ تُحبَّ ما أحبَّه الله، وتبغض ما أبغضه الله. إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة المنقولة عنه، والمسطورة في كُتُب الصُّوفيَّة.

2 ـ **الحارث بن أسد المُحاسبي (ت 243 هـ):** من عُلماء ومشايخ الصُّوفيَّة الكبار وشيخ الجُنيد إمام الطَّريقة، ويُقال: إنَّما سُمِّيَ المُحاسبي لكثرة مُحاسبته نفسه. كان أُستاذاً في عُلُوم الظَّاهر وعُلُوم المُعاملات والإشارات، وله التَّصانيف المشهورة في التَّصوُّف والأخلاق منها كتاب "الرِّعاية لحُقُوق الله" وغيره، وهُو أُستاذ أكثر البغداديِّين في التَّصوُّف، وُلد في البَصْرَة، وتُوفِّي ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتَيْن، وأسند الحديث[1]. رُويت عنه الكثير من الحِكَم والمواعظ واللَّطائف والإرشادات الأخلاقيَّة والصُّوفيَّة، وقد روى كثيراً منها أبو نعيم الأصبهاني في كتابه "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" بأسانيده إليه منها قوله: [بلغني عن الحارث بن أسد المُحاسبي أنَّه قال: «العلمُ يُورثُ المخافةَ، والزُّهدُ يُورثُ الرَّاحةَ، والمعرفةُ تُورثُ الإنابةَ» قال: وقال الحارث: «مَنْ صحَّحَ باطنه بالمُراقبة والإخلاص زيَّن ظاهره بالمُجاهدة واتِّباع السُّنَّة، لقوله ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ ». وقال: «سمعتُ الجُنيد بن مُحمَّد يقول: قال الحارث: لا ينبغي للعبد أنْ يطلب الورَعَ بتضييع الواجب. وقال: قال الحارث: إذا أنت لم تسمع نداء الله فكيف تُجيب داعي الله؟ ومَنْ استغنى بشيء دُون الله فقد جهل قَدْرَ الله. وقال: الظَّالم نادمٌ، وإنْ مَدَحَهُ النَّاس، والمظلوم سالمٌ، وإنْ ذمَّه النَّاس، والقانع غنيٌّ، وإنْ جاعَ، والحريص فقيرٌ، وإنْ مَلَكَ»...][2].

3 ـ **الإمام أبو القاسم القُشيري (376 ـ 465 هـ):** عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن مُحمَّد الأُستاذ أبو القاسم القُشيري النَّيسابوري، أحد العُلماء بالشَّريعة

---

(1) طبقات الشَّافعيَّة: أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة (779 ـ 851 هـ) ط1 بيرُوت: عالم الكُتُب، 1407 هـ. بتحقيق د. الحافظ عبد العليم خان. ج 2/ ص 59 ـ 60، وطبقات الصُّوفيَّة: أبو عبد الرَّحمن مُحمَّد بن الحُسَين الأزدي (325 ـ 412هـ) ط1 بيرُوت: دار الكُتُب العلميَّة، 1998م بتحقيق مُصطفى عبد القادر عطا. ج 1/ ص 58.

(2) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم الأصبهاني: 10/ 75 ـ 76.

والحقيقة في بغداد، أخذ الطّريقة عن الشّيخ أبـي علـيّ الدّقّاق وأبي عبـد الرّحمـن السّـلمي، ودَرَسَ الفقْه الشّافعي على أبي بكر الطُّوسي، وقرأ الكلام الأشعري على أبي بكر بـن فـورك وأبي إسحاق الإسفراييني، وبَرَعَ في ذلك، فَجَمَـعَ بين علـم الظّاهر وعلـم البـاطن، فسُـمِّي ـ لذلك ـ بإمام الطّائفتَيْن. صنَّف أبو القاسم القُشيري "التّفسير الكبير" الذي عُرِف باسم تفسير "لطائف الإشارات" والذي يُعَدُّ من أقدم أمثلة التّفسير الإشاري، وهُو من أجود التّفاسير، وصنَّف كتاب "الرّسالة" في رجال الطّريقة وعُلُوم التَّصوُّف، وهي المعروفة اليوم باسم "الرّسالة القُشيريّة" التي تُعَدُّ من أقدم كُتُب ومراجع التَّصوُّف الجامعة، وحُكيَت عنـه أحوالٌ وكراماتٌ كثيرةٌ، وتُوفِّي في ربيع الآخر سنة خمس وستِّين وأربعمائة عن تسع وثمانين سنة، ودُفن إلى جانب أُستاذه أبي عليّ الدّقّاق بالمدرسة [1].

4 ـ **حُجَّة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي (451 ـ 505 هـ):** هُو أبو حامد مُحمَّد ابن أحمد الغزالي حُجَّة الإسلام. وُلد بطُوس (قُرب مدينة مشهد الحاليَّـة في إيران) عـام 450 هـ، وقيل 451 هـ. مات أبـوه وهُـو صغير، فـأوصى به وبأخيه أحمـد إلى صديق لـه صُوفي صالح، فعلَّمهما الخطَّ، وأدَّبهما، ثُمَّ التحقا بالمدرسة لطَلَب العلم، فتعلَّم الغزالي طَرَفـاً من الفقْه على أحمد بن مُحمَّد الرّاذكاني، ثُمَّ ارتحل إلى أبي نصر الإسماعيلي بجرجان، ثُمَّ إلى إمام الحَرَمَيْـن أبي المعـالي الجُويني بنيسابور، فلازمه، حتَّى صار أنْظَرَ أهل زمانه، فبرَّز الغزالي، وذاع صيته بعد جداله مع العُلماء، وتغلُّبه عليهم، واشتهر في الفقْه والمُناظرة. ألـحَّ عليه نظام الملك السُّلجوقي أنْ يستلم التّدريس في المدرسة النّظاميَّة ببغداد، فصار محطَّ رحال العُلماء، ومقصد الأئمَّة والفُصحاء، لكنَّ الاشتغال بعلم الظّاهر والشُّهرة والرّئاسة لم تُعطه الاطمئنان، ولم تُشبع رُوحه المُتعطِّشة للحقيقة التي كان يبحث عنها، فتَرَكَ التّعليم، وطلَّقَ الجاه ورئاسة الدُّنيا، وأقبل على العبادة والسّياحة، فخرج إلى الحجاز، فَحَجَّ، ورجع إلى دمشق، وأقام بها عشرة سنين مُعتكفاً بمنارة الجامع الأُموي، وهُناك صَنَّفَ بها عدداً من كُتُبه أهمّها كتابه الشّهير في التَّصوُّف "إحياء عُلُوم الدِّيـن"، الـذي قيل فيه: إنَّـه "لـو لـم يُصنَّف في الإسلام سواه لكان كافياً!"، كما قيل "مَنْ لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء!"، صالح فيه

(1) انظر طبقات الشّافعيّة: ابن قاضي شهبة: ج2/ ص 254 ـ 255.

بين الصُّوفيَّة والفُقَهَاء، وكان أوَّل كتاب يدعم الحقيقة بالشّريعة، ويُبيِّن الأسرار الصُّوفيَّة للعبادات ومعانيها الباطنيَّة والرُّوحيَّة، وله فيه نَظَريَّات في التّحليل النَّفسي لم تُكتَشَفْ إلاَّ في القرن الماضي (مثل نَظَريَّة بافلوف في الانعكاس الشّرطي).

ثُمَّ زار بيت المقدس، ومنها ارتحل إلى الإسكندريَّة، ثُمَّ عاد إلى بلدته طوس، فأقبل على التّصنيف والعبادة والملازمة للتّلاوة ونَشْر العلم. ألّف عشرات الكُتُب القيِّمة في التَّصوُّف أشهرها الإحياء، و"كيمياي سعادت" بالفارسيَّة، و"المُنقذ من الضّلال"، و"الأربعين في أُصُول الدِّين"، بالإضافة للعديد من الكُتُب المُهمَّة في الفقْه الشّافعي، وأُصُول الفقْه، وفي الكلام الأشعري، والرَّدِّ على الفلاسفة، وغيرها.

كان ورعاً، تقيّاً، عابداً، مُصلّياً، مُعتكفاً في داره أكثر سني حياته الأخيرة، وقد اتَّخَذَ رابطاً للصُّوفيَّة، ومدرسة للمُشتغلين بالعلم في جوار بيته، واعتزل النّاس، ومال بكُلِّيَّته إلى التَّصوُّف والزُّهد، حتّى لقِّب - بحقٍّ - حُجَّة الإسلام، فقد جدَّد نهضة الدِّين، وحدَّد سُلطان الفلسفة، وأخذ من كُلٍّ علم بقسط وافر. تُوفِّي في طوس عام 505 هـ.[1]

هذا؛ وللغزالي كلام مشهور غزير الفائدة - يذكره في كتابه المُنقذ من الضّلال - يحكي فيه ملابسات اتِّجاهه نحو الخُلوة والرِّياضة الرُّوحيَّة وسُلُوك طريق التَّصوُّف، ولماذا فضَّله على الشُّهرة والمنصب وعُلُوم الظّاهر، وماذا وجد عند الصُّوفيَّة، ولماذا رجَّح طريقهم على سائر الطُّرُق، فيقول:

[... ثُمَّ إنِّي لمّا فرغتُ من هذه العُلُوم أقبلتُ بهمّتي على طريق الصُّوفيَّة، وعلمتُ أنْ طريقهم إنَّما يتمُّ بعلمٍ وعملٍ؛ وكان حاصلُ علمهم قَطْعَ عقبات النَّفْس والتَّنزُّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتّى يتوصَّل بذلك إلى تخلية القلب عن غير الله وتحليته بذكْر الله تعالى، وكان - حينئذ - العلمُ أيسرَ عليَّ من العمل، فابتدأتُ بتحصيل علمهم من مُطالعة كُتُبهم مثل كتاب "قُوت القُلُوب" لأبي طالب المكِّي رحمه الله - تعالى - وكُتُب الحارث المُحاسبي، والمُتفرِّقات المأثورة عن الجُنيد، والشّبلي، وأبي يزيد البسطامي، وغير ذلك من

---

(1) انظر طبقات الشّافعيَّة: ابن قاضي شهبة: ج 1/ ص 248 - 249.

كلام مشايخهم رضي الله ـ تعالى ـ عنهم، حتَّى اطَّلعتُ على مقاصدهم العلميَّة، وحصلتُ على ما يُمكن أنْ يحصل من طريقهم بالتَّعليم والسَّمَاع، فظهر لي أنَّ أخَصَّ خواصِّهم لا يُمكن الوُصُول إليه بالتَّعلُّم، بل بالذَّوق والحال وتبدُّل الصِّفات، فكَمْ مِنَ الفَرْق بين أنْ يعلم حَدَّ الصِّحَّة وحَدَّ الشِّبع مَنْ لم يكن صحيحاً وشبعاناً، وبين أنْ يعرف حَدَّ السُّكْر، وأنَّه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكْر، وبين أنْ يكون سكراناً فعلاً، بل السكران لا يعرف حَدَّ السُّكْر وهُو سكران؛ لأنَّه واقع في حالة السُّكْر (ذوقاً ووجداناً) والصَّاحي يعرف حَدَّ السُّكْر وأركانه وما معه شيء من السُّكْر، والطَّبيب حالة المرض يعرف حَدَّ الصِّحَّة وأسبابها وأدويتها وهُو فاقد للصِّحَّة، فكذلك فَرْق بين أنْ تعرف حقيقة الزُّهد وشُرُوطه وأسبابه، وبين أنْ يكون حالك الزُّهد وعُزُوف النَّفْس عن الدُّنيا.

فَعَلمْتُ يقيناً أنَّهم أرباب أحوال، لا أصحاب أقوال، وأنَّ ما يُمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصَّلتُهُ، ولم يبقَ إلاَّ ما لا سبيل إليه بالسَّماع والتَّعليم، بل بالذَّوق والسُّلُوك، وكان قد حصل معي من العُلُوم التي مارستُهَا والمسالك التي سَلَكْتُهَا في التَّفتيش عن صنفَيْ العُلُوم الشَّرْعيَّة والعَقْليَّة إيمان يقيني بالله تعالى، وبالنُّبُوَّة، واليوم الآخر، فهذه الفُصُول الثَّلاثة عن الإيمان كانت رسختْ بنفسي، لا بدليل مُعيَّن مُجرَّد، بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها، وكان قد ظهر عندي أنَّه لا مطمع لي في سعادة الآخرة، إلاَّ بالتَّقوى وكَفِّ النَّفْس عن الهوى، وأنَّ رأس ذلك كُلِّه قَطْعُ علائق القلب من الدُّنيا بالتَّجافي عن دار الغُرُور، والإنابة إلى دار الخُلُود، والإقبال بكُنْه الهمَّة على الله تعالى.

. . . . (إلى أنْ قال): فآثرتُ العُزلة حرصاً على الخُلوة وتصفية القلب بالذِّكْر، وكانت حوادث الزّمان، ومهمَّات العيال، وضرورات المعاش، وتغيُّر وُجهة المُراد، وتشوُّش صفاء الخُلوة، وكان لا يصفو الحال إلاَّ في أوقات مُتفرِّقة، لكنِّي ـ مع ذلك ـ لا أقطع طَمَعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود إليها، ودُمتُ على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشف لي أثناء الخُلوات أُمُور لا يُمكن إحصاؤها واستقصاؤها.

والقدر الذي أذكره لِيُنتفَعَ به هُو أنِّي علمتُ يقيناً أنَّ الصُّوفيَّة هُم السَّالكون الطَّريق إلى الله تعالى خاصَّة، وأنَّ سيرتهم أحسنُ السِّيَر، وطريقهم أصوبُ الطُّرُق، وأخلاقهم أزكى

الأخلاق، بل لو جُمِعَ عقلُ العُقلاء، وحكمة الحُكَمَاء، وعلم الواقفين على أسرار الشَّرْع من العُلماء، ليُغيِّروا شيئاً من سيَرهم وأخلاقهم، ويُبدِّلوه بما هُو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، وأنَّ جميع حَرَكَاتهم وسكَنَاتهم في ظاهرهم وباطنهم مُقتبسة من نُور مشكاة النُّبوَّة، وليس وراء نُور النُّبوَّة على وجه الأرض نُور يُستضاء به، وأيقنتُ ـ بحقٍّ ـ أنَّهم الفرقة النَّاجية، وماذا يقول القائلون في طريقة الطَّهارة أوَّل شُرُوطها، وتطهير القلب بالكُلِّيَّة عمَّا سوى الله تعالى، واستغراق القلب في ذكْر الله عمادها ومفتاحها الجاري منها مجرى التَّحريم في الصَّلاة، وآخرها الفناء بالكُلِّيَّة في الله، وهذا بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكَسْب من أوائلها، وهي ـ على التَّحقيق ـ أوَّل الطَّريقة، وما قبل ذلك كالدَّهليز للسَّالك إليه، ومن أوَّل الطَّريق تبتدئ المُكاشفات والمُشاهدات، حتَّى إنَّهم في يَقَظَتهم يُشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد وعُلُوماً، ثُمَّ يترقَّى الحال من مُشاهدة الصُّور والأمثال إلى درجات يضيق عنها النّطاق، لا يُحاول مُعَبِّرٌ أنْ يُعَبِّرَ عنها إلاَّ اشتمل لَفْظُهُ على خطأٍ صريحٍ لا يُمكن الاحتراز عنه . . .].

5 ـ القُطب الغوث الإمام الشَيخ عبد القادر الكيلاني (471 ـ 561 هـ): أحد أشهر أقطاب الصُّوفيَّة على الإطلاق، هُو أبو مُحمَّد مُحي الدِّين عبد القادر بن مُوسَى بن عبد الله الكيلاني أو الجيلي الشَّافعي الحَنْبَلي شيخ بغداد، ويرجع نَسَبَهُ الشَّريف إلى الإمام الحَسَن ابن عليّ رضي الله عنهما. وُلد في كيلان (شمال إيران) عام 471 هـ، ونُسب إليها. انتقل إلى بغداد، ودَرَسَ الفقْه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب على كبار مشايخها، ثُمَّ اتَّجه إلى التَّصوُّف، فبرز فيه، وبزَّ أقرانه، وخَضَعَتْ له رقاب الأولياء، فبايعوه بالسّلطنة عليهم، حتَّى عُرف بالقُطب الكيلاني. وإليه تُنسَب الطَّريقة القادريَّة. طار ذكْره في الآفاق، وأجمع على إمامته أهل الخلاف والوفاء، وكان جريء اللِّسان، ثابت الجأش والجنان، وله إقدام وتمكُّنُ أقدام، عظيم المنزلة، كثير الشّطح، مواعظه مشحونة باللَّطائف والرَّقائق، ومجالسه قلَّ نظيرها [1].

---

(1) انظر ترجمته في الجُزء الثَّالث من شَذَرَات الذّهب في أخبار مَنْ ذَهَبَ: عبد الحي الحَنْبَلي الدّمشقي (1032 ـ 1089هـ) نقلاً عن طبقات الصُّوفيَّة لعبد الرّؤوف المناوي.

تُوفِّي في بغداد عام 561 هـ، مُخلِّفاً عدَّة مُصنَّفات من أشهرها: "فُتُوح الغيب"، و"الفتح الرَّبَّاني والفيض الرَّحماني"، و"الغُنية لطالبي طريق الحقّ"، و"جلاء الخاطر في الباطن والظَّاهر"، و"آداب السُّلُوك"، ومُؤلَّفات عديدة غيرها.

6 - أبو العَلَمَيْن الإمام السَّيِّد أحمد الرِّفاعي (512 - 578 هـ): هُو أبو العبَّاس أحمد بن عليّ بن أحمد الرِّفاعي. يرجع في نَسَبه إلى الإمام مُوسَى الكاظم بن جَعْفَر الصَّادق بن مُحمَّد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الإمام الحُسَين الشَّهيد بن فاطمة الزَّهراء عليهم سلام الله ورضْوانه. وُلد بقرية حسن بين بصرى وواسط 512 هـ. تُوفِّي أبوه وهُو طفل، فكفله خاله شيخ الشُّيُوخ منصور الرَّباني البطائحي المعروف بين القوم (بالباز الأشهب)؛ حيثُ كان شيخ طريقة صُوفيَّة عُرفت بالرِّفاعيَّة. دَرَسَ في واسط، ثُمَّ انصرف إلى التَّصوُّف، فخلف خاله في مشيخة الرِّفاعيَّة.

كان زاهداً، عاش حياة فاقة وفقر، يعفُّ عن قَتْل الحشرة، ولا يذبُّ البعوضة، لذلك؛ ارتبط اسم الرِّفاعيَّة برياضة الحيوانات المُفترسة والحشرات المُؤذية، أو القيام بأعمال خارقة للطَّبيعة كَأَكْل الزُّجاج، وغيره. تُوفِّي ببلدة أُمّ عُبيدة عام 578 هـ. وقد دوَّن عنه تلاميذه ومُريدوه عدَّة كُتُب في التَّصوُّف أشهرها "البُرهان المُؤيَّد"، و"حالة أهل الحقيقة مع الله تعالى"، و"كتاب الحكَم"، و"النِّظام الخاصّ لأهل الاختصاص"، وغيرها.

7 - الشَّيخ شهاب الدِّين السُّهْرَوَرْدِيّ (539 - 632 هـ): هُو أبو حفص وأبو عبد الله عُمر بن مُحمَّد بن عبد الله بن مُحمَّد التَّيمي البكري الصُّوفي الشَّافعي، قُدوة أهل التَّوحيد، وشيخ العارفين، وُلد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة بسُهْرَوَرْد، وقدم بغداد، فلحق بها هبة الله بن الشِّبلي، فسمع منه، وتفقَّه، وتفنَّن.

كان صالحاً ورعاً كثير الاجتهاد في العبادة والرِّياضة، وصحب عمَّه أبا النَّجيب، وعنه أخذ التَّصوُّف والوعظ والشَّيخ عبد القادر الجيلاني، فبرز في السُّلُوك والتَّصوُّف، وصنَّف فيه التَّصانيف؛ من أشهرها كتابه "عوارف المعارف" الذي يُعَدُّ من أقدم وأجمع الكُتُب في بيان طريقة القوم، وكتاب "أعلام الهُدى"، وانتهت إليه تربية المُريدين وتسليك العباد ومشيخة

العراق، وتخرَّج عليه خَلْقٌ كثير من الصُّوفيَّة في المُجاهدة والخُلوة، ولم يكن في آخر عُمره في عصره مثله، قال الذّهبي: لم يُخلف بعده.. وقال ابن النَّجّار: كان شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرّياسة في تربية المُريدين ودعاء الخَلْق إلى الله تعالى، وبالغ في الثّناء عليه، وعميَ في آخر عُمره، وأُقعد، ومع ذلك؛ ما أخلَّ بشيء من أوراده، وقال ابن خلكان: كان شيخ الشُّيوخ ببغداد، وكان له مجلس وَعْظ، وعلى وَعْظه إقبالٌ كثير، وله نفس مُبارك[1].

يقول ابن خلكان في وفيات الأعيان: «حكى لي مَنْ حضر مجلسه أنّه أنشد يوماً على الكُرسي:

لا تسقني وحدي، فما عوَّدتني أنّي أشحُّ بها على جُلاَّسي

أنتَ الكريم، ولا يليق تكرُّماً أنْ يعبر النُّدماء دور الكاس،

فتواجد النّاس لذلك، وقُطعت شعُور كثيرة، وتاب جَمْعٌ كبير. وله شعرٌ؛ فمنه:

تصرَّمتْ وحشةُ اللَّيالي وأقبلتْ دولةُ الوصال

وصار بالوصل لي حسوداً مَنْ كان في هجركم رثى لي

وحقّكم بعد إنْ حصلتم بكُلِّ ما فات لا أبالي

أحييتموني وكُنتُ ميتاً ويعتموني بغير غالي

تقاصرتْ عنكم قُلُوب فيا له مورداً حلا لي

عليَّ ما للورى حرامٌ وحُبّكم في الحشا حلا لي

تشرَّبت أعظمي هواكم فما لغير الهوى وما لي

فما على عادم أجاجاً وعنده أعين الزّلال

---

(1) انظر شَذَرَات الذَّهَب في أخبار مَنْ ذَهَبَ: عبد الحي الحَنْبَلي الدّمشقي (1032 ـ 1089 هـ): ج 3 / ص 153 ـ 154.

ورأيتُ جماعة ممَّنْ حضروا مجلسه، وقعدوا في خُلوته وتسليكه، كجاري عادة الصُّوفيَّة، فكانوا يحكون غرائب ممَّا يطرأ عليهم فيها، وما يجدونه من الأحوال الخارقة. تُوفِّي مُستهل المُحرَّم سنة 623 هـ، ببغداد، ودُفن بالورديَّة منها رحمه الله تعالى.»[1].

8 ـ الشَّيخ الأكبر مُحيي الدِّين بن عَرَبي الطَّائي (560 ـ 638 هـ): هُو أبو بكر مُحيي الدِّين مُحمَّد بن عليّ بن عَرَبي، من نَسْل حاتم الطَّائي. وُلد في مرسيَّة (بالأندلس) عام 560 هـ، وتعلَّم الحديث والفقه، وانتقل إلى الشَّرق، ولم يعد للأندلس. كان زاهداً مُتقشِّفاً وإماماً بارزاً من أئمَّة الصُّوفيَّة. لم يعبأ بمال ولا جاه، وهُو أوَّل مَنْ فصَّل، وشَرَح ـ بصراحة ـ فكرة وَحْدَة الوُجُود، كما أنَّه نادى في بعض أشعاره بوَحْدَة جوهر الحقيقة، أو وَحْدَة جوهر الأديان، فلا تفريق عنده بين الأديان والعبادات طالما هي تصبُّ في بحر واحد؛ هُو عبادة الله ـ تعالى ـ والتَّقرُّب منه.

ولكثرة تأويله في شعره ونثره وقوله بوَحْدَة الوُجُود اتَّهمه بعض النَّاس بالزَّندقة، بينما نَعَتَهُ مُحبُّوه بالشَّيخ الأكبر، والعارف بالله، وقُطب الله، ووَليّ الله. ومن أقواله في مذهبه:

نبِّهْ على السِّرِّ، ولا تُفْشِه ... فالبَوحُ بالسِّرِّ له مقتُ
على الذي يُبديه، فاصبر له ... واكتمهُ، حتَّى يصل الوقتُ

قيل: إنَّ ابن عَرَبي كان مُتنبِّئاً، فأعطى وصفاً لمَنْ سيفتح القسطنطينيَّة، وفي أيِّ سنة، وصَدَقَ حَدْسُهُ. وبعد أنْ فَتَحَهَا السُّلطان مُحمَّد الفاتح وفي التَّاريخ نفسه الذي حَدَّدَهُ ابن عَرَبي نُظِرَ إليه كوليّ من أولياء الله ـ تعالى ـ العارفين، لذلك؛ فقد بنى السُّلطان العُثماني على قبره قبَّة عظيمة في منطقة الصَّالحيَّة في دمشق؛ حيثُ تُوفِّي ودُفن عام 638 هـ. ولعلَّه كان من أغزر المُؤلِّفين في علمَيْ التَّصوُّف الفلسفي والتَّصوُّف العَمَلي، فقد تَرَكَ عشرات الكُتُب، بعضها يقع في مُجلَّدات ضخمة، أشهرها كتابه "الفُتُوحات المكِّيَّة" الذي يُعَدُّ دائرة معارف في التَّصوُّف، ومن كُتُبه المشهورة أيضاً "فُصُوص الحكَم"، و"الوصايا"، وغيرها الكثير جداً.

---

(1) وفيات الأعيان: ج 3/ ص 446 ـ 448.

9 ـ ابن الفارض الشّهير بسُلطان العاشقين (576 ـ 632 هـ/ 1181 ـ 1234م) هُو أبو القاسم عُمر بن عليّ بـن المُرشـد الحَمَوي الأصـل المصـري، مـن أشـهر الشُّعراء الصُّوفيَّة الذين أنشدوا أروع القصائد الرّمزيَّة الخالدة، في غاية اللُّطف والرِّقَّة في العشق الإلـهي.

قدم أبوه من حماة إلى مصر، فَقَطَنَهَا، وصار يُثبت الفُرُوض للنّساء علـى الرّجـال بـين يدَيْ الحُكَّام، فلُقِّبَ بالفارض، ثُمَّ وُلد له بمصر عُمر سنة 566 (وقيل سنة 576 هـ) فنشـأ تحت كَنَف أبيه، فعُرف بابن الفارض. اشتغل بفقّه الشّافعيَّة، وأخذ الحديث عن ابن عساكر، وعن الحافظ المُنذري، وغيره، ثُمَّ حُبِّب إليه الخلاء وسُلُوك طريق الصُّوفيَّة، فتزهَّد، وتجرَّد، وصار يستأذن أباه في السّياحة، فيسيح في الجبل الثّاني من المُقطَّم، ويأوي إلى بعـض أوديته مرَّة، وفي بعض المساجد المهجورة في خرابات القرافة مرَّة، ثُمَّ يعـود إلـى والـده، فيُقيم عنده مُدَّة، ثُمَّ يشتاق إلى التَّجرُّد، ويعود إلى الجبل، وهكذا، حتَّى ألف الوحشة، ومع ذلك؛ لـم يُفتَح عليه بشيء، حتَّى أخبره البقَّال أنَّه إنَّما يُفتَح عليه بمكَّة، فخرج فوراً في غير أشـهر الحـجّ ذاهباً إلى مكَّة، فلم تزل الكعبة أمامه، حتَّى دخلها، وانقطع بواد بينه وبين مكَّـة عشر ليـال، وأنشأ غالب نظمه حالتئذ، وأقام كذلك نحو خمسة عشر عاماً، ثُـمَّ رجع إلى مصر، فأقام بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر، وعكف عليه الأئمَّة، وقُصدَ بالزّيارة من الخاصّ والعامّ، حتَّى إنَّ الملك الكامل كان ينزل لزيارته، وسأله أنْ يعمل له قـبراً عنـد قـبره بالقبَّـة التـي بناهـا علـى ضريح الإمام الشّافعي، فأبى.

وكان جميلاً، نبيلاً، حَسَنَ الهيئة والملْبَس، حَسَـن الصُّحبـة والعشرة، رقيـق الطّبْـع، عَذْب المنهل والنّبع، فصيح العبارة، دقيق الإشارة، سلس القياد، بديع الإصـدار والإيـراد، سخيّاً جواداً...

وناهيك بديوان شعره الذي اعترف به المُوافـق والمُخـالف والمُعـادي والمُحـالف بأنَّـه مـن أرقّ الدّواوين شعراً، وأنْفَسها دُرَراً، وأسرعها للقُلُوب جرحاً، وأكثرها على الطُّلُول نَوْحَـاً؛ إذ هُو صـادر عـن نفثة مصـدُور، وعاشـق مـهجور، وقلـب بحَرّ النّـوى مكسـور، والنّـاس

يلهجون بقوافيه، وما أودع من القوى فيه، ولا سيما قصيدته التي اشتهرت بـ "التّائيَّة الكُبرى" أو "نظم السُّلُوك"، ومن أجمل أبياتها قوله:

وكُــلُّ أذىً في الحُــبِّ منْــكَ، إذا بــدا ... جعلــتُ لــه شُــكْري مكــانَ شَــكيَّتي

وقد اعتنى بشَرْحها جَمْعٌ من الأعيان كالسَّرَّاج الهندي الحَنَفي والشّمس البساطي المالكي والجلال القزويني الشّافعي، غير مُبالين بقول المُنكرين الحُسَّاد بأنَّ شعره يُنعت بالاتِّحاد، وكذا شَرَحَهَا الفرغاني والقاشاني والقيصري وغيرهم، ومن أشهر قصائده أيضاً القصيدة التي عُرفت باسم "الخمريَّة" والتي كُتِبت عليها - أيضاً - شُرُوح عدَّة، ومن أجمل أبياتها قوله:

يقولون لي: «صِفْها، فأنت بوَصْفها ... خبيرٌ»، أجل! عندي بأوصافها علْمُ

صفاءٌ ولا ماءٌ، ولُطْفٌ ولا هوا، ... ونورٌ ولا نارٌ، ورُوحٌ ولا جِسْمُ

تقدَّمَ كُلَّ الكائنات حديثُها، ... قديماً، ولا شكلٌ هُناك ولا رَسْمُ

وقامت بها الأشياءُ، ثُمَّ لحكْمَةٍ، ... بها احتجبت عن كُلِّ مَنْ لا له فَهْمُ

وقال الكمال الأدفوي: وأحسنه القصيدة الفائيَّة التي أوَّلها:

قلبي يُحَدِّثني بأنَّك مُتلفي ... رُوحي فداكَ، عرفتَ أم لم تعرف

واللاَّميَّة التي أوَّلها:

هُو الحُبُّ، فاسلم بالحشا، ما الهوى سـ ... ـهلُ، فما اختاره مُضنًى به، وله عقلُ

والكافيَّة التي أوَّلها:

تهْ دلالاً، فأنتَ أهلٌ لذاكا ... وتحكَّمْ، فالحُسْن قد أعطاكا

وقد شنَّع عليه بعض المُنكرين، وكفَّروه لما في ظاهر بعض أشعاره خاصَّة القصيدة التَّائيَّة من وصف لاتِّحاده بالله ووحدته فيه، في إشارات صريحة لوَحْدَة الوُجُود، وهذا مثل تشنيعهم على الشّيخ الأكبر مُحيي الدِّين بن عَرَبي والعفيف التِّلمساني وصدر الدِّين القونوي وابن هود وابن سبعين وتلميذه الشّشتري وابن مُظفَّر والصَّفَّار، فكُلُّهم قالوا بمثل تلك الأقوال، وسببه حرفيَّة المُنكرين في الفَهْم وعدم معرفتهم اصطلاحات القوم ومقاصدهم. لذا؛ اختلف فيهم النّاس من الكُفْر إلى القُطْبانيَّة! وكثرت التّصانيف من الفريقَيْن في هذه القضيَّة، وأحسن ما قاله المُنصفون في ذلك: «أنَّه يجب اعتقاد ولايتهم، وتعظيمهم، ويحرم النَّظَر في كُتُبهم على مَنْ لم يتأهَّل لتنزيل ما فيها من الشّطحات على قوانين الشّريعة المُطهَّرة».

تُوفِّي رحمه الله ـ تعالى ـ في جمادى الأُولى عن ستٍّ وخمسين سنة إلاَّ شهراً، ودُفن بالمُقطَّم[1].

10 ـ مولانا جلال الدِّين الرُّومي (604 ـ 672 هـ): أحد أشهر الشُّعراء الصُّوفيَّة في الإسلام، هُو جلال الدِّين مُحمَّد بن مُحمَّد بن الحُسَين. وُلد عام 604 هـ في بلخ في شمال أفغانستان، وهاجر إلى العراق، وتعلَّم بالمدرسة المُستنصريَّة في بغداد، ثُمَّ رحل إلى بلاد الشّام أثناء حَمَلات المغول على بلاد العجم، واستقرَّ مُدَّة في مدينة حلب، ثُمَّ رحل منها إلى بلاد الرُّوم (تُركيا الحاليَّة) وسكَنَ قونية، حيثُ تتلمذ على الشّيخ العارف بالله شمس الدِّين التّبريزي، وعشق شيخه لحَدِّ الوَلَه، وعندما غادر شيخه التّبريزي إلى الشّام، ولم يعد، احترق مولانا شوقاً ولهفةً إليه، وأنشد في لواعج عشقه وهيامه ديواناً ضخماً بالفارسيَّة سمَّاه "غَزَلِيَّات شمس تبريزي".

صحب والده في جولاته بين أنحاء العالم الإسلامي. واشتهر بالتَّصوُّف، وتنسب إليه الطّريقة المولويَّة نسبة إلى كلمة مولانا. وعُرِف أتباعه بالدّراويش الرّاقصين.

كان شاعراً مُجيداً، فَنَظَمَ بالفارسيَّة والتُّركيَّة والعَرَبيَّة، وقد اشتهر بديوانه الصُّوفي الكبير "مثنوي معنوي" الذي نَظَمَهُ بالفارسيَّة، ويتألف من سبعمائة وخمسة وعشرين ألف

---

(1) انظر شَذَرَات الذَّهَب في أخبار مَنْ ذَهَبَ: عبد الحي الحَنْبَلي الدِّمشقي (1032 ـ 1089 هـ): ج 3/ ص 149 ـ 154.

بيت مع مُقدِّمة بالعَرَبِيَّة، ويُعَدُّ من روائع الأدب العالمي، وأشهر دواوين التَّصوُّف والأخلاق وقَصَص العِبَر والحِكَم في الإسلام، وقد تُرجم إلى جميع اللُّغات الحيَّة في العالم. وله كذلك كتاب "فيه ما فيه". تُوفِّي في قونية عام 672 هـ، ودُفن فيها.

11 ـ السَّيِّد أحمد البَدَوي (596 ـ 675 هـ): أحد أشهر أقطاب التَّصوُّف في مصر، تُنسب إليه الطَّريقة الأحمديَّة وعشرات الطُّرُق الصُّوفيَّة الأُخرى التي تشعَّبتْ عنها في مصر. وهُو السيِّد أحمد بن السيِّد عليّ البَدَوي بن السَّيِّد إبراهيم بن السَّيِّد مُحمَّد بن السَّيِّد أبي بكر.. ويرجع نَسَبُهُ إلى الإمام جَعْفَر الصَّادق بن مُحمَّد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحُسَين الشّهيد بن فاطمة الزّهراء بنت سيِّدنا مُحمَّد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلَّم). وُلد بمدينة فاس، إحدى مُدُن المغرب العَرَبي، عام 596 هـ؛ حيثُ كان الكثير من العَلَويِّين (نَسَبًا) قد رحلوا إليها قديماً هَرَباً من بطش الحجَّاج (في عهد الأُمويِّين). رحل به أبوه إلى الحجاز للحجّ وله من العُمر سبع سنوات، فتُوفِّي أبوه هُنالك، ودُفن بالمعلى، وعُرف بالبدوي للُزُومه اللّثام؛ لأنَّه كان يلبس لثامَيْن، ولا يُفارقهما، وبقي السَّيِّد أحمد وإخوته في مكَّة، فحفظ القُرآن، وتفقَّه على مذهب الإمام الشّافعي، ومال إلى التَّصوُّف والعُزلة والصَّمت والانقطاع للعبادة حتَّى عام 633 هـ؛ حيثُ رحل فيها إلى العراق، وزار فيها أضرحة أولياء العراق كالجيلاني والرّفاعي والحلاَّج والشّيخ عدي بن مسافر وأمثالهم، وهُناك كان يُلازم الصّيام والعبادة وقيام اللّيل، ثُمَّ رحل إلى مصر، فتلقَّاه الظّاهر بيبرس بعسكره، وأكرمه، وعظَّمه، ودخلها سنة 634 هـ، واستقرَّ به الحال في مدينة طنطا، ونزل عند أحد الصّالحين فيها، واعتلى سطح المنزل، فلم يُفارقه ليلاً ولا نهاراً اثنتَيْ عشرة سنة. ومُنذُ لحظة وُصُوله شَرَعَ في تربية الرّجال والتّلاميذ من مكان إقامته في سطح ذلك المنزل فيما عُرفَ بجامعة السّطح! وخرَّج مشايخ كُثُر، ورُويت عنه الكثير من الكرامات والأوراد والأحزاب والصّلوات والأدعية والمواعظ وأساليب السّير ومناهج التّربية والسُّلُوك إلى الله عَزَّ وجَلَّ، واشتهر بأسماء عديدة منها البدوي، وأبو الفتيان، وجيَّاب الأسير، وغيرها... تُوفِّي في طنطا سنة 675 هـ، ودُفن فيها، وجعلوا على قبره مقاماً، واشتهرت كراماته، وكثرت النُّذُور إليه، واستخلف الشّيخَ عبد العال، فعمَّر طويلاً إلى أنْ مات سنة 733 هـ،

واشتهرت أصحابه بالسُّطُوحيَّة، كما اشتهرت طريقته بالطَّريقة الأحمديَّة والبدويَّـة، وحَدَثَ للمصريِّين بعـد مُدَّة عمل المولـد لـه، فصـار احتفـالاً كبيراً يقصـده النَّاس من بـلاد بعيـدة، ولايزال المصريُّون إلى اليوم يُقيمون المولد عند ضريحه في ذكرى ولادته [1].

12 ـ **الإمام أبو الحَسَن الشَاذلي (ت 656 هـ)**: هُو السَّيِّد الزَّاهـد الشَّريف النَّسـب عليّ بن عبد الله بن عبد الحميد المغربي من ذُرِّيَّة مُحمَّد بن الحَسَن، أبـو الحَسَن الشَّاذلي من مشايخ الصُّوفيَّة الأعلام وشيخ الطَّريقة الشَّاذليَّة التي تَفَرَّعَتْ عنها عشرات الطُّرُق الأُخرى في مصر والعراق وبلاد الشَّام، سَكَنَ الإسكندريَّة، وصحبَهُ بها جماعة، وعنـه أخـذ الشَّيخ أبـو العبَّاس المرسي. والشَّاذلي نسبةً إلى شاذلة قرية بتُونُس نشأ فيها، فاشتغل بـالعُلُوم الشَّرْعيَّة، حتَّى أتقنـها، وصـار يُنـاظر عليها مع كونـه ضريراً، ثُمَّ سَلَكَ منهاج التَّصـوُّف، وجَـدَّ، واجتهد، حتَّى ظهر صلاحه وخيره، وطار في فضاء الفضائل طـيره، وحُمِدَ في طريـق القـوم سيره، وتكلَّم للنَّاس، فشنَّف الأسماع، وطاف وجال ولقي الرِّجال، وقدم إلى الإسكندريَّة من المغرب، وصار يُلازم ثغرها من الفجر إلى المغرب، وينتفع النَّاس بحديثه الحَسَن وكلامـه المُطرب، وتحوَّل إلى الدِّيـار المصريَّـة، وأظـهر فيـها طريقتـه، ولـه أحـزاب محفوظـة وأحـوال ملحوظة، قيل له: مَنْ شيخكَ؟ فقال: أمَّا فيما مضى؛ فعبد السَّلام بن مشيش، وأمَّـا الآن؛ فإنِّي أُسقى من عشرة أبحر خمسة سماويَّة وخمسة أرضيَّة، وحجَّ مـراراً ومـات قـاصداً الحـجَّ في طريقه. قال ابن دقيق العيد: مـا رأيـتُ أعْـرَفَ بـالله منـه، ومـع ذلـك؛ آذوه، وأخرجـوه بجماعته من المغرب، وكَتَبَوا إلـى نـائب الإسكندريَّة أنَّه يقـدم عليكـم مغربـي زنديـق، وقـد أخرجناه من بلدنا، فـاحذروه، فدخـل الإسكندريَّة، فـآذوه، فظـهرت لـه كرامـات أوجبتْ اعتقاده، وقد أفرد التَّاج بن عطاء الله الإسكندري مُؤلَّفاً حافلاً لترجمته وكلامه، مات رحمـه الله ـ تعالى ـ بصحراء عيذاب في مصر قاصداً للحجِّ في أواخـر ذي القعـدة سـنة 656 هـ، ودُفـن هُناك، وصار قبره مزاراً [2].

---

(1) انظر: المصدر السَّابق: ج 3/ ص 347ـ 347.

(2) انظر المصدر السَّابق: ج 3/ ص 278ـ 279.

13 ـ ابن عطاء الله الإسكندري (ت 709 هـ): هُو تاج الدِّين أبو الفضل أحمد بن مُحمَّد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري المالكي الشّاذلي، الشّيخ العارف بالله، شيخ الطّريقَيْن، وإمام الفريقَيْن، كان فقيهاً عالماً يُنكر على الصُّوفيَّة، ثُمَّ جَذَبَتْهُ العناية، فصحب الشّيخ أبا العبَّاس المرسي تلميذ أبي الحَسَن الشّاذلي، ففُتِحَ عليه على يدَيْه، والذي جرى له معه مذكورٌ في كتابه "لطائف المنن"، وصنَّف كتاباً حافلاً في مناقب أبي العبَّاس وشيخ شيخه أبي الحَسَن الشّاذلي. قال ابن حجر في الدُّرَر الكامنة: « . . وكان المُتكلِّم على لسان الصُّوفيَّة في زمانه، وهُو ممَّنْ قام على الشّيخ تقي الدِّين أحمد بن تيميَّة، فبالغ في ذلك، وكان يتكلَّم للنّاس، وله في ذلك تصانيف عديدة. قال الذَّهَبي: كانت له جلالة عظيمة، وَوَقْعٌ في النُّفُوس، ومُشاركة في الفضائل، وكان يتكلَّم بالجامع الأزهر فوق كُرسي بكلام يُروِّح النُّفُوس، ومَزَجَ كلام القوم بآثار السَّلَف وفُنُون العلم، فَكَثُرَ أتباعه». وله عدَّة تصانيف أشهرها "الحِكَم" التي صارت من أشهر الكُتُب المُتداولة لدى الصُّوفيَّة، وعُرِفت باسم "الحِكَم العطائيَّة"، وَشَرَحَهَا الكثيرون أشهرهم أحمد بن مُحمَّد بن عجيبة الحَسَني الفاسي في كتابه المُسَمَّى "إيقاظ الهمَم في شَرْح الحِكَم"، وكُلُّها مُشتملة على أسرار ومعارف وحِكَم ولطائف نَثْراً ونَظْماً، ومن كُتُب ابن عطاء الله المُفيدة ـ أيضاً ـ كتاب: "تاج العروس الحاوي لتهذيب النُّفُوس"، وما أحسن قوله في شيخه في بعض قصائده:

كم من قُلُوب قد أُميتتْ بالهوى ... أحيا بها من بعد ما أحياها

وكان شيخه أبو العبَّاس المرسي يستعير منه هذا البيت، ومَنْ طالَعَ كُتُبَهُ عَرَفَ فَضْلَهُ. تُوفِّي رحمه الله ـ تعالى ـ بمصر في نصف جمادى الآخرة سنة، ودُفِن بالقرافة. وقبره مشهور يُزار[1].

14 ـ الشّيخ الخواجة بهاء الدِّين مُحمَّد شاه نقشبند (ت791 هـ): اسمه الحقيقي الشّيخ مُحمَّد الأويسي البُخاري، من أتراك ما وراء النّهر، واشتهر بين الصُّوفيَّة والعارفين باسم الشّاه نقشبند، وسببه أنَّ الشُّيُوخ الصُّوفيَّة في بلاده كانوا يذكرون الله ـ تعالى ـ

(1) انظر المصدر السّابق: ج 3/ ص 19 ـ 20.

خفيّةً في الانفراد، وجَهْراً في الجَمْع، فأمر الخواجة بهاء الدِّين بالذِّكْر سرّاً فقط، سواء في الانفراد، أوفي الجَمْع على حَدٍّ سواء... فكان لذكْرهم السِّرِّيِّ هذا تأثير كبير في قُلُوب المُريدين، فقيل لهذا التّأثير: "نقش" يعني تأثير و"بند: أيْ ربط، فصار المعنى: ربط التّأثير.

نَذَرَ الشّيخ نفسه لخدمة الطّريقة - التي نُسبت لاسمه - ونَشَرَهَا، وعلّم النّاس آدابها وأسرارها، ونفع الله بها، حتّى صارت سُلُوك المئات والأُلُوف من طُلاّب العلم، وقد تُوفّي الشّيخ رحمه الله في بُخارى عام 791 هـ، ودُفن فيها، وله فيه قبر عامر يلتزم النّقشبنديُّون بزيارته والتّبرُّك به. وقد انتشرت هذه الطّريقة انتشاراً كبيراً بين الأتراك والتُّركمان في الجُمهُوريّات الإسلاميّة (السُّوفياتيّة سابقاً) وفي بلاد تركستان والقفقاز وأفغانستان، ثُمّ انتقلت إلى شبه القارّة الهنديّة، وممّا قوّى انتشارها في الهند جُهُود أحد شُيُوخها البارزين الذي اعتُبر المُؤسِّس الثّاني للطّريقة النّقشبنديّة ألا وهُو الشّيخ أحمد الفاروقي السّرهندي، المشهور بالإمام الرّبّاني المُجدِّد للألف الثّاني (971 - 1034 هـ/ 1563 - 1625م) صاحب المكتوبات الشّهيرة في علم التّصوُّف وأحوال العارفين.

أمّا الذي أتى بالطّريقة النّقشبنديّة إلى العراق وبلاد الشّام؛ فهُو الشّيخ المُجدِّد العارف بالله ضياء الدِّين خالد بن أحمد الكُردي النّقشبندي المُجدِّدي، من قرية "قره داغ" بالقُرب من السُّليمانيّة شمال العراق؛ حيثُ سافر إلى الهند، والتقى شيخه عبد الله الدّهلوي هُناك، فَحَمَلَ الطّريقة عنه، ونَشَرَهَا في العراق، ثُمّ رحل إلى الشّام في أيّام داود باشا والي العراق سنة 1228 هـ، واستوطن دمشق، وبنى بها مسجداً، وأصلح الكثير من الجوامع المُندرسة، ومات بها سنة 1242 هـ، مُصاباً بالطّاعون، وهُو من أقطاب النّقشبنديّة، حتّى انتفع على يده الأُلُوف، وخلّف من بعده نحو سبعمائة شيخ مُجاز بتلقين الطّريقة.

الفَصْل الثّاني:

الخَوَارج: انقساماتهم وانفصال الإباضيَّة عنهم

ابتدأ الخَوَارجُ كلامَهم في أُمُور تتعلَّق بالخلافة، فقالوا بصحَّة خلافة أبي بكر وعُمر لصحَّة انتخابهما، وبصحَّة خلافة عُثمان في سنيه الأُولى، فلمَّا غيَّر وبدَّل، ولم يسرْ سيرة أبي بكر وعُمر، وأتى بما أتى من أحداث، وَجَبَ عَزْلُهُ، وأقرّوا بصحَّة خلافة عليٍّ، ولكنَّهم قالوا: إنَّه أخطأ في التّحكيم، وحكموا بكُفْره لَمّا حكَّم، وطعنوا في أصحاب الجَمَل: طلحة، والزُّبير، وعائشة، كما حكَمُوا بكُفْر أبي مُوسَى الأشعري وعَمرو بن العاص، «وقد قُبِضَ على أحدهم (هُو عُروة بن حدير أحد الخَوَارج النّاجين من حرب النّهروان الذين بقوا إلى أيَّام مُعاوية)، ثُمَّ أتى إلى زياد بن أبيه ومعه مولى له، فسأله زياد عن أبي بكر وعُمر رضي الله عنهما، فقال فيهما خيراً، وسأله عن عُثمان، فقال: كُنتُ أُوالي عُثمان على أحواله في خلافته ستّ سنين، ثُمَّ تبرَّأتُ منه بعد ذلك للأحداث التي أحْدَثَهَا، وشهد عليه بالكُفْر، وسأله عن أمير المُؤمنين عليّ رضي الله عنه، فقال: كُنتُ أتولاَّه إلى أنْ حكَّم الحَكَمَيْن، ثُمَّ تبرَّأتُ منه بعد ذلك، وشهد عليه بالكُفْر، وسأله عن مُعاوية، فَسَبَّهُ سَبّاً قبيحاً...»[1]. فترى من هذا أنَّ كلامهم كان يدور حول تشريح أعمال الخُلفاء وأنصارهم، والبحث فيمَنْ يستحقُّ أنْ يكون خليفة، ومَنْ لا يستحقُّ، ومَنْ يكون مُؤمناً، ومَنْ لا يكون.

وقد وضعوا نَظَريَّة للخلافة؛ وهي: أنَّ الخلافة يجب أنْ تكون باختيار حُرٍّ من المُسلمين، وإذا اختير فليس يصحُّ أنْ يتنازل أو يُحكِّم، وليس بضروري أنْ يكون الخليفة قُرَشيّاً، بل يصحُّ أنْ يكون من قُرَيْش ومن غيرهم، ولو كان عبداً حَبَشيّاً، وإذا تمَّ الاختيار كان رئيس المُسلمين، ويجب أنْ يخضع خُضُوعاً تامّاً لما أمر الله، وإلا وَجَبَ عَزْلُهُ.

---

(1) المِلَل والنِّحَل للشّهرستاني: ج1/ ص 118.

ولهذا؛ أمَّروا عليهم مَنْ اختاروه منهم، «وسمّوا عبد الله بن وهب الرّاسبي أمير المؤمنين»، وقد خالفوا ـ بهذا ـ نَظَريَّة الشِّيعة القائلة بانحصار الخلافة في بيت النّبي: عليّ وآله، وأهل السُّنَّة القائلين بأنَّ الخلافة في قُرَيْش؛ وهذه النَّظَريَّة هي التي دَعَتْهُم إلى الخُرُوج على خُلَفاء بني أُميَّة، ثُمَّ العبَّاسيِّين؛ لاعتقادهم أنَّهم جائرون، غير عادلين، لم تنطبق عليهم شُرُوط الخلافة في نَظَرهم.

نرى أنَّ الخَوَارج ـ في أوَّل أمرهم ـ كانت صبغتهم سياسيَّة محضة، ثُمَّ نراهم في عهد عبد الملك بن مروان، وقد مزجوا تعاليمهم السِّياسيَّة بأبحاث لاهوتيَّة، وأكبر مَنْ كان له أثر في ذلك الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق. وأهمُّ ما قرَّره الخَوَارج في ذلك أنَّ العمل بأوامر الدِّين ـ من صلاة وصيام وعدل وصدق ـ جُزء من الإيمان، وليس الإيمان الاعتقاد وحده. فَمَنْ اعتقد أنْ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ مُحمَّداً رسول الله، ثُمَّ لم يعمل بفُرُوض الدِّين، وارتكب الكبائر، فهُو كافر.

والخَوَارج لم يكُونُوا وَحْدَة، ولم يكونوا كتلة واحدة، وإنَّما كان واضحاً فيهم الطَّبيعة العَرَبيَّة والبَدَويَّة، فسُرعان ما يختلفون، وينضمُّون تحت ألوية مُختلفة، يضرب بعضها بعضاً، ولو اتَّحدوا لكانوا قُوَّة في مُنتهى الخُطُورة على الدّولة الأُمويَّة. لذلك؛ لا نستطيع أنْ نذكر ما هُو من تعاليمهم مُشترك بين جميعهم إلاَّ النَّظَريَّتَيْن السَّابقتَيْن: نَظَريَّة الخلافة، ونَظَريَّة أنَّ العمل جُزء من الإيمان. حتَّى هاتان النَّظَريَّتان ليستا من اعتقاد جميعهم إلاَّ بقليل من التَّسامح؛ فمنهم مَنْ يرى أنْ لا حاجة للأُمَّة إلى إمام، وإنَّما على النَّاس أنْ يعملوا بكتاب الله من أنفسهم، ويظهر أنَّ هذه الفكْرة هي التي كان يفهمها بعضهم من جُملتهم المشهورة: «لا حُكْمَ إلاَّ للَّه»، وبدليل ما رُوي أنَّ عليّ بن أبي طالب لمَّا سمعهم يقولون: «لا حُكْمَ إلاَّ للَّه» قال: «قَالَ ﷺ كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بهَا بَاطلٌ، نَعَمْ؛ إنَّهُ لا حُكْمَ إلاَّ للَّه، ولكنَّ هَؤُلاء يَقُولُونَ لا إمْرَةَ إلاَّ للَّه، وإنَّهُ لابُدَّ للنَّاس منْ أميرٍ بَرٍّ أوْ فَاجرٍ يَعْمَلُ في إمْرَته المُؤمنُ، ويَسْتَمْتعُ فيهَا الكَافرُ، ويُبَلِّغُ اللَّهُ فيهَا الأَجَلَ، ويُجْمَعُ به الفَيْءُ، ويُقَاتَلُ به العَدُوُّ، وتَأْمَنُ به السُّبُلُ، ويُؤْخَذُ به للضَّعيف منَ القَويّ، حَتَّى يَسْتَريحَ بَرٌّ، ويُسْتَرَاحَ منْ فَاجرٍ»[1]؛ وقد قال ابن أبي

---

(1) نهج البلاغة: قسم خُطب أمير المؤمنين عليه السّلام، خُطبة رَقْم 40، ص 82 من الطَّبعة التي حقَّقها الدكتُور صُبحي الصّالح.

الحديد: «إنَّ الخَوَارج كانوا في بدء أمرهم يقولون ذلك، ويذهبون إلى أنَّه لا حاجة إلى الإمام، ثُمَّ رجعوا عن ذلك القول لَمَّا أمَّروا عليهم عبد الله بن وهب الرّاسبي»[1].

وعلى كُلِّ حال؛ فقد اتَّفق جُمهُور الخَوارج على النَّظريَّتَيْن السّابقتَيْن، وتفرَّقوا إلى فِرَق بَلَغَتْ في العدد نحو عشرين، كُلٌّ فرقة تُخالف الأُخرى في بعض تعاليمها، ولا يسع هذا المُختصر ذكْر جميعها[2]؛ غير أنّا نذكر ـ هُنا ـ أنَّ من أشهر فرقهم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق، وكان من أكبر فُقَهَائهم، وقد كفَّر جميع المُسلمين ما عداهم، وقال: إنَّه لا يحلُّ لأصحاب المُؤمنين أنْ يُجيبوا أحداً من غيرهم إلى الصّلاة إذا دعاهم إليها، ولا أنْ يأكلوا من ذبائحهم، ولا أنْ يتزوَّجوا منهم، ولا يتوارث الخارجي وغيرهم، وهُم مثل كُفّار العَرَب وعَبَدَة الأوثان، لا يُقبل منهم إلاَّ الإسلام أو السّيف، ودارهم دار الحرب، ويحلُّ قتْل أطفالهم ونسائهم، ولا تحلّ التَّقيَّة[3]؛ لأنَّ الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، واستحلَّ الغَدْرَ بمَنْ خالفه، وكَفَّرَ القَعَدَةَ؛ أيْ الذين يقعدون عن القتال مع قُدرتهم عليه، ولو كان هؤلاء القَعَدَة على مذهبهم.

ومن فرَقهم النّجدَات، أتباع نجدة بن عامر، وأهمُّ تعاليمه التي انفرد بها أنَّ المُخطئ بعد أنْ يجتهد معذور، وأنَّ الدِّين أمران: معرفة الله ومعرفة رسوله، وما عدا ذلك؛ فالنّاس معذورون بجهله، إلى أنْ تقوم عليهم الحُجَّة، ومَنْ أدّاه اجتهاده إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهُو معذور، وعظَّم جريمة الكذب على الزّنا وشُرب الخمر. ولنافع بن الأزرق مع نجدة بن عامر مُناقشات طويلة مُمتعة حول هذه المبادئ[4].

وكذلك من أشهر فرَقهم «الإباضيَّة» نسبة إلى رئيسهم عبد الله بن إباض التّميمي، وسأتكلَّم في الفقرة التّالية بشيء من التّفصيل عن الإباضيَّة؛ لأنَّها الفرقة الوحيدة التي بقيت

---

(1) شَرْح نهج البلاغة: 1/ 215.

(2) انظر تفصيله ذلك في كُتُب الفرَق؛ مثل كتاب "مقالات الإسلاميّين واختلاف المُصلّين" للإمام أبي الحَسَن الأشعري (المُتوفّى 330 هـ) أو "الفَرْق بين الفرَق" للإمام عبد القاهر البغدادي المُتوفّى (ت429 هـ) أو "الفَصْل في المِلَل والأهواء والنِّحَل" لابن حزم الأندلسي (456 هـ)، أو "المِلَل والنِّحَل" للشّهرستاني (548 هـ).

(3) سيأتي معناها عند الكلام على فرَق الشّيعة.

(4) اقرأها إنْ شئتَ في الجُزء الثّاني من كتاب "الكامل في اللُّغة والأدب" للمُبرِّد، وفي ص 382 من الجُزء الأوَّل من شَرْح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

من الخَوَارج، رغم أنْ أتباعها ينفرون جداً من أنْ يُصنَّفُوا مع الخَوَارج؛ لأنَّهم يختلفون معهم في الكثير، فهُم لم يُغالوا في الحُكْم على مُخالفيهم كالأزارقة، بل قالوا: يحلُّ التَّزوُّج منهم، ويتوارث الخارجي وغيرهم، ونزعتهم أميل إلى المُسالمة، فقالوا: لا يحلُّ قتال غير الخَوَارج، وسَبْيُهُم في السرِّ غيْلة، ولا يجوز قتالهم إلاَّ بعد الدّعوة وإقامة الحُجَّة وإعلان القتال، إلخ، وعاش الإباضيَّة في أكثر أحوالهم مُسالمين للخليفة.

وفرقة أُخرى من فرَقهم «الصُّفْريَّة» أتباع زياد بن الأصفر، وهُم لا يختلفون كثيراً في تعاليمهم عن الأزارقة.

وهذه الفرَق الأربعة: الأزارقة والنّجدات والإباضيَّة والصّفريَّة هي أشهر فرَق الخَوَارج وأكثرها دَوَرَاناً في الكُتُب.

والنّاظر في تاريخهم يتبيَّن فيهم ميِّزات واضحة أهمّها:

(1) التَّشدُّد في العبادة والانهماك فيها: يصفهم الشّهرستاني بأنَّهم أهل صوم وصلاة. ويصفهم المُبرِّد «بأنَّهم في جميع أصنافهم يبرؤون من الكاذب ومن ذي معصية ظاهرة»، وقد قتل أحدَهم زيادٌ، ثُمَّ دعا مولاه، فاستوصفه أمره؛ فقال: «ما أتيتُه بطعام بنهار قطّ، ولا فرشتُ له فراشاً بليل قطّ!».

ولمَّا أرسل عليٌّ عبدَ الله بن العبَّاس لأهل النّهروان من الخَوَارج «رأى منهم جباهاً قَرْحَةً لطُول السُّجُود، وأيدياً كثَفِنَات الإبل، وعليهم قُمصٌ مُرَحَّضَة وهُم مُشمِّرون».

(2) الغُلُوّ والتَّطرُّف في الحُكْم على النّاس: فقد غلوا في أنظارهم، حتَّى عدّوا مُرتكب الكبيرة - وأحياناً الصّغيرة - كافراً، وخرجوا على أئمَّتهم للهفوة الصّغيرة يرتكبونها، وتشدَّد كثير منهم في النَّظَر إلى غيرهم من المُسلمين، فَعَدُّوهم كُفَّاراً، بل كانوا يُعاملونهم أشدَّ من مُعاملة الكُفَّار. ويحكون أنْ واصل بن عطاء - رأس المُعتزلة - وَقَعَ في أيديهم، فادَّعى أنَّه (مُشرك مُستجير)، ورأى أنَّ هذا يُنجيه أكثر ممَّا تُنجيه دعواه أنَّه مُسلم مُخالف لهم، وكذلك كان؛ واشتدَّوا في مُعاملة مُخالفيهم من المُسلمين، حتَّى كان كثير منهم لا يرحم المرأة والطّفل الرّضيع ولا الشّيخ الفاني، بل لم يرضوا من مُخالفيهم أنْ يقولوا: إنَّ عليَّاً أخطأ في

التّحكيم، وعُثمان أخطأ فيما أَحْدَثَ، بل لابُدَّ أنْ يُقرَّ بكُفْرهما وكُفْر مَنْ ناصرهما، ويطلبون من عبد الله بن الزّبير أنْ يتبرأ من أبيه، ولم يكتفوا من عُمر بن عبد العزيز بعَدْله وجمال سيرته، بل طلبوا منه ـ كذلك ـ أنْ يتبرأ ممّا تبرّؤوا هُم منه، وأنْ يلعن أسلافه من بني أُميَّة؛ ولعلَّ هذا التّشدُّد وإقدامهم على سَفْك دماء مُعارضيهم هُو أكبر ما شوّه حَركَتَهُم.

(2) أخلصوا لعقيدتهم المُتطرِّفة، وقاتلوا دفاعاً عنها: ولهذا؛ نَظَرَ إليهم كثير من خيرة النّاس نظرة عطف وإشفاق، فقد رُوى أنَّ عليّ بن أبي طالب في أواخر أيّامه قال: «لا تُقاتلوا الخَوَارج بعدي. فليس مَنْ طَلَبَ الحقّ فَأَخْطَأَهُ، كَمَنْ طَلَبَ الباطلَ فَأدْرَكَهُ»، يُريد أنَّ الخَوَارج طلبوا الحقّ، وحاموا عن عقيدة اعتقدوها، وإنْ أخطؤوا فيها، وأمّا مُعاوية؛ فكان لا يطلب حقّاً، وإنّما كان يطلب باطلاً، ويُحامي عنه، وقد أدركه. وقال عُمر بن عبد العزيز ـ لبعض الخَوَارج ـ: «إنّي قد علمتُ أنّكم لم تخرجوا مُخرجكم هذا لطَلَب دُنيا أو مَتَاع، ولكنّكم أردتُم الآخرة، فأخطأتُم سبيلها»[1].

الإباضيَّة:

الإباضيَّة هُم الفرقة الوحيدة التي بقيت إلى يومنا هذا من الخَوَارج، أو بتعبير أدقّ؛ من الفرَق التي انفصلت عن الخَوَارج، وانتهجت منهجاً مُعتدلاً أقرب إلى مذهب أهل السُّنَّة والجماعة.

كيفيَّة نشأة الإباضيَّة:

بعد الهزيمة التي حلَّت بالخَوَارج على يد أصحاب الإمام عليّ ﷺ في معركة النّهروان، ثار البعض ممَّنْ بقوا، فعزموا على الانتقام بالعُنْف، بينما فضَّلَت جماعة منهم الالتزام بالهُدُوء والرّويَّة والجُنُوح إلى المُسالمة، خاصَّة وأنَّهم يُشكِّلون أقلِّيَّة ضعيفة لا يقدرون على الدّفاع عن أنفسهم، فضلاً عن تغيير الوَضْع، لذلك؛ قرَّرت هذه الجماعة المُعتدلة الرّحيل إلى البَصْرَة تحت زعامة أبي بلال مرداس بن أذيَّة التّميمي الذي نُصِّبَ إماماً للشّراة (أحد ألقاب الخَوَارج) فيما بعد.

---

(1) فجر الإسلام: أحمد أمين، ص 258 ـ 261، طبع دار الكتاب العَرَبي: بيرُوت، لُبنان، بتصرُّف يسير.

وبانتقال هذه الجماعة وتمركزها في البَصْرَة أصبحت تُشكّل فريقاً تحوّل «من حزب علَنيٍّ مُعارض إلى حزب سرّيٍّ يتطلّع إلى الوُصُول إلى السُّلطة»[1] وإقامة دولة إسلاميَّة جُمْهُوريَّة.

وبعد وفاة أبي بلال؛ انتقلت زعامة الفرقة إلى عبد الله بن إباض (تُوفّي في النّصف الثّاني من القرن الهجري الأوّل) الذي انفصل سنة 65 هـ، عن الخَوَارج (وهُم - في نَظَر الإباضيَّة - أتباع نافع بن الأزرق)، ومَكَثَ بالبَصْرَة مع أصحابه بعد خُرُوج المُتطرّفين منها. يذكر هذه الحادثة عبد الله بن إباض نفسه[2]. وهكذا بدأت الفترة الأُولى من الإباضيَّة التي يُمكن تسميتها بمرحلة الكتمان، فيكون - إذنْ - مُكُوْثُ عبد الله بن إباض بالبَصْرَة ومَنْ معه مُؤشّراً حقيقياً لتبلور الآراء الإباضيَّة وتميُّزها من غيرها من المُتطرّفين الخَوَارج، ومن ثمّ يُمكن اعتبار هذه الحادثة من النّاحية التّاريخيَّة سبباً مُباشراً لظُهُور فرقة الإباضيَّة.

إلاّ أنّه ينبغي الإشارة إلى أنّ التّأسيس الحقيقي للفرقة كان على يد الإمام جابر بن زيد الأزدي العُماني (تُوفّي سنة 93 هـ)[3] الذي انضمّ إلى جماعة أبي بلال مرداس بن أديَّة التّميمي بعد مجيئه إلى البَصْرَة[4] فكان لانضمام جابر إلى هذه الجماعة أثر بالغ في نشأة

(1) كتاب "الفكر السِّياسي عند الإباضيَّة": عدّون جهلان، نقلاً عن عوض مُحمّد خليفات (مُعاصر) التّنظيمات السِّياسة والإداريَّة عند الإباضيَّة في مرحلة الكتمان، سلطنة عُمان، د. تا، ص4.

(2) في رسالة كَتَبَها إلى عبد الملك بن مروان (65 - 86 هـ).

(3) جاء في كتاب "سيَر أعلام النُّبلاء" للذّهَبي، ترجمة جابر بن زيد المعروف بأبي الشّعثاء كما يلي:

[184 - أبو الشّعثاء جابر بن زيد الأزدي اليحمدي مولاهم البصري الخوفي بخاء مُعجمة، والخوف ناحية من عُمان، كان عالم أهل البَصْرَة في زمانه، يُعَدُّ مع الحَسَن وابن سيرين، وهُو من كبار تلامذة ابن عبّاس. حَدَّثَ عنه عَمرو بن دينار وأيوب السّختياني وقتادة وآخرون. روى عطاء عن ابن عبّاس قال: لو أنّ أهل البَصْرَة نزلوا عند قول جابر ابن زيد لأوسعهم علماً عمّا في كتاب الله. ورُوي عن ابن عبّاس أنّه قال: تسألوني، وفيكم "جابر بن زيد"؟! وعن عَمرو بن دينار قال: ما رأيتُ أحداً أعلم من أبي الشّعثاء. قال ابن الأعرابي: كانت لأبي الشّعثاء حلقة بجامع البَصْرَة يُفتي فيها قبل الحَسَن، وكان من المُجتهدين في العبادة. وقال قتادة يوم موت "أبي الشّعثاء": اليوم دُفن أعلم أهل البَصْرَة، أو قال عالم العراق. وعن إياس بن مُعاوية قال: أدركتُ أهل البَصْرَة ومُفتيهم "جابر بن زيد". وعن أبي الشّعثاء قال: لو ابتُليتُ بالقضاء لركبتُ راحلتي، وهربتُ. قال أحمد والفلاّس والبُخاري وغيرهم: تُوفّي أبو الشّعثاء سنة ثلاث وتسعين. وشذَّ مَنْ قال: إنّه تُوفّي سنة ثلاث ومئة. حديثه في الدّواوين المعروفة.] انتهى مُختصراً من سيَر أعلام النُّبلاء: ج 4/ ص 481 - 483.

(4) كتاب "الفكر السِّياسي عند الإباضيَّة": عدّون جهلان، ص 32، مكتبة الضّامري - السِّيب - سلطنة عُمان. نقلاً منه عن عوض مُحمّد خليفات، الأُصُول التّاريخيَّة للفرقة الإباضيَّة، ص 6.

الإباضيَّة وتحديد معالم أفكارها وآرائها، ولعلَّ أهمَّ شيء جعل الإمام جابر يميل نحو جماعة أبي بلال موقف هؤلاء من الأوضاع السَّائدة آنذاك؛ حيثُ يرون أنَّ القتال بين أتباع العقيدة الإسلاميَّة أمر لا يقبله العَقْل ولا الدِّين، وما لبث الإمام جابر أنْ أصبح رئيس الجماعة والمُؤسِّس الحقيقي للحركة، نَظَراً لفضله وعلمه، وتتلمذ عبد الله بن إباض على جابر بن زيد، وأخذ عنه الكثير. واتَّخَذَ جابر طريق السِّرِّيَّة والكتمان في نَشْر الدَّعوة، وحظي بمكانة عالية وثقة واسعة في مُجتمع البَصْرَة، بفضل ثقله العلمي وموقفه الاعتدالي، والحقيقة أنَّ هذا النَّهج الاعتدالي والسِّرِّيَّ هُو الذي مكَّن هذه الفرقة من الاستمرار والبقاء؛ حيثُ بقيت إلى يومنا هذا. وتذكر المصادر أنَّ جابراً كان يشترك مع الخَوَارج المُتطرِّفين في مُناقشات سياسيَّة، وكان عبد الله بن إباض - من قبله - ينتهج الأسلوب نفسه في سياسة اللِّين مع الخليفة الأُموي عبد الملك عن طريق المُراسلات... وقد سجَّل التَّاريخ رسالتَيْن لعبد الله بن إباض تدلُّ على العلاقة الوُدِّيَّة بينهما، كما كان عبد الله بن إباض صاحب مُناظرات كلاميَّة مع الخَوَارج.[1]

الإباضيُّون والخَوَارج: نقاط الاختلاف والاتِّفاق:

في الواقع؛ يُخالف الإباضيُّون الخَوَارجَ في أهمِّ القضايا الفقهيَّة الحسَّاسة المُميِّزة للخَوَارج؛ وهي استباحة دماء المُخالفين، فعلى عكس الخَوَارج؛ يُحرِّم الإباضيُّون قَتْلَ المُوحِّدين، واستحلال دمائهم، ويُحرِّمون استعراض النَّاس وامتحانهم الذي كان يقوم به مُتطرِّفو الخَوَارج كالأزارقة والنَّجديَّة، كما لم يحكموا على مُرتكب الكبيرة بالشِّرْك والكُفْر، بل وَصَموه بكُفْران النِّعمة، وكان عبد الله بن إباض شديد الإنكار للآراء المُتطرِّفة التي كان يُنادي بها "نافع بن الأزرق"، وكان يُعلن بُطلانها بصراحة تامَّة، ويُحذِّر النَّاس منها، ولذا؛ نجد الإباضيَّة اليوم يرفضون - بشدَّة - اعتبارهم من الخَوَارج.

ولكنْ؛ من الجهة الأُخرى فهُم الفرقة الوحيدة من المُسلمين الباقية إلى اليوم، والتي تتَّفق مع الخَوَارج القُدماء في عدد من القضايا؛ مثل رَفْض التَّحكيم الذي وَقَعَ بين جيش عليٍّ ومُعاوية، والبراءة من عُثمان ﷺ، ويقولون فيه قولاً شديداً، والبراءة من عليٍّ ﷺ بعد قبوله

---

(1) مُلخَّص من المصدر السَّابق: ص 33 - 48.

التّحكيم، ويُضلّلونهما، ويعتبرون قَتَلَتَهُمَا مُجتهدين مُصيبين! بل يترحّمون على عبد الرّحمن بن مُلجم المُرادي قاتل الإمام عليّ (رضوان الله عليه) وأخفُّ ما يقولون فيه: إنّه اجتهد فأخطأ، فيُثاب على اجتهاده!!، كما يتولّون عبد الله بن وهب الرّاسبي، ويترحّمون على قَتْلَى النّهروان، ويعتبرونهم من الشُّهداء.

العقائد الأُخرى للإباضيّة:

يدعُو الإباضيُّون إلى تنزيه الله تنزيهاً مُطلقاً عن الجسميَّة ومُشابهة المُحْدَثَات، وكُلُّ ما جاء في القُرآن الكريم أو السُّنَّة الشّريفة ممّا يُوهم التّشبيه فإنَّهم يُؤوِّلُونه بما يُفيد المعنى، ولا يُؤدِّي إلى التّشبيه، كما ينفون إمكانيَّة الرُّؤية البَصَريَّة للَّه - تعالى - في الآخرة لقوله سُبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ويُؤوِّلُون بعض مسائل الآخرة تأويلاً مجازيّاً كالميزان والصّراط، ويقولون: القُرآن مخلوق، ويقولون بأنَّ الإنسان حُرٌّ مُختار في أفعاله، وينفون الجَبْر، ويقولون: لا يُوجد منزلة بين الإيمان والكُفْر، ومُرتكب الكبيرة كافر؛ أيْ كافر بالنّعمة، لا كُفْر ملَّة (خلافاً لقول سائر المُسلمين بأنَّ مُرتكب الكبيرة مُؤمن عاصٍ فاسق)، ويرون بأنَّ الخلافة ينبغي أنْ لا تنحصر في قُرَيْش، والإمامة بالوصيَّة باطلة عندهم، ولا يكون اختيار الإمام إلاَّ عن طريق البَيْعَة، ولديهم نظام اسمه (حلقة العزابة) وهي هيئة محدودة العدد تُمثِّل خيرة أهل البلد علماً وصلاحاً، تقوم بالإشراف الكامل على شُؤُون المُجتمع الإباضي الدِّينيَّة والتّعليميَّة والاجتماعيَّة والسّياسيَّة، كما تُمثِّل مجلس الشُّورى في زمن الظُّهُور والدّفاع، أمَّا في زمن الشّراء والكتمان؛ فإنَّها تقوم بعمل الإمام، وتُمثِّله في مهامِّه، ولديهم مُنظَّمة اسمها (ايروان) تُمثِّل المجلس الاستشاري المُساعد (للعزابة)، وهي القُوَّة الثّانية في البلد بعدها.

ونُلاحظ أنَّ عقائدهم في الإلهيَّات - أيْ التّوحيد والتّنزيه والصّفات وخَلْق القُرآن والعَدْل الإلهي والقضاء والقَدَر؛ أيْ مسألة الجَبْر والاختيار - مُتطابقة مع عقائد الشّيعة والمُعتزلة (راجع شَرْح هذه العقائد في قسم المذاهب الكلاميَّة خاصَّة المُعتزلة من هذا الكتاب)، ولا عَجَبَ في ذلك، فالخَوَارج كانوا - في بداية أمرهم - من أنصار وأتباع الإمام عليّ عليه السلام قبل أنْ ينفصلوا عنه، وينقلبوا ضدَّه، لذلك؛ تأثَّروا بمشربه العقائدي في هذا المجال.

وأمَّا فقْههم؛ فهُو مدرسة فقْهيَّة اجتهاديَّة مُستقلَّة، لكنَّها لا تبعد في آرائها عن فقْه المدارس الفقْهيَّة الأربعة لأهل السُّنَّة والجماعة.

التَّوزُّع الجغرافي للإباضيَّة اليوم:

لا يزال أتباع هذه الفرقة يعيشون إلى يومنا هذا في سلطنة عُمَان، ويُشكِّلون أغلبيَّة المُسلمين فيها، وهي - بالمُناسبة - الدّولة المُسلمة الوحيدة التي يُشكِّلون الأغلبيَّة فيها، كما أنَّهم يُوجدون في مناطق من شمال أفريقيا مثل جبل نفُّوسة جنوب ليبيا، وجزيرة جربة جنوب تُونُس، وفي ورقلة ومزاب من بلاد الجزائر، وأقلِّيَّة في تنزانيا، وبُورُوندي، وراواندا في شرق أفريقيا. ولا يتجاوز مجموع الإباضيَّة في العالم كُلِّه بضعة ملايين فحسب.

وسبب انتشارهم في عُمَان يعود إلى أنَّ الإمام "جابر بن زيد" الأزدي العُماني، ركَّز - مُنذُ البداية - دعوته على قبيلته "أزد" العُمانيَّة، فوجَّه إليها كُلَّ عنايته، وبحُكْم مركزه بين أقاربه فإنَّه لم يلقَ صُعُوبة في إقناعهم، وهكذا انتشر المذهب بين أهل عُمَان مُنذُ ذلك الزّمن القديم، وبقي فيها، ولا زال هُو المذهب الرّئيسي لأهلها إلى يومنا هذا.

أمَّا بالنّسبة للتّواجد الإباضي في دُول المغرب العَرَبي شمال أفريقيا؛ فيعود إلى أنَّ الإباضيَّة أرسلوا - مُنذُ بدايات أمرهم - دُعاةً إلى المغرب لنَشْر الدّعوة منهم الشّيخ "سلامة بن سعد" (من أهل البَصْرَة ومشايخ الإباضيَّة في القرن الهجري الثّاني)، فَنَجَحَ - بعد عشرين سنة - في تكوين جماعة مُعتَبَرَة من الإباضيِّين في طرابلس الغرب؛ يتزعَّمها رجل يُدعى عبد الله بن مسعود التُّجَيْبي، الذي آزرته قبيلة هوارة، التي اعتنقت المذهب الإباضي، ثُمَّ تبعتها قبيلة زناتة في شرق طرابلس، ونفُّوسة في الجبل - ويحمل إلى اليوم اسم جبل نفُّوسة - وبفضل القبائل البربريَّة؛ انتشر المذهب الإباضي في شمال أفريقيا، ولا يزال يُوجد إلى اليوم في قبائل تسكن الصّحراء في جنوب ليبيا والجزائر (بني ميزاب في تيهرت) ويُسمّون بإباضيَّة المغرب.

كما تُوجد بعض الأقلِّيّات الإباضيَّة اليوم في بعض بلدان شرق أفريقيا مثل "تنزانيا"، و"زنجبار"، و"راواندا"، و"بُورُوندي"، بسبب انتقال بعض التُّجَّار العُمَانيِّين الإباضيِّين إليها مُنذُ مئات السّنين، واستقرارهم وبقائهم فيها.

الفَصْل الثّالث:

الشِّيعة: الانقسامات، وظُهُور الفرَق الشِّيعيَّة الرّئيسيَّة

قُلنا: إنَّ الشِّيعة بدؤوا ذلك الفريق من المُسلمين الذين عُرفوا بانقطاعهم إلى عليّ بن أبي طالب، والقول بإمامته، وأفضليّته على كُلّ مَنْ سواه، وإنَّه أحقُّ النّاس بخلافة رسول الله في ولاية أمر المُسلمين، وقالوا: إنَّ عليّاً مع الحقّ يدور معه حيثُ دار، وأوجبوا نُصرته على كُلّ مَنْ خالفه وعاداه، عملاً بأمر رسول الله الذي نصَّ على عليٍّ بأنَّه مولى المؤمنين، وولي كُلّ مُؤمن، وأنَّه إمام أهل البيت والثّقل الأصغر الذين تَركَهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في المُسلمين، وأمر بالتّمسُّك بهم مع القُرآن الكريم، ثُمَّ دانوا بإمامة ولدَيْه الحَسَن والحُسَين من بعده.

وإذْ اتَّفق جميع الشِّيعة على تلك القاعدة الأساسيَّة، فإنَّهم بدؤوا يختلفون، لا سيما بعد استشهاد الإمام الحُسَين، حول الأئمَّة التّالين، وحول صفات الإمام التي يجب أنْ تتوفَّر فيه ليصير إماماً، وحول طبيعة الإمامة وخصائص الإمام، والموقف ممَّنْ سَلَف من الصّحابة، والأهمُّ من ذلك كُلّه، ولعلّه السّبب الحقيقي والأساسي وراء الانقسامات الشِّيعيَّة، هُو اختلافهم في أُسلُوب المُعارضة السِّياسيَّة للنّظام القائم؛ أيْ طريقة مُواجهة حُكَّام الوقت الظّلَمَة الغاصبين، والسّبيل لإحياء حُكُومة العَدْل والكتاب والسُّنَّة بإمامة الإمام من آل مُحمَّد عليهم السّلام. . وتولَّدت من تلك الاختلافات فرَق شيعيَّة عديدة، ولن أتعرَّض ـ هُنا ـ لذكْر كُلّ تلك الفرَق التي تذكرها كُتُب الفرَق القديمة؛ لأنَّ أكثر تلك الأسماء والعناوين الكثيرة التي يذكرونها، كالسَّبَئيَّة والكَيْسَانيَّة والكامليَّة والمُغيريَّة والمَنْصُوريَّة والبَنَانيَّة والخطّابيَّة

والحربيَّة والنّاووسيَّة والفطحيَّة والمُباركيَّة والسّميطيَّة. . . . إلخ[1] هي مُجرَّد أسماء لمجموعات صغيرة تَبِعت شيخاً نادى ببعض الأفكار الجديدة، أو قام بحركة سياسيَّة ما، أو مجموعات وقفت عند إمام دُون آخر، وليست بمذاهب قائمة بذاتها، أو فرَق بالمعنى الدّقيق للكلمة، ولئن شكَّل بعضها ما يصلح أنْ يُسمَّى مذهباً، فقد اندثر، ولم يعد له أتباع، أو على الأقلّ؛ ذاب وانصهر في أحد الفرَق الشّيعيَّة الرّئيسيَّة الباقية إلى يومنا هذا، ألا وهي:

(1) **الشّيعة الزّيديَّة**: التي ساقت الإمامة إلى كُلّ فاطمي عالم عدل شُجاع خرج بالسّيف، فآثرتْ زيداً على أخيه الأكبر مُحمَّد الباقر ابنَيْ عليّ بن الحُسَين زين العابدين؛ لأنَّ زيداً خرج بالسّيف خلافاً لأخيه، ثُمَّ ساقت الإمامة بعد زيد إلى ابنه يحيى، ثُمَّ إلى سلسلة من الأئمَّة الخارجين بالسّيف؛ إذْ الخُرُوج أهمّ مبدأ لدى الزّيديَّة - سواء كان الخارج حَسَنيّاً أم حُسَينيّاً. فالزّيديَّة تبنَّت مبدأ الإمامة السّياسيَّة، وجعلت "الخُرُوج" مبدأً أساسيّاً؛ أيْ اعتمدت أسلُوب المُعارضة باستخدام سلاح "السّيف".

(2) **والشّيعة الإماميَّة الاثنَيْ عشريَّة**: التي ساقت الإمامة في ذُرِّيَّة الحُسَين فقط، ممَّنْ اعتزل الثّورات، وآثر التَّقيَّة، بدءاً بعليّ بن الحُسَين زين العابدين وانتهاء بالإمام الغائب مُحمَّد بن الحَسَن العسكري المُعتبر عندهم المهدي الحيّ الغائب المُنتظر. وقد تبنَّت مبدأ الإمامة الرُّوحيَّة، واتَّخَذَتْ من "التَّقيَّة" مبدأً أساسيّاً، واعتمدت أسلُوب المُعارضة باستخدام سلاح "الكلمة".

(3) **والشّيعة الإسماعيليَّة**: التي بدأت إماميَّة، ثُمَّ افترقت عنها عندما ساقت الإمامة بعد الإمام جَعْفَر الصّادق - الإمام السّادس في سلسلة الأئمَّة لدى الإماميَّة الاثنَيْ عشريَّة - إلى ابنه الأكبر إسماعيل، مع ما أُشيع من أنَّه مات في حياة أبيه، ثُمَّ إلى ابنه مُحمَّد

---

(1) انظر في فرَق الشّيعة ما ألَّفه قُدماء الشّيعة (الإماميَّة) أنفسهم ككتاب "المقالات والفرَق": لسعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي (301 هـ) الذي يُعَدُّ من أكابر مُحدِّثي الشّيعة الإماميَّة وفُقَهَائهم الموثوقين، وكتاب "فرَق الشّيعة" تأليف: أبي مُحمَّد الحَسَن بن مُوسَى النّوبختي المُتوفَّى فيما بين سنة 300 و310 هـ، والذي كان من أفاضل مُتقدِّمي الشّيعة وكبار عُلمائهم أيضاً، وكتابه من أهمّ الكُتُب التي تُؤرِّخ لفرَق الشّيعة. كما ذَكَرَتْ فرَق الشّيعة أيضاً كُلّ كُتُب الفرَق التي ألَّفها عُلماء من أهل السُّنَّة، ككتاب "مقالات الإسلاميّين واختلاف المُصلّين" للإمام أبي الحَسَن الأشعري (المُتوفَّى 330 هـ) أو "الفَرْق بين الفرَق" للإمام عبد القاهر البغدادي المُتوفَّى (ت 429 هـ) أو "الفَصْل في المِلَل والأهواء والنِّحَل" لابن حزم الأندلسي (456 هـ)، أو "المِلَل والنِّحَل" للشّهرستاني (548 هـ).

ابن إسماعيل الذي اعتَبَرَتهُ إماماً مستوراً، ثُمَّ في سلسلة أبنائه، واتَّخَذَتْ مبدأ **الإمامة الباطنيَّة القائمة على الرّمز، وأنَّ لكُلِّ ظاهر باطن، هادفةً ـ بذلك ـ إلى إخفاء مقاصدها، واعتمدت أُسلُوب المُعارضة باستخدام سلاح "الحركات السِّرِّيَّة".**

وسأقتصر في الكلام على هذه الفرَق الباقية إلى اليوم، شارحاً كيفيَّة نشأتها، وتطوُّرها، وأماكن انتشارها، وأهمَّ ما تميَّزت به من عقائد.

هذا؛ وقد نشأت لكُلٍّ من تلك الفرَق الشِّيعيَّة الثّلاث ـ أيضاً ـ فُرُوع وتيَّارات في داخلها، أو فرَق انشعبتْ عنها، فانشعبتْ فرَق الغُلاة (كالنُّصَيْريَّة) عن الاثنَيْ عشريَّة، وانقسمتْ الإسماعيليَّة بعد زوال الدّولة الفاطميَّة، إلى قسمَيْن رئيسيَّيْن هُما الإسماعيليَّة المُستعلية (واشتُهروا بالبهرة) والإسماعيليَّة النّزاريَّة، وهؤلاء ـ أيضاً ـ صاروا ـ فيما بعد ـ نزاريَّة آغاخانيَّة ونزاريَّة مُؤمنيَّة، بالإضافة لطائفة المُوحِّدين (الدُّرُوز) التي تَفَرَّعَتْ عن الإسماعيليَّة في أواخر عهد الدّولة الفاطميَّة زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، ممَّا سنشرحه في موضعه قريباً.

الشِّيعة الزَّيديَّة:

هُم الذين تمسَّكوا بقول زيد بن عليّ بن الحُسَين بن عليّ بن أبي طالب (80 ـ 121 هـ) الذي تتلمذ على واصل بن عطاء (أحد أئمَّة المُعتزلة)، ثُمَّ خرج على الدّولة الأُمويَّة في أيَّام هشام بن عبد الملك الذي عُرِف بالتَّجبُّر في الأرض والفُسق والفُجُور، بعد أنْ بايعه أكثر من خمسة عشر ألفاً من شيعة الكُوفة، وكان شعاره في خُرُوجه: «إنِّي أدعو إلى كتاب الله وسُنَّة نبيِّه وإحياء السُّنن وإماتة البدَع، فإنْ تسمعوا يكنْ خيراً لكم، وإنْ تأبوا، فلستُ عليكم بوكيل». وكان أمير الكُوفة الأُموي آنذاك "يُوسُف بن عُمر الثّقفي"، وكان زيد بن عليّ يُفضِّل عليّ بن أبي طالب على سائر أصحاب رسول الله، ولكنَّه يتولَّى أبا بكر وعُمر، ويرى الخُرُوج على أئمَّة الجور، فلمَّا ظهر بالكُوفة في أصحابه الذين بايعوه سمع من بعضهم الطَّعْن على أبي بكر وعُمر، فأنكر ذلك على مَنْ سمعه منه، فتفرَّق عنه الذين بايعوه، فقال لهم:

رَفَضْتُمُوني، فيُقال: إنَّهم سُمّوا الرّافضة لقول زيد لهم رَفَضْتُمُوني، وهكذا لم يبقَ مع زيد إلاَّ جماعة قليلة، جاهد فيهم ببسالة جُنْدَ والي الكُوفة "يُوسُف بن عُمر الثّقفي" فاستُشْهد (121 هـ)، وَدَفَنَهُ بعض أنصاره في مكان سرِّيٍّ ليلاً، لكنَّ أعداءه اكتشفوا قبره، فنبشوه، واستخرجوه، وصلبوه عرياناً على نخلة، وبقيت جثّته مصلوبة مُدَّة طويلة من الزّمن.

ومن هُنا؛ تقول الزّيديَّة ـ تبعاً للإمام زيد ـ أنَّ علياً ﷺ كان أولى النّاس ـ بعد رسول الله ـ بالنّاس، لفضله وسابقته وقرابته وعلمه، وهُو أفضل النّاس كُلّهم بعده وأشجعهم وأسخاهم. . ولكنَّهم أجازوا ـ مع ذلك ـ خلافة أبي بكر وعُمر، ورأوهما أهلاً لذلك المكان والمقام. واحتجّوا في ذلك بأنَّ علياً سلَّم لهما الأمْر، ورضي بذلك، وبايعهما طائعاً غير مُكره، وتَرَكَ حقَّه لهما، قالوا: فنحنُ راضون كما رضي المُسلمون له، ولِمَنْ تابع، لا يحلُّ لنا غير ذلك، ولا يسع أحد إلاَّ ذلك، وأنَّ ولاية أبي بكر صارت رشداً وهُدى لتسليم عليّ سلامُ الله عليه، له ذلك ورضاه، ولولا رضاه وتسليمه لكان أبو بكر مُخطئاً ضالاً هالكاً، ومن هُنا؛ قالوا بقاعدة: جواز إمامة المفضول مع وُجُود الأفضل.

وظهر جناح آخر من الزّيديَّة سُمّوا بالجاروديَّة، وكانوا أقرب لفكْرة الإماميَّة بشأن عليّ وأبي بكر وعُمر؛ حيثُ كانوا أصحاب الجارود زياد بن المُنذر بن زياد الأعجمي (تُوفّي 150 أو 160 هـ) الذي كان من أتباع الإمام مُحمَّد الباقر، ثُمَّ جَعْفَر الصّادق، ثُمَّ تركهما ولحق بالزّيديَّة، فقالوا: إنَّ الأمْر كان بعد رسول الله لعليٍّ، ثُمَّ للحَسَن، ثُمَّ للحُسَين، نصٌّ من رسول الله، بالوصف لا بالاسم، وصيَّةٌ منه إليهم واحداً بعد واحد، ولم يروا مقام عليٍّ لأحد سواه، لذلك؛ رأوا أنَّ مَنْ دَفَعَ علياً من هذا المقام فهُو ضالٌّ، وأنَّ الأُمَّة ضلَّت بتركها بَيْعته، ثُمَّ جعلوا الإمامة بعد الحَسَن والحُسَين هي شُورى بين أولادهما، فَمَنْ خرج منهم ـ سواء كان من ذُرِّيَّة الحَسَن أو من ذُرِّيَّة الحُسَين، وشهر سيفه، ودعا إلى نفسه ـ فهُو المُستحقُّ للإمامة. ولا يزال هذان الجناحان أو النّمطان من التّفكير بين الزّيديَّة إلى اليوم.[1]

---

(1) "المقالات والفِرَق" لسعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي، ص 15 وما بعدها. و"المِلَل والنِّحَل" للشّهرستاني: ج 1 / ص 154 ـ 155، ومقالات الإسلاميّين لأبي الحَسَن الأشعري: ج 1/ ص 65.

وأصل أئمَّة الزّيديَّة مبدأ الخُرُوج على المُلُوك الجائرين لإقامة حُكْم العَدْل على أساس الكتاب والسُّنَّة وإمامة الرّضا من آل مُحمَّد، فخرج بعد زيد بن عليّ ابنه يحيى الذي اجتمع عليه جماعة كثيرة من أنصار ومُحبّي أهل البيت في خُراسان أيَّام الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فوجَّه إليه والي خُراسان من قِبَل الأُمويِّين نصر بن سيَّار بن رافع الأقطع صاحب شُرطته سلم بن أحوز المازني، فلقيه، ووقعت بينهم الحرب، وانتهى القتال باستشهاد يحيى، وصلبه، تماماً كما فُعل بأبيه رحمهما الله. ثُمَّ خرج مُحمَّد بن عبد الله بن الحَسَن المثنى بن الحَسَن السّبط الشّهير بالنَّفْس الزكيَّة في المدينة المُنوَّرة على الخليفة العبَّاسي أبي جَعْفَر المنصور، وخرج كذلك أخوه إبراهيم بن عبد الله على الخليفة نفسه في البَصْرَة، لكنَّ ثوراتهم لم تتكلَّل بالنّجاح، حتَّى ظهر النّاصر الأطروش: الحَسَن بن عليّ بن عُمر بن عليّ بن الحُسَين بن عليّ بن أبي طالب بخُراسان سنة 284، وقيل: سنة 287، فطُلِبَ مكانه، فاختفى، واعتزل الأمْر، ثُمَّ صار إلى بلاد الجيل (أيْ مُحافظة جيلان الحاليَّة شمال إيران) والدّيلم، فدعا النّاس دعوة الإسلام على مذهب زيد بن عليّ، فدانَ له النّاس بذلك، ونشؤوا عليه، وبقيت الزّيديَّة في تلك البلاد ظاهرين [1]، ولكنَّها مالت بعد ذلك عن القول بإمامة المفضول، وَطَعَنَتْ في الخُلفاء الذي تولّوا قبل عليّ طَعْنَ الإماميَّة، وذلك بعد ظُهُور الدّولة البُويهيَّة (320 ـ 447 هـ/ 932 ـ 1055م) التي كانت زيديَّة في البداية، ثُمَّ تحوَّلت ـ تدريجياً ـ إلى إماميَّة.

كما ظهر في اليمن "يحيى بن الحُسَين بن القاسم الرّسّي" الذي قدم إليها من جبل الرّسّ سنة (284 هـ/ 987 م)، فدعا إلى نفسه بالإمامة، وتلقَّب بالهادي، ومُنذُ ذلك الحين؛ صارت اليمن مركز الزّيديَّة، فهُم الغالبيَّة في شمال اليمن؛ لا سيما في مُدُن صنعاء وصعدة وذمار وما جاورها، وهُناك بعض من الزّيديَّة في أندونيسيا ممَّنْ هاجر إليها من أهل اليمن وقلَّة قليلة في مناطق مُتفرِّقة من أرض الحجاز أو مصر.

أهمُّ ما تميَّزت به الزّيديَّة من سائر الشّيعة:

ساق الزّيديَّة الإمامة في أولاد فاطمة، ولم يُجوِّزوا ثُبُوت الإمامة في غيرهم (كمُحمَّد ابن الحَنَفيَّة مثلاً)، إلاَّ أنَّهم جوَّزوا أنْ يكون كُلُّ فاطميٌّ عالمٍ زاهدٍ شُجاعٍ سخيٍّ خرج

(1) تاريخ الأُمم والمُلُوك للطّبري: 11/ 408، والكامل في التّاريخ لابن الأثير: 8/ 26.

للإمامة: إماماً واجب الطّاعة، سواءٌ كان من أولاد الحَسَن أو من أولاد الحُسَين، وبهذا؛ يكونون قد خالفوا بقيَّة الشِّيعة في نُقطتَيْن: الأُولى اشتراطهم القيام؛ أيْ الثّورة والخُرُوج بالسّيف، لثُبُوت الإمامة، والثّانية تجويزهم الإمامة في أولاد الحَسَن والحُسَين، في حين حَصَرَهَا بقيَّة الشِّيعة في أولاد الحُسَين فحسب.

رُوي أنَّ مُحمَّد بن عليّ الباقر (الإمام الرّابع عند الشِّيعة الإماميَّة) أخذ على أخيه زيد تَتَلْمُذَهُ على واصل بن عطاء، الذي جوَّز الخطأ على جَدِّه الإمام عليّ في قتال النّاكثين والقاسطين والمارقين؛ حيثُ أنَّ واصلاً كان يعتقد أنَّ الإمام عليّ - في حُرُوبه التي جرت بينه وبين أصحاب الجَمَل وأصحاب الشّام - ما كان على يقين من الصّواب، وأنَّ أحد الفريقَيْن كان على الخطأ لا بعينه! ولذلك؛ جرَتْ بين الأخوَيْن زيد ومُحمَّد الباقر مُناظرات حول القضاء والقَدَر وحول شرط الخُرُوج للإمام حتَّى يكون إماماً، وقال له الباقر: على مُقتضى مذهبكَ؛ فإنَّ والدكَ الإمام زين العابدين ليس بإمام؛ لأنَّه لم يخرج قطُّ، ولا تعرَّض للخُرُوج!

ومن أهمِّ ما تميَّز به الزّيديَّة من غيرهم من الشِّيعة أيضاً، تجويزهم خُرُوج إمامَيْن في قُطرَيْن مُتباعدَيْن إذا تعذَّر وُصُول دعوة الأوّل إلى الثّاني، فيكون هُناك إمامان في نفس الوقت، لكنَّهم أئمَّة دُعاة إلى الإمام الرّضا منهم، فإذا انتصرت الدّعوة، واتَّسعت الرُّقعة، فإنَّ الأمْر يكون لأسبقهما إلى الدّعوة، فإنْ لم يُعرف أسْبَقَهُمَا كان لأكْفَأهما.[1]

كما أنَّهم تميَّزوا من الإماميَّة والإسماعيليَّة برَفْضهم التَّقيَّة، وإنكارهم العصمةَ، والعلمَ اللّدني للأئمَّة، وإنكارهم المهديَّة والرّجعة، كما تميَّزوا بفقْههم في الفقْه والأحكام والمواريث الذي هُو أقرب إلى مذاهب أهل السُّنَّة الفقْهيَّة، ومُنفتح عليها وعلى كُتُب الحديث لدى أهل السُّنَّة. لذا؛ كان الشِّيعة الزّيديَّة أقرب طوائف الشِّيعة إلى أهل السُّنَّة.

أمَّا من ناحية العقائد الإيمانيَّة حول الإلهيَّات والصِّفات وخَلْق القُرآن والعَدْل الإلهي وقضايا الجَبْر والاختيار وحُكْم مُرتكب الكبيرة وغيرها التي وقع فيها الخلاف بين المُسلمين كما سنشرحه في موضعه؛ فالزّيديَّة مُعتزلة تماماً، بل هُناك مَنْ جعل طبقات المُعتزلة طبقات الزّيديَّة نفسها.

---

(1) كتاب "الزّيديَّة": للدُّكتور محمُود أحمد صُبحي، ص 62.

البيت العَلَوي وأئمة الزَّيديَّة

(1) (عليّ بن أبي طالب) 40 هـ

- (2) [الحسَن] (من فاطمة بنت الرّسول) 50 هـ
  - الحسَن
    - إبراهيم
      - إسماعيل (الدّيباج)
        - إبراهيم طباطبا (199 هـ)
          - (11) [مُحمَّد]
          - [القاسم] (الرسي)
            - الحُسَين
              - [يحيى] (الهادي إلى الحقّ)
                أقام دولة للزّيديَّة بأرض اليمن بعد أن بُويع بإمامة الزّيديَّة عام 280 / 893م. ولُقِّب بالإمام الهادي إلى الحقّ وسُمّي مذهبه الفقهي بالهادويَّة الزّيديَّة
      - إسحق
        - عبد الله
    - عليّ
      - (8) [الحُسَين] (صاحب فخ) (170 هـ)
    - عبد الله المحض
      - إبراهيم
      - (9) [يحيى]
      - (7) [مُحمَّد] (النّفس الزكيَّة)
        - جعفر
          - (10) [مُحمَّد]
    - زيد
      - مُحمَّد
        - إدريس ذهب إلى المغرب
        - سُليمان
      - الحسَن
        - القاسم
          - عبد الرّحمان
            - الحسَن
              - القاسم
                - الحسَن (الدّاعي)
                  - مُحمَّد (أبو عبد الله) المهدي لدين الله
          - مُحمَّد
            - هارون
              - مُحمَّد
                - الحُسَين
                  - هارون
                    - الحُسَين
                      - أحمد
                        - الحُسَين
- (3) [الحُسَين] (من فاطمة بنت الرّسول) 63 هـ
  - عُمر الأشرف (بن عليّ زين العابدين)
    - عليّ
      - الحسَن
        - عليّ
          - [الحسَن] (النّاصر للحقّ الأطروشي)
            - مُحمَّد
              - (12) [مُحمَّد]
            - عيسى
              - عليّ
                - مُحمَّد
                  - عليّ
              - مُحمَّد
                - عليّ
            - الحُسَين
              - عمر
                - أبو الحُسَين يحيى
            - (6) [يحيى] (126 هـ)
              - مُحمَّد الإمام
                - إبراهيم الإمام
      - القاسم
        - أبو جعفر محمد
  - عبد الله
    - إبراهيم
      - يوسف
        - مُحمَّد
        - إسماعيل
  - (4) [عليّ] (زين العابدين) 95 هـ
    - (5) [زيد] (121 هـ)
    - (5) مُحمَّد الباقر (114هـ)
      - (6) جعفر الصّادق (148هـ)
        - إسماعيل
          - مُحمَّد
            - إسماعيل
              - مُحمَّد
                - أحمد
                  - عبد الله
                    - أحمد
                      - حُسَين
                        - عبد الله المهدي (رأس الفاطميّين)

          الأئمَّة المستورون عند الشّيعة الإسماعيليَّة (الباطنيَّة)
        - عبد الله الأفطح
        - مُوسى الكاظم
          - (13) [إبراهيم] (199 هـ)
          - (8) أبو الحسَن عليّ الرّضا (203 هـ)
            - (9) أبو جعفر مُحمَّد الجواد (220 هـ)
              - (10) عليّ الهادي
                - أبو جعفر مُحمَّد
                - (11) أبو مُحمَّد الحسَن بن عليّ الهادي العسكري (260 هـ)
                  - (12) مُحمَّد (المهدي المُنتظَر) اختفى سنة 261 هـ
                    → الشّيعة الإماميَّة الاثنا عشريَّة
                - جعفر
              - مُوسى
        - إسحق
        - مُحمَّد الدّيباج
- مُحمَّد بن الحنفيَّة
  → (الكيسانيَّة)

مُلاحظة: التّاريخ المذكور بجانب الاسم هُو تاريخ الوفاة

الشّيعة الإماميَّة الاثنا عشريَّة (الجعْفَرِيَّة):

يُشَكِّل الشِّيعة الإماميَّة الاثنا عشريَّة - اليوم - القسمَ الأكبر والرّئيسي من الشِّيعة؛ بحيثُ أنّه عندما تُطلق كلمة "الشِّيعة" دُون قَيْد، ينصرف المعنى إلى الشِّيعة الإماميَّة، وهُم يُعرفون - أيضاً - بالشِّيعة الجَعْفَرِيَّة؛ نسبة إلى الإمام جَعْفَر بن مُحمَّد الصّادق الذي أخذوا عنه أكثر رواياتهم وفقْهِهم، وبالشِّيعة الاثنَيْ عشريَّة، نسبة لأئمَّتهم الاثنَيْ عشر الذين يدينون بعصمتهم، وأنَّهم منصوص عليهم من الله عَزَّ وجَلّ، مُفترضو الطّاعة . . كما سيأتي توضيحه، كما يُعرفون من قبَل مُخالفيهم في بلاد الشّام والحجاز باسم الرّافضيَّة، أو الرّوافض، وباسم المتاولة.

وأصل الشِّيعة الإماميَّة هُو ذلك الجناح من الشِّيعة الأوائل الذين كانوا يرون أنَّ النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) نصَّ على عليٍّ بصراحة، باسمه ونَسَبه، وقلَّد الأُمَّة إمامته، وعَقَدَ له عليهم إمرة المؤمنين، ولذا؛ فإنَّ عليّاً في عقيدتهم إمامٌ مفروض الطّاعة من الله ورسوله، بعد رسوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) مُباشرةً، وواجبٌ على النّاس القبول منه، والأخذ منه، ولا يجوز لهم غيره... والنّتيجة الطّبيعيَّة لذلك أنَّهم يرون ضلال وهلاك مَنْ تولاَّها - غاصباً - من الخُلفاء قبله، وكذلك كُفْر وضلال مَنْ خرج عليه، وشهر بوجهه السّلاح . . والدّليل على وُجُود هذا الاتّجاه بين الشِّيعة مُنذُ القديم أنّنا نجد ذكْراً لهم بين الرُّواة في كُتُب الرّجال السُّنّيَّة، عندما يُترجمون لراوٍ فيقولون عنه: "كان شيعيّاً غالياً، أو مُفرطاً في التّشيُّع، أو يطعن في الشّيخَيْن" إلخ، كما أنّنا وجدناهم في موقف أكثر شيعة الكُوفة الذين رفضوا الإمام زيد بن عليّ، وانفضُّوا عنه، لمّا علموا أنّه يتولّى الشّيخَيْن أبا بكر وعُمرَ، ويترحَّم عليهما، كما مرَّ معنا قريباً في فَصْل الزّيديَّة.

لا، بل تُرجعُ الشِّيعةُ الإماميَّة مبدأ أمرها إلى زمن النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) نفسه، وتذكر عدداً من الصّحابة على أنَّهم كانوا من أوائل الشِّيعة، منهم المقداد بن الأسود الكندي، وسلمان الفارسي، وأبو ذرٍّ الغفاري، وعمّار بن ياسر، وغيرهم ممَّنْ وافق مودَّته مودَّة عليّ بن أبي طالب، وآثر طاعته، والائتمام به، وبذل المُهج في نُصرته.

ساق أصحاب هذا الاتِّجاه من الشِّيعة الإمامةَ ـ بعد استشهاد الإمام الحُسَين ـ إلى ابنه عليّ ابن الحُسَين الذي اشتهر باسم زين العابدين أو الإمام السّجّاد، والذي اعتزل السِّياسة لعدم ثقته بالأنصار، بعد كُلّ الخذلان والخيانة وتكالب الأعداء التي مُني بها والده الحُسَين، ومُني بها قبله عمُّه الحَسَن، وجَدُّه عليَّ بن أبي طالب عليهم جميعاً رضوان الله وسلامه، الذين ماتوا جميعاً قَتْلاً، وبعد ما رأى من الفجائع القاسية المريرة التي حلَّت بآل بيت الرّسول (صلّى الله عليه وآله وسلَّم) وأنصارهم سواء في كربلاء أو في الحرَّة وغيرها. . وانكبَّ زين العابدين على العبادة، حتَّى رُوي أنَّه كان يُصلِّي في اليوم واللَّيلة ألف ركعة، وكان بَكَّاءً لله، وصاحب أدعية كانت من أروع نماذج المُناجاة لله عَزَّ وجَلَّ، وقد دوَّنها الشِّيعة عنه ـ فيما بعد ـ في صحيفةٍ عُرفت باسم الصّحيفة السّجَّاديَّة، أو زبور آل مُحمَّد، ولا تزال موجودة إلى اليوم.

وبعد رحيل الإمام السّجَّاد انتقلت الإمامة لابنه مُحمَّد بن عليّ الذي اشتهر بالباقر لكثرة علمه، والكلمة مأخوذة ـ كما يقول صاحب لسان العَرَب ـ «من التَّبقُّر: أيْ التَّوسُّع في العلم والمال، وأنَّ مُحمَّد بن عليّ بن الحُسَين بن علي، رضوان الله عليهم، إنَّما سُمِّي بالباقر؛ لأنَّه بَقَرَ العلمَ، وعَرفَ أصلَهُ، واستنبط فرعَهُ، وتَبقَّر في العلم.»[1]. وانتقلت الإمامة بعد وفاة الباقر ـ وبوصية منه ـ إلى ابنه البكر الإمام جَعْفَر بن مُحمَّد الشّهير بالصّادق، والذي يُنسب الشِّيعة الإماميَّة اليوم إليه، فيُقال الشِّيعة الجَعْفَريَّة، وذلك أنَّ أكثر فقْههم ورواياتهم مأخوذ عنه، وبعده؛ انتقلت الإمامة إلى ابنه مُوسَى المشهور بالكاظم، الذي مات سجيناً في سجن هارون الرّشيد في بغداد سنة 183 هـ، ثُمَّ لابنه عليّ بن مُوسَى الرّضا الذي مات مسموماً، زمن الخليفة المأمون العبَّاسي، في طوس (شمال شرق إيران) سنة 203 هـ، بعد أنْ كان الخليفة المأمون قد أعطاه ولاية العهد، ثُمَّ انتقلت لابنه مُحمَّد بن عليّ المُلقَّب بالجواد، ثُمَّ لابنه عليّ بن مُحمَّد المُلقَّب بالهادي، ثُمَّ لابنه الحَسَن بن عليّ المُلقَّب بالعسكري، والأخيران ماتا وهُما تحت الإقامة الجَبْريَّة في مدينة سامرَّاء شمال العراق، ثُمَّ

---

(1) لسان العَرَب: لابن منظور، مادَّة بَقَرَ، وأضاف قائلاً: وأصل البقر: الشّق والفتح والتّوسعة. بَقَرْتُ الشّيءَ بَقْراً: فتحتُهُ، ووَسَّعتُهُ. وفي حديث حُذَيفة: فما بال هؤلاء الذين يَبْقُرونَ بيوتنا؛ أيْ يفتحونها، ويُوسّعونها؛ ومنه حديث الإفك: فَبَقَرْتُ لها الحديث؛ أيْ فتحتُهُ، وكشفتُهُ.

اختلف الشّيعة بعد رحيل الإمام العسكري، فمنهم مَنْ قال: مات ولم يُنجبْ، وانقطعت بذلك الإمامة، ومنهم مَنْ قال: لابُدَّ للَّه في أرضه بعد مضي الحَسَن بن عليّ حُجَّة على عباده وخليفةٌ في بلاده قائمٌ بأمره، من وَلَد الحَسَن بن عليّ العسكري، وقالوا: إنَّ الإمام العسكري أنجب قبل وفاته بخمس سنوات؛ أيْ سنة 256 هـ، ابناً سمَّاه مُحمَّداً، وأخفاه عن عيُون المُتربِّصين به الشَّرّ، وأنَّ مُحمَّد بن الحَسَن ظلَّ - بعد وفاة أبيه، ولمُدَّة سبعين عاماً - يتَّصل بأتباعه عبر واسطة سُفراء أربع مُتتالين، ثُمَّ غاب الغيبة الكُبرى، وأنَّه هُو الإمام المهدي القائم الحيّ المُنتظر الذي سيظهر آخر الزّمن، عندما يأذن الله له بذلك، ليملأ الأرض عدلاً بعد أنْ تكون قد مُلئت ظُلماً وجوراً.

ومن البديهي أنَّ القول بإمامة الاثنَيْ عشر إمام على هذا النّحو لم يتكوَّن إلاَّ بعد مجيء أولئك الأئمَّة فعلاً إلى عالم الدُّنيا، ثُمَّ رحيلهم واحداً تلو الآخر، لذا؛ فمن الطّبيعي أنَّ التّبلور الكامل للمذهب الاثنَيْ عشري بالصُّورة التي استقرَّ عليها وبقيت إلى الآن، إنَّما حصل في وقت مُتأخِّر وبعد مضي ثلاثة قُرُون ونيِّف على رحلة النّبي المُصطفى (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) أيْ بعد رحيل الإمام الحادي عشر سنة 260 هـ، ثُمَّ بدء الغيبة الكُبرى للإمام الثّاني عشر المُقدَّرة بحوالي سنة 335 هـ.

مسيرة تكوُّن المذهب الاثنَيْ عشري كما يرويها عُلماء الإماميَّة:

خلال مسيرة تشكُّل المذهب، الطّويلة نسبيّاً، كانت تحصل انشعابات وانقسامات في أوساط الإماميَّة، حول تحديد بعض الأئمَّة، كانشعاب الإسماعيليَّة، أو حول قبول أو رفض بعض الآراء المُغالية جدّاً حول صفات الأئمَّة وطبيعتهم وخصائصهم تصل بهم لحَدّ التّأليه، كما لدى بعض الفرَق الغالية التي انشعبت عن الإماميَّة.

وطالما أنَّ الحديث هُو عن تكوُّن الشّيعة الإماميَّة والانشعابات التي كانت تحصل أثناء ذلك، فينبغي تَرْك الكلام في ذلك لعُلماء الشّيعة الإماميَّة أنفسهم، لذا؛ سأرجع إلى كتابَيْن قديمَيْن من كُتُب الفرَق ألَّفهما عالمان قديمان من عُلماء الشّيعة الإماميَّة الكبار المُوثَّقين أنفسهم، لأُلخِّص عنهم ما ذكراه في هذا الصّدد؛ وهُما: كتاب "المقالات والفرَق" الذي ألَّفه

سعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي المُتوفَّى سنة 301 هـ، والذي يُعَدُّ من أكابر مُحدِّثي الشِّيعة ومن مشايخ مُحمَّد بن جَعْفَر بن قولويه في الرِّواية ومن أصحاب الإمام الحَسَن العسكري، وكتاب "فرَق الشِّيعة" الذي ألَّفه أبو مُحمَّد الحَسَن بن مُوسَى النّوبختي المُتوفَّى فيما بين سنة 300 و310 هـ، والذي كان من أفاضل الشِّيعة وكبار عُلمائهم أيضاً، ومن عائلة اشتهرت بالعلم والفضل، لأُلخِّص منهما قصَّة التَّكوُّن التّدريجي للمذهب الاثنَيْ عشري، وما رافق ذلك من انشعابات وانقسامات، وإنَّما أذكرها ـ ولو طالت قليلاً ـ لما فيها من الدّلالات المُفيدة جداً في فَهْم كيفيَّة تكوُّن الفرَق، وسرِّ الانشقاقات، وكيف بدأ دُخُول الأفكار الدّخيلة المُغالية، والتي نجدها بعينها مُنعكسة في بعض الفرَق التي تَفَرَّعَتْ عن الشِّيعة، وبقيت إلى اليوم:

قال المُؤلِّفان المذكوران:

[افترقت الأُمَّة عقب وفاة رسول الله (صلَّى الله عليه وآله) إلى ثلاث فرَق:

1 ـ فرقة منها سُمِّيتْ الشِّيعة؛ وهُم شيعة عليّ بن أبي طالب عليه السلام واتَّبعوه، ولم يرجعوا إلى غيره. ومنهم افترقت صنُوف الشِّيعة كُلّها.

2 ـ وفرقة منهم ادَّعت الإمرَّة والسُّلطان، وهُم الأنصار، ودعوا إلى عقد الأمْر لسعد بن عُبادة الخزرجي.

3 ـ وفرقة مالت إلى بَيْعة أبي بكر بن أبي قُحافة. . وتنازعت الفرقتان الأخيرتان، ثُمَّ رجع أغلب الأنصار ومَنْ تابعهم إلى أمر أبي بكر.

وعقب مقتل عُثمان بايع النّاس عليّاً، فسمُّوا الجماعة، ثُمَّ افترقوا بعد ذلك، فصاروا ثلاث فرَق:

1 ـ فرقة أقامت على ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

2 ـ وفرقة اعتزلتْهُ مع سعد بن أبي وقَّاص وعبد الله بن عُمر ومُحمَّد بن مُسلمة الأنصاري وأُسامة بن زيد، فامتنعوا عن مُحاربته، والمُحاربة معه.

3 ـ وفرقة خالفتْهُ، وقامت عليه، وهُم طلحة والزُّبير وعائشة وأنصارهم، فَقَاتَلَهُم عليّ عليه السلام وهَزَمَهُم، وهُم أهل الجَمَل. وهَرَبَ منهم قومٌ إلى مُعاوية، وصاروا معه في المُطالبة بدم عُثمان، وحاربوا عليّاً عليه السلام وهُم أهل صفّين.

ثُمَّ خرجت فرقةٌ ممّنْ كان مع عليّ عليه السلام، وخالفتْهُ بعد تحكيم الحَكَمَيْن بينه وبين مُعاوية وأهل الشّام، وكفّروا عليّاً، وتبرّؤا منه، وسُمّوا الخَوَارج؛ ومنهم افترقت فِرَق الخَوارِج كُلُّها.

فلمّا قُتل عليّ التقت الفرقة التي كانت معه والفرقة التي كانت مع طلحة والزُّبير وعائشة، فصاروا فرقة واحدة مع مُعاوية بن أبي سُفيان، إلاّ القليل منهم من شيعته ومَنْ قال بإمامته بعد النّبي صلّى الله عليه وآله، وهُم السّواد الأعظم وأهل الحشو وأتباع المُلُوك وأعوان كُلّ مَنْ غلب، أعني الذين التقوا مع مُعاوية، فسُمّوا جميعاً "المُرجئة"؛ لأنّهم تولّوا المُختلفين جميعاً، وزعموا أنّ أهل القبلة كُلّهم مُؤمنون بإقرارهم الظّاهر بالإيمان، ورجوا لهم جميعاً المغفرة. وافترقت (المُرجئة) بعد ذلك، فصارت إلى أربع فِرَق: الجُهَمِيَّة؛ وهُم مُرجئة أهل خُراسان، والغيلانيَّة؛ وهُم مُرجئة أهل الشّام، والماصريَّة؛ وهُم مُرجئة أهل العراق منهم "أبو حنيفة" ونُظراؤه، و"الشّكاك" أو "البتريَّة"؛ أصحاب الحديث منهم "سُفيان بن سعيد الثّوري" و"شريك بن عبد الله" و"ابن أبي ليلى" و"مُحمَّد بن إدريس الشّافعي" و"مالك ابن أنس" ونُظراؤهم من أهل الحَشَو والجُمهُور العظيم، وقد سُمّوا (الحَشَويَّة).

فقالت أوائلهم في الإمامة: خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله من الدُّنيا ولم يستخلف على دينه مَنْ يقوم مقامه في لَمِّ الشّعث، وجَمْع الكلمة، والسّعي في أُمُور الملك والرّعيَّة، وإقامة الهُدنة، وتأمير الأُمراء، وتجييش الجُيُوش، والدَّفع عن بيضة الإسلام، وتعليم الجاهل، وإنصاف المظلوم، وجوّزوا فعل هذا الفعل لكُلِّ إمام أُقيم بعد الرّسول صلّى الله عليه وآله.

ثُمَّ اختلف هؤلاء، فقال بعضهم: على النّاس أنْ يجتهدوا آراءهم في نصب الإمام وجميع حوادث الدِّين والدُّنيا إلى اجتهاد الرّأي، وقال بعضهم: الرّأي باطل، ولكنَّ الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ أمر الخَلْقَ أنْ يختاروا الإمام بعقُولهم.

وشذَّتْ طائفة من المُعتزلة عن قول أسلافها، فزعمت أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله نصَّ على صفة الإمام ونَعْته، ولم ينصّ على اسمه ونَسَبه، وهذا قول أحدثوه قريباً.

وكذلك قالت جماعة من أهل الحديث هربت حين عضَّها حجَاج الإماميَّة، ولجأت إلى أنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله نصَّ على أبي بكر بأمره إيَّاه بالصَّلوة، وتَرَكَتْ مذهب أسلافها في أنَّ المُسلمين بعد وفاة الرَّسول صلَّى الله عليه وآله قالوا: رضينا لدُنيانا بإمام رضيه رسول الله صلَّى الله عليه وآله لديننا.

واختلف أهل الإهمال (أيْ القائلون أنَّ الرَّسول لم يستخلف أحداً) في إمامة الفاضل والمفضول، إذا كانت في الفاضل علَّة تمنع إمامته، ووافق سائرهم أصحاب النَّص على أنَّ الإمامة لا تكون إلاَّ للفاضل المُتقدِّم.

ثُمَّ اختلفوا جميعاً في القول بالإمامة وأهلها، فقالت (البتريَّة) وهُم أصحاب (الحَسَن بن صالح بن حي) ومَنْ قال بقوله: إنَّ علياً عليه السلام هُو أفضل النَّاس بعد رسول الله صلَّى الله عليه وآله وأوْلاهم بالإمامة، وأنَّ بَيْعَةَ أبي بكر ليست بخطأ، ووقفوا في عُثمان، وثبتوا حزب عليّ عليه السلام، وشهدوا على مُخالفيه بالنَّار، واعتلُّوا بأنَّ علياً عليه السلام سلَّم لهما ذلك، فهُو بمنزلة رجل كان له على رجل حقٌّ، فَتَرَكَهُ له.

وقال "سُليمان بن جرير الرّقي" ومَنْ قال بقوله: إنَّ علياً عليه السلام كان الإمام وإنَّ بيعة أبي بكر وعُمر كانت خطأ، ولا يستحقَّان اسم الفُسق عليها من قِبَل التَّأويل؛ لأنَّهما تأوَّلا فأخطآ، وتبرؤا من عُثمان، فشهدوا عليه بالكُفر، ومُحارب عليّ عليه السلام عندهم كافر.

وقال "ابن التَّمَّار" ومَنْ قال بقوله: إنَّ علياً عليه السلام كان مُستحقاً للإمامة، وإنَّه أفضل النَّاس بعد رسول الله صلَّى الله عليه وآله، وإنَّ الأُمَّة ليست بمُخطئة خطأ إثم في توليتها أبا بكر وعُمر، ولكنَّها مُخطئة بتركة الأفضل، وتبرَّؤا من عُثمان ومن مُحارب عليّ عليه السلام وشهدوا عليه بالكُفْر.

وقال (الفضل الرّقاشي) و(أبو شمر) و(غيلان بن مروان) و(جهم بن صفوان) ومَنْ قال بقولهم من المُرجئة: إنَّ الإمامة يستحقُّها كُلُّ مَنْ قام بها إذا كان عالماً بالكتاب والسُّنَّة، وإنَّه لا تثبت الإمامة إلاَّ بإجماع الأُمَّة كُلّها.

وقال أبو حنيفة وسائر المُرجئة: لا تصلح الإمامة إلاَّ في قُرَيْش، كُلُّ مَنْ دعا منها إلى الكتاب والسنَّة والعمل بالعَدْل وَجَبَتْ إمامته، ووَجَبَ الخُرُوج معه، وذلك للخبر الذي جاء عن النّبي صلّى الله عليه وآله أنّه قال: الأئمّة من قُرَيْش.

وقالت الخَوَارج كُلُّها إلاَّ النّجديَّة منهم: الإمامة تصلح في أفناء النّاس، كُلُّ مَنْ كان منهم قائماً بالكتاب والسنَّة عالماً بهما، وإنَّ الإمامة تثبت بعقد رجلَيْن.

وقالت النّجديَّة من الخَوَارج: الأُمَّة غير مُحتاجة إلى إمام ولا غيره، وإنَّما علينا وعلى النّاس أنْ نُقيم كتاب الله - عزَّ وجلَّ - فيما بيننا.

وقالت المُعتزلة: إنَّ الإمامة يستحقُّها كُلُّ مَنْ كان قائماً بالكتاب والسُّنَّة، فإذا اجتمع قرشي ونبطي وهُما قائمان بالكتاب والسُّنَّة، ولَّينا القرشي، والإمامة لا تكون إلاَّ بإجماع الأُمَّة واختيار ونَظَر.

وقال "ضرار بن عَمرو": إذا اجتمع قرشي ونبطي ولَّينا النّبطي، وتَركنا القرشي؛ لأنّه أقلُّ عشيرة، وأقلُّ عدداً، فإذا عصى الله وأردنا خَلْعَهُ كانت شوكته أهْوَنَ، وإنَّما قُلتُ ذلك نَظَراً للإسلام.

وقال إبراهيم النّظّام ومَنْ قال بقوله: الإمامة تصلح لكُلِّ مَنْ كان قائماً بالكتاب والسنَّة لقول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات/ 13) وزعم أنَّ النّاس لا يجب عليهم فرض الإمامة إذا هُم أطاعوا الله، وأصلحوا سرائرهم وعلانيتهم، فإنَّهم لن يكونوا كذا إلاَّ وعَلَمُ الإمام قائم باضطرار يعرفون عينه، فعليهم اتّباعه، ولن يجوز أنْ يُكلِّفهم الله ﷻ معرفته، ولم يضع عندهم علمه، فيُكلِّفهم المحال.

وقالوا في عقد المُسلمين الإمامة لأبي بكر: إنَّهم قد أصابوا ذلك، وإنَّه كان أصلحهم في ذلك الوقت، واعتلّوا في ذلك بالقياس، وبخبر تأوَّلوه...][1].

---

(1) المقالات والفرَق لسعد بن عبد الله الأشعري: ص 2 إلى 9. وفرَق الشّيعة للنّوبختي: ص 1 إلى 11.

ثُمَّ ذَكَرَا سائر أقوال الفرَق في الإمامة، ممّا لا نحتاج لذكْره هُنا؛ لأنَّ قصدنا هُو ذكْر انقسامات الشِّيعة وفرَقهم وشَرْح اختلافاتهم في الإمامة، لذا؛ نتَّجه لذكْر ما قالاه في هذا المجال مع رعاية الاختصار، قالا:

[فجميع أُصُول الفرَق كُلِّها الجامعة لها أربعة فرَق: الشِّيعة، والمُرجئة، والمُعتزلة، والخَوارج.

فأوَّل الفرَق الشِّيعة، وهي فرقةُ عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه المُسمَّوْن بشيعة عليّ في زمان النّبي صلَّى الله عليه وآله وبعده معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته، منهم المقداد بن الأسود الكندي، وسلمان الفارسي، وأبو ذرٍّ جندب بن جنادة الغفاري، وعمّار بن ياسر، المُؤثرون طاعته، المُؤتمون به، وغيرهم ممَّنْ وافق مودَّته مودَّة عليّ بن أبي طالب. فلمَّا قَبَضَ الله نبيَّه صلَّى الله عليه وآله افترقت فرقة الشِّيعة، فصاروا في الإمامة ثلاث فرَق:

1 ـ فرقة منهم قالت: إنَّ عليّ بن أبي طالب إمام ومفروض الطّاعة من الله ورسوله بعد رسوله صلَّى الله عليه وآله، واجب على النّاس القبول منه، والأخذ منه، لا يجوز لهم غيره، وأنَّ النّبي صلَّى الله عليه وآله نصَّ عليه باسمه ونَسَبه، وقلَّد الأُمَّة إمامته، وعقد له عليهم إمرة المُؤمنين... وقالوا: لابُدَّ ـ مع ذلك ـ أنْ تكون تلك الإمامة دائمة جارية في عقبه إلى يوم القيامة، تكون في ولده من ولد فاطمة بنت رسول الله، يقوم مقامه أبداً رجل منهم معصوم من الذُّنُوب طاهر من العُيُوب...

2 ـ وفرقة قالت: إنَّ عليّاً ـ رحمة الله عليه ـ كان أوْلَى النّاس ـ بعد رسول الله ـ بالنّاس، لفضله وسابقته وقرابته وعلمه، وهُو أفضل النّاس كُلِّهم بعده، وأشجعهم وأسخاهم.. وأجازوا مع ذلك خلافة أبي بكر وعُمر، رأوهما أهلاً لذلك المكان والمقام. احتجّوا في ذلك بأنْ زعموا أنَّ عليّاً سلَّم لهما الأمْر، ورضي بذلك، وبايعهما طائعاً غير مُكرَه، وتَرَكَ حقَّه لهما، فنحنُ راضون كما رضي المُسلمون له، ولِمَنْ تابع، لا يحلُّ لنا غير ذلك، ولا يسع أحد إلاَّ ذلك، وأنَّ ولاية أبي بكر صارت رشداً وهُدى لتسليم عليّ ـ صلَّى الله عليه ـ له ذلك، ورضاه، ولولا رضاه وتسليمه لكان أبو بكر مُخطئاً ضالاً هالكاً؛ وهُم أوائل البتريَّة.

وخرجت من هذه الفرقة فرقةٌ، وقالوا: عليّ بن أبي طالب أفضل النّاس بعد رسول الله لقرابته وسابقته وعلمه، ولكنْ؛ كان جائزاً للنّاس أنْ يُولّوا عليهم غيره إذا كان الوالي الذي يُولُّونه مُجزئاً (أيْ مُنفِّذاً لأحكام شرع الله) أحبَّ ذلك عليٌّ أم كرهه، فولاية الوالي الذي ولّوه على أنفسهم برضا منهم رشد وهُدى وطاعة لله، فإذا اجتمعت الأُمَّة على ذلك، وتوالت، ورضيت به، فقد ثبتت إمامته، واستوجب الخلافة، فَمَنْ خالفه من قُرَيْش وبني هاشم عليٌّ كان أو غيره من النّاس، فهُو كافر ضالٌّ هالك.

3 ـ وفرقة منهم يُسمّون الجاروديَّة أصحاب الجارود زياد بن المُنذر بن زياد الأعجمي، فقالوا بتفضيل عليّ، ولم يروا مقامه لأحد سواه، وزعموا أنَّ مَنْ دَفَعَ علياً من هذا المقام فهُو كافر، وأنَّ الأُمَّة كَفَرَتْ، وضَلَّتْ بتَرْكها بَيْعَتَهُ، ثُمَّ جعلوا الإمامة بعده في الحَسَن بن عليّ، ثُمَّ في الحُسَين بن عليّ، ثُمَّ هي شُورى بين أولادهما، فَمَنْ خرج منهم، وشهر سيفه، ودعا إلى نفسه، فهُو مُستحقٌّ للإمامة، وهاتان الفرقتان هُما المُنتحلتان أمر زيد بن عليّ بن الحُسَين، وأمر زيد بن الحَسَن بن الحَسَن بن عليّ، ومنهما تشعَّبت فرَق الزّيديَّة.

وزعمت هذه الفرَق أنَّ الأمْر كان بعد رسول الله لعليّ ـ صلَّى الله عليه ـ ثُمَّ للحَسَن، ثُمَّ للحُسَين، نصّ من رسول الله وصيَّة منه إليهم واحداً بعد واحد، فلمَّا مضى الحُسَين بن عليّ، صارت في واحد من أولادهما إلى عليّ بن الحُسَين، والحَسَن بن الحَسَن، لا يخلو من أحدهما إلاَّ أنّهم لا يعلمون أيّاً من أيٍّ، وأنَّ الإمامة بعدهما في أولادهما، فَمَنْ ادَّعاها من وُلد الحُسَين بن عليّ ومن وُلد عليّ بن الحُسَين وزعم أنَّها لوُلد الحُسَين بن عليّ دُون وُلد الحَسَن بن الحَسَن، فإنَّ إمامته باطلة، وإنَّه ضالٌّ مُضلٌّ هالك، وإنَّ مَنْ أقرَّ من وُلد الحُسَين والحَسَن أنَّ الإمامة تصلح في وُلد الحَسَن والحُسَين ومَنْ رضوا به، واتَّفقوا عليه، وبايعوه جاز أنْ يكون إماماً، ومَنْ أنكر ذلك منهم، وجعلها في وُلد أحد منهما لا يصلح للإمامة، وهُو عندهم خارج من الدِّين. وبعد مضي الحُسَين بن عليّ لا تثبت (الإمامة لمَنْ ادَّعاها من وُلد الحَسَن أو الحُسَين) إلاَّ باختيار وُلد الحَسَن والحُسَين وإجماعهم على رجل منهم، ورضاهم به، وخرُوجه بالسّيف، ويجوز أنْ يكون منهم أئمَّة عداد في وقت واحد، لكنَّهم أئمَّة دُعاة إلى الإمام الرّضا منهم، وأنَّ الإمام الذي إليه الأحكام والعُلُوم يقوم مقام رسول الله، وهُو

صاحب الحُكْم في الدّار كُلّها، وهُو الذي يختاره جميعهم، ويرضون به، ويُجمعون على ولايته، وجميع فرَق الزّيديَّة مذاهبهم في الأحكام والفرائض والمواريث مذاهب العامَّة.

(فرَق الشيُعة بعد استشهاد الإمام عليّ عليه السّلام)[1]:

فلمَّا قُتل عليٌّ صلوات الله عليه افترقت (الفرقة الأُولى منها) التي أثبتت له الإمامة له من الله ورسوله فرضاً واجباً، فصاروا فرَقاً ثلاثة:

1 ـ فرقة منها قالت: إنَّ عليّاً لم يُقتَل، ولم يمتْ، ولا يموت حتَّى يملك الأرض، ويسوق العَرَب بعصاه، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما مُلئت ظُلماً وجوراً، وهي أوَّل فرقة قالت في الإسلام بالوَقْف بعد النّبي من هذه الأُمَّة، وأوَّل مَنْ قال منها بالغُلُوِّ، وهذه الفرقة تُسمَّى السَّبَئيَّة أصحاب عبد الله بن سبأ، وهُو عبد الله بن وهب الرّاسبي الهمداني، وساعده على ذلك عبد الله بن حرس وابن أسود، وهُما من أجلَّة أصحابه، وكان أوَّل مَنْ أظهر الطَّعْن على أبي بكر وعُمر وعُثمان من الصّحابة، وتبرأ منهم، وادَّعى أنَّ عليّاً عليه السلام أمَرَهُ بذلك، وأنَّ التَّقيَّة لا تجوز، ولا تحلُّ، فأخذه عليٌّ، فسأله عن ذلك؟ فأقرَّ به، وأمَرَ بقَتْله، فصاح إليه النّاس من كُلِّ ناحية: يا أمير المُؤمنين؛ أتقتلُ رجلاً يدعو إلى حُبِّكم أهل البيت، وإلى ولايتكَ، والبراءة من أعدائكَ؟ فسيَّره عليٌّ إلى المدائن، وحكى جماعة من أهل العالم: أنَّ عبد الله بن سبأ كان يهُوديّاً، فأسلم، ووالى عليّاً، وكان يقول ـ وهُو على يهُوديَّته ـ في يُوشع بن نُون وصيِّ مُوسَى بهذه المقالة، فقال في إسلامه بعد وفاة رسول الله ـ صلَّى الله عليه وآله ـ في عليٍّ بمثل ذلك، وهُو أوَّل مَنْ شهد بالقول بفَرْض إمامة عليّ بن أبي طالب، وأظهر البراءة من أعدائه، وكاشف مُخالفيه، وأكْفَرَهُم، فمن ها هُنا قال مَنْ خالف الشّيعة: إنَّ أصل الرَّفْض مأخوذ من اليهُوديَّة، ولَمَّا بلغ ابن سبأ وأصحابه نَعْيَ عليٍّ وهُو بالمدائن، وقدم عليهم راكب، فسأله النّاس، فقال: ما خبر أمير المُؤمنين؟ قال: ضربه أشقاها ضربة قد يعيش الرّجل من أعظم منها، ويموت من وقتها، ثُمَّ اتَّصل خبر موته، فقالوا للذي نعاه: كذبتَ يا عدوَّ الله! لو جئتَنَا ـ والله ـ بدماغه ضربة، فأقمتَ على قَتْله سبعين عدلاً ما

---

(1) هذه العناوين التي بين قوسَيْن ليست لِمُؤلِّفَي كُتُب الفرَق الذين أنقل منهما الآن، بل من عندي لغرض التّوضيح.

صدَّقناكَ، ولعلمنا أنَّه لم يمتْ، ولم يُقتَل، وأنَّه لا يموت، حتَّى يسوق العَرَب بعصاه، ويملك الأرض، ثُمَّ مضوا من يومهم، حتَّى أناخوا بباب عليّ، فاستأذنوا عليه استئذان الواثق بحياته، الطَّامع في الوُصُول إليه، فقال لهم مَنْ حضره من أهله وأصحابه وولده: سُبحان الله؛ أمَّا علمتم أنَّ أمير المؤمنين قد استشهد؟ قالوا: إنَّا لنعلم أنَّه لم يُقتَل، ولا يموت حتَّى يسوق العَرَب بسيفه وسوطه كما قادهم بحُجَّته وبُرهانه، وأنَّه ليسمع النَّجوى، ويعرف تحت الدّيار المُقفل، ويلمع في الظّلام كما يلمع السَّيف الصَّقيل الحُسام، فهذا مذهب السَّبَئيَّة ومذهب الحربيَّة؛ وهُم أصحاب عبد الله بن عُمر بن الحرب الكندي في عليّ عليه السلام، وقالوا بعد ذلك في عليّ: إنَّه إله العالمين، وأنَّه توارى عن خَلْقه سُخطاً منه عليهم، وسيظهر.

2 ـ وفرقة قالت بإمامة مُحمَّد بن عليّ بن أبي طالب ابن الحَنَفيَّة بعد عليّ؛ لأنَّه كان صاحب راية أبيه يوم البَصْرَة دُون أخوَيْه الحَسَن والحُسَين عليهما السّلام، فسُمّوا الكيسانيَّة؛ وهُم المُختاريَّة، وإنَّما سُمُّوا بذلك؛ لأنَّ رئيسهم الذي دعاهم إلى ذلك المُختار بن أبي عُبيدة الثَّقفي، وكان لقبه كيسان، وهُو الذي طالب بدم الحُسَين بن عليّ وثأره، حتَّى قَتَل قَتَلَتَهُ، ومَنْ قدر عليه ممَّنْ حاربه، وقتل عُبيد الله بن زياد وعُمر بن سعد، وادَّعى أنَّ مُحمَّد بن الحَنَفيَّة أمره بذلك، وأنَّه الإمام بعد أبيه . . . وهؤلاء ساقوا الإمامة بعده إلى ابنه عبد الله أبي هاشم، وبعده إلى مُحمَّد بن عليّ بن عبد الله بن العبَّاس.

3 ـ وفرقة لزمت القول بإمامة الحَسَن بن عليّ بعد أبيه، إلاَّ شرذمة قليلة منهم؛ فإنَّه لَمَّا وَادَعَ الحَسَنُ بن عليّ مُعاويةَ، وأخذ منه المال، الذي بعث له إليه على الصُّلح، أزروا على الحَسَن، وطعنوا فيه، وخالفوه، ورجعوا عن إمامته، وشكّوا فيها، ودخلوا في مقالة جُمهُور النّاس، وبقي سائرهم على القول بإمامته، إلى أنْ قُتل صلوات الله عليه. فقالوا بإمامة أخيه الحُسَين بن عليّ، فلم يزالوا على ذلك، حتَّى قتل الحُسَين، فلمَّا قتل الحُسَين، حارت فرقةٌ من أصحابه، وقالوا: قد اختلف علينا فعْل الحَسَن وفعْل الحُسَين؛ لأنَّه إنْ كان الذي فعله الحَسَن حقَّاً واجباً صواباً من مُوادعته مُعاوية وتسليمه الخلافة له عند عجزه عن القيام بمُحاربته مع كثرة أنصار الحَسَن وقُوَّته، فما فعله الحُسَين من مُحاربته يزيد بن مُعاوية مع قلَّة أنصار الحُسَين وضعفهم وكثرة أصحاب يزيد حتَّى قُتل وقُتل أصحابه جميعاً، خطأ باطل غير

واجب، فشكّوا لذلك في إمامتهما، فدخلوا في مقالة العوامّ ومذاهبهم، وبقي سائر النّاس أصحاب الحُسَين على القول بإمامته، حتّى مضى. فلمّا مضى افترقوا بعده ثلاث فرَق:

فرقة قالت بإمامة مُحمَّد بن عليّ بن أبي طالب بن الحَنَفيَّة، وزعمت أنّه لم يبقَ بعد الحَسَن والحُسَين أحد أقرب إلى أمير المُؤمنين عليّ بن أبي طالب من مُحمَّد ابن الحَنَفيَّة؛ فهُو أولَى النّاس بالإمامة، كما كان الحُسَين أولَى بعد الحَسَن من ولد الحَسَن، فمُحمَّد هُو الإمام بعد الحُسَين. و(منهم) فرقةٌ قالت: إنَّ مُحمَّد بن الحَنَفيَّة هُو الإمام المهدي، وهُو وصيُّ عليّ، ليس لأحد من أهل بيته أنْ يُخالفه، ولا يخرج عن إمامته، ولا يُشهر سيفه إلاَّ بإذنه، وإنّما خرج الحَسَن إلى مُعاوية مُحارباً له بإذنه، ووَادَعَهُ، وصالحه بإذنه، وخرج الحُسَين إلى قتال يزيد بن مُعاوية بإذنه، ولو خرجا بغير إذنه هلكا وضلاَّ، وهُم المُختاريَّة الخُلَّص، ويُدعون الكيسانيَّة؛ وهُم يقولون بالتّناسخ، ويزعمون أنَّ الإمامة جَرَتْ في عليّ، ثُمَّ في الحَسَن، ثُمَّ في الحُسَين، ثُمَّ في ابن الحَنَفيَّة، ومعنى ذلك أنَّ رُوح الله صارت في النّبي، ورُوح النّبي صارت في عليّ، ورُوح عليّ صارت في الحَسَن (و هكذا رُوح كُلّ إمام تحلُّ في الذي بعده)... ويزعمون أنَّ الصّلاة في اليوم واللّيلة خمس عشرة صلوة، كُلُّ صلوة سبع عشرة ركعة، وكُلُّهم لا يُصلُّون!

وزعم صنف منهم أنّهم (أيْ الأئمّة) أربعة أسباط بهم يُسقى الخَلْقُ الغيثَ، ويُقاتل العدوّ، وتظهر الحُجَّة، وتموت الضّلالة، مَنْ تبعهم لحقَ، ومَنْ تأخَّر عنهم مُحقَ، وإليهم المرجع، وهُم كسفينة نُوح مَنْ دَخَلَهَا صدق ونجا، ومَنْ تأخَّر عنها غرقَ..][1].

والفرَق القائلة بإمامة مُحمَّد بن الحَنَفيَّة كثيرة، وصارت طوائف عديدة لكُلّ طائفة مقالة، فَصَّلَ الأشعري في ذكْرها؛ نختصر منها ما يلي:

[منها طائفة قالت بإمامة عبد الله بن عَمرو بن حرب الكندي الشّامي بعد أبي هاشم بن مُحمَّد بن الحَنَفيَّة، وقالت بالغُلُوّ والتّناسخ، وفرقةٌ قالت: إنَّ مُحمَّد بن الحَنَفيَّة حيٌّ لم يمتْ،

---

(1) المقالات والفرَق: ص 15 إلى 27. وفرَق الشّيعة: ص 17 إلى 27.

بل غاب عن الأنظار، وهُو مُقيم في جبال رضوى بين مكّة والمدينة.. وإنّه سيرجع، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما مُلئت ظُلماً وجوراً، وجماعة منهم قالوا بالرّجعة، إلخ..

وجماعة صاروا من أصحاب أبـي الخطّاب مُحمَّد بن أبي زينب الأجدع الأسدي، وزعموا أنّه لابُدّ من رسولَيْن في كُلّ عصر، ولا تخلو الأرض منهما: واحد ناطق، وآخر صامت، فكان مُحمَّد صلّى الله عليه وآله ناطقاً، وعليٌّ صامتاً، وتأوّلوا في ذلك قول الله: ثُمَّ أرسلنا رُسُلنا تترى، ثُمَّ ارتفعوا عن هذه المقالة إلى أنْ قال بعضهم: هُما آلهة، ثُمَّ إنّهم افترقوا لمّا بلغهم أنَّ جَعْفَر بن مُحمَّد عليه السلام لَعَنَهُم، ولَعَنَ أبا الخطّاب، وبرئ منه ومنهم، فصاروا أربع فرَق، فرقة منهم قالت: إنَّ جَعْفَر بن مُحمَّد هُو الله، وإنَّ أبا الخطّاب نبيٌّ مُرسل أرسله جَعْفَر، وأَمَرَ بطاعته! وأباحوا المحارم كُلّها من الزّنا واللّواط والسّرقة وشُرب الخُمُور... ومن أتباع أبي الخطّاب، سُمّوا المُخمّسة؛ لأنّهم زعموا أنَّ الله - عَزَّ وجَلَّ - هُو مُحمَّد، وأنّه ظهر في خمسة أشباح، وخمس صُور مُختلفة؛ أيْ ظهر في صُورة مُحمَّد وعليّ وفاطمة والحَسَن والحُسَين، وزعموا أنَّ أربعة من هذه الخمسة تلتبس لا حقيقة لها، والمعنى شخص مُحمَّد وصُورته؛ لأنّه أوّل شخص ظَهَرَ، وأوّل ناطق نَطَقَ، لم يزل بين خَلْقه موجوداً بذاته، يتكوَّن في أيّ صُورة شاء، يظهر لخَلْقه في صُور شتّى من صُورة الذكران والإناث والشُّيوخ والشّباب، إلخ... وزعموا أنَّ مُحمَّداً (أيْ تلك الحقيقة المُحمَّديَّة الإلهيَّة التي كانت أوّل شخص ظَهَرَ، وأوّل ناطق نَطَقَ!) كان آدم ونُوح وإبراهيم ومُوسَى وعيسى، لم يزل ظاهراً في العَرَب والعَجَم، وكما أنّه في العَرَب ظهر كذلك هُو في العجم ظاهر في صُورة غير صُورته في العَرَب، في صُورة الأكاسرة والمُلُوك الذين مَلَكوا الدُّنيا، وإنّما معناهم مُحمَّد لا غيره - تعالى - الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، وأنّه كان يُظهر نفسه لخَلْقه في كُلّ الأدوار والدُّهُور، وأنّه تراءى لهم بالنُّورانيَّة، فدعاهم إلى الإقرار بوَحْدَانيّته، فأنكروه، فتراءى لهم من باب النُّبُوَّة والرّسالة، فأنكروه، فتراءى لهم من باب الإمامة، فقبلوه، فظاهر الله - عزَّ وجلَّ - عندهم الإمامة، وباطنه الله الذي معناه مُحمَّد... وله باب هُو سلمان...[1] (إلى آخر مقالاتهم)]. ثُمَّ قالا:

---

(1) المقالات والفرَق: ص 27 إلى 57.

(فِرَق الشِّيعة بعد شهادة الإمام الحُسَين عليه السّلام):

[وأمَّا الشِّيعة العَلَويَّة الذين قالوا بفَرْض الإمامة لعليّ بن أبي طالب من الله ورسوله، فإنَّهم ثبتوا على إمامته، ثُمَّ إمامة الحَسَن ابنه من بعده، ثُمَّ إمامة الحُسَين من بعد الحَسَن، ثُمَّ افترقوا بعد قَتْل الحُسَين رحمة الله عليه فِرَقاً:

فنزلت فرقةٌ منهم إلى القول بإمامة ابنه عليّ بن الحُسَين يُسمَّى بسيِّد العابدين، وكان يُكنَّى بأبي مُحمَّد، ويُكنَّى بأبي بكر، وهي كُنيته الغالبة عليه، فلم تزل مُقيمة على إمامته، حتَّى تُوفِّي رحمة الله عليه.

وفرقةٌ قالت: انقطعت الإمامة بعد الحُسَين، إنَّما كانوا ثلاثة أئمَّة (أيْ عليّ والحَسَن والحُسَين) مُسمّين بأسمائهم، استخلفهم رسول الله - صلَّى الله عليه وآله - وأوصى إليهم، وجَعَلَهُم حُجَجاً على النّاس وقواماً بعده واحداً بعد واحد، فقاموا بواجب الدِّين، وبيَّنوه للنّاس، حتَّى استغنوا عن الإمام بما أوصلوا إليهم من عُلُوم رسول الله، فلا يُثبتون إمامة لأحد بعدهم، وثبتوا رجعتهم، لا لتعليم النّاس أُمُور دينهم ولكنْ؛ لطَلَب الثّأر، وقَتْل أعدائهم، والمُتوثِّبين عليهم، الآخذين حُقُوقهم، وهذا معنى خُرُوج المهدي عندهم، وقيام القائم.

وفرقةٌ قالت: إنَّ الإمامة صارت بعد مُضي الحُسَين في ولد الحَسَن والحُسَين في جميعهم، فهي فيهم خاصَّة دُون سائرهم من ولد عليّ، وهُم كُلُّهم فيها شَرْع سواء لا يعلمون أيّاً من أيٍّ، فَمَنْ قام منهم، ودعا إلى نفسه، وجرَّد سيفه، فهُو الإمام المفروض الطّاعة بمنزلة عليّ بن أبي طالب موجوبة إمامته من الله على أهل بيته وسائر النّاس كُلّهم، وإنْ كانت دعوته وخُطبه للرّضا من آل مُحمَّد عليه السلام فهُو الإمام، فَمَنْ تخلَّف عنه عند قيامه ودُعائه إلى نفسه من جميع أهل بيته وجميع الخَلْق فهُو كافر، ومَنْ ادَّعى منهم الإمامة وهُو قاعد في بيته مُرخى عليه سِتْره فهُو كافر مُشرك ضالٌ هُو وكُلُّ مَنْ اتَّبعه على ذلك، وكُلُّ مَنْ قال بإمامته، ودان بها، وهؤلاء فرقةٌ من فِرَق الزّيديَّة يُسمّون السّرحوبيَّة، ويُسمّون الجاروديَّة، وهُم أصحاب أبي الجارود زياد بن المُنذر، وإليه نُسبت الجاروديَّة، وأصحاب أبي خالد يزيد بن أبي خالد الواسطي...].

وذكرا من الزّيديَّة فرَقـاً مُختلفـة في أقوالـها : كالصبَّاحيَّـة واليعقوبيَّـة والعجليَّـة والبتريَّـة والمُغيريَّة . . إلخ . ثُمَّ قالا :

(فرَق الشّيعة بعد وفاة الإمام السّجَّاد عليه السّلام) :

[وأمَّا الذين أثبتوا الإمامة لعليّ بن أبي طالب ، ثُمَّ للحَسَن ابنه ، ثُمَّ للحُسَين ، ثُمَّ لعلـيّ ابن الحُسَين ، فإنَّهم نزلوا بعد وفاة عليّ بن الحُسَين إلى القول بإمامة أبي جَعْفَر مُحمَّد بن علـيّ ابن الحُسَين باقر العلم ، وأقاموا علـى إمامتـه إلـى أنَّ تُوفِّـي رضـوان الله عليـه إلاَّ نفـراً يسـيراً ، فإنَّهم سمعوا رجلاً منهم يُقَال له عُمر بن الرّياح زعم أنَّه سأل أبـا جَعْفَـر عـن مسـألة ، فأجابـه عليها بجواب ، ثُمَّ عاد إليه في عـام آخر ، فزعـم أنَّـه سـأله تلـك المسـألة بعينـها ، فأجابـه فيـها بخلاف الجواب الأوّل ، فقال لأبي جَعْفَر : هذا خلاف ما أجبتَنـي فيـه في هـذه المسـألة عـامكَ الماضي ! ، فذكر أنَّه قال له : إنَّ جوابنا ربَّما خرج على وجه التَّقيَّة ، فَشَكَّ في أمره ، ورجع عن إمامته ، وقال : لا يكون إمامـاً مَنْ يُفتي بالبـاطل علـى شـيء مـن الوُجُـوه ، ولا في حـال مـن الأحوال . . فَمَالَ بسببه إلى قول البترِيَّة ، ومالَ معه نَفَرٌ يسيرٌ .

(فرَق الشّيعة بعد وفاة الإمام مُحمَّد الباقر عليه السّلام) :

وبقي سائر أصحاب أبي جَعْفَر مُحمَّد بن عليّ الباقر على القول بإمامته حتَّى تُوفِّي سنة 114 هـ ، فلمَّا تُوفِّي افترقت فرقته فرقتَيْن :

1 ـ فرقة منها قالت بإمامة مُحمَّد بن عبد الله بن الحَسَن بن عليّ بن أبي طالب الخارج بالمدينة المقتول بها ، وزعموا أنَّه القـائم المـهدي ، وأنَّـه الإمـام ، وأنكـروا قَتْلَـهُ وموتَـهُ ، وقالوا : هُو حيٌّ لم يمتْ مُقيم في جبل يُقَال له العلميَّة ، وهُـو الجبـل الـذي في طريـق مكَّـة نجـد الحائر على يسار الطَّريق ، فهُو عندهم مُقيم فيه حتَّى يخرج .

2 ـ والفرقة الأُخرى نزلت إلى القول بإمامة أبي عبد الله جَعْفَر بن مُحمَّد ، فلم يزل يأتيه على إمامته أيَّام حياته ، غير نَفَر منهم يسير ، فإنَّهم لمَّا أشـار جَعْفَـر بـن مُحمَّد إلـى إمامـة ابنـه إسماعيل ، ثُمَّ مات إسماعيل في حياة أبيه ، رجع بعضهم عن إمامته ، وقالوا : كَذَبَنَـا جَعْفَـرُ ، ولم يكن إماماً ، لأنَّ الإمام لا يكذب ، ولا يقول ما لا يكون ، وحكوا عن جَعْفَر أنَّه قـال : إنَّ

الله بدا له في إمامة إسماعيل، فأنكروا البداء والمشيَّة من الله، وقالوا: هذا باطل لا يجوز، ومالوا إلى مقالة البتريَّة ومقالة سُليمان بن جرير.

وسُليمان بن جرير هُو الذي قال لأصحابه لهذا السّبب: إنَّ أئمَّة الرّافضة وضعوا لشيعتهم مقالتَيْن لا يظهرون معهما على كذب من أئمَّتهم أبداً وهُما القول: بالبداء وإجازة التَّقيَّة، فأمَّا البداء؛ فإنَّ أئمَّتهم لَمَّا أحلَّوا أنفسهم من شيعتهم محلَّ الأنبياء من رعيَّتها في العلم فيما كان ويكون، والإخبار بما يكون في غد، فإنْ جاء ذلك الشّيء على ما قالوه، قالوا لهم: ألم نُعلمكم أنَّ هذا يكون؟ فنحنُ نعلَم من قِبَل الله ما عَلَّمَتْه الأنبياء، وإنْ لم يكن ذلك الشّيء قالوا: بدا لله في ذلك، فلم يُكَوِّنه! وأمَّا التَّقيَّة؛ فلمَّا كثرت على أئمَّتهم مسائل شيعتهم في الحلال والحرام وغير ذلك من صنُوف أبواب الدِّين، فأجابوهم فيها، وحفظ عنهم شيعتهم جواب ما سألوه وكَتَبوه، ودوَّنوه، ولم يحفظ أئمَّتهم تلك الأجوبة لتقادم العهد وتفاوت الأوقات؛ لأنَّ مسائلهم لم تردْ في يوم واحد، ولا في شهر واحد، بل في سنين مُتباعدة، وشُهُور مُتباينة.. فَوَقَعَ في أيديهم في المسألة الواحدة عدَّة أجوبة مُختلفة مُتضادَّة، فلمَّا وقفوا على ذلك منهم ردّوا إليهم هذا الاختلاف والتّخليط في جواباتهم، وسألوهم عنه، وأنكروه عليهم، فقالت أئمَّتهم: إنَّما أجبنا بهذا للتَّقيَّة، ولنا أنْ نُجيب بما أجبنا، وكيف شئنا؛ لأنَّ ذلك إلينا، ونحنُ أعلم بما يُصلحنا، وما فيه بقاؤنا وبقاؤكم، وكَفّ عدوِّنا وعدوِّكم عنَّا وعنكم، فمتى يظهر من هؤلاء على كذب؟ ومتى يُعرف حقٌّ من باطل؟ فمالَ إلى سُليمان بن جرير لهذا القول جماعة من أصحاب جَعْفَر، وتَرَكوا القول بإمامة جَعْفَر.

(فِرَق الشِّيعة بعد وفاة الإمام جَعْفَر بن مُحمَّد الصّادق عليه السّلام):

فلمَّا تُوفِّي أبو عبد الله جَعْفَر بن مُحمَّد افترقت بعده شيعته ستَّ فِرَق:

1 ـ فرقة منها قالت: إنَّ جَعْفَر بن مُحمَّد حيٌّ لم يمتْ، ولا يموت حتَّى يظهر ويلي أمر النّاس، وهُو القائم المهدي، وزعموا أنَّهم رووا عنه أنَّه قال: إنْ رأيتُم رأسي قد أهوى عليكم من جبل فلا تُصدِّقوه، فإنِّي أنا صاحبكم! وهذه الفرقة تُسمَّى النّاووسيَّة لرئيس كان لهم من أهل البَصْرَة يُقال له فُلان بن النّاووس.

2 ـ وفرقة زعمت أنَّ الإمام بعد جَعْفَر ابنه إسماعيل بن جَعْفَر، وأنكرت موت إسماعيل في حياة أبيه، وقالوا: كان ذلك على جهة التّلبيس على النّاس؛ لأنَّه خاف، فغيَّبه عنهم، وزعموا أنَّ إسماعيل لا يموت حتَّى يملك الأرض، ويقوم بأمر النّاس، وأنَّه هُو القائم؛ لأنَّ أباه أشار إليه بالإمامة بعده، وقلّدهم ذلك له، وأخبرهم أنَّه صاحبهم، والإمام لا يقول إلاَّ الحقّ، فلمَّا أظهر موته علمنا أنَّه قد صدق، وأنَّه القائم لم يمتْ، وهذه الفرقة هُم الإسماعيليَّة الخالصة، وأمّ إسماعيل وعبد الله ابنَيْ جَعْفَر فاطمة بنت الحَسَن بن الحَسَن بن عليّ بن أبي طالب.

3 ـ وفرقة ثالثة زعمت أنَّ الإمام بعد جَعْفَر، مُحمَّد بن إسماعيل بن جَعْفَر، وأُمَّه أُمّ ولد، وقالوا: إنَّ الأمْر كان لإسماعيل في حياة أبيه، فلمَّا تُوفِّي قبل أبيه جعل جَعْفَر بن مُحمَّد الأمْر لمُحمَّد بن إسماعيل، وكان الحقّ له، ولا يجوز غير ذلك؛ لأنَّها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد حَسَن وحُسَين، ولا تكون إلاَّ في الأعقاب.

أمَّا الإسماعيليَّة الخالصة؛ فهُم الخطَّابيَّة أصحاب أبي الخطَّاب مُحمَّد بن أبي زينب الأسدي الأجدع لَعَنَهُ الله، وقد دخلت منهم فرقةٌ في فرقة مُحمَّد بن إسماعيل، وأقرّوا بموت إسماعيل في حياة أبيه، وكانت الخطَّابيَّة الرُّؤساء منهم قتلوا مع أبي الخطَّاب، وكانوا قد لزموا المسجد بالكُوفة، وأظهروا التَّعبُّد، وكانوا يدعون إلى أمرهم سراً، فبلغ خبرهم عيسى بن مُوسَى عامل أبي جَعْفَر المنصور على الكُوفة، وأنَّهم قد أظهروا الإباحات، ودعوا النّاس إلى نُبُوَّة أبي الخطَّاب، فبعث إليهم رجلاً من أصحابه في خيل ورجالة ليأخذهم، ويأتيه بهم، فامتنعوا عليه، وحاربوه، فقتلهم جميعاً، وكانوا سبعين رجلاً، ولم يفلت منهم إلاَّ رجل واحد هُو أبو خديجة سالم بن مكرم... ومن القائلين بإمامة مُحمَّد بن إسماعيل فرقةٌ عُرفت بالقرامطة يقولون بسبعة من الأئمَّة: عليّ والحَسَن والحُسَين وعليّ بن الحُسَين ومُحمَّد بن عليّ وجَعْفَر بن مُحمَّد ومُحمَّد بن إسماعيل الذي هُو الإمام القائم. . .

4 ـ وقالت الفرقة الرّابعة من أصحاب جَعْفَر بن مُحمَّد: إنَّ الإمام بعد جَعْفَر بن مُحمَّد ابنه مُحمَّد، وأُمّه أمّ ولد يُقال لها حميدة، كان هُو ومُوسَى وإسحق بنو جَعْفَر لأُمٍّ واحدة،

فجعل هؤلاء الإمامة في مُحمَّد بن جَعْفَر وفي ولده من بعـده، وهـذه الفرقـة تُسمَّى السَّميطيَّة نسبة لرئيس لهم كان يُقال له يحيى بن أبي السّميط.

5 ـ والفرقة الخامسة منهم قالت: الإمامة بعد جَعْفَر في ابنه عبد الله بن جَعْفَر، وذلك أنَّه كان عند مُضي جَعْفَر أكبر أولاده سنّاً، وجلس مجلس أبيه بعده، وادَّعى الإمامة ووصيَّة أبيه، واعتلّوا في ذلك بأخبار رُويت عن جَعْفَر وعن أبيه أنّهما قالا: الإمامة في الأكبر من ولد الإمام إذا نصب، فمالَ إلى عبد الله وإمامته جُلّ مَنْ قال بإمامة أبيـه وأكابر أصحابه، إلاَّ نفر يسير عرفوا الحقَّ، وامتحنوا عبد الله بالمسائل في الحلال والحرام والصّلاة والزّكاة والحجّ، فلم يجدوا عنده علماً، وهذه الفرقـة القائلة بإمامة عبد الله بن جَعْفَر هُم المُسمّون بالفطحيَّة، سُمّوا بذلك؛ لأنَّ عبد الله كان أفطح الرّأس، وقال بعضهم: كـان أفطح الرّجلَيْن. . ومالَ عند موت جَعْفَر والقول بإمامة عبـد الله عامَّة مشايخ الشّيعة وفُقَهاؤها، ولـم يشكّوا إلاَّ أنَّ الإمامة في عبد الله وفي ولده من بعده.

فلمَّا مات عبد الله، ولم يُخلِّف ذَكَراً ارتاب القوم، واضطربوا، وأنكروا ذلك، فرجع عامَّة الفطحيَّة ـ إلاَّ القليل منهم ـ عن القول بإمامة عبد الله إلى القـول بإمامة أخيه مُوسَى بن جَعْفَر. وشذَّتْ منهم فرقةٌ بعد وفاة مُوسَى بن جَعْفَر فادَّعت أنَّ لعبد الله (الأفطح) ابناً وُلد له من جارية يُقال له مُحمَّد، وأنَّه تحوَّل بعد موت أبيه إلى خُراسان، فـهُو مُقيم بها، وأنَّه حيٌّ إلى اليوم، وأنَّه الإمام بعد أبيه، وهُو القائم المُنتظَر.

6 ـ وقالت الفرقة السّادسة: إنَّ الإمام مُوسَى بن جَعْفَر بعد أبيه، وأنكروا إمامة عبد الله، وخطَّؤوه في جُلُوسه مجلس أبيه، وادِّعائه الإمامة، وكـان فيهم من وُجُوه أصحاب جَعْفَر بن مُحمَّد مثل: هشام بن سالم الجواليقي، وعبد الله بن أبي يعفور، وعُمر بن يزيد بياع السّابري، ومُحمَّد بن النُّعمان أبي جَعْفَر الأحول مُؤمن الطّاق، وعُبيد بن زرارة بن أعين، وجميل بن دراج، وأبان بن تغلب، وهشام بن الحَكَم، وغيرهم من وُجُوه شيعته وأهل العلم منهم والفقْه والنَّظَر، وهُم الذين قالوا بإمامة مُوسَى بن جَعْفَر عند وفاة أبيه، إلى أنْ رجع إليهم عامَّة أصحاب جَعْفَر عند وفاة عبد الله، فاجتمعوا جميعاً على إمامة مُوسَى، إلاَّ نفراً منهم، فإنَّهم ثبتوا على إمامة عبد الله، ثُمَّ إمامة مُوسَى بعده، وأجازوها في أخوَيْن

بعد أنْ لم يجز ذلك عندهم إلى أنْ مضى جَعْفَر فيهم، مثل عبد الله بن بكير بن أعين، وعمَّار ابن مُوسَى السّاباطي، وجماعة معهم، ثُمَّ إنَّ جماعة من المُؤتمِّين بمُوسَى بن جَعْفَر اختلفوا في أمره، وشكّوا في إمامته عند حَبْسه في المرَّة الثّانية التي مات فيها في حَبْس هارون الرّشيد، فصاروا خمس فرَق:

(فرَق الشّيعة بعد وفاة الإمام مُوسَى الكاظم عليه السّلام):

1 ـ فرقة منها زعمت أنَّه مات في حَبْس هارون، وكان محبوساً عند السّندي بن شاهك، وإنَّ يحيى بن خالد البرمكي سمَّه في رُطَب وعنب بَعَثَهُ إليه، فَقَتَلَهُ، وأنَّ الإمام بعد أبيه عليّ بن مُوسَى الرِّضا، فسُمِّيت هذه الفرقة القَطْعيَّة؛ لأنَّها قطعت على وفاة مُوسَى وإمامة عليّ بن مُوسَى، ولم تشكّ في أمرها، ولا ارتابت، وأقرَّت بموت مُوسَى، وأنَّه أوصى إلى ابنه عليّ أشار إلى إمامته قبل حَبْسه، ومرَّت على المنهاج الأوَّل.

2 ـ وقالت الفرقة الثّانية: إنَّ مُوسَى بن جَعْفَر لم يمتْ، وإنَّه حيٌّ لا يموت حتَّى يملك شرق الأرض وغربها، ويملأها كُلّها عدلاً كما مُلئت جوراً، وإنَّه القائم المهدي، وزعموا أنَّه لَمَّا خاف على نفسه القَتْلَ خرج من الحَبْس نهاراً، ولم يره أحد، ولم يعلم به، وأنَّ السُّلطان وأصحابه ادَّعوا موته، وموَّهوا على النّاس، ولبَّسوا عليهم برجل مات في الحَبْس، فأخرجوه، ودفنوه في مقابر قُرَيْش، في القبر الذي يُدعى أنَّه قبر مُوسَى بن جَعْفَر، وكذبوا في ذلك، إنَّما غاب عن النّاس، واختفى. ورووا في ذلك روايات عن أبيه جَعْفَر: أنَّه قال: "هُو القائم المهدي، فإنْ يُدَهدَه رأسه من جبل، فلا تُصدِّقوا، فإنَّه صاحبكم القائم".

3 ـ وقالت فرقةٌ: إنَّه القائم، وقد مات، فلا تكون الإمامة لأحد من ولدهن ولا لغيرهمن حتَّى يرجع، فيقوم، ويظهر، وزعموا أنَّه قد رجع بعد موته، إلاَّ إنَّه مُختف في موضع من المواضع، يعرفونه، يأمر، وينهى، وأنَّ مَنْ يُوثَّق من أصحابه، يَلقونَهُ، ويَرونَهُ.

4 ـ وقالت فرقةٌ منهم: لا يُدْرَى أ حيٌّ هُو أم ميِّتٌ؟ لأنَّا قد رُوينا فيه أخباراً كثيرة تدلُّ على أنَّه القائم المهدي، فلا يجوز تكذيبها، وقد وَرَدَ علينا من خبر وفاته مثل الذي وَرَدَ علينا من خبر وفاة أبيه وجَدِّه والماضين من آبائه في معنى صحَّة الخبر، فهُو ـ أيضاً ـ ممَّا لا يجوز ردُّه

وإنكاره . . فوقفنا عند ذلك على إطلاق موته وعن الإقرار بحياته، ونحنُ مُقيمون على إمامته، لا نتجاوزها إلى غيره، حتَّى يصح لنا أمره . .

5 ـ وفرقةٌ منهم يُقال لها الهسمويَّة أصحاب مُحمَّد بن بشير مولى بني أسد من أهل الكُوفة قالت: إنَّ مُوسَى بن جَعْفَر لم يمتْ، ولم يُحبَسْ، وإنَّه غاب، واستترَ، وهُو القائم المهدي، وإنَّه في وقت غيبته استخلف على الأُمَّة مُحمَّد بن بشير، وجَعَلَهُ وصيَّه، وأعطاه خاتمه، وعَلَّمَهُ جميع ما يحتاج إليه رعيَّته . . . فهُو الإمام، وزعموا أنَّ عليّ بن مُوسَى وكُلّ مَنْ ادَّعى الإمامة من ولده وولد مُوسَى بن جَعْفَر فمُبطلين كاذبين، غير طيِّبي الولادة، ونفوهم عن أنسابهم، وكفَّروهم لدعواهم الإمامة، وكفَّروا القائلين بإمامتهم . . . وقالوا بإباحة المحارم، وبالتّناسخ، ومذاهبهم في التّفويض مذاهب الغُلاة المُفرطة . . . . وعُرفوا ـ أيضاً ـ بالواقفة.

(فِرَق الشِّيعة بعد وفاة الإمام عليّ بن مُوسَى الرِّضا عليه السّلام):

ثُمَّ إنَّ أصحاب عليّ بن مُوسَى الرِّضا اختلفوا بعد وفاته، فصاروا خمس فرَق:

1 ـ فرقة قالت: الإمام بعد عليّ بن مُوسَى ابنه مُحمَّد بن عليّ، ولم يكن له غيره، وكان مُتزوِّجاً من ابنة المأمون، واتَّبعوا الوصيَّة والمنهاج الأوَّل من لدُن النَّبي صلَّى الله عليه وآله.

2 ـ وفرقة قالت بإمامة أحمد بن مُوسَى بن جَعْفَر، قطعوا عليه، وادَّعوا أنَّ الرِّضا أوصى إليه، وإلى الرِّضا، وأجازوها في أخوَيْن، ومالوا في مذاهبهم إلى شبيه بمذاهب الفطحيَّة أصحاب عبد الله بن جَعْفَر.

3ـ وفرقة تُسمَّى المُؤلَّفة من الشِّيعة قد كانوا نَصَروا الحقّ، وقطعوا على إمامة عليّ بن مُوسَى بعد وُقُوفهم على مُوسَى، وإنكار موته، فصدَّقوا بموته، وقالوا بإمامة الرِّضا. فلمَّا تُوفِّي رجعوا إلى القول بالوَقْف على مُوسَى بن جَعْفَر.

4ـ وفرقة تُسمَّى المُحدثة كانوا من أهل الإرجاء وأصحاب الحديث من العامَّة، فدخلوا في القول بإمامة مُوسَى بن جَعْفَر، وبعده لعليّ بن مُوسَى، وصاروا شيعة رغبة في الدُّنيا وتصنُّعاً، فلمَّا تُوفِّي عليّ بن مُوسَى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الإرجاء.

5 ـ وفرقة كانت من الزّيديَّة الأقوياء منهم والبَصْراء لزيد، فرجعوا عن مقالتهم، ودخلوا في القول بإمامة عليّ بن مُوسَى عندما أظهر المأمون فَضْلَهُ، وعَقَدَ على النّاس بَيْعَتَهُ، تصنُّعاً للدُّنيا، واستمالوا النّاس ـ بذلك ـ عصراً، فلمَّا مضى عليّ بن مُوسَى رجعوا إلى قومهم من الزّيديَّة.

وكان سبب الفرقتَيْن اللَّتَيْن ائتمَّت إحداهما بأحمد بن مُوسَى، ورجعت الأُخرى إلى القول بالوَقْف أنَّ أبا الحَسَن الرِّضا تُوفِّي وابنه مُحمَّد ابن سبع سنين، فاستصبَوْهُ، واستصغروه، وقالوا: لا يجوز أنْ يكون الإمام إلاّ بالغاً. . .

أمَّا الذين قالوا بإمامة أبي جَعْفَر مُحمَّد بن عليّ بن مُوسَى؛ فاختلفوا في كيفيَّة علْمه، وكيف وَجْهُ ذلك لحَدَاثَة سنِّه ضُرُوباً من الاختلاف، فقال بعضهم لبعض: الإمام لا يكون إلاَّ عالماً، وأبو جَعْفَر غير بالغ، وأبوه قد تُوفِّي، فكيف علم؟ ومن أين علم؟ (وذَكَرَ المُصنِّفان آراءهم المُتعدِّدة في هذا الأمْر).

(فرَق الشِّيعة بعد وفاة الإمام مُحمَّد بن عليّ الجواد عليه السّلام):

ثُمَّ نزل أصحاب مُحمَّد بن عليّ الذين ثبتوا على إمامته إلى القول بإمامة ابنه ووصيِّه عليّ بن مُحمَّد، فلم يزالوا على ذلك، إلاَّ نفر منهم يسير، عدلوا عنه إلى القول بإمامة أخيه مُوسَى بن مُحمَّد (المُبرقع)، ثُمَّ لم يثبتوا على ذلك قليلاً، حتَّى رجعوا إلى إمامة عليّ بن مُحمَّد، ورفضوا إمامة مُوسَى؛ لأنَّ مُوسَى كذَّبهم، وتبرَّأ منهم. فلم يزالوا كذلك، حتَّى تُوفِّي عليّ بن مُحمَّد بسُرَّ مَنْ رأى. . .

وقد شذَّت فرقةٌ من القائلين بإمامة عليّ بن مُحمَّد في حياته، فقالت بنُبُوَّة رجل يُقال له مُحمَّد بن نصير النّميري كان يدَّعي أنَّه نبيٌّ رسولٌ، وأنَّ عليّ بن مُحمَّد العسكري أرسله، وكان يقول بالتَّناسخ، ويغلو في أبي الحَسَن (أيْ الإمام عليّ بن مُحمَّد الهادي)، ويقول فيه بالرُّبوبيَّة، ويقول بالإباحة للمحارم، ويُحلِّل نكاح الرِّجال بعضهم بعضاً في أدبارهم، ويزعم أنَّ ذلك من التّواضع والإخبات والتَّذلُّل في المفعول به! (وغير ذلك من أقوالهم. .) . . . فسُمِّيت هذه الفرقة النّميريَّة.

(فِرَق الشِّيعة بعد وفاة الإمام عليّ بن مُحمَّد الهادي عليه السَّلام):

فلمَّا تُوفِّي عليّ بن مُحمَّد بن عليّ بن مُوسَى قالت فرقةٌ من أصحابه بإمامة ابنه مُحمَّد، وكان قد تُوفِّي في حياة أبيه بسُرَّ مَنْ رأى، زعموا أنَّه حيٌّ لم يمتْ، واعتلّوا في ذلك بأنَّ أباه أشار إليه، وأعلمهم أنَّه الإمام بعده، والإمام لا يجوز عليه الكذب، ولا يجوز البداء فيه، وإنْ ظهرت وفاته في حياة أبيه، فإنَّه لم يمتْ في الحقيقة، ولكنَّ أباه خاف عليه، فغيَّبه، وهُو المهدي القائم، وقالوا فيه بمثل مقالة أصحاب إسماعيل بن جَعْفَر.

وقال سائر أصحاب عليّ بن مُحمَّد بإمامة ابنه الحَسَن بن عليّ (أيْ العسكري)، وثبَّتوا له الإمامة بوصيَّة أبيه إليه، إلاَّ نفراً قليلاً، فإنَّهم مالوا إلى أخيه جَعْفَر بن عليّ...

(فِرَق الشِّيعة بعد وفاة الإمام الحَسَن بن عليّ العسكري عليه السَّلام):

فلمَّا تُوفِّي الحَسَن بن عليّ اختلف أصحابه من بعده، وافترقوا إلى خمس عشرة فرقة:

1 ـ ففرقةٌ منها ـ وهي المعروفة بالإماميَّة ـ قالت لله في أرضه بعد مضي الحَسَن بن عليّ حُجَّة على عباده، وخليفة في بلاده قائم بأمره، من ولد الحَسَن بن عليّ بن مُحمَّد بن عليّ الرِّضا...

2 ـ وقالت الفرقة الثَّانية: إنَّ الحَسَن بن عليّ حيٌّ لم يمتْ، وإنَّما غاب، وهُو القائم، ولا يجوز أنْ يموت الإمام، ولا ولد له، ولا خلف معروف ظاهر...

3 ـ وقالت الفرقة الثَّالثة: إنَّ الحَسَن بن عليّ مات، وعاش بعد موته، وهُو القائم، واحتجّوا برواية رووها عن جَعْفَر بن مُحمَّد أنَّه قال: إنَّما سُمِّي القائم قائماً؛ لأنَّه يقوم بعد أنْ يموت! ولأنَّ الأرض لا تخلو من حُجَّة ظاهرة.

4 ـ وقالت الفرقة الرَّابعة: إنَّ الحَسَن بن عليّ قد صحَّت وفاته، كما صحَّت وفاة آبائه بتواطؤ الأخبار، التي لا يجوز تكذيب مثلها، وصحَّ بمثل هذه الأسباب أنَّه لا خلف له، فلمَّا صحَّ عندنا الوجهان ثبت أنْ لا إمام بعد الحَسَن بن عليّ، وأنَّ الإمامة انقطعت، وذلك جائز في المعقول والقياس، فكما جاز أنْ تنقطع النُّبوَّة بعد مُحمَّد، فلا يكون بعده شيء، كذلك جاز أنْ تنقطع الإمامة.

5 ـ وقالت الفرقة الخامسة: إنَّ الحَسَن بن عليّ قد مات، وصحّ موته، ولا خلف له، وانقطعت الإمامة إلى وقت يبعث الله فيه قائماً من آل مُحمَّد ممَّنْ قد مضى، إنْ شاء بَعَثَ الحَسَن بن عليّ، وإنْ شاء بَعَثَ غيره من آبائه.

6 ـ وقالت الفرقة السّادسة: إنَّ الحَسَن وجَعْفَر (الكذّاب) لم يكونا إمامَيْن، فإنَّ الإمام كان مُحمَّد الميِّت في حياة أبيه؛ إذْ قد ثبتت إشارة أبيه إليه بالإمامة، وأنَّ أباهما لم يُوص لواحد منهما، ولا أشار له بإمامة، وادَّعى بعضهم أنَّه (أيْ مُحمَّد بن عليّ) حيٌّ لم يمتْ، وأنَّ أباه غيَّبهُ، وسَتَرَهُ خوفاً عليه، (وقالوا): وإنْ بطلت إمامة مُحمَّد كما بطلت إمامة الحَسَن وجَعْفَر، بطلت إمامة أبيهم أبي الحَسَن وإمامة الأئمَّة الماضين من آبائه؛ وهذا لا يجوز، فذلك لا يكون.

7 ـ وقالت الفرقة السّابعة: إنَّ الحَسَن بن عليّ تُوفِّي، ولا عقب له، والإمام بعده جَعْفَر ابن عليّ أخوه، وذهبوا في ذلك إلى بعض مذاهب الفطحيَّة في عبد الله ومُوسَى ابنَيْ جَعْفَر.

8 ـ وقالت الفرقة الثّامنة: إنَّ الإمام جَعْفَر بن عليّ، وإنَّ إمامته أفضت إليه من قِبَل أبيه عليّ بن مُحمَّد، وإنَّ القول بإمامة الحَسَن كان غَلَطاً وخطأً وَجَبَ الرُّجُوع عنه إلى إمامة جَعْفَر.

9 ـ وقالت الفرقة التّاسعة بمثل مقالة الفطحيَّة الفُقَهَاء منهم وأهل النَّظَر أنَّ الحَسَن بن عليّ تُوفِّي وهُو إمام بوصيَّة أبيه إليه، وأنَّ الإمامة لا تكون إلاَّ في الأكبر من ولد الإمام، ممَّنْ بقي منهم بعد أبيه، فالإمام بعد الحَسَن بن عليّ: جَعْفَر أخوه، لا يجوز غيره؛ إذْ لا ولد للحَسَن معروف، ولا أخ إلاَّ جَعْفَر في وصيَّة أبيه، كما أوصى جَعْفَر بن مُحمَّد (أيْ الصّادق) إلى عبد الله لمكان الأكبر، ثُمَّ جعلها من بعد عبد الله لمُوسَى أخيه.

10 ـ وقالت الفرقة العاشرة: إنَّ الإمام كان مُحمَّد بن عليّ بإشارة أبيه إليه، ونصَّبه له إماماً، ثُمَّ بدا لله في قبضه إليه في حياة أبيه، وأوصى مُحمَّد إلى جَعْفَر أخيه بأمر أبيه، ووصَّاه، ودَفَعَ الوصيَّة والعُلُوم والسّلاح إلى غُلام له يُقال له نفيس لمَّا كان في خدمة أبي الحَسَن، وهذه الفرقة تُسمَّى نفيسيَّة.

11 ـ وقالت الفرقة الحادية عشرة: إنَّ الحَسَن بن عليّ قد تُوفِّي وهُو إمام، وخلَّف ابناً بالغاً يُقال له مُحمَّد، وهُو الإمام من بعده، وإنَّ الحَسَن بن عليّ أشار إليه، ودلَّ عليه، وأمره بالاستتار في حياته مخافة عليه، فهُو مُستتر خائف في تقيَّة من عمِّه جَعْفَر، وأنَّه قد عُرف في حياة أبيه، ولا ولد للحَسَن بن عليّ غيره، فهُو الإمام، وهُو القائم، لا محالة.

12 ـ وقالت الفرقة الثَّانية عشرة بمثل هذه المقالة في إمامة الحَسَن بن عليّ، وأنَّ له خَلَفاً ذَكَراً يُقال له عليّ، وكذَّبوا القائلين بمُحمَّد، وزعموا أنَّه لا ولد للحَسَن غير عليّ.

13 ـ وقالت الفرقة الثَّالثة عشرة: إنَّ للحَسَن بن عليّ ولداً وُلد بعده بثمانية أشهر، وإنَّه مُستتر لا يُعرف اسمه، ولا مكانه، واعتلُّوا في تجويز ذلك بحديث يُروى عن أبي الحَسَن الرِّضا أنَّه قال: ستبتلون بالجنين في بطن أُمِّه والرَّضيع!

14 ـ وقالت الفرقة الرَّابعة عشرة: لا ولد للحَسَن بن عليّ أصلاً، لأنَّا تبحَّرنا ذلك بكُلِّ وجه، وفتَّشنا عنه سرّاً وعَلانية، وبحثنا عن خبره في حياة الحَسَن بكُلِّ سبب، فلم نجده، ولو جاز أنْ يُقال في مثل الحَسَن بن عليّ، وقد تُوفِّي، ولا ولد له ظاهر معروف، أنَّ له ولداً مستوراً، لجاز مثل هذه الدَّعوى في كُلِّ ميِّت من غير خَلَف، ولجاز مثل ذلك في النَّبي صلوات الله عليه أنْ يُقال خلَّف ابناً رسولاً نبيّاً، ولجاز أنْ تُدعي الفطحيَّة أنَّ لعبد الله بن جَعْفَر وَلَداً ذَكَراً إماماً!

15 ـ وقالت الفرقة الخامسة عشرة: نحنُ لا ندري ما نقول في ذلك، وقد اشتبه علينا الأَمْر، فلسنا نعلم أنَّ للحَسَن بن عليّ وَلَداً أم لا؟ أم الإمامة صحَّت لجَعْفَر أم لمُحمَّد؟ وقد كثر الاختلاف، إلاَّ أنَّا نقول: إنَّ الحَسَن بن عليّ كان إماماً مُفترض الطَّاعة ثابت الإمامة، وقد تُوفِّي عليه السلام، وصحَّت وفاته، والأرض لا تخلو من حُجَّة، فنحنُ نتوقَّف، ولا نقدم على القول بإمامة أحد بعده، ولا نُنكر إمامة أبي مُحمَّد، ولا موته، ولا نقول: إنَّه رجع بعد موته، ولا نقطع على إمامة أحد من ولد غيره، ولا ننتميه، حتَّى يظهر الله الأَمْر إذا شاء، ويكشف، ويُبيِّنه لنا.]

وهكذا؛ استقرَّت العقيدة لدى الإماميَّة الاثنَيْ عشريَّة على الأئمَّة الاثنَيْ عشر التَّالين:

1 ـ الإمام الشّهيد أبو الحَسَن عليّ بن أبي طالب عليه السّلام (23 قبل الهجرة ـ 20 هـ).

2 ـ الإمام الشّهيد أبو مُحمَّد الحَسَن بن عليّ عليه السّلام (2 ـ 50 هـ).

3 ـ الإمام سيِّد الشّهداء أبو عبد الله الحُسَين بن عليّ عليه السّلام (3 ـ 61 هـ).

4 ـ الإمام زين العابدين عليّ بن الحُسَين "السّجّاد" عليه السّلام (38 ـ 95 هـ).

5 ـ الإمام أبو جَعْفَر مُحمَّد بن عليّ "الباقر" عليه السّلام (57 ـ 114 هـ).

6 ـ الإمام أبو عبد الله جَعْفَر بن مُحمَّد "الصّادق" عليه السّلام (80 أو 83 ـ 148 هـ).

7 ـ الإمام أبو إبراهيم مُوسَى بن جَعْفَر "الكاظم" عليه السّلام (128 أو 129 ـ 183 هـ).

8 ـ الإمام أبو الحَسَن عليّ بن مُوسَى "الرّضا" عليه السّلام (148 ـ 203 هـ).

9 ـ الإمام أبو جَعْفَر مُحمَّد بن عليّ "الجواد" عليه السّلام (195 ـ 220 هـ).

10 ـ الإمام أبو الحَسَن عليّ بن مُحمَّد "الهادي" عليه السّلام (212 ـ 254 هـ).

11 ـ الإمام أبو مُحمَّد الحَسَن بن عليّ "العسكري" عليه السّلام (232 ـ 260 هـ).

12 ـ الإمام أبو القاسم مُحمَّد بن الحَسَن "المهدي الحُجَّة الغائب المُنتظر" (255 ـ . . . . . .) الذي غاب عن أنظار شيعته، ولكنَّه لا يزال حيّاً إلى يومنا هذا، حتَّى يأذن الله بظُهُوره العَلَني.

مفهوم الإمامة ومقام وصفات الإمام لدى الإماميَّة:

للإمام والإمامة لدى الشّيعة الإماميَّة ـ وكُلُّ ما تَفَرَّعَ عنها من فِرَق ـ أهمِّيَّة مركزيَّة خاصَّة تختلف عمَّا للحاكم من أهمِّيَّة لدى سائر الفِرَق الإسلاميَّة:

فأوَّلاً: الإمامة: [أصل من أُصُول الدِّين لا يتمُّ الإيمان إلاَّ بالاعتقاد بها، وهي ـ كالنُّبُوَّة ـ لُطف من الله تعالى، فلابُدَّ أنْ يكون في كُلِّ عصرٍ إمامٌ هادٍ، يخلف النَّبي في هداية البشر،

وإرشادهم إلى ما فيه الصّلاح والسّعادة في النّشأتّين، وله ما للنّبي من الولاية العامّة على النّاس في تدبير شؤونهم ومصالحهم، وإقامة العَدْل بينهم، ورَفْع الظُّلم والعُدوان من بينهم.

وعلى هذا؛ فالإمامة استمرارٌ للنُّبوَّة، والدّليل الذي يُوجب إرسال الرُّسُل، وبعث الأنبياء، هُو نفسه يُوجب ـ أيضاً ـ نصب الإمام بعد الرّسول.

فلذلك؛ تقول الإماميَّة: إنَّ الإمامة لا تكون إلاَّ بالنَّصِّ من الله ـ تعالى ـ على لسان النّبي أو لسان الإمام الذي قبله، وليست بالاختيار والانتخاب من النّاس، فليس لهم إذا شاؤوا أنْ يُنصِّبوا إماماً نصَّبوه، وإذا شاؤوا أنْ يُعيِّنوا إماماً عيَّنوه، ومتى شاؤوا أنْ يتركوا تعيينه تَركوه، ليصحَّ لهم البقاء بلا إمام، بل «مَنْ مات، ولم يعرف إمام زمانه، مات ميتة جاهليَّة» على ما ثبت عن الرّسول الأعظم بالحديث المُستفيض، وعليه؛ لا يجوز أنْ يخلو عصر من العُصُور من إمام مفروض الطّاعة، منصوب من الله تعالى، سواء أبى البشر أم لم يأبوا، وسواءً ناصروه أم لم يُناصروه، وسواءً كان حاضراً أو غائباً عن أعين النّاس؛ إذْ كما يصحُّ أنْ يغيب النّبي في الغار والشّعب صحَّ أنْ يغيب الإمام، ولا فرق في كمِّ العَقْل بين طُول الغيبة وقصرها. قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرّعد/ 7، وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر/ 24.][1].

وثانياً: الإمام: [يجب أنْ يكون معصوماً ـ كالنّبيّ ـ من جميع الرّذائل والفواحش ما ظهر منها، وما بطن، من سنِّ الطُّفُولة إلى الموت، عَمْداً وسَهْواً، كما يجب أنْ يكون معصوماً من السّهو والخطأ والنّسيان؛ لأنَّ الأئمَّة حَفَظَةُ الشّرْع، والقوَّامون عليه، حالهم في ذلك حال النّبي، والدّليل الذي اقتضانا أنْ نعتقد بعصمة الأنبياء هُو نفسه يقتضينا أنْ نعتقد بعصمة الأئمَّة بلا فَرْق.][2]

---

(1) عقائد الإماميّة: الشّيخ مُحمَّد رضا المُظفَّر، ط2، القاهرة، 1381 هـ، ص 49 ـ 51.

(2) المصدر السّابق: ص 51.

وثالثاً: الإمام: [يجب أنْ يكون - كالنّبيّ - أفضل النّاس في صفات الكمال، من شجاعة وكَرم وعفّة وصدْق وعدْل وتدبير وعقْل وحكْمة وخُلُق، والدّليل في النّبي هُو نفسه الدّليل في الإمام.][1]

ورابعاً: بالنّسبة لعلم الإمام، يعتقد الشّيعة الإماميّة أنّ الإمام [يتلقّى المعارف والأحكام الإلهيّة وجميع المعلومات من طريق النّبي، أو الإمام من قبله، وإذا استجدّ شيء لابُدّ أنْ يعلمه من طريق الإلهام بالقوّة القُدسيّة التي أودعها الله - تعالى - فيه، فإنْ توجّه إلى شيء، وشاء أنْ يعلمه، علمه على وجهه الحقيقي، لا يُخطئ في كُلّ ذلك، ولا يحتاج في ذلك إلى البراهين العقْليّة، ولا إلى تلقينات المُعلّمين، وإنْ كان علمه قابلاً للزّيادة والاشتداد، ولذا؛ قال (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في دُعائه: « ربِّ زدني علماً ».][2].

ولذلك؛ فليس مطروحاً - في المفهوم الشّيعي للإمام - موضوع اجتهاد الإمام أو إصابته أو خطئه، كما يرى أهل السُّنّة في أئمّتهم في الفقْه كأبي حنيفة أو الشّافعي أو غيرهما، بل الأئمّة عند الشّيعة لا يجتهدون؛ لأنّهم معصومون مُعَلّمون مُلهَمُون من الله، وأقوالهم وأفعالهم وتقريراتهم كُلُّها حقٌّ وحُجّة من الله، تماماً كأقوال وأفعال وتقريرات النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

والحديث الطّويل التّالي الذي ترويه كُتُب الشّيعة الإماميّة منسوباً إلى الإمام الثّامن عليّ بن مُوسَى الرّضا عليه السلام يُوضح - تماماً - مقام الإمام ومكانة الإمامة في العقيدة الشّيعيّة الإماميّة:

روى المُحدّث الشّيعي الإمامي أبو جَعْفَر مُحمّد بن يعقوب الكليني الرّازي بسنده قال:

[أَبُو مُحَمَّدٍ القَاسمُ بْنُ العَلاء رَحِمَهُ اللَّهُ رَفَعَهُ عَنْ عَبْد العَزيز بْن مُسلم قَال: كُنَّا مَعَ الرِّضَا عليه السلام بمَرْوَ، فَاجْتَمَعْنَا في الجَامع يَوْمَ الجُمُعَة في بَدْء مَقْدَمنَا، فَأَدَارُوا أَمْرَ الإمَامَة، وذَكَرُوا كَثْرَةَ اخْتلاف النَّاس فيهَا، فَدَخَلتُ عَلى سَيِّدي عليه السلام، فَأَعْلَمْتُهُ خَوْضَ النَّاس فيه، فَتَبَسَّمَ عليه السلام، ثُمَّ قَال: يَا عَبْدَ العَزيز؛ جَهل القَوْمُ، وخُدعُوا عَنْ آرَائهمْ، إنَّ اللَّهَ - عزَّ وجلَّ -

(1) المصدر السّابق: ص 51.

(2) المصدر السّابق: ص 52.

لمْ يَقْبِضْ نَبِيَّهُ (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) حتَّى أكْمَل لهُ الدِّينَ، وأنْزَل عَلَيْه القُرآن فيه تِبْيانُ كُلِّ شيْءٍ، بيّنَ فيه الحَلالَ والحَرَامَ والحُدُودَ والأحْكَامَ وجَميعَ مَا يَحْتَاجُ إليْه النَّاسُ كَمَلاً، فَقَال عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ وأنْزَل في حَجَّة الوَدَاع وهيَ آخرُ عُمُره (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم): ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وأمْرُ الإمَامَة منْ تَمَام الدِّين، لمْ يَمْضِ (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) حتَّى بيَّنَ لأُمَّته مَعَالمَ دينهمْ، وأوْضَحَ لهُمْ سَبيلهُمْ، وتَركَهُمْ على قَصْد سَبيل الحَقِّ، وأقَامَ لهُمْ عَليّاً عليه السلام عَلماً وإمَاماً، ومَا تَركَ لهُمْ شَيْئاً يَحْتَاجُ إليْه الأُمَّةُ إلاَّ بيَّنَهُ، فَمَنْ زَعَمَ أنَّ اللَّهَ - عزَّ وجَلَّ - لمْ يُكْمل دينَهُ فَقَدْ رَدَّ كتَابَ اللَّه، ومَنْ رَدَّ كتَابَ اللَّه فهُو كَافرٌ به. هَل يَعْرفُونَ قَدْرَ الإمَامَة ومَحلَّهَا منَ الأُمَّة، فَيَجوزَ فيهَا اخْتيَارُهُمْ! إنَّ الإمَامَةَ أجَلُّ قَدْراً وأعْظَمُ شَأْناً وأعْلى مَكَاناً وأمْنَعُ جَانباً وأبْعَدُ غَوْراً منْ أنْ يَبْلُغَهَا النَّاسُ بعُقُولهمْ، أوْ يَنَالُوهَا بآرَائهمْ، أوْ يُقيمُوا إمَاماً باخْتيَارهمْ، إنَّ الإمَامَةَ خَصَّ اللَّهُ - عزَّ وجَلَّ - بهَا إبْرَاهيمَ الخَليلَ عليه السلام بَعْدَ النُّبُوَّة والخُلَّة مَرْتَبَةً ثَالثَةً وفَضيلةً شَرَّفَهُ بهَا، وأشَادَ بهَا ذكْرَهُ فَقَال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فَقَال الخَليلُ عليه السلام: سُرُوراً بهَا ومنْ ذُرِّيَّتي، قَال اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فَأبْطَلتْ هَذه الآيَةُ إمَامَةَ كُلِّ ظَالمٍ إلى يَوْم القيَامَة، وصَارَتْ في الصَّفْوَة، ثُمَّ أكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالى بأنْ جَعَلَهَا في ذُرِّيَّته أهْل الصَّفْوَة والطَّهَارَة، فَقَال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ فَلمْ تَزَل في ذُرِّيَّته يَرثُهَا بَعْضٌ عَنْ بَعْضٍ قَرْناً فَقَرْناً، حتَّى ورَّثَهَا اللَّهُ تَعَالى النَّبيَّ (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، فَقَال جَلَّ وتَعَالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فَكَانَتْ لهُ خَاصَّةً، فَقَلَّدَهَا (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) عَليّاً بأمْر اللَّه تَعَالى عَلى رَسْم مَا فَرَضَ اللَّهُ، فَصَارَتْ في ذُرِّيَّته الأصْفيَاء الذينَ آتَاهُمُ اللَّهُ العلمَ والإيمَانَ بقَوْله تَعَالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ فَهيَ في وَلَد عَليٍّ عليه السلام خَاصَّةً إلى يَوْم القيَامَة؛ إذْ لا نَبيَّ بَعْدَ مُحَمَّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) فَمنْ أيْنَ يَخْتَارُ هَؤُلاء الجُهَّالُ؟!.

إنَّ الإمَامَةَ هيَ مَنْزلَةُ الأنْبيَاء، وإرْثُ الأوْصيَاء. إنَّ الإمَامَةَ خلافَةُ اللَّه، وخلافَةُ الرَّسُول

(صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، ومَقَامُ أمير المؤمنينَ عليه السلام، وميراثُ الحَسَن والحُسَين (عليهما السّلام). إنَّ الإمَامَةَ زمَامُ الدِّين، ونظَامُ المُسلمينَ، وصَلاحُ الدُّنيا، وعزُّ المؤمنينَ. إنَّ الإمَامَةَ أُسُّ الإسْلام النَّامي، وفَرْعُهُ السَّامي، بالإمَام تَمَامُ الصَّلاة، والزكَاة، والصِّيام، والحَجِّ، والجهَاد، وتَوْفيرُ الفَيْءِ والصَّدَقَات، وإمْضَاءُ الحُدُود والأحْكَام، ومَنْعُ الثُّغُور والأطْرَاف.
الإمَامُ يُحلُّ حَلال اللّه، ويُحَرِّمُ حَرَامَ اللّه، ويُقيمُ حُدُودَ اللّه، ويَذُبُّ عَنْ دين اللّه. ويَدْعُو إلى سَبيل ربِّه بالحكْمَة والمَوْعظَة الحَسَنَة والحُجَّة البَالغَة. الإمَامُ كَالشَّمْس الطَّالعَة المُجَلِّلة بنُورهَا للعَالم وهيَ في الأُفُق؛ بحَيْثُ لا تَنَالُهَا الأيْدي والأبْصَارُ. الإمَامُ البَدْرُ المُنيرُ، والسِّرَاجُ الزَّاهرُ، والنُّورُ السَّاطعُ، والنَّجْمُ الهَادي في غَيَاهب الدُّجَى وأجْوَاز البُلْدَان والقفَار ولُجَج البحَار. الإمَامُ المَاءُ العَذْبُ عَلى الظَّمَإ، والدَّالُّ عَلى الهُدَى، والمُنْجي منَ الرَّدَى، الإمَامُ النَّارُ عَلى اليَفَاع الحَارُّ لمَن اصْطَلى به، والدَّليلُ في المَهَالك، مَنْ فَارَقَهُ فَهَالكٌ. الإمَامُ السَّحَابُ المَاطرُ، والغَيْثُ الهَاطلُ، والشَّمْسُ المُضيئَةُ، والسَّمَاءُ الظَّليلَةُ، والأرْضُ البَسيطَةُ، والعَيْنُ الغَزيرَةُ، والغَديرُ والرَّوْضَةُ. الإمَامُ الأنيسُ الرَّفيقُ، والوَالدُ الشَّفيقُ، والأخُ الشَّقيقُ، والأُمُّ البَرَّةُ بالوَلد الصَّغير، ومَفْزَعُ العبَاد في الدَّاهيَة النَّآد، الإمَامُ أمينُ اللّه في خَلقه، وحُجَّتُهُ عَلى عبَاده، وخَليفَتُهُ في بلاده، والدَّاعي إلى اللّه، والذَّابُّ عَنْ حُرَم اللّه، الإمَامُ المُطَهَّرُ منَ الذُّنُوب، والمُبَرَّأُ عَن العُيُوب، المَخصُوصُ بالعلم، المَوْسُومُ بالحلم نظَامُ الدِّين وعزُّ المُسلمينَ وغَيْظُ المُنَافقينَ وبَوَارُ الكَافرينَ. الإمَامُ وَاحدُ دَهْره، لا يُدَانيه أحَدٌ، ولا يُعَادلُهُ عَالمٌ، ولا يُوجَدُ منهُ بَدَلٌ، ولا لهُ مثْلٌ ولا نَظيرٌ، مَخصُوصٌ بالفَضْل كُلِّه منْ غَيْر طَلَبٍ منهُ لهُ ولا اكْتسَاب، بَل اخْتصَاصٌ منَ المُفْضل الوَهَّاب، فَمَنْ ذَا الذي يَبْلُغُ مَعْرفَةَ الإمَام، أوْ يُمْكنُهُ اخْتيَارُهُ! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، ضَلَّت العُقُولُ، وتَاهَت الحُلُومُ، وحَارَت الألْبَابُ، وخَسَأَت العُيُونُ، وتَصَاغَرَت العُظَمَاءُ، وتَحَيَّرَت الحُكَمَاءُ، وتَقَاصَرَت الحُلَمَاءُ، وحَصرَت الخُطَبَاءُ، وجَهلت الألبَّاءُ، وكَلَّت الشُّعَرَاءُ، وعَجَزَت الأُدَبَاءُ، وعَيِيَت البُلَغَاءُ عَنْ وَصْف شَأْن منْ شَأنه، أوْ فَضيلة منْ فَضَائله، وأقَرَّتْ بالعَجْز والتَّقْصير، وكَيْفَ يُوصَفُ بكُلِّه، أوْ يُنْعَتُ بكُنْهه، أوْ يُفْهَمُ شَيْءٌ منْ أمْره، أوْ يُوجَدُ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، ويُغْني غنَاهُ؟ لا كَيْفَ وأنَّى وهُوَ بحَيْثُ النَّجْم منْ يَد المُتَنَاولينَ ووَصْف الوَاصفينَ، فَأيْنَ الاخْتيَارُ منْ هَذَا؟

وأَيْنَ العُقُولُ عَنْ هَذَا؟ وأَيْنَ يُوجَدُ مِثْلُ هَذَا؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ يُوجَدُ فِي غَيْرِ آلِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)؟ كَذَبَتْهُمْ واللَّهِ أَنْفُسُهُمْ، ومَنَّتْهُمُ الأَبَاطِيلُ، فَارْتَقَوْا مُرْتَقًا صَعْباً دَحْضاً تَزِلُّ عَنْهُ إلى الحَضِيضِ أَقْدَامُهُمْ، رَامُوا إِقَامَةَ الإِمَامِ بِعُقُولٍ حَائِرَةٍ بَائِرَةٍ نَاقِصَةٍ وآرَاءٍ مُضِلَّةٍ، فَلَمْ يَزْدَادُوا مِنْهُ إِلاَّ بُعْداً، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ، ولَقَدْ رَامُوا صَعْباً، وقَالُوا إِفْكاً، وضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً، ووَقَعُوا فِي الحَيْرَةِ؛ إِذْ تَرَكُوا الإِمَامَ عَنْ بَصِيرَةٍ، وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ، وكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ رَغِبُوا عَنِ اخْتِيَارِ اللَّهِ واخْتِيَارِ رَسُولِ اللَّهِ (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وأَهْلِ بَيْتِهِ إلى اخْتِيَارِهِمْ والقُرْآنُ يُنَادِيهِمْ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الآيَةَ وقَالَ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ وقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أَمْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ؟ أَمْ قَالُوا سَمِعْنَا وهُمْ لا يَسْمَعُونَ؟ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أَمْ قَالُوا: سَمِعْنَا وعَصَيْنَا؟! بَلْ هُوَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ، فَكَيْفَ لَهُمْ بِاخْتِيَارِ الإِمَامِ والإِمَامُ عَالِمٌ لا يَجْهَلُ ورَاعٍ، لا يَنْكُلُ مَعْدِنُ القُدْسِ والطَّهَارَةِ والنُّسُكِ والزَّهَادَةِ والعِلْمِ والعِبَادَةِ مَخْصُوصٌ بِدَعْوَةِ الرَّسُولِ (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) ونَسْلِ المُطَهَّرَةِ البَتُولِ، لا مَغْمَزَ فِيهِ فِي نَسَبٍ، ولا يُدَانِيهِ ذُو حَسَبٍ فِي البَيْتِ مِنْ قُرَيْشٍ والذِّرْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ والعِتْرَةِ مِنَ الرَّسُولِ (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) والرِّضَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ شَرَفُ الأَشْرَافِ، والفَرْعُ مِنْ عَبْدِ مَنَافٍ، نَامِي العِلْمِ، كَامِلُ الحِلْمِ، مُضْطَلِعٌ بِالإِمَامَةِ، عَالِمٌ بِالسِّيَاسَةِ، مَفْرُوضُ الطَّاعَةِ، قَائِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ، نَاصِحٌ لِعِبَادِ اللَّهِ، حَافِظٌ لِدِينِ اللَّهِ. إِنَّ الأَنْبِيَاءَ والأَئِمَّةَ (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) يُوَفِّقُهُمُ اللَّهُ، ويُؤْتِيهِمْ مِنْ مَخْزُونِ عِلْمِهِ وحِكَمِهِ مَا لا يُؤْتِيهِ غَيْرَهُمْ، فَيَكُونُ عِلْمُهُمْ فَوْقَ عِلْمِ أَهْلِ الزَّمَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ

أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ وقَوْله تَبارَكَ وتَعالى: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ وقَوْله في طالُوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ وقَال لنبيِّه (صلّى الله عليه وآله وسلَّم): ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ وقَال في الأئمَّة منْ أَهْل بَيْت نَبيِّه وعتْرَته وذُرِّيَّته (صلّى الله عليه وآله وسلَّم): ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ۝ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ وإنَّ العَبْدَ إذَا اخْتَارَهُ اللَّهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ لأُمُور عباده، شَرَحَ صَدْرَهُ لذَلكَ، وأَوْدَعَ قَلْبَهُ يَنَابيعَ الحكْمَة، وأَلهمَهُ العلمَ إلهاماً، فَلمْ يَعْيَ بَعْدَهُ بجَوَاب، ولا يُحَيَّرُ فيه عَن الصَّوَاب، فهُو مَعْصُومٌ مُؤَيَّدٌ مُوَفَّقٌ مُسَدَّدٌ، قَدْ أَمنَ منَ الخَطَايا والزَّلل والعثَار، يَخُصُّهُ اللَّهُ بذَلكَ؛ ليَكُونَ حُجَّتَهُ عَلى عبَاده، وشَاهدَهُ عَلى خَلقه، وذلكَ فَضْلُ اللَّه، يُؤْتيه مَنْ يَشاءُ، واللَّهُ ذُو الفَضْل العَظيم. فَهَل يَقْدرُونَ عَلى مثْل هَذَا فَيَخْتَارُونَهُ أَوْ يَكُونُ مُخْتَارُهُمْ بهَذه الصِّفَة فَيُقَدِّمُونَهُ؟! تَعَدَّوْا ـ وبَيْت اللَّه ـ الحَقَّ، ونَبَذُوا كتَابَ اللَّه وَرَاءَ ظُهُورهمْ، كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ، وفي كتَاب اللَّه الهُدَى والشِّفَاءُ، فَنَبَذُوهُ، واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، فَذَمَّهُمُ اللَّهُ، ومَقَتَهُمْ، وأَتْعَسَهُمْ، فَقَال جَلَّ وتَعَالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقَال: ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ وقَال ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ وصلَّى اللَّهُ عَلى النَّبيِّ مُحَمَّد وآله وسَلَّمَ تَسْليماً كَثيراً] أُصُول الكافي 1/ 199 ـ 203.

السُّنَّة والشِّيعة، أو الدِّيمُوقراطيَّة والثِّيُوقراطيَّة[1]:

هُناكَ سُؤال أخير مايزال قائماً في شأن الخلاف في موضوع الإمامة بين الشِّيعة والسُّنَّة: ما سرُّ الإصرار على أحقِّيَّة عليٍّ في ولاية الأمْر إلى اليوم؟ قد يكشف التَّحليل السَّابق عن

(1) هذا التَّحليل القيِّم مُستفاد من كتاب "في علم الكلام: دراسة فلسفيَّة لآراء الفرق الإسلاميَّة في أُصُول الدِّين، الجُزء الثَّالث: الزَّيديَّة"، تأليف الدُّكتُور أحمد محمُود صُبحي: ص 26 ـ 33. بيرُوت: دار النَّهضة العربيَّة، ط3، 1411هـ ـ 1991م.

أسباب انشقاق الشِّيعة، ولكنَّه لا يُفصح عن بقاء التَّشيُّع مذهباً إلى يوم النَّاس هذا، بمعنى أنْ يُصرَّ فريق من المُسلمين أنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام قد نصَّ على عليٍّ صراحة، وأنَّه كان أحقَّ بالخلافة من أبي بكر، ويتَّخذون ذلك لهم مذهباً ونحْلة.

ومن ناحية أُخرى؛ لن يحلَّ الإشكالَ تحرِّي صحَّة الأحاديث حول الاستخلاف، فإنَّكَ إنْ كُنتَ سنِّيّاً فستُنكر أنَّ النَّبيَّ قد نصَّ على عليٍّ نصَّاً جليّاً أو خفيّاً، وإنْ كُنتَ شيعيّاً فستسوق الأحاديث والوقائع التَّاريخيَّة الدَّالَّة على إمامته وأفضليَّته، وإنَّه من المعلوم أنَّه إنْ ارتبطت أخبار أو أحداث تاريخيَّة بعقائد معيَّنة، فإنَّ هذه الأخبار أو الأحداث تُصبح تابعة للعقائد، بمعنى أنِّي أؤمن بالحديث والحادثة إنْ كانت تتَّسق مع عقيدتي، وأنفيها إنْ كانت تُعارضها [1]، أُريد - بذلك - أنْ أتجنَّب الخوض في الأحاديث المُتعلِّقة بالموضوع، وليست القضيَّة المطروحة: هل نصَّ النَّبيُّ أم لم ينصّ على مَنْ بعده؟ هل استخلف أم لم يستخلفْ؟ وإنَّما القضيَّة هي: ما هي العوامل التي جعلت من موضوع الاستخلاف مُشكلة قائمة إلى اليوم؟ وكيف يختلف النَّاس حول أبي بكر وعليّ، وقد انقضى أمرهما مُنذُ ما يقرب من أربع عشر قرناً؟ ولو أنَّ الأمْر كان خلافاً مُتعلِّقاً بشخصَيْهما حول خلافة الرَّسول لانتهى الأمْر بوفاتهما؛ إذْ تنقضي النَّواحي الشَّخصيَّة بانقضاء الأشخاص، ولكنْ؛ لابُدَّ أنْ يكون في الأمْر ما هُو أبعد وأعمق من المسائل الشَّخصيَّة؛ لأنَّه لا تسمو على عامل الزَّمن، ولا تتجاوز أحكامه إلاَّ القيَم والمبادئ والعقائد، أمَّا الأشخاص؛ فَفَانُون، وقد تجاوزت عامل الزَّمان أحقيَّة عليّ بالإمامة لفريق من المُسلمين إلى يوم النَّاس هذا، فلابُدَّ - إذنْ - أنْ يُمثِّل عليّ - بالنِّسبة للشِّيعة - قيمة مُعيَّنة تتجاوز شخصه، أو مُجرَّد أحقيَّته في الخلافة. لابُدَّ - إذاً - أنْ نتجاوز - ولو مُؤقَّتاً - شخصيَّة أبي بكر وعليّ للتَّحرِّي عمَّا يُمثِّله كُلٌّ منهما بالنِّسبة لفرقته.

فإذا تجاوزنا شخص الإمام إلى مفهوم الإمامة لدى كُلِّ فريق، فسنجد أنَّ أهل السُّنَّة يرون أنَّ خليفة رسول الله إنَّما يخلفه في سُلطته الزَّمنيَّة دُون الرُّوحيَّة، مع اعتبار تَعَذُّر الفَصْل التَّامّ بين السُّلطتَيْن في الفكْر الإسلامي.

---

(1) وشبيه بذلك صَلْبُ المسيح؛ لا يُمكن حَسْمُهُ تاريخيّاً بعد أنْ تعلَّق بعقيدة: يُؤمن بالصَّلب كُلُّ مسيحي، وينفيه كُلُّ مُسلم: إنَّه موضوع عقيدة، لا تاريخ.

في أوّل خُطبة لأبي بكر بعد مُبايعته خليفةً؛ صرّح بأنْ لا يطلب النّاس منه ما كانوا يطلبونه من رسول الله الذي عصمه اللهُ بالوحي، وأيّده به، وإنّما هُو يُخطئ، ويُصيب، وعليهم إنْ أخطأ أنْ يُقوّموه [1].

أمّا الشّيعة؛ فيُؤمنون أنّ الإمامة إرث الأنبياء، وأنّ الإمام بمنزلة النّبي في كُلّ شيء؛ باستثناء الوحي والكتاب.

أصبح أبو بكر يُمثّل - لدى أهل السُّنّة - قيمة مُتعلّقة بمفهوم الخلافة؛ وهي أنّ الخليفة يرث سُلطان النّبي الزّمني دُون الرُّوحي، وأصبح عليٌّ يُمثّل - لدى الشّيعة - قيمة مُتعلّقة بمفهوم الإمامة؛ وهي السُّلطة الزّمنيّة، وأنْ تبقى له سُلطته الرُّوحيّة التي يستمدُّها من الله بمُوجب النّصّ، لا من البشر، بمُوجب الاختيار.

وانعكس الخلاف حول مفهوم الخلافة أو الإمامة على تقييم سُلطة الرّسول السّياسيّة، هل كانت أحكامه السّياسيّة عن وحي يُوحى أم كانت أحكاماً اجتهاديّة؟ فإنْ كانت الرّأي الأوّل فلمَ أمره الله أنْ يُشاور المُسلمين في الأمْر؟ وإنْ كانت أحكامه اجتهاديّة فأيُّ عصمة من الله بذلك؟ وهل كانت إقامته للدّولة في المدينة جزءاً مِمّا بَعثَهَ الله به أم كانت مُمارسته لشُؤُون الحُكم وسيلة لنَشْر الدّعوة وإبلاغ الرّسالة؟ هل كانت السّياسة من الرّسول عليه الصّلاة والسّلام غاية في ذاتها أم كانت وسيلة لغاية أنْبَل وأشْرَف هي إقامة الدّين؟ ذهب الشّيعة إلى الرّأي الأوّل؛ إذ ترقى السّياسة إلى مُستوى العقيدة؛ لأنّ الإمامة من أُصُول الدّين، فتدبير شُؤُون الدّين الحكيم من صميم سُلطته كرسول، لا تفاوُت بين تدبير أمر الرّعيّة وبين الدّعوة الدّينيّة، وليست أحكام الطّهارة ونواقض الوُضُوء - وقد ذَكَرَهَا الرّسول تفصيلاً - بأكثر أهمّيّة

---

(1) ونصُّ خُطبته: «أيُّها النّاس؛ قد وُلّيتُ عليكم، ولستُ بخيركم، فإنْ أحسنتُ فأعينوني، وإنْ أسأتُ فقوّموني، الصّدْق أمانة، والكذب خيانة، والضّعيف فيكم قويٌّ عندي، حتّى آخذ له حقّه، والقويُّ عندي ضعيف، حتّى آخذ منه الحقّ، إنْ شاء الله تعالى، لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنّه لا يدعه قوم إلاّ ضربهم الله بالذّل، أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قُوموا إلى صلاتكم، يرحمكم الله» انظر: ابن قُتَيْبَة (أبو مُحمّد عبد الله بن مُسلم): الإمامة والسّياسة 1/ 27 - 28، وابن الأثير الجزري في: الكامل في التّاريخ، ج2.

من رعاية مصالح العباد وتنظيم أحوال النّاس، إنّه إذا كانت تفصيلات أحكام الشّريعة كحلاقة الشّعر في الحجّ وغيرهما من صغار الأُمُور قد نصّ عليها الرّسول، فكيف لا ينصّ على أمر خطير كالإمامة من بعده[1].

أمّا أهل السُّنَّة؛ فقد فرّقوا بين أحكام الدّين وأحكام السّياسة، ومالوا إلى اعتبار الرّسول مُجتهداً في الشُّؤُون السّياسيّة، وكُلُّ ما يتّصل بسُلطته الزّمنيّة، يقول ابن القيّم: السّياسة ما كان فعلاً يكون معه النّاس أقرب إلى الصّلاح، وأبعد عن الفساد، وإنْ لم يضعه الرّسول، ولا نَزَلَ به وحي، ومَنْ قال لا سياسة إلاّ بما نَطَقَ به الشّرْع فقد غلط، وغلّط الصّحابة[2].

على أنّه من الخطأ تصوُّر موقف أهل السُّنَّة فَصْلاً بين السّياسة والدّين، وإنّما هُو مُجرّد تفرقة بين شَرْعٍ مصدره الكتاب والسُّنَّة وسياسةٍ قائمةٍ على الاجتهاد، الذي هُو - بدوره - مصدرٌ من مصادر التّشريع في الإسلام، ولم يُعْرَف الفَصْل التّامُّ بين السّياسة والدّين إلاّ بعد سُقُوط الخلافة العُثمانيّة وبتأثير من الفكْر السّياسي الأُورُوبي[3].

ولقد نقّب كُلٌّ من الشّيعة والسُّنَّة عن أدلّة من القُرآن الكريم ومن سيرة الرّسول يدعم بها كلٌّ منهما رأيه، أمّا أدلّة الشّيعة، فقول الله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الأنعام/ 57، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ الأحزاب/ 36، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الحجرات/ 1، ويُدرج الشّيعة أُمُور السّياسة ضمن هذه المسائل، التي لا يصحُّ تقديم الرّأي فيها على أمر الله ورسوله.

أمّا أهل السُّنَّة؛ فقد استندوا إلى قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾. آل عُمران/ 159، وحين سأل عليٌّ النّبيَّ قائلاً: الأمْر ينزل بنا لم ينزل فيه القُرآن، ولم يمض فيه منكَ سُنَّة؟ قال الرّسول: اجمعوا العالمين من المُؤمنين، فاجعلوه شُورى بينكم، ولا تقضوا فيه

(1) المُظفّري: الشّيعة والإمامة: ص160.

(2) ابن القيّم الجوزيّة: الطُّرُق الحكميّة في السّياسة الشّرعيّة: ص7.

(3) وليست دراسة كُلٍّ من عليّ عبد الرّزاق وطه حُسَين تقييماً موضوعيّاً لطبيعة سُلطة النّبي الزّمنيّة، وإنّما هي انطلاق من مفهوم الغرب للسّياسة.

برأي واحد، وقد نزل الرّسول على رأي أصحابه حين أشاروا عليه بالنُّزُول عن بئر بدر قبل الغزوة، وحين أشاروا عليه بحفر الخندق.

إنْ صحَّ أنْ نُقيِّم وُجهَتَيْ النَّظر حسب مُصطلحات علم السِّياسة لا تُدرج رأي الشِّيعة في سُلطة النّبي السِّياسيَّة تحت الثِّيُوقراطيَّة، ولصحَّ أنْ يُعبِّر رأي أهل السُّنَّة ـ إلى حَدٍّ ما ـ عن الدِّيمُقراطيَّة، ومفهوم الثِّيُوقراطيَّة أنَّ الحُكْم وُفقاً لوحي أو إلهام من الله؛ وقد تحاشى بعض الباحثين إطلاق هذه التّسمية على سُلطة النّبي السِّياسيَّة؛ لأنَّها أُطلقت على بعض الأنظمة المُستهجنة كنَظَريَّة التّفويض الإلهي سَنَد المُلُوك في العُصُور القديمة والوُسْطى في الحُكْم المُطلق، وكبعض أنماط من الكَهَانَة؛ مثل استقسام العَرَب بالأزلام في الجاهليَّة.

على أنَّه ـ وُفقاً لتقييم الشِّيعة لسُلطة الرّسول الزّمنيَّة ـ يُمكن أنْ يُعَدَّ نظام الحُكْم ثِيُوقراطيّاً، مادام مفهوم اللَّفظ يعني الحُكْم الإلهي، بصرف النَّظَر عن كونه صادقاً في حالة الرّسول، أو ادِّعاءً في حالتَيْ التّفويض الإلهي والاستقسام بالأزلام؛ إذْ الفَرْق بين ثِيُوقراطيَّة الرّسول وبين ثِيُوقراطيَّة الكاهن أو التّفويض الإلهي كالفَرْق بين نبيٍّ ومُتَنَبِّئ.

ويُنكر كُتَّاب أهل السُّنَّة ـ بطبيعة الحال ـ وصف سُلطة الرّسول السِّياسيَّة بالثِّيُوقراطيَّة، فلم تكن حكُومة الإسلام أصلاً وأبداً لا في عهد الرّسول، ولا في عصر الخلافة الرّاشدة حكُومة ثِيُوقراطيَّة[1].

نخلص ممّا سبق إلى النّتائج الآتية:

1 ـ أنَّ الخلاف بين أهل السُّنَّة والشِّيعة إنَّما هُو خلاف ـ في جوهره ـ مُتعلِّق بمُشكلة سياسيَّة. أمَّا إنْ اتَّخَذَ طابعاً عقائديّاً؛ فلأنَّ السِّياسة لا تنفصل عن الدِّين في الفكر الإسلامي.

2 ـ إذا اعتبر الشِّيعة الإمامة من أُصُول الدِّين فذلك يعني أنَّها ـ لدى أغلب فِرَقهم ـ أحكام إلهيَّة، وإذا اعتبرها أهل السُّنَّة من الفُرُوع، فما ذاك إلاَّ لأنَّ السِّياسة من الرّسول لم تكن غاية في ذاتها، وإنَّما وسيلة لنَشْر الدِّين.

---

(1) مُوسَى جار الله: الوشيعة في نقض عقائد الشِّيعة: ص 27، و د. مُحمَّد ضياء الدِّين الرّيس، النَّظريَّات السِّياسيَّة الإسلاميَّة: ص 7 ـ 47.

3 ـ إذا كانت نَظَريَّات فلسفة السِّياسة تبحث في أصلح نظام في الحُكْم فإنَّ إجابة الشِّيعة: إنَّها الثِّيُوقراطيَّة، أو الحُكْم الإلهي، وإجابة أهل السُّنَّة ـ مع شيء من التَّجاوز، وبصرف النَّظَر عن التَّاريخ السِّياسي للإسلام ـ: إنَّها الدِّيمُقراطيَّة.

عود إلى البدء إلى السُّؤال: ما معنى أنْ يدين قوم بمُوالاة عليّ، ويتَّخذون أحقِّيَّته بإمامة المُسلمين بعد وفاة الرَّسول لهم مذهباً ونحْلة؟ الإجابة باختصار: المُشكلة لها ظاهر وباطن: ظاهرها اختلافٌ حول الأحقِّ: أبي بكر أم عليّ، أمَّا باطنها وحقيقتها وجوهرها؛ فهُو اختلاف بين مَنْ يرون الثِّيُوقراطيَّة أصلح أنظمة الحُكْم؛ حيثُ يُصبح الأمْر اصطفاء من الله لا اختياراً من البشر، وبين مَنْ يرون السِّياسة من أحكام البشر، تجسَّدت الفكْرة الأُولى في عليّ، وتمثَّلت الفكْرة الثَّانية بأبي بكر، ولمَّا كانت المبادئ أسمى من مُستوى تفكير الجماهير كان لابُدَّ من أنْ تتجسَّد في أشخاص، فشخَّصَ الشِّيعة مَثَلَهُم الأعلى في نظام الحُكْم، في عليّ، أو بالأحرى، تجسَّدت الثِّيُوقراطيَّة في عليّ، بينما عبَّر أهل السُّنَّة عن بَشَريَّة الأحكام السِّياسيَّة فيمَنْ أعلن أنَّه يُخطئ ويُصيب، والمرجع إلى الرَّعيَّة ـ أو على الأصحِّ ـ أهل الحلِّ والعقد، لردِّه إلى الصَّواب حين يُخطئ، وذلك هُو الصِّدِّيق أبو بكر.

ليس خلاف السُّنَّة والشِّيعة مُجرَّد اختلاف حول أحقِّيَّة أبي بكر أو عليّ، بقدر ما هُو اختلاف في أصلح نظام للحُكْم؛ حيثُ جَعَلَهَا أهل السُّنَّة الشُّورى مُمثَّلة في أبي بكر، وجَعَلَهَا الشِّيعة الثِّيُوقراطيَّة أو الحُكْم الإلهي مُمثَّلاً في عليّ[1].

مرَّةً أُخرى؛ ظُهُور الفكْر السِّياسي في بيئة دينيَّة هُو الذي جَعَلَ من الأحزاب السِّياسيَّة فِرَقاً دينيَّة، كما جعل من النَّظَريَّات والإيديُولُوجيَّات نحَلاً ومُعتقدات..

والنِّظام الأمثل للحُكْم الذي مارسه الرَّسول في المدينة بوصفه رئيساً للدَّولة الإسلاميَّة أثار لدى فريق لدى المُسلمين تصوُّر إمكان استمراره، خاصَّةً بعد أنْ فُجع المُسلمون بالفتَن التي بلغت ذروتها بتغلُّب الذين لم يدخلوا الإسلام إلاَّ كرهاً بعد الفتح، فلحقَتْهُم وصمة «الطُّلَقَاء»، لقد اعتلى منبر الرَّسول مَنْ كانوا حتَّى يوم الفتح خُصُومه وأعداءه، كما بلغت المآسي الذِّروة بمقتل سبْط الرَّسول في كربلاء.

---

(1) ومن ثمَّ؛ فإنَّ مكانة عليّ لدى الشِّيعة تسمو لدى مكانة أبي بكر لدى السُّنَّة.

نظام الحُكْم الأمثل في عهد الرّسول من جهة، وتداعي الأحداث من جهة أُخرى قد أدّيا إلى اعتناق الشّيعة نظام الحُكْم الإلهي، ونَبْذ طريقة الاختيار أو البَيْعَة بعد أنْ تكشَّفت عن الكثير من العُيوب، ومن ثمَّ؛ فإنْ كُتُب الشّيعة حافلة بنَقْد نظام البَيْعَة والاختيار تاريخيّاً وفكْريّاً، فمن النّاحية التّاريخيَّة؛ لم يتمَّ اختيارٌ ـ قطُّ ـ إلاَّ بالنّسبة لخليفتَيْن: أبي بكر وعليّ، أمَّا الأوَّل؛ فقد ساقَ عُمرُ النّاسَ إليها سَوْقاً، فضلاً عن أنَّها تَمَّت فَلْتَة، وأمَّا الثّاني؛ فقد خرج عليه الذين بايعوه، وليس بعد ذلك إلاَّ عهداً صرفاً من خليفة إلى مَنْ يليه، أو قهراً وجبروتاً، فانقلبت الخلافة عند القائلين بالاختيار، وأنَّها من حقّ الأُمَّة، إلى أنْ أصبحت ـ من النّاحية الفعليَّة ـ بالنَّصّ والتّعيين.[1]

ولم يكن مُتكلِّمو الشّيعة هُم أوّل مَنْ نَقَدَ طريقة الاختيار، وإنَّما التمسوا في الخُطبة الشّقْشقيَّة، المنسوبة إلى عليّ، نَقْداً مُرّاً لأُسلُوب تولّي الخلافة لدى مَنْ سبقه من خُلفاء، وبخاصَّة الطّريقة التي أفضت إلى تولّي عُثمان: إذْ صغى رجل منهم إلى ضغنه (سعد بن أبي وقّاص) ومالَ الآخر لصهره (عبد الرّحمن بن عوف)، إلى أنْ أقام ثالث القوم ـ عُثمان ـ نافجاً حضنَيْه[2]، وقام معه بنو أبيه يخضمون مالَ الله خضمة الإبل نبتة الرّبيع[3]، إلى أنْ انتكث فعله، وأجهز عليه عمله، وكَبَتْ به بطانته[4]، فما راعني إلاَّ والنّاس ينثالون عليّ من كُلّ جانب.. فلمَّا نهضتُ بالأمْر نكثتْ طائفة (طلحة والزّبير) ومرقت أُخرى (الخوارج) وقسط آخرون (مُعاوية وأتباعه)[5].

أمَّا من النّاحية الفكْريَّة؛ فلم يُقدِّم أهل السُّنَّة نَظَريَّة مُتماسكة في السِّياسة تُحدِّد مفاهيم البَيْعَة والشُّورى وأهل الحلّ والعقد، فضلاً عن هُوَّة ساحقة تفصل بين النَّظَريَّة والتّطبيق، أو بين ما هُو شَرْعي وبين ما يجري في الواقع، لقد ظهرت نَظَريّات أهل السُّنَّة في السِّياسة في عصر مُتأخِّر، بعد أنْ استقرَّ قيام الدّولة الإسلاميَّة على الغلبة، كما جاء أكثرها لمُجرَّد الرّدّ على الشّيعة، والتمس بعضها استنباط حُكْم شَرْعي من أُسلُوب تولّي الخُلفاء الثّلاثة الأوائل.

---

(1) مُحمَّد حُسَين المُظفَّري: الشّيعة والإمامة: ص 167 ـ 168.

(2) كثير الأكل.

(3) يأكلون أموال المُسلمين كما تأكل الإبل أعشاب الرّبيع.

(4) ارتدَّ عليه عمله، وهَوَتْ به بطانته حتّى قُتل.

(5) ابن أبي الحديد: شَرْح نهج البلاغة: ج1/ ص 54 ـ 68.

وإنَّ الهُوَّة السّاحقة بين تشريع الفُقَهَاء وبين واقع الخُلفاء، فضلاً عن تهافت كثير من هذه الآراء [1].

عقائد أُخرى تميَّز بها الشّيعة الإماميَّة الاثنا عشريَّة:

تتَّفق فرَق الشّيعة المُختلفة مع المُعتزلة في أكثر المسائل الكلاميَّة (اللاَّهوتيَّة): أيْ المسائل المُتعلِّقة بالإلـهيَّات؛ كالصِّفات الإلـهيَّة، والتّنزيه، والتّشبيه، والعَدْل الإلـهي، وخَلْق أفعال العباد، ومسائل القضاء، والقَدَر، والجَبْر، والاختيار، وخَلْق القُرآن. . .، أو المُتعلِّقة بالنُّبوَّات؛ كحُدُود العصمة، وصفات الأنبياء، أو المُتعلِّقة بالمعاد، وحُكْم مُرتكب الكبيرة. . . إلى آخره (راجع فَصْل المذاهب الكلاميَّة من هذا الكتاب)، فهُم ـ باصطلاح المُتكلِّمين ـ من أهل التّنزيه؛ أيْ القائلون بالتّنزيه المُطلق لله ـ تعالى ـ عن كُلّ مُشابهة للمُحْدَثات مع تأويل كُلّ ما ظاهره خلاف ذلك من نُصُوص شرعيَّة، وصرفه عن ظاهره، وهُم عدليَّة بمعنى نَفْيهم الجَبْر، وإيجابهم فعل الأصلح بشأن العباد على الله ـ تعالى ـ، وقولهم بحُرِّيَّة الإرادة والاختيار، وأنَّ الإنسان هُو خالق أفعاله، بنفس وقت كون الله ـ تعالى ـ خالق كُلّ شيء، ولا يخرج شيء في الكون عن إرادته (بمعنى إذنه). ومن هُنا قيل:

العَدْل والتّنزيه عَلَويَّان | و الجَبْر والتّشبيه أُمويَّان

ومع ذلك؛ فقد تميَّزت الشّيعة الإماميَّة الاثنا عشريَّة ببعض العقائد أو الأعمال الخاصَّة، نُوجزها فيما يلي:

البداء:

البداء في الإنسان: أنْ يبدو له رأيٌ في الشّيء لم يكن له ذلك الرّأي سابقاً. يعني أنْ يتغيَّر رأيه، ويتبدَّل قراره، فينصرف عمَّا عزم عليه سابقاً، ويتَّخذ قراراً جديداً مُختلفاً،

---

(1) كالقول: إنَّ الخلافة تنعقد بواحد كعقد أبي بكر لعُمر، أو اثنَيْن كعقد الزّواج، أو بأربعة كعقد مَنْ عقدوها لأبي بكر، مع تجاهلٍ تامٍّ لحقٍّ من أهمّ حُقُوق الأُمَّة أو الرّعيَّة أو حتَّى أهل الحلّ والعقد منهم، وكتشبيه عقد الخلافة بعقد الزّواج، أو قول بأنَّ للعاقد حقّ عقدها دُون حلّها، كما لوليّ المرأة حقّ تزويجها دُون تطليقها، راجع الأحكام السُّلطانيَّة للماوردي وغيره، لستُ مُتجنِّياً إنْ قُلتُ: لقد كانت السِّياسة ـ نَظَريّاً وتطبيقيّاً ـ أضعف جوانب الحضارة الإسلاميَّة.

وعادةً ما يحصل ذلك للإنسان عندما يكتشف مُعطيات جديدة، كان يجهلها، أو ينـدم على ما سبق منه.

ويقول عُلماء الإماميَّة: [. إنَّ البداء بذلك المعنى يستحيل على الله ـ تعالى ـ؛ لأنَّه من الجهل والنّقص وذلك مُحال عليه ـ تعالى ـ؛ ولا تقول به الإماميَّة: قال الصّادق عليه السّلام: «مَنْ زعم أنَّ الله ـ تعالى ـ بدا له في شيء بداء ندامة، فهُو عندنا كافر بالله العظيم»، وقال أيضاً: «مَنْ زعم أنَّ الله ـ تعالى ـ بدا في شيء، ولم يعلمه أمس، فأبرأ منه.». غير أنْ وَرَدَتْ عن الأئمَّة الأطهار عليهم السّلام روايات تُوهم القول بصحَّة البداء بالمعنى المُتقدِّم، كما وَرَدَ عن الصّادق عليه السّلام: «ما بدا الله في شيء كما بدا له في إسماعيل ابني»، ولذلك؛ نَسَبَ بعض المؤلِّفين في الفرَق الإسلاميَّة إلى الطّائفة الإماميَّة القول بالبداء طَعْناً في المذهب وطريق آل البيت، وجعلوا ذلك من جُملة التّشنيعات على الشّيعة.

والصّحيح في ذلك أنْ نقول كما قال الله ـ تعالى ـ في مُحكم كتابه المجيد: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾. ومعنى ذلك أنَّ الله ـ تعالى ـ قد يُظْهِر شيئاً على لسان نبيِّه أو وليِّه أو في ظاهر الحال لمصلحة تقتضي ذلك الإظهار، ثُمَّ يمحوه، فيكون غير ما قد ظهر أوّلاً مع سبق علمه ـ تعالى ـ بذلك، كما في قصَّة إسماعيل لمّا رأى أبوه إبراهيم أنَّه يذبحه، ثُمَّ تبيَّن أنَّ ما حصل هُو خلاف ذلك، فيكون معنى قول الإمام الصّادق عليه السّلام أنَّه ما ظهر للَّه سُبحانه أمرٌ في شيء كما ظهر له في إسماعيل ولده؛ إذ اخترمه قبله، ليعلم النّاس أنَّه ليس بإمام، وقد كان ظاهر الحال أنَّه الإمام بعده؛ لأنَّه أكبر ولده.

وقريب من البداء في هذا المعنى نسخ أحكام الشّرائع السّابقة بشريعة نبيِّنا، بل نسخ بعض الأحكام التي جاء بها النّبي صلّى الله عليه وآله وسلَّم.][1].

الغيبة:

عرفنا أنَّ الإماميَّة هُم ذلك الفريق من الشّيعة الذي اعتقد بولادة ابن للإمام الحادي عشر الحَسَن العسكري؛ وهُو الإمام الثّاني عشر مُحمَّد بن الحَسَن، الذي غاب عن أنظار

---

(1) عقائد الإماميَّة، الشّيخ مُحمَّد رضا المُظفَّر، ص 24 ـ 25.

شيعته، والذي هُو في عقيدتهم المهدي المُنتظر، الذي سيظهر آخر الزّمن ليملأ الأرض عدلاً بعد أنْ مُلئت جوراً.

ويُقسِّمون غيبته إلى مرحلتَيْن: مرحلة الغيبة الصُّغرى، وطالت سبعين عاماً من 260 إلى 329 هـ، تبدأ مُنذُ وفاة والده، وكان له من العُمر حينذاك خمس سنوات؛ حيثُ بقي يتّصل بين الفينة والأُخرى مع شيعته عبر سُفراء أو وُكلاء أربعة مُتتالين، كان والده الإمام الحَسَن العسكري قد عيَّن أوّلهم؛ وهُو عُثمان بن سعيد، ومن بعده ابنه مُحمَّد بن عُثمان، ثُمَّ الحُسَين بن رُوح، وأخيراً؛ عليّ السّمري الذي سُئل أنْ يُعيِّن مَنْ يخلفه في السِّفارة، فقال: لله أمر هُو بالغه. هؤلاء السُّفراء كانوا خاصَّة الإمام الثّاني عشر والواسطة بينه وبين شيعته، ينقلون إليهم معالم الدِّين وأحكام الشّريعة، ويُخْرجون إليهم أجوبة مسائلهم التي كانت ترد عليهم مُوقَّعة من الإمام صاحب الزّمان.

ومُنذُ وفاة النّائب الرّابع؛ أيْ سنة 329 هـ، بدأ عهد الغيبة الكُبرى، التي احتجب فيها الإمام عن أنظار شيعته، ولا زال حيّاً مُتوارياً عن الأبصار إلى يومنا هذا.

غير أنَّ غيبة المهدي في اعتقادهم لا تعني انقطاع سُلطته عن النّاس والحياة، فهُو يحضر مشاهد النّاس، ويراهم، ولا يرونه، بل لا تمتنع رُؤيته على الخاصَّة بين الوقت والآخر، وهُو يتصرَّف بأُمُور شيعته، كما تُؤثِّر الشّمس في النّاس وهي غائبة وراء الغُيُوم.

وقد روى الشِّيعة روايات عن بعض أئمّتهم كالسّجّاد أو الباقر أو الصّادق أنّه: «في القائم منّا سُننٌ من الأنبياء، سُنَّةٌ من نُوح طُول العُمر، وسُنَّةٌ من إبراهيم خفاء الولادة واعتزال النّاس، وسُنَّةٌ من مُوسَى الخوف والغيبة، وسُنَّةٌ من عيسى اختلاف النّاس فيه، وسُنَّةٌ من أيوب الفرج بعد البلوى، وسُنَّةٌ من مُحمَّد صلَّى الله عليه وآله، الخُرُوج بالسّيف»[1].

ويردُّ الشِّيعة على مَنْ يعترض عليهم بدعوى عدم إمكانيّة بقاء رجل حيّاً طوال هذه المُدَّة التي زادت الآن على ألف ومائة عام، بأنَّ الله على كُلِّ شيء قدير، وبأنَّ نبيَّ الله نُوحاً عاش أكثر من ألف عام، وبأنَّ كثيراً من أهل السُّنَّة يرون أنَّ "الخضر" أيضاً لا يزال حيّاً

---

(1) انظر "كمال الدِّين" للشّيخ الصّدوق ابن بابويه القمي: ج1/ ص 322، وج2/ ص 577.

موجوداً، وأنَّ المُسلمين متَّفقون على حياة أربعة من الأنبياء: اثنان منهم في السَّماء؛ وهُما إدريس وعيسى، واثنان في الأرض؛ وهُما إليـاس والخضر، وبأنَّ المُعمَّرون الذين تجاوزوا العُمر الطَّبيعي إلى مئات السِّنين كثيرون... إلخ [1].

الرَّجعة:

يذهب جُمهُور الإماميَّة أخذاً بما جاء عندهم من روايات نقلوها عن آل البيت ـ عليهم السَّلام ـ أنَّ الله ـ تعالى ـ سيُعيد أقواماً من الأموات إلى الدُّنيا في صُورهم التي كانوا عليها، فيُعزُّ قوماً، ويذلُّ فريقاً آخر، ويديل المُحقِّين من المُبطلين والمظلومين من الظَّالمين، وذلك عند قيام مهدي آل مُحمَّد عليه وعليهم أفضل الصَّلاة والسَّلام، في آخر الزَّمن.

ولا يرجع إلاَّ مَنْ عَلَتْ درجته في الإيمان، أو مَنْ بلغ الغاية في الفساد، ثُمَّ يصيرون إلى الموت، ومن بعده إلى النُّشُور، وما يستحقُّونه من الثَّواب أو العقاب. ويستشهد الإماميَّة على قولهم هذا ببعض الآيات القُرآنيَّة التي يرونها تدلُّ على ذلك منها قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ سورة غافر (أيْ المُؤمن) / 11؛ حيثُ فسَّروا الإحياء الثَّاني، ثُمَّ الإماتة الثَّانية بأنَّها التي تحصل بالرَّجعة؛ حيثُ يتمنَّى هؤلاء المُرتجعين الذين لم يصلحوا بالارتجاع، فنالوا مقت الله، أنْ يخرجوا ثالثاً، لعلَّهم يُصلحون [2].

وفي رأيي أنَّ هذه العقيدة ردُّ فعل عاطفي، وانعكاس لشدَّة المرارة والصَّدمة التي عاناها الشِّيعة من النَّكبات التي حلَّت بهم، وبأئمَّتهم من آل الرَّسول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) مُنذُ شهادة الحُسَين في كربلاء بتلك الصُّورة المُفجعة، فكأنَّهم يرون أنَّ عدالة الله ـ تعالى ـ لابُدَّ أنْ تقتضي إحياء الظَّلمة من جديد، والانتقام منهم على أيدي الذين ظلموهم في هذه الدُّنيا، وهي عقيدة لا تبدو منطقيَّة؛ لأنَّه من المُستغرب جداً تصوُّر أنَّ بعض بني أُميَّة مثلاً سيعودون أحياء إلى هذه الدُّنيا في آخر الزَّمن، ثُمَّ سيتعصَّبون من جديد لمُلكهم الزَّائل، ويحاربون آل البيت، فينهزمون هذه المرَّة، لتتحقَّق بذلك العدالة بشأنهم!!

---

(1) أصل الشِّيعة وأُصُولها: للشَّيخ مُحمَّد الحُسَين آل كاشف الغطاء، بيرُوت: مُؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، ص69.
(2) الشَّيخ مُحمَّد رضا المُظفَّر: عقائد الإماميَّة: ص 67 ـ 68.

ولذلك؛ فلقد رفض بعض الإماميَّة أنفسهم هذه العقيدة ـ كما يُقرُّ الشّيخ المُظفَّر ـ وتأوّلوا ما وَرَدَ من الرّوايات في الرّجعة بأنَّ معناها رُجُوع الدّولة والأَمْر والنَّهْي إلى آل البيت بظُهُور الإمام المُنتظر، من دُون رُجُوع أعيان الأشخاص، وإحياء الموتى [1].

وعلى أيِّ حال؛ فيقول جُلُّ عُلماء الإماميَّة بأنَّ عقيدة الرّجعة ليست من أركان الإيمان، ولا من ضروريَّات المذهب، وإنَّما هي ظاهر كثيرٍ من الأخبار المرويَّة، فَمَنْ صحَّت عنده تلك الرّوايات، وأخذ بظاهرها، قال بها.

التَّقيَة:

التَّقيَّة أنْ يكتم الإنسان حقيقةَ اعتقاده، ويُظهر خلافَ ما يُبْطنُ، اتقاءً لشرِّ أعدائه المُخالفين له، الذين يتهدَّدونه بالأذى أو الخطر على حياته أو بدنه إذا ما اطّلعوا على حقيقة مُعتقده. وقد اشتهر الشّيعة الإماميَّة بمُمارستها أمام مُخالفيهم، وأَخَذَها بعض مُخالفيهم عليهم، واعتبروها نوعاً من الجُبن والنّفاق، في حين أنَّها ـ في الواقع ـ أمرٌ مشروعٌ عقْلاً ونَقْلاً، بل هي مشروعةٌ ـ ضمن شُرُوط ـ حتَّى لدى أهل السُّنَّة، بل حتَّى لدى بعض فِرَق الخَوارج، وإنَّما اشتهر بها الشّيعة لكونهم أكثرهم لها مُمارسةً، والسّبب واضحٌ؛ وهُو أنَّهم لَمَّا كانوا فئة مُعارضة لحُكُومات الوقت، كانوا عُرضة دائماً للمُلاحقات والأذى والتّنكيل والاضطهاد، ممَّا هُو معروف لكُلِّ مَنْ طالع التّاريخ، كما أنَّ كثيراً من الحُكَّام والمشايخ الذي يعملون في ركابهم قد شوَّهوا حقيقة الشّيعة في أذهان النّاس، واخترعوا عليهم أُمُوراً جَعَلَتْهُم في أنظار العامَّة كُفَّاراً أعداءً للدِّين، فكانوا في الأزمنة أو الأمكنة التي يُسيطر فيها مثل هذا التّعصُّب أو الجهل والظُّلمات يُضطرُّون لمُمارسة التَّقيَّة في دينهم، حفاظاً على أرواحهم، وأنفسهم، ومعاشهم، وعلى استمرار دعوتهم.

يقول الشّيخ مُحمَّد رضا المُظفَّر أحد كبار عُلماء الإماميَّة شارحاً لموقفهم من التَّقيَّة ما نصُّه: [رُوي عن صادق آل البيت عليهم السّلام في الأثر الصّحيح: «التَّقيَّة ديني وَدينُ آبائي» و «إنَّ تسْعَةَ أعْشَار الدِّين في التَّقيَّة، وَلا دينَ لِمَنْ لا تَقيَّةَ لَهُ» [2]

---

(1) المصدر السّابق: ص 68.

(2) المُحدِّث الكليني: أُصُول الكافي: بَابُ التَّقيَّة، ج 2/ ص 217.

وكذلك هي، لقد كانت شعاراً لآل البيت عليهم السّلام، دَفْعَاً للضّرر عنهم، وعن أتباعهم، وحقناً لدمائهم، واستصلاحاً لحال المُسلمين، وجَمْعَاً لكلمتهم، ولَـمّاً لشعثهم.

ومازالت سمة تُعرف بها الإماميَّة دُون غيرها من الطّوائف والأُمم، وكُلُّ إنسان إذا أحسَّ بالخطر على نفسه أو ماله بسبب نَشْر مُعتقده أو التّظاهر به لابُدَّ أنْ يتكلّم ويتّقي في مواضع الخطر. وهذا أمر تقضيه فطْرة العُقُول، فمن المعلوم أنَّ الإماميَّة وأئمّتهم لاقوا من ضُرُوب المِحَن وصُنُوف التّضييق على حُرِّيَّاتهم في جميع العُهُود ما لم تُلاقه أيُّ طائفة أو أُمَّة أُخرى، فاضطُرّوا في أكثر عُهُودهم إلى استعمال التَّقيَّة بمُكاتمة المُخالفين لهم، وتَرْك مُظاهرتهم، وسَتْر اعتقاداتهم وأعمالهم المُختصَّة بهم عنهم، لما كان يُعاقب ذلك من الضّرر في الدِّين والدُّنيا. ولهذا السّبب امتازوا (بالتَّقيَّة) وعُرفوا بها دُون سواهم.

وللتَّقيَّة أحكام من حيثُ وُجُوبها وعدم وُجُوبها، وبحسب اختلاف مواقع خوف الضّرر، مذكورة في أبوابها في كُتُب العُلماء الفقْهيَّة.

وليست هي بواجبة على كُلِّ حال، بل قد يجوز أو يجب خلافها في بعض الأحوال، كما إذا كان في إظهار الحقِّ والتّظاهر به نُصرة للدِّين وخدمة للإسلام، وجهاد في سبيله، فإنّه يُستهان بالأموال، ولا تعزّ النُّفُوس. وقد تحرم التَّقيَّة في الأعمال التي تستوجب قَتْلَ النُّفُوس المُحترمة، أو رواجاً للباطل، أو إفساداً في الدِّين، أو ضرراً بالغاً على المُسلمين بإضلالهم أو إفشاء الظُّلم والجور فيهم. وعلى كُلِّ حال؛ ليس معنى التَّقيَّة عند الإماميَّة أنَّها تجعل منهم جَمْعيَّة سرِّيَّة لغاية الهدم والتّخريب، كما يُريد أنْ يُصوِّرها بعض أعدائهم غير المُتورِّعين في إدراك الأُمُور على وجهها، ولا يُكلِّفون أنفسهم فَهْمَ الرّأي الصّحيح عندنا، كما أنّه ليس معناها أنْ تجعل الدِّين وأحكامه سرّاً من الأسرار لا يجوز أنْ يُذاع لمَنْ لا يدين به، كيف وكُتُب الإماميَّة ومُؤلَّفاتهم فيما يختصُّ الفقْه والأحكام ومباحث الكلام والمُعتقدات قد ملأت الخافقَيْن، وتجاوزت الحَدَّ الذي يُنتظر من أيَّة أُمَّة تدين بدينها.

بلى، إنَّ عقيدتنا في التَّقيَّة قد استغلّها مَنْ أراد التّشنيع على الإماميَّة، فجعلوها من جُملة المطاعن فيهم، وكأنّهم كان لا يشفى غليلهم إلاّ أنْ تُقدَّم رقابهم إلى السُّيُوف

لاستئصالهم عن آخرهم في تلك العُصُور التي يكفي فيها أنْ يُقال هـذا رجـل شيعيٌّ، ليُلاقي حتفه على يد أعداء آل البيت من الأُمويِّين، بله العُثمانيِّين.

وإذا كان طعن مَنْ أراد أنْ يطعنه يستند إلى زعم عدم مشروعيَّتها من ناحية دينيَّـة، فإنَّا نقول له:

أوَّلاً: أنَّا مُتبعون لأئمَّتنا عليـهم السَّلام، ونحـنُ نهتدي بـهُداهم، وهُـم أمرونـا بـها، وفرضوها علينا وقت الحاجـة، وهـي عندهـم مـن الدِّيـن، وقـد سـمعتَ قـول الصَّـادق عليـه السَّلام: (مَنْ لا تقيَّة له لا دين له).

وثانياً: قد وَرَدَ تشريعها في نفس القُرآن الكريم، وذلك في قوله تعـالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ النَّحل / 106، وقد نزلت هذه الآية في عمَّار بن ياسر الذي التجأ إلى التَّظاهر بالكُفْر خوفاً من أعداء الإسلام، وقوله تعالى ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ آل عُمران / 28، والتُّقاة: هي التَّقيَّة كما فسَّرها ابن عبَّـاس، وقـال إنَّـها تكـون بـالكلام فقـط. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ المُؤمن / 28.][1]

أعمال أُخرى تميَّز بها الشِّيعة الاثنا عشريَّة، وأصبحت من شعائرهم:

من الأعمال الأُخرى التي اختصَّ بها الاثنا عشريَّة، وأصبحت مـن شعائرهم الهامَّة: إقامة مجالس التَّعزيـة، وقـراءة المراثـي أيَّـام وفيـات الأئمَّـة مـن أهـل البيـت عليـهم السَّـلام، ولاسيما في ذكرى استشـهاد أبي الأحـرار وسـيِّد الشُّـهداء الإمـام الحُسَين بـن عليٍّ عليـهما السَّلام؛ أيْ يومَيْ تاسوعاء وعاشوراء (9 و10 من شهر مُحرَّم الحرام) من كُلِّ عام، والخُرُوج في مواكب للعزاء في هذَيْن اليومَيْن، وفي يوم الأربعين؛ أيْ 20 صفر، وإظهار الحُـزن والبُكـاء ولَطم الصُّدُور حُزناً على مقتل الإمام الحُسَين بن عليٍّ عليه السلام، بل أصبح ذكـر مصـاب الحُسَـين أمراً مُعتـاداً في أكـثر الخُطـب والمواعـظ الدِّينيَّة، ليس في أيَّـام عاشـوراء فحسـب، بـل في كُـلِّ المُناسبات الدِّينيَّة، وعلى مدار السَّنَة.

---

(1) الشَّيخ مُحمَّد رضا المُظفَّر: عقائد الإماميَّة: ص 72 ـ 74.

وممّا يهتمُّ به الشّيعة الإماميّة اهتماماً كبيراً ـ أيضاً ـ موضوع تشييد الأضرحة الضّخمة والقباب الذّهبيّة على قُبُور الأئمّة الطّاهرين من آل بيت الرّسول عليهم السّلام، والاعتناء بزيارتها؛ لاسيما في مواسم مُعيّنة، واعتبار زيارتها وشدّ الرّحال إليها من أفضل الطّاعات والقُربات بعد العبادات الواجبة، باعتبار أنّ هاتيكَ القُبُور من خير المواقع لاستجابة الدُّعاء، والانقطاع إلى الله تعالى[1].

الإمام جَعْفَر الصّادق وأُسُس الفقه الجَعْفَري:

عاصرَ الإمام جَعْفَر الصّادق الفترة الأخيرة من دولة بني أُميّة، والفترة الأُولى لدولة بني العبّاس، وهي الفترة التي شهدت اشتداد الحركة العبّاسيّة، ثُمّ قيامها بالثّورة الشّاملة ضدّ الدّولة الأُمويّة التي انتهت كما هُو معروف بسُقُوط الأُمويّين التّامّ، وقيام الحُكْم العبّاسي، وقد خفّ حمْل الحُكْم الأُمويّ، ثُمّ العبّاسيّ على الشّيعة في هذه الفترة؛ نَظَراً لانشغال الأُمويّين في ردّ بني العبّاس عنهم، واشتغال هؤلاء في توطيد دعائم مُلْكهم بعد إسقاطهم حُكْم الأُمويّين، وقد استفاد الإمام الصّادق من هذه الفُسحة الأمنيّة، فتمكّن من نَشْر عُلُوم أهل البيت بما لم يتمكّن منه غيره، لا من آبائه، ولا من أبنائه، فانتشر صيتُهُ، وعلا أمرُهُ، وكثُر الآخذون عنه، فكان من تلامذته من ذوي العلم والفضل والتّقوى أربعمائة مُؤلّف، لهم في أحكام الشّريعة أربعمائة مُؤلّف هي: الأُصُول الأربعمائة المُشتملة على أخبار آل مُحمّد وأحاديثهم في أحكام الشّريعة التي تعتمد عليها الشّيعة.

يقول ابن خلكان في ترجمته للإمام جَعْفَر الصّادق: «أبو عبد الله جَعْفَر الصّادق بن مُحمّد الباقر بن عليّ بن زين العابدين بن الحُسَين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين. أحد الأئمّة الاثنَيْ عشر على مذهب الإماميّة، وكان من سادات أهل البيت، ولُقّب بالصّادق لصدْقه في مقالته، وفضْلُهُ أشْهَر من أنْ يُذكر، وله كلام في صنعة الكيمياء والزّجر والفأل، وكان تلميذه أبو مُوسَى جابر بن حيّان الصُّوفي الطّرسوسي قد ألّف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمّن رسائل جَعْفَر الصّادق؛ وهي خمسمائة رسالة، . . »[2]

---

(1) وانظر عقائد الإماميّة للشّيخ مُحمّد رضا المُظفّر: ص 92 ـ 93.

(2) وفيات الأعيان: ج 1/ ص 327.

وجاء في تاريخ القرماني وفي سيَر أعلام النُّبلاء وغيرهما من كُتُب الطّبقات والسِّيَر الكثير من الكلام عن علم الصّادق وفقْهه، وأنّه كان عالم الحقائق والدّقائق، وأنّه كان من بين إخوته خليفة أبيه ووصيّه، ونُقل عنه العلُوم ما لم يُنْقَل من غيره، وكان رأساً في الحديث، عالماً بالرّواية عن النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم). روى عنه يحيى بن سعيد وابن جريح ومالك بن أنس وسُفيان الثّوري وسُفيان ابن عيينه وأبو حنيفة وشعبة وأبو أيُّوب السّجستاني وغيرهم. . ، كما أخرج أحاديثه عددٌ من أئمّة الحديث من أهل السُّنَّة مثل الإمام مُسلم النّيسابوري صاحب "صحيح مُسلم" وأصحاب السُّنن: أبو داود والتّرمذي والنّسائي وابن ماجه. وقال فيه أبو حنيفة: أعلم النّاس أعلمهم باختلاف النّاس.

لقد كان الإمام جَعْفَر الصّادق - إذنْ - من أبرز فُقَهاء عصره؛ وهُو أوّل مُؤسِّس لأوّل مدرسة فكْريَّة وفقْهيَّة مُتكاملة في تاريخ الدّولة الإسلاميَّة عُرفت باسمه، وإليه ينتهي فقْه الاثنَيْ عشريَّة كما ينتهي إلى سائر الأئمَّة. قال الصّادق: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جَدِّي. . » حتَّى يصل إلى أنَّ الحديث يتَّصل مُباشرة بقول الله سُبحانه وتعالى.

والباقر - والد الصّادق - هُو أوّل مَنْ ضبط أُصُول الاستنباط، وأملاها على تلاميذه، ثُمَّ استمرَّ فيها الصّادق. كما أنَّ الباقر والصّادق هُما أوّل مَنْ تكلَّم في أُصُول الفقْه. ويعتمد الفقْه الجَعْفَري على المصادر القطْعيَّة من القُرآن والأخبار، ويرى الشِّيعة أنَّ كثيراً ممَّا جاء به القُرآن لا يفهمه النّاس إلاَّ عن طريق الأئمَّة، ومفتاح التّفسير هُو الإمام.

هذا؛ وقد قام عدد من قُدماء عُلماء الشِّيعة بجَمْع الأحاديث المرويَّة عن الإمام الصّادق، والتي دوَّنها عنه أربعمائة تلميذ في أربعمائة مُؤلَّف تُسمَّى الأُصُول الأربعمائة، ومنها ظهرت الكُتُب الأربعة التي تُعتبر كُتُب الحديث الرّئيسيَّة عند الإماميَّة وهي: "*الكافي*" للمُحدِّث أبي جَعْفَر مُحمَّد بن يعقوب الكليني الرّازي (ت 328 هـ)، و"*مَنْ لا يحضُرُه الفقيه*" للمُحدِّث أبي جَعْفَر مُحمَّد بن علي ابن بابويه القمي المعروف بالشّيخ الصّدوق (ت 381 هـ)، وكتابَي "*الاستبصار*" و"*التّهذيب*" للشّيخ أبي جَعْفَر مُحمَّد بن الحَسَن الطّوسي (385 - 436 هـ). وهذه الكُتُب الأربعة تتضمَّن أُصُول المذهب الجَعْفَري وفقْهه.

أمّا مصادر الأحكام الشّرْعيّة عند الإماميّة ؛ فهي التّالي:

(1) القُرآن الكريم: فيه بيان كُلِّ شيء. وهُو كلام الله المُتواتر القطعي الصُّدُور. قال الصّادق: « ما من أمر يختلف فيه اثنان إلاَّ وله أصل في كتاب الله ». لا زيادة فيه ولا نُقصان. وأمّا الأخبار عن مُصحف فاطمة؛ فهي تُشير إلى كتاب كَتَبَهُ عليّ لفاطمة فيه بشارات وإلهامات كان جبريل يُسلِّي بها فاطمة بعد وفاة أبيها، وليس فيه شيء من القُرآن، ولا يشترك مع القُرآن الكريم إلاَّ في الاسم؛ أيّ "المُصحف" وهُو لفظ لم يُصبح علماً على القُرآن إلاَّ في وقت لاحق، وعلى أيِّ حال؛ ذكر مُصحف فاطمة موجود في الرّوايات القديمة فحسب، وليس له وُجُود عيني في وقتنا مُطلقاً. فالشّيعة ليس لهم كتاب إلـهيٌّ معصوم مُقدّس سوى القُرآن الكريم الذي بين أيدي جميع المُسلمين، طبقاً لقراءة حفص عن عاصم.

(2) السُّنَّة: الأحاديث المُتواترة حُجَّة بلا خلاف. أمّا أخبار الآحاد؛ فإنّها حُجَّة إذا كانت عن طريق أحد الأئمَّة المعصومين، وأمّا عن غيرهم؛ فلا يُعتَدُّ بها، والحديث إجمالاً منه الصّحيح والحَسَن والمُوثَّق والضّعيف، حسب سلسلة الرُّواة المُؤدّية إلى المعصوم، فإنْ كان جميع الرُّواة عُدُولاً ضابطين موثوقين وإماميّين كان الحديث صحيحاً، وإنْ كانوا عُدُولاً ضابطين موثوقين، ولكنْ؛ غير إماميّين كان الحديث موثوقاً ومقبولاً، وإنْ خفَّ الضّبط أو كان هُناك انقطاع في السَّنَد أو خرم في عدالة أحد الرُّواة انتقل الحديث إلى درجات الحَسَن أو الضّعيف. فالأساس هُو توافر العدالة في الرُّواة.

(3) الإجماع: ليس حُجَّة بذاته، وإنّما يكون حُجَّة؛ لأنّه يكشف عن قول المعصوم، فالحُجَّة الحقيقيَّة هي في قول المعصوم، فإنْ وصل إلينا إجماع منقول بسَنَد صحيح؛ بحيثُ يكشف عن وُجُود قول للمعصوم أدّى لحُصُول هذا الإجماع عُمل به، وإلاَّ، فلا.

(4) العَقْل: العَقْل عند الشّيعة دليل؛ حيثُ لا دليل من كتاب أو سُنَّة ولا إجماع يُعتمد عليه. ولهم في ذلك منهجان:

1 ـ منهاج العَقْل المُجرَّد بعد الشَّرْع.

2 ـ التّخريج على ما جاء في الكتاب والسُّنَّة والإجماع، ومن ذلك القواعد التّالية:

الاستصحاب: وهُو استمرار لبقاء حُكْم أو وَصْـف يقيني ثبـت في الماضي، ولـم يثبت بدليل يقيني تغيُّره. ويُقسم إلى خمسة أقسام:

1 ـ استصحاب البراءة.

2 ـ استصحاب الملك.

3 ـ استصحاب الحكم.

4 ـ استصحاب الحال، ويتعلّق بالوصف أو الموضوع.

5 ـ استصحاب الإجماع.

(5) الاجتهاد: لكُلِّ حادثة حُكْم مُقرَّر في الشّريعة، ففـي غيبـة الإمام جاز الاجتهاد. لأنَّ الأئمَّة نهوا عن التّقليد، فَفُتح بـاب الاجتهاد. وتعتبر الشّيعة بأنَّ الاجتهاد هُو عُنصر الحركة والتَّطوُّر في الدِّين عبر الزّمن. وقد أجازوا التّقليد في الفُرُوع لغير العالم، ومنعوه في الأُصُول؛ أيْ قبول العقائد الإسلاميَّة من غير سُؤال عن الدّليل.

والإماميَّة لا تعمل بالقياس المُستنبط العلّة، وقد تواتر عن الأئمَّة «إنَّ الشّريعة إذا قيست مُحقَ الدِّين». نعم؛ هُم يعملون بالقياس المنصوص العلّة، وبقياس الأولويَّة، ولكنَّهم لا يُسمُّونه قياساً، بل عَمَلاً بالعُمُومات.

هذا؛ وقد انفرد الفقْه الإمامي الاثنا عشري عن فقْه سائر المذاهب الإسلاميَّة ـ حتَّى الشّيعيَّة منها ـ بعدد من المسائل؛ أشهرها تجويز نكاح المُتعة، أو النّكاح المُؤقَّت، كما يُصطلح عليه في كُتُب الفقْه الجَعْفَري، وإيجاب دَفْع خُمس جميع المكاسب والأرباح كُلَّ سنة إلى نُوَّاب الإمام الغائب من مراجع التّقليد، ليقسموها ستَّة أسهم؛ ثلاثة منها يُفَوَّض أمرها إلى الإمام أو نائبه، يضعها في مصالح المُسلمين، والأسهم الثّلاثة الباقية تُعْطَى لأيتام السّادة من بني هاشم ومساكينهم وأبناء سبيلهم، ولا يُشاركهم فيها غيرهم. ومنها إيجابهم السُّجُود في الصّلاة على التّراب الطّاهر، أو ما لا يُؤكل، أو يُلبس، ثُمَّ تطوُّر الموضوع إلى استحباب أنْ يكون التُّراب مأخوذاً من قبر الحُسَين عليه السّلام، أو قبر أحد الأئمَّة المعصومين، وصارت

تُصنَع مُربَّعات أو مُكعَّبات من التُّربة يحملها المُصلِّي، أو تُوضع في المساجد، ليتمَّ وَضع الجبهة عليها أثناء السُّجُود، في مظهرٍ قد يكون غير مألوفٍ لدى أتباع المذاهب الإسلاميَّة الأُخرى. وممَّا انفرد فيه الفقْه الإمامي - أيضاً - إبطال العول والتَّعصيب في الميراث، وهُو مذهبٌ قديم يرويه أهل السُّنَّة عن عبد الله بن عبَّاس، ومن ذلك - أيضاً - عدم توريث البنت من رقبة عقار المُتوفَّى، أوماله غير المنقول؛ كالشَّجر والمسكن، بل توريثها نصيبها من القيمة فحسب... إلى غير ذلك من عددٍ قليلٍ يُعَدُّ على الأصابع من المسائل الفقْهيَّة التي تفرَّد بها فقْه الإماميَّة، أمَّا بقيَّة الفقْه الجَعْفَري؛ فلا يختلف عن فقْه المذاهب الأربعة في شيء، فتجده يتَّفق في مسائل مع الأحناف، وفي أُخرى يُوافق قول الشَّافعيَّة، فإنْ خالفهما، اتَّفق مع الحنابلة، أو المالكيَّة، فإنْ خالف الأربعة، ترى له مُوافقاً في أحد مذاهب أهل السُّنَّة القديمة، أو أحد أئمَّة سَلَفهم كعبد الله بن عبَّاس، أو ابن سيرين، أو ابن أبي ليلى، أو داود الظَّاهري، أو الطَّبَري، أو اللَّيث بن سعد، أو إسحق بن راهويه، أو الأوزاعي، أو ابن حزم الظَّاهري.. إلخ.

- الشِّيعة الجَعْفَريُّون العَلَويُّون:

نشأتهم ونَسَبُهُم:

العَلَويُّون فرقة من الشِّيعة الإماميَّة، ومن ثمَّ؛ فإنَّ نشأتهم الأُولى هي نفس نشأة الإماميَّة تماماً، غير أنَّها اتَّخَذَتْ سبيلاً آخر بعد الإمام الثَّاني عشر مُحمَّد بن الحَسَن (الحُجَّة القائم). وبيان ذلك؛ أنَّه كان لكُلِّ إمامٍ بابٌ - حسب المذهب الاثنَيْ عشري - وكان أوَّلُ باب هُو سلمان الفارسي الذي يحتلُّ مقاماً رفيعاً عند العَلَويِّين جميعاً؛ لأنَّه كان باب الإمام عليّ رضي الله عنه، وآخر باب هُو "أبو شُعيب مُحمَّد بن نصير البَصْري النَّميري"[1].

يتولَّى مُحمَّد بن نصير البَصْري النَّميري - وقد شغل وظيفة الباب للإمامَيْن العاشر والحادي عشر؛ أيْ عليّ الهادي والحَسَن العسكري - زعامة فريقٍ من العَلَويِّين، ولهذا؛ ذهب بعض الدَّارسين إلى أنَّ اسم (النُّصَيْريَّة) الذي عُرف به العَلَويُّون في سُوريَّة وتُركيا لفترة

---

(1) تاريخ العَلَويِّين: مُحمَّد أمين غالب الطَّويل، ط بيرُوت، ص: 202.

طويلة من الزّمن، إنَّما هُو نسبة إليه، وليس في ذلك غضاضة، فالرّجل له مكانة الخُضُوع والإجلال من قِبَلهم، وهُو رئيسهم الأوَّل من بعد انقضاء دور الأئمَّة الاثنَيْ عشر، غير أنَّ حقيقة التّسمية (النُّصَيْريَّة) جاءت نسبة إلى المكان الذي عاش فيه العَلَويُّون، واتَّخَذوا منها دريئة وملجأً ضدَّ الأعداء، ومُستقراً ومقاماً بعيداً عن الاضطهاد، وهُو جبل "النُّصَيْرة"؛ فَنُسبوا إلى المكان، فلمَّا زالت أسباب الاضطهاد، وعاودهم الاستقرار والأمان في ظلِّ الاستقلال، استعادوا اسمهم الأصلي الذي به يعتزُّونَ؛ وهُو (العَلَويُّون) نسبة إلى أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه.[1]

ويقدر ما كان العَلَويُّون ضائقي الصُّدُور بتسميتهم "بالنُّصَيْريَّة" كانوا سُعداء كُلَّ السّعادة باستعادة اسم "العَلَويّين"؛ فهُم يرون أنَّ إطلاق اسم "النُّصَيْريَّة" عليهم لم يكن إلاَّ بداعي العداوة المذهبيَّة، كإطلاق اسم "الرّوافض" على الإماميَّة، واسم "النّواصب" على السُّنَّة[2].

فإذا عُدنا إلى تتبُّع مسيرة المذهب العَلَوي وجدنا رئاسة العَلَويّين تنتقل بعد مُحمَّد بن نصير التّميمي إلى "عبد الله بن مُحمَّد الجنان الجنبلاني" (235 ـ 287 هـ)، نسبة إلى بلدة "جنبلا" في العراق العجمي، وكان ذا علم وفلسفة وزُهد وتصوُّف. فأسَّس طريقة الجنبلانيَّة، التي سعى من جانبه إلى إدخال كثيرٍ من النّاس فيها؛ بحيثُ أصبحت صفة «الجنبلانيَّة» تُعادل صفة «العَلَويَّة»، ومن هُنا؛ غلبت الصُّوفيَّة على المذهب العَلَوي، الذي أصبح مُنذُ ذلك الحين يجمع بين ثلاث عقائد هامَّة هي التَّشيُّع والاعتزال والتَّصوُّف، صحيح أنَّ بعض المؤرِّخين يذهبون إلى أنَّ فكرة التَّصوُّف نشأت قبل ذلك بفترة زمنيَّة غير قصيرة، إلاَّ أنَّ التَّصوُّف بمعناه الواسع ومُعاناته ورياضته لم يظهر عند العَلَويَّة بشكل واضح قبل الجنبلاني، ثُمَّ ما لبس أنْ ازدادت جُذُوره عُمقاً عند "المُنتجب العاني" (330 ـ 400 هـ) و"المكزون السّنجاري" (583 ـ 638 هـ) ومَنْ جاء بعدهم من زُعماء العَلَويّين.

وفي مدرسة الجنبلاني في "جنبلا" نشأ ونبغ مصريّ ذكيّ هُو "الحُسَين بن حمدان الخصيبي" (260 ـ 358 هـ)، الذي كان قد التقى بشيخه الجنبلاني حين زار مصر، وتعلَّق به

---

(1) إسلام بلا مذاهب: الدُّكتُور مُصطفى الشّكعة، ط8، القاهرة: الدّار المصريَّة اللُّبنانيَّة، 1991م، ص 323.
(2) انظر مُقدِّمة الشّيخ عبد الرّحمن الخيِّر على كتاب: تاريخ العَلَويّين، ص 1.

تعلُّقاً شديداً، ودخل في طريقته، فلمَّا عاد الجنبلاني إلى موطنه جنبلا تبعه تلميذه، ورحل في إثره، واستقرَّ عند شيخه عبد الله، ولمع شأنه، وذاع صيته، وما إنْ تُوفِّي الشّيخ سنة 287 هـ، حتَّى نهض الخصيبي بالعبء من بعده، وخَلَفَهُ في رئاسة العَلَويِّين، وتَرَكَ جنبلا، ورحل إلى بغداد، وبعد فترةٍ من الزّمن تَرَكَها متَّجهاً إلى حلب؛ حيثُ استقرَّ فيها على مقربة من سيف الدّولة الحمداني، ولعلَّه استمدَّ بعض القُوَّة والسَّند من سيف الدّولة الذي كان مُتشيِّعاً لآل البيت. وما من شَكٍّ في أنَّ الخصيبي قد لعب دوراً خطيراً في تثبيت الدّعوة العَلَويَّة، وتكريسها، ورَفَضَ الاتِّحاد مع الإسماعيليَّة، وطوَّف في بلاد خُراسان والدّيلم، وديار ربيعة وتغلب، ومن هُنا؛ كان الخصيبي هُو ألمع الرُّؤساء العَلَويِّين وأكثرهم أثراً في العقيدة، ساعده على ذلك عُمرٌ مديدٌ (260 - 358 هـ) وذكاءٌ وقُدرة على التّأليف في المذهب وتطويره إيَّاه حتَّى كان يُلَقَّب بشيخ الدِّين، فقد خلَّف من الكُتُب: "الهداية الكُبرى"، و"أسماء النّبي"، و"أسماء الأئمَّة"، و"الإخوان"، و"المائدة". غير أنَّ بعض مُؤرِّخيه ذَكَروا أنَّه كان يقول بالتّناسخ والحُلُول [1]، وكتاب الهداية الكُبرى من الكُتُب النّفيسة ذات الأثَر العميق في الفكْرة العَلَويَّة، التي هي في أصلها خالية من الغُلُوِّ، وآية ذلك أنَّ السَّيِّد الخصيبي أهداه لسيف الدّولة الحمداني الذي كان معروفاً بالاعتدال في تشيُّعه، ولو كان بالكتاب شُبْهَة غُلُوٍّ لكان سيف الدّولة قد اعترض عليه، أمَّا الكُتُب الأُخرى؛ فإنَّنا نُرجِّح أنَّ كثيراً من الأيدي قد لعبت فيها، وأضافت إليها، أو حذفت منها، الأمْر الذي جعل جانب الغُلُوِّ يغلب عليها.

ومن الطّريف أنَّه ألَّف - أيضاً - لعضد الدّولة البُويهي كتاباً بالفارسيَّة أسماه «راست باش» أيْ «كُنْ مُستقيماً» ولذلك؛ فإنَّ العَلَويِّين كانوا يُطلقون على عضد الدّولة «راست باش».

ولقد تناوب على رئاسة العَلَويِّين بعد السَّيِّد الخصيبي عددٌ من الرُّؤساء الذين لم يبلغوا شأوهن أو ينالوا شُهرته على رفعة شأنهم، مثل السَّيِّد "مُحمَّد بن عليّ الجلي"، والسَّيِّد "أبي سعيد الميمون بن عبد القاسم الطّبراني" المُلقَّب بشيخ الدّيانة العَلَويَّة، ورئيس الطّريقة الجنبلانيَّة (ت بحُدُود 1015م)، وكان مقرُّه في اللاذقيَّة [2] وإنْ كان مولده في مدينة طَبَرِيَّة سنة

(1) راجع لسان الميزان: 2/ 279، وتاريخ العَلَويِّين: 205 - 207، والأعلام مادّة الخصيبي.

(2) تاريخ العَلَويِّين: 209.

358 هـ في فلسطين، وله العديد من الكُتُب، وقد تُوفِّي سنة 426 هـ، ويُعرف قبره باسم الشّيخ مُحمَّد الطّبراني، ويقع داخل المسجد المعروف بمسجد الشّعراني باللاّذقيَّة. ومن الأسماء الكبيرة التي تولَّت رئاسة العَلَويّين أبو الحَسَن الطّرسوسي الصّغير المُتبتِّل العابد الصّائم الزّاهد، وأبو الحَسَن الطّرسوسي الكبير.

ونَظَراً لعَبَث الرُّوم بالمنطقة العَلَويَّة، فإنَّ الطّريقة العَلَويَّة حسبما كانت تُسمَّى - بالنّسبة لنزعتها الصُّوفيَّة - قد افتقدت الرّئيس، وانتقلت الرّئاسة إلى أُسرة البلقيني مُنجبة العُلماء وشُيُوخ الإسلام في مصر في القُرُون الوسيطة.

على أنَّ العَلَويّين - وقد استبدَّ بهم ظُلم الأكراد من ناحية، وعصف الإسماعيليَّة من ناحية أُخرى، حتَّى أجلوهم عن أرضهم، وكان ذلك في نهاية القرن الهجري السّادس وبداية السّابع - لم يجدوا بُدّاً من أنْ يطلبوا العون والمَدَدَ من أميرٍ مُهَلَّبيِّ النَّسَب، عَلَويِّ المذهب، فارسٍ شاعرٍ، هُو حَسَن بن يُوسُف بن خضر المعروف بالمكزون السّنجاري، الذي ورث الفُرُوسيَّة والأريَحيَّة من جَدِّه الأعلى المُهلَّب بن أبي صفرة، فَهَبَّ لنَجْدَتهم في سنة 617 هـ، ولكنَّ الخمسة والعشرين ألف فارس الذي قادهم من سنجار - مقرِّه الأوَّل - لم يستطيعوا التَّغلُّب على حُشُود خُصُومهم، فعادوا أدراجهم، وعلى رأسهم أميرهم إلى سنجار، لكي يزدادوا عدَّةً عتاداً واستعداداً، ولم يحلّ عام 620 هـ، إلاَّ وكان المكزون يقود جيشاً مُكوَّناً من خمسين ألف مُقاتل، مُتَّجهاً بهم إلى حيثُ تخلَّى عنه النّصر قبل ثلاث سنوات، وفي هذه المرَّة كُتب له الظّفر بأعداء أبناء طائفته، وأعاد الأرض إلى أصحابها، ورَتَّبَ شُؤُونهم، وأمَّن أحوالهم، ولمَّا أنْ تمَّ له ذلك، تَرَكَ الاشتغال بالدُّنيا، وجَنَحَ إلى التَّصوُّف والاجتهاد وقول الشّعر الصُّوفي، حتَّى تُوفِّي سنة 638 هـ، وتختلف الرّوايات؛ فمنها ما يذكر أنَّه دُفن بقرية كفر سوسة على مقربة من دمشق[1]، ومنها ما يُؤكِّد أنَّه كان قد عاد إلى مدينة سنجار سنة 620 هـ، وظلَّ هُناك، حتَّى أدركته الوفاة، ودُفن فيها[2].

---

(1) تاريخ العَلَويّين: 306 - 310، والأعلام للزّركلي: مادَّة المكزون السّنجاري.

(2) أعلام من المذهب الجَعفَري (العَلَوي): ديب عليّ حَسَن، ط3، 1998، بيرُوت: دار السّاحل للتُّراث، ص: 92 - 93.

وإذا لم يكن بُدٌّ من كلمة حقٍّ تُقال في العَلَويِّين على مسرى تاريخهم الطَّويل، فإنَّ كثيراً من الفضل مُنتسب إليهم لاصق بهم، فلقد تعرَّضوا للغزو من قبَل الصَّليبيِّين، وللمذابح من قبَل السُّلطان سليم التُّركي، والاعتداء من قبَل الإسماعيليَّة، والمُضايقة من قبل السُّنَّة، وهُم - مع ذلك - كانوا أصحاب نخوة وفُرُوسيَّة في الحرب في صفُوف جيش سيف الدَّولة الحمداني، وخاضوا المعارك الباسلة ضدَّ الصَّليبيِّين في صفُوف إخوانهم من أبناء عامَّة المذاهب الإسلاميَّة، وقاوموا بعض دُعاة الأتراك من الحُكَّام الغاشمين، وكانوا صُورة طيِّبة للجهاد على مسرى حركات الاستقلال العَرَبيَّة الحديثة التي آخرها 1920، في سُوريَّة، وما حديث البطل العظيم الفارس الشّجاع الشَّيخ صالح العليّ ببعيد.

وهُناك فريق آخر من العَلَويِّين انفصل - مُنذُ وقتٍ مُبكِّرٍ - عن الجَمْهَرَة العَلَويَّة الجنبلانيَّة الخصيبيَّة، هذا الفريق هُو جماعة الإسحاقيَّة، والإسحاقيَّة - من حيثُ النَّشأة - يحملون اسم أبي يعقوب إسحق بن مُحمَّد النَّخعي صاحب الإمام الحَسَن العسكري، وكان أبو يعقوب يُعرف باسم إسحق الأحمر؛ لأنَّه كان أبرص، ويُخفي لون برصه بصبغة حمراء.

لقد كان إسحق النَّخعي من أصحاب الإمام الحَسَن العسكري، ثُمَّ أنَّه ادَّعى الباب للإمام العسكري - مُنافساً - بذلك - مُحمَّد بن نصير النّميري - فاتَّبعه بعض النَّاس، وآمنوا به باباً.

والواقع أنَّ كُلَّ المصادر تُصوِّر أبا يعقوب هذا تصويراً يضعه في مكان الغُلُوِّ، فقد ذكروا أنَّ جماعته كانوا يُؤلِّهون الإمام عليّ بن أبي طالب، ويزعمون أنَّه ظهر في الحَسَن، ثُمَّ في الحُسَين، وأنَّه هُو الذي بَعَثَ مُحمَّداً، ولقد حاول أنْ يُثبت مذهبه في قُلُوب أتباعه، فألَّف كتاباً سمَّاه: "الصِّراط"، وجعل موضوعه التّوحيد، أكثَرَ فيه من الخَلْط والزّيغ [1] وتُوفِّي سنة 286 هـ، ولعلَّ أشهر خُلفائه إسماعيل بن خلاَّد البعلبكي. ولكنْ؛ لم يُقَدَّر لنشاط هذه الجماعة أنْ يمتدَّ طويلاً، وما لبث أنْ كَشَفَ أمرهم المُجاهد الحَسَن السّنجاري المكزون، فقضى عليهم كما سيأتي تفصيله.

---

(1) تاريخ بغداد: 6/ 380، تاريخ العَلَويِّين: 209، البداية والنّهاية: 11/ 82، ولسان الميزان: 1/ 370.

عقيدة العَلَويِّين:

العَلَويُّون - من حيثُ عقيدة مُستنيريهم - شيعة إماميَّة صحيحو الإسلام، وهؤلاء من القوم من الكثرة بمكان، يُؤدُّون الفرائض؛ صلاةً وصوماً وزكاةً وحجّاً في ظل رُوح الإيمان كما ينبغي أنْ تُؤدَّى من غير تحريف، أو تغيير، أو تبديل، غير أنَّ شطحات من الغُلُوِّ جَنَحَتْ بأكثرهم إلى مهاوي الغُلُوِّ، فضلاً عن السِّرِّيَّة التي فَرَضَهَا فريقٌ منهم على العقيدة، وجَعَلَها جُزءاً منها، وفي يقيننا أنَّ هذا الفريق الأخير فريسة للانطواء والانعزال وقُصُور المعرفة، بالرّغم من لَقَب «المَشْيَخَة» التي يتمتَّع بها بعضهم بين جُمهُور البُسطاء.

إنَّ أمانة البحث العلمي تقتضي منَّا أنْ نعرض للفريقَيْن: فريق الغُلاة؛ وفريق المُعتدلين، راجين أنْ يأتي اليوم الذي تُصبح فيه صفة الغُلُوِّ ومسلكه ومُمارسته شيئاً في ذمَّة التّاريخ، وسوف نبدأ بفريق الغُلاة، ثُمَّ نثني - بعد ذلك - بالفريق المُعتدل، وفي حديثي عن الغُلاة سوف يُلاحظ القارئ عقائد تدعو إلى الغرابة، فلا عليه لذلك؛ لأنّي أُحسُّ أنَّ الأُمُور سريعة التَّبدُّل، وأنَّ المُخلصين من أبناء المذهب يبذلون من الجُهُود في سبيل إعادة المُنحرفين إلى الهَدْي السَّويِّ ما هُو جديرٌ بالإعجاب، وما يبشِّر بالخير الكثير، غير أنَّ الذي نذكره - هُنا - عن الغُلاة هُو جُزء من الحقيقة الواقعة، ويُمثِّل جانباً من التّاريخ وبعضاً من الحاضر [1].

فريق الغُلاة:

تنسب المصادر الشِّيعيَّة القديمة عقائد مُغالية لمُحمَّد بن نصير النّميري، وتذكر تبرُّؤ الإمام الحَسَن العسكري منه بسبب هذه العقائد، وجُملة هذه العقائد أقوال غنوصيَّة شطحيَّة لا تتَّفق مع ظاهر الشَّرْع، كالقول بحُلُول الله - تعالى - في مُحمَّد بن نصير النّميري [2]، وبظُهُور الله - تعالى - في أشخاص مُتسلسلين مُنذُ بدء الخليقة ووُصُولاً إلى الأئمَّة من آل الرّسول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم). ومثل هذا الشّيء بالذّات تذكره - أيضاً - كُتُب الفرَق والملَل والنِّحَل القديمة لدى أهل السُّنَّة، كعبد القاهر البغدادي في الفَرْق بين الفرَق، وأبي الحَسَن الأشعري في

(1) إسلام بلا مذاهب: الدُّكتُور مُصطفى الشّكعة: ص 331.

(2) مقالات الإسلاميِّين: 1/ 15.

"مقالات الإسلاميّين" والشّهرستاني في "الملَل والنِّحَل"، فينقل الأخير مثلاً تحت عُنوان الغُلاة من الشّيعة: الإسحاقيَّة والنّصيريَّة، ويذكر من عقائدهم:

[قالوا: ظُهُور الرُّوحاني بالجَسَد الجسْماني أمرٌ لا يُنكـره عـاقلٌ، إمَّا في جـانب الخير؛ فكظُهُور جبريل - عليه السّلام - ببعض الأشخاص والتّصوُّر بصُورة أعرابي والتَّمثُّل بصُورة البشر، وإمَّا في جانب الشَّرِّ؛ فكظُهُور الشّيطان بصُورة إنسان، حتَّى يعمل الشَّرَّ بصُورته وظُهُور الجنِّ بصُورة بشر، حتَّى يتكلَّم بلسانه، فكذلك نقـول: إنَّ الله - تعـالى - ظهر بصُورة أشخاص، ولمَّا لم يكن بعد رسول الله شخصٌ أفضل من عليّ رضـي الله عنـه، وبعـده أولاده المخصوصون وهُم خير البريَّة، فظهر الحقُّ بصُورتهم، ونطق بلسانهم، وأخذ بأيديهم، فمن هذا أطلقنا اسم الإلهيَّـة عليـهم، وإنَّما أثبتنا هـذا الاختصـاص لعلـيّ - رضـي الله عنـه - دُون غيره؛ لأنَّه كان مخصوصاً بتأييدٍ إلهيٍّ من عند الله - تعالى - فيما يتعلَّـق ببـاطن الأسرار؛ قـال النّبي ﷺ: «أنا أحكم بالظّاهر، والله يتولّى السّرائر»، وعن هـذا؛ كـان قتـال المُشـركين إلى النّبي ﷺ وقتال المُنـافقين إلى علـيّ رضـي الله عنـه، وعـن هـذا شـبَّهَهُ بعيسـى بـن مريـم عليـه السّلام، فقال النّبي ﷺ: «لولا أنْ يقول النّاس فيكَ ما قالوا في عيسى بن مريـم - عليـه السّلام - لقُلْتُ فيك مقالاً». وقال النّبي عليه الصّلاة والسّلام: «فيكـم مَـنْ يُقـاتل على تأويلـه كما قاتلتُ علـى تنـزيله؛ ألا وهُـو خـاصف النّعـل»، فَعِلْـمُ التّـأويل، وقتـال المُنافقين، ومُكالمة الجنِّ، وقَلْع باب خَيْبَر لا بقُوَّة جسدانيَّة من أدلِّ الدّليل على أنَّ فيه جُزءاً إلهيّاً، وقُوَّة ربَّانيَّة، ويكون هُو الـذي ظـهر الإلـه بصُورتـه، وخَلَـقَ بيـده، وأَمَـرَ بلسـانه، وعـن هـذا قـالوا: كـان موجوداً قبل خَلْق السّموات والأرض قال: «كُنَّا أظلّة عن يمين العـرش، فَسَـبَّحْنا، فَسَـبَّحَت الملائكة بتسبيحنا، فتلك الظّلال وتلك الصُّـور الـتي تُنبـىء عـن الظّـلال هـي حقيقتـه، وهـي مُشرقة بنُور الرَّبِّ - تعالى - إشـراقاً لا ينفصـل عنـها، سـواء كـانت في هـذا العـالم، أو في ذلـك العالم، وعن هذا قال عليٌّ - رضي الله عنه -: أنا من أحمد كالضّوء من الضّوء، يعني لا فَـرْق بين النُّورَيْن، إلاَّ أنَّ أحدهما سابق، والثّاني لاحق به، تال له . . .][1].

---

(1) أبو الفتح الشّهرستاني: الملَل والنِّحَل: 1 / 188 - 189.

وقد وَعَدْنا في مُقدِّمة الكتاب أنْ لا نذكر عن كُلِّ فرقةٍ إلاَّ ما يقوله أصحابها أنفسهم عن مُعتقدهم، لذا؛ فلن نُعوِّل مبدئيّاً على ما ذَكَرَهُ الشّهرستاني، ولا حتّى على ما ذَكَرَهُ النّوبختي الشِّيعي الإمامي في كتابه عن فِرَق الشِّيعة، ولا على ما جاء في كتاب "الباكورة السُّليمانيَّة في كشف أسرار الدّيانة النّصيريَّة" لمُؤلِّفه التُّركي سُليمان الأفندي الأذني (نسبة لمدينة أضنة جنوب تُركيا): لأنَّ مُؤلِّفه، وإنْ كان عَلَويّاً في البداية إلاَّ أنّه ارتدَّ عن ديانته إلى المَسيحيَّة، وألَّف ذلك الكتاب، فلا يبعد أنْ يتحامل على القوم؛ لأنَّهم صاروا أعداءه، بل سأحاول أنْ أنقل بعض شواهد الغُلُوِّ والارتفاع لدى فريق الغُلاة من الكُتُب التي يعتمدونها أو من بعض مُؤلَّفاتهم السِّرِّيَّة وتحريراتهم أنفسهم. فمن مظاهر الغُلُوِّ رُجُوعهم واهتمامهم جدّاً بكتاب "مشارق أنوار اليقين في ولاية أمير المُؤمنين" للحافظ رجب البرسي، وهُو كتابٌ مشحونٌ بالرّوايات الضّعيفة، بل الموضوعة التي مضمونها يُؤدِّي للغُلُوِّ والارتفاع[1]، ومن شواهد ذلك اهتمامهم وطباعتهم لخُطبة "البيان" المنسوبة لأمير المُؤمنين عليِّ بن أبي طالب، والتي حكَمَ العلاّمة المجلسي من كبار مُحدِّثي الشِّيعة الإماميَّة بأنَّها موضوعة، والتي فيها الغُلُوُّ الصّريح، وأنَّ عليّاً وَقَفَ بمنبر البَصْرَة يقول: «أنا الأوّل والآخر... أنا الظّاهر والباطن... أنا الذي أخرجتُ إبراهيمَ من النّار.. أنا الذي فَلَقْتُ البحرَ لموسَى.. أنا الذي أخرجتُ يُونُسَ من بطن الحُوت... إلخ».

وفي يدَيَّ رسالة تُسمَّى "رسالة الكاشفيَّة الدّالَّة في أسرار الخفيَّة" كُتب عليها: *"تأليف السَّيِّد الجليل والنّدب الفضيل الشّيخ معلاّ ربيع[2] قُدِّس رُوحه، آمين"*، جاء في أوّلها: [بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله العليّ العظيم، مُنوِّر قُلُوب العارفين بنُوره، ومُؤيِّدهم بعَظَمَته الأحد الفَرْد الصَّمَد، المعبود الظّاهر الموجود، العليّ المشهود، أمير النّحل، الذي هدا وبدا، ونادى على المنابر: أنا الحيّ القيُّوم، أنا الذي رَفَعْتُ السّماءَ بقُدرتي، ودحيتُ الأرضَ بعظمتي... إلخ].

---

(1) المقصود بالارتفاع رَفْع الأئمَّة عليّ وأولاده من مقام البشريَّة لمقام الرُّبُوبيَّة.

(2) وقد جاءت ترجمته في كتاب "أعلام من المذهب الجَعْفَري (العَلَوي)" تأليف: ديب عليّ حَسَن، ط3، ص 100، وجاء فيها: [معلاّ ربيع: هُو معلاّ بن ربيع بن حَسَن بن بركات بن إسماعيل بن الشّيخ حَسَن سُلطان، وُلد هذا الشّيخ الجليل والعالم النّبيل في قرية الدّالية سنة 1297 هـ، وسَكَنَهَا مُدَّةَ 14 سنة، ثُمَّ انتقل إلى قرية البيرة التّابعة لمحافظة حماة...].

وبين يدَيَّ رسالةٌ أخرى لأحدهم؛ واسمه "خادم الدِّين والمُؤمنين عليّ خضر خضر سرستان"، عُنوانها: «هل أنتَ ضمن هذه الحلقة؟؟» كَتَبَها غاضباً من الدّعاية الشّيعيَّة الجَعْفَريَّة التي تُبثُّ في أوساط العَلَويِّين، وتُؤدِّي لتشيُّع شبابهم، ودافعاً تُهمة أولئك الدُّعاة الجَعْفَريَّة لأمثاله من العَلَويِّين بأنَّهم من الغُلاة، ويقول في جُملة كلامه (ص 15 ـ 16):

[قال المولى الصّادق (ع): من صفَة الحكيم أنْ لا يُعْبَدَ إلاَّ ظاهراً، وإنَّ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ لَمّا خَلَقَ الخَلْقَ دعاهم إلى وَحْدَانيَّته، ثُمَّ ظهر لهم بينهم، يتنقَّل فيما يتنقَّلون. فَمَنْ عَرَفَهُ هُناك عَرَفَهُ ها هُنا، ومَنْ أنكره هُناك أنكره ها هُنا، وكفى بجهنَّم سعيراً... يا أخي: عُدْ إلى قوله (ثُمَّ ظهر بينهم يتنقَّل فيما يتنقَّلون)، أ ليس هذا دليل على ظُهُور الله بين الخَلْق كالخَلْق؟ وقد عَرَفَهُ العارفون بإظهار المعاجز والقدر التي تعجز عنها البشر. وأمير المُؤمنين عليّ بن أبي طالب جاء بها وفَعَلَهَا: مثل إحياء الميِّت، وردّ الشّمس، وعلْم ما في الأرحام.. إلخ، فإذا كُنَّا ندين بقول المولى الصّادق نكون كَفَرَة في رأيهم؟؟...].

وبين يدَيَّ ـ أيضاً ـ كتابٌ ضخمٌ نسبياً مُؤلَّفٌ استناداً لثلاثة مخطوطات، يقع في حوالي أربعمائة صفحة عُنوانه: "الرّسالة المصريَّة" أو "منهج العلم والبيان ونُزهة السَّمْع والعيان" كُتبَ عليه أنَّه: "لمُؤلِّفه الحبْر العارف أبي عبد الله مُحمَّد بن مُحمَّد بن الحَسَن البغدادي"، وفي مخطوطة أُخرى ذُكر أنَّ المُؤلِّف هُو "الشّيخ الجليل مُحمَّد بن مُقاتل القطيعي"، نقتبس عبارة واحدة جاءت في افتتاحيَّة الكتاب، في أوَّل صفحة منه، ففيها الكفاية:

[بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله العليّ الحميد، المُبدء الأزل، المُعيد القديم، الأوَّل المُنشئ الذي ما شاء فَعَلَ، علَّة العلَل، مُنشئ حركات الأوَّل، مَنْ إلى عبادته دَعَا أصحاب الشّرائع والملَل... المُتجلِّي لخَلْقه بالذّات العليَّة، المرئيّ المُشاهَد بالصُّورة الأنزعيَّة التي تَأَحَّدَ بها في البريَّة، لتتَّضح لمَنْ أقرَّ له المحجَّة، وتُثبت على مَنْ أنكره الحُجَّة...].

وهذا المُؤلِّف إذا ذَكَرَ اسم الإمام الصّادق لا يقول عليه السّلام، بل يقول: "علينا منه السّلام"، وكذلك إذا ذَكَرَ اسم الإمام عليّ قال: "منه السّلام"... إلخ.

وقد مرَّ معنا ـ أوَّل هذا الفصل ـ اسم "المُنتجب العاني" الذي يُعَدُّ من العُرفاء والشُّعراء العَلَويِّين القُدامى (ت حوالي 400 هـ)، فنراه يذكر ما يُوافق ما ذَكَرَهُ سُليمان أفندي الأدني

صاحب "الباكورة السُّليمانيَّة في كشف أسرار الدِّيانة النَّصيريَّة" مِمَّا يدعو لتصديق ما جاء في الباكورة، فمثلاً كُلاً المُنتجب العاني وسُليمان الأَدَني يذكران "أيتام سلمان الخمسة"، ويُعَدِّدان أسماءهم، وهُم المقداد الكندي، وأبو ذرٍّ الغفاري، وعبد الله بن رواحة الأنصاري، وعُثمان بن مظعون، وقنبر بن كاذان، وذِكْرُهُم مقرونٌ بالتَّمجيد والإجلال عند كُلٍّ من المصدرَيْن[1].

وكُلٌّ من المُنتجب العاني وسُليمان الأدني يتَّفقان في ذِكْر الآراء الشَّديدة الغُلُوِّ حول ما أسْمَيَاهُ: "ظُهُورات الإله في المظاهر التي اصطفاها": [فهابيل وشيث ويُوسُف ويُوشع وآصف وشمعون وعليّ كُلُّهم تتجلَّى فيهم ذاتيَّة الله حيناً، وتغيب حيناً آخر عن الأبصار][2].

ويتَّفق كُلٌّ من المُنتجب والأدني في تأليه عليّ بن أبي طالب وظُهُوره من عين الشَّمس على أسد، وسيفه بيده، والملائكة خلفه، وسَلْمان بين يدَيْه، والمُنتجب يذكر ذلك في قصيدة أطلق عليها "جذوة التَّوحيد"، وصاحب الباكورة يذكر ذلك في سُورة الشَّهادة أو الجبل[3].

يقول الدُّكتُور مُصطفى الشَّكعة بعد ذكْر ما سبق: [الحقُّ أنَّني لا ألوم بعض «المشايخ» فضلاً عن العوامِّ إذا ما قُورن موقفهم بموقف عالم كبير كالمُنتجب العاني.][4]

وكُلٌّ من الأدني والعاني يتَّفق في مُثلَّث "عقد ع م س" فالعين عليّ؛ ويُسَمَّى المعنى، والميم مُحمَّد؛ ويُسَمَّى الاسم والحجاب، والسِّين سَلْمان الفارسي؛ ويُسَمَّى الباب، وهذا المُثلَّث: ع س م، يكاد يطفو على كُلِّ صفحات باكورة الأدني، وهُو في نفس الوقت يجري على لسان المُنتجب في أكثر من قصيدة، إنَّ قصيدة المُنتجب التي أسماها "كأس الوفاء" ينثرها ويُعلِّق عليها مُؤلِّف المُنتجب على هذا النَّحو قائلاً:

---

(1) انظر الباكورة السُّليمانيَّة في كَشْف أسرار الدِّيانة النَّصيريَّة: سُليمان أفندي الأدني ص 18 و19، فنّ المُنتجب العاني وعرفانه: الدُّكتُور أسعد أحمد علي، لُبنان: دار النُّعمان، 1968م، ص 111 ـ 112.

(2) المُنتجب العاني: ص 89، والباكورة السُّليمانيَّة: ص 47.

(3) المُنتجب العاني: ص 89، والباكورة السُّليمانيَّة: ص 27.

(4) إسلام بلا مذاهب: د. مُصطفى الشَّكعة: ص 340.

[والحقّ ما دعا إليه مُحمَّد بن عبد الله في رسالة الإسلام، فالميم، يعني به مُحمَّداً، هُو استمرار الحقيقة الثّانية في الأزل، وبه يستجير، والسّين يعني به سَلْمان، الذي جَعَلَهُ مُحمَّد من آل البيت، هُو استمرار الحقيقة الثّالثة التي فاضت من نُور الحقيقة المُحمَّديَّة، كما فاض نُور الحقيقة المُحمَّديَّة عن نُور ذات الحقيقة الأحديَّة الجليلة التي لا تُقاس، ولا نسب إليها. . .] وتظهر مُغالاته - أيْ مُغالاة المُنتجب - من جهة مقالته بإفراد عليّ بإمارة المُؤمنين، ولعلَّه كان يرى في عليّ المظهر الإنساني للذّات الإلهيَّة[1] ممّا جعل القارئ يتصوَّر أنَّ الهدف من قول المُنتجب: هُو "عقد ع م س"، صريحاً كُلَّ الصّراحة.

كما يتّفق سَلْمان الأدنى مع المكزون السّنجاري في ذكْر أشخاص الصّلاة، وأنَّ هُناك أشخاصاً للصّلاة، وأشخاصاً للصّوم، وأشخاصاً للحجّ[2].

والحقّ أنَّ المُنتجب شاعرٌ بارعٌ مُتمكّنٌ موهوبٌ، أمّا أنْ يكون المُنتجب نفسه ذا صلة وثيقة بالعَلَويّين؛ فهذا أمر يُمكن التّأكُّد منه بكثير من اليُسر في ضوء النّماذج السّابقة التي أوردناها كأمثلة على تفكيره وعقيدته.

إنَّ أُولى قصائد ديوان المُنتجب، وعلى الرّغم من عَمْده فيها إلى الإلغاز أو التّخفّي، والإغراق في المُصطلحات الباطنيَّة والوُقُوف وراء الرُّمُوز، إلاَّ أنَّه لم يستطع أنْ يكون بمنجاة عن اقتناص القارئ اللّبيب لأهدافه ومعانيه. إنَّ أُولى قصائده - وكانت في مدح المُهاجري - مطلعها:

بَني نُمير رضاكُمْ مُنتهى أَمَلي	وأنتمُ دُون خَلْق الله مَقْصُودي
أَيَّامكُمْ، فهي أيّامي، وقَوْلُكُمُ	قَوْلي، ومَعْبُودُكُمْ بالسِّرِّ، مَعْبُودي
وللحجاب سُجُودي مَع سُجُودكُم	وللعَليّ العَظيم الشّان تَوْحيدي
والبابُ سَلْمانُ، منه أَصْلُ مَعْرِفَتي	كما به طابَ في الفرْدَوْس تَخْليدي[3]

---

(1) فنّ المُنتجب العاني وعرفانه: الدُّكتُور أسعد أحمد علي، ص 111.

(2) المُنتجب العاني: ص 193 - 194، والباكورة السُّليمانيَّة: ص 44.

(3) مُستدرك الأعلام: ص 195.

إنَّ سمات الغُلُوِّ واضحة كُلَّ الوُضُوح، خُصُوصاً في قوله: "معبودكم في السِّرِّ معبودي"؛ إذْ ليس هُناك عند المُسلمين معبود في السِّرِّ، كما أنَّ الغُلُوَّ يظهر واضحاً في البيت التّالي مهما كان مدى الرّمز الذي قَصَدَ إليه الشّاعر، فالرّمز ـ هُنا ـ لا يكاد يكون رمزاً، وإنَّ سمة الوُضُوح فيه أبْيَنُ من لمحة الغُمُوض:

وللحجاب سُجُودي مَع سُجُودكُم	وللعليِّ العظيم الشَّان تَوْحيدي

والمُنتجب ـ هُنا ـ يُفصح عن المُصطلحات الباطنيَّة حول الحجاب والاسم والباب، فقد ذَكَرَ صراحة أنَّ سَلْمان الفارسي الصّحابي الجليل هُو الباب الذي يحتلُّ المقام الثّالث المُقدَّس في الرّمز العَلَوي ع م س، وأنَّه سيكون سبب تخليده في الفردوس.

هذا؛ ويُقَسِّم فريق الغُلاة مشايخهم إلى رُتَبٍ ودَرَجَات، وهُم ـ في ذلك ـ يُشبهون الإسماعيليَّة إلى حَدٍّ ما، فأُولى رُتَب المَشْيَخَة (الإمام)، ثُمَّ تليها رُتْبة (النّقيب)، وثالثها رُتْبة (النّجيب)[1]. ولكُلٍّ من الإمام والنّقيب والنّجيب سُلطانه وحُدُوده وحُقُوقه، ولقد بدأت هذه الرُّتَب على زمن السَّيِّد الخصيبي مُعتمدةً على درجات المعرفة في نطاق المذهب، ولكنَّها في الأزمنة الأخيرة افتقدت هذه المُؤهّلات، ولعلَّ المُؤهِّل الغالب هُو قُوَّة شخصيَّة صاحب الرُّتْبة، بغَضّ النَّظَر عن تأهيله العلمي والدِّيني، وقد وَرَدَتْ هذه الرُّتَب في شعر بعض مَنْ جَنَحوا إلى الغُلُوِّ مثل المُنتجب العاني. لقد أنشأ المُنتجب قصيدة بائيَّة طويلة أطلق عليها (جذوة التّوحيد) تَحَدَّثَ ـ من خلالها ـ عن الرُّمُوز العَلَويَّة (المعنى والاسم والباب) ووَضَعَها على طريقته، ثُمَّ انتقل إلى ذكْر المراتب (العَلَويَّة) بما لا يُخالف فيه كثيراً ما جاء به صاحب الباكورة السُّليمانيَّة، فبعد ذكْر الأبواب، يذكر الأيتام السّبعة ـ وقد مرَّ ذكرهم ـ ثُمَّ ينتقل إلى النُّقباء، ثُمَّ النُّجباء، ويُلحُّ على السّبعة العَلَويَّة المنسوبة إلى السّبعة الشُّهُب، والسّبعة السُّفليَّة المنسوبة إلى التُّراب[2].

---

(1) الباكورة السُّليمانيَّة: ص 76.

(2) المُنتجب العاني: ص 52 ـ 53.

ولقد أورد المكزون السّنجاري ـ أيضاً ـ هذه الرُّتب، وَجَعَلَهَا تسعة، ورَتَّبهَا، ووَصَفَهَا على النّسق التّالي[1]:

1 ـ الأصل؛ أيْ المعنى، الأزل، الباري، الحقّ الأوّل.

2 ـ الفرع؛ أيْ الحجاب الأوّل، الأبد، العَقْل، خالق الباب.

3 ـ الثّمر؛ أيْ الباب، السّرمد، مُختصّ الأيتام.

4 ـ اليتيم.

5 ـ النّقيب.

6 ـ النّجيب.

7 ـ المُختصّ.

8 ـ المُخلَص.

9 ـ المُمتحن.

وبترجمة بسيطة لمُصطلحَيْ المعنى والباب نستطيع أنْ نلمس جانب الغُلُوِّ الشّديد في خَلْع صفات الخَلْق والتّقديس على بعض أصحاب هذه الرُّتبة.

ويرى الغُلاة من العَلَويِّين ضرورة كتمان العقيدة. وللقوم وُجهة نَظَرهم في ذلك، يعرضها السيِّد مُحمَّد أمين غالب الطّويل على لسانهم بقوله: [إنَّه لَمَّا أعلن كمال الإسلام كان لا يزال بعض العقائد مكتوماً وخفيّاً، ولذلك؛ بقي إلى هذا اليوم مكتوماً لخُصُوصيَّته، وبتعبير أصحّ: إنَّ بقاء عقيدة العَلَويِّين مكتومة هُو من كمال الإسلام، وإعلانها مُضرٌّ به؛ لأنَّ الرّسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بَشَّرَ المُؤمنين بولاية عليّ، وبذلك؛ كمل الإسلام، ولكنَّه بقي حريصاً على كتمان البقيَّة، ولذلك؛ كان كتمان البقيَّة من كمال الإسلام أيضاً][2].

---

(1) "معرفة الله والمكزون السّنجاري": د. أسعد أحمد علي، بيرُوت: دار الرّائد العَرَبي، 1972م، ج1/ ص326.

(2) تاريخ العَلَويِّين: مُحمَّد أمين غالب الطّويل، ص 75.

وإذا كان صاحب (التّاريخ) قد شرَحَ وُجهة نَظره في سريَّةٍ نَثْراً، فإنَّ المُنتجب العاني يعرضها شعراً حوى سلاسة اللّفظ، ورونق الأُسلُوب، ولكنَّه افتقد صلب الإبانة ووُضُوح المعاني، ولكنْ؛ لا عليه في ذلك، فإنَّه يَتحَدَّثُ عن (السِّرِّيَّة) ويُباركها [1]:

وسِــــــرٌّ يُقَلــــقل صـــمَّ الجبــــا	ل ويُفجِّــــر مـــن صخرهــا أعينــا
عجائـــــبه كثـــــرةٌ لا تُــــعَدُّ	فطُوبـــا لطَـــرْفٍ إليــه رَنَــا
وفيـــه جواهــــر للمُبصريـــــن	بألـــباب أهــل الوفـــى تُجتـــبى
وفي طـــيِّ أســـرار أهـــل الخفَــا	ظ تُصَـــانُ ومــن عندهـــم تُقْتَنـــى
وفي قــــعره دُرَرٌ لا وصـــــو	ل إليــــهن إلاَّ بطُـــول العنـــا
ونُمســك مــن بعــد هــذا المقــال	حـــذَاراً ونقطعـــه مــن هُنـــا
لكــي لا تلـــوح معـــاني الكـــلام	فيظـــهرَ ضـــدٌّ علـــى سرِّنَـــا

العَلَويَّة الصَّحيحة:

لقد كابد المُؤمنون العَلَويُّون ـ ولا يزالون ـ الكثير من المتاعب الوُجدانيَّة والنَّفسيَّة نتيجةً لتَصرُّفات فئات الغُلاة الذين نالوا بغُلُوِّهم ـ قولاً وفعلاً ـ من جلال المذهب الذي هُو في أصله إماميٌّ جَعْفَريٌّ شيعيٌّ، أو حسب تعريف الشّيخ عبد الرّحمن الخيِّر [2]: [إنَّ العَلَويِّين لم يفترقوا عن الشِّيعة الإماميَّة، وليسوا غيرهم، وكُلُّ عَلَويٍّ يحفظ ويعتقد ويشهد مُؤمناً بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾. وإذاً؛ فلا ينبغي أنْ يُعوَّل ـ حسب قول الشّيخ محمُود صالح ـ على ما يُرى في بعض مُصنَّفات عُلماء العَلَويِّين القديمة مِمَّا يتنافى ومحض اعتقادهم بتوحيد الله، ولا يصحُّ أنْ يُعْتَبَرَ دليلاً على إدانتهم بما دسَّه يد الإرجاف والإجحاف في حُقُول مؤلَّفاتهم من تُهَمٍ يعرف

(1) من قصيدة التَّقيَّة: المُنتجب العاني: ص 51 ـ 52.

(2) مُقدِّمة تاريخ العَلَويِّين: صفحة ح، وصفحة ط.

الجميع أنّها من مُخلّفات العُصُور الحالكة التي مرّت بهم، ومن مُولّدات غُلاة الشّيعة الذين أتاحت لهم ظُلُمات تلك الأجيال أنْ يجوسوا خلال ديارهم، ويملؤوها بدَعاً وأضاليل [1].

ويلتمس الشّيخ "محمُود الصّالح" العُذْر للفئات العامّيّة الجاهلة إذا ما غلب على تفكيرها الغُلُوُّ، طالما أنّه وُجد من وُجهاء المُسلمين من أمثال ابن أبي الحديد مَنْ يقول في الإمام عليّ:

صِفَاتُكَ أسماءٌ وذاتُكَ جَوْهَرٌ ... بريءُ المعالي مِنْ صفَاتِ الْجَوَاهر

يَجِلُّ عن الأعْراض والأيْن والمتى ... ويكبُرُ عنْ تَشْبيهه بالعَنَاصر

أو يزداد شَطَطاً وغُلُوّاً فيقول:

تَقَيّلْتَ أفعَالَ الرُّبُوبيَّة التي ... عَذَرْتُ بها مَنْ شَكَّ أنّك مَرْبُوبُ [2]

ويُرْدف مُؤلّف النّبأ اليقين قائلاً: [وإذا وجدتَ الآن في أواسطهم أو بين أكنافهم مَنْ هذا شأنه فهُو ـ ولا ريب ـ دخيلٌ عليهم، أو من بعض أدعيائهم، وهُم من إسرافه وتبذيره بُرَءاء [3].

إنّ المتاعب لم تقف بالقوم عند المُندسّين بينهم، المُشتطّين الغُلاة الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى مُجتمعهم، وإنّما جسّم من خُطُورتها، وزاد من تعقيداتها وُجُود فئة من المشايخ استسلمتْ للجهل، وتعصّبتْ له، وحاربت العلم، وناصبته العداء، وأصرّتْ على أنّ العلم يتنافى مع الدِّين، الأمْر الذي جعل الشّيخ الجليل أحمد حَيْدَر يُؤلّف كتاباً في الإيمان بالله وبالعلم أسماه: «ما بعد القمر»، وحَمَلَ فيه على جهل هذه الفئة من المشايخ، واستنكر آراءهم التي تقول بأنّ العلم يتنافى مع الدِّين ـ فضلاً عن مقاصد أُخرى سوف نعرض لها فيما بعد. ويقول الشّيخ الجليل: [وقد أتحيّر حتّى الدّهش في مُحاربة هذه الاكتشافات الجديدة وما في تكذيبها الذي يُعطي صاحبه لقب الكاذب المُغفّل] [4]، ويمضي الشّيخ في تمجيد العلم،

---

(1) النّبأ اليقين عن العَلَويّين: محمُود الصّالح، ص 12.

(2) نسبة هذه الأبيات لابن أبي الحديد ليست مُؤكّدة.

(3) النّبأ اليقين عن العَلَويّين: محمُود الصّالح، ص 16 ـ 18.

(4) ما بعد القمر: للشّيخ أحمد مُحمّد حَيْدَر، ص25 ـ 28.

مُستشهداً بآيات كثيرة من الكتاب العزيز، مُستطرداً في القول بأنَّه: [لا تُصبح العبادة فضيلةً سامية إلاَّ بالعلم، وإنَّ ركعةً من عالمٍ خيرٌ من ألف ركعةٍ من زاهد، فَمَنْ زَعَمَ أنَّ العلم يتنافى مع الدِّين، فقد رضي من العلم مبلغ الرّعاع وحصَّة الأعمى من الشُّعاع][1].

ويذكر الشّيخ حَيْدَر أخباراً مُثيرةً عن هذه الفئة من المشايخ، وكيف أنَّها لم تكتف بإنكار العلم، وإنَّما تفنَّنت في التّحايل إلى مُحاربة التّعليم بين النّاس، وتشجيع الجهل، فيقول: [وقد كُنَّا نُحرِّم عليهم (العوامّ) تعلُّم اللُّغة العَرَبيَّة، وحتَّى القراءة في أيِّ كتاب، إنْ لم يكن مخطوطاً][2].

ويحذق المُجرِّب ينتهي الشّيخ إلى النّتيجة الحَتْميَّة التي يصل إليها شباب حُرِمُوا التَّعرُّف على دينهم إلاَّ ما يُذيعه المشايخ من أنَّه ضدُّ العلم، فتكون الطّامة أنْ ينشأ شبابٌ مُنكرٌ للدِّين، جاحدٌ لقيَمه ومقاصده. يقول الشّيخ في ذلك: [والمُؤسف القاتل أنَّ الشّباب المُثقَّف قلَّما أعطى من وقته شيئاً لفَهْم شيء من كتابٍ أو سُنَّة، وقد ابتلوا منَّا (أيْ من بعض المشايخ) بِمَنْ لا يُعلِّم إلاَّ أنَّ العلمَ ينسف الدِّينَ نَسْفاً، حتَّى لم يُبق منه، ولم يَذَرْ، فحينئذ؛ صار كالمُتَيقِّن أنَّ الدِّينَ خُرافةٌ، وزاده تيقُّناً بظنِّه هذا إفتاء بعضنا بأنَّ العلم يتنافى مع الدِّين][3].

وهي ـ إذنْ ـ تركة ثقيلة، ورثها القوم مُمثَّلة في أحمال التّاريخ وأوزاره من ظُلْمٍ حلَّ بهم، واضطهادٍ وَقَعَ عليهم، وغُلاةٍ يُسيئون بغُلُوِّهم، وجُهلاء يُعطون أسوأ صُورة عن العَلَويَّة كمذهب، وعن العَلَوي كصاحب عقيدةٍ مُنغلقةٍ غاليةٍ خارجةٍ عن الجادَّة، مُتمرِّدة على النّهج القويم، وهُو ـ في حقيقته ـ ليس كذلك، بل هُو أقرب إلى سبيل الإيمان، فما العَلَوي ـ كما يُعرِّفه صاحب النّبأ اليقين ـ إلاَّ كُلُّ إماميّ مُنتسب بولائه للإمام عليّ عليه السّلام[4].

---

(1) المصدر السّابق: ص 31.

(2) المصدر السّابق: ص 129.

(3) المصدر السّابق: ص 136.

(4) النّبأ اليقين عن العَلَويِّين: محمُود الصّالح، ص 136.

التَّوزُّع الجغرافيّ ومواطن انتشار العَلَويِّين:

ذكرنا في البداية أنَّ ألمع رُؤساء العَلَويِّين هُو السَّيِّد حُسَين بن حمدان الخصيبي المصري، الذي تتلمذ على السَّيِّد الجنبلاني في العراق، ثُمَّ رحل إلى حلب سيف الدَّولة الحمداني؛ حيثُ جاوره، واتَّخَذَهَا مقرّاً له، فتكون حلب الشَّهباء هي المقرَّ الأوَّل من النَّاحية الرَّسْميَّة لنشاط الدَّعوة العَلَويَّة، غير أنَّه بزوال الدَّولة الشِّيعيَّة من حلب؛ أيْ دولة بني حمدان وبني مرداس، ومع مُرُور الزّمن ونتيجة لاضطهادات مُتَكَرِّرَة مارسها - فيما بعد - بعض الحُكَّام السَّلاجقة والزّنكيِّين والأيُّوبيِّين، ثُمَّ الأتراك العُثمانيِّين، أخذ ظلُّ الشِّيعة العَلَويِّين يتقلَّص في حلب؛ بحيثُ لايكاد يسكنها منهم في أيَّامنا هذه غير عددٍ قليل، وإنْ كان عددٌ منهم يعيش في منبج والباب وسروج من أعمال حلب.

لكنَّ التّواجد الأساسي للعَلَويِّين هُو في المنطقة السَّاحليَّة، والمنطقة التي تقع إلى غرب حماة وحمص حتَّى السَّاحل؛ وفيها سلسلة الجبال التي تُعرف باسمهم؛ أيْ جبال العَلَويِّين، ففيها مناطق عَلَويَّة صرفة؛ بحيثُ أنَّ نسبة غير العَلَويِّين في أغلب بُلدانها لا تزيد كثيراً على عشرة في المائة، فمن هذه البلاد اللاَّذقيَّة وجَبْلَة وبانياس والعُمرانيَّة وصافيتا وتلكلخ، هذا؛ فضلاً عن القُرى الكثيرة التي تُحيط بتلك البلاد، والتي يصعب حَصْرُها في هذا المقام.

فإذا اتَّجهنا شمالاً في هذه المنطقة السَّاحليَّة دَخَلْنَا الحُدُود التُّركيَّة، وصرنا في منطقة لواء الإسكندرون، الذي اقْتَطَعَتْهُ فرنسا من سُوريَّة، وَمَنَحَتْهُ لتُركيا، فهذا اللِّواء - أيضاً - يضمُّ في مناطقه السَّاحليَّة نسبة كبيرة من العَلَويِّين، يُشَكِّلون في بعضها الغالبيَّة، كما في مُدُن مثل الإسكندرونة وأنطاكية وأرسُوز (التي غيَّر الأتراك اسمها إلى أولوجينار) وغيرها.

فإذا واصلنا شمالاً وإلى الغرب من خليج الإسكندرون صرنا في مناطق تُركيَّة صرفة، فيها مُدُنٌ كبيرة نسبيّاً مثل أطنة (أو أضنة) وطرسوس، وغيرهما، وهي عامرة - بدورها - بعددٍ وفيرٍ من العَلَويِّين استقرّوا فيها مُنذُ زمن غير بعيد.

الشِّيعة الإسماعيليَّة:

تَفَرَّعَتْ الإسماعيليَّة عن حركة التَّشيُّع الإمامي مُنذُ سنة 148 هـ / 765م، وظلَّت تنمو في اتِّجاهات مُتعدِّدة عقائديَّة وسياسيَّة واجتماعيَّة مُتباينة، وقد تميَّز كُلُّ اتِّجاه منها باستقلال ذاتيٍّ مع ارتباطه بجُذُوره التَّاريخيَّة التي يتَّفق فيها مع الإماميَّة الاثنَيْ عشريَّة في أصل موضوع الإمامة، والوصيَّة، وصفات الإمام، وتسلسل الأئمَّة حتَّى الإمام السَّادس جَعْفَر بن مُحمَّد الصَّادق. ظهرت هذه الفرقة بعد وفاة الإمام جَعْفَر الصَّادق (80 ـ 148 هـ / 699 ـ 765م)، بسبب خلاف حول شَرْعيَّة مَنْ يخلفه في الإمامة. وكان جَعْفَر قد نصَّ على إمامة ولده البكْر إسماعيل من بعده، بيد أنَّ إسماعيل تُوفِّي في المدينة المُنوَّرة في حياة أبيه ـ في أكثر الرِّوايات ـ سنة 143 هـ/ 760م، ودُفن في البقيع، ونظَّم والده في وفاته محضراً شَهِدَهُ أميرُ المدينة، وقد اختار الإمام جَعْفَر الصَّادق أنْ يحلَّ محلَّ ابنه البكر المُتوفَّى، في الإمامة، ابنُهُ الثَّاني مُوسَى الكاظم (127 ـ 183 هـ / 745 ـ 799م)، وقَبِلَ جُمهُور الشِّيعة بهذا التَّرتيب، وسار عليه، وامتنعتْ فئةٌ منهم لم تسلِّم بصحَّة نَزْع الإمامة من إسماعيل، أو انتقالها إلى مُوسَى؛ لأنَّه لا يجوز انتقال الإمامة من أخ إلى أخيه بعد الحَسَن والحُسَين ابنَيْ عليِّ بن أبي طالب رضي اللَّه عنه، ويكون انتقالها ـ أيْ الإمامة ـ إلى الأبكار من الذُّكُور، وبذلك؛ يكون الإمام ـ بعد وفاة إسماعيل ـ ابنُهُ مُحمَّد، وَوَرَثَته من بعده، وهؤلاء هُم الإسماعيليَّة. وتُعَدُّ الإسماعيليَّةُ من الفرَق الباطنيَّة لاستنادها إلى التَّأويل والفلسفة، فهي فرقةٌ شيعيَّةٌ إماميَّةٌ عَلَويَّةٌ فاطميَّةٌ باطنيَّةٌ.

ولقد كان هذا الانشعاب أهمَّ ما وَقَعَ من الانقسامات في صُفُوف الشِّيعة، ليس فقط لأنَّ طائفة الإسماعيليَّة لا يزال أتباعها إلى اليوم، ولكنْ؛ لأنَّها تمكَّنت أنْ تُقيم دولةً كانت في وقت ما أكبرَ الدُّويلات التي نشأت في العصر العبَّاسي الثَّاني، وأعني بها "الدَّولة الفاطميَّة".

وقد شهدت الإسماعيليَّة ـ مُنذُ نشأتها ـ انشقاقات مُتتابعة ولَّدت طوائفَ وجماعات عدَّة انفصلت بعضها عن جسم الفرقة انفصالاً تامّاً، ونَهَجَ بعضها الآخر نَهْجَ الإسماعيليَّة، مع إدخال بعض التَّعديل والتَّغيير في النُّظُم والمذهب. ولتعدُّد أسماء الإسماعيليَّة، وتباين نُعُوتها، وكَثْرة شُعبها وفُرُوعها أسبابٌ كثيرةٌ فَرَضَتْهَا المُعطياتُ التَّاريخيَّةُ التي رَبَطَتْ بينها

أواصر الدّعوة، وفَرَّقَتْ شَمْلَهَا مُلابساتُ الوقائع، وإراداتُ الأشخاص وتأويلاتهم، وكانت طوائفهم في البدء على مذهب أئمَّتهم في الأُصُول، ثُمَّ لَمَّا اختلفت الرّوايات عن الأئمَّة، وتمادى الزّمان، اختارت كُلُّ طائفة منهم طريقها.

وقد يكون من الصّعب ـ لأسبابٍ كثيرة ـ تتبُّع الصّيَغ المُتباينة التي اضطلع بها النّشاط الإسماعيلي الرّامي إلى تحقيق نجاحٍ سياسيٍ مُواكبٍ للعقيدة المذهبيَّة، بيد أنَّه من الجائز لَمُّ شَعَث هذا المسعى الوسيع في وقائع سبقت قيام الدّولة الفاطميَّة الإسماعيليَّة، ثُمَّ واكبتها وتلتها، ومازالت إلى اليوم.

الخلفيَّة السِّياسيَّة للتّشعُّب الإسماعيلي عن التّيَّار الإمامي:

ليست خُطُورة الانشقاق بين الاثنَيْ عشريَّة والإسماعيليَّة راجعة إلى مُجرَّد الخلاف حول الإمامة بعد الصّادق أو في حياته: هل هي في إسماعيل أم هي في أخيه مُوسَى؟ ذلك أنَّ الاختلاف بين الطّائفتَيْن في العقائد ليس مُجرَّد خلاف حول شخصَيْن، أو إمامة أحد أخوَيْن؛ لأنَّ من الخطأ نسبة الحركات إلى أشخاص، دُون إدراك الخلافات الجَذْريَّة وراء الأشخاص، وظُهُور طائفة الإسماعيليَّة يرجع ـ في الواقع ـ إلى عوامل كثيرة تتعدَّى كثيراً مُجرَّد اتِّهام إسماعيل بشُرب الخمر ـ كما في بعض الرّوايات ـ أو وفاته في حياة أبيه ـ كما في روايات أُخرى ـ، ويبدو أنَّه لا يُمكن الفَصْل بين ظُهُور طائفة الإسماعيليَّة وقيام الدّولة العبَّاسيَّة التي قامت تحت ادِّعاء أحقِّيَّة أهل البيت في الخلافة، ثُمَّ تمكَّن أبناء العبَّاس أنْ يستأثروا بالأَمْر دُون العَلَويِّين، وكان الصّادق الذي عاصر هذا التّحوُّل الخطير ـ بكُلِّ ما يتضمَّنه من خيبة أمل كُبرى للعَلَويِّين ـ يُحاول جاهداً الابتعاد عن التَّيَّارات السِّياسيَّة، وأكاد أظنُّ أنَّ خيبة أمل العَلَويِّين بقيام الدّولة العبَّاسيَّة لم تكن أقلّ صدمة عليهم من خيبة أملهم باعتلاء مُعاوية الحُكْم من قبلُ؛ لأنَّ الأَمْر ـ حسبما يبدو ـ أنَّ العبَّاسيِّين قد جنوا ثمرة كفاح العَلَويِّين.

ومن ناحية أُخرى؛ فإنَّ الدّعوة العبَّاسيَّة كانت تُنادي بالمُساواة بين العَرَب والموالي في الوظائف والعطاء، والرُّجُوع إلى الكتاب والسُّنَّة، ونَشْر العَدْل بين النّاس، ولكنَّ ذلك المَثَل الأعلى للعدالة والمُساواة ـ الذي انتظره النّاس من العبَّاسيِّين ـ قد أصبح وَهْماً من الأوهام [1]،

(1) مُحمَّد كامل حُسَين: طائفة الإسماعيليَّة، ص 14.

فشراسة أبي جَعْفَر المنصور وهارون الرّشيد وجَشَعهم، وجور أولاد عليّ بن عيسى، وعَبَثهم بأموال المُسلمين، يُذكّرنا بزمن الحجّاج وهشام بن عبد الملك ويُوسُف بن عُمر الثقفي [1]، وعمَّ الاستياءُ أفرادَ الشّعب بعد أنْ استفتح أبو عبد اللَّه المعروف بالسَّفّاح، وكذلك أبو جَعْفَر المنصور المعروف بالدّوانيقي، افتتحوا مُلْكهم بالإسراف في سَفْك الدّماء على نحوٍ لم يُعْرَف من قبلُ، حتّى قال الشّاعر:

يا ليتَ جورَ بني مروان عادَ لنا　　　يا ليتَ عَدْلَ بني العبّاس في النّار

بل إنَّ دوائر أهل السُّنَّة ـ التي عُرفت بالاعتدال ـ قد عبّرت ـ بوُضُوح ـ عن عدم رضاها بحُكْم السَّفّاح والمنصور، وما استهلاّ به حُكْمهما من مظالم وإراقة دماء، فالإمام "مالك بن أنس" أفتى بأحقِّيَّة مُحمَّد النَّفْس الزكيَّة شَرْعاً في الخلافة بمُقتضى العهد الذي كان بينه وبين العبَّاسيّين، كما كان يُكرِّر الإفتاء بأنْ ليس لمُستكرَه يمين، يُعرِّض ـ بذلك ـ ببَيْعَة النّاس للمنصور العبَّاسي التي تمَّت بالخوف والإكراه، بأنّها لا اعتبار لها، ممَّا كان يُشجِّع المُتردِّدين بسبب تلك البَيْعَة على نَبْذها، والخُرُوج مع مُحمَّد النَّفْس الزكيَّة، الأمْر الذي كلَّف الإمام مالك بن أنس الاعتقالَ من قِبَل الوالي العبَّاسي على المدينة، وضُربَ حتَّى خُلعت كتفه، أمَّا الإمام "أبو حنيفة"؛ فإنَّه رفض تولِّي القضاء للمنصور، وأيَّد خُرُوج مُحمَّد النَّفْس الزكيَّة وأخيه إبراهيم على المنصور، ممَّا كلَّفه السّجن الذي بقي فيه حتَّى الوفاة.

أمَّا سُخط العَلَويّين؛ فقد عبَّر عنه مُحمَّد النَّفْس الزكيَّة بقوله: «لقد كُنَّا نقمنا على بني أُميَّة ما نقمنا، فما بنو العبَّاس إلاّ أقلُّ خوفاً للّه منهم، وإنَّ الحُجَّة على بني العبَّاس لأوجب منها عليهم، ولقد كان للقوم أخلاقٌ ومكارم وفضائل ليست لأبي جَعْفَر المنصور» [2].

كان قيامُ الدّولة العبَّاسيَّة ـ إذنْ ـ نكبةً على الشّيعة، ولم يكن من اليسير أنْ يتحمَّلوا كُلَّ ما تحمَّلوه من مظالم الأُمويّين وطُغيانهم، لتقوم ـ بعد ذلك ـ دعوةٌ باسمهم، تنزع حقَّهم، ثُمَّ يمضون في صبرهم، مُكتفين بما أعدَّه الصّادق ومَنْ سَبَقَهُ من أئمَّة، من إمامة رُوحيَّة. كان التيَّار ـ إذنْ ـ جارفاً وأقوى ممَّا تتحمَّله شخصيَّة الصّادق وإمامته الرُّوحيَّة، وقد نُسب إلى

(1) فان فلوتن: السّيادة العَرَبيَّة والشّيعة، والإسرائيليَّات: ص 132.

(2) المصدر السّابق: ص 193.

الصّادق أنّه كان دائماً يعظ ابنه إسماعيل قائلاً: إنّي كثيراً ما أقول لكَ: الْزَمْني، وخُـذْ منّي، ولا تفعلْ![1]، أمّا هذا الذي كان إسماعيل يعصي فيـه أباه؛ فهُو وثيق الاتّصال بالحركات الثّوريّة ضدّ الدّولة العبّاسيّة، يقول لويس برنارد: إنّ إسماعيل كان ذا صلة وثيقـة بالأوساط المُتطرّفة والثّوريّة التي أوجدت الفرقة المُسمّاة باسمه، وقد عَزَلَهُ جَعْفَـر لهذه الصّلـة، وإنّ أبا الخطّاب وإسماعيل قد سَعَيَا إلى خَلْق فرقة شيعيّة ثوريّة تجمع كُلّ الفرَق الشّيعيّة الصُّغرى على إمامة إسماعيل وذُرّيّته.

أمّا أبو الخطّاب؛ فقد كان من أخلص المُقرّبين إلى الصّادق، لكنْ؛ ـ حسب رواية أعداء الإسماعيليّة من سُنّيّة واثنَيْ عشريّة ـ غلا في الصّادق، وادّعى أُلُوهيّته، فتبرأ منه، وبعد مقتل أبي الخطّاب تحوّل أتباعه إلى القول بإمامة مُحمّد بن إسـماعيل، وكـان ميمـون القـدّاح الـذي تُنسب إليه طائفة من الإسـماعيليّة تابعاً لأبي الخطّاب[2]، ولـذا؛ فإنّ الأخير يحتـلُّ مقاماً خطيراً في الدّعوة الإسماعيليّة. لذا؛ فإنّ خَلْعَ الصّادق لابنه إسماعيل ـ حسـب رواية الاثنَـيْ عشريّة ـ ليس مُنفصـلاً عـن حركـة أبـي الخطّـاب، ولـم يكـن ذلـك كُلُّـه بمَعْـزل عـن التّيّـارات السّياسيّة والحركات الثّوريّـة ضـدّ الدّولـة العبّاسـيّة آنـذاك، ولا سيما أنّ تلـك الحركـات كـان ينقصها القيادة والتّوجيه من أحد الأئمّة بعد الضّربات القاصمة التي لحقت بالزّيديّة بعد مقتـل مُحمّد النّفْس الزكيّة، والقضاء على أتباعه، فتوافر ذلك ـ بأسـلوب مُخـالف لمـا اتّبعـه مُحمّـد النّفْس الزكيّة من عداء عَلَني ـ في إسماعيل بن جَعْفَر.

وهكذا تعذّر على المذهب الإمامي أنْ يحتفظ بتكامُله الفكـري والعقـائدي بـالرّغم مـن شخصيّة الصّادق القويّة المُحافظة على وَحْدَة المذهب وكيانه أمام صدمـة الشّـيعة العنيفـة التي أفْقَدَتْهُم توازُنَـهم بتولّي العبّاسيّين الحُكْم، فكـان ذلـك الانشـقاق الـذي بَـدَتْ بـوادره بـين إسماعيليّة تنهج نَهْجَ الحركات السّرّيّة من أجل تحقيق أهداف سياسيّة، وبين اثنَيْ عشريّة تُتابع نَهْجَ الإمامة الرُّوحيّة، أو ـ بالأحرى ـ بين إسماعيل بن جَعْفَر ومُوسَى الكاظم[3].

---

(1) المسعودي: إثبات الوصيّة، ص 187.

(2) لويس برنارد: أُصُول الإسماعيليّة، ص 145.

(3) نَظَريّة الإمام لدى الشّيعة الاثنَيْ عشريّة، تحليل فلسفي للعقيدة: للدّكتُور أحمد محمُود صُبحي، ص380 ـ 383.

الاختلافات الأُولى:

انطلقت حركة التَشيُّع من أنَّ الخلافة والإمامة حقٌّ لعليّ بن أبي طالب، وللذُّرِّيَّة من أولاد فاطمة بن مُحمَّد (صلَّى اللَّه عليه وآله وسلَّم). ويستند أنصار هذه الحركة ومُنظِّروها إلى نصٍّ صريح يقولون إنَّه أُعلن جهاراً في غدير خم. وقد ناضل أبناء عليّ وأحفاده من أجل هذا الحقّ، ودفعوا في ذلك ثمناً باهظاً، واتَّفقوا على تَتَابُع الإمامة بعد عليّ في ابنَيْه من فاطمة الزّهراء الحَسَن، ثُمَّ الحُسَين، ثُمَّ في زين العابدين عليّ بن الحُسَين، ثُمَّ في مُحمَّد الباقر بن عليّ، ثُمَّ في جَعْفَر الصّادق بن مُحمَّد؛ وهُو الإمام السّادس. واتَّفقوا - كذلك - على أنْ تنتقل الإمامة - بالنَّصِّ الصّريح - من الإمام إلى أحد أبنائه. وقد نصَّ الإمام جَعْفَر الصّادق على ابنه البكر إسماعيل إماماً من بعده، ولكنَّ إسماعيل تُوفِّي في حياة والده - حسب الرّواية الإماميَّة - فرأى الإمام الصّادق، بعد وفاة إسماعيل المُبكِّرة، أنْ يسوق الإمامة إلى ابنه الآخر وأخ إسماعيل الأصغر: مُوسَى بن جَعْفَر الكاظم. لكنَّ فئة من أنصار "إسماعيل" لم تقبل بهذا الحلّ، وأنكرت جماعة من تلك الفئة وفاة إسماعيل في حياة أبيه وقالت: «إنَّ أباه خاف عليه، فَغَيَّبَهُ» كي لا يقع في أيدي العبَّاسيِّين، وإنَّ إسماعيل هُو الإمام السّابع، وقد توقَّفت الإمامة عنده، وهؤلاء هُم الواقفيَّة. واستدلَّ هؤلاء على عدم موت إسماعيل في حياة أبيه بعدَّة دلالات يذكرونها في كُتُبهم: منها أنَّ أخاه مُحمَّداً الذي كان صغيراً، مضى إلى السّرير الذي كان إسماعيل نائماً عليه، ورَفَعَ الملاءة، فَأَبْصَرَهُ، وقد فَتَحَ عينَيْه، فعاد إلى أبيه خائفاً، وقال: عاش أخي، عاش أخي. فقال والده: إنَّ أولاد الرّسول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) كذا تكون حالهم في الآخرة. ومنها: نفس السّبب في الإشهاد على موته وكتاب المحضر عنه، فقالوا: لم نعهدْ ميِّتاً سجِّل على موته غيره، والهدف التّغطية على حياته. وقالوا: إنَّ إسماعيل بن جَعْفَر قد رُؤي بالبَصْرَة، بعد موته، وقد مرَّ على مُقْعَد، فَدَعَا له، فبرئ بإذن اللَّه تعالى؛ فَبَعَثَ المنصورُ العبَّاسيُّ إلى والده جَعْفَر الصّادق: إنَّ إسماعيل بن جَعْفَر في الأحياء، وإنَّه رُؤي بالبَصْرَة، فأنفذ السّجلَّ إليه، وعليه شهادة عامله بالمدينة.

وقال آخرون: إنَّ مُحمَّد بن إسماعيل هُو الإمام السّابع، وقد انتقلت الإمامة إليه بالإرث؛ لأنَّ إسماعيل مات في حياة أبيه، وإنَّما فائدة النَّصّ على إسماعيل انتقال الإمامة

منه إلى ولده؛ لأنّه لا يجوز الرُّجُوع عن النَّصّ، وهذا كما نصّ نبي الله مُوسَى عليه السّلام على أخيه هارون عليه السّلام، فمات هارون في حياة أخيه مُوسَى، فصارت الإمامة في ذُرِّيّة هارون (اللاَّويين)؛ لأنَّ نَصّ الصّادق ـ مُنذُ البداية ـ على إمامة إسماعيل لا يرجع القَهقَرَى، والقول بالبداء مُحال. ولا ينصُّ الإمام على واحد من أولاده إلاَّ بعد السّماع من آبائه. والتّعيين لا يجوز على الإبهام والجهالة. لذلك؛ فإنَّ إسماعيل نَصّ على إمامة ابنه مُحمَّد بن إسماعيل وهُو الإمام السّابع التَّامّ، ومنه؛ ابتُدئ بالأئمَّة المستورين. وقالوا: إنَّ الأئمَّة تدور أحكامهم على سبعة أيَّام كأيَّام الأُسبُوع، والسّموات السّبع، والكواكب السّبعة، والأراضين السّبع، وأعضاء الإنسان سبعة، والنّقب في الرّأس سبعة، إلى غير ذلك. كما قالوا: إنَّ النُّقباء تدور أحكامهم على اثنَيْ عشر نقيباً. وهؤلاء هُم المُباركيَّة؛ نُسبة إلى مُبارك مولى إسماعيل.

وأنكرت طائفة ثالثة موت مُحمَّد بن إسماعيل في دور السّتر الذي بدأ به، وسُمِّيَ "مكتوماً"، وقالت: إنَّه سابع الأئمَّة وآخرهم، وقد تمَّ دور السّبعة به، فَسُمِّي "تامَّاً"، وإنَّه سوف يعود يوم الحساب، ليملأ الأرض عدلاً، وهؤلاء هُم السَّبُعيَّة. وشذَّت جماعة أُخرى عُرِفت باسم القرامطة، وكانت على مذهب المُباركيَّة، ثُمَّ خالفتهم، وقالت: لا يكون بعد مُحمَّد النّبي (صلَّى اللَّه عليه وآله وسلَّم) إلاَّ سبعة أئمَّة. وإنَّ مُحمَّد بن إسماعيل هُو الإمام القائم المهدي، وآخر أُولي العزم، ومعنى القائم ـ عندهم ـ أنَّه يُبعث بالرّسالة وبشريعة جديدة. أمَّا أُولُو العزم؛ فسبعة، وهُم: نُوح، وإبراهيم، ومُوسَى، وعيسى، ومُحمَّد، وعليّ، ومُحمَّد بن إسماعيل، وذلك يُضاهي أنَّ السّموات سبع، والأرضين سبع. أمَّا جُمهُور الإسماعيليَّة؛ فقالوا باستمرار الإمامة، وانتقالها في ذُرِّيَّة إسماعيل إلى يوم الدِّين.

ولأنَّ العبَّاسيِّين كانوا جادِّين في الإيقاع بورَثَة عليّ من آل البيت، وبأتباعهم، فقد أخذت الإسماعيلة بالتَّقيَّة، وأمَرَتْ أتباعها بالتَّخفِّي والاستتار، إلى أنْ يحين الوقت ـ نَظَريَّة الإمام المُستقَرّ والإمام المُستودَع، التي قال بها مُعتدلو الإسماعيليَّة ممَّنْ لم يعترض على إمامة مُوسَى بن جَعفَر في حياة أبيه، ووَصَفوه بأنَّه إمامٌ مُستودَع شأنه شأن الحَسَن بن عليّ بن أبي طالب الذي لم يُورِّث الإمامة أبناءه، ووَرَّثَها الحُسَين سيِّد الشّهداء الإمام المُستقَرّ الذي أورث

ابنه عليّ بن الحُسَين زين العابدين الإمامة. وكذلك حال إسماعيل بن جَعْفَر الذي أورث الإمامةَ وَلَدَهُ مُحمَّداً.

إنَّ الحديث عن أئمَّة دور السّتر شاقٌّ عسير؛ لأنَّ هذه المرحلة تنطوي على غُمُوض شديد. ويندر العُثُور على مُؤرِّخ، من غير الإسماعيليَّة، اهتمَّ بأمر هؤلاء في هذه الحقبة، وأمَّا كُتَّاب الإسماعيليَّة؛ فكانوا يَتَحَدَّثُون عنهم رمزاً من غير تصريح، ويُسمُّون إمامهم: إمام الزّمان، بسبب التَّكتُّم الشّديد الذي فَرَضَهُ الأئمَّة ونُوَّابهم وحُجَجهم ودُعاتهم عملاً بمبدأ "التَّقيَّة"، وخوفاً من بطش أُولي الأَمْر في السُّلطة. وكثيراً ما كان الأئمَّة يتَّخذون أسماءً مُستعارةً، ويتسمَّى بها نُوَّابهم ورُؤساء دُعاتهم، ويتفرَّقون في البلاد إمعاناً في التّغطية، فلا يُعرف أيُّهم الإمام، ولا أين يُقيم إلاَّ قلَّة موثوقة. وكان الاتِّصال بالإمام لا يتمُّ إلاَّ عن طريق مَنْ ينوب عنه الذي سمّوه "الحُجَّة" أو "الحجاب"، يليه في المرتبة رُؤساء الدُّعاة المسؤولون عن الأقطار، وكان هؤلاء يُرسلون الدُّعاة المُلحقين بهم، لنَشْر الدّعوة في أرجاء البلاد، مُتخفِّين في أزياء التُّجَّار والدّراويش والمُتصوِّفة ورجال الدِّين، ولكُلٍّ داعية منهم أتباع مُتدرِّجون في المراتب والدّرجات بتنظيمٍ دقيقٍ وترتيبٍ مُحكم.

ظلَّ أئمَّة الإسماعيليَّة مُستترين حتَّى ظُهُور عُبيد الله المهدي مُؤسِّس الدّولة العُبيديَّة الفاطميَّة. وتوالى على منصب الإمامة في دور السّتر - كما تتَّفق أكثر الرّوايات - أربعة أئمَّة.

بيد أنَّ هذه الرّوايات تختلف في ترتيب هؤلاء الأئمَّة وفي أسمائهم وتواريخ وفيَّاتهم، وتتَّفق كُلُّها على أنَّ أوَّلهم: "مُحمَّد بن إسماعيل"، ووفاته بالأهواز سنة **193** هـ/ **809** م.، وأنَّه أوصى بالإمامة من بعده لابنه، وهُو "عبد الله الرّضيّ" (في أكثر المصادر)، الذي انتقل بالدّعوة إلى بلدة "سَلَمية" في سُوريَّة، سنة **208** هـ، واتَّخَذَهَا دار هجرته، وشَرَعَ في تنظيم شُؤُون الدّعوة بحَذَر شديد، وكان يدعو الأنصار والمُستجيبين إلى "سَلَمية" لتدريبهم وتفقيههم في المذاهب، حتَّى غصَّت البلدة بهم، وتحوَّلت إلى مركز إشعاع دينيّ إسماعيليّ المذهب. ونَبَغَ من الدُّعاة نَفَرٌ بلغوا أعلى المراتب في سُلَّم الرّئاسة، وكان لهم شأن في نَشْر الدّعوة، من جهة، وفي الانشقاقات الكثيرة التي حَدَثَتْ بعد ذلك في جسم الحركة الإسماعيليَّة.

وكانت وفاة عبد الله الرّضيّ نحو سنة 212 هـ/ 827 م، ودُفن في سَلَمية، ونَصّ على إمامة ابنه "أحمد الوفي (أو التّقي)"، وكان مُولعاً بالمعرفة والتّأليف، وهُو أحد مَنْ يُنْسَب إليهم تصنيف "رسائل إخوان الصّفا وخلاّن الوفا" وهي اثنتان وخمسون رسالة في مُختلف العلُوم وفُنُون الحكَم وطرائف الأدب وحقائق المعاني، وربَّما شارك في وَضْعها عدد من فلاسفة الإسماعيليَّة وفُقَهَائهم، ولخَّصها الإمام أحمد في رسالة واحدة سمَّاها "الرّسالة الجامعة". وفي عهد أحمد الوفيّ هذا، (ت 229 هـ) وابنه "حُسَين التّقيّ" الذي وُلد في سَلَمية، وصار إماماً للإسماعيليَّة بعد وفاة أبيه، بلغت الدّعوة الإسماعيليَّة أوجَ انتشارها في زمن السّتر، فكان دُعاتها مُنتشرين في سواد العراق، وبلاد العجم، وفي البحرين، والإحساء، وعُمان، واليمن، ومصر، والمغرب.

سلسلة أئمّة الشّيعة الإسماعيليَّة المستورين بعد إمامهم السّادس جَعْفَر الصّادق، وحتّى بدء سلسلة الأئمّة الفاطميِّين:

(7) الإمام إسماعيل بن جَعْفَر.

(8) الإمام مُحمَّد بن إسماعيل (تُوفِّي في الأهواز 193 هـ).

(9) الإمام عبد الله الرّضي (تُوفِّي في السّلَمية 212 هـ).

(10) الإمام أحمد الوفيّ (أو التّقيّ) (تُوفِّي في السّلَمية 229 هـ).

(11) الإمام حُسَين التّقيّ.

. . . .

الخُلفاء الفاطميُّون وأوَّلهم:

الإمام عُبيد الله المهدي

الانشقاقات الأُولى:

لم تتورَّط الحركة الإسماعيليَّة ـ مع عدم توافُر الشُّرُوط المناسبة في بدء انتشار الدّعوة ـ في عملٍ ثوريٍّ مُباشر تتحمَّل أعباءَه عَلَنَاً، بل سَعَتْ إلى الإفادة من بعض القوى التي كانت

تدَّعي مُوالاتها، أو تأثَّرت بها، فقد انتسبت - أو نُسِّبَت - إلى الدّعوة الإسماعيليَّة حركات كثيرة كانت تُناوئ السُّلطة العبَّاسيَّة لسبب أو لآخر، وتمَّ تصنيفها بين الحركات الإسماعيليَّة لشُهرة هذه وسريَّتها وتبنِّيها بعض أفكار الإسماعيليَّة، ويُثبت ذلك وُجُود كثير من الشّخصيَّات التي يُعْزى إلى كُلٍّ منها انتماؤها إلى أكثر من فرقة، وتُطلَق عليها أسماء ونُعُوت مُختلفة. كذلك؛ فإنَّ تغيُّر الأئمَّة بالوفاة في دور السّتر وتغيُّر حُجَجهم أو نُوَّابهم وغير ذلك من الأُمُور التي تُوجب تعديلاً في سياسة الدّعوة، في ظلِّ التَّكتُّم الشّديد، إضافة إلى بُعْد المواصلات واضطراب الأحوال، كُلُّ ذلك كان يفرض استقلال الدّاعي في منطقة عمله استقلالاً نسبيّاً، ومُمارسته نشاطه بحسب ما يتوافر لديه من مُعطيات، وتعليله الأُمُور كما يراها من منظاره الخاصِّ، وتفرضه أحوال البيئة والمُتعاملين معه. وقد يجد هذا الدّاعي نفسه مع الأيَّام على خلاف مع قيادته، أو تجد القيادة أنَّ ما يدعو إليه مُخالف لها، فلا ترضاه، وتكون النّتيجة طَرْده من الدّعوة، أو انشقاقه عنها. وقد اشتهر من الدُّعاة الإسماعيليَّة، أو مَنْ يُنْسَب إليها منهم في هذه المرحلة، رجال بلغوا أعلى المراتب في سُلَّم الدّعوة، ومنهم مَنْ انشقَّ عن الدّعوة أو نشط تحت لوائها، وفيهم مَنْ ادَّعى الإمامة لنفسه، وزعم أنَّه من ولد مُحمَّد بن إسماعيل، ليضمن ولاء أتباعه. ومن أشهر هؤلاء الدُّعاة "عبد الله بن ميمون القدَّاح" (ت 180 هـ)، و"الحُسَين الأهوازي"، و"عبد الله بن سعيد بن الحُسَين القرمطي"، و"عبد الله بن حمدان"، و"حمدان بن الأشعث" المعروف بقرمط، و"الحُسَين ابن جهاريختان المُلقَّب بدندان"، و"زكرويه بن مهرويه"، و"أبو سعيد الجنابي"، و"عليّ بن الفضل"، و"منصور اليمن"، و"أبو عبد الله الشِّيعي"، وغيرهم.

ويبدو أنَّ أُسرة القدَّاح كان لها الدّور الأكبر في تنظيم الدّعوة الإسماعيليَّة وانتشارها، وكان "ميمون بن ديصان القدَّاح" (ت: أواخر ق 2 هـ)، الذي عاصر جَعْفَراً الصّادق وابنه إسماعيل، من أوائل مُنظِّري الإسماعيليَّة، وقد مَهَّدَ السّبيل لابنه "عبد الله بن ميمون" لرئاسة الدّعوة، وقد حظي عبد الله هذا برفد "مُحمَّد بن حُسَين بن جهاريختان"، وكان واسع النُّفُوذ والثّراء في السّواد، فخرج معه إلى البَصْرَة وسواد الكُوفة، وبَثَّ فيها الدُّعاة، وتَقَوَّى بالمال، ولكنَّ وُلاة العبَّاسيِّين تعقَّبوه، فلجأ إلى "سَلَمية"، مُلتحقاً بالإمام الإسماعيلي المستور، وأقام

فيها إلى وفاته. وتُشير مصادر الإسماعيليَّة إلى أنَّ كُلَّ إمام ـ مُنذُ أيَّام مُحمَّد بن إسماعيل ـ قد اتَّخَذَ لنفسه حجاباً من أُسرة القدَّاح هذه. ومع أنَّ بعض هذه المصادر يُوحي بأنَّ مهمَّة آل القدَّاح انتهت في "سَلَمية"، وأنَّ الأئمَّة اتَّخَذوا حُجَّابهم من أهلهم، فإنَّ أكثرها يُؤكِّد استمرار آل القدَّاح في مناصبهم، وأنَّ كُلَّ إمام من الأئمَّة كان يتَّخذ من أحد أُخواته إماماً مُستَوْدعاً، وأنَّ وُجُود إمام مُستقَرٍّ، وإمام مُستودَع، كان لغايات أمنيَّة، أو أسباب صحيَّة، أو لغير ذلك، ويبدو أنَّ بعض الأئمَّة المُستودَعين كان يطمح إلى منصب الإمام المُستقَرّ. وفي ذلك إشارة إلى انقسامات داخليَّة خطرة في بيت الإمامة، يُمكن ـ في ضوئها ـ تفسير المشاكل التي اعترضت سير الدّعوة في أواخر القرن الثّالث للهجرة، ولاسيما في المرحلة الأخيرة من دور السّتر، وقبل ظُهُور "عُبيد الله المهدي"، وقيام الدّولة الفاطميَّة، ومنها علاقة الإسماعيليَّة بالقرامطة، أو العكس.

القرامطة وخُرُوجهم عن الإسماعيليَّة الشَّرْعيَّة:

بدأت الدّعوة الإسماعيليَّة في أواخر حياة جَعْفَر الصّادق، أو بعد وفاته سنة 148 هـ، حين تُنوزع على الأحقّ بالإمامة من بعده، ولعلَّ أوَّل فرقها المُباركيَّة، التي سبقت الإشارة إليها. ولم تُسجِّل المصادر التّاريخيَّة أيَّ نشاط ذي شأن لهذه الجماعة حتَّى مُنتصف القرن الثّالث للهجرة، عندما ظهرت فجأةً في مُختلف مناطق العالم الإسلامي حَرَكَاتٌ ثوريَّة تتَّفق جميعها على إمامة مُحمَّد بن إسماعيل بن جَعْفَر الصّادق، وعلى تسلسل الأئمَّة الذي قالت به الإسماعيليَّة الأُولى. فَظَهَرَتْ في جنوب العراق دعوة إسماعيليَّة سنة 261 هـ، كان زعيمها "حمدان قرمط" و"عبدان"، وبعد ذلك بقليل؛ استقرَّت جماعة من الإسماعيليَّة في البحرين والأحساء بزعامة "أبي سعيد الجنابي"، وتزعَّم كُلٌّ من "عليّ بن الفضل" و"الحَسَن بن أبي الفرج المعروف بابن حوشب" حركة مُماثلة في اليمن.

والفكْرة السّائدة في أكثر المصادر، ومنها المصادر الإسماعيليَّة، أنَّ القرامطة فرقة إسماعيليَّة قامت على أساس إسماعيليّ صرف، ثُمَّ خالفت فيما بعد، وتفرَّقت إلى جماعات، كان يربط بينها هَدَفٌ عامٌّ مُشتركٌ هُو إقامة دولة ينطلق منها دُعاة الإسماعيليَّة إلى مُختلف أصقاع الدُّنيا، ولكُلٍّ منها أهداف خاصَّة كان يسعى إليها كُلُّ قائد من قوَّادها،

والرّأي السّائد أنّ حركة القرامطة بدأت في سواد العراق، ثُمَّ انطلقت إلى الشّام، وارتدّت بعدها إلى العراق، ثُمَّ إلى الأحساء، وكانت اليمن مركزاً آخر من مراكز الدّعوة، ومن هُناك انتقلت إلى شمالي إفريقيا، على يد "عبد الله بن عليّ الحلواني" و"أبي سُفيان الدّاعي" و"أبي عبد الله الشّيعي".

الحوشبيَّة:

هي دعوة إسماعيليَّة صاحبها الدّاعي "أبو القاسم الحَسَن بن فرج بن حوشب بن زادان الكُوفي النَّجّار المُلقَّب بمنصور اليمن" (ت 302 هـ/ 913م)، بَعَثَ به الإمام الحُسَين بن أحمد الوفي، وحُجَّته أحمد بن عبد الله بن ميمون القدّاح إلى اليمن سنة 266 هـ، بصُحْبة "عليّ بن الفضل"، فدخلاها سنة 268 هـ، وتوجَّه ابن حوشب إلى "عدن لاعة" على جبل مسور شمال صنعاء، واتَّخَذَهَا دار هجرته، وتلقَّب بالمنصور، وسار ابن الفضل إلى جند، ومنها إلى "أبين" وجبال يافع، واتَّخَذَهَا دار هجرته، وأظهر الاثنان التَّقشُّف والزُّهد، فالتفَّ حولهما الأتباع والمُريدون، وعظُمَ شأنهما، فجاهرا بالدّعوة إلى الإمام المهدي سنة 270 هـ، وتقاسما النُّفُوذ؛ كُلٌّ في منطقته زمناً، واهتمَّ ابن حوشب - خاصَّةً - بتدريب الدُّعاة، وبَثِّهم في البلاد، ومن هؤلاء أبو عبد الله الشّيعي الصّنعاني، الذي قامت على يدَيْه الدّولة الفاطميَّة في المغرب.
ولَمّا طمح عليّ بن الفضل إلى الانفراد بالرّئاسة والانفصال عن جسم الدّعوة أُسوةً بقرامطة البحرين، غير عابئ بابن حوشب، ولا بنُفُوذ عُبيد الله المهدي الفاطمي، الذي كان قد استقرَّ في المغرب أواخر سنة 296 هـ، قامت الحرب بين الدّاعيَيْن، وحُوصر ابن حوشَب في قاعدته، واستمرَّ الخلاف بينهما قائماً إلى وفاة ابن حوشَب المنصور سنة 302 هـ. ولم يطل الأمد بعده لابن الفضل، فقد مات مسموماً سنة 303 هـ، وَخَلَفَهُ ابنه الذي لم يلبث أنْ تمكَّن منه الخُصُوم، وقضوا عليه، وانتهى أمر دعوته. وأمَّ المنصور، فأوصى بالرّئاسة قبل وفاته إلى أحد أبنائه أبي الحَسَن، وإلى أحد ثقاته المدعو عبد الله بن عبَّاس الشّاوري، وأمرهما أنْ يكونا في طاعة المهدي، فإنْ وَرَدَ أمره بولاية أحدهما، أطاعه الباقون، ونجح الشّاوري في كثر وُدّ المهدي، فأقرَّه على اليمن، في حين أخفق أبو الحَسَن، فحقد على الشّاوري، وعمل على قَتْله، ثُمَّ أعلن رُجُوعه عن المذهب، وأشهَدَ النّاس عليه، وتتبَّع أصحابَ أبيه، ولم يلبث أنْ

اغتيل على يد أحد نُوَّابه، فَوَثَبَ النّاسُ على أولاد المنصور وأهله، فقتلوهم، وعاد إسماعيليَّة اليمن إلى التَّستُّر والتَّقيَّة، إلى أنْ حانت لهم فُرصة أُخرى للوثُوب سنة 439 هـ، بظُهُور الدّولة الصُّلَيْحيَّة.

الخَلَفيَّة:

هي دعوة إسماعيليَّة صاحبها خَلَف بن أحمد القاشاني، من كبار دُعاة الإسماعيليَّة في دور السّتر، وُلد في مدينة قم، ولا يُعرف تاريخ مولده ولا وفاته. اختاره حُجَّة الإمام عبد الله بن ميمون القدّاح كبيراً لدُعاة فارس، فنجح في الرّي وقم وقاشان وقزوين وبلاد الدّيلم، وانضمَّت إليه طائفة كبيرة من الأتباع عُرفوا "بالخَلَفيَّة" نسبةً إليه، وتولَّى رئاسة الدّعوة من بعده ابنه أحمد بن خَلَف، وكان من نُوَّابه الدّاعي غياث الدِّين الأستراباذي، الذي استطاع الفوز بتأييد الأمير الحُسَين بن عليّ المَرُوروذي في الطّالقان وهراة، ومن نُوَّابه - أيضاً - معروف النّيسابوري الشّاعر (ت 322 هـ) داعية خُراسان، وأبو حاتم الرّازي داعية طبرستان وأصفهان، واستمال إليه جماعة من كبار رجال الدّولة؛ مثل أسفار بن شيرويه الدّيلمي أمير قزوين وقائده مرداويج بن زياد الدّيلمي.

الفاطميُّون:

يُعَدُّ الفاطميُّون - مُنذُ نشأة دولتهم - نهاية دور السّتر، وبدء دور الظُّهُور، ويُعزى نجاح دولتهم إلى الدّاعي: "الحُسَين بن أحمد أبي عبد الله الشِّيعي الصّنعاني" (ت 298 هـ) الذي بَعَثَ به الإمام "الحُسَين التّقي" إلى بلاد اليمن سنة 278 هـ، ليتدرَّب على يد ابن حوشَب، ثُمَّ توجَّه من هُناك إلى المغرب، واستطاع بمهارته وحذقه أنْ يجمع إليه قبائل "كتامة"، ويُرسِّخ دعائم دولة إسماعيليَّة جديدة في إفريقيا، تزعَّمها "الإمام عُبيد الله المهدي"، الذي قدم إليها سنة 296 هـ، وتسلَّم مقاليد الحُكْم فيها. وقد عُرفت هذه الدّولة، التي بدأت في المغرب الأوسط، ثُمّ استقرَّت في مصر (359 هـ/ 970م)، وسيطرت على الشّام زَمَنَاً، باسم الدّولة العُبيديَّة أو الفاطميَّة. وبقيت قائمة حتَّى وفاة الخليفة الفاطمي العاضد، وانفراد صلاح الدِّين الأيوبي بحُكْم مصر، وإلغائه الخلافة الفاطميَّة فيها سنة 567 هـ/ 1170م.

سلسلة الخُلفاء الفاطميِّين

1 ـ المهدي أبو مُحمَّد عُبيد الله (297) .

2 ـ القائم أبو القاسم مُحمَّد (322) .

3 ـ المنصور أبو طاهر إسماعيل (334) .

4 ـ المُعزّ لدين الله أبو تميم معد (341) .

5 ـ العزيز أبو منصور نزار (365) .

6 ـ الحاكم بأمر الله أبو عليّ منصور (386).

7 ـ الظّاهر أبو الحَسَن عليّ (411) .

8 ـ المُستنصر أبو تميم (427) .

مُحمَّد — 9 ـ المُستعلي أبو القاسم أحمد (487) .

10 ـ (عامر) المنصور الأمير أبو علي (495) .

11 ـ الحافظ أبو الميمون عبد المجيد (524) .

12 ـ الظّافر أبو المنصور إسماعيل (544) .

13 ـ الفائز أبو القاسم عليّ (549) .

14 ـ العاضد أبو مُحمَّد عبد الله (555ـ567) .

وقد عاصرت الدّولة الفاطميَّة ، وتَفَرَّعَتْ عنها حركات أُخرى ، أدَّت إلى حُدُوث انشقاقات جديدة في جسم الدّعوة الإسماعيليَّة ، وظُهُور فرَق ودُويلات ظلَّ بعضها على ارتباط برئاسة الدّعوة في القاهرة ، وانفصل بعضها الآخر انفصالاً تامّاً. قد ظلَّت علاقة الفاطميِّين مع القرامطة في البحرين والشّام واليمن في أوّل أمرهم بين مَدٍّ وجَزْر زَمَناً ، ولكنَّها ساءت في خاتمة المطاف ، وتحوّلت إلى صراع شديد ؛ استمرَّ حتَّى آلَ أمر القرامطة إلى الزّوال .

الصُلَيْحيُّون في اليمن:

قامت في عهد المُستنصر بالله الخليفة الفاطمي الثّاني (حكَم 427 ـ 487 هـ/ 1036 ـ 1094م) الطّويل العهد ، دولة مُوالية للفاطميِّين في اليمن على يد الدّاعي عليّ بن مُحمَّد الصُّلَيْحي (ت 459 هـ) ، الذي استولى على صنعاء ، وقضى على دولة العبيد من آل نجاح فيها ، واتَّخَذَهَا حاضرة لُملكه ، كما احتلَّ زبيدَ ومُدُناً أُخرى ، فَدَانَتْ له قبائل اليمن ، وأقام

الخُطبة في مساجدها للإمام المُستنصر سنة 455 هـ. وتوالى على الحُكم بعده عدد من أفراد أُسرته أشهرهم الملك أحمد المُكرَّم بن عليّ وزوجه الملكة الحُرَّة السَّيِّدة أروى بنت أحمد الصُّلَيْحيّ (440 ـ 532 هـ/ 1052 ـ 1138م)، وظلّ الصُّلَيْحيُّون مُوالين للأئمَّة الفاطميِّين في مصر، وعلى اتِّصالٍ بهم، وانتصروا لحزب المُستعلية بعد وفاة المُستنصر بالله، واستمرّوا على هذه الحال، حتَّى الإمام الطَّيِّب الذي اختار السّتر في اعتقادهم. وقامت السَّيِّدة أروى برئاسة الدّعوة نائبة عنه حتَّى وفاتها، بعد أنْ وكَّلت أمر الدّعوة إلى داعٍ مُطلق؛ هُو ذؤيب بن مُوسَى الوادعي. وقد نشط الصُّلَيْحيُّون في بَثّ الدّعاة في الحجاز وحضرموت والهند، أسَّسوا فيها طوائف تهتدي بهم عُرفت باسم المُستعلية والطَّيِّبيَّة، واستمرَّ الأمْر على هذا النّحو حتَّى انتقال الدّعوة إلى كجرات في الهند سنة 946 هـ؛ حيثُ عُرفت باسم "البُهرة" (أيْ التُّجَّار).

المُستعلية:

كان المُستنصر بالله قد سمَّى قبل وفاته ابنَه نزاراً وليّاً للعهد، وإماماً من بعده، ولكنَّ أحمد بن المُستنصر نَازَعَ أخاه الخلافة، وكان صغيراً يشدُّ أزره، ويتعهَّده خاله قائد الجُيُوش "الأفضل بن بدر الجمالي"، فهرب نزار إلى الإسكندريَّة، واعتصم بها، بيد أنَّه هُزم، وقُتل، وتفرَّق أصحابه، وصفى الأمْر لأحمد الذي تلقَّب بالمُستعلي. وهكذا *انقسمت الإسماعيليَّة إلى نزاريَّة ومُستعلية*، وبقيت الخلافة الفاطميَّة للمُستعلية في مصر والشّام، في حين انتصر إسماعيليَّة فارس لنزار ومعهم بعض أنصار الدّعوة في العراق والشّام. وظلَّ المُستعلي في سُدَّة الحُكم حتَّى وفاته سنة 495 هـ، وتولَّى الخلافة من بعده ابنه الآمر بأحكام الله.

لم ينسَ النّزاريَّة ما لحقهم من غُبن، فَدَبَّروا كميناً، وتمَّ لهم به اغتيال الآمر سنة 524 هـ، وتقول بعض الرّوايات: إنَّه كان للآمر ابنٌ اسمه الطَّيِّب دخل كهفاً وهُو ابن عام، واختار السّتر، وهُو سيعود في آخر الزّمن (وهُو دور السّتر الثّاني)، كما تزعم روايات أُخرى أنَّ أباه بَعَثَ به إلى اليمن سرّاً وهُو صغير، لترعاه السَّيِّدة أروى، وأنَّه مات هُناك. وعُرف أتباعه باسم الطَّيِّبيَّة.

شغر مقام الإمامة الفاطميَّة بعد موت الآمر مُدَّة سنتَيْن، لعدم وُجُود وريث ظاهر من نسله، فاختير ابن عمِّه الماجد وصيّاً مُؤقَّتاً، وقبل جُلُّ المُستعلية إمامته، فتلقَّب بالحافظ،

وعدَّه آخرون داعياً مُطلقاً، واستمرَّ في الحُكْم أكثر من ثماني عشرة سنة، ودُعي أتباعه الحافظيَّة أو الماجديَّة، وتوالى بعده على الحكْم ثلاثة من أولاده وأحفاده؛ كان آخرهم العاضد الذي سقطت بوفاته الدّولة الفاطميَّة.

تَفَرَّعَتْ المُستعلية والطَّيِّبيَّة إلى فرَق مُتعدِّدة لاختلاف أتباعها على الأئمَّة والدُّعاة والمُرشدين. فقد توالى على الدّعوة عدد من الدُّعاة المُطلقين نُوَّاباً عن الأئمَّة المُستترين، ومقرّهم اليمن، حتَّى سنة 946 هـ، عندما انتقل الدّاعي المُطلق "يُوسُف بن سُليمان نجم الدِّين" إلى الهند. وفي عهد الدّاعي اليمني عليّ بن عبد الله (ت 832 هـ)، انفصلت الفرقة الجَعْفَريَّة النّهرواليَّة (نسبة إلى أحمد جَعْفَر الشّيرازي)، وصارت إلى مذهب السُّنَّة، وانضمَّ إليها كثير من الهندُوس، وفي سنة 975 هـ (أيْ بعد انتقال مقرِّ الدّعوة إلى الهند)، اختار البُهرة "داوود ابن قُطب شاه" داعياً مُطلقاً خَلَفَاً لداوود بن عجب شاه، فعُرفوا بالدّاووديَّة، في حين عاضد الطَّيِّبيَّة في اليمن سُليمان بن الحَسَن الهندي الذي ادَّعى المنصب لنفسه، فعُرفوا بالسُّليمانيَّة.

اتَّخَذَ الدّعاة الدّاووديَّة من بلدة "سورَت" في الهند حاضرة لهم، وعُرفوا باسم البُهرة العُليا، ومازالت دعوتهم قائمة إلى اليوم، ويتوزَّع أتباعها في نجران واليمن والهند وباكستان وأفريقيا، ومنهم نشأت "النّاكوشتيَّة" التي تُحرِّم اللُّحُوم. أمَّا السُّليمانيَّة في اليمن؛ فقد آل منصب الدّاعي المُطلق عندهم إلى "إبراهيم بن مُحمَّد بن فهد" من أُسرة المُكرَمي سنة 1050 هـ، واستمرَّت الرّئاسة فيهم، ولكنَّهم اصطدموا بمُحاولات الأئمَّة الزّيديَّة الذين سعوا إلى ردِّهم من البلاد. واستطاع الدّاعي الحَسَن بن هبة الله (ت 1189 هـ) بَسَطَ سيطرته على حضرموت، بيد أنَّه عجز عن مُقاومة نُفُوذ آل سُعُود، ثُمَّ تمكَّن القائد العُثماني أحمد مُختار باشا من طَرْدهم من هُناك. وأكثر السُّليمانيَّة اليوم يُقيمون في بُومباي وحَيْدَر آباد (الهند). ومنهم مَنْ يُقيم في اليمن ونجران وأفريقيا.

النِّزاريَّة ودولة "ألَموت":

وَجَدَ النِّزاريَّة في إيران والعراق والشّام تُربة خصبة، واستقرَّ أمرهم في جبال إيران؛ حيثُ كوَّنوا دولة إسماعيليَّة نزاريَّة استمرَّت سبعاً وسبعين ومائة سنة. وقد بدأت هذه الدّولة

باستيلاء "الحَسَن بن الصبَّاح الحميري" على قلعة "ألَموت" سنة 477 هـ، وانتهت بسُقُوط القلعة على يد "هُولاكُو" في سنة 654 هـ.

وكان داعي دُعاة فارس "عبد الملك بن العطَّاش الطَّبيب" قد بعثَ بالحَسَن بن الصبَّاح إلى مصر سنة 469 هـ، للتَّفقُّه في أُصُول الدّعوة، ونَجَحَ في طريق عودته في استمالة عدد من الأتباع في الشّام والعراق، وكان أمر الإسماعيليَّة قد استفحل في فارس برئاسة عبد الملك بن العطَّاش وابنه أحمد، فانضمَّ إليهما الحَسَن بن الصبَّاح، وتمكَّن الثّلاثة من السّيطرة على عدد من الحُصُون والقلاع، بالقُوَّة حيناً، وبالحيلة أحياناً. وتبنّوا العمل الفدائي والاغتيال السِّياسي لإرهاب الأعداء والخُصُوم، ثُمَّ بدا لابن الصبَّاح أنْ يستولي على قلعة ألموت، ويتَّخذها قاعدةً لعمليَّاته، مُستقلاً بها عن ابن العطَّاش. وبعد وفاة المُستنصر الفاطمي، ومقتل نزار ابنه سنة 488 هـ، رَفَضَ إسماعيليَّة فارس الدّعوة للمُستعلي، ونادوا بعليّ الهادي ابن نزار إماماً، ثُمَّ لابنه مُحمَّد المُهتدي، وقد استطاع الحَسَن بن الصبَّاح بحنكته ومهارته أنْ يضمَّ إليه جميع إسماعيليَّة فارس بعد مقتل أحمد بن عبد الملك العطَّاش 500 هـ، فصارت له دولةٌ ضمن دولة تتحكَّم في عددٍ كبيرٍ من القلاع والحُصُون في أنحاءٍ مُتفرِّقة من إيران، ولاسيما في المناطق الشّماليَّة الغربيَّة في جبال الدّامغان وجيلان والرّي، فقوي نُفُوذه، وخشيه النّاس والحُكَّام، وتلقَّب بالسيِّد والرّئيس، وعُرِف أصحابه بالصبَّاحيَّة والنِّزاريَّة والحشيشيَّة.

ظلَّت الإمامة النّزاريَّة تتَّخذ ألموت حاضرةً لها حتَّى سُقُوط القلعة في يد هُولاكُو سنة 654 هـ، وإعدام الإمام رُكن الدِّين خورشاه بن علاء الدِّين. وظلَّ أتباعها أوفياءً للوارث الظّاهر الأصلي نزار بن المُستنصر، وقد استتر أئمَّتهم حقبةً من الزّمن، وأدَّى هذا الاستتار إلى حُدُوث خلافٍ في ترتيب الأئمَّة؛ إذ يرى فريقٌ منهم (القاسميَّة) أنَّ الإمامة بعد نزار هُو عليّ الهادي بن نزار، وأنَّه تُوفِّي في قلعة لمسّر (شمالي إيران) سنة 530 هـ، ثُمَّ ابنه مُحمَّد المُهتدي الذي انتقل إلى قلعة ألموت، وتُوفِّي بها سنة 552 هـ. وتوالى بعده على الإمامة ثلاثة آخرون هُم القاهر والحَسَن وأعلى مُحمَّد، ثُمَّ جاء حَسَن جلال الدِّين الإمام الظّاهر في ألموت والمُتوفَّى سنة 617 هـ/ 1220م. ويرى فريقٌ آخرٌ أنَّ الإمام بعد نزارٍ هُو الحَسَن بن نزار (ت 534 هـ)، ثُمَّ مُحمَّد بن الحَسَن (ت 590 هـ) وبعده حَسَن جلال الدِّين المذكور، ثُمَّ تعود الشّجرتان

إلى السّير معاً حتّى الإمام مُحمَّد شمس الدِّين. وقد حَدَثَ انقسام الإسماعيليَّة النّـزاريَّة إلى مُؤمنيَّة وقاسميَّة بعد وفاة الإمام مُحمَّد شـمس الدِّين سـنة 711 هـ. فقـد أرسـل خَلَفُـه الإمام قاسم شاه أخاه الأوسط "مُؤمن شاه" داعياً إلى بلاد فارس وقزوين، ومُمثِّلاً لـه فيها، ولكنَّ مُؤمن شاه ادَّعى الإمامة لنفسه، وتبعه عددٌ كبير من إسماعيليَّة فارس والشّـام. وظلّـت هـذه الفرقة على ولائها لمؤمن شاه وأولاده من بعده حتّى آخرهـم "أمير مُحمَّـد بـاقر" الـذي انقطع الاتِّصال به سنة 1210 هـ/ 1796م. وأكثر أتباع الفرقة المؤمنيَّة يُقيمـون اليـوم في بلـدة قدمـوس ومصياف السُّوريَّتَيْن وبعض قُرى مصياف.

أمَّا القاسميَّة؛ فقد ظلَّت على ولائها للإمام قاسم شاه (ت773 هـ/ 1372م) وولـده مـن بعده، وأكثرهم في إيران والهند. وقد منـح شـاه إيـران "فتـح علـيّ القاجـاري" (حكَـم 1212 ـ 1250 هـ/ 1797 ـ 1834م) صهره "شاه حَسَـن علـي" (1219 ـ 1298 هـ/ 1804 ـ 1881م) لَقَـبَ "آغا خان"، وهُو الإمام السّابع بعد الإمام قاسم شـاه والإمـام السّـادس والأربعـون في ترتيـب الأئمَّة الإسماعيليَّة في رأي الفرَق النِّزاريَّة القاسـميَّة الآغاخانيَّـة، وصـار هـذا اللّقـب مُتوارثـاً فيهم إلى اليوم. ويُعَدُّ الإمام "كريـم علـيّ خـان" الإمـام الخمسـين عنـد الإسـماعيليَّة النِّـزاريَّة الآغاخانيَّة، وأكثر أتباع الفرقة في الهند وإيران وإفريقية الشّرقيَّة، ويُقيـم أتباعـها في سُـوريَّة في سَلَمية وبعض قُراها، وفي جوار قلعة الخوابي قُرب طرطوس.

النِّزاريَّة في سُوريَّة (بلاد الدّعوة):

لم يكتف نزاريَّة فارس بما تحقَّق لهم، ورغبوا في مُزاحمة المُستعلية وبسط نُفُوذ النِّـزاريَّة في ديار الفاطميِّين أنفسهم، فبثّوا الدُّعاة في العراق والشّام ومصر واليمن. وأفلـح الحَسَـن بـن الصَّبَّاح بعض الفلاح في مَدِّ سُلطته إلـى بـلاد الشّـام، فاسـتقرَّ بعـض دُعاتـه في حلـب. ونجـح الدّاعي "أسـعد بن قاسـم بـن حَسَـن العجمـي" المعـروف "بـالحكيم المُنجِّـم" في اسـتمالة الأمير رضوان بن تتش السّلجوقي (ت507 هـ) صاحب حلب، كما نجح في تكوين مجموعـة فداويَّـة استعان بهم رضوان في تحقيق أغراضـه، وكـان أوّل ضحاياهم صـهر رضـوان "جنـاح الدّولـة حُسَيْن" صاحب حمص. وبعد موت الحكيـم المُنجِّـم تسلّم أمـر الدّعـوة في حلـب "أبـو طـاهر الصّائغ العجمي"، فـازداد قُـوَّة ونُفُـوذاً. ولمَّا تُوفِّـي رضـوان، ومَلَـكَ حلـب بعـده ابنُـه "ألـب

أرسلان" قرَّر البَطْشَ بالباطنيَّة، فَقَبَضَ على أبي طاهر، وَقَتَلَهُ، واعتقل عدداً كبيراً منهم، واستصفى أموالهم، وَقَتَلَ جماعةً منهم، وأفلتت جماعةٌ، فتفرَّقت في البلاد، وحاول بعضهم الاستيلاء على عددٍ من القلاع المنيعة مثل "شَيْزَر" و"أفاميَّة"، فلم يُفلحوا، وقَصَدَ قسمٌ منهم دمشق يتزعَّمهم الدّاعي "بهرام"، وفيها "ظهير الدِّين طغتكين أتابك نجم الدِّين إيلغازي بن أرتق"، فأكرمهم اتِّقاءً لشرِّهم، وسهَّل لهم وزيره طاهر بن سعد المزدقاني أمرَ التَّغلُّب على قلعة بانياس (الصّبيبة) في الجولان سنة 520 هـ، وكان موقفاً لهم في دعوتهم، فاستفحلَ أمْرُ "بهرام"، وأغار على جيرانه في وادي التّيم، ولكنَّه قُتِلَ في إحدى المعارك سنة 522 هـ، وقام بالأمْر بعده "إسماعيل العجمي". وبعد وفاة طغتكين (522 هـ) سعى ابنه "تاج المُلُوك بوري" إلى التَّخلُّص من نُفُوذهم في دمشق، فَقَتَلَ وزيره "المزدقاني"، وتتبَّع أحداث دمشق مَنْ عَرَفَ من النّزاريَّة، فتفرَّق شملهم، وخشي إسماعيل العجمي المُقيم في بانياس مغبَّة الأمْر، فراسل الفرنجة، وسلَّمهم الحصن، ولجأ إليهم، ولم يلبث أنْ مات، ودُفِن هُناك. وحاول بعض الفداويَّة الثّأر لما حلَّ بهم من تاج المُلُوك، فأخفقوا.

ومع ذلك؛ نجح النِّزاريَّة في التَّسلُّل إلى بعض المواقع المنيعة في جبال السّاحل (البهراء) من بلاد الشّام، وأقاموا في قلاعٍ شيَّدوها، أو استولوا عليها، وعُرِفت باسم قلاع الدّعوة (أو بلاد الدّعوة)، وهي: مصياف والرَّصافة والخوابي والقَدْموس والكهف والمنيقة والعليقة والقليعة، ويُضاف إليها ثلاث قلاعٍ أُخرى لم تبقَ في أيديهم طويلاً، وأخذها الفرنجة منهم، وهي: المرقب وصافيتا والعريمة (ذَكَرَهَا وليم الصُّوري، وَذَكَرَ أنَّها كانت في يد الحشيشيَّة). وقد كان لبلاد الدّعوة هذه وزنٌ في توجيه مُجريات الحوادث في أثناء الحُرُوب الصّليبيَّة في عهد الزّنكيِّين والأيُّوبيِّين والمماليك، إلى أنْ خضعت نهائيّاً لسُلطة الممالك في زمن الملك الظّاهر بيبرس. وقد نَبَغَ من رُؤسائها في هذه الحقبة "راشد الدِّين سنان بن سُليمان ابن مُحمَّد بن راشد البَصْري" (528 - 588 هـ/ 1134 - 1192م)، وكانت ولادته بالبَصْرَة، وقضى شطراً من حياته في ألموت، ثُمَّ انتقل إلى الشّام في أيّام سُلطان نُور الدِّين محمُود بن زنكي، وعاصر صلاح الدِّين الأيُّوبي، وكانت له معه وقائعٌ وحوادثٌ، ثُمَّ صالحه في أواخر أيّامه، ومات قبل صلاح الدِّين بعامٍ واحدٍ، وكانت حاضرته قلعة الكهف، ودُفِن بها، وقد تمكَّن نُفُوذه في

إسماعيليَّة الشَّام حتَّى استقلَّ عن إسماعيليَّة ألموت، وحاول أصحاب ألموت أنْ يردُّوه إلى الطَّاعة، وحاولوا اغتياله، فلم يُفلحوا. وقد نُسبت إليه خوارقٌ ومعرفةٌ بالغيب، بما كان يُتقنه من أساليب، إلى جانب ذكائه النَّادر وفطنته، حتَّى اعتقد فيه البعض أنَّه صاحب مُعجزات، وإليه تُنسب طائفةٌ منهم تُعرف (بالسِّنانيَّة). وظلَّت بلاد الدَّعوة بعده قويَّة الشَّوكة، إلى أنْ اجتاح المغول بلاد الشَّام سنة 658 هـ، وكان رضي الدِّين أبو المعالي زعيم الإسماعيليَّة فيها، فتسلَّم المغول بعض قلاعهم، ولكنَّ "سيف الدَّولة قطز" سُلطان المماليك أعادها إليهم في السَّنة نفسها، بعد أنْ هزم المغول في عين جالوت. وفي سنة 664 هـ، راسل الملك "الظَّاهر بيبرس" الإسماعيليَّة، وأمَرَهُم بالخُضُوع له، فأذعنوا، وصار له أمرُ العزل والتَّولية فيهم، بعد أنْ أوقع الحوطة على زعيمهم نجم الدِّين إسماعيل، ابن الشَّعراني، وابنه شمس الدِّين سنة 670 هـ/ 1271م، وضمَّ إليه بعض قلاعهم؛ ومنها مصياف (669 هـ)، والعليقة (670 هـ)، ثُمَّ الرَّصافة. وأخيراً؛ تسلَّم نُوَّابه ما بقي من حُصُون الإسماعيليَّة (الكهف والمنيقة والقَدْمُوس) أواخر سنة 671 هـ/ 1273م، وزالت دولتهم من الوُجُود. ولم يكن هدف الظَّاهر القضاء على الإسماعيليَّة في هذه المعاقل، بل إدخالهم في طاعته.

وظلَّ أتباع الإسماعيليَّة مُواطنين عاديِّين في بلاد الشَّام إلى اليوم، وهُم يُحافظون على صفتهم، طائفة مُميَّزة عن الطَّوائف الأُخرى التي تعيش في البلاد، ومنهم آخرون مُوزَّعون في مُختلف أنحاء العالم، ولهم مُؤسَّساتهم وروابطهم الخاصَّة، وغالبهم من البهرة أو المُؤمنيَّة أو القاسميَّة الآغاخانيَّة، وأكثر الإسماعيليَّة في سُوريَّة ولُبنان اليوم هُم من المُؤمنيَّة أو القاسميَّة، ويتوزَّعون في مدينة سَلَمية ومنطقة مصياف وبعض قُرى جبال السَّاحل.

الدُّرُوز:

تَفَرَّعَتْ هذه الطَّائفة عن الإسماعيليَّة الفاطميَّة، وتوقَّفت عن نَهْج الإمامة في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، وتُنسب إلى حمزة اللَّبَّاد العجمي الدَّرزي هادي المُستجيبين (ت 433 هـ)، ومُعلِّمه مُحمَّد بن إسماعيل الدَّرزي (411 هـ). وقد استقرَّ أتباعها في بلاد الشَّام (سُوريَّة ولُبنان وفلسطين والأُردن)، وسأعقد للحديث عنهم فَصْلاً مُفصَّلاً خاصاً.

سُبُلُ الدّعوة الإسماعيليّة:

يجد الباحثون من الإسماعيليّة وغيرهم صعُوبة في الكَشْف عن حقائق هذه الدّعوة السّرّيَّة، ولا سيما في مراحلها الأُولى. لقد أوجب نظام التّقيَّة والمُغالاة في السّرّيَّة اتّباع أساليب تتواءم مع الأفكار التي يحرص أصحاب الدّعوة على كتمانها ومع عقُول المُستجدّين والمُستجيبين والأتباع، وأضاف مُنظّمو الإسماعيليّة الأوائل ودُعاتهم إلى طرائق التّقيّة التي تبنّاها الشّيعة نُظُماً صارمة في اختيار الأنصار، ومَنْ يُتوسَّم ضمُّه إلى المذهب أو إلحاقه بتنظيمات الإسماعيليّة السّرّيَّة، وابتكروا لهذه الغاية أساليب ووسائل فعّالة كانت تتفاوت وتتباين بتفاوت أحوال الدّعوة وتَفَرُّعَاتهم مناطق نشاطها والقائمين عليها. وجعلوا تنظيماتهم درجات ومراتب لا يُمكن تجاوزها أو الانتقال بالمُريد من درجة إلى أُخرى إلاّ بعد الاطمئنان والاختبار، وكان عبد الله بن ميمون يطلب من دُعاته أنْ يُخاطبوا النّاس على قدر عقُولهم، وأنْ يكون خطابهم للمُثقّفين وللمُتفقّهين في الدّين ولأصحاب الدّيانات الأُخرى ولعوامّ النّاس مُتناسباً مع قَدْر كُلّ مَنْ هُم ومُستوى تفكيره، فكانوا يستهلُّون الدّعوة بإثارة فُضُول مَنْ يرغبون في استمالته، وطرح بعض القضايا التي تبعث على التّفكير والتّأمُّل، وتُثير التّساؤل، ثُمَّ ينتقلون بِمَنْ يتوسّمون فيهم الاستجابة تدريجيّاً، حتّى يُصبح هؤلاء طوع أمرهم، وموضع ثقتهم، فيبسطون لهم أسرار الدّعوة وأهدافها، وقد صنّف عبد القادر البغدادي في كتابه الفَرْق بين الفرَق، كذلك الباقلاّني والغزالي أسماء هذه المراحل على النّحو التّالي: التّفرُّس، فالتّأنيس، فالتّشكيك، فالتّعليق، فالرّبط، فالتّدليس، فالتّأسيس، ثُمَّ الميثاق والعهد، ثُمَّ الخلع والسّلخ. وكان هذه الدّرجات سبعاً في أوائل الدّعوة، ولاسيما عند القرامطة، ثُمَّ صارت تسعة في عهد الفاطميّين. وفي المُصطلح الإسماعيلي يُصبح المُريد مُستجيباً إذا أخذ عليه الدّاعي العهد والميثاق، وتكون استجابته على قَدْر استعداده ومقدرته على فَهْمه ما يُلقى على مسامعه من أُسُس الدّعوة وأفكارها وفلسفتها، ويشغل بذلك المرتبة الدُّنيا من مراتب الدّعوة، فإذا أبدى استعداداً أكبر وتفهُّماً أكمل صار في عداد المُؤمنين، ثُمَّ يبدأ بالارتقاء تدريجيّاً إلى المرتبة التي يستحقُّها من مراتب الدّعوة، ويُطلق عليها في المُصطلح الإسماعيلي الحُدُود الجسْمانيَّة وهي عشر: المأذون المحدود أو المكاسر، وهُو الذي يُؤذَن له

بجذب الأنفس المُستجيبة، ويليه في المرتبة المأذون المُطلق أو النّقيب، وهُوَ الذي يُفوِّض إليه أخذ الميثاق والعهد، ثُمَّ الدّاعي المحدود، ومهمّته تعريف الحُدُود السُّفليَّة والعبادة الظّاهرة، وثُمَّ الدّاعي المُطلق، وهي رُتبة النّائب عن الإمام في دور الاستتار، ومهمّته تعريف الحُدُود العُلويَّة والتّأويل الباطن، ثُمَّ داعي البلاغ، وهي رُتبة الاحتجاج وتعريف المعاد، ثُمَّ الحُجَّة، أو داعي الدّعاة، وهُو أعلاهم، ورُتبته الحُكْم فيما كان حقّاً وباطلاً، ثُمَّ الباب، ورُتبته فَصْل الخطاب، ثُمَّ الإمام وبيده الأمْر، وهُو الهادي وصاحب الزّمان. ثُمَّ الأساس والوصيّ، وله رُتبة التّأويل، ثُمَّ النّاطق، وهُو الرّسول من أُولي العزم، وله رتبة التّنزيل.

لم يقتصر نشاط الدّعوة الإسماعيليَّة في تاريخها الطّويل على العمل السِّرِّيّ والاتّصال الفَرْدي بين الدّاعي والمُستجيب، بل كانت لها في دور الظُّهُور مجالس يعقدونها في المساجد، والمكتبات، والقُصُور، ومدارس مُتخصِّصة، لتخريج الدُّعاة وتأهيلهم بإشراف داعي الدُّعاة وتوجيهه، وكان لهذا المنصب في العهد الفاطمي شأن كبير، وهُو يلي قاضي القُضاة في المرتبة، ويتزيّا بزيّه. وكانت دار الحكمة في القاهرة جامعة رَسْميَّة يتخرَّج فيها الدُّعاة، ثُمَّ يتوزَّعون في الأقطار لنَشْر الدّعوة.

أهمُّ مُعتقدات الإسماعيليَّة وفلسفتهم:

(1) الإمامة: الإسماعيليَّة من الفرَق الإماميَّة التي ترى أنَّ الإمامة زمام الدِّين ونظام المُسلمين، وأنَّها أمر واجبٌ، فلا يجوز أنْ يبقى المُؤمنون من دُون إمام يقودهم إلى طُرُق النّجاة والخلاص. وفي حين توقَّفت الإمامة في مذهب الشِّيعة الاثنَيْ عشريَّة عند الإمام الثّاني عشر غائباً مُنْتَظَراً ومهديّاً مُرْتَقَباً، لا تزال الإمامة في مُعتقد الإسماعيليَّة قائمة عندهم، سواء في دور السّتر، أو في دور الظُّهُور بحسب الأحوال. ويرى الإسماعيليَّة أنَّ الإمامة توليةٌ إلهيَّة وفرضٌ من فُرُوض الدِّين، وتُقابل درجة الإيمان، ولا يكون ثمَّة شَرْعٌ أو أحكامٌ إلاّ بوُجُودها. وقد ألزم الإسماعيليَّةُ أتباعَهم بواجبات نحو الأئمَّة؛ وفي مُقدِّمتها الطّاعة التّامَّة، فطاعة الإمام من طاعة الله ورسوله، فإنْ عصاه المُؤمن، أو كَذَّبَ به، فهُو آثم، وتوقير الإمام وتعظيمه واجب، وهُم يُؤوِّلون ذلك من الآية الكريمة ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ النّساء/ 59، والمقصود من أُولي الأمْر هُنا هُو الأئمَّة. وعلى المُؤمنين أنْ

يُخبروا الأئمَّة بأحوال أنفسهم، ويسألوهم في شؤونهم، ويلتمسوا لديهم الاستغفار عند الله، وأنْ يصبروا على ما يمتحن به الأئمَّةُ أتباعَهم، ويشكروهم على ما يُولُونه من نعَم، وأنْ يُجاهدوا معهم، ويُسلِّموا أُمورهم إليهم قولاً وفعلاً، وأنْ يُحذِّروا من عُقُوبتهم وسُقُوط المنزلة عندهم، وأنْ يُوالوا مَنْ والاهم، وأنْ يُعادوا مَنْ عاداهم، ويتحرّوا ما يُوافقهم، وينهوا عن إتيان ما يُخالفهم، وأنْ يتجرَّدوا من سُوء الظَّنّ، وأنْ يدفعوا خُمس المكسوب إلى الإمام، ليصبَّ في بيت المال. ودعائم الإسلام في مُعتقد الإسماعيليَّة سبعٌ هي: الولاية، ثُمَّ الطّهارة، فالصّلاة، والزّكاة، والصّوم، والحجّ، والجهاد.

وفي اعتقاد الإسماعيليَّة أنَّ الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، ولا يُمكن أنْ تنتقل من أخ إلى أخيه، ويكون انتقالها بالنَّصّ والتّوقيف من الأب إلى الابن، والإمام - بما أُوتي من خبرة ومعرفة - يعلم أيّاً من أبنائه يستحقُّها، وهُو لا يُخطئ في معرفته هذه. وهُم يرون أنَّ الله - تعالى - لا يُمكن أنْ يترك العالم خُلواً من الإمام؛ لأنَّه حُجَّة الله على خَلْقه، ووارث النُّبوَّة. فالإمامةُ المركزُ الذي تدور عليه دائرة الفرائض، ولا يبقى الكون لحظة من دُونها، فهي مُستمرَّة أبد الدّهر، وهي تُعادل القلب من الجسم، والعَقْل من الرّأس. وعندما بحث مُنظّرو الإسماعيليَّة موضوع الإمامة رأوا أنَّ تسلسلها من الإمام إسماعيل بن جَعْفَر الصّادق يجعلها مُحْدَثَة، ولا يقوم وُجُودها على أساس أو حقيقة، فجعلوها من بدء الخليقة، ومن عهد آدم، واستندوا في تطبيقها إلى النُّصُوص التي وَرَدَتْ من الكُتُب السّماويَّة، وأضافوا إليها قولهم بالأدوار والأكوار (الأمكنة)، وجعلوا لكُلّ دورٍ إماماً مُقيماً أو رسولاً ناطقاً وأساساً أو وصيّاً وسبع أئمَّة آخرين يكون آخرهم مُتمّاً للدّوْر، وقد يزيد عدد الأئمَّة على سبعة، ولكنَّ الزّيادة تحصل في الأئمَّة المُستودَعين، وليس في الأئمَّة المُستقرّين. وتُسمَّى المرحلة التي تقع بين النّاطق والنّاطق دوراً صغيراً، وفيه سبعة أئمَّة، وأمَّا الدّور الكبير؛ فيبدأ من عهد آدم، حتَّى القائم المُنتظر، ويُسَمَّى الدّور السّابع، ويكون القائم فيه مُتمّاً للنُّطقاء السِّتَّة السّابقين، وعليه؛ فقد جَعَلَ الإسماعيليَّةُ الإمامةَ درجات ومقامات، ولكنَّ درجة صلاحيَّاتها واختصاصاتها المحدودة أحياناً والمُطلقة أحياناً أُخرى، وحصروا معرفتها بطبقة خاصَّة من العُلماء والدُّعاة تقيَّةً وكتماناً، وهذه الدّرجات هي: الإمام المُقيم؛ وهُو الذي يُقيم الرّسول النّاطق، ويُعلِّمه، ويُدرِّجه في مراتب رسالة النّطق، ويُنعم عليه بالإمدادات، ويُسمُّونه - أحياناً - ربّ الوقت،

وصاحب العصر، وإمام الزّمان، ومرتبته أعلى مراتب الإمامة، وأرفعها وأكثرها دقّةً وسريّةً. ويليه الإمام السّادس أو الوصيّ؛ وهُو يُرافق النّاطق في جميع مراحل حياته، ويكون أمين سرّه، ومنه يتسلسل الأئمّة المُستقرّون في الأدوار الزّمنيّة، وهُو المسؤول عن شُؤُون الدّعوة الباطنيّة المُقتصرة على طبقة خاصّة ممَّنْ عرَفوا التّأويل، وبلغوا درجة العُلُوم العُليا، ثُمَّ الإمام المُتمُّ؛ الذي يُتمُّ أداء الرّسالة في نهاية الدّور الصّغير، فيكون سابعاً، ويُسَمَّى كذلك ناطق الدّور؛ لأنَّ وُجُوده يُشبه النّاطق، ويكون الإمام الذي يأتي بعده قائماً بدورٍ جديدٍ، ويلي المُتمَّ في المرتبة الإمامُ المُستقَرُّ، وهُو الذي يملك حقَّ توريث الإمامة لمَنْ شاء من ولده بالنَّصِّ والتّوقيف، ويُسَمَّى صاحب الجوهر، ويتسلَّم الإمامة بعد زوال النّاطق، ويأتي في المرتبة الخامسة الإمام المُستودَع، وهُو الذي يتسلَّم الإمامة في شُرُوط استثنائيَّة نيابةً عن إمامٍ مُستقَرٍّ، ولا يستطيع توريث الإمامة واحداً من أولاده، ويُسَمَّى لذلك نائب الغيبة.

(2) التّأويل وعلم الباطن: أدّى اختلاف الرّأي حول شخص الإمام إلى تَفَرُّع الإسماعيليّة وتشعُّب طوائفهم، وكانت كُلُّ شُعبة منهم ترى الإمامة في الذي انتصرت له، وهُو الأحقُّ بها من سواه. وفي مثل هذا الجوِّ من الخلاف تتجسَّد الحاجة إلى تأييد الأفعال بالتّنظير والبُرهان، وهُما يُلقيان في أُسلُوب التّأويل العَوْنَ والسَّنَدَ، وعلى هذا الأساس؛ يكون الفكْر الباطني حصيلة جهدٍ تجاوز فيه التّفسير مَتْحَ المعاني من الألفاظ الظّاهرة، ليستشفَّ رُمُوزها فيما وراء الإشارات، مُعتمداً المُحاكمة التّمثيليَّة التي تجعل لكُلِّ ظاهر دلالة باطنيَّة، وهي دلالة من وحي أفكار أصحابها، بدل كونها دلالة عامَّة مُتداولة. والباطنيَّة صفة عامَّة مُشتركة بين كُلِّ الفرَق التي تقوم على التّأويل، وتندرج تحت مذاهب وطوائف عدَّة يجمع بينها شيءٌ واحدٌ هُو تأويل النَّصِّ الظّاهر بمعنى باطن، تأويلاً يذهب مذاهب شتَّى. ومعنى هذا أنَّ النُّصُوص المُقدَّسة رُمُوزٌ وإشاراتٌ إلى حقائق خفيَّةٍ وأسرارٍ مكتوبةٍ وشعائرَ، وأنَّ عامَّة النّاس هُم الذين يقنعون بالظّواهر والقُشُور، ولا ينفذون إلى المعاني الخفيَّة المستورة التي تبقى وَقْفاً على أهل العلم والحقِّ: علم الباطن. والغاية من التّأويل التَّحرُّر من قَيْد النَّصِّ للتّوفيق بينه وبين ما يذهب إليه صاحب التّأويل أو التّوفيق بين ما يفهم من صريح النَّصِّ، وما يقتضيه العَقْل، أو هُو الرّغبة في التَّعمُّق في صريح النَّصِّ ابتغاء المزيد

من العلم فيما يتضمّنه من آراء، ولا يُلجأ إلى التّأويل إلاّ إذا كان النّصُّ مُقدّساً أو مُقيّداً، ولولا ذلك لما كان ثمّة داعٍ للتّأويل، فعمليّة التّأويل قائمةٌ مادام الإنسان مُضطراً إلى الأخذ بنصٍّ مُحدّد، ولا يقتصر ذلك على الكُتُب المُقدّسة، بل يتعدّاه إلى النُّصوص القانونيّة والآثار الأدبيّة حين تصبح ذات سُلطة.

والتّأويل هُو مفتاح التّفكير الإيماني عند الإسماعيليّة، على اختلاف درجاته، فهُو معرفة الظّاهر لأهل الظّاهر أوّلاً، ثُمّ معرفة الظّاهر لأهل الباطن ثانياً، ثُمّ معرفة الباطن لأهل الباطن ثالثاً. أو هُو معرفة الظّاهر والباطن، وتأويل الباطن بما هُو ظاهر. والسّبيل إليه ما يُسمّى نَظَريّة المثْل والمَمْثُول؛ أيْ تفسير الأُمُور العَقْليّة غير المحسوسة بما يُقابلها ويُماثلها من الأُمُور الجسْمانيّة المحسوسة. فَمَثَلُ الإسلام مَثَلُ الظّاهر، ومَثَلُ الإيمان مَثَلُ الباطن، والنّيّة مَثَلُ الولاية، ومَثَلُ القلب مَثَلُ الإمام، فَمَنْ لا يعتقد بولاية إمام زمانه لم ينفعه قولٌ ولا عملٌ، ولم يصحّ له ظاهرٌ ولا باطنٌ. والقُرآن - في مُعتقد الإسماعيليّة - قابلٌ للتّأويل، والنّبيُّ النّاطق هُو الذي يُعلّم تأويله، فهُو أوّل الرّاسخين في العلم، ويليه الوصيّ والأساس أو الصّامت؛ فهُو الرّاسخ في العلم في كُلّ عصر. والأنبياء مُواصَلون من الله - تعالى - بالتّأييد والعصمة في كُلّ الأحوال. وقد ضربوا الأمثال لما يعرفونه بصيَغ يقبلها العالم والجاهل. ولمّا كان النّبيُّ غيرَ باقٍ ليحكمَ في النّاس، فإنّ الحاجةَ إلى الإمام تظلُّ مُتجدّدةً، والعلم الذي خُصّ به الأئمّة هُو علم الباطن، والتّأويل دعامَتُهُ، وتقتصر معرفة أسرار الدّين على الأئمّة من نسل عليّ وفاطمة الزّهراء، « فهُم الكواكب والنُّجُوم والمصابيح، تُرْسلُ نُورَ المعرفة إلى قُلُوب الأتباع ». ولما سبق؛ فإنّ الإسماعيليّة لا يأخذون بالرّأي والقياس والإجماع في التّفسير والفقْه. وقد تعرّض مفهوم الإمامة عند الإسماعيليّة إلى تغيُّر تاريخي.

مَتَحَ الفكرُ الإسماعيليُّ أُسُسَه الفلسفيّةَ من نَظَريّة الفيض الأفلُوطينيّة، وليس من الغُلُوّ التّأكيدُ أنّ وجهَيْ الفكْر الفلسفي الباطني واللاّباطني أفادا من اعتماد هذه النّظَريّة لحلّ المُشكلات الميتافيزيقيّة وإخضاعها لمطلب التّوحيد الإسلامي، وبديهي أنْ يتفرّق هذان المنحيان بعد انطلاقهما من قاسم مُشترك، وأنْ يأتي المنطق العَقْلي بثمارٍ مُباينة لثمار منطق التّأويل.

(3) التّنزيه المُطلق أو التّوحيد: يصف الإسماعيليَّة أنفسهم، وكذلك سائر الفرَق الباطنيَّة، بأنَّهم أهل «التّوحيد»، وهُم يُؤكّدون هذا المعنى دائماً، ولعلَّ سبب إلحاحهم على هذا التّوكيد شُعُورهم بأنَّ أهمَّ طَعْن يُوجَّه إليهم هُو أنَّهم أشركوا بالله الواحد الأحد موجوداتٍ قديمةً مثلَ العَقْل الكُلّيِّ والنَّفس الكُلِّيَّة، وأنّهم قالوا بالحُلُول؛ أيْ حُلُول رُوح الله في الأئمَّة. ولهذا؛ يحرص الإسماعيليَّة على توكيد معنى «التّوحيد» بالنّسبة إلى الله، ويذهبون في ذلك إلى حَدِّ نَفْي الصّفات عنه تعالى؛ لأنَّ كُلَّ صفة وموصُوف مخلوق، وهُم لا يكتفون بنَفْي التّشبيه عنه، بل يمضون إلى أبعد من ذلك، فينفون عنه التّسميةَ، والحَدَّ، والصّفات، والزّمان، والمكان، وينفون عنه حتّى صفة الوُجُود الذي يُسمُّونه «أيساً»، وهي الكلمة التي استُعملت في ترجمة مُؤلّفات أرسطو إلى العَرَبيَّة؛ لأنَّ الأيس؛ أيْ الموجود، مُحتاج إلى ما يستند إليه في وُجُوده، «وكان هُو - عزَّ كبرياؤه - مُتعالياً عن الحاجة إلى ما به يتعلّق، وكان من ذلك الحُكْم بأنَّه - تعالى - خارجٌ عن أنْ يكون أيساً»؛ أيْ أنَّ الله - تعالى - وراء الآيات المُتعلِّق وُجُودها بوُجُوده.

وهُم يرون كذلك أنَّ نَفْيَ الصّفات عن الله «مُعتقد صحيحٌ لا يُسوَّغ تَرْكُهُ؛ لأنَّ الصّفات تلحق بالجوهر؛ إمَّا في الأجسام، وإمَّا في النُّفُوس، والصّفات تلحق بالموصُوف من غيره لا من ذاته، فصفات الأجسام تأتي من خارجها كالأقدار والألوان، وما يجري مجراها، وفي النُّفُوس تأتي من داخلها كالعلم والجهل، وهُو يتعالى أنْ يكون له داخل أو خارج». ومن هُنا؛ يأتي نَفْيُ التّسميَّة عن الله؛ لأنَّ التّسميَّة وَسْمٌ يُوسم به المخلوقات، تُميِّز كُلّاً منها من الآخر، «والله مُتعالٍ ليس له صُورة، ويتعالى عن أنْ يُوسم بما تُوسَم به أسباب خلقته» فالله هُو: «الخالق الباري المُبدع، قديمٌ وقبلَ الأزل، وأمَّا عالم الموجودات والمُبدعات؛ فمُحْدَثٌ؛ لأنَّه إنْ كان غير مُحْدَث، فيجب أنْ يكون شيء سابق قد أحْدَثَهُ، وإذا كان العالم قديماً قبل الخالق استحال تعلُّق جبروته بالقدَم، ووُجُوده بالعدم، واقتضى موجوداً أوجده. وهُو المُتعالي عن درك الصّفات، فلا يُنال بحسٍّ، ولا يقع تحت نَظَر، ولا تُدركه الأبصار، ولا يُنعت بجنْسٍ، ولا يُوصَفُ بالحواسِّ، ولا يُدْرَكُ بالقياس، وهُو المُنزَّه عن ضدٍّ مُنافٍ، ونِدٍّ مُكافٍ، ليس له مثْلٌ، ولا شَبَهٌ، وليس له أسماءٌ؛ لأنَّ الأسماء من

موجوداته، ولا صفاتٌ؛ لأنَّ الصّفات من أيسيّاته، وإنَّ حُرُوف اللُّغة لا يُمكن أنْ تُؤدّي إلى لفظ اسمه، أو يُطلق عليه شيء منها؛ لأنّها جميعاً من مُخترعاته، وهُو مُبدع المُبدعات، والفَرْد المعروف بوَحْدَانيّته وصَمَدَانيّته، وصاحب فعل الإيجاد للعدد الأوّل، الذي هُو أصل الأعداد، كما أنَّ العَقْل أصل الموجودات، والنّاطق أصل عالم الدِّين. وهُو موجود؛ لأنّه لا يصحُّ أنْ يكون غير موجود. وإنَّ توحيد المُبدع قد عرَّفه الدّليل المُرسَل الذي أُرْسلَ هادياً للأُمَّة من دُون تشبيه أو تعطيل أو تحديد أو تكييف. وأنَّ مَنْ عَرَفَ المُبدع والمُبدَع الأوّل الذي هُو العَقْل، ثُمَّ الثّاني؛ وهُو النَّفْس الكُلِّيَّة، ثُمَّ الهيولى، ثُمَّ الصُّورة الكُلِّيَّة إلى آخر الحُدُود السّبعة، ثُمَّ نزَّه الخالقَ، واعتقد بطاعته وطاعة الأنبياء المُرسلين والأئمَّة الوارثين يكون قد عَرَفَ اللهَ على حقيقته، وحاز مرتبة الخُلُود في الجنان عالميُّ النَّفْس والعَقْل».

ولَمّا «لكُلِّ شيء من العوالم غايةٌ تنتهي إليها»؛ فإنَّ غايةَ البشر هي النّبيُّ في وقته، والوصيُّ في زمانه، والإمامُ في عصره، وبذا؛ تتَّصل الحياة السّارية من عالم القُدُس إلى عالم الخَلْق، ومن عالم الإبداع إلى عالم الأجْرام، ويتجلّى تدبيرُ الله العالمَ في نَسَقٍ يُمكن تلخيصُه في طائفةٍ من الحُدُود العَلَويَّة والسُّفليَّة. وتُقابلُ هذه الحُدُود في نَظَريَّة الفَيْض ما يتَّصل بعالمي ما فوق القمر وما دُونه، وتلتقي هُنا فكرتان مُتلازمتان هُما المبدء والمعاد. فالإسماعيليَّة ترى انتظام الزّمان كُلّه، وعالم الإبداع وعالم الخَلْق في مجموعةٍ سُباعية الأسابيع أو (السّوابيع) التي تتألَّف من مراحل وأدوار وأكوار. إنَّ هذا الجهد التّنهيجي بتفاصيله التي تشمل أسابيع الأئمَّة والشّهداء والحُدُود والدُّعاة إنَّما يتوخّى دَمْجَ التّاريخ الإسماعيلي المذهبي في التّاريخ العامِّ، أو دَمْج التّاريخ الإنساني والكوني في التّاريخ الإسماعيلي وأسابيعه السّبعة، نُشْداناً لمُطلَقٍ يصلُحُ تأييداً للدّعوة الرّامية إلى الإقناع، إنْ قصرتْ عن البُرهان.

(4) نَظَريَّة المثل والمثول: تقوم هذه النَّظَريَّة الإسماعيليَّة على المُحاكاة والمُقابلة بين عالم الغيب وعالم الشّهادة، أو - حسب المُصطلحات الإسماعيليَّة - بين الحُدُود العُلويَّة والحُدُود السُّفليَّة، فكُلُّ حَدٍّ هُنا في عالم الدِّين هُو مَثَلٌ يُمثِّل حَدّاً عُلوياً هُو ممثوله الموجود في الملأ الأعلى. وهذه النَّظَريَّة كما يقول أحد رجالهم المُعاصرون «هي قوام عقيدة الفاطميِّين

في التّأويل، وفي جميع مناسك الدِّين»[1]، والواقع أنَّ أساس هذه العقيدة هُو نَظَريَّة «الفَيْض» الأفلاطونيَّة التي استعانت بها الإسماعيليَّة، فالله هُو مُبدع المُبدعات المُتعالي عن كُلِّ صفة، الذي أبدع الكون عن طريق "الأَمْر" التي هُو الإرادة الإلهيَّة، لذا؛ فهُو شأن إلهي أو همزة الوصل بين الله والعالم، وليس هُو من الحُدُود العُلويَّة حتَّى يُقابله مثله في عالم الدِّين أو الطّبيعة. وعن "الأَمْر" فاض "العَقْل"، الذي هُو الخَلْقُ الأوَّل الذي فاضت عنه "النَّفْس"، وهذان هُما الأصلان؛ أو اللَّوح والقلم، وعن النَّفْس فاضت "الهيولى"؛ أيْ الجوهر البسيط القابل للصُّور، ثُمَّ "الجسم الكُلِّي".. إلخ، والنّبيّ ـ في عالم الدِّين يُقابل "العَقْل" أو يُمثِّله، والإمام يُمثِّل "النَّفْس الكُلِّيَّة"، و"الحُجَّة" يُمثِّل "الهيولى"، وهكذا سائر درجات الدّعوة يُقابلها كائنٌ عُلْويٌّ في عالم الأَمْر. هذا ما جرى عليه الفكْر الفاطمي في تفسير ظاهر الوُجُود وباطنه، كما جرى على تفسير النُّصُوص الدِّينيَّة والأحكام الشَّرْعيَّة حسب الطّريقة نفسها، فالصّلاة والزّكاة ولاية الأئمَّة، والصّوم حفْظ أسرارهم، والحجُّ زيارتهم[2] وهكذا. ولكنَّهم ـ بعد عصر «القيامة» ـ جعلوا الإمام مُمثِّلاً للأمر، وحُجَّته للعَقْل، والنّبيّ للنَّفْس، وسائر حُدُود الدّعوة للحُدُود العُلويَّة الأُخرى، ونسخوا الأحكام الشَّرْعيَّة الظّاهريَّة تماماً؛ اكتفاء ببواطنها. وهذا يُبيِّن التَّطوُّر العميق الذي طرأ على عقيدتهم أو فلسفتهم المذهبيَّة حينذاك[3].

تُراث الإسماعيليَّة:

يتَّفق الإسماعيليَّة الفاطميَّة والشِّيعة الإماميَّة الجَعْفَريَّة في كثير من المسائل الفقْهيَّة مع خلاف بسيط في أُمُور قليلة من بينها اعتماد الإسماعيليَّة التّقويم الفاطمي في حساب الشُّهُور، وهي عندهم ستَّةٌ عُلْويَّةٌ وستَّةٌ سُفْليَّةٌ، وأيَّام الشّهر من الأُولى ثلاثون يوماً، ومن الثّانية تسعة وعشرون يوماً، وشهر رمضان عندهم ثلاثون يوماً، كذلك يُنكر الإسماعيليَّة زواج المُتعة

---

(1) مُحمَّد حَسَن الأعظمي: تحقيق كتاب "الحقائق الخفيَّة" للحامي، طبع القاهرة، 1970م، ص 31.

(2) عارف تامر: القصيدة الشّافية ـ المُقدِّمة، بيرُوت 1967/، والنّشّار: نشأة الفكْر الفلسفي في الإسلام: ج2/ ص 374 وما بعدها، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1965م. والبغدادي: الفَرْق بين الفرَق: ص 277 ـ 300.

(3) النّوبختي: فرق الشّيعة: ص 74، والجويني: تاريخ جهانكشاي، جامعة عين شمس، القاهرة، 1967م، ج3/ ص62 ونصير الدِّين الطّوسي: تصورات أو روضة التّسليم، طبع بومباي، ص75 وما بعدها، وأخيراً؛ الدُّكتُور حَسَن محمُود عبد اللطيف الشّافعي: رسالة الدُّكتُوراه: نصير الدِّين الطّوسي وكتابه تجريد الاعتقاد، ص427.

الذي يُجيزه الاثنا عشريَّة، وهُم يُقرُّون بالمصادر الفقهيَّة المأخوذة من الأئمَّة السِّتَّة الأوَّل، ويُضيفون إليها نتاج اجتهادهم ومُحصِّلة دراساتهم المُستندة إلى الفكْر الفلسفي والتّأويل، وقد ظلَّ نتاجهم مكتوماً ومتوارثاً على مرِّ الزّمن، إلى أنْ تكَشَّفَتْ بعض جوانبه من خلال ما نُشر، أو تَسَقَّطَهُ الدّارسون في زمنٍ متأخِّر. وأدَّى نشاط المتأخِّرين والمعاصرين من الإسماعيليَّة إلى خَلْع باب السّتر عن آثارٍ إسماعيليَّة شتَّى، وما يزال جانبٌ كبيرٌ منها ـ على أهميَّتها ـ مُضَيَّعاً أو مكتوماً، ويحار الدّارس أمام ذلك العدد الكبير من التَّيارات الفكْريَّة المُتباينة والأحكام المُضطربة التي تُنسب إلى الإسماعيليَّة ومُؤلَّفاتهم، وتزداد حَيْرَتُهُ عندما يصطدم بأسماء عُلماء وفلاسفة ومُصنِّفين منسوبة إلى الإسماعيليَّة، وليسوا منهم. ولعلَّ أوضح مثال على ذلك الجَدَلُ القائم حول انتماء إخوان الصّفا في رسائلهم إلى الفكْر الإسماعيلي أو عدمه، وقد نَتَجَ عن الاضطهاد أصحاب التَّشيُّع عامَّةً، والإسماعيليَّة خاصَّةً، ومُلاحقتهم في العصر العبَّاسي، ضياع قسم كبير من المُؤلَّفات الإسماعيليَّة، سواء بالمُصادرة أو الإتلاف، ومن ذلك مثلاً؛ فَقْدُ أكثر ما حَوَتْهُ مكتبة قلعة ألموت بعد سُقُوطها على يد هُولاكُو، وكذلك ضياع مكتبة دار الحكمة في القاهرة بعد سقُوط الخلافة الفاطميَّة. أمَّا أقدم المصادر عن الكُتُب الإسماعيليَّة؛ فهُو ابن النّديم الذي عَقَدَ فَصْلاً في الفهرست «لأسماء المُصنِّفين لكُتُب الإسماعيليَّة وأسماء الكُتُب»، ولا يُميِّز ابن نديم في مُؤلَّفه مُؤلَّفات القرامطة من مُؤلَّفات الإسماعيليَّة عامَّة، وقد أورد أسماءَ عددٍ منها، وَذَكَرَ أسماء مُؤلِّفيها، وألمح على أنَّه اطَّلع على بعض منها. وثمَّة مصادر أُخرى تُعدِّد مُؤلَّفات الإسماعيليَّة وأسماء مُؤلِّفيها، ومنها ما يأتي على ذكْرها في سياق التّرتيب العامِّ من دُون تخصيص. ومن أهمِّ المراجع التي عُنيت بالمُؤلَّفات الإسماعيليَّة كتاب «المُرشد إلى أدب الإسماعيليَّة» الذي نَشَرَهُ إيفانوف، وكتاب «الفهرست» للشّيخ إسماعيل بن عبد الرّسول. وتضمُّ المكتبات اليوم عدداً كبيراً من آثار الإسماعيليَّة التي أُتيح لها أنْ تخرج إلى النُّور، وعُنيَ بنَشْرها باحثون من الإسماعيليَّة، وغيرهم. وأمَّا أشهر مَنْ ألَّف من القرامطة وأقدمهم فهُو عبدان (ت سنة286 هـ)، وكان صهر حمدان قرمط، وداعيته الأوَّل، وله كُتُبٌ كثيرةٌ ذَكَرَهَا ابن النّديم، وبعضها منحولٌ، نُسبَ إليه، ولم يصل شيءٌ منها إلى العصر الحديث. ويُعَدُّ القاضي أبو حنيفة النُّعمان بن مُحمَّد بن حيُّون المُتوفَّى عام 363 هـ، من أغزر مُؤلِّفي الإسماعيليَّة نتاجاً، ويُعزى إليه وَضْع أكثر من 42

مُؤلَّفاً منها كتاب « دعـائم الإسـلام في فكْـر الحـلال والحـرام والقضايـا والإحكـام » ، وكتـاب « أساس التّأويل » و « تأويل الدّعائم » وغيرها. ومن مشاهير مُؤلّفي الإسماعيليَّة أيضـاً أبـو يعقوب إسحاق بن أحمـد السّجزي أو السّجستاني (ت331 هـ) مُصنَّف كتـاب « الينابيع » ، وهُو من أهمِّ كُتُبهم ، وأبـو منصـور اليمـاني الشّاذلي ، والدّاعـي حميـد الدِّين أحمـد الكرمـاني المُلقَّب بحُجَّة العراقَيْن (ت411 هـ) ، صاحب كتـاب « راحة العَقْـل » وهُـو من أهـمِّ كُتُبـه في العقيدة والفلسفة ، وداعي سرمين أبو المعالي حاتم بن محمُود بـن زهـرة (449 ـ 498 هـ) ، وحـاتم ابن إبراهيم الحامدي (ت 596 هـ) ، صاحب كتاب « تنبيه الغافلين » و « زهر بـذر الحقـائق » ، وأبو حاتم الرّازي أحمد بن حمدان الورثامي اللّيْثي (ت322 هـ) الذي استجاب له جماعـة مـن الدّيلم؛ وفيهم أسفار بن شيرويه ، وله « كتاب الزّينة في الكلمـات الإسـلاميَّة » ومُنـاظرة مـع مُحمَّد بن زكريا الرّازي الطّبيب المشهور ، نَشَرَهَا في كتابه « إعلام النُّبوَّة » ، وأبو قاسم الحَسَن ابن فرج بن حوشَب (230 ـ 303 هـ) ، ومن مُؤلَّفاته كتاب « أسرار النُّطقـاء » ، ونـاصر خسـرو (394 ـ 381 هـ) ، وداعي الدُّعاة عبد الله المُوسَى بن داود الشّيرازي (391 ـ 470 هـ) ، وعبـد الله ابن أحمد النَّسَفي البردغي (ت331 هـ) ، والدّاعي عليّ بـن مُحمَّـد ابـن الوليـد (522 ـ 612 هـ) والدّاعي المُطلق عماد الدِّين إدريس بن الحَسَن القرشـي (ت 872 هـ) ، صـاحب كتـاب « نُزهـة الأفكار » وكتاب « عُيُون الأخيار وفُنُون الآثار » ، وهُما من أهمِّ مصادر الدّعوة الإسـماعيليَّة في اليمن ، حتَّى وفاة المُؤلِّف ، والدّاعي الذُّؤيـب بـن مُوسَـى الـهمذاني (ت 536 هـ) ، أوَّل الدُّعـاة المُطلقين من المُستعلية ، وقد اشـتهر باسـم « فـراص الكُتُـب » لولَعـه باستخراج دفائنـها وفَـكِّ رُمُوزها ، والشّيخ أبو فراس شـهاب الدِّين المنيقي (872 ـ 937 هـ) ، صـاحب كتـاب « منـاقب المولى راشـد الدِّين سنان » ، والدّاعـي حَسَن بن نُوح (ت 929 هـ) ، وغيرهم ، وقـد يُبـالغ بعضهم ، فينسب إلى الإسماعيليَّة عدداً مـن كبـار المُفكِّرين والفلاسـفة المُسلمين المعروفين.

ويذكر الدّاعي حَسَن بن نُوح في حديثه عن مراحل « تكوُّنه الفكْري » أنَّه دَرَسَ ما لا يقلُّ عـن خمسين كتاباً ورسالةً في الشّريعة المأثورة عن الأئمَّة ، وكُتُب الوعظ ، وكُتُب السِّيَر الكريمـة في إثبات إمامة أمير المُؤمنين عليّ بن أبـي طـالب ، وكُتُـب البراهين ، والعُلُـوم المكنونـة ، وإبطـال

الباطل، والفضل والفضيلة. وفي ذلك إلماعة إلى غنى الثّقافة الإسماعيليَّة وتنوُّعها والتزامها بأهدافها [1].

المُوحِّدُون (أو الدُّرُوز):

الاسم والمنشأ:

ربَّما يكون المُوحِّدون - كما يُحبُّون تسمية أنفسهم -، أو "الدُّرُوز" - كما يُسمِّيهم الآخرون -، أكثرَ الطّوائف الإسلاميَّة تعرُّضاً لإساءة فَهْمها، بل أكثرَ الطّوائف في الدُّنيا جهلاً من العالم بحقيقتها. ولعلَّ السّبب في ذلك أنَّ عقيدة "المُوحِّدين" اتَّسمت بطابع الغنُوصيَّة والسِّرِّيَّة، فكان مشايخهم ينأون بعقيدتهم أنْ تُذاع أو تَشيع بين العوامِّ، حتَّى لا يُساء فَهْمها، فلا يُعلِّمونها إلاَّ لِمَنْ اكتملَ عقله، وثبت رُشده وصلاحه، ونتيجةً لهذه السِّرِّيَّة والانطواء كثُرَت حولهم الأقاويل، وتناثرت حولهم الظُّنُون التي يعتمد أكثرها على الحَدْس والتّخمين، بل لقد قامت حولهم الكثير من الادِّعاءات الباطلة والافتراءات الخبيثة.

ويعود تاريخ الدُّرُوز (المُوحِّدين) إلى قُرابة ألف عام؛ إذْ هُم أحد الفرَق التي انشعبت، وانشقَّت، في أواسط عهد الحُكْم الفاطمي، عن الشِّيعة الإسماعيليَّة مذهب الفاطميِّين الذين حكَموا مصر، كما تقدَّم.

ترجع بداية نُشُوء طائفة المُوحِّدين (الدُّرُوز) بالتّحديد إلى عهد خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي حكَم مصر في الفترة 386 إلى 411 هـ (996 إلى 1021م)؛ حيثُ بدأت الطّائفة كحركة دينيَّة باطنيَّة، تمحورت حول ثلاث شخصيَّات: الاثنتان هُما "حمزة بن عليّ بن أحمد" (صُوفي فارسي) والخليفة الفاطمي "الحاكم بأمر الله"، أمَّا الشّخصيَّة الثّالثة؛ فهي "مُحمَّد بن إسماعيل الدَّرَزي"، بفتح الدّال المُشدَّدة وفَتْح الرّاء، وهُو أحد الدّاعين لتأليه الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، وقد بشَّر بمذهبه هذا في وادي التَّيم في شرق لُبنان، وهُو الموطن الأوَّل

(1) مادَّة "الإسماعيليَّة" في الموسوعة العَرَبيَّة الصّادرة عن هيئة الموسوعة العَرَبيَّة التّابعة لرئاسة الجُمهُوريَّة العَرَبيَّة السّوريَّة، ج2/ ص385-393، مع إضافات وتنقيحات كثيرة.

للدُّرُوز، وكانت له ميُول يهُوديَّة ومجوسيَّة، ويُقال: إنَّ الدُّرُوز قَتَلُوه، وهُـو المعروف باسم "نشتكين الدَّرَزي"، وهُو شخصيَّة مرفوضة من قِبَل المُوحِّدين، ويعتبرونـها هـي التـي شـوَّهت مذهبهم، ولكنْ؛ من سُخريات القَدَر أنَّهم أصبحوا يُنسبون لهذا الشّخص الـذي يرفضونـه، ولذلك؛ فهُم يُحبِّذون اسم "المُوحِّدين"، ويعتبرونـه اسمهم الحقيقـي. والبعض منهم الـذي يقبل باسم الـدُّرُوز يقـول: إنَّـه ليس نسبةً "لمحمَّـد بن إسماعيل نشتكين الـدَّرَزي" سيِّىء السُّمعة، وإنَّما نسبةً لشخص آخر اسمه "أبو منصور أنوشتكين الـدُّرْزي" بضمِّ الـدَّال المُشـدَّدة وسُكُون الرَّاء، كان أحد قُوَّاد الحاكم بأمر الله، فيرى أنَّ الطَّائفة تنتسب إلى هـذا الأخير دُون الأوَّل، وما زال الدُّرُوز إلى اليوم يلعنون نشتكين، ويُجلُّون أنوشتكين [1].

كيف نشأت طائفة المُوحِّدين (الدُّرُوز):

ذكرنا أنَّ الدّولة الفاطميَّة قامت في شمالي أفريقيا في القرن الرّابع الهجري على يد عُبيد الله المهدي أحـد أئمـّة الشّيعة الإسـماعيليَّة، ثُـمَّ امتـدَّ سُلطانها إلـى مصـر. وتولّـى المنصـور (الفاطمي) الخلافة بعد أبيه العزيز سنة 386 هـ، وعُمره أحد عشر عاماً، ولُقِّـبَ "الحـاكم بـأمر الله"، وكُنيته "أبو عليّ".

اتَّسع ملـكُ "الحـاكم بـأمر الله"، ودان لسُلطانه مُعظـم الأقطـار الإسـلاميَّة في حُكْـم دامَ خمساً وعشرين سنةً، قَهَرَ خلالها بني العبَّاس، وأبطل الخُطبة للقادر بالله العبَّاسي.

وفي عهد "الحاكم بأمر بالله" ظهرت حركة إصلاحيَّـة باطنيَّـة صُوفيَّـة سريَّة، حمـل لـواء دعوتها وزير الحاكم والمُقرَّب إليـه جـداً، "حمـزة بـن علـيّ الزّوزنـي الفارسـي الصُّـوفي"؛ لأنَّ رسـائل مذهـب التّوحيد الجديد مُؤرَّخة بسنين تُسمَّى «سني حمـزة»، لا الحـاكم، وهـي تبـدأ من شهر صفر 408 هـ.

كان الدّاعي للمذهب الجديد في ديار الشّام نشـتكين الـدَّرَزي الـذي نُسـب الـدُّرُوز إلـى اسمه؛ وهُو من أصل تُركي، وقيـل فارسي، فأسـاء التَّصَـرُّف، وتمـرَّد علـى تعـاليم حمـزة، ونَافَسَهُ السُّلطة مُتنكِّراً لإمامته؛ حيثُ وجَّه إليه حمزة التّنبيه التّالي في نهاية سنة 408 هـ.:

---

(1) "الدُّرُوز" للزّغبي، ص 36، 37، 52، و"الدُّرُوز" لسليم أبو إسماعيل، ص 7.

« ... إنْ كُنتَ تدَّعي الإيمـان، فَأقِرَّ لـي الإمامـة، كمـا أقْـرَرْتَ في الأوَّل... من غـير أنْ تلعن أحداً... إنَّ اللَّعنة لا تزيد في الدِّين، ولا تُنقص منه، وخاطب النَّاس بالتي هـي أحسـن، فإنَّ مولانا يُحبُّ المُحسنين، فإذا فعلتَ مالت قُلُوب العالم إلينا ... »[1].

ولكـنَّ الـدَّرَزي، وبِمُعاونـة بعـض الدُّعـاة: كـأبي منصـور الـبردعي وعلـيّ بـن أحمـد الحبال، لم يأبه لرسائل حمزة ودعوته له بالعودة إلى أُصُول الدّعوة، بل سمَّى نفسه: "سيف الإيمان" قائلاً: (أنا سيِّد الهادين)، وَضَرَبَ السكَّة، وَزَيَّفَ الدّنانير والدّراهم، وسـمَّاه حمـزة عندئذ الغطريس؛ أيْ الذي تغطرس على الكَشْف، وَوَجَّـهَ إلـى المُوحِّديـن الرّسـالة السّادسـة عشـرة، والتـي جـاء فيـها: «... وأوّل مـا حذّرتكـم مـن نشـتكين الـدّرَزي والـبردعي وأصحابهما. . . اعلموا أنَّ الدَّرَزي والبردعي نطقا بغير معرفة ولا علم، وعمـلا لغير وجه مولانا. . ، فأعليا البناء بغير أساس، وما أصاب أحدهما ما أصابه إلاَّ باسـتحقاق وعـدل مـن المولى سُبحانه على يدي. . . ».

كما وصف حمزة في رسالته التّاسـعة عشـرة تعـاليم نشـتكين بأنَّـها "الطّـوارق والبوائـق" وقال بأنَّ الإمامة لا يشترك فيها اثنان في وقت واحد، فإنَّها نُـور كُلّـيٌّ لا يقبـل الانقسـام، وفي هذه الرّسالة يُشير حمزة بأنَّ القصاص قد أُنزل بالمُرتدِّين، ويُعلن نبأ قَتْل نشتكين الدَّرَزي سـنة 410 هـ، مع عليّ بن أحمد الحبَّال، والعجمي، والأحول، وخطلخ ماجان وغيرهم.

وقيل: إنَّ الحاكم بأمر الله قد طَلَبَ من حمزة أنْ يجعل مقرَّه في وادي التّيم[2]، ليتسـنَّى له نَشْر دعوته في بلاد الشّام.

قامت في وجه حمزة بعض الفتَن التي تَحَدَّثْنا عنها مع نشـتكين وأعوانه، ولكنَّـه قضـى عليها بسُرعة، فكثر الأتبـاع لحمـزة، واسـتطاع السّيطرة علـى منطقـة حـوران ووادي التّيـم، وبعض جبل لُبنان، ممَّا أتاح للمذهب الجديد أنْ ينتشر.

خرج الحاكم بأمر الله يوم الاثنَيْن، في السّابع والعشرين من شوَّال سـنة 411 هـ، فتوجَّـه إلى شرقي حلوان إلى هضبة تُعرف باسم "جبل المُقطّم"، واختفـى أثَـره مُنـذُ ذلـك اليـوم علـى نحو سرّيٍّ مُلْغز، ولم يعد، وبعد ثلاثة أيَّام أُعلنت غيبته، أو موته.

---

(1) "مذهب الدُّرُوز والتّوحيد" لعبد الله النَّجّار، ص 112.

(2) "تاريخ الدّعوة الإسماعيليّة": ص 238.

رَفَضَ الدّاعيةُ "حمزة بن عليّ الزّوزني" موت الحاكم، وقال بأنّه رُفع إلى السّماء، وسيعود، ليُحاسب الكَفَرَة [1]. وهذه الغيبة ليست إلاّ لتخليص أنفس مُريديه من الأدران، وأنّه سيعود عندما يطفح كَيْلَ الظُّلم في العالم، ليقضي على هذا الظُّلم، ويملأ الأرض عَدْلاً.

الرّسالة الثّالثة والسّبعون تقول عن غيبة الحاكم: «إنَّه احتجب بنُوره عن خَلْقه، فلم يقتف أثره، واستتر لغيبته وليّه وصفيّه، وخَلَّفَ دُعاة».

تأليه الحاكم بأمر الله!!

عرفنا ممَّا سَلَفَ أنَّ طائفة المُوحِّدين هُم من أتباع الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي وداعيته الشّهير "حمزة بن عليّ بن أحمد". وقد كثرت أقوال المُؤرِّخين حول الحاكم، فأكثر المُؤرِّخين أيَّد أنَّ الحاكم قد ادَّعى الأُلُوهيَّة فترةً من حياته، ثُمَّ عاد، وعدل عنها، ثُمَّ عاد مرَّة أُخرى، وادَّعى تجسُّد الله وحُلُوله في شخصه، وظلَّ على دعواه تلك إلى أنْ اختفى موتاً أو قَتْلاً أو (غيبة) حسب اختلاف مُسمَّيات وفاته [2]، وأنَّ داعية من دُعاته اسمه "نشتكين الدَّرَزي" قد بشَّر بأُلُوهيَّته بين سُكَّان وادي التّيم في الأقطار الشّاميَّة، فآمن قومٌ به، بل هُناك مَن يقول بأنَّ من المُحتمل أنْ يكون ادِّعاء الحاكم للأُلُوهيَّة ليس نتيجةً لتعاليم "نشتكين" المذكور [3].
وأصحاب هذا الرّأي لا يقصرون أمر تأليه الحاكم على نشتكين الدَّرَزي وحده، بل يذكرون أنَّ "حمزة بن عليّ"، أكثر النّاس التصاقاً، فهُو صفيُّه وفيلسوف المذهب، قد صنَّف كُتُباً ذَكَرَ فيها أنَّ رُوح الله - سُبحانه وتعالى - حلَّت وانتقلت إلى عليّ بن أبي طالب، وأنَّ رُوح عليّ انتقلت إلى العزيز، ثُمَّ إلى ابنه الحاكم، وجاهروا بنَشْر هذه الدّعوة الجديدة، ولعلَّ أكثرهم حماساً رجل يُقال له: حَسَن بن حَيْدَرة الفرغاني الأخرم، وقد قرَّب الحاكم هذا الرَّجلَ إليه، وخَلَعَ عليه، ولكنَّ فكرة تأليه الحاكم لم تلقَ غير الاشمئزاز والسُّخرية من النّاس، فتقدَّم رجل كرخي ذات يوم من الأخرم، وألقاه عن فَرَسه، ثُمَّ قَتَلَهُ، فما كان من الحاكم إلاَّ أنْ أمر بقَتْل الكرخي، غير أنَّ النّاس انتهزوا الفُرصة، فهاجموا دار الأخرم، ونَهَبُوها [4].

---

(1) "تاريخ الجَمْعيَّات السِّرِّيَّة": ص 44.

(2) لا تستخدم المصادر الدُّرْزِيَّة كلمة موت أو وفاة بالنّسبة للحاكم، بل تستعمل كلمة "غيبة" أو "اختفاء".

(3) "الدّولة الفاطميَّة"، لحَسَن إبراهيم: ص 353.

(4) "الدّولة الفاطميَّة" لحَسَن إبراهيم: ص 356، نقلاً عن نهاية الأرب للنّويري (المخطوط).

فالدُّرُوز ـ في نَظَر تلك الطّائفة من المؤرِّخين ـ هُم الذين آمنوا بألُوهيَّة الحاكم، وقد أدّى ذلك إلى فتنة كُبرى في صفُوف الطّائفة الإسماعيليَّة، الأمْر الذي استدعى حميد الدِّين الكرماني أكبر عُلماء الإسماعيليَّة إلى أنْ يترك مقرَّه بالعراق، وأنْ يفد إلى مصر، لكي يُساهم في القضاء على تلك العقيدة الجديدة، وأنْ يكتب رسالة عُرفت باسم "الرّسالة الواعظة"، يُثبت فيها كُفْر مَنْ تُحَدِّثُهُ نفسه بتأليه الحاكم بأمر الله، ولم يترك الكرماني مصر إلاَّ بعد قَتْل الحاكم بأمر الله، ولذلك؛ فإنَّ الدُّرُوز يُعْتَبَرُون أوَّل فرقة انْشَطَرَتْ عن فرقة الشِّيعة الإسماعيليَّة [1].

تأليه الحاكم في مُصحف المُنفرد بذاته:

لقد كان "حمزة بن عليّ بن أحمد" مُؤسِّس العقيدة الدّرزيَّة والمُلقَّب في "مُصحف المُنفرد بذاته" بالرّقيب العتيد، قد وَضَعَ ميثاقاً أطلق عليه ميثاق وليّ الزّمان، ذَهَبَ فيه إلى تأليه الحاكم بأمر الله تأليهاً صريحاً، وأوجب على كُلِّ مَنْ يُمارس شعائر دينه أنْ يعترف بكُلِّ مُحتوياته، وأنْ يتعهَّد بالإيمان بكُلِّ فقراته، أمَّا مُقدِّمة الميثاق؛ فهذا نصُّها طبقاً لما جاءت في مُصحف المُنفرد بذاته [2].

« هذا هُو الميثاق والعهد الذي أَمَرَ مولانا الحاكم جَلَّ ذكْرُهُ، بكتابته على جميع المُوحِّدين الذين آمنوا به جلَّ ذكْرُهُ، وليُوفوا بعهدهم الذي عاهدوا، ثُمَّ، وليشهد بذلك ذوا عدل من المُوحِّدين السّابقين على كُلِّ ميثاق، ومَنْ آب ممَّنْ آمن إلى الكُفْر، ولم يُولِّ وجهه قِبَلَ القادر القاهر مولانا الحاكم البارّ، فَلَسَوْفَ يجعل له مولانا فتنة ومتاعاً إلى حين ».

« وهذا ما يكتبه ويشهد به الشّاهدان ذوا العَدْل، بلسان الفَرْد وإيقانه، وهاك هُو »؛ أيْ أنَّ هذا هُو الميثاق، فإليكَ نصُّه:

« توكَّلتُ على مولانا الحاكم الأحد، الفَرْد الصَّمَد، المُنزَّه عن الأزواج والعَدَد، مَنْ لا تأخذه سنَةٌ ولا نوم، ذي التَّجلِّي والإشراق، ومَنْ هُو في السَّماء إله، وفي الأرض إله، قد

---

(1) كامل حُسَين: "الإسماعيليَّة"، ص 43.

(2) "مُصحف المُنفرد بذاته"، عرف العهد والميثاق: ص 111.

أقرّ (فُلان بن فُلان) إقراراً أوْجَبَهُ على نفسه، وأشْهَدَ به على رُوحه في جميع أدواره[1]، في صحَّة من عقله وجسمه، وخالص أمره، طائعاً غير مُكره، ولا مُجبر، بظاهره وبباطنه، مُؤمناً غير مُنافق، ولا مُخاتن، إنَّه قد تبرأ من جميع المذاهب والدّيانات والمقالات والاعتقادات جميعاً، بتباينها واختلافها، وأنَّه لا يُشرك بعبادة مولانا الحاكم ـ جَلَّ ذكْرُهُ ـ أحداً، ماضياً أو حاضراً أو آتياً، وأنَّه قد أسلم رُوحه وجسمه وماله وولده وجميع ما مَلَكَتْهُ يداه في جميع أدواره، ما كرَّ الجديدان ومرَّ الملوان، وما كوّر الليل على النّهار، وكوّر النّهار على اللّيل، هُو ذُرِّيَّته في شتَّى أدوارهم ومحياهم لمولانا الحاكم جَلَّ ذكْرُهُ، ورضي بجميع أحكامه له وعليه، غير مُعترض أو مُنكر شيئاً من أفعاله، ساءهُ ذلك أم سرَّهُ، ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم ـ جَلَّ ذكْرُهُ ـ وهُو ما كَتَبَهُ على نفسه، وأشْهَدَنَا به على رُوحه، أو أشار بالرُّجُوع عنه إلى غيره، أو خالف شيئاً من أوامره، كان فُلان بن فُلان محروماً من جميع الحُدُود، وكان مولانا الحاكم ـ جَلَّ ذكْرُهُ ـ بريئاً منه، والمُؤمنون المُوحِّدون في جميع أدوراهم، واستحقَّ العُقُوبة من البارئ العليّ ـ جَلَّ ذكْرُهُ، بأيدي المُؤمنين، وأنَّ (فُلاناً بن فُلان) هُو قد أقرَّ أنْ ليس له في السّماء إله معبود، ولا في الأرض إمام موجود، إلاَّ مولانا الحاكم ـ جَلَّ ذكْرُهُ ـ، وتعالت مُطالعه ومشارقه، وبذلك دخل (فُلان بن فُلان)، وأصبح من المُوحِّدين المُؤمنين الفائزين السّابقين، كُتب في شهر ( ) من سنة ( ) من سني عبد مولانا ـ جَلَّ ذكْرُهُ ـ ومملوكه حمزة بن عليّ بن أحمد، هادي المُستجيبين، المُنتقم من المُشركين المُرتدِّين، بسيف مولانا جَلَّ ذكْرُهُ، وبشدَّة سُلطانه وحدهُ»[2] ثُمَّ يُوقَّع على هذا الميثاق شاهدٌ وكاتبٌ.

يُورد الدُّكتُور مُصطفى الشّكعة هذا النَّصَّ في كتابه "إسلام بلا مذاهب": (ص270 ـ 271) نقلاً عن كتاب "مُصحف المُنفرد بذاته"، ثُمَّ يقول:

إنَّ هذا النَّصَّ، وهُو مأخوذ من مصدر مُوثَّق، غير مطعون فيه، يدلُّ دلالة واضحة على أنَّ الحاكم بأمر الله مُؤلَّه عند جماعة من الطّائفة المُتديِّنة من الدُّرُوز.

---

(1) إشارة إلى عقيدة المُوحِّدين بالتَّقمُّص والتّناسخ، بمعنى أنَّ الإنسان إذا مات فإنَّ رُوحه تتقمَّص إنساناً آخر يُولد بعد موت الأوَّل، فإذا مات الثّاني تقمَّصت رُوحه إنساناً ثالثاً، وهكذا في مراحل مُتابعة للفَرْد الواحد، وأُطلق على كُلِّ مرحلة من هذه المراحل لفظ دَوْر والجَمْع أدوار، وسنأتي على توضيح هذه العقيدة في الصّفحات التّالية من هذا الكتاب.

(2) "مُصحف المُنفرد بذاته"، عرف العهد والميثاق: ص 112 ـ 114.

هذا؛ في حين يذكر الدُّكتُور الشكعة نفسه، في كتابه المذكور، أنَّه خلال لقاءاته مع عدد من كبار مشايخ الدُّرُوز ورجالاتهم وسُؤالهم عن عقيدتهم في الحاكم بأمر الله، أكَّدوا له أنَّ الحاكم بأمر الله في نَظَرهم إمام فحسب، وله قُدسيَّة خاصَّة عند البعض، ولكنَّه ليس بإله، وأنَّ فكرة تأليهه هي من الأفكار الباطلة التي دسَّها نشتكين الدَّرَزي على المذهب، فراجت على كثير من العوامِّ.

أُصُول ومنبع عقائد المُوحِّدين:

إنَّ عقيدة الدُّرُوز عقيدة سريَّة تنبع سرِّيَّتها من أُصُولها ومناهلها، والسِّرِّيَّة فيها - إذاً - ليست من باب التَّقيَّة، كما هُو الحال في المذاهب الباطنيَّة، وإنَّما هي سريَّة مشروعة [1] نابعة من أُصُول العقيدة، فإنَّ صيانة الحقائق حسبما يقول "الدُّكتُور مكارم" في مسلك الدُّرُوز هي أصل "وأسٌّ رئيسي" وليس نهجاً طارئاً [2]. ومن هُنا تنبع المُشكلة التي أُثيرت وتُثار دائماً عن مدى ما يستطيعه الدّرزي العادي من التَّعرُّف على حقائق مذهبه وأقواله.

والدّرزيَّة عقيدة تتلفَّع بالفلسفة، وتغوص إلى أعماق بعيدة في التّأويل، لا يستطيع غير المُتمرِّس على المُصطلحات الفلسفيَّة والأساليب الصُّوفيَّة ومسالك أهل الكلام، من سَبْر أغوارها، وهَضْم أُصُولها، وتَفَهُّم مُنعرجاتها، ومن ثمَّ؛ كانت صُعُوبتها على العامَّة وحُجُبها تبعاً لذلك عنهم.

وأُصُول العقيدة خليط من نَظَريَّات الفلاسفة القُدامى وأفكارهم من يُونان وإيرانيّين وهُنُود وفراعنة، ولعلَّ الدُّرُوز قد عمدوا إلى السِّرِّيَّة التي ضربوها على مذهبهم تمشِّياً مع بعض آراء الفلاسفة القُدامى الذين كانوا يُوصون بحُجب آرائهم وسَتْرها عن جُمهُور النّاس. فقد أوصى بالسِّرِّيَّة كثير من الحُكَمَاء في العُصُور السّالفة مثل "هرْمس" و"أفلاطون" و"فيثاغورس" وبعض حُكَمَاء الهند وفارس، وهؤلاء جميعاً يُكرِّمهم الدُّرُوز، ويعتبرون فلسفاتهم ونَظَريَّاتهم من جُملة مصادر المذهب [3].

---

(1) "أضواء على مسلك التّوحيد": لبايزيد، ص 65.

(2) "أضواء على مسلك التّوحيد": ص 96.

(3) المصدر السّابق: ص 97، 103.

بل هُناك من الآراء مَنْ تذهب إلى أنَّ دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله في القاهرة كانت على مثال أكاديميَّة أفلاطون [1]. وكما أنَّ الدُّرُوز أخذوا من حكمة الهند قدراً غير قليل، وارتبطت مبادئهم بها ارتباطاً وثيقاً، فإنَّ كان كتاب "بلوهر الحكيم" المُنتشر بين الدُّرُوز ليس إلاَّ رواية "للبُوذا السّعيد" بعد تحريف الاسم، ومن خلال هذا الحقل الهندي - أيضاً - أخذ حمزة بن عليّ مبادئ دعوته من حكيم هندي قديم يُدعى الحاكم الحكيم [2].

وأخذت العقيدة الدّرزيَّة من الفراعنة مُمثّلين في "أمحوتب" الذي أَلَّهه المصريُّون القُدامى. فقد وَرَدَ ذكْرُهُ مرَّات عديدة - فيما يروي الدُّكتُور مكارم - مقروناً بالتّمجيد والتّعظيم في إحدى المخطوطات المُكتشفة حديثاً، المنسوبة إلى حمزة [3].

وإجمالاً؛ فإنَّ العقيدة الدّرزيَّة تنبعث في الأصل من حكمة اليُونان، مُتمثّلةً في "أفلاطون" و"أفلوطين" و"فيثاغورس"، مُعرِّجةً على الحكمة القديمة في كُلٍّ من الهند وفارس ومصر، وهي في الوقت نفسه - فيما يعتقد الدُّرُوز - امتدادٌ لكُلٍّ هذه الفلسفات، إلى الحَدّ الذي يجعل فلاسفة اليونان يحتلُّون مكانة قريبة من مكانة الأنبياء، بل هي مكانة الأنبياء بعينها، ولايكاد يُذكر اسم "أفلاطون" أو "فيثاغورس" أو "هرمس" [4] أو "أمحوتب" عند المُعاصرين من المُؤلِّفين الدُّرُوز إلاَّ مقروناً بعبارة "عليه السّلام"، تماماً كما لو كان نبيّاً من أنبياء الكُتُب السّماويَّة.

ولعلَّ هذه السِّمة اليُونانيَّة في أصل العقيدة الدّرزيَّة تُشكّل سبباً أساسيّاً في الرّبط بين الدّرزيَّة وبين أخوان الصّفا، وغنيٌّ عن الذّكر - أيضاً - أنّها مُرتبطة بالإسماعيليَّة الباطنيَّة للسّبب نَفْسه، ولأنّها انبثقت منها، ولو بشكل غير تامٍّ.

وعلى قمّة العقيدة الدّرزيَّة - من حيثُ كونها امتداداً للفلسفة اليونانيَّة القديمة، والفلسفات المشرقيَّة - يتربَّع ما قد اصطلحوا على تسميته بالعَقْل الأرفع، أو "العَقْل الكُلّيّ"،

(1) مُقدّمة السيّد كمال جنبلاط على كتاب "أضواء على مسلك التّوحيد": ص 51 - 52.

(2) المصدر السّابق: ص 51 - 52.

(3) المصدر السّابق: ص 100.

(4) "أضواء على مسلك التّوحيد": ص 145: ينظر الدُّرُوز على هرمس "بعين التّقديس، ويجعلونه في صفّ الأنبياء كما يفعل الصّابئة، أو كما يَعدّه المانويُّون".

وهُو حسب تعريفهم ـ وسأحاول هُنا أنْ أكون ناقلاً حتَّى تكون الصُّورة أمينة كُلَّ الأمانة لـدى القارئ : ـ « مصدر انبثاق جميع الكائنات ، وهُـو عـين بقائـها في هـذا الوُجُـود الظّاهر ، ومنـه ابتُدعت ، فهي لا تنفصل عنـه ، ولا ينفصـل عنـها ، مـن حيـثُ العلَّـة والمعلـول في تـنزُّل فعـل الخَلْق ، فالعَقْل الأرفع من هذا القبيل يحلُّ في سرِّ أسرار جميع الكائنات علـى احتجـاب شبه كُلِّيٍّ أو جُزئي ، أو وعي مُتفاوت لا يبلغ أقصاه إلاَّ في مرآة جوهر عقل الإنسان ، بوصفه أرفع هذه الكائنات ، وأقربها من استيعاب نُور الحقّ الذي منه انبثقت ، على أنَّ هـذا العَقْـل الأرفـع هُو واسطة الكَشْف المعرفة وأداة المشاهدة في كُلِّ نفس مُؤمنـة ، بـه يتـمُّ الشُّهُود لجوهـر الـذّات الفَرْد ، دُون أنْ يرتفع الإنسان من درجته وحده إلـى كينونـة هـذا "العَقْـل الأرفـع" ، الـذي هُـو الأصل والحَدُّ الأوَّل »[1] .

و"العَقْل الكُلِّيُّ" بعبارة أوضح : هُو البداية وهُو النّهاية ، وقد أُطلق عليه ـ لذلـك ـ نُقطـة البيكار ، وحسب مُعتقد الدُّرُوز كالإرادة والإبداع . ويستطرد التّعريـف الـدّرزي قـائلاً : « إنَّ إرادة الإبداع واجبة الوُجُود ، لوُجُود ذلك الإبـداع ، وهـي ـ بالبداهـة ـ أصـل كُـلِّ موجــود وعلَّته ، وهي علَّة جميع العلَل في الوُجُود ، والله مصدرها ويَنبوعها ومُعلُّها »[2] .

تلك هي المنابع والأُصُول القديمة للمُوحِّديـن (الـدُّرُوز) كمـا يُقدِّمـها المُتخصِّصُـون مـن أبناء العقيدة .

حُدُود مذهب المُوحِّدين:

الله لا إله إلاَّ هُو ، وحده لا شريك له ، يُحيي ويُميت ، وهُو على كُـلِّ شـيء قدير . لـه المُلك ، ولـه الحمـد ، حيٌّ قيُّوم ، جَـلَّ ذكْـرُهُ عـن وصـف الواصفـين . فـهُو لا يُـدرَك ، رحيـمٌ شفيقٌ ، واحدٌ أحدٌ ، فَرْد صَمَـدٌ ، مُنزَّه عن الأزواج والعَـدَد ، لا تـأخذه سـنَةٌ ولا نـومٌ ، وهُـو علاَّم الغُيُوب .

---

(1) المصدر السّابق : 123 ـ 124 .

(2) المصدر السّابق : ص 158 .

خَلَقَ السّماوات والأرضَ، وهُو المُبدع القاهر، قديمٌ بلا بداية، ولانهاية. مُتّصفٌ بكُلِّ الأوصاف الكَمَاليَّة، وهُو خالق النُّور والظُّلمة، أمَّا الحُدُود الخمسة؛ فهي:

1 ـ العَقْل الكُلِّيُّ: السّابق الحقيقي. خُلق بأمر الله سُبحانه. وهُو جوهر بسيط رُوحاني، وفيضٌ من النُّور الإلهي اجتمعت فيه صُور الموجودات [1].

2 ـ النَّفْس الكُلِّيَّة: هي فيض من العَقْل، وجُزء مُتمِّم له. انبثقت عن العَقْل، فَنُسبَتْ له كنسبة العَقْل إلى الخالق، وكنسبة نُور الشّمس إلى الشّمس.

وللنَّفْس خمسة أفعال: تدبير، نيَّة، اعتقاد، قول، وعمل.

وكمالاتها خمسة، ومراتب نقصها خمسة، ومواطن عزِّها خمسة، ومواطن ذُلِّها خمسة، ومراتبها خمسة.

3 ـ الكلمة: الجناح الرَّبَّاني، صاحب السِّفارة والكلام، بشير المُؤمنين... هي النّاطقة بالأمْر الصّادر، تنطق بما يُوحيه العَقْل، ويعيه النَّفْس.

4 ـ السّابق: يُنبوع المعرفة الإنسانيَّة، باب حُجَّة القائم، الجناح الأيمن.... إلخ.

5 ـ التّالي: الجناح الأيسر، آخر الحُدُود، لسان المُؤمنين، سند المُوحِّدين، النّاصح.

هذا؛ وقد قام بهاء الدِّين بأعظم قسط من نَشْر الدّعوة، وكَتَبَ أكبر عدد من رسائلها، وقد ابتدأ مُزاولة نشاطه الدَّعَوي ابتداء من سنة 411 هـ، وبقي حتَّى سنة 434 هـ؛ لأنَّه ـ بعد غيبة الحاكم بأمر الله وحمزة ـ لم يبقَ سواه يتَّصل بالمُوحِّدين، ويُعنى بشُؤُونهم، وأصبح الزّعيم الرُّوحي، يأمر، وينهى، ويُعيِّن، ويعزل، ويفصل في كُلِّ عمل يتعلَّق بشُؤُون الدّعوة.

خُلاصة مُعتقدات المُوحِّدين:

الدُّرُوز مُوحِّدون بشكل صارم، فهُو يُؤمنون بالله الواحد الأحد الفَرْد الصَّمَد الذي لا شريك له، ولا ندَّ له في ذاته ولاصفاته، رافضين في عقيدتهم أيَّ نوع من أنواع الشِّرْك أو التّثليث ونحوهما.

---

(1) "أصل المُوحِّدين الدُّرُوز وأُصُولهم": ص 63.

يَعتبرُ الدُّرُوز القرآن كتاباً مُقدَّساً، ولكنَّهم لا يتوقَّفون عند المعاني الظَّاهريَّة لألفاظه، بل يرون أنَّها إشارات لمعان باطنيَّة عميقة Inner Esoteric meaning. وتُعرف النُّصُوص المُقدَّسة لديهم باسم جامع لها هُو: "كتاب الحكمة"؛ الذي هُو مجموع عدَّة كُتُب أو رسائل، تُعتبر أوَّل ستَّة رسائل منها الأكثر استخداماً وتداولاً.

يُؤمن الدُّرُوز بسبع أنبياء عظام؛ من جُملتهم: آدم، نُوح، إبراهيم، مُوسَى، وعيسى (الذي يعتبرونه ابناً ليُوسُف). كُلُّ نبيّ عظيم له سبع أنبياء صغار، كُلٌّ واحد منهم له اثنا عشر تلميذاً (حوارياً)، في قائمة طويلة تضمُّ دانيال وأفلاطون وأنبياء آخرين من أنبياء التّوراة والعهد القديم، وشخصيَّات من فلاسفة اليونان القُدامى. ويرون أنَّ الأنبياء لا تجوز عبادتهم ولكنْ؛ يجوز الاستغاثة بأسمائهم، وطَلَب العون منهم؛ لكَشْف الكربات، وطَلَب الحوائج، وأنَّ الأنبياء لا يُخطئون، ولا يُذنبون، بل معصومون عن كُلِّ خطيئة عصمة مُطلقة.

التّناسخ: وهُو انتقال النَّفْس من جسم بشريٍّ آخر، وهي لا تموت، ولا تنتقل إلى جسم حيوان.

التَّقمُّص: يعتقدون بهجرة الأرواح (التَّقمُّص): وأنَّه عند الموت تقوم الرُّوح بخَلْع قميص الجسد الميِّت، لتلبس ـ فوراً ـ قميصاً (أيْ جَسَداً) جديداً يُولد في الدُّنيا من جديد. وتعود عقيدة التَّقمُّص إلى قُدماء المصريِّين، وتعاليم فيثاغورس، وبُوذا، وغيرهم. وحاول أفلاطون تعليل نُمُوِّ المعرفة واستيعابها للحقائق بمُرُور الأرواح في حياة سابقة، كما أنَّ نيتشه قد وَضَعَ نَظَريَّته «التكرار الخالد» أيْ أنَّ ما يحدث الآن حَدَثَ سابقاً، وعند المُوحِّدين فإنَّ التَّغيير الرُّوحي مُستمرٌّ، فالأرواح خُلقت بعد العَقْل الكُلِّيِّ من نُمُوِّه الرُّوحاني، محدودة العدد عند الله، لا تزيد ولا تنقص على مدى الأجيال. فالرُّوح تنتقل إلى جسد جديد بالولادة؛ لأنَّها لا تموت، ويعتقدون بأنَّ الأجساد لا تقوم من القُبُور بعد موتها.

أمَّا جزاء ومثوبة النَّفْس أو الرُّوح فهُما بمقدار ما تكتسب من المعرفة والعُلُوم في أدوار انتقالها من قميص إلى قميص.

الحُلُول والنّطق: الحُلُول هُو نوع من التَّقمُّص، وفيه تنتقل النَّفْس من جسم لآخر. بجميع صفاتها أو ببعض منها. أمَّا النُّطق؛ فهُو أنْ يتذكَّر بعض الأطفال حياتهم الماضية في

التّقمُّص السّابق قبل تقمُّصهم الحالي، فينطقون أو يتكلّمون عن حياتهم الماضية قبل موتهم الأوّل، بل يتذكّرون أقرباتهم في حياتهم الأولى، ويتعرّفون إليهم إذا كان لا يزال بعضهم أحياء. يقول عبد الله النّجّار في كتابه «مذهب الدُّرُوز والتّوحيد» صفحة 69: «إنّني لم أجد كلمة واحدة في جميع كُتُب (الحكمة) تُثبت هذا الزّعم (النّطق)، بل وجدتُ ما ينفيه نَفْياً قاطعاً، ولا يترك مجالاً للتّأويل».

يوم الدّينونة: بالرّغم من اعتقاد المُوحّدين بالتّناسخ والتّقمُّص والحُلُول؛ فإنّهم يعتقدون بيوم الدّين، يوم يُنصب فيه ميزان الحقّ، يوم تُحاسب كُلُّ نَفْس عمّا فَعَلَتْهُ من خير أو شرٍّ في جميع الأدوار التي مرّت بها.

المُقدّر والمشيئة: الإنسان مُخيّر ومُسيّر في آن واحد، فهُو مُخيّر فيما يحُدُّه عقله، ويصل إليه إدراكه، ومُسيّر في الأُمُور التي لا قَبَل له بها، والمُقدّر كائن لا يُمحَى، ولا مهرب منه. إذاً؛ إنّ مذهب التّوحيد يُنكر القَدَريّة المُطلقة؛ لأنّ المُقدّر الجَبْريّ يتعارض مع الإيمان بالعَدْل الإلهي. لذلك؛ فالدُّرُوز يُسمُّون أنفسهم «أهل العَدْل والتّوحيد».

وعلى عقيدة التّخيير؛ تقوم فلسفة التّقمُّص، فيكون تكرار الرُّوح في مدى أجيال البقاء البشري، وبمُرُورها الاختيار والتّجريب والامتحان إعداد لها وتطوير، قبل وُصُولها إلى يوم الحساب. فالرّسالة الثّالثة والخمسون تقول: «...أعيروني أفهامكم... إنّ الباري - جلّتْ آلاؤهُ - مُنزّه عن الظُّلم... لم يُهمل بريّته. لم يُهمل بريّته، ولم يُخلهم في كُلّ وقت وزمان من داعٍ إلى كلمة التّوحيد والهدى... لتقوم الحُجّة على جميع الأُمم... إنّ أمر الباري عرضٌ وتخييرٌ. ونَهْيُهُ عظةٌ وتحذيرٌ؛ لأنّه لو كان أمره حتماً واجباً، ونَهْيُهُ جزماً لازباً، لم يشكّ في توحيده من البريّة أحد، وتساوى الكافّة في الدّين والمُعتقد، وعند تساويهم يبطل الثّواب والعقاب».

دعائم الإيمان عند المُوحّدين:

بالإضافة إلى جميع الفرائض القُرآنيّة أَوْجَبَ المُوحّدون ما تضمّنته الرّسالة السّادسة:

1 - صدْق اللّسان: فالصّدْق رأس الإيمان؛ لأنّه يُمثّل العَقْل، والكذب البُهتان.

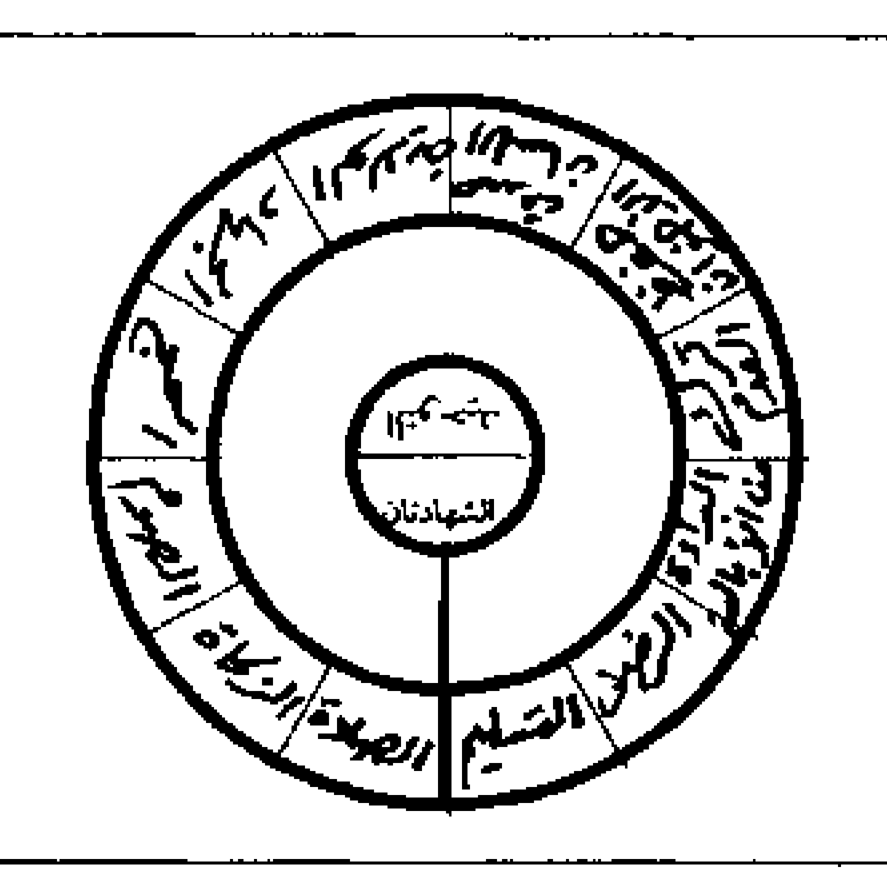
2 ـ حفظ الإخوان : أيْ يجب على المُؤمن أنْ يُحافظ على أخيه المُؤمن بالحقّ .

3 ـ تَرْكُ عبادة العدم والبُهتان ، والتَّبرُّؤ من الأبالسة والطُّغيان ؛ أيْ النَّهْي عن عبادة الأوثان والسُّجُود للأصنام .

4 ـ توحيد الخالق في كُلِّ عصر وزمان ، وعبادته بالسِّرِّ والعَلَن ، وعدم الشِّرْك به ، واحترام الشّريعة .

5 ـ الرّضا بفعل الله ـ تعالى ـ كيفما كان ، والتّسليم لأمره في السِّرِّ والحَدَثان .

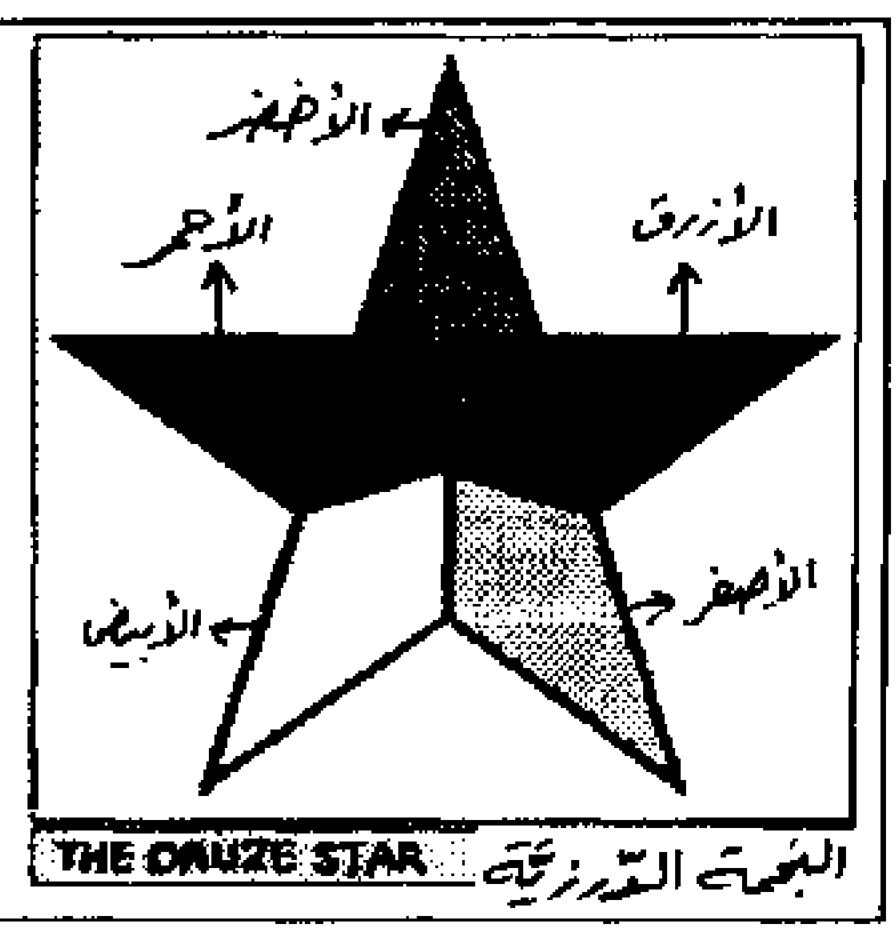
وفي الصّفحة التّالية اثنان من رُمُوز المُوحِّدين مع شَرْحها :



رمز دعائم الإيمان:

في المركز : الشّهادتان والتّوحيد .

في المُحيط : الصّلاة ـ الزّكاة ـ الصّوم ـ الحجُّ ـ الجهاد ـ الولاية ـ صدق اللِّسان ـ حفظ الأخوان ـ ترك العدم ـ البراءة من الأبالسة ـ الرّضى ـ التّسليم .



النّجمة الخُماسيّة ذات الخمس ألوان كرمز لحُدُود المذهب الخمسة التي مرَّ ذكْرها :

فاللّون الأخضر رمزٌ للعَقْل الكُلّيِّ .

واللّون الأحمر رمزٌ للنَّفْس الكُلّيَّة .

واللّون الأصفر رمزٌ للكلمة .

واللّون الأزرق رمزٌ للسّابق .

واللّون الأبيض رمزٌ للتّالي .

شُرُوط التّقوى عند المُوحِّدين:

على المُؤمن أنْ يتقيَّد بعدَّة شُرُوط ليكون تقيّاً، ويُصبح من الأجاويد؛ منها:

الابتعاد عن المُسكرات والتّدخين على أنواعه.

عدم الشّراهة في كُلّ شيء.

تجنُّب البهرجة والخلاعة لدى النّساء، والاعتدال في الملابس.

التّواضع.

الاحتشام في الجُلُوس والحديث.

مُخاطبة النّاس بلُطف ولين.

مراتب المُوحِّدين:

ينقسم المُوحِّدون إلى طبقتَيْن رئيسيَّتَيْن:

الأولى طبقة الرُّوحانيِّيْن: وهُم الرُّؤساء والعُقَّال والأجاويد:

فالرُّؤساء: هُم الذين بيدهم جميع الأسرار الدِّينيَّة.

والعُقَّال: هُم الذين ألمّوا بعُلُوم الدِّين، ولازموا الصّلاة التي تُتلى ليلة الجُمعة من كُلّ أُسبُوع، وبيدهم الأسرار التي تتعلَّق بالتّنظيم الدّاخلي للمذهب.

والأجاويد: هُم الذين لا يأكلون في المآتم والأفراح، ولا يتناولون أجراً مُقابل أعمالهم، بل يقومون بها حَسَنة لوجه الله تعالى، وبيدهم الأسرار الخارجيَّة التي تختصُّ بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب الأُخرى.

والعُقَّال والأجاويد نوعان:

أ ـ الأتقياء والمُتبحِّرون بالعلم، والمُنقطعون إلى الصّلاة والزُّهد والتَّقشُّف.

ب ـ العاديُّون الذين ألمّوا بشُؤُون دينهم، وثابروا على صلاتهم وعبادتهم، دُون أنْ ينقطعوا عن النّاس.

وأمَّا الطَّبقة الثَّانية؛ فهي طبقة الجثمانيِّين: وتنقسم إلى أُمراء وعامَّة؛ أو جُهَّال:

فالأمراء: هُم أصحاب الزّعامة الوطنيَّة.

والجُهَّال: هُم الذين يتناولون المُسكر، ويُدخِّنون، ولا يسمح لهم بالصّلاة مع الأتقياء.

وهُناك *طبقة المُنزّهين*: وهُم أهل زُهد وَوَرَع؛ فمنهم مَنْ لا يتزوَّج، ومنهم مَنْ يصوم الدّهر، ومنهم مَنْ لا يذوق اللَّحم، ولا يشرب الخمرة.

وهذه الطَّبقة الثّانية؛ أيْ الجثمانيُّون جميعها لا يحقُّ لها حُضُور "المجالس" أيْ "طُقُوس العبادة"، إلاَّ بعد امتحانات طويلة تحتاج إلى صبر ومُجالدة وإيمان، فإذا اطمئنَّ إلى إيمان الشّخص أُخذت عليه مواثيق مُعيَّنة، من بينها ميثاق "وليّ الزّمان" وبذلك؛ يتدرَّج في مراقي الدّرجات الدِّينيَّة.

حوار مع شيخ عَقْل الطّائفة الدّرزيَّة في لُبنان "مُحمَّد أبو شقرا" حول العقائد والعبادات والأحكام الشَّرْعيَّة الخاصَّة بالمُوحِّدين الدُّرُوز:

يُورد الدُّكتُور المصري مُصطفى الشّكعة في كتابه "إسلام بلا مذاهب" مَتْنَاً لحوارٍ جرى بينه وبين شيخ عقل الدُّرُوز في وقته: الشّيخ "مُحمَّد أبو شقرا" في منزله في بيرُوت، بهَدَف التَّعرُّف على العقائد والأحكام التي اختصَّ بها الدُّرُوز. ولقد رأيتُ من الضّروري أنْ أُورد نصَّ ذلك الحوار بحُرُوفه في كتابي هذا؛ لأنَّه يُلقي الكثير من الضّوء على العبادات والأحكام الفقْهيَّة، لاسيما تلك المُتعلِّقة بالأحوال الشّخصيَّة، والتي يتميَّز بها الدُّرُوز، ويختصُّون بها عن سائر المُسلمين:

يقول الدُّكتُور مُصطفى الشّكعة:

« ولمَّا كُنتُ حريصاً كُلَّ الحرص على أنْ أستقصي العقيدة الدّرزيَّة - ما أمكنني إلى ذلك من سبيل - فقد سعيتُ إلى لقاء كبير رجال الدِّين وهُو "شيخ العَقْل"، وكانت جلسة أُنس مُمتعة، أنستُ فيها بلقاء رجل ذي سماحة وعقل راجح وأُفُق واسع وصدر رحب، وقد

صارحني أوّل الأمْر أنَّ العقيدة الدّرزيَّة شأنها شأن أكثر العقائد الشّيعيَّة تستعين "بالتَّقيَّة"، ولكنَّه لن يكذبني فيما يقول، وإنْ كان سيعمد إلى الامتناع عن إجابة بعض الأسئلة التي لا يُستحبُّ الإجابة عليها من وُجهة النَّظَر المذهبيَّة.

وقد حرصتُ - عمداً في أوَّل حديثي مع الشّيخ - أنْ أستعمل لفظ "الدِّين الدّرزي"، ولكنَّ الشّيخ سارع في حَزْم وقال: يا أخي؛ أرجوكَ، لماذا تقول "الدِّين"؟ قُلْ "المذهب"؛ لأنَّنا مُسلمون مُوحِّدون، نشهد أنْ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ مُحمَّداً رسول الله، ومَنْ قالها فهُو مُسلم، وإنْ خالف في بقية الشّعائر التي تختلف فيها أكثر الفرَق، وقد كُنتُ حريصاً - أيضاً - على أنْ أعرف من الشّيخ صلة الدُّرُوز بالحاكم بأمر الله، وهل هي صلة تأليه كما جاء في الكُتُب الكثيرة التي عَرَضَتْ لعقيدة الدُّرُوز، فاستعاذ الشّيخُ بالله، وقال: الحاكم بأمر الله إمامٌ فقط، ولكنْ؛ له بعض القداسة، واستمرَّت الجلسة بيننا عدَّة ساعات، قَصَدْتُ - خلالها - إلى أنْ أتعرَّف على الشّعائر الدِّينيَّة والعقائديَّة كما هي عند الدُّرُوز، ويُمكن تلخيص ما سمعتُهُ من الشّيخ فيما يلي:

لا إله إلاَّ الله مُحمَّد بن عبد الله بن عبد المُطَّلب رسول الله. وسَلْمان الفارسي وعمَّار ابن ياسر وأبو ذرٍّ الغفاري والمقداد بن الأسود، لهم المقام الأسمى بين الصّحابة جميعاً؛ باستثناء عليّ بن أبي طالب بطبيعة الحال.

الصّلاة، تختلف عن صلاة جُمهُور المُسلمين، فالفُرُوض، وإنْ كانت خمسة، إلاَّ أنَّ عدد الرّكعات في كُلِّ صلاة تختلف عن عدد الرّكعات المعروفة، وربَّما طريقة الصّلاة نفسها، هذا؛ والوُضُوء ليس ضروريّاً مادام المُصلِّي نظيفاً.

الصّوم معناه الامتناع عن الرّفث، ومعنى ذلك أنَّه يجوز الأكل والشُّرب مع الصّوم، وهُو عشرة أيَّام في ذي الحجَّة تنتهي بالعيد، كما أنَّ صوم شهر رمضان مُستحسن عن غيره؛ لأنَّ الصّوم فيه مُضاعف الثّواب.

الزّكاة لا حُدُود لها، ويُمكن أنْ تكون في شكل صدقات، وهي اختيارية، وهي - بالتّالي - ليست فريضة.

الحجُّ لا يُعتَبر فرضاً، خشية الاعتداء على الحُجَّاج الدُّرُوز، وهُم - بالتّالي - لا يُؤمنون بمناسك الحجِّ، ويُسفِّهُونها، ويرون فيها ظاهرة وثَنية، أمَّا الزّيارة - في حَدِّ ذاتها - ؛ فلا بأس بها.

مصدر التّشريع عند الدُّرُوز القُرآن وحده ليس غير، وأحياناً؛ بعض الاجتهادات، أمَّا الحديث والسُّنَّة؛ فإنَّهما مُعطَّلان، ولا يُؤخذ بهما إطلاقاً.

لايجوز زواج الدّرزيَّة من غير الدّرزي، ولا زواج الدّرزي من غير الدّرزيَّة، فإذا حَدَثَ زواج من هذا القبيل فإنَّه يكون باطلاً.

لا يجوز تعدُّد الزّوجات نهائيّاً، بل يجب الاقتصار على زوجة واحدة لا غير.

الطّلاق يقع مرَّة واحدة فقط، لارجعة فيها، ولا يجوز للمُطلقة أنْ تعود إلى مُطلقها أبداً، حتَّى ولو بعد زواجها من غيره.

الوصيَّةُ مُطلَقَةٌ لا يُعتدُّ فيها بالثُّلث، وتجوز بكُلِّ المال، أو ببعضه، لأيِّ إنسان، ولو كان وارثاً.

لا يجوز لأيِّ إنسان اعتناق المذهب الدّرزي، كما لا يستطيع درزي أنْ يحيد عن مذهبه، وحتَّى أُولئك الذين يخرجون من الدّرزيَّة إلى مذهب أو دين آخر، يُعتبرون دُرُوزاً برغم تحوُّلهم.

الإيمان بفكرة تقمُّص الأرواح أمرٌ مُؤكَّد، فما يكاد يموت شخص حتَّى تتقمَّص رُوحه شخصاً آخر، والرُّوح الدّرزيَّة تتقمَّص - غالباً - شخصاً درزيّاً، وتبعاً لذلك؛ فإنَّ سكان العالم - من وُجهة نَظَرهم - لايزيدون، ولا ينقصون، وتبعاً لذلك أيضاً؛ لا تُوجد حياة بَرْزَخيَّة؛ لأنَّ الأرواح التي تترك أجسادها تنتقل رأساً إلى أجسام أُخرى لمواليد جُدُد.

العقيدة الدّرزيَّة عقيدة باطنيَّة، ولا يجوز لأحد الاطِّلاع على الكُتُب الباطنيَّة للدُّرُوز.

تلك هي النُّقاط الأساسيَّة التي سَجَّلْتُهَا عن العقيدة الدّرزيَّة عن شيخ العَقْل في جلسة طويلة مُمتعة، ضمَّت معي صديقَيْن آخرَيْن: أحدهما سُنِّيٌّ؛ هُو الدُّكتُور عبد الرّحمن عُطبة (من حلب)، والآخر درزي؛ وهُو السيِّد كامل أمين بلوط.

وقد نبَّهتُ الشّيخ الجليل إلى أنَّ حرمان بعض أبناء الطّائفة من أنْ يُشاركوا في العبادة، وإبعادهم عن حقِّ الاطّلاع على أُمُور دينهم يُعتبَر طَبَقيَّة دينيَّة، والأديان كُلُّها لا تقول بذلك، فكان جوابه أنَّ هذا إهمالاً بحقِّهم ينبغي تداركه، وبالتّالي؛ ينبغي تعليم أبناء الدُّرُوز وشبابهم أُمُور دينهم.

وقد عبَّر الشّيخ عن حبِّه وتقديره لعُلماء السُّنَّة، وإنْ كان قد أشعرني بالمرارة إزاء بعض التَّصرُّفات من إخوانه السُّنِّيِّين، وَذَكَرَ أنَّ الدُّرُوز كانوا دائماً في مُقدِّمة صُفُوف الجهاد، والحفاظ على المبادئ السّليمة، ولم يتخلَّفوا عن صف السُّنِّيِّين في المسائل الكُبرى، وبخاصَّة وقفتهم سنة 1952 م، مع عُلماء المذاهب الإسلاميَّة الأُخرى إزاء قانون الأحوال الشّخصيَّة في لُبنان، الذي أُريد له في ذلك الوقت أنْ يكون قانوناً غير إسلامي.»[1].

التَّوزُّعُ الجغرافيُّ للمُوحِّدين (الدُّرُوز) في العالم اليوم:

يعيش أغلب الدُّرُوز في العالم اليوم في مناطق جَبَليَّة من بلاد الشّام: أيْ في لُبنان وسُوريا وفلسطين المُحتلَّة والأُردن. وهُم مُواطنون صالحون يَلمس مَنْ يُعاشرهم فيهم الوطنيَّة الكاملة والغَيْرَة في الحقِّ والشّجاعة والوفاء والاستقامة والصِّدْق والعفَّة، ففي سُوريا يكثر الدُّرُوز في مُحافظة السّويداء في جبل حوران؛ المعروف حاليّاً باسم جبل العَرَب، كما يسكنون جبل السّمَّاق والجبل الأعلى وبعض قُرى مُرتفعات الجولان، وقُرى قنّسرين وبعض قُرى أنطاكية في لواء الإسكندرون. أمَّا في لُبنان؛ فيتواجدون في المناطق الجبليَّة شرقي بيرُوت؛ أيْ منطقة الشّوف، والمتن، والجنوب، ولهم مُدُن ذات تاريخ مجيد في حركتهم مثل عبيَّة والشّويفات وبعقلين، وكان لهم في هذه المُدُن إمارات، وهُناك قُرى كانت درزيَّة في الماضي مثل دار القمر المعروفة بدير القمر التي كانت بلدة الدُّرُوز الرّئيسيَّة في القرن التّاسع عشر، وكانت في يوم ما عاصمة للمعنيِّين، والأمْر كذلك بالنّسبة لبسكنتا وبكفيا، بل وكثير من قُرى جبل كسروان. وأمَّا في فلسطين؛ فيكثر الدُّرُوز في المناطق الشّماليَّة منها مثل صفد وعكا وجبل الكرمل وطَبَريَّة[2].

---

(1) "إسلام بلا مذاهب" تأليف الدُّكتُور مُصطفى الشّكعة، ص 315 ـ 317 بتصرُّف يسير جداً بهَدَف الإيضاح.
(2) "إسلام بلا مذاهب": ص 259 و261، نقلاً عن "الدُّرُوز"، تأليف أبو إسماعيل: ص 43، 44.

والدُّرُوز عَرَب خُلَّص، فهُم من لخم وتنوخ، وهُما قبيلتان عَرَبيَّتان لكُلٍّ منهما ماضٍ مُشرق، وإنْ لم يكن أبناء القبيلتَيْن ممَّنْ اعتنقوا المبادئ الدّرزيَّة، حتَّى إنَّك تجد - أحياناً - الأُسرة الواحدة وقد ضمَّت فُرُوعها سُنّيِّين وإماميَّة ودُرُوزاً، وقد لعب الدُّرُوز دوراً مُشرِّفاً مُشرقاً إبَّان المحَن التي تعرَّض لها الوطن الإسلامي، فقد حاربوا الصّليبيِّين تحت راية صلاح الدِّين، وحاربوا التّتار تحت راية بيبرس، وكانوا المُرابطين السّاهرين على الثُّغُور البَحْريَّة الشّاميَّة، فأحسنوا السَّهَرَ، وأبلوا البلاء الحَسَنَ في ساحة النّضال، ومازال التّاريخ يذكر لهم تصدِّيهم للفرنسيِّين في معارك جبل العَرَب؛ حيثُ واجهوا الدّبّابات والمُصفَّحات بأجسامهم وسُيُوفهم، فأعطبوها، وقضوا على مَنْ فيها من الجُنُود، ولم يزل للدُّرُوز نصيبهم في الكفاح المتَّصل الحلقات[1]. وتُشير الدّراسة التي قام بها معهد الدّراسات الدّرزيَّة في الولايات المتحدة إلى أنَّ عدد أتباع هذه الطّائفة يقترب من المليون، يعيش 40 - 50 ٪ منهم في سُوريا، و30 - 40 ٪ منهم في لُبنان، و6 - 7 ٪ في فلسطين المُحتلَّة، و1 - 2 ٪ في الأُردن، كما يُوجد في الولايات المتَّحدة حوالي 000، 20 من الدُّرُوز المُهاجرين.[2]

---

(1) "إسلام بلا مذاهب"، للدُّكتور مُصطفى الشّكعة: ص 259 - 261.

(2) من مقالة "الدُّرُوز ألف سنة من التّاريخ والإصلاح" الذي أعدَّه مركز الدّراسات الدّوليَّة، ونَشَرَهُ على الإنترنت باللُّغة الإنجليزيَّة.

الباب الثّالث:

فرَق حديثة النَّشأة

(1) الآغاخانيَّة

تمهيد:

بعد انقسام الإسماعيليَّة - في آخر عهد الدَّولة الفاطميَّة - إلى نزاريَّة ومُستعلية (راجع فقرَتَيْ المُستعلية والنِّزاريَّة ودولة "ألموت" في فَصْل الإسماعيليَّة) وإقامة النِّزاريَّة دولةً لهم في قلعة ألموت في بلاد فارس (قُرب مدينة قزوين الحاليَّة في إيران) دامت 177 عاماً، وسُقُوطها على يد هُولاكُو عام 654 هـ؛ استتر أئمَّة الإسماعيليَّة النِّزاريَّة حقبةً من الزّمن، وأدَّى هذا الاستتار إلى حُدُوث خلاف في ترتيب الأئمَّة؛ إذْ يرى فريقٌ منهم (القاسميَّة) أنَّ الإمامة بعد نزار انتقلت إلى عليّ الهادي بن نزار، وأنَّه تُوفِّي في قلعة لمسّر (شمالي إيران) سنة 530 هـ، ثُمَّ ابنه مُحمَّد المُهتدي الذي انتقل إلى قلعة ألموت، وتُوفِّي بها سنة 552 هـ. وتوالى بعده على الإمامة ثلاثة آخرون هُم القاهر والحَسَن وأعْلَى مُحمَّد، ثُمَّ جاء حَسَن جلال الدِّين الإمام الظَّاهر في ألموت، والمُتوفَّى سنة 617 هـ/ 1220م. وتسلسلت الإمامة في ذُرِّيَّته حتَّى الإمام مُحمَّد شمس الدِّين (ت 711 هـ)، وخَلَفُه الإمام قاسم شاه (ت 773 هـ/ 1372م)، وولده من بعده، ومن إيران كان يتمُّ إرسال دُعاة إسماعيليِّين إلى غرب الهند، لنَشْر الدَّعوة هُناك؛ حيثُ حاول أُولئك الدُّعاة نَشْر المذهب الإسماعيلي بين طوائف الهُنُود المُختلفة، وخاصَّة بين طبقة المنبوذين، ونجحوا في ذلك نجاحاً ملحوظاً، وكان من أشهر أُولئك الدُّعاة "بير[1] صدر الدِّين" الذي صوَّر في أحد كتاباته "الإمام عليّ بن أبي طالب" على أنَّه تجسُّدٌ للإله الهندُوسي "فيشنو Vishnu" (رغم أنَّ الإسماعيليَّة العصريِّين لم يعودوا يعتقدون بمثل ذلك)، ومُنذُ القرن الخامس عشر الميلادي وإلى القرن التَّاسع عشر، تمكَّن خُلفاء "بير صدر الدِّين" من تأسيس جماعة نزاريَّة قاسميَّة قويَّة في ولايتي كجرات والسِّند غرب شبه القارَّة الهنديَّة. وقد عاش هؤلاء الإسماعيليَّة في تلك المناطق بهُدُوء، ولم يَعُدْ أحدٌ يسمع شيئاً مُهماً عنهم، أو

---

(1) تعني كلمة بير Pir في اللُّغة الفارسيَّة: شيخ الطَّريقة المُرشد أو عالم الدِّين المُرشد، وقد انتقلت الكلمة إلى اللُّغة الأرديَّة والهنديَّة أيضاً، بنفس المعنى.

عن نشاطٍ سياسيٍ لهم، فلم يُحاولوا أنْ يتجمَّعوا ليقوموا ببناء كيانٍ سياسيٍّ خاصٍّ بهم؛ مثل تلك المُحاولات العديدة التي قاموا بها من قبلُ، بل انصبَّ اهتمامهم على نَشْر الدّعوة، والمُحافظة على كيانهم وهُويَّتهم الطّائفيَّة؛ سواء في الهند أو في بلاد فارس، ولم يتَّصل كثير منهم بالأئمَّة، إلاَّ هؤلاء الذين كانوا في حاشية الأئمَّة، وظلّوا على عقيدتهم الإسماعيليَّة التي تأثَّرت بالعقائد الهنديَّة.

الإمام حَسَن عليّ شاه: آغا خان الأوَّل (1804 - 1881م):

عاش "النّزاريُّون القاسميُّون" في الهند وبلاد فارس مُواطنين مُسالمين مثل غيرهم من سُكَّان البلاد، واعتبرتهم الدّولة في الهند إحدى الطّوائف الدِّينيَّة التي تكثر في تلك البلاد، ولم يذكر المُؤرِّخون شيئاً عنهم؛ لأنَّهم لم يقوموا بأعمال يُسجِّلها التّاريخ، ولم يظهر بينهم شخصيَّة فذَّة يقف عندها الباحثون، وكانوا يشتغلون بالتّجارة وتدبير المال، ونجحوا في ذلك نجاحاً ملحوظاً، أمَّا ميادين الحياة الأُخرى؛ فتركوها لغيرهم، حتَّى برز في القرن التّاسع عشر الميلادي نجم إمامهم السّادس والأربعين "حَسَن عليّ شاه" (1219 - 1298 هـ / 1804 - 1881م)، في مدينة "محلات" في إيران، واجتمع حوله عددٌ من الإسماعيليَّة وغير الإسماعيليَّة، حتَّى ذاع صيته في جميع أنحاء إيران، وأصبح له نُفُوذ واسعٌ على أتباعه، وأشاد الإيرانيُّون بأعمالٍ قام بها حَسَن عليّ شاه وأتباعه، فتوافدوا عليه، وانضمّوا لجماعته، طمعاً في المكاسب الماديَّة، ووصل الأمْر إلى أنْ قام شاه إيران نفسه "فتح عليّ شاه القاجاري" (حكَم 1212 - 1250 هـ / 1797 - 1834م) بتزويجه من ابنته "سَرْو جهان خانوم"، ولم يكن «حَسَن عليّ شاه» في ذلك الوقت يُذيع شيئاً عن إسماعيليَّته، أو ينشر بين أتباعه شيئاً عن عقيدته، بل عمل أوَّلاً على جَمْع النّاس حوله وظُهُوره بمظهر القويّ الغنيّ. وإكراماً من شاه إيران لصهره "حَسَن عليّ شاه" أضفى عليه لَقَبَ "آغا خان"، فصار هذا اللَّقب عَلَمَاً له، حتَّى اشتُهر في إيران باسم "آغاخان المحلاَّتي"، وكان هُو - في الواقع - الإمام السّابع بعد الإمام قاسم شاه والإمام السّادس والأربعين في ترتيب الأئمَّة الإسماعيليَّة في رأي الفرقة النِّزاريَّة القاسميَّة، ومُنذُ ذلك الحين؛ صار لقب آغاخان مُتوارَثاً في أئمَّتهم، إلى هذا اليوم، وصارت الفرقة تُعْرَف بالشِّيعة الإسماعيليَّة الآغاخانيَّة.

كان الإنجليز ـ في تلك الفترة ـ يعملون على بَسْط نُفُوذهم في بلاد فارس، ومن عادة الإنجليز ـ دائماً في كُلِّ بلد يطمعون في استعماره ـ أنْ يبثُّوا الدّسائس في ربُوعه، ويُوقعوا الفُرَق بين صفُوف الأُمَّة الواحدة، ويستميلوا إليهم كُلَّ طامع في الجاه أو الثّروة، فكان من الطّبيعي أنْ يتّصل أعوان الإنجليز وصنائعهم في بلاد فارس بجماعة "حَسَن عليّ شاه"، ويُزيِّنوا لهم القيام بثورة ضدّ الشّاه القاجاري، ومَنُّوهم بتولّي "حَسَن عليّ شاه" حُكْم فارس، وتمَّت المؤامرة مع الإنجليز، وحَصَلَتْ الثّورة، ولكنّها فشلت، وقبضَ شاهُ إيران على "حَسَن عليّ شاه"، وزجَّ به في السّجن، ولكنَّ الإنجليز تدخّلوا، واستطاعوا أنْ يحصلوا على أمرٍ بالإفراج عنه، بشرط أنْ يُنفى من إيران كُلِّها، فخرج إلى أفغانستان، وبقي في "قندهار" فترة، ثُمَّ هاجر منها إلى الهند، طالباً اللُّجُوء السِّياسي فيها، فَمَنَحَهُ إيّاه الإنجليز الذين كانوا يحكمون الهند آنذاك، فاتَّخَذَ من مدينة بُومباي مقرّاً له، وهُنا؛ حاول الإنجليز أنْ يستفيدوا منه مرَّة أُخرى، فاعترفوا به إماماً للطّائفة النِّزاريَّة الإسماعيليَّة، وأقرُّوا له بالسُّلطة المُطلقة على أتباعه الإسماعيليَّة، فتجمَّع حوله الإسماعيليَّةُ في الهند، وفرحوا بظُهُور شأنهم، بعد أنْ ظلّوا مغمورين طوال هذه القُرُون، وبظُهُور إمامهم الذي ظلَّ في السّتر والكتمان مئات السّنين، وقوي نُفُوذ «حَسَن عليّ شاه» أو «آغاخان» بين جماعته الذين كانوا يُطيعونه طاعة تديُّنٍ، دُون أنْ يكون لهم غرضٌ ماديٌّ، وأصبح سُلطانهم الفعلي، وأخذ يُنظِّم شُؤُونهم إلى أنْ تُوفِّي سنة 1881م، وبما أنّه كان أوّل إمامٍ إسماعيلي نزاري يحمل لقب آغاخان، لذا؛ سُمِّيَ آغاخان الأوّل.

لكنَّ هذا لم يمنع بعض أوساط الطّائفة الإسماعيليَّة النِّزاريَّة في الهند من إبداء اعتراضها على التّغييرات التي بدأها الآغاخان، وتفسيراته غير المقبولة بنَظَرهم للقُرآن الكريم، وأُسلُوبه المُسرف والباذخ في التَّصَرُّف في الأموال الطّائلة التي كانت تُسلَّم للآغاخان، ممّا وصل ببعضهم إلى حَدِّ لرَفْع دعوى إلى القضاء سنة 1866، ضدَّ إمامة الآغاخان للطّائفة الإسماعيليَّة النِّزاريَّة، لكنَّ القاضي البريطاني آنذاك حَكَم لصالح الآغاخان، وخسر المُدَّعون قضيَّتهم، وتَكَرَّرَ رَفْع مثل هذا الدّعوى عام 1905، وخسروها أيضاً، ممّا حدا بمجموعة من أبناء الطّائفة أنْ ينفصلوا عن الإسماعيليّة النِّزاريّة، وينضمُّوا للتّيّار الشّيعي الرّئيسي، ممّا ساعد الآغاخان في الواقع؛ لأنّه طَهَّرَ جماعته من العناصر المُخالفة!

الإمام "عليّ شاه": آغا خان الثّاني (1830 ـ 1885م):

عندما تُوفّي آغاخان الأوّل ـ أيْ الإمام "حَسَن عليّ شاه" عام 1881 ـ خَلَفَهُ ابنه "آغا عليّ شاه" في إمامة الطّائفة الإسماعيليّة النِّزاريّة القاسميّة، ولُقِّب بآغاخان الثّاني. وكان أبوه قد هيَّأه لتولّي هذا المنصب الخطير، ولتحمُّل إمامة الطّائفة، فَعَلَّمَهُ تعليماً يتّفق مع ما كان ينتظره من الإمامة، فكان آغا خان الثّاني على درجة عالية من الثّقافة، وكان يُجيد عدَّة لُغات إجادة تامَّة؛ منها اللُّغة العَرَبيَّة، وكان شاعراً من شُعراء اللُّغة الفارسيَّة والأُرْديَّة والكُجْراتيَّة، وقد أَفَادَتْهُ ثقافته الواسعة وسعة اطّلاعه في نَشْر التّعليم بين طائفته، بل أنشأ في الهند مدارس خاصَّة بالمسلمين عُمُوماً على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم، فاكتسب ـ بذلك ـ تقدير وحُبّ جميع المُسلمين في الهند، وممَّا ضاعف من عُلُوِّ مكانته بين النّاس أنَّه استطاع أنْ يتزوَّج زوجته الثّالثة قريبة ملك إيران "ناصر الدِّين شاه قاجار" (حفيد فتح على شاه قاجار) "الأميرة شمس المُلُوك" المعروفة باسم «بيبي خان»، وأنجبَ منها ابنه "مُحمَّد الحُسَيني شاه" المعروف بآغاخان الثّالث، وهُو آغاخان المعروف في العالم بأسره، والذي بَلَغَتْ الطّائفة الإسماعيليَّة في عهده مكانةً مُميَّزة في العالم كُلِّه، ونُظِّمت تنظيماً دقيقاً بفضل عبقريّته. لم تدم إمامة آغاخان الثّاني طويلاً؛ إذْ سُرعان ما اخترم أجله في 17 آب (أغسطس) سنة 1885م، ليتولّى الإمامة من بعده نجله "مُحمَّد الحُسَيني".

الإمام: "سُلطان مُحمَّد حُسَيني شاه" آغا خان الثالث (1877 ـ 1957م):

وُلد آغاخان الثّالث «سُلطان مُحمَّد حُسَيني شاه» في مدينة كراتشي في 2 تشرين الثّاني (نُوفمبر) سنة 1877م، وتولّى إمامة الطّائفة الإسماعيليَّة عقب وفاة أبيه آغا خان الثّاني، وكان لا يزال في الثّامنة من عُمره حين تولّى الإمامة، وكانت الإمامة أوّلاً لأخيه شهاب الدِّين شاه، الذي تُوفّي في حياة أبيه، فانتقلت ولاية العهد إلى "سُلطان مُحمَّد حُسَيني شاه" الذي تولّى الإمامة صغيراً، فكفلتْهُ أُمُّه، وفي نفس الوقت أشرفت بنفسها على شُؤُون الطّائفة الإسماعيليَّة، وكانت سيِّدة تمتاز برجاحة العَقْل وحُسْن التّدبير والقُدرة على تصريف الأُمُور على أحسن وجه، فإليها يرجع الفضل في تشجيع المرأة الإسماعيليَّة على طلب العلم، وعلى المُساهمة في الحياة العَمَلَيَّة جنباً إلى جنب مع الرّجل، وقد طَلَبَتْ من عددٍ كبيرٍ من فتيات

الأُسر الإسماعيليَّة الكبيرة في الهند أنْ يتطوَّعنَ للعمل في المُستشفيات إبَّان الحرب العالميَّة الأُولى، وطَلَبتْ من المرأة الإسماعيليَّة الاشتراك في الأندية الرّياضيَّة والنّدوات الثّقافيَّة والجَمْعيَّات العلميَّة، فإلى السَّيِّدة «بيبي خان» يرجع الفضل الأوَّل في نهضة المرأة الإسماعيليَّة، وخُرُوجها على التّقاليد القديمة، وقد لمس الإسماعيليَّة - مُنذُ أوَّل وهلة تولَّت فيها شُؤُونهم - اهتمامها الشّديد بتنظيم المُجتمع الإسماعيلي، ودَفْع هذا المُجتمع إلى الإمام بعيداً على التّقاليد البالية التي كان عليها الإسماعيليَّة من قبلُ، أو التي يعيش عليها إخوان الإسماعيليَّة البهرة، فاندفع الإسماعيليَّة الآغا خانيَّة "النّزاريَّة القاسميَّة" إلى الأَخْذ بأسباب التَّقدُّم الاجتماعي، والأَخْذ عن الحضارة الغربيَّة بمقدار، ومن الطّبيعي أنْ تهتمَّ هذه السَّيِّدة بتربية ابنها "آغا خان الثّالث" تربية من شأنها أنْ تجعله إماماً صالحاً لطائفته أوَّلاً، وللإنسانيَّة ثانياً، فَتَلَقَّى العُلُوم الإسلاميَّة الشّرقيَّة في صغره، كما دَرَسَ في شبابه في جامعات أُورُوبا العُلُوم الغربيَّة والعصريَّة، فَصَارَ مُلمَّاً بالثّقافتَيْن الشّرقيَّة والغربيَّة بنفس الوقت، وأبدى اهتماماً خاصَّاً بالفلسفة والإلهيَّات والأدب والشّعر الفارسي، حتَّى كانت سنة **1893**، وقد بلغ ابنها السّادسة عشرة من عُمره، فتَركَتْ إليه شُؤُون الطّائفة، على أنْ يستشيرها كُلَّما وَجَدَ ما يدعو لاستشارتها، أو وَجَدَ نفسه أمام مُشكل من المشاكل. تَركَتْ إليه تدبير أُمُور الطّائفة التي هُو إمامها، ولكنَّها ظلَّت ترقبه، وتتبع أعماله، وتُوجِّهه إلى ما فيه خير هذه الطّائفة، وبفضل توجيه هذه السَّيِّدة الكريمة استطاعت الطّائفة الإسماعيليَّة أنْ تبلغ في عهد آغا خان الرّاحل درجة من الثّراء والثّقافة والتَّقدُّم الاجتماعي جَعَلَتْ صُحُف العالم كُلَّها تَتَحدَّثَ عنه.

ولَمَّا وقعت الحرب العالميَّة الأُولى (**1914 - 1918**)، أوصى الآغاخان أتباعه، بل جميعَ المُسلمين، بالوُقُوف إلى جانب الحُلفاء ونُصرتهم، لكنَّه عندما وَضَعَت الحرب أوزارها، حثَّ دُول الحُلفاء المُنتصرة في مُؤتمر السّلام على مُعاملة تُركيا باللّين والتّسامح والإحسان.

وإبَّان حركة الكماليِّين في تُركيا وإلغاء الخلافة العُثمانيَّة، كان آغا خان الثّالث يُدافع عن الخلافة، ويهبُ العُثمانيِّين الأموال، ليظلّوا رمزاً لقُوَّة الإسلام والمُسلمين، مع العلم بأنَّ تاريخ الأتراك يدلُّ على أنَّهم كانوا ألَدَّ أعداء الشّيعة عامَّة، والإسماعيليَّة خاصَّة، وكذلك نقول عن موقفه إبَّان الحرب بين الكماليِّين واليُونان، فقد فكَّرت إنجلترا أنْ تدخل الحرب في صفِّ اليُونان ضدَّ تُركيا، فلمَّا علم آغا خان الثّالث - بذلك - أسرع إلى إنجلترا، وقابل

المسؤولين فيها إذ ذاك، واستطاع بنُفُوذه وصداقته لهم أنْ يُقنعهم بالعُدُول عن هذه الفكْرة التي ستُسيء إلى العالم الإسلامي بأسره، ونذكر - أيضاً - أنَّه أثناء الصُّلح بين تُركيا واليُونان كان الاتّفاق على أنْ يكون إقليم تراقيا من نصيب اليُونان، فقام آغا خان على رأس وفد من مُسلمي الهند يضمُّ مُمثّلي المذاهب المُختلفة، وحاولوا إقناع لويد جُورج رئيس وُزراء بريطانيا في ذلك الوقت بالعمل على أنْ يكون إقليم تراقيا من البلاد لتُركيا، ولكنَّ لويد جُورج قال للوفد: (إنَّ اليُونان تحتلُّ هذا الإقليم بالفعل، ولا سبيل لنا إلى إخراجهم منه « فانبرى له آغا خان يقول: حَسَناً يا سيِّدي رئيس الوُزراء؛ إنِّي رجل كبير السِّنِّ، ولكنِّي سأذهب إلى تراقيا، وسيفي في يميني لطَرْد اليُونان من هذا الإقليم، الذي هُو جُزء من بلاد المُسلمين»، ومع ذلك؛ لم تُفلح مُحاولة آغا خان ومَنْ معه من مُسلمي الهند في إعادة هذا الإقليم إلى تُركيا. ونادى بأنْ يأخذ المُسلمون في الهند مكانهم الطّبيعي في الحياة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والثّقافيَّة، فَأَسَّسَ - مع جماعة من المُسلمين - «الرّابطة الإسلاميَّة» سنة **1906**م، وانتُخب أوَّل رئيس لها، وبقي في هذا المنصب إلى عام سنة **1912**؛ حيثُ قدَّم استقالته. ولمَّا عُقد مُؤتمر جميع الأحزاب الإسلاميَّة في الهند في شهر كانون الثّاني (يناير) من عام **1929**، كان آغاخان الثّالث رئيساً له، وبَذَلَ جهداً كبيراً للتّوحيد بين الجناحَيْن المُتنازعَيْن للرّابطة الإسلاميَّة (جناح الشّافعي وجناح مُحمَّد عليّ جناح)، كما ألقى كلمة مُؤثِّرة في افتتاح المُؤتمر، حضَّ فيها مُسلمي شبه القارَّة الهنديَّة على تَرْك اختلافاتهم جانباً، وَوَضْع أيديهم بأيدي بعض في هذه المرحلة الحسَّاسة من تاريخهم.

كانت "الرّابطة الإسلاميَّة" تجمع كلمة المُسلمين جميعاً على اختلاف مذاهبهم، وتعمل على النُّهُوض بمُستواهم في الهند، وهذه الرّابطة تطوَّرت إلى حزب سياسي، كان له خطر في الهند، وترتَّب على أعماله وُجُود دولة باكستان الحاليَّة، وبالرّغم من أنَّ مُؤسِّس دولة باكستان «مُحمَّد عليّ جناح» كان من أتباع آغا خان في العقيدة، فإنَّه كان يُخالفه في الرّأي السِّياسي؛ لأنَّ آغا خان لم يُوافق على تقسيم الهند، أو على إنشاء دولة باكستان؛ إذْ كان يرى في وُجُودها إضعافاً لشأن المُسلمين في الهند وباكستان معاً. ولكنَّهم خالفوا رأي إمامهم، وانساقوا وراء فكرة التّقسيم لما فيها من غنم لهم، ومع ذلك؛ فإنَّ الكثير من رجال الدّولة المسؤولين في باكستان كانوا من أتباع الطّائفة الإسماعيليَّة الآغاخانيَّة.

ولعلَّ أهمَّ عمل قام به آغاخان الثّالث هُو المُساعدة بسخاء في إنشاء أوّل جامعة علميَّة هنديَّة للمُسلمين، فقد رأى أنَّ الهندُوسيِّين يتبرَّعون بسخاء لإنشاء جامعة علميَّة لهم، وليس للمُسلمين جامعة تُدرِّس العُلُوم الحديثة بجانب العُلُوم العَرَبيَّة والإسلاميَّة، فوجد أنَّ المُسلمين بالهند مُتخلِّفون في ميدان العلم. لذا؛ قام على رأس وفد من المُسلمين بالطّواف معهم في كُلِّ بلاد الهند لجَمْع تبرُّعات من المُسلمين لإنشاء هذه الجماعة، واكتتب المُسلمون من غير الإسماعيليَّة لهذه الجامعة، وَدَفَعَ آغاخان من ماله الخاصِّ مبلغاً كبيراً. فكان نتيجة هذا الجهد «جامعة عليكره» التي تجمع في منهاجها بين العُلُوم الحديثة والعُلُوم الإسلاميَّة والعَرَبيَّة، وانتُخب آغاخان مديراً فخريّاً لهذه الجامعة عدَّة مرَّات، أمَّا مُديرها الفخري الآن فهُو طاهر سيف الدِّين زعيم الإسماعيليَّة البهرة.

وفي مُؤتمرات الطّاولة المُستديرة التي كانت تُعقد في لندن بين عامَيْ 1930 ـ 1932، لمُناقشة الإصلاحات الدُّستُوريَّة في الهند، لعب آغاخان الثّالث أوراقه بشكل حاذق جداً، وأثبت أنّه مُفاوضٌ بارعٌ وسياسيٌّ بعيد النَّظَر، ومَثَّلَ الهند عام 1932، في المُؤتمر العالمي لنَزْع الأسلحة، ثُمَّ في نفس العام 1932، تمَّ تعيين آغاخان الثّالث مُمثِّلاً للهند في عصبة الأُمم، لِيُنْتَخَبَ فيما بعد، وبالإجماع، رئيساً لعصبة الأُمم عام 1937. فلمَّا وقعت الحرب العالميَّة الثّانية اعتزل العمل السِّياسي، وأقام أثناءها في سويسرا.

وَيَتَحَدَّثُ الدُّكتُور مُحمَّد كامل حُسَين في كتاب طائفة الإسماعيليَّة عن آغاخان الثّالث فيقول:

«وأذكر أنّي كُنتُ أَتَحَدَّثُ إليه بفندق ميناهاوس بالقاهرة عقب إنشاء الجامعة العَرَبيَّة، فأبدى لي أسفه من عدم تفكير المسؤولين في إنشاء جامعة إسلاميَّة تضمُّ جميع البلاد الإسلاميَّة، للنُّهُوض بالمُستوى الثّقافي والاجتماعي والاقتصادي بين شُعُوب المُسلمين، وكان من رأيه ضرورة إنشاء الجامعة الإسلاميَّة على شرط أنْ لا تتدخَّل هذه الجامعة في الشُّؤُون السِّياسيَّة، وكان على استعداد للقيام بالدّعوة لهذه الجامعة، وأنْ يدفع وحده عن طائفة الإسماعيليَّة مبلغاً يُساوي جميع ما يدفعه المُسلمون في العالم، إذا تحقَّقت هذه الوَحْدَة بين المُسلمين، وَتَرَكْتُهُ وأنا أُفكِّر في أقواله عن الوَحْدَة الإسلاميَّة وجامعة الأُمم العَرَبيَّة، وَتَوَهَّمْتُ ـ يومئذ ـ أنَّ الرّجل ربَّما كان مدفوعاً من قِبَل الإنجليز لتحطيم الجامعة العَرَبيَّة».

اهتمّ آغاخان بالتّبشير بمذهبه الإسماعيلي، ودعوة النّاس إلى اعتناق عقائده، وَوَجَّهَ اهتماماً خاصّاً للتّبشير بين طائفة المنبوذين بالهند، فاستجاب لدعوته جُمهُور غفير منهم، وأتباعه يذكرون كيف أنّ شخصاً واحداً من كبار رجالهم - وهُو السيِّد مُحمَّد عليّ ميكلاي، المليونير المعروف في بُومباي - استطاع بمُفرده أنْ يدخل نحو عشرة آلاف منبوذ في الطّائفة الإسماعيليَّة. وكان آغاخان يطلب من المؤلّفين أنْ يضعوا كُتُباً عن الإسلام باللُّغات الأُورُوبيَّة، ويُكافئ المؤلّفين بسخاء، حتَّى إنَّ أحد الأطباء المصريِّين عاش في أُورُوبا أكثر من ثلاثين سنة يُؤلّف كُتُباً إسلاميَّة، ويتقاضى من آغاخان أُجُوراً عالية كفلت له أنْ يعيش في أرقى مُستوى في أُورُوبا.

تزوَّج آغاخان أربع مرَّات دُون أنْ يجمع بين زوجتَيْن، ففي سنة 1897م، تزوَّج من أميرة إيرانيَّة هي البيجوم (السيِّدة) شاه زادي، ولكنَّها تُوفِّيت بعد سنوات قليلة، وفي سنة 1908م، تزوَّج من فتاة إيطاليَّة هي تريزا ماجليانو، وأنجب منها ابنه الأكبر « عليّ سلمان خان »، وفي سنة 1927م، أُعجب بفتاة فرنسيَّة كانت تبيع الحلوى والسّجائر في كشك بجوار مقهى ألدوم بحي مونبارناس بباريس هي "أندريه كارون"، فتزوَّجها، وأنجب منها ابنه « صدر الدِّين خان »، ثُمَّ طلقها، وتزوَّج سنة 1944م، من عارضة أزياء انتُخبت ملكة جمال العالم؛ هي « لابروس »، وهي أرملته المُلقَّبة - بعد أنْ أسلمتْ وتَمَذْهَبَتْ بالإسماعيليَّة - بالبيجوم أُمّ حبيبة.

كان آغا خان الثّالث يعرف كيف يستغلّ المواقف في سبيل طائفته، فقد رأى مثلاً أنَّ بريطانيا قد احتلَّت المُستعمرات الألمانيَّة في شرق إفريقيا بعد الحرب العالميَّة الأُولى، وأنَّ بهذه البلاد خيرات كثيرة، فَأَمَرَ الفُقراء من أتباعه بالهجرة إليها، وسَاعَدَهُم بالمال والنُّفُوذ لدى الإنجليز، حتَّى استطاع الإسماعيليَّة هُناك أنْ يستولوا على الحياة الاقتصاديَّة، وأنْ يُصبحوا من أغنى أغنياء العالم، ومن هُنا؛ نلمس سبب الشّكوى في أنَّ الإسماعيليَّة في كينيا كانوا يتحالفون مع الإنجليز، ويُناهضون حركات التّحرُّر في كينيا، ويُساعدون الإنجليز في قَمْع ثورة (ماو ماو) التي قامت ضدّ الإنجليز.

وفي سنة 1956م، اتّجه آغاخان الثّالث إلى أتباعه في سُوريَّة، فأمر بتأسيس شركة تجاريَّة للتّجارة مع إسماعيليَّة شرق إفريقيَّة، ورَصَدَ مليوناً من الجُنيهات لهذه الشّركة، وكان ـ قبل ذلك بسنوات ـ قد لاحظ ضعف حال إسماعيليَّة الشّام الاقتصاديَّة، وأنَّهم لا يستطيعون أنْ يدفعوا له «الخُمس» ـ وهُو المال الذي يجب أنْ يدفعه كُلُّ إسماعيلي إلى الإمام ـ فأمر بإعفائهم من هذه الفريضة لُمدَّة عشر سنوات، على أنْ يدفعها القادرون، وتُجمع هذه الأموال، وتُنفق في النُّهُوض بمُستوى الطّائفة في الشّام ثقافيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً، وأمَرَ بتشكيل مجلس أعلى للإشراف على ذلك.

وزن آغا خان الثّالث بالذّهب والماس والبلاتين:

يتساءل النّاس عن قصَّة وزن آغاخان الثّالث بالذّهب والماس والبلاتين، فقد وُزِن مرَّتَيْن بالذّهب؛ مرَّة في مدينة بُومباي سنة 1936م، ووُزِن مرَّة أُخرى في شرق إفريقية سنة 1937م، وذلك بمناسبة مُرُور خمسين سنة على ولايته إمامة الطّائفة الإسماعيليَّة، ووُزِن ثلاث مرّات بالماس سنة 1946م، احتفالاً بمُرُور ستّين عاماً على إمامته، ووُزِن في القاهرة سنة 1956م، بالبلاتين بمُناسبة الاحتفال بمُرُور سبعين عاماً على إمامته؛ حيثُ جَمَعَ أتباعه من أبناء الطّائفة ما يُوازي قيمة وزنه بهذه الجواهر، وقدَّموا هذا المبلغ هديَّة منهم إليه في تلك المُناسبات رمزاً لحُبِّهم العميق له، وولاء منهم لإمامهم.

مجلس إدارة الرّابطة الإسماعيليَّة:

مجلس إدارة الرّابطة الإسماعيليَّة هُو المسؤول الأوَّل أمام آغاخان عن النُّهُوض بالطّائفة، ورَفْع مُستوى أفرادها في جميع النّواحي، وقد وَضَعَ المجلس دُستُوراً للجَمْعيَّات الإسماعيليَّة في جميع بلاد العالم، وتتلخَّص موادُّ هذا الدُّستُور في تقسيم الطّائفة الإسماعيليَّة إلى وحدات، ويُشرف على كُلِّ وَحْدَة منها أخصائيُّون اجتماعيُّون وأساتذة مُثقَّفون وأطبّاء، ويتكوَّن منهم مجلس إدارة الوَحْدَة، وإذا نبغ أحد التّلاميذ بالوَحْدَة تبعث به لإتمام تعليمه في جامعات إنجلترا، وإذا أراد التّلميذ أنْ يختصر تعليمه، ويتّجه إلى التّجارة، فعلى الوَحْدَة مُساعدته ماديّاً وأدبيّاً حتّى ينجح في تجارته، وعلى الوَحْدَة أنْ تُنشئ المُستشفيات الخاصَّة بالطّائفة، والعلاج بها بالمجّان أيضاً.

وفي 25 أغسطس سنة 1948، أصدر آغاخان الثالث دُستُوراً خاصّاً للطّائفة الإسماعيليَّة في إفريقيا، وينصُّ هذا الدُّستُور على تقسيم الطّائفة في إفريقيا إلى ثلاثة مراكز رئيسيَّة، المركز الأوّل في دار السّلام، والثّاني في نيروبي، والثّالث في كامبالا، أمَّا الإسماعيليَّة في زنجبار ومدغشقر والكونغو البلجيكي؛ فيتبعون المركز الأوَّل في دار السّلام. ويُعيِّن آغاخان رئيساً للمركز لِمُدَّة عام واحد فقط، وللرّئيس سُلطة اختيار الذين يُعاونونه في الإشراف على الإسماعيليَّة التّابعين له، بعد أنْ يُوافق آغاخان على هؤلاء المُعاونين، وتنصُّ الدُّستُور على أنْ يكون السَّيِّد مُحمَّد عليّ ميكلاي رئيساً عامّاً لكُلِّ هذه المراكز، وله الرّأي الأخير في كُلِّ شيء بعد استشارة آغاخان، وجاء في هذا الدُّستُور - أيضاً - أنَّ كُلَّ إسماعيلي يُريد أنْ يتطوَّع لنَشْر الدّعوة الإسماعيليَّة، أو أنْ يكون مُدرِّساً، فعليه أنْ يُعِدَّ نفسه لذلك إعداداً خاصّاً من النّاحية الثّقافيَّة العامَّة ومن النّاحية الدِّينيَّة، على أنْ تطوُّعه هذا لا يُكسبه أيَّ حقٍّ من الحُقُوق، بل يُلزمه ببعض الوجبات، وكُلُّ ذلك يعود عليه من تطوُّعه هُو لشرف خدمة الدّعوة وخدمة الإمام، ويُشترط على كُلِّ مَنْ يتطوَّع لهذه الخدمة والحُصُول على هذا الشّرف أنْ يبتعد كُلَّ البُعْد عن أيِّ عمل سياسي، أو الاتِّصال بأيَّة هيئة سياسيَّة أو شبه سياسيَّة، حتَّى لو حملت هذه الهيئة اسماً ثقافيّاً، ولا يسمح لنفسه أنْ يقبل هديَّة ما بطريقة مُباشرة أو غير مُباشرة من أيِّ شخص أو أيَّة هيئة. كذلك نظَّم الدُّستُور الموادَّ الدّراسيَّة التي يجب على المُدرِّسين والمُبشِّرين أنْ يتوسَّعوا في دراستها، وأهمَّ المراجع العلميَّة التي يعتمدون عليها، وبيَّن الدُّستُور طريقة جَمْع التّبرُّعات من الطّائفة وأوجه صَرْفها... إلخ، وكان مركز قيادة الإسماعيليَّة الرّئيسي في العالم كُلِّه مدينة كراتشي عاصمة باكستان، ومن هذا المركز صَدَرَتْ التّعليمات إلى جميع المركز الأُخرى.

وهكذا أوجد آغاخان الثّالث تنظيمات جديدة كان الغرض منها النُّهُوض بالطّائفة، وبفضل هذه التّنظيمات استطاعت طائفة الإسماعيليَّة أنْ تُبعث من جديد، وأنْ تتَّحد اتِّحاداً قويّاً.

في 11 تمُّوز (يُوليُو) (بعض المصادر تذكر شهر آب (أغسطس) عام 1957، وبعد أنْ بلغ عُمره ثمانين عاماً، تُوفِّي آغاخان الثّالث في مدينة "جنيف" في سويسرا، وأوصى أنْ يُدفن في

أسوان في مصر، تلك المنطقة التي كان يزورها ويُقيم فيها كُلَّ عام، فدُفِنَ هُنالك، وصار له فيها قبر معروف.

كريم عليّ خان آغاخان الرّابع والإمام الخمسون للطّائفة الإسماعيليّة النّزاريّة:

تَرَكَ آغاخان الثّالث وَلَدَيْن، الأكبر هُو الأمير "عليّ سَلْمان خان" من زوجته الثّانية الإيطاليَّة، والأصغر هُو الأمير "صدر الدِّين" من زوجته الثّالثة الفرنسيَّة، أمَّا الأمير "عليّ سلمان خان"؛ فقد وُلِد في 13 حزيران (يونيو) 1910م، وأمضى طُفُولته في رعاية أُمِّه الإيطاليَّة، مُتنقِّلاً بين فرنسا وإيطاليا وسويسرا، ولمَّا بلغ الثّالثة عشرة من عُمره التحقَ بكُلِّيَّة "مايو" بمدينة "أكرا" بالهند، وهي كُلِّيَّة خاصَّة بأبناء المهراجات قبل استقلال الهند، وبعد أنْ أتمَّ عليّ سَلْمان خان في هذه الكُلِّيَّة سني دراسته، تَرَكَهَا، ليصحب والده، ويتعلَّم منه فنَّ الحياة، وأمضى مع والده عدَّة سنوات، تَرَكَهُ بعدها والده، ليستقلَّ بحياته الخاصَّة مع أترابه من الشُّبَّان، بعد أنْ نَصَحَهُ بكَثْرَة السَّفر والتَّنقُّل بين البُلْدان، لتزداد خبرته، وتكثر تجاربه في الحياة، وفي أيَّار (مايو) سنة 1936م، أحبَّ "عليّ سَلْمان خان" فتاة إنجليزيَّة، تزوَّجها، واعتنقت العقيدة الإسماعيليَّة، وأطلقت على نفسها اسم "تاج الدّولة"، واصطحبها الأمير "عليّ خان" في رحلة طويلة إلى الهند سنة 1937، وإلى تُركيا وسُوريَّة ومصر سنة 1938، وقد أنجب منها ولده الأمير "كريم" الذي تولَّى إمامة الإسماعيليَّة خَلَفاً لجدِّه آغاخان الثّالث.

بعد وفاة آغاخان الثّالث، كَشَفَتْ وصيَّته عن توليته منصب الإمامة لحفيده "كريم"، وليس لابنه "عليّ سَلْمان خان" كما كان بعض الإسماعيليَّة يتوقَّع، ومنهم إسماعيليَّة الشّام، الذين كانوا يُرشِّحون "عليّ سَلْمان خان" للإمامة، ورفضوا ترشيح ابنه "كريم"، وغضبوا لذلك، ممَّا اضطرَّ "عليّ سَلْمان خان" أنْ يُسافر إلى سُوريا بنفسه، لإقناعهم بقبول وصيَّة إمامهم، خشية حُدُوث انقسامات في الطّائفة.

وهكذا قُدِّرَ للأمير الشَّابّ "كريم بن عليّ سلمان" أنْ يرثَ الإمامة العريقة، ويُصبح مسؤولاً عن طائفة كبيرة تتوزَّع على رُقعة كبيرة في المعمورة، وقد نهض الأمير "كريم" بهذه المسؤوليَّة، ولا زال إلى يومنا هذا الإمام الخمسين لطائفة الشِّيعة الإسماعيليَّة النِّزاريَّة القاسميَّة.

تثقَّف الأمير "كريم"؛ أيْ آغاخان الرّابع، ثقافةً عَرَبيّةً وإسلاميَّةً جيِّدةً إلى جانب ثقافته الغربيَّة، فقد أمضى تحصيله الجامعي في جامعة "هارفرد" التي تُعتبر من أرقى الجامعات في الولايات المتَّحدة. وكان جَدُّه آغاخان الثّالث قد عُنيَ به عناية خاصَّة، وكان يحثُّه على إتقان اللُّغة العَرَبيَّة والفارسيَّة إلى جانب الإنجليزيَّة والفرنسيَّة، كما عَلَّمَهُ ترويض الخُيُول والاهتمام بها؛ بحيثُ أنَّ كريم آغاخان أصبح أوَّل مالك للخيل في فرنسا، وأكبر مُهتمٍّ بها، وذلك بعد أنْ اختار فرنسا مكاناً لإقامته، فأقام في بلدة "شانتيلي" القريبة من العاصمة باريس، وهُو يملك الآن في تلك البلدة غاباتٍ واسعةً، وقُصُوراً فخمةً، ومزارعَ، واصطبلاتٍ، ومكاتبَ، يُضاف إلى ذلك قصره الخاصُّ في منطقة "ليل دو لا سيتيه" **Lile De La Cite** الذي يُعتَبَر مبنىً أثريّاً من أضخم وأثمن القُصُور في باريس.

نَهضَ الإمام كريم آغاخان بمشاريع اقتصاديَّة ضخمة، وَمَدَّهَا بـرُؤُوس الأموال اللازِمة. فأقام ودَعَمَ المشاريع الاجتماعيَّة والتّعليميَّة والتّربويَّة التي من شأنها تَحْسَين مُستوى المعيشة عند السُّكَّان المُقيمين في البلاد التي يتواجد فيها الإسماعيليُّون. ومن هذه الأعمال تمويله لمشروع إنشاء جامعة عامَّة في باكستان، ومشروع إنشاء مجموعة فنادق ضخمة على الشّاطئ الإفريقي من المُحيط الهندي. وتُدير كُلَّ تلك الأعمال مُؤسَّسة تجاريَّة واقتصاديَّة واستثماريَّة ضخمة مُتعدِّدة الأعمال والنّشاطات، إضافة إلى مُؤسَّسات أُخرى عديدة مُتنوِّعة الأعمال والاختصاصات، وتعمل كُلُّها تحت إدارة عامَّة يرأسها كريم آغا خان.

المبدأ الفلسفي الذي على أساسه تقوم كُلُّ تلك الأعمال والنّشاطات والخدمات في العالم الثّالث يستند إلى الاعتقاد الرّاسخ بأنّه بالمُبادرة بالأعمال النّاجحة والمشاريع العامَّة، وتقديم رُؤُوس الأموال الضّخمة لتمويل هذه المشاريع في بلد ما، يتحقَّق للإسماعيليَّة نُفُوذ كبير لا يُضاهى في هذا البلد.

ولكنَّ دور الإمام كريم آغاخان لم يقتصر على المشاريع الاقتصاديَّة والتّنمويَّة، بل تعدَّى ذلك للتَّحرُّك السِّياسي السّريع في الظُّرُوف العصيبة والخطيرة التي تُلمُّ بطائفته، ففي العام 1972، أمَرَ الإمامُ أتباعَهُ في أُوغندا بتَرْك البلاد خوفاً عليهم، فهاجر منها عشرات آلاف

الإسماعيليَّة الآغاخانيَّة في خلال أربع وعشرين ساعة فقط، وتَركوا كُلَّ أملاكهم، كي يهربوا بجلدهم من سُلطة "عيدي أمين دادا".

ومُنذُ عُهُود ليست ببعيدة؛ فَعَلَ جَدُّهُ من قبله شيئاً مُشابهاً. فقد تحرَّك الإمام الأسبق للإسماعيليَّة بسُرعة، كي يُنقذ أتباعه المُقيمين في جنوب أفريقيا من بطش نظام التّميز العُنصري.

وفي شهر تشرين الأوَّل (أُكتوبر) عام 1986، عُقِد في نيروبي مُؤتمر دولي لدراسة العُرُوض الماليَّة والتّجاريَّة التي يُقدِّمها آغاخان. وبعد الدّراسة المُستفيضة، وَضَعَ المُؤتمر الركائز الأساسيَّة للقاعدة المادِّيَّة التي يعمل بها كريم آغاخان. وتستفيد مُؤسَّسات آغاخان من مُساعدة 65 خبير عملي، وهُم الذين يُشَكِّلون حُكُومة دولته العُليا التي تتَّخذ لنفسها مركزاً ثابتاً في فرنسا. ويشتغل الإمام بمجالات عديدة: تجارة، مال، اقتصاد، صناعات غذائيَّة وزراعيَّة، ونشاطات عديدة أُخرى... ويُعتَبَرُ كريم آغاخان بنفسه رئيس أعمال كُلِّ هذه المُؤسَّسات.

وفي وسائل الإعلام الأُورُوبيَّة والأَمْريكيَّة يُذكر كريم آغاخان باعتباره مليارديرِ أُسطُوري، ورجل مُولع بالخُيُول الأصيلة الشّهيرة، وبأنَّه رائد الإصلاح والتّنمية في البُلدان الفقيرة في العالم الثّالث.

أهمُّ ما يُميِّزُ الطّائفة الآغاخانيَّة من غيرها من فِرَق الشّيعة أو الفِرَق الإسماعيليَّة القديمة:

تتميَّز الطّائفة الإسماعيليَّة من جميع الفِرَق الإسلاميَّة الشّيعيَّة أو حتَّى الإسماعيليَّة الأُخرى، حتَّى لا تكاد تُشبهها في شيء، إلاَّ في الاشتراك معها في اسم الشّيعة فقط، وخلافا لأكثر المذاهب الشّيعيَّة التي تعتمد الكتمان والتَّقيَّة في إبراز عقائدها، تحاشياً لأذى أو بطش المُخالفين، لا يجد الآغاخانيُّون أيَّ خجلٍ أو داعٍ لستر عقائدهم، بل يُصرِّحون بها، ويفتخرون بها، ويعتبرونها فَهْماً عَصْرِيّاً عَقْلانيّاً وعَمَليّاً للإسلام، يدعون الآخرين لتمثُّله، للخُرُوج من تخلُّفهم وتأخُّرهم الذي جرَّه عليهم فَهْمَهُم الحَرْفي الجامد وغير المُتطوِّر - على حَدِّ قولهم - للإسلام وتعاليمه. ولكي يكونوا في مأمنٍ من أذى واضطهاد المُخالفين، حافظ الأئمَّة الآغاخانيُّون على علاقاتٍ طيِّبة، وقدَّموا خدماتٍ جليلةً لحُكَّام بلادهم في الهند الذين

كانوا الإنجليز أولاً، ثُمَّ صاروا الحكومات الوطنيَّة في الهند وباكستان، ممَّا جعل هذه الحُكُومات تحمي أبناء الطّائفة، وتستقبل إمامها بحفاوة كما تستقبل رُؤساء الدُّول، كُلَّما قدم لزيارة أتباعه في تلك البلاد.

أوَّل ما يُميِّز الآغاخانيَّة أنَّها الطّائفة الشِّيعيَّة الإسماعيليَّة الوحيدة التي لازالت إلى يومنا هذا تتبع سلسلة مُتواصلة من الأئمَّة المُستمرِّين تعتقد أنَّهم جميعاً أئمَّة معصومون من ذُرِّيَّة فاطمة وآل عليّ عليهما السّلام آخرهم الإمام الخمسون الحالي كريم آغاخان.

ومن جهة أُخرى، ومُنذُ عهد الأئمَّة الآغاخانيِّين، تميَّزت هذه الطّائفة عن سائر الفرَق الإسلاميَّة الشِّيعيَّة وغيرها، بمظهر ومشرب أئمَّتها الغربي والعصري وقُربهم من الأُورُوبيِّين بشكل عامٍّ، والإنجليز بشكل خاصٍّ، وقد يستغرب المُسلم العادي عندما ينظر إلى صُورة إمام الطّائفة الحالي مُعلَّقة في بيت أحد أتباعه، فيراه رجلاً حليقاً لابساً البذلة الغربيَّة وربطة العُنق، وإلى جانبه زوجته البريطانيَّة (طلَّقها مُؤخَّراً) غربيَّة اللِّباس والمظهر تماماً، وغير المُحجَّبة؛ إذْ يُخالف هذا المظهر ما عهده من لباس أئمَّة الدِّين وعدم ظُهُور صُور نسائهم إلى جانبهم أصلاً، فضلاً عن أنْ يظهرن غير مُحجَّبات! ويستغرب أكثر عندما يطَّلع على أنَّ هذا الإمام يسكن في قُصُور فارهة في دولة غربيَّة هي فرنسا، ويحمل الجنسيَّة البريطانيَّة، وهُو مُولع بشراء الخُيُول الثّمينة وتربيتها في أفخر المزارع والاصطبلات، ومُشاركتها في المُسابقات، وأنَّه رجل أعمال **Businessman** بكُلِّ معنى الكلمة، في مظهر قد يُخالف ما عهده من الصُّورة التّقليديَّة المألوفة لأئمَّة الدِّين في الإسلام.

ولا يقتصر اختلاف الطّائفة عن الإسلام السُّنِّيّ التّقليدي (لا أقصد هُنا بالسُّنِّي الإشارة إلى مذهبٍ مُعيَّن، وإنَّما أقصد الإسلام السّلفي التّقليدي المُتشرِّع، أو الأُورثُوذُوكسي إذا صحَّ التّعبير) على مظهر الأئمَّة المُتغرِّب **Westernized** وأُسلُوب عملهم، بل يشمل كُلَّ شيء، فلا يُسمِّي أتباعُ الطّائفة أماكنَ عبادتهم مثلاً بالمسجد، بل يُسمُّونه "بيت الجماعة"، وهُو بناء عاديٌّ ليس فيه قُبَّة، ولا مئذنة، وليس فيه أذان، ولا إقامة، ولا صلوات خمس، ولا ركعات، كما يعرفه سائر المُسلمين، وإنَّما عدد مُعيَّن من السّجدات (قيل لي إنَّها ثمانية) تُؤدَّى مرَّة في الصَّباح، ومرَّة في المساء، يُؤدِّيها الرِّجال والنّساء - اللّواتي لا يُطلب منهنَّ،

بالضّرورة، لبس الحجاب ـ جنباً إلى جنب، كتأكيد على المُساواة الاجتماعيَّة التَّامَّة بين الجنسَيْن. وليس هُناك صيامٌ في شهر رمضان، ولا حجٌّ إلى بيت الله الحرام في مكّة، فالكعبة ليست إلاَّ حجارة ـ كما يقولون ـ وكان الحجُّ إليها في بداية الإسلام نَظَراً للمُستوى العَقْلي للنَّاس في ذلك الوقت، ثُمَّ بيَّن أئمّتهم المغزى الحقيقي للحجّ، وإنَّما يُستحبُّ للآغاخاني أنْ يذهب ـ على الأقلّ مرَّة في حياته ـ لزيارة الإمام آغاخان، وتقديم الولاء والإجلال له، ويكون ـ بهذا ـ قد أدَّى عبادة الحجّ، ويُصبح اسمه حاجي، ويقولون: ما الأفضل: هل أنْ تحجَّ إلى حجارةٍ لا تعقل، أم تزور إماماً إنساناً حيّاً مُعلّماً، وقائداً مُرشداً؟!

كما ليس لدى الآغاخانيَّة أيُّ اهتمام بتشييد الأضرحة والمزارات على قُبُور الأئمَّة، وشدّ الرّحال لزيارتها للتَّمسُّح بها، والتماس البَرَكَة منها، كما هُو معهود لدى سائر فِرَق الشِّيعة، بل يعتبرون ذلك من العَبَث، وتضييعاً للوقت والمال فيما لا طائل تحته، وأعمالاً مشوبة بالشِّرْك والخُرافات والوَثَنيَّة.

والمذهب الآغاخاني يُؤكّد جداً على الحياة العَمَليَّة الدُّنيويَّة النّاجحة والمُزدهرة ماديّاً، وأنَّ هذا هُو جوهر الدِّين، فقد يستغرب المُسلم العادي عندما ينظر في وصايا وتعاليم الإمام التي يقرؤها الآغاخانيُّون في بيُوت جماعتهم كما يقرأ المُسلم القُرآن في المسجد، فإذا به يرى في بعضها حثّاً على الدّراسة، ودعوة لتنظيم الوقت، ونصائح في أُسلُوب التّعامل مع الآخرين، ونصائح في السّعي لتحصيل المراتب العلميَّة العالية، وبيان أُسلُوب النّجاح في العمل... إلخ.

كما ينفتح المذهب الآغاخاني على سائر الأديان والمذاهب، ولا يرى غضاضة في مُطالعة كُتُبها، والاستفادة منها، فتجد في مكتبات مراكزهم كُتُباً لمُختلف المذاهب والفِرَق والأديان، مثلاً؛ تجد في المركز الإسماعيلي الآغاخاني في لندن تفسير ظلال القُرآن، وكُتُباً أُخرى لسيِّد قُطب مثلاً جنباً إلى جنب كُتُب مُؤلّفين وفلاسفة إسلاميّين وغربيّين...إلخ، بل لا يجدون غضاضة في أنْ يستدعوا عالماً سُنّيّاً إلى ذلك المركز ليُعطيهم دُرُوساً في الإسلام وتاريخه مثلاً، حتَّى لو قام بجَرْح ونَقْد المذهب الإسماعيلي؛ لأنَّهم يُؤمنون بالحوار والمُناقشة وضرورة سماع وُجهات النَّظَر المُخالفة ومُناقشتها، كما يقولون[1].

---

(1) كما حَدَّثني زميلٌ آغاخانيٌّ من سَلَمية، كان قد أُرسل إلى مركز طائفته في لندن، ليدرس فيه اللُّغة العَرَبيَّة.

بل يرجع الآغاخانيُّون في الهند - أحياناً - إلى النُّصُوص الهندُوسيَّة المُقدَّسة؛ مثل "البْهاغافاد كيتا" *Bhagavad-Gita*، ويستلهمون، ويستفيدون منها، مع رُجُوعهم - بالطّبع - إلى كتابهم الأساسي القُرآن الكريم، لكنْ؛ حسب فَهْم أئمَّتهم له، وتأويلهم الشّديد لمعانيه الظّاهرة. وتجدهم في الهند يُنشدون أحياناً - في بُيُوت جماعتهم - تراتيل بألحان مُعيَّنة باللُّغة الهنديَّة الكجراتيَّة.

كما يعتقد الآغاخانيُّون - شأنهم شأن أكثر الفرَق الإسماعيليَّة - بالتّناسخ؛ أيْ تقمُّص الأرواح، وانتقال رُوح الإنسان بعد موته لكائن آخر، ليس من الضّروري أنْ يكون بشراً، بل قد يكون - أحياناً - من الحيوانات، بل ما هُو أسوأ حسب عمله في حياته. كما يُؤوِّلون آيات الجنَّة ونعيمها، والنّار وعذابها، تأويلاً يصرفها عن معناها الظّاهر، فليس هُنا غلمان، وحُور عين، وأشجار وأثمار، كما يفهمه عامَّة القُرَّاء، بل هي رُمُوز لأنواع من النّعيم الرُّوحي أو الألم الرُّوحي المحض.

ومن أهمِّ ما يتمايز به الآغاخانيُّون من سائر الفرَق الشّيعيَّة عدم احتفالهم بالمُناسبات الدِّينيَّة الإسلاميَّة المعهودة؛ لا سيما لدى الشِّيعة، فلا يعني لهم يوم الفطر أو الأضحى أو الغدير شيئاً، على عكس يوم ولادة الإمام الحالي (الآغاخان) ويوم تولِّيه الإمامة التي تُعتَبَر أعياداً مُقدَّسةً عندهم، وذات أهمِّيَّة أكثر بكثير من أهمِّيَّة يوم عاشوراء مثلاً، الذي يهتمُّ فيه سائر الشّيعة بإحياء ذكرى شهادة إمامهم الثّالث الحُسَين بن عليّ.

وهكذا يُمثِّل الآغاخانيُّون نموذجاً واضحاً للفكْر الإسماعيلي الذي تطوَّر عبر مئات السّنين، وأعلن نَسْخَ الشّريعة مُنذُ مُدَّة طويلة (القرن الخامس الهجري) وتأثَّر في فلسفته بشكل بيِّن بالأفلاطونيَّة الجديدة والفلسفة الهيلينستيَّة وبعض الأفكار الشّرقيَّة الفارسيَّة أوالهندُوسيَّة أو البُوذيَّة نتيجة طُول التماس مع أولئك الأقوام، وخرج بهذه التّشكيلة الجديدة التي هي أقرب لجَمْعيَّة ثقافيَّة عصريَّة وجَمْعيَّة مشاريع ونشاطات تجاريَّة وخيريَّة منها إلى دين ومذهب إسلامي بالمعنى المعروف للكلمة.

التَّوزُّعُ الجغرافيُّ للشِّيعة الإسماعيليَّة الآغاخانيَّة اليوم:

يُقدَّر عدد أتباع الطَّائفة الإسماعيليَّة اليوم، بأجنحتها المُختلفة، بحوالي أربعين إلى خمسين مليوناً، ربَّما يُشكِّل الآغاخانيُّون رُبعهم أو أقلّ؛ حيثُ يعيش أكثرهم في غرب الهند، في ولاية كجرات، لاسيما في مدينة بُومبي، وفي باكستان، في مدينة كراتشي، بإضافة لتواجد ضئيل في أكثر المُدُن الباكستانيَّة الكُبرى كالعاصمة إسلام آباد، ومدينة لاهور، وراولبندي... لكنَّ وُجُودهم المُهمَّ في باكستان هُو في المناطق الشّماليَّة الجبليَّة مثل منطقة "جيترال" و"كيلكيت". كما يُوجد أقلِّيَّة قليلة منهم في المناطق الجبليَّة لطاجيكستان ومنطقة جبال الهندوكوش في أقصى الشّمال الشّرقي لأفغانستان. ويتواجدون ـ أيضاً ـ في إفريقية الشّرقيَّة؛ أيْ دُول أوغندا وكينيا وتنزانيا وزنجبار وما حولها، كما لهم وُجُود جيِّد في جزيرة "مدغشقر" الكبيرة غرب أفريقيا، كما يُقيم أتباع الطَّائفة في سُوريَّة في مدينة "سَلَمية" (إلى الشّرق من مدينة حماة)، وفي بعض قُراها، وفي جوار قلعة الخوابي قُرب طرطوس.

وبفَضْل شبكة العلاقات الواسعة للأئمَّة الآغاخانيِّين مع كثير من رُؤساء الدُّول والحُكُومات في العالم، وبفضل الأموال الطّائلة التي تُجمع وتُقدَّم من أبناء الطّائفة إلى الإمام، والمال يجرُّ المال كما يُقال، وبفَضْل تشجيع الإمام أتباعه على العمل والتّجارة والنّجاح، تَجَمَّعَتْ لدى الإمام وعديد من أتباعه ثروة ضخمة يتمُّ إنفاق جُزء كبير منها على إنشاء المُستشفيات والمُستوصفات الطِّبِّيَّة المجَّانيَّة، ودُور رعاية الأيتام، والجامعات والمُؤسَّسات التّعليميَّة التي تُقدِّم المنَح الدّراسيَّة لأبناء الطّائفة وغيرهم، ومن أشهرها جامعة آغاخان الكبيرة في كراتشي، التي تضمُّ كُلَّ الفُرُوع ومركز الدّراسات الإسماعيليَّة في لندن، الذي يُعلِّم اللُّغة العَرَبيَّة والتّاريخ والفُنُون الإسلاميَّة لكثير من البريطانيِّين وغيرهم الرّاغبين في التَّعرُّف على الحضارة الإسلاميَّة، هذا؛ عدا عن دَعْم كثير من المشاريع الاقتصاديَّة التّنمويَّة في جنوب آسيا وشرق أفريقيا. ويُضاف إلى ذلك تكريس الإمام "كريم آغاخان" لصُنْدُوق خاصٍّ لتقديم جائزة سنويَّة لأفضل إنجاز في مجال العمارة الإسلاميَّة وإحياء المُدُن الإسلاميَّة العريقة القديمة[1].

---

(1) جُزء من هذه المعلومات مُستفاد من مواقع للآغاخان الحالي على شبكة الإنترنت؛ وأهمُّها:
/http://www.akdn.org

(2) الشَّيْخيَّة

بَرَزَ[1] في القرن الثّاني عشر الهجري (الثّامن عشر الميلادي)، أحد مشايخ الشّيعة الإماميَّة في منطقة الإحساء شرقي الجزيرة العَرَبيَّة، كان ذا اتِّجاه فلسفي مُغال، وكان غزير التّأليف، ونادى في مُؤلَّفاته بأفكار مُغالية، كانت السّبب في نشأة فرقة جديدة قليلة الأتباع ضمن الشّيعة الإماميَّة تميَّز أتباعها بمجموعة من العقائد؛ اعتبرها جُمهُور عُلماء الشّيعة غُلُواً وانحرافاً، بل وصل الأمْر ببعض عُلماء الشّيعة إلى حَدِّ تكفير أتباع هذه الفرقة الجديدة، لما في أفكارهم من غُلُوٍّ وتفويضٍ يُناقض ويُخالف أهمَّ أصل من أُصُول الإسلام؛ ألا وهُو أصل توحيد الرُّبُوبيَّة وتوحيد الأُلُوهيَّة. وقد عُرِف أتباع هذه الفرقة باسم "الشَّيْخيَّة" نسبةً لمُؤسّسها الشّيخ أحمد الإحسائي، **فَمَنْ هُو هذا الشّيخ؟ وما هي أفكاره؟**

وُلد الشّيخ أحمد الأحسائي في قرية المطيرف من منطقة الإحساء شرقي الجزيرة العَرَبيَّة، في شهر رجب من عام **1166 هـ/ 1752**م، وتلقَّى العُلُوم الابتدائيَّة على بعض مشايخ منطقته، ثُمَّ رحل إلى العراق سنة **1186 هـ/ 1772**م. وعُمره ـ يومذاك ـ عشرون سنة، ليدرس على بعض كبار عُلماء الشّيعة في النّجف وكربلاء كالشّيخ مُحمَّد باقر البهبهاني في كربلاء، والسَّيِّد مهدي بحر العُلُوم، والشّيخ جَعْفَر كاشف الغطاء في النّجف، وغيرهم، ثُمَّ عاد ـ بعد مُدَّة ـ إلى بلاده، وتزوَّج فيها، ثُمَّ هبط البحرَيْن، فَسَكَنَهَا مع عائلته أربع سنوات، وكان يتردَّد بعد ذلك بين المُدَّة والأُخرى إلى العراق لزيارة العتبات المُقدَّسة، وكان كثير الميل للعُزلة والخُلوة، وفي سنة **1621 هـ/ 1806**م، جَدَّدَ العهد بزيارة العتبات في العراق، ومن هُنالك؛ انطلق مع ولده الشّيخ عليّ لزيارة المشهد الرّضوي في إيران، ولَمَّا وصل إلى يزد اجتمع إليه بعض أهلها ـ وكان الشّيخ جَعْفَر كاشف الغطاء النّجفي هُناك يومئذ ـ وعرضوا عليه البقاء عندهم، فَوَعَدَهُم بتحقيق رغبتهم بعد عودته من زيارة الإمام الرّضا. ولَمَّا عاد من

---

(1) مصدر هذه الدّراسة عن الشّيخيَّة مُلخَّص ـ مع تصرُّف وإضافات يسيرة ـ من كتاب: "الشَّيْخيَّة نشأتها وتطوُّرها ومصادر دراستها"، لمُؤلِّفه السَّيِّد: مُحمَّد حَسَن آل الطّالقاني، ط1، دار الآمال للمطبوعات، بيرُوت ـ لُبنان، ط1، 1420هـ/ 1999م.

الزّيارة استقرَّ في "يزد"، وَشَرَعَ هُناك في التّدريس والوَعْظ، فتألّق نجمه، وطار اسمه، وسمع به ملك إيران في حينه السُّلطان فتح علـيّ شاه القاجاري، فأُعجب به، فدعاه إلى القُدُوم للعاصمة طهران، فاعتذر في البداية لحُبِّه للعُزْلة وخُمُول الذِّكْر، لكنّه استجاب في النّهاية نَظَراً لإصرار السُّلطان، واستُقبل في طهران بحفاوة، ثُمَّ عاد بعد مُدَّة إلى يزد، ليُواصل التّأليف وإلقاء الدُّرُوس، وكانت له زيارات مُتعدِّدة لسائر مُدُن جنوب بلاد فارس كأصفهان وشيراز وجنوب العراق ككربلاء والبَصْرَة، وأخيراً؛ تُوفِّي عام 1241 هـ/ 1825م. وهُو في طريقه إلى الحجِّ على بعد مرحلتَيْن من المدينة، فنُقل جُثْمانه إلى البقيع، ودُفن بها.

كان الشّيخ الإحسائي - كما يذكر مَنْ تَرْجَمَ له - كثير الذِّكْر، مُحبّاً للعُزلة عن النّاس، كثير المَيْل إلى حياة الأرياف والصّحاري؛ حيثُ يسود الهُدُوء، ويسمو الخيال، فعاش الأحسائي في مثل ذلك الجوِّ فترات طويلة وسنين عديدة، فَدَفَعَ الاستعدادُ الحاصلُ له قُوَّةَ فكْره إلى جهة الإشراق، ونمَّى لديه شُعُور النَّيْل من عالم الغَيْب حالة اليَقَظَة والمنام! [1] وأخذ يُطعِّم بتلك الخواطر والمُكاشفات كلامَهُ إذا تحدَّثَ، أو دري، وتآليفه متى كَتَبَ. وكان عالماً تضلَّع في الفقْه والحديث والفلسفة والتّفسير، وشارك في العُلُوم الإسلاميَّة الأُخرى التي كانت رائجة في عصره. وكان مُفرطاً في ولهه ومُغالاته في محبَّة وولاء الأئمَّة من آل مُحمَّد عليهم السّلام، إفراطاً كان يشطح به عن ضوابط وحُدُود الشَّرْع، وَمَزَجَ ذلك بنزعة عرفانيَّة وتفكير صُوفي طغى على أُسلُوبه، وظهر واضحاً في آرائه، وغرق فيه إلى هامته، رغم تنكُّره للصُّوفيَّة والعُرفاء، وتصدِّيه للرَّدِّ عليهم. وهكذا ظهرت في مُؤلّفاته وكُتُبه العديدة أفكار فيها التّفويض؛ أيْ القول بأنَّ الله - تعالى - فوّض أمر الكون خَلْقاً ورزْقاً وتدبيراً للأئمَّة من آل الرّسول عليهم السّلام!! وأنَّ الأئمَّة هُم مالكو يوم الدِّين وإياب الخَلْق يوم المعاد إليهم، وحساب النّاس عليهم، وغير ذلك من أفكار الغُلُوِّ والارتفاع الكثيرة التي ترفع الأئمَّة الاثنَيْ عشر إلى مقام يُضفي عليهم الكثير من الصِّفات الإلهيَّة التي يرى جُمهُور المُسلمين أنّها من الصِّفات الخاصَّة بالله - تعالى - لا يُشاركه فيها أحد سواه. كما ظَهَرَ في أفكاره جليّاً إنكاره للمعاد الجسْماني، وقوله بأنَّ المعاد رُوحاني محض - كقول الفلاسفة - وقوله بأنَّ معراج النّبي

---

(1) يُقرِّر ذلك بعض كبار فلاسفة المُسلمين كابن سينا ونصير الدِّين الطّوسي (الإشارات 3/ 393) فخر الدِّين الرّازي (شرح الإشارات: 2/ 182، طبعة الخيريَّة عام 1325هـ/ 1907م).

ﷺ كان رُوحانيّاً، ولم يكن بالجَسَد والرُّوح، وغير ذلك من الأفكار التي ضَلَّلَهُ فيها عُلماء النّجف وإيران.

وكان أهمُّ تلامذته السَّيِّد كاظم الرّشتي الذي اعتُبر خليفة الشّيخ؛ حيثُ استمرَّ، ونشط في تثبيت أفكاره من بعده، بل في تطويرها زيادة الغُلُوِّ فيها، ولم يُقعدهُ عن الدّعوة تهديد، ولم يثنه عن المُضي في طريقه الرّصاص الذي أُطلق عليه غير مرَّة، وقد كان له الأثر البالغ في نَشْر آراء أُستاذه وتعميمها وتركيزها، فقد بَذَلَ جهداً مُضنياً في الدّفاع عنها، وتوجيه المُتشابه منها، وتفسيره بما يُوافق المُعتقد السّائد. وتَرَكَ - كشيخه الإحسائي - كُتُباً عديدة بالعَرَبيَّة والفارسيَّة.

وقد انقسمت الشّيخيَّة بعد كاظم الرّشتي إلى مدرسَتَيْن؛ عرفت الأُولى بالشّيخيَّة أو مدرسة تبريز، والثّانية بالرُكْنيَّة أو مدرسة كرمان؛ حيثُ تبنَّت كُلُّ مدرسة مجموعة من الآراء والمُعتقدات وتنكَّرت لها زميلتها [1].

وتسلسل على زعامة شَيْخيَّة تبريز المشايخ التَّالُون:

1 - آل حُجَّة الإسلام:

(1) الشّيخ مُحمَّد حُجَّة الإسلام المقاني.

(2) الميرزا مُحمَّد حُسَين حُجَّة الإسلام المقاني.

(3) الشّيخ مُحمَّد تقي حُجَّة الإسلام المقاني.

(4) الميرزا إسماعيل حُجَّة الإسلام المقاني.

(5) الميرزا أبو القاسم حُجَّة الإسلام المقاني.

(6) الميرزا عليّ ثقة الإسلام التّبريزي.

---

(1) لقد بلغ الخلاف بين المدرستَيْن أقصى الحُدُود، حتَّى إنَّ مدرسة تبريز أنكرت عدالة عُلماء مدرسة كرمان. قال الشّيخ مُحمَّد أبو خمسين الأحسائي تلميذ الرّشتي وجوهر: «لا تجوز الصّلاة خلف الرُكْنيَّة» (الرّسالة العميلة/ المُقدّمة) أمَّا الشّيخ حَسَن الأحقاقي الحائري؛ فيرى استحالة الوفاق بينهما، وأنَّ الشَّيْخيَّة شيء، والرُكْنيَّة شيء آخر. وقد قال: «و أمَّا الطّائفتان الشَّيْخيَّة والرُكْنيَّة؛ فدُون الإصلاح بينهما خرط القتاد، وأهون من ذلك الجَمْع بين الأضداد، إذْ الاختلاف والفرق بينهما أوسع مِمَّا بين السّماء والأرض، وليس بحَدٍّ يقبل الإصلاح والتّرقيع.. فبين المسلكَيْن بَوْنٌ بعيد وتغاير شديد، ولا يُمكن التّأليف بينهما بالاتّحاد الدِّيني، اللّهمَّ إلاَّ أنْ يكفُّوا عن عقائدهم، ويرفعوا اليد عن مُتفرّداتهم، ويجعلوا الحَكَمَ والميزان كُتُب الشّيخ، لا كُتُبهم..» (منظرة الدّقائق على تباين الحقائق، ص 77و78، 80 - 82).

2 ـ آل الأسكوئي:

(1) الميرزا مُحمَّد باقر الأسكوئي.

(2) الميرزا مُوسَى الأسكوئي الحائري.

(3) الشّيخ الميرزا عليّ الحائري.

(4) الشّيخ الميرزا حَسَن الإحقاقي الحائري (الذي استقرَّ وعاش في الكُويت، وأدْرَكَتْهُ الوفاة في سنة 2003م.)

أمَّا مشايخ شَيْخيَّة كرمان؛ فكانوا من آل الكرماني؛ وهُم:

(1) الحاج مُحمَّد كريم خان الكرماني.

(2) الحاج مُحمَّد خان الكرماني.

(3) الحاج مُحمَّد زين العابدين الكرماني.

(4) الحاج أبو القاسم خان الكرماني الإبراهيمي.

(5) الحاج عبد الرّضا خان الإبراهيمي.

(6) السَّيِّد عبد الله المُوسوي.

مُعتقدات الشَّيْخيَّة والآراء التي خالفوا فيها باقي الشِّيعة الإماميَّة:

تتركَّز أهمُّ مُخالفات الشَّيْخيَّة لعامَّة الشِّيعة الإماميَّة بأربع نُقاط؛ هي في الحقيقة أُصُول الخلاف، والمسائل الرَّئيسة التي قام حولها النّزاع، وسُجِّلت عليها المُؤخذات، أمَّا بقية موارد الخلاف؛ فهي ـ في الواقع ـ صُغرويَّة تَتَفَرَّعُ عنها.

المسألة الأُولى: *قضيَّة المعاد*: أيْ كيفيَّة عودة النّاس للحساب يوم القيامة؛ حيثُ ذَهَبَ الشّيخ الإحسائي ـ رأس المدرسة ـ إلى رُوحانيَّته، وأقواله فيه صريحة لا تقبل التّأويل، إلاَّ أنَّه قد تراجع عنه على أثَر قيام الظّاهريِّين عليه، وقال بجسمانيَّته، وَعَمَدَ إلى تأويل أقواله بما يُوافق الظّاهريِّين؛ غير أنَّ ذلك لم يُجده شيئاً. وجاء من بعده تلميذه وخليفته الرّشتي، فنفى عن أُستاذه تلك القولة، واعتبرها اتّهاماً له، واعتذر عنه بمُختلف الأساليب، وفي أقواله مُغالطة واضحة وتمحُّل مكشوف، ويبدو أنَّه كان كثير التَّحفُّظ من الهَفَوَات عندما يُسأل عن كيفيَّة المعاد؛ فقد كان يتناول عُمُوميَّات المسألة، ولا يتطرَّق إلى خُصُوصيَّاتها؛ تفادياً للمشاكل، وربَّما بالغ في ترضية الظّاهريِّين لحَدِّ تكفير القائلين برُوحانيَّة المعاد فقط.

وجاء من بعده خليفته جوهر، فلم يختلف في عرضه للمسألة عن أُستاذه للرّشتي، فقد أيّد رأيه ورأيِ سَلَفه الإحسائي الأخير من القول بالجسمانيَّة؛ لكنَّه لوَّح إلى رُوحانيَّته بصُورة لا تخفى على اللّبيب، فقد صرَّح بتوسُّط الجَسَد المثالي بين الجَسَد العُنصري والرُّوحي، وأنَّ المثالي يدخل يوم القيامة في العُنصري الذي يقوم للحساب بعد ذهاب كثافته العارضة، ويبدو واضحاً أنَّه لم يستطع أنْ يكتم ما يعتقده.

المسألة الثّانية: *موضوع كيفيَّة معراج النّبي* (صلّى الله عليه وآله وسلَّم): هل أنَّه كان رُوحانياً أم جسمانياً ورُوحانياً؟ حيثُ ذهب الشّيخ الإحسائي إلى كونه رُوحانياً، واعتقد بأنَّ جسم النّبي ﷺ قد تلطَّف عند صُعُوده إلى عالم الكون، ولم يكن بهذا الجسد الكثيف، بل أنّه ألقى في كُلِّ كُرة ما يُناسبها؛ فألقى تُرابه في التُّراب، وماءه في الماء، وهواءه في الهواء، وناره في النّار، وأنَّه لمّا رجع أخذ من كُلِّ كُرة ما ألقى فيها؛ لأنَّ صُعُود عناصره يقتضي الخرق والالتئام في الأفلاك. وتراجع بعد ذلك، فناقض نفسه، وقال: إنَّه صعد بجسمه وعمامته وثيابه ونعلَيْه، وأنَّه لا مانع من الخرق والالتئام، وأنَّ الله على كُلِّ شيء قدير.

وجاء من بعده خليفته كاظم الرّشتي، فاقتفى أثَره، وأكّد أقواله وآراءه، وتحامل كذلك على مَنْ يقول برُوحانيَّة المعراج. وجاء من بعده خليفته جوهر، فأيّد أقوال سَلَفه الرّشتي، وبالغ، حتّى أساء الأدب بالنّسبة لمقام الرَّبِّ، فزعم أنَّ عرش الله تشرَّف بنعل رسوله! وجاء خليفته الشّيخ مُوسَى الإسكوئي، فَذَهَبَ إلى نُورانيَّة جسم الرّسول (صلّى الله عليه وآله وسلَّم)، وأنَّ عناصر جسمه ليست من تلك الكُرات حتّى يُلقيها فيها، وأنَّها خُلقت قبل خَلْق الكُرات بآلاف الأعوام في الوقت الذي قال فيه سيِّدنا مُحمَّد (صلّى الله عليه وآله وسلَّم) كما حكاه عنه القرآن الكريم: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف/ 110] فكيف نفى بشريّته وآدميّته وهو القائل: «كُلُّكم لآدم وآدم من تُراب».

ولمّا جاءت نوبة خليفته وولده الشّيخ عليّ الحائري أعاد أقوال مَنْ سَبَقَهُ، وكرَّر عبارة - أو جسارة - جوهر بلَفْظها. واستمرَّت مدرسة تبريز بعده في تقليد سَلَفها في هذه المسألة حتّى اليوم.

واختلفت مدرسة كرمان عن مدرسة تبريز في هذه المسألة - فقد أكّد رأس مدرستها الحاج مُحمَّد كريم خان رأي الإحسائي الأوَّل الصّريح برُوحانيَّة المعاد، لكنَّه لم يُصرِّح به

جُملة ـ وتفصيلاً ـ وتلويحه أبلغ من التّصريح ـ فمرَّة يرى: أنَّ مشايخه أشاروا إلى المسألة من خلف ألف ستار، ولم يكن ليصلح لزمانهم أكثر من ذلك، وأُخرى يعتذر: بأنَّ خوفه من طُغيان النُّفُوس الفرعونيَّة حال دُون وَضْع النُّقاط على الحُرُوف. وقد أكَّد ذلك غير مرَّة، وكرَّره بأكثر من أُسلُوب. ثُمَّ عاد كالآخرين، فَتَنَكَّرَ لذلك الرَّأي، وتحامل على الفلاسفة لقولهم به، ورماهم بالجهل بأسرار الخَلْق، واستمرَّ يُبرهن ويُكثر من الشّواهد لدَعْم قوله.

المسألة الثّالثة: *مسألة الغُلُوّ والتّفويض*: وهي أهمُّ المسائل، والحقيقة أنَّها ليست خاصَّة بالشّيْخيَّة، بل إنَّه يُوجد في كُلّ عصر فريق من الشّيعة كانت تدفعهم شدَّة الولاء والإيمان والحُبّ لأئمَّة آل البيت إلى تجاوز الحَدّ الذي أمَرَ به، وأقرَّه أهل البيت عليهم السّلام أنفسهم، فقد نهى الأئمَّة ـ عليهم السّلام ـ عن ذلك الغُلُوّ مراراً عديدة، وتذمَّروا ممَّنْ كان يرفعهم عن مقاماتهم التي أحلَّهم الله فيها، بل نقموا على أُولئك، وأمروا بهَجْرهم وطَرْدهم، وحرَّموا على شيعتهم مُجالستهم.

وممَّنْ تجاوز الحَدَّ فرقة الشّيْخيَّة، فلزعيمها الإحسائي رأي لا يُقرُّه المُعتدلون، وأقواله في ذلك كثيرة لا تُحصى، فهُو يعتقد أنَّ آل مُحمَّد عليهم السلام معاني الله ووجهه الذي يتوجَّه إليه الأولياء، والذي يبقى بعد فناء كُلّ شيء، وأنَّهم العلل الأربع للمخلوقات؛ أيْ العلَّة الفاعليَّة، والعلَّة الصُّوريَّة، والعلَّة الجسْميَّة، والعلَّة الغائيَّة، وبما أنَّهم خَلْقٌ فوق بني آدم، فإنَّ أجسامهم لا ترى بالبَصَر ولا بالبصائر، وأنَّ لهم قُدرة مَنْع الرِّزْق عمَّن يشاؤون؛ لأنَّ الخَلْق عبيدٌ رقٌّ لهم، إلى كثير من أمثال ذلك!

وجاء من بعده خليفته الرّشتي، فَنَهَجَ الطّريق ذاته، وكرَّر قول أُستاذه حول قُدرة آل مُحمَّد عليهم السّلام على مَنْع الرِّزق عن المخلوق، وأنَّهم معاني الله ومعادن كلماته، واعتبرهم عظمة وجبروته وقُدرته، وأنَّهم ربُوبيَّة الله أيضاً، وأنَّ كلمة خالق لن تليق بذات الله، ولذلك؛ فالمُراد بها وبغيرها من الفعال أهل البيت عليهم السّلام. ومن طريف آرائه أنَّ التّنباك خُلق مُرّاً بسبب إنكاره لولاية أهل البيت.

وقد أيّد ذلك وأوضحه الشّيخ مُوسَى الإسكوئي، وأضاف إليه أنَّ الله صوَّر المخلوقات من الأنبياء إلى الجمادات وُفق رغبة آل مُحمَّد عليهم السّلام. فَمَنْ أقرَّ بولايتهم في عالم الذَّرّ

خُلق حَسَن الهيئة، ومَنْ أنكرها خُلق قبيحاً. وقال بطهارة فضلاتهم ومدفوعاتهم. ولا أدري لماذا لم يكن لسيِّدنا مُحمَّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) نفسه ـ الذي شُرِّف آله من أجله ـ مثل تلك المزيَّة؛ بحيثُ يُخيِّره الله في كيفيَّة إيجاد الخَلْق وهيئاتهم، وكانت للأئمَّة من آله فقط؟!

وهكذا سارت مدرسة تبريز خلف قادتها، واتَّبعت خُطى سَلَفها، وأعاد مَنْ تأخَّر من عُلمائهم أقوال مشايخه، وأيَّد مزاعمهم، وتحمَّس لها. ولم تكن مدرسة كرمان لتختلف عن أُختها في الرَّأي والمُعتقد، فالرَّأي واحد والأقوال مُتشابهة، فرأسها الحاج مُحمَّد كريم خان يرى أنَّ أهل البيت هُم الخَلْق الأوَّل، والعلَل الأربع لباقي الخَلْق، وأنَّهم يفعلون ما يشاؤون، ويتولَّون يوم الجزاء أمْرَ الجنَّة... والشِّيعة في نَظَره غير مُحاسبين على أعمالهم؛ لأنَّ ولاية آل مُحمَّد عليهم السَّلام تُطهِّرهم من كُلِّ ذنب! وسار خُلفاؤه من بعده سيرته، وآمنوا بآل مُحمَّد عليهم السَّلام إيمانه، ومؤلَّفاته طافحة بتلك الآراء والأقوال.

وخُلاصة هذا الباب: أنَّ عُلماء الشَّيْخيَّة قديماً وحديثاً قد تجاوزوا الحَدَّ المسموح به في تقديس آل مُحمَّد عليهم السَّلام، وغالوا في حُبِّهم، حتَّى فوَّضوا إليهم بعض الأفعال الإلهيَّة، وهُم وإنْ صرَّح البعض منهم بأنَّ ذلك تفويض مشيئة لا تفويض شراكة أو استقلال، فإنَّهم غير معذورين عند المُعتدلين من عامَّة الشِّيعة؛ لأنَّ الأئمَّة أنفسهم قد أنكروا ذلك، ونهوا عنه، وحرَّموا القول به، فضلاً عن كون تلك الأقوال تُناقض تعاليم القُرآن الكريم نصَّاً ورُوحاً، فمنطق القُرآن الكريم يقوم على أساس أنَّ الله وحده هُو المُستحقُّ للعبادة؛ لأنَّه بيده الخَلْق والرِّزق والإحياء والإماتة والسَّعادة والشَّقاء، وأنَّه مالك يوم الدِّين، إليه ـ تعالى ـ إياب الخَلْق، وعليه وحده حسابهم، فلو كان لغيره هذه الأُمور، والعياذ بالله، لاستحقَّ ـ حسب منطق القُرآن ـ العبادة أيضاً. فالقول بالتَّفويض إشراك يُناقض مُقتضى الكلمة الطَّيِّبة التي هي أساس دعوة الإسلام ودعوة جميع الأنبياء، ألا وهي كلمة "لا إله إلاَّ الله".

والمسألة الرَّابعة والأخيرة: الإمام النَّاطق والرُّكن الرَّابع. وخُلاصتها: أنَّه لابُدَّ لكُلِّ زمان من إمام ظاهر غير الإمام الغائب تكون له الوساطة بينه وبين رعيَّته، ويجب على العُلماء دعوة الخَلْق إليه، وليس لغيره التَّصدِّي للأُمور إلاَّ بأمره. وهي تخصُّ مدرسة كرمان وحدها، ولذلك؛ سُمِّي شَيْخيَّة كرمان بـ«الرُّكنيَّة». وقد ظهرت نُواتها الأُولى في مؤلَّفات الإحسائي، وتلقَّاها خليفته الرَّشتي، فَوَضَّحَهَا بعض الشَّيء. ولَمَّا انقسمت الشَّيْخيَّة بعد

وفاته، تنكَّرت مدرسة تبريز للفكْرة، وَعَمَدَ عُلماؤها إلى ما يدلُّ عليها في مُؤلَّفات الإحسائي والرّشتي، فصرفوه إلى معان أُخرى، وصارت نصيب شَيْخيَّة كرمان، فالحاج مُحمَّد كريم خان هُو الذي تبنَّى الفكْرة، وَوَضَّحَهَا. ففي الرّسالة التي وَجَّهَهَا إلى أُستاذه الرّشتي تصريحُ بذلك. فقد اعتبر الإحسائي قُطباً، وأنَّه الذي يعهد به الرّحمن؛ لأنَّه العَقْل. وأنَّ الرّشتي وريثه في ذلك، وهُو القُطب من بعده، ومَنْ لم يتوجَّه إليه في صلاته وسائر أعماله صلَّى لغير القبلة والوُجهة، وسأله عن وليّ الأَمْر من بعده، وأنَّه لو ادَّعى الرّشتي النُّبُوَّة لصدَّقه. وتصريحاته بذلك أكثر من أنْ تُحصى، وهي مبثوثة في مُؤلَّفاته.

وقد اقتفى أثره ولده وخليفته الحاج مُحمَّد خان، وَصَرَّحَ به في غير واحد من مُؤلَّفاته ورسائله، فزعم أنَّ وَحْدَةَ النّاطق أمر ثابت قام عليه البُرهان من قِبَل مشايخه، وأنَّه يستفيض من الإمام الغائب، ويفيض على النّاس، وهُو النّاطق للنُّقباء. كما رَدَّ على أعلام مدرسة تبريز، وَدَلَّلَ على خطئهم بدعوى مُتابعة الإحسائي بأنَّ النّاطق لا يكون أكثر من واحد، ويقصد بذلك أنَّ وُجُود أبيه الحاج مُحمَّد كريم خان يُبطل دعوى الآخرين؛ إذْ لم يُشركه في أمره أحد. وكَرَّرَ ذلك بعبارات مُختلفة وإيضاحات أكثر، لكنَّه قد تراجع بعد ذلك، وأخذ يُفسِّر أقوال أبيه التي استدلَّ بها على رُكنيَّته سابقاً تفسيراً مُغايراً للأوَّل، ويذكر لها معاني لم يكن لها ربط بها مُطلقاً، ودافع عنه كثيراً، واتَّهم النّاس بعدم فيهم ما يرمي إليه أبوه.

والمُضحك أنَّه كَفَّرَ نفسه وأباه ومشايخه الأوَّلين؛ لأنَّه اعتبر مَنْ يذهب إلى ذلك الرّأي كافراً ملعوناً.

واختفت التّسمية السّابقة (الإمام النّاطق)، وحلَّتْ محلَّها تسمية جديدة (الرُّكن الرّابع)، وأصبح لها مدلول جديد، ومعنى آخر يختلف عن معناها السّابق اختلافاً كُلّيّاً، هُو: (مُوالاة المُوالين لآل مُحمَّد ومُعاداة أعدائهم). وبقي خَلَفُهُ يُعيد، ويصقل، ويُفسِّر، ويُؤوِّل، إلى أنْ وصلت النّوبة إلى زعيمهم المُعاصر الشّيخ أبي القاسم الإبراهيمي، فادَّعى أنَّ ما قاله سَلَفه هُو عين ما أوجبه العُلماء كافَّةُ قديماً وحديثاً، وأشهد الله أنَّ مشايخه لم يقصدوا غير ذلك، وأنَّ المُراد به ليس شخصاً مُعيَّناً. وكذلك المُوسوي وكيل مركز كرمان في العراق، فقد أيَّد تلك المزاعم، ولَعَنَ مَنْ يعتقد برُكنيَّة الحاج مُحمَّد كريم خان أو أحد أولاده، ولَعَنَ مَنْ أبْطَلَ النّيابة العامَّة.

(3) القاديانيَّة (أو الجماعة الإسلاميَّة الأحمديَّة)

في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر الميلادي، وُلدَت في قريةٍ صغيرة تُسمَّى "قاديان" في إقليم البنجاب شمال غرب الهند، جماعةٌ دينيَّةٌ إسلاميَّةٌ مُحْدَثَةٌ، قال مُؤسِّسها المدعو "ميرزا غُلام أحمد" أنَّه يُوحى إليه من الله، وأنَّه المهدي الموعود، والمسيح المُنتظر، الذي بَعَثَهُ الله تعالى ـ كما وعد على لسان خاتم أنبيائه مُحمَّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) ـ ليُجدِّدُ الإسلام الصّحيح، ويُحييه من جديد!

مُؤسِّس الفرقة:

وُلد "الميرزا غُلام أحمد بن غُلام مُرتضى بن عطا بن الميرزا كل مُحمَّد القادياني" حوالي سنة 1251 هـ / 1835م، وقيل سنة 1255 هـ/ 1839م في عائلة كبيرة في قرية صغيرة تُسمَّى "قاديان" في مُديريَّة "جورداسبور" **Gurdaspur** في إقليم "البنجاب" شمال غرب الهند، تقع على بعد حوالي 40 ميلاً شمال شرق مدينة "أمريتسر" عاصمة إقليم البنجاب الحاليَّة، وتلقَّى دُرُوسه في منزل أبيه على الطّريقة القديمة؛ حيثُ كان والده طبيباً، فَجَلَبَ له المُعلّمين، فَتَعَلَّمَ منهم القراءة والكتابة، وقرأ القُرآن، وَدَرَسَ النّحو والصّرف والمنطق والحكمة وفُنُون العَرَبيَّة والفارسيَّة، وعُرِفَ بالجدّ والاجتهاد. ودخل "الكُلّيَّة الشّرقيَّة" في البنجاب، وعُيِّن كاتباً في محكمة مدينة "سيالكوت"، وشغل وظائفَ حرَّةً أُخرى، مُدَّة أربع سنوات، في الدّولة التي كانت تحكمها آنذاك الحُكُومة البريطانيَّة، التي كانت تستعمر جميع شبه القارَّة الهنديَّة في ذلك الوقت، ثُمَّ تَرَكَ العمل الوظيفي، ومال إلى الخُلوة والتّأمُّل والتّفكُّر والمُطالعات الدِّينيَّة، وقيل: إنَّه كان يسمع أثناء ذلك أصواتاً، ونداءاتٍ خفيَّةً رُوحيَّةً.

كان الميرزا ـ مُنذُ نشأته ـ ذا شَغَفٍ كبيرٍ بالقراءة والمُطالعة، يقضي فيها مُعظم وقته، وقد تفرَّغ لدراسة الكُتُب الدِّينيَّة والصُّوفيَّة، وَغَلَبَتْ عليه نزعة التَّصوُّف، وكانت سائدةً يومئذٍ بين كثيرٍ من عُلماء المُسلمين في الهند، وكان لها طُرُقُها ورجالها ومُؤلّفاتهم، كما كان لهم خُصُومهم الذين يُجاهرون بنَقْدهم ومُعارضتهم. وكانت يومذاك ـ أيضاً ـ حركة تجديديَّة

إصلاحيَّة هندُوكيَّة باسم "آريه سماج"، وكان لها زُعماء بارزون، وعُلماء ينطقون باسمها، وقد كثرت المُناظرات بينها وبين خُصُومها، كما كانت بعثات تبشيريَّة تتألَّف من القسس والرُّهبان، وكان الصّراع على أشُدّه بينهم وبين عُلماء المُسلمين، فظهر القادياني على السّاحة في تلك الفترة، وعُدَّ في النّابهين من المُسلمين، وكانت له مع كبار المُناظرين من الفئتَيْن مواقفُ مشهورةٌ، وتفوُّقٌ بارزٌ، اعترف به عُلماء عصره، فقد قال السَّيِّد عبد الحي الحَسَني: «... واشتغل بالكلام، وكان يُباحث أحبار الآريَّة (أيْ الهندُوس) والنّصارى، ويُفحمهم في مُباحثاته، ويصرف أوقاته كُلَّها في الذَّبِّ عن الحَنَفيَّة البيضاء، ويُصنِّف الكُتُب في ذلك، وكانت مساعيه مشكورة عند أهل المِلَّة الإسلاميَّة...» و «قد أورد في كتابه: "براهين أحمديَّة" على إحقاق الإسلام ثلاثمائة دليلٍ عقليٍّ»[1]. وقد واصل مُطالعة كُتُب العرفان والتَّصوُّف والفلسفة، وثقَّف نفسه ثقافة عالية، أهَلَتْهُ للصّدارة والتّأليف، فأنتج آثاراً قيِّمةً، قُوبلت بالإعجاب والإكبار من قِبَل الطّبقات المُثقَّفة، ولم يكن لما أشاعه عنه خُصُومه، وكَتَبَهُ عنه بعض الحُسَّاد، من أنّه كان محدود الذّكاء، وأنّه رَسَبَ في امتحان "مولوي فاضل" الذي يُعادل الصَّفَّ الثّاني من الكُلِّيَّة؛ أيُّ نصيب من الصّحّة.[2]

ولمّا بلغ من العُمر إحدى وأربعين عاماً، (سنة 1880م)، نَشَرَ أهم أثر له وهُو «البراهين الأحمديَّة» الذي لقي استقبالاً جيِّداً وقبولاً حَسَناً في أوساط المُثقَّفين من المُسلمين، وفي شهر آذار (مارس) من عام 1889، أعلن الميرزا غُلام أحمد أنّه مُحَدَّثٌ يتلقّى الإلهام من الله تعالى، وأنَّ الله ـ تعالى ـ أذن له أنْ يأخذ البَيْعَة من النّاس على هذا الأساس، فالتفَّت حوله مجموعةٌ من المُريدين، كان منهم بعض الشّخصيَّات المرموقة.

في بداية دعوته، أعلن الميرزا غُلام أحمد أنّه مُجدِّدٌ فحسب، وأنَّ العناية الإلهيَّة قد اختارته، ليُجدِّد للأُمَّة أُمُور دينها، طبقاً للحديث القائل: «إنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِه الأُمَّة عَلَى رَأْسِ كُلِّ مائَة سَنَة مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دينَهَا»[3]، وهُو مُجدِّد القرن الرّابع عشر الهجري، وظلَّ

---

(1) الثّقافة الإسلاميَّة في الهند/ 228 و 230. وقال عنه مثل ذلك مُؤلِّفون آخرون في الهند، وغيرها.

(2) انظر القاديانيَّة: سُليمان الظّاهر العاملي، ص 19 ـ 21.

(3) أخرجه أبو داوود في سُنَنه: كتاب الملاحم/ باب ما يُذكَر في قرن المائة، بسنده عن أبي هريرة. وقال المحدِّثون: إنَّ سنده ضعيف.

يُؤكِّد ذلك في تصريحاته وخُطَبه ومُؤلَّفاته فترةً، وفي هذه المرحلة نفى الميرزا أنَّه نبيٌّ، وقال: إنِّي ما ادَّعيت النُّبوَّة قطُّ، ولا قُلتُ لهم إنِّي نبيٌّ، ولكنَّهم تعجَّلوا وأخطأوا فَهْمَ قولي.. وإنِّي ما قُلتُ للنّاس سوى ما كَتَبْتُ في كُتُبي؛ أيْ أنِّي مُحَدَّثٌ[1] وأنَّ الله يُكلِّمني كما يُكلِّم المُحَدَّثين. وقال: "لا نقول بوحي النُّبوَّة، ولكنْ؛ نقول بوحي الولاية الذي يتلقَّاه الأولياء.." وبالجُملة؛ لم تكن دعواه - في البداية - دعوى النُّبوَّة، وإنَّما دعوة الولاية والتَّجديد.

ثُمَّ - بعد سنتَيْن من ذلك - أعلن الميرزا أنَّه المهدي الموعود، وأنَّه - أيضاً - المسيح المُنتظَر بنفس الوقت، استناداً إلى ما رواه الحاكم من حديث "لا مهدي إلاَّ المسيح"[2] واستمرَّ يُبرهن على ذلك، ويُؤكِّد أنَّ العلامات التي ذُكرت لظُهُور المهدي مُنطبقة على زمانه، وأنَّ له شَبَهاً كبيراً بالمسيح، وأخذ يتكلَّم في المُغيَّبات والمنامات وتفسير بعض الأخبار والآيات القُرآنيَّة بما ينطبق عليه، ويُقرِّب ذلك إلى الأذهان، وأكَّد أنَّه مُلهَمٌ ومُحَدَّثٌ من الله تعالى.

ولكنْ؛ كيف يكون هُو المسيح، وهُو معروف بأنَّه الميرزا غُلام أحمد من قاديان، معروف النَّسب ومعروف الأُسرة؟ فذَهَبَ إلى تأويل الأَمْر: على أنَّ المسيح مات، ولا يُمكن أنْ يرجع بلَحْمه وعَظْمه، بل معنى الأحاديث الدَّالَّة على أنَّه سيأتي في آخر الزَّمان، أنَّه سيأتي برُوحه وفكْره وشخصيَّته، وقال: أنا المسيح بمعنى أنِّي آت بهَدْيه وتعاليمه من بَثِّ السَّلام والرَّحمة والتَّعاطف والمحبَّة...

قُوبلت دعوى الميرزا بأنَّه المسيح المُنتظَر والمهدي في وقت واحد باستنكار شديد من الكثيرين من مُعاصريه من المشايخ، فَرَحَلَ إلى بلدة "لوديانة" في البنجاب نفسها، وأصدر منشوراً أعلن فيه أنَّه "المسيح المُنتظَر"، فَهَبَّ في وجهه العُلماء، وكان من بينهم "المولوي مُحمَّد حُسَيْن" صاحب جريدة "إشاعت سنت" فدعا عدداً من عُلماء الهند إلى "لوديانة" لمُناظرته، لكنَّ الوالي الانكليزي في تلك المنطقة مَنَعَ من عقد المُناظرة، وأرغم "المولوي مُحمَّد حُسَيْن" ومَنْ معه من العُلماء على مُغادرة البلد في اليوم نفسه. واستمرَّ القادياني على نَشْر

---

(1) أخذاً من الحديث الذي رواه البُخاري في صحيحه (كتاب المناقب / باب مناقب عُمر بن الخطَّاب) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «لَقَدْ كَانَ فيمَا قَبْلَكُمْ منَ الأُمَم مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ في أُمَّتي أَحَدٌ، فَإِنَّهُ عُمَرُ».

(2) رواه الحاكم مُتعجِّباً منه، وَضَعَّفَهُ، وَضَعَّفَهُ البيهقي أيضاً، وفي سنده أبان بن صالح، وهُو متروك الحديث.

دعوته سنين طوالاً، وأكثر من مُناقشة المُعارضين ومُحاججة المُستنكرين، وألّف في ذلك الكُتُب، ونَشْرها في البلاد الإسلاميَّة بصُورة واسعة، واقتنع بها فريق من النّاس، فاعتنقوها، وبقي على تلك الحال يُواصل الدّعوة.

بدءاً من عام 1901 م، بدأت تظهر تصريحات من الميرزا غُلام أحمد وبعض أعوانه تُفيد أنَّه نبيٌّ فعلاً، أرسله الله لتجديد الإسلام، ولكنْ؛ لا على معنى أنَّه رسولٌ مُستقلٌّ صاحبُ رسالةٍ وكتابٍ جديدَيْن ينسخان الإسلام والقرآن، بل هي نُبُوَّة ظلِّيَّة - كما أسماها - أيْ نُبُوَّة في إطار الإسلام، تابعةٌ مُجدِّدة ومُحيِيةٌ لنُبُوَّة خاتَم النَّبيِّين محمّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) ولكتاب الله الأبديِّ القُرآن الكريم[1]، وبالتّالي؛ لم تكن نُبُوَّة "الميرزا غُلام أحمد" إلغاءً لنُبُوَّة الرّسول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، بل على العكس، يقول "الميرزا غُلام أحمد": إنَّ مُحمَّداً (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) رسول الإسلام، ويقول: إنَّه رسول الله وخاتَم النَّبيِّين، كما وصفه تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ الأحزاب/ 40، ويقول ليس معنى خاتَم أنَّه آخرهم ونهايتهم، بل خاتم - هُنا - بمعنى الخَتْم؛ أيْ الطّابَع (أي **stamp**)، فكما أنَّ كُلَّ ورقة أو كُلَّ وثيقة تحتاج إلى خَتْمٍ؛ أيْ طابع لتصديقها وتوثيقها، فكذلك أيُّ نبيٍّ يأتي بعد الرّسول مُحمَّد لابُدَّ أنْ يأخذ طابَعه؛ أيْ يختم له الرّسول بخَتْمه، لكي تكون نُبُوَّتُهُ مقبولة.

وكان من أقواله أنَّه المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ الصّفّ/ 6، وأنَّه يُوحى إليه باللُّغات العَرَبيَّة والفارسيَّة والأُرديَّة والإنجليزيَّة، وأكثَر من التّأليف في كُلّ تلك اللُّغات، وأنَّ كتابه المُقدَّس هُو: "الكتاب المُبين"، وأنَّ مِمَّا أُوحي إليه: "إنَّ الله خاطبني، وقال: يا أحمدي؛ أنتَ معي، وأنا معكَ، إذا غضبتَ غضبتُ، وكُلُّ ما أحببتَ أحببتُهُ، أنا مُهينٌ مَنْ أراد إهانتَكَ، وإنِّي مُعينٌ مَنْ أراد إعانتكَ"، و"إنَّ الله خاطبني، وبشَّرني بإكرامي وقبولي في زمن اليأس، وقال: يحمدكَ الله في عرشه"، وغير ذلك[2].

---

(1) أيْ مثل نُبُوَّة كثير من أنبياء بني إسرائيل الذي جاؤوا بعد مُوسَى أو بعد داود، ولم يأتوا لا بكُتُب جديدة، ولا بشريعة جديدة، بل أتوا بإحياء التّوراة وشريعة مُوسَى وإرجاع النّاس إلى صفائها فحسب مثلاً.

(2) انظر القاديانيَّة: سُليمان الظّاهر العاملي، ص 22-23.

لَمَّا كان للقادياني قبل إعلانه لنُبُوَّته، رصيدٌ علميٌّ وشُهرةٌ كبيرةٌ وأتباعٌ عديدون؛ لم يشكَّ كثيرٌ من أولئك الأتباع في صدْقه لما عرفوه من سابقته في الدِّين، فبادر الكثير منهم إلى الاستجابة لدعوته، وشكَّلوا الأغلبيَّة العُظمى لُمعتنقي مذهبه، فقد بَلَغَ عددهم في قاديان وحدها إلى ما قبل وفاته بسنةٍ سبعين ألفاً، وكان منهم الشّقيق الأكبر للشّاعر الفيلسوف الدُّكتُور مُحمَّد إقبال، في الوقت الذي كان فيه أخو المذكور من أكبر المُحاربين للقادياني.

لقد أكَّد الميرزا غُلام أحمد أنَّه تلقَّى "الإلهام" من الله، وأنَّه تلقَّى "الوحي" من الله (تمَّ استخدام اللَّفظَيْن كلَيْهما من قبَله وقبَل أتباعه) وأنَّه يعلم المُغيَّبات، وأنَّ الله قد أكرمه بمُعجزات دالَّة على صدقه (منها أنَّ الله يستجيب لدُعائه على مُخالفيه وأعدائه، فيُهلكهم)، كما ادَّعى سنة 1904 م، أنَّه تجسُّدٌ لكريشنا نبيّ الهندُوس، وأنَّه يُمثِّل الظُّهُور المعنوي الجديد لُمحمَّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، وقد ظهرت كُلُّ تلك الإعلانات في كُتُبه العديدة التي كان ينشرها.

ومن الجهة الأُخرى ومُنذُ إعلانه بأنَّه المهدي الموعود والمسيح المُنتظر وأنَّه نبيٌّ ظلِّيٌّ يتلقَّى الوحي من الله تعالى؛ أيْ مُنذُ سنة 1891، وحتَّى وفاته سنة 1326 هـ/ 1908م، تواصلتْ، واشتدَّت مُخالفة المُسلمين لادِّعاءاته، ومُعارضتهم لنُبُوَّته، بنفس الوقت الذي كان يزداد فيه عدد أتباعه، وتتَّسع جماعته بشكل مُتواصل، تلك الجماعة التي كانت تتميَّز بالحماس الشّديد في الدّعوة إلى الإسلام والتّعريف به بأُسلُوب عصري، وفي مُناظرة المسيحيِّين والهندُوس والرَّدِّ على هجماتهم على الإسلام، بل دعوتهم إلى الدِّين الإسلامي. وقد ظلَّ الصّراع بين الأحمديِّين وبين المُسلمين قائماً في الهند وباكستان وغيرهما من البلاد التي وصلت دعوتهم إليها، وكان كبارُ العُلماء والجَمْعيَّات الدِّينيَّةُ في باكستانَ يُقاومونهم - بشدَّةٍ وباستمرارٍ - في خُطبهم في المساجد والنّوادي ومقالاتهم في الصُّحُف، ويُصدرون الفتاوى والنّشرات والكُتُب بتكفيرهم، وقد ذَكَرَ السَّيِّد عبد الحي الحَسَني مجموعةً من تلك الكُتُب بالعَرَبيَّة والفارسيَّة والأُرديَّة، وقد حملوا السُّلطات على مُحاكمتهم، وبعد مُشاحنات طويلة استمرَّت سنتَيْن؛ أصدر القاضي "مُحمَّد أكبر خان" حاكم "بهاولبور" في سنة 1354 هـ/ 1935م، حُكْماً بتكفيرهم وعدم جواز تزوُّج المُسلمات بهم.

وفاته وخلافته:

أُصيب الميرزا غُلام أحمد بالهيضة الوبائيَّة (الكُوليرا) وهُو في لاهور، ومات سنة 1326 هـ/ 1908م، ونُقل جُثمانه إلى قاديان التي تبعد عن لاهور ستين ميلاً، ودُفن في المقبرة التي سمَّاها "بهشتي مقبرة" أيْ "مقبرة الجنَّة"، وكُتبَ على قبره "ميرزا غُلام أحمد الموعود"، وأنزله أتباعه منزلة الأنبياء، واتَّخَذوا قبره بمثابة ضريح رسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، وصرَّحوا بأنَّ زيارته تعدل زيارة الرَّسول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، وقالوا: "إنَّ الله بارك ثلاثةَ أمكنة، وَجَعَلَهَا مُقدَّسةً؛ وهي مكَّة والمدينة وقاديان؛ حيثُ تلوح تجلِّياته سُبحانه". وقد أوصى أنْ يتألَّف مجلس من أتباعه لاختيار خليفة له، فانتُخب أُستاذه: المولوي[1] "حكيم نُور الدِّين"، أوَّل خليفة له.

مؤلَّفاته:

ألَّف "القادياني" - مُنذُ شبابه حين كان داعية نشطاً في مُقارعة أعداء الإسلام بالحُجَج والبراهين وحتَّى أواخر أيَّامه بعد أنْ أعلن أنَّه المَسيح المُنتظر والمهدي الموعود وأنَّه يوحى إليه - ألَّف ما يقرب من ثمانين كتاباً باللُّغات العَرَبيَّة والفارسيَّة والأُرديَّة والإنجليزيَّة، وبعضها يقع في عدَّة أجزاء، من أشهرها: (1) آئينة كمالات إسلام، بالفارسيَّة (2) إزالة أوهام (3) إعجاز المَسيح (4) إعجاز أحمدي (5) البراهين الأحمديَّة (في خمس مُجلَّدات) (6) رسالة ختم النُّبوَّة (7) سرُّ الخلافة (8) سرُّ جشمه ء آريَّة، بالأُرديَّة (9) فتح الإسلام (10) القصيدة الإعجازيَّة (11) كتاب الأربعين (12) الكتاب المُبين (13) كتاب الوصيَّة (14) الملفوظات الأحمديَّة (15) المهدي (16) مواهب الرَّحمن (17) نُزُول المَسيح (18) نُور الحقّ.. إلخ.

انقسام الجماعة:

بعد وفاة الخليفة الأوَّل "المولوي حكيم نُور الدِّين" سنة 1333 هـ/ 1914م، حصل انقسام بين الأحمديِّين حول مَنْ يخلفه، فانقسموا فريقَين: الأوَّل؛ وهُم الجماعة القاديانيَّة الأصليَّة، قالوا بخلافة "بشير أحمد" نجل مُؤسِّس الجماعة الميرزا غُلام أحمد، والذي كان يبلغ من العُمر آنذاك 25 عاماً فحسب، وأخذ لقب خليفة المَسيح الثَّاني، ولمَّا مات انتقلت إلى

---

(1) كلمة المولوي في لُغة المُسلمين الهُنود والباكستانيِّين تعني الشَّيخ؛ أيْ عالم الدِّين.

ابنه "ميرزا بشير الدِّين محمُود" بن بشير أحمد بن غُلام أحمد القادياني، وسُمِّي بخليفة المَسيح الثَّالث، وهذا الفريق يُؤيِّد نُبُوَّة الميرزا القادياني، ويُكَفِّر المُسلمين الذين لا يدينون بنُبُوَّته، وبأنَّه المَسيح المُنتظَر، في حين ذَهَبَ الفريق الآخر الذي كان يرأسه "الخواجة كمال الدِّين" ونائبه "مُحمَّد علي" إلى أنَّ الخليفة هُو الأخير؛ أيْ العالم الفاضل "المولَوي مُحمَّد علي اللاَّهوري" (ت 1951م)، الذي فَسَّرَ القُرآن باللُّغة الإنجليزيَّة، والذي قاد جناح المُعارضة، وقد بايعته أقلِّيَّة من الأتباع، وانتقل إلى لاهور، وأسَّس هُناك الشُّعبة اللاَّهوريَّة التي عُرِفَت بـ "الأحمديَّة اللاَّهوريَّة"، وقد اقتصرت عقيدة هذا الفريق على أنَّ القادياني مُجدِّدٌ مُصلحٌ لا مهديٌّ ولا نبيٌّ، ولا يُكفِّرون بقيَّة المُسلمين الذين لا يرون رأيهم في الميرزا القادياني.[1]

انتقال مركز الجماعة من قاديان في الهند إلى ربوة في باكستان:

بعد انقسام الهند ونُشُوء باكستان، تَرَكَ زعماء القاديانيَّة الهند إلى باكستان؛ لأنَّ قاديان مسقط رأس الميرزا ومركز الدَّعوة وَقَعَتْ في حُدُود الهند، لذلك؛ أمر "بشير الدِّين محمُود" أتباعه بتَرْكها والذَّهاب إلى باكستان، بينما بقي جماعة منهم في مركزهم قاديان في الهند، واستطاع المُهاجرون - بمُساعدة نُفُوذهم لدى الإنجليز - الحُصُول من الحُكُومة على مساحة شاسعة من الأرض في إقليم "جهنك"، بنوا عليها مدينة خاصَّة بهم، سمّوها "رَبْوَة" تَمَثُّلاً بالكلمة التي وَرَدَ ذكرُها في القُرآن عن المَسيح: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ المُؤمنون / 50، وعلى الآية: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ البقرة / 265. وصارت مدينةُ "ربوة" عشَّ الأحمديِّين في باكستان، وبمثابة الفاتيكان للمَسيحيِّين، فهي دُويلة داخل دولة، فيها كُلُّ ما للحُكُومة من دوائر ومكاتب وشُعب مُستقلَّة، لكُلٍّ من الشُّؤُون الخارجيَّة والدَّاخليَّة والإعلام والشُّؤُون العامَّة، وحَرَس وطني باسم "هيئة خُدَّام الأحمديَّة"، وتنظيم عسكري على شاكلة الميليشيا يتألَّف من فرقتَيْن مُنتظمَتَيْن، تُدعى الأُولى "الهادفة"، والثَّانية "الفرقان"، وكُلُّها تُمارس نشاطها في داخل نطاقها المحدود، ولشُعبة الأُمُور العامَّة دائرة مُخابرات مهمَّتها جَمْع المعلومات عن نشاط الحُكُومة والمُنظَّمات السِّياسيَّة المُناهضة للقاديانيَّة.[2]

---

(1) مُلخَّص من عدَّة كُتُب منها: "القاديانيَّة" لسُليمان الظَّاهر العاملي: ص 22 - 26، ومنها المعلومات المنشورة في موقع الجماعة على الإنترنت www.alisalm.org، ومنها كتاب: الإسلام بلا مذاهب للدُّكتُور مُصطفى الشَّكعة.

(2) انظر "القاديانيَّة" لسُليمان الظَّاهر العاملي: ص 28 - 29، والمصادر السَّابقة.

النّشاط السّياسي للجماعة في الهند، ثُمّ باكستان:

ينهج الأحمديُّون منهج مَدّ الجُسُور والرّوابط والتّعامل بالانفتاح والحُسَنى مع مَنْ حولهم، لا سيما أصحاب الحُكْم والقرار، لكَسْب وُدِّهم واستمالتهم لطَرَفهم، وكانوا يسعون بأنْ تُصبح البلاد الهنديَّة على سعتها قاعدة لهم، وانطلاقاً من مبدأ الاعتراف بما عند الآخرين من حقٍّ وخير كانوا يمدحون بعض شخصيَّات الهندُوس الرُّوحيَّة، وأقاموا علاقات مع زُعماء السِّياسة، وخطبوا وُدَّ "نهرو" حتَّى أعجب بهم، وأشيع في الأوساط الإسلاميَّة أنَّه اعتبرهم أحسن طوائف المُسلمين؛ لأنَّ نبيَّهم ينحدر من الجنس الهندي، ولهم مركز مُقدَّس "قاديان" في الهند.

وانطلاقاً من هذه السِّياسة؛ حبَّذوا فكرة وَحْدَة الهند، وعارضوا - في البداية - قيام دولة باكستان، شأنهم شأن كثير من عُلماء المُسلمين البارزين في ذلك الوقت، بل حتَّى أمير الجماعة الإسلاميَّة أبو الأعلى المودودي كان له نفس الموقف في البداية؛ لأنَّهم كانوا يرون أنَّ التّقسيم سيُؤدِّي إلى إضعاف المُسلمين في الهند، ولكنْ؛ لمَّا قامت باكستان، قرَّروا الهجرة إليها، ونَقْل مركز دعوتهم من قاديان في الهند إلى باكستان؛ حيثُ أنشأوا فيها مدينة "ربوة" كما مَرَّ، واستفادوا من صداقتهم مع الإنجليز في ترسيخ أقدامهم في مُختلف دوائر الدّولة الفتيَّة التي نشأت في باكستان عقب التّقسيم، ونالوا مناصب كبيرة فيها. وكان السِّير "ظفر الله خان" أوَّل وزير خارجيَّة لباكستان العَقْل المُخطِّط للقاديانيِّين، وقد اغتنم فُرصة وفاة مُؤسِّس باكستان القائد مُحمَّد عليّ جناح، فَشَحَنَ وزارة الخارجيَّة والسِّفارات والمُفوَّضيَّات خارج باكستان بالكوادر القاديانيَّة، ونَشَرَهُم في القُنصليَّات على مُستوى العالم. ولم يقتصر الأَمْر على وزارة الخارجيَّة والسِّلك الدِّبلُوماسي فقط، بل خطوا خطوات أكبر حين تسرَّبوا إلى الجيش والشُّرطة ومصلحة الطَّيران، وتغلغلوا في مُؤسَّسات الحُكْم الباكستانيَّة وسائر المرافق الحيويَّة الأُخرى. وفي سنة 1371 هـ/ 1951م، اشتركوا في الانقلاب الفاشل، الذي ربَّما لو نجح لصار طابَع كُلّ الدّولة الباكستانيَّة طابَعاً قاديانياً.

انتقال مركز قيادة الجماعة وزعيمها إلى بريطانيا والنّشاطات الدّعويَّة للجماعة:

بعد المُضايقات والاضطهادات المُختلفة التي تعرَّض لها القاديانيُّون في باكستان؛ حيثُ صَدَرَتْ في حقِّهم، سنَتَيْ 1974 ثُمَّ 1984، قوانين تحكم عليهم بالكُفْر والخُرُوج عن الإسلام

لإنكارهم خَتْمَ نُبُوَّة سيِّدنا مُحمَّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وتُحظِّر عليهم تسمية أنفسهم بالمُسلمين، وتسمية مساجدهم بالمساجد (فاضطرُّوا لتسميتها بالمكتبة الأحمديَّة!)، وتمنعهم من الأذان منها، وغير ذلك من صنُّوف التّضييقات، قرَّر زعيم الجماعة حينذاك "الميرزا طاهر أحمد" والمُسَمَّى خليفة المَسيح الرّابع، (ولم يزل زعيمها إلى عام 2003 م؛ حيثُ أدركته الوفاة من عهد قريب) نَقْلَ مركز الجماعة من باكستان إلى بريطانيا، وتمَّ ذلك عام 1985؛ حيثُ أسَّسوا لهم مقراً رئيسيّاً كبيراً في جنوبي العاصمة البريطانيَّة "لندن" جَعَلوه مركزاً لبثّ دعوتهم، يجتمع فيه كُلَّ عامٍ عشرات الأُلوف من أتباع الجماعة من مُختلف أنحاء العالم فيما يُشبه كرنفالاً ضخماً أو موسم حجٍّ جامع. ويُردِّد القاديانيُّون أثناء الاجتماع الذي يستغرق بضعة أيَّام ابتهالات وتضرُّعات بشكل مُتواصل، ويستمعون إلى المواعظ والإرشادات من عُلماء الجماعة ودُعاتها، ويشكِّل اللِّقاء فُرصة للالتقاء وتقويم مسيرة الدّعوة على امتداد عام من الزّمان، ويشهد اليوم الأخير تجمُّع الحاضرين في باحة واحدة؛ حيثُ يُقْدمون على تجديد البَيْعَة على الطّاعة المُطلقة لخليفة الجماعة.

هذا؛ وقد تمَّ مؤخراً، في الثّاني والعشرين من نيسان (أبريل) من عام 2003، انتخاب "الميرزا مسرور أحمد" خليفة المَسيح الخامس.

ولنَشْر دعوتها في مُختلف أنحاء العالم أنشأت الجماعة القاديانيَّة أو الأحمديَّة أوَّل قناة تليفزيونيَّة إسلاميَّة اسمها: **MTA International** (اختصار لكلمات **Muslim TV Ahmadiyya**) ـ مركزها بريطانيا ـ تبثُّ برامج ذات طابع إسلامي على مدار السّاعة. ويقول مُنير صلاح الدِّين (مدير الإنتاج التّلفزيوني في القناة الفضائيَّة الإسلاميَّة للجماعة الأحمديَّة): «الفضائيَّة الإسلاميَّة الأحمديَّة هي قناة مُميَّزة عن باقي الفضائيَّات المرئيَّة في هذه الأيَّام، فهي قناة إسلاميَّة بحتة، والأُولى في هذا النّطاق، وتبثُّ البرامج الكثيرة كما قُلتُ التي تُعلِّم التّعاليم الإسلاميَّة الصّحيحة، والتي تُبثُّ في أكثر من خمسة عشرة لُغة مُختلفة في أنحاء العام، وتُغطِّي جميع أقطار هذه المعمورة... إنَّها أوَّل القنوات التي قامت على الأُسُس الإسلاميَّة، والاسم المُميَّز بالتّلفزيون الإسلامي، والوحيد من نوعه في هذا المضمار.»[1].

---

(1) مُلخَّص من تقرير ميداني عن الأحمديَّة، نَشَرَهُ موقع قناة الجزيرة القَطَريَّة على الإنترنت بتاريخ 21/ 9/ 2002، ضمن سلسلة حلقات برنامج مُراسلو الجزيرة، تضمَّن عرضاً لنشاطاتهم في بريطانيا، ولقاءً ومُقابلاتٍ مع مسؤولين منهم في لندن.

وقد استطاعت هذه المحطَّة - بعد سنوات من فَتْحها - أنْ تُوسِّع قاعدة البرامج التي تُنتجها، وأنشأت عدَّة مراكز رئيسيَّة في مُختلف أنحاء العالم، كما أنَّها تبثُّ برامج بأكثر من عشر لُغات عالميَّة، من بينها اللُّغة العَرَبيَّة، غير أنَّ البعض يُشير إلى أنَّ حُصُول القاديانيِّين على رُخصة بثٍّ لمُحتويات دينيَّة صرفة فيما رفضت السُّلطات البريطانيَّة طلبات مُماثلة يُعزِّز من الشُّكُوك حول أهداف الجماعة.

لكنْ؛ ومع كُلِّ تلك الإمكانات المادِّيَّة الضَّخمة التي سخَّرتها القاديانيَّة، إلاَّ أنَّ انتشارها يبقى محدوداً في العالمَيْن العَرَبي والإسلامي، لذا؛ اتَّجهت الجماعة خلال العُقُود الثَّلاثة الأخيرة إلى تركيز دعوتها على المُسلمين في الغرب، من خلال ما تبثُّه قناتها من برامج، ومن خلال المراكز والمساجد التي تُموِّلها في مُختلف العواصم الغربيَّة.

إلاَّ أنَّ القاديانيِّين يبقون مُتفائلين بمُستقبل جماعتهم، رغم كُلِّ ما يُثار حولها من شُبُهات، ورغم كُلِّ التُّهم المُوجَّهة إليها بمُوالاة الإنجليز قديماً والغرب حديثاً.

قد تكون الحركة الأحمديَّة أو القاديانيَّة قليلة الأتباع ومحدودة الانتشار في العالمَيْن العَرَبي والإسلامي، إلاَّ أنَّ البعض يُشير إلى أنَّ وفرة مواردها الماليَّة، وامتداد نُفُوذها إلى أكبر دوائر صُنع القرار في الدُّول الغربيَّة يجعل منها حركة خطيرة، خاصَّة إذا توافرت الشُّرُوط المُناسبة لانتشارها.

عقيدة الجماعة الأحمديَّة:

جاء في كتاب "جاء المسيح!" الذي نَشَرَتْهُ الجماعة الأحمديَّة في موقعها www.alislam.org، ضمن عدَّة كُتُب ومقالات تُعرِّف بالجماعة وعقيدتها ومنهجها، وتردُّ فيه على خُصُومها وأعدائها، ما نصُّه:

[وقال المسيح الموعود والمهدي المُنتظر (أيْ الميرزا غُلام أحمد القادياني): . . وأمَّا عقائدنا التي ثبَّتنا اللهُ عليها؛ فاعلم - يا أخي - أنَّا آمنَّا بالله ربّاً وبمُحمَّد ﷺ نبيّاً، وآمنَّا بأنَّه خاتَم النَّبيِّين، وآمنَّا بالفُرقان؛ أنَّه من الله الرَّحمن، ولا نقبل كُلَّ ما يُعارض الفرقانَ ويُخالف بيِّناته ومُحكماته وقَصَصه، ولو كان أمراً عَقْليّاً، أو كان من الآثار التي سمَّاها أهل الحديث حديثاً،

أو كان من أقوال الصّحابة والتّابعين؛ لأنَّ القُرآن الكريـم كتـابٌ قـد ثبت تواتـره لفظاً لفظاً، وهُو وحيٌ مَتْلُوٌ قطعيٌ يقينيٌ، ومَنْ شكَّ في قطعيَّته فـهُو كـافرٌ مـردود عندنـا ومـن الفاسـقين. والقُرآن مخصوصٌ بالقطعيَّة التَّامَّة، وله مرتبةٌ فوق مرتبـة كُلِّ كتابٍ وكُلِّ وحيٍ. ما مسَّـه أيدي النّاس. وأمَّا غيره من الكُتُب والآثار؛ فلا يبلغ هذا المقام" (تُحفة بغداد، ص 31).

وقال أيضاً: إنَّا مُسلمون، نُؤمن بكتاب الله الفُرقان، ونُؤمن بأنَّ سيِّدنا مُحمَّداً نبيُّه ورسوله، وأنَّه جاء بخير الأديان، ونُؤمن بأنَّه خاتَم النّبيِّين، لا نبيَّ بعده... ولا يدخُلُ الحضرةَ أبداً إلاَّ الذي معه نقشُ خاتَمه، وآثار سُنَّته، ولن يُقبَلَ عملٌ ولا عبادةٌ إلاَّ بعد الإقرار برسالته، والثّبات على دينه وملَّته. وقد هَلَكَ مَنْ تَرَكَهُ، وما تبعه في جميع سُننه، على قدر وسعه وطاقته... لا نبيَّ لنا تحت السّماء من دُون نبينا المُجتبى، ولا كتابَ لنا من دُون القُرآن، وكُلُّ مَنْ خالفه فقد جرَّ نفسه إلى اللَّظى. ومَنْ أنكر أحاديث نبيِّنا التي قد نُقِدَت ولا تُعارضُ القُرآن، فهُو أخو إبليس، وإنَّه ابتاع لنفسه اللَّعْنَةَ، وأضاع الإيمان... ونعتقد بأنَّ الصّلاة والصّوم والزّكاة والحجَّ من فرائض الله الجليل، فَمَنْ تَرَكَهَا مُتعمِّداً غير مُعتذرٍ عند الله فقد ضلَّ سواء السّبيل" (مواهب الرّحمن ص285 ـ 289)

وأضاف قائلاً: "و نعتقد أنَّ الجنَّة حقٌّ، والنّار حقٌّ، وحشر الأجساد حقٌّ، ومُعجزات الأنبياء حقٌّ. ونعتقد أنَّ النّجاة في الإسلام واتّباع نبيِّنا سيِّد الورى، وكُلُّ ما هُو خلافُ الإسلام فنحنُ بَريئُون منها، ونُؤمن بكُلِّ ما جاء به رسولنا مُحمَّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وإنْ لم نعلَمْ حقيقته العُليا". مرآة كمالات الإسلام، ص: 387 ـ 388.][1]

والواقع؛ أنَّه بعد اتِّفاق أتباع الميرزا القادياني على أنَّه المسيح المُنتظَر والمهدي الموعود المُحدَّث والمُلْهَم من الله، بقيت قضيَّة نُبُوَّته، قضيَّةً مُختلفاً فيها بين أتباعه، وقد انقسموا في ذلك كما أسلفنا إلى طائفتَيْن: الأُولى، وهُم الطّائفة الأصليَّة التي عُرفت بالقاديانيَّة (لكنَّها ترفض هذه التّسمية وتُسمِّي نفسها بـ"الجماعة الأحمديَّة") ومركزها "الرّبوة"، تقول بنُبُوَّته فعلاً، وأنَّه نبيٌّ في إطار الإسلام، وأنَّ نُبُوَّته تابعةٌ لنُبُوَّة خاتَم النّبيِّين مُحمَّد، ومُجدِّدةٌ

---

(1) كتاب "جاء المسيح، جاء المسيح" ص 3، المنشور في موقع الجماعة الأحمديَّة على شبكة الإنترنت.

ومُحيية للإسلام، ولكتاب الله الأبدي القُرآن الكريم[1]. أمَّا الطّائفة الثّانية؛ فهُم اللاّهوريُّون، الذين كانوا قد قالوا بخلافة "المولوي مُحمَّد علي" وانفصلوا عن الجماعة، كما سبق ذكْره، ورأوا في الميرزا غُلام أحمد مُجدِّداً مُلْهَماً ومُؤيَّداً من الله ـ تعالى ـ فحسب، ولا يُطلقون عليه لقب النُّبوَّة. وينشط هؤلاء اللاّهوريُّون جداً، في الدّعوة إلى الإسلام السّمح المُحرَّر من الخُرافات والأغاليط ـ حسب فَهْمهم ـ والمُنفتح على العصر، والمُبتعد عن التّعصُّب: أيْ اللّيبرالي ـ كما يحلو لبعض الغربيِّين تسميته ـ، ويحرصون على إدخال النّاس في الإسلام أكثر من حرصهم على إدخال النّاس في طائفتهم بالضّرورة، ولهم في ذلك مجلات وكُتُب ونشرات كثيرة بالإنجليزيَّة والأُرديَّة، وأحياناً؛ بلُغات عالميَّة أُخرى كالفارسيَّة والعَرَبيَّة والإندونيسيَّة وغيرها من اللُّغات الشّرقيَّة والإفريقيَّة، تعرض الإسلام وتعاليمه بشكل جميل وجذَّاب مُقنع، ومنطقي علمي ينطبق مع الفطرة السّليمة والكرامة الإنسانيَّة وحُقُوق الإنسان، وقد قاموا بطَبْع ترجمات قيِّمة للقُرآن الكريم، ولسيرة النّبي مُحمَّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، وصارت لهم مراكز عديدة للدّعوة بدءاً من أُستراليا وإندونيسيا وما جاورهما شرقاً، إلى ألمانيا وبريطانيا غرباً، ولهم في نيجيريا غرب أفريقيا، وفي جنوب أفريقيا ـ أيضاً ـ نشاط قوي.

هذا؛ وينفي القاديانيُّون صُعُود المسيح ـ عليه السّلام ـ حيّاً إلى السّماء، بل يعتقدون بأنَّه نجا من مُؤامرة صَلْبه، ولم يمت، بل خرج بعدها من فلسطين، وهاجر شرقاً، حتَّى وصل إلى كشمير، وقام بالتّبشير هُناك بالإنجيل، وأمضى هُناك بقيَّة حياته إلى أنْ أدركته الوفاة بعد أنْ ناهز عُمره المائة والعشرين عاماً، ودُفن في كشمير، وقبره معروف. ولا يخفى أنَّ هدفهم من التّأكيد على موت المسيح وعدم بقائه حيّاً في السّماء إلى وقتنا هذا، كما يعتقد سائر المُسلمين، هُو أنْ يُؤسِّسوا لرَفْض فكْرة نُزُوله حيّاً بجسمه وذاته إلى الأرض في آخر الزّمن، إذْ كيف ينزل حيّاً وقد مات من قبلُ؟، ثُمَّ يقولون: إنَّ المقصود من نُزُوله في آخر الزّمن هُو أمر معنوي يقصد به نُزُول جوهر رسالة المسيح ورُوحه القائمة على الخير والرّأفة والرّحمة، وقد حصل هذا بظُهُور دعوة الميرزا غُلام أحمد.

---

(1) أيْ مثل نُبوَّة كثير من أنبياء بني إسرائيل الذين جاؤوا بعد مُوسَى أو بعد داوود ولم يأتوا لا بكُتُب جديدة، ولا بشريعة جديدة، بل أرسلهم الله ـ تعالى ـ لإحياء التّوراة وشريعة مُوسَى وإرجاع النّاس إلى صفائها فحسب.

أهمُّ الموضوعات التي أُخِذَت على الجماعة الأحمديَّة، وَدَعَتْ إلى تكفيرها وإجاباتهم عنها:

رغم إعلان الجماعة الأحمديَّة بكُلِّ وُضُوح - كما سبق - وتأكيدها إيمانها الأساسي - ككُلِّ المُسلمين - بأنْ لا إله إلاَّ الله وأنَّ مُحمَّداً رسول الله، مع كُلِّ ما يستتبعه هذا الإيمان، ويلزم عنه، ورغم أنَّ أتباعها يُؤدُّون كُلَّ أركان الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحجٍّ، ويلتزمون بالقُرآن الكريم كتاباً وبسُنَّة النَّبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) منهجاً، بل يقولون: إنَّ دعوتهم ليست إلاَّ تجديداً لدين الإسلام، وإحياءً لتعاليم القُرآن، ودعوةً إلى الإصلاح والتَّقوى والصِّدْق وتصحيح أخطاء المُسلمين العقائديَّة والعَمَليَّة، وأنَّ الله أرسل المَسيح المُنتظَر الميرزا المهدي كما أعلن هُو عن نفسه [... ليُجدِّد الدِّين، ويُنوِّر وجه المِلَّة، ويكسر الصَّليب، ويُطفئ نار النَّصرانيَّة، ويُقيم سُنَّة خير البريَّة، ويُصلح ما فسد، ويُروِّج ما كسد...] (كتاب الاستفتاء، ص 641).

ورغم أنَّ لمُؤسِّس الجماعة وأتباعه كُتُباً مُمتازة في كَشْف محاسن الإسلام، وزيف العقائد الباطلة للمَسيحيَّة والهندُوسيَّة، وغيرهما من الأديان، ممَّا عدَّه بعض فُضلاء عصره كأبي الكلام آزاد جهداً مشكوراً منه في صَدِّ الهُجُوم التَّنصيري الذي كان قد تعاظم في الهند في حينها، مُستغلاً ضعف المُسلمين..

إلاَّ أنَّ كُلَّ هذا لم يعف الجماعة ومُؤسِّسها من صُدُور أحكام التَّكفير والإخراج من الإسلام في حقِّهم، سواء من قِبَل عُلماء الإسلام في باكستان والهند؛ حيثُ نشأت الجماعة، أو مَنْ تبعهم في ذلك من عُلماء الأزهر والحجاز والشَّام وغيرها من بُلدان المُسلمين، وكان أهمَّ سبب للتَّكفير هُو:

(1) القول بنُبُوَّة غُلام أحمد الذي يُفيد إنكار خَتْم نُبُوَّة سيِّدنا مُحمَّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، المُجمَع عليها بين المُسلمين بجميع طوائفهم ومذاهبهم. وقد تقدَّم أعلاه بيان كيف يُجيبون عن هذا الموضوع، وأنَّهم لا يُنكرون أنَّ مُحمَّداً (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) خاتَم النَّبيِّين، لكنَّهم يفهمون خَتْمَ نُبُوَّته فَهْماً مُختلفاً عمَّا يفهمه سائر المُسلمين.

أمَّا الأسباب الأُخرى لتكفيرهم؛ فيُمكن تلخيصها مع إجابتهم عنها بما يلي :

(2) اتِّهامهم بإسقاط فريضة الجهاد في سبيل الله، وإلغائها من الإسلام، وبأنَّ مُؤسِّس فرقتهم كان ينهى المُسلمين عن مُحاربة الإنجليز المُستعمرين لبلاده، ويأمرهم بطاعتهم.

ويُجيب الأحمديُّون عن ذلك بأنَّهم لم يُنكروا الجهاد في سبيل الله، ولا ألغوا حُكْمه؛ لأنَّ الجهاد الذي أمر الله ـ تعالى ـ به ـ في قُرآنه الكريم ـ أنواع، أعلاها: جهاد النَّفْس على طاعة الله، وتَرْك نواهيه، ومُخالفة الهوى، وثانيها: الجهاد بالقَلَم وباللِّسان في دعوة البشر وأتباع الأديان الأُخرى إلى الإسلام، وثالثها: الجهاد بالسَّيف ضدَّ الذين كانوا يُحاربون المُسلمين بغير مُبرِّر إلاَّ أنْ يقولوا ربّنا الله، وكانوا يسفكون دماء المُسلمين بغير حقٍّ، وليس إلاَّ لأجل اتِّباعهم الدِّين الجديد، ويطردونهم من ديارهم، ويفتنونهم عن دينهم، ويمنعونهم من نَشْر الإسلام، ويسعون لإطفاء نُوره بأفواههم وسُيُوفهم، فَرَدّاً لسُيُوف هؤلاء كان الجهاد الحربي مشروعاً في الإسلام، أمَّا اليوم وفي هذا العصر الحديث؛ فيرى الأحمديُّون ـ تبعاً لنبيِّهم ـ أنَّه لا يُوجد أحدٌ يمنع المُسلمين بالسَّيف من اعتناق دينهم، ومُمارسة شعائرهم، أو يمنعهم بالقُوَّة من تبليغ رسالتهم، ونَشْر إسلامهم، بل أصبح العالم كُلُّه مفتوحاً أمام الدَّعوة، خاصَّة بعد تطوُّر وسائل الاتِّصالات، لذا؛ فالسَّبب المُبيح للجهاد بالسَّيف في سبيل الله قد أصبح مُنتفياً، ولم يبقَ إلاَّ الجهاد بالمعنَيَيْن الأوَّلَيَّيْن، والذي هُو من أهمِّ الواجبات في هذا العصر، ويفتخر الأحمديُّون أنَّهم من أكثر النَّاس عَمَلاً بهذا الجهاد، خاصَّة جهاد القَلَم واللِّسان في دعوة جميع الأقوام وجميع المِلَل والنِّحَل إلى دين الإسلام.

وأمَّا عن سبب نَهْي الميرزا غُلام أحمد عن مُحاربة الإنجليز المُستعمرين لوطنه؛ فيشرح "عبد المُؤمن طاهر" أحد قادة الأحمديِّين في بريطانيا سبب ذلك فيقول ما خُلاصته: «إنَّ مُحاربة الإنجليز في الهند كانت خطأً لسبَبَيْن، (ونفس السَّبب يذكره مُؤسِّس الجماعة أيضاً) **الأوَّل**: لأنَّ الإنجليز أنقذوا مُسلمي البنجاب من تنُّور العذاب والنَّار الذي كانوا يُعانونه على أيدي السِّيخ؟ كان السِّيخ لا يسمحون للمُسلمين بالأذان، ولا يسمحون لهم بقراءة القُرآن، ولا يسمحون لهم بالصَّلاة، ولا يسمحون بذَبْح البقر، كانوا قد حوَّلوا المساجد لحظائر للخيل، وغيرها من الحيوانات، فجاء الإنجليز، وأخرجوا المُسلمين من هذا العذاب على يد

السّيخ أوّلاً، فعليهم أنْ يشكروهم، لا أنْ يقوموا بقتالهم، ثانياً: أعطى الإنجليزُ المُسلمين الحُرِّيَّةَ الدِّينيَّةَ الكاملةَ تماماً كما أعطوا لقسسهم الحُرِّيَّة الكاملة الدِّينيَّة، فلماذا نُحاربهم؟ الحرب باسم الدِّين تكون ضدَّ مَنْ يمنعنا من أنْ نقول ربّنا الله، وضدَّ مَنْ يمنعنا من أنْ نقوم بشعائرنا الدِّينيَّة، فمتى فعل الإنجليز ذلك؟!».

ويذكر "الميرزا طاهر أحمد" الخليفة الرّابع للقاديانيّين في كتابه "موقف الأحمديَّة من الجهاد" أنَّ الجهاد الذي مَنَعَهُ الميرزا غُلام أحمد هُو ذلك التَّصوُّر الخاطئ الذي استقرَّ لدى الكثيرين من المُسلمين جهلاً بحقيقة دينهم من أنَّ دماء جميع أهالي المِلَل والنِّحَل غير الإسلاميَّة مُباحة وصيد حلال لهم، ولو كانوا مُسالمين، وقال: إنَّ هذا أكبر تشويه لصُورة الإسلام، هذا من ناحية، ومن النّاحية الأُخرى؛ يذكر "الميرزا طاهر أحمد" في كتابه المذكور أيضاً، وفي كتابه الآخر: "هل القاديانيَّة صنيعة الإنجليز؟"، أنَّ مؤسِّس الجماعة القاديانيَّة "الميرزا غُلام أحمد" لم يكن وحده الذي مَنَعَ قتال الإنجليز في الهند، وحضَّ المُسلمين على التّعاون معهم، بل إنَّ عدداً من كبار عُلماء المُسلمين في شبه القارَّة الهنديَّة أفتوا بمثل ذلك، واعتبروا الإنجليز في الهند مثلهم مثل غيرهم من الحكَّام، من وُلاة الأمْر الذين أوجب الله طاعتهم، مثل الشّيخ "مُحمَّد حُسَين البطالوي"، و"السّير سيِّد أحمد خان"، و"السَّيِّد أحمد رضا خان البريلوي"، و"شمس العُلماء نذير أحمد الدّهلوي"، و"المولوي ظفر عليّ خان"، بل نَقَلَ عن عددٍ من عُلماء الحَرَمَيْن في ذلك الوقت من الشّوافع والأحناف - أيضاً - فتواهم بأنَّ الهند ليست دار حرب، بل دار إسلام، وعلى المُسلمين طاعة الحُكُومة، والعمل بقوانينها.

أقول: الواقع أنَّ مثل هذه الدّعوات بسُقُوط الجهاد في سبيل الله بالسّيف، غير مُقتصرة على القاديانيَّة، بل نادت به جماعات أُخرى؛ خاصَّة في الهند، مثل جماعة الدّعوة والتّبليغ، والسّير سيِّد أحمد خان، وهُو نَفْس ما تُؤدِّي إليه فتوى عدد من عُلماء السُّنَّة التّقليديّين كالذين يرون بأنَّ الجهاد القتالي يحتاج لإمام جامع (أيْ خليفة) أوحد للمُسلمين يُعلن الجهاد، بعد أنْ تتميَّز الصُّفُوف في العالم إلى مُسلم وكافر.. إلخ، أو كما يُفتي به عدد من عُلماء الشّيعة الإماميَّة التّقليديّين بأنَّ الجهاد القتالي موقوف على وُجُود الإمام المعصوم الذي هُو الآن غائب، إلى درجة أنَّه عندما غزا الرُّوس شمال إيران في القرن الماضي، واحتلّوا

مناطق منها، وقام بعض الشُّيوخ المُناضلين بإعلان الجهاد في سبيل الله ضدَّهم، تصدَّى له أحد المراجع الكبار، وأفتى بفسق هذا الشَّيخ، وبحُرمة الجهاد القتالي في عهد الغيبة!!

وأرى - هُنا - ضرورة التَّنبُّه للسِّرِّ الذي جَعَلَ ويجعل العديد من عُلماء المُسلمين في الهند، لا سيما أُناساً مُخلصين كجماعة الدَّعوة والتَّبليغ، وشخصيَّات مُخلصة؛ مثل وحيد الدِّين خان، وغيرهم، ينحون هذا المنحى، وهُو يكمن في الوَضْع الخاصِّ للمُسلمين في الهند كأقلِّيَّة مُهدَّدة بالخطر؛ حيثُ إنَّ المُسلمين هُناك - على كثرة عددهم - يبقون أقلِّيَّة لا تتجاوز نسبتهم على أكثر تقدير 20٪ من مجموع سُكَّان الهند، وبالتَّالي؛ فهُم لا يستطيعون أنْ يطمحوا إلى السِّيادة على الهند، ولا أنْ يُطالبوا - بقُوَّة - بتطبيق شرْعَة الإسلام في حُكْمها، مثلهم مثل المُسلمين في فرنسا أو ألمانيا أو أمريكا أو جنوب أفريقيا الذين يُشكِّلون أقلِّيَّات ليس أمامها - إذا أرادت أنْ تُحافظ على وُجُودها - إلاَّ إخلاص الطَّاعة لحُكُومات تلك الدُّول والعمل بقوانينها، والأقلِّيَّات - عادةً وفي كُلِّ بلد - لا مصلحة لها في خوض حُرُوب استقلال لن تعود عليها بالحُكْم؛ لأنَّها أقلِّيَّة، بل يتركَّز همُّها في الحفاظ على وُجُودها وكيانها الطَّائفي.

ولا شكَّ أنَّ هذا الوَضْع الخاصَّ لُمسلمي الهند، ومثلهم مُسلمو الصِّين وتايلاند وغيرهم، يختلف تماماً عن وَضْع المُسلمين في البلدان العَرَبيَّة مثلاً، أو البُلدان التي يُشكِّل المُسلمون فيها الأكثريَّة السَّاحقة كأندونيسيا وباكستان وإيران وتُركيا... إلخ، هذا من ناحية، ومن النَّاحية الأُخرى؛ فالحقيقة أنَّ الجهاد القتالي في الإسلام له عدَّة أسباب، كما يُستفاد من آيات القُرآن الكريم، **أحدها**: القتال لصَدِّ المُعتدين الذين يصدُّون المُسلمين عن اتِّباع الإسلام، ويفتنونهم بالعُنْف والقُوَّة عن اتِّباع دينهم، **وثانيها**: القتال ضدَّ مَنْ يصدُّ المُسلمين عن نَشْر دينهم، ويمنعهم - بقُوَّة السَّيف - من تبليغ رسالتهم، وهذان المُبرِّران للقتال في سبيل الله انتفيا فعلاً في هذا العصر. لكنْ؛ هُناك مُبرِّر وسبب ثالث مُهمٌّ للجهاد القتالي في الإسلام - أيضاً - لا يزال قائماً في هذا العصر، وهُو الجهاد ضدَّ مَنْ يعتدي على أوطان المُسلمين، ويحتلُّ أراضيهم بالقُوَّة، ويُشرِّدهم من ديارهم وأموالهم، وينتهك حُرُماتهم ومُقدَّساتهم، كما يفعل الصَّهاينة في فلسطين مثلاً، لذا؛ فتعميم القول بسُقُوط الجهاد بالسَّيف إلى يوم القيامة غير صحيح مُطلقاً.

(3) تكفيرهم للمُسلمين الذي لم يدخلوا في نحلتهم: ينقل مُخالفو الجماعة الأحمديَّة عن قادتها أنَّهم يُكَفِّرون سائر المُسلمين الذين لم يعتقدوا نُبُوَّة "الميرزا غُلام أحمد" ولم يُبايعوه، ويذكرون أنَّه هُناك نُصُوصاً عن مُؤسِّس الجماعة تدلُّ على هذا الأمْر، والنَّتيجة الطَّبيعيَّة لهذا التَّكفير أنْ لا يُسْمَح للأحمديِّين أنْ يصلُّوا خلف غير الأحمديِّين من المُسلمين، وقد نُقل عن "الميرزا غُلام أحمد" قوله: [إنَّ المُكفِّرين ومَنْ يختار طريق التَّكذيب قوم هالكون، فلا يستحقُّون أنْ يُصلِّي خلفهم أحد من جماعتي، وهل يُصلِّي الحيُّ وراء الميِّت؟ فاعلموا أنَّه حرام عليكم قطعياً ـ كما أخبرني الله ـ أنْ تصلُّوا خلف كُلِّ مُكفِّر أو مُكذِّب أو مُتردِّد، وليَكُنْ إمامكم منكم، وإلى هذا جاءت الإشارة في حديث البُخاري "إمامكم منكم"؛ أيْ عندما ينزل المَسيح فعليكم أنْ تُفارقوا جميع الفِرَق التي تدَّعي الإسلام]، كما لا يسمحون للفتاة الأحمديَّة بالزَّواج من غير أحمدي، وينهون عن ذلك بشدَّة، كما لا يُسْمَح للأحمديِّين أنْ يُصلُّوا صلاة الجنازة على موتى غير الأحمديِّين..

أمَّا الأحمديُّون اللَّاهوريُّون؛ فيقولون: إنَّهم لا يُكَفِّرون غير الأحمديِّين، بل يعتبرونهم فاسقين، وقد ألَّف زعيمهم "المولوي مُحمَّد علي" كتاباً في هذه المسألة، وسمَّاه "ردُّ تكفير أهل القبلة"، وقسَّم فيه مَنْ لا يعتبر الميرزا غُلام أحمد المَسيح الموعود إلى قسمَيْن:

الأوَّل: الذين لا يُبايعون ميرزا غُلام أحمد، ولا يُكَفِّرونه، ولا يُكذِّبونه، فهؤلاء هُم الفاسقون عنده، وليسوا بكافرين.

الثَّاني: الذين يُكَفِّرون الميرزا، ويُكذِّبونه، فهُم كُفَّار في رأيه، وفيهم يقول: "كأنَّ الذين يُكَفِّرونه داخلون في قسم واحد وحُكْمهم واحد، والمُنكرون الآخرون لهم حُكْم آخر"، ثُمَّ يُبيِّن حُكْم القسم الأوَّل: "إنَّ حضرة المَسيح الموعود لم يعتبر إنكاره أو إنكار دعواه سبباً للكُفْر، وإنَّما سببُ التَّكفير، أنَّ مَنْ كفَّره مُفترياً، عاد عليه الكُفْر، بناء على الحديث الذي يردُّ الكُفْر على المُكفِّر إذا لم يكن هُو كافراً"[1].

---

(1) يُشير إلى الحديث الذي أخرجه البُخاري ومُسلم بسَنَدهما عن ابْن عُمَرَ وعن أبي هُريرة يَقُولان: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأخيه: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلا رَجَعَتْ عَلَيْهِ».
صحيح مُسلم: كتاب الإيمان/ باب حال إيمان مَنْ قال لأخيه المُسلم: يا كافر، وصحيح البُخاري: كتاب الأدب/ باب مَنْ كفَّر أخاه بغير تأويل، فهُو كما قال.

أقـول: الواقـع أنَّ قضيـة تكفـير المُخـالفين في الفرقـة والمذهـب ليـس أمـراً خاصّـاً بالأحمديّين، بـل هُـو مَرَضُ أصحـاب الفـرَق العُضـال، ونتيجة للتَّعصُّـب والجـهل وضيـق النَّظَر، فمن المعلوم أنَّ كثيراً من المشايخ التّقليديّين من أهل السُّنَّة مثلاً يُكفِّرون الشِّيعة بجميع فرَقهم وطوائفهم، والعكس بالعكس، وكذلك يُكَفِّر أهل الحديث (الوهَّابيُّون) أكثر المُسلمين المُخالفين لهم؛ سواء كـانوا من أهـل السُّنَّة كالصُّوفيَّة والأشـاعرة والماتريديَّة والمُعتزلـة... أم كانوا من الشِّيعة من باب أوْلَى، وكذلك جميع الفرَق الأُخرى كالإباضيَّة والإماميَّـة والعَلَويَّة والإسماعيليَّة بفرَقهم المُختلفة من آغاخانيَّـة ودُرُوز، وغـيرهم، كُلُّ فرقـة تـرى نفسـها علـى الحقِّ الصُّراح، ومُخالفيها على باطلٍ وضلالٍ، وبالتّالي؛ تمنع الصّلاة وراءهم ـ اللّهم إلاَّ مـن باب التَّقيَّة ـ وتمنع مُناكحتهم، والصّلاة على ميّتهم. . إلخ، فموضـوع التّكفير مَرَضٌ ابتُلي فيه عامَّة المُسلمين، لذا؛ لا يصحُّ ـ وحده ـ مُبرِّراً للحُكْم بخُرُوج الأحمديّين عـن الإسـلام، وإلاَّ لَوَجَبَ الحُكم بخُرُوج كُـلِّ أصحـاب الفـرَق عـن الإسـلام، ولما بقـي مُسـلم علـى وجـه الأرض!! ورحم الله العلاَّمة السيِّد مُحمَّد رشيد رضا، من عُلماء أهـل السُّنَّة الكبـار، الـذي كان ينبذ التّفرقة في مجلَّته الإصلاحيَّة "المنار"، وقال في أحد مقالاته: «إنَّ منْ أعظم مـا بُلِيَتْ به الفرَقُ الإسلاميَّةُ رميَ بعضهم بعضاً بالفسق والكُفْر، مع أنْ قصدَ كُلٍّ الوُصُول إلى الحقِّ بما بذلوا جهدَهم لتأييده واعتقاده والدّعوة إليه، فالمُجتهد ـ وإنْ أخطأ ـ معذور»[1].

عدد القاديانيِّين اليوم والمناطق الجغرافيَّة لتواجُدهم:

رغـم أنَّـه لـم يمضِ علـى تأسيس الجماعـة الأحمديَّة أكثر من قـرن ونصف، إلاَّ أنَّـهم ـ لنشاطهم في الدّعوة ـ تمكَّنوا من الانتشار في عدد كبير من بُلدان العالم شرقاً وغرباً، إلاَّ أنَّ أكثر تواجُدهم هُو في دُول الكمنولث البريطانيَّة مثل الهند وباكستان وأُستراليا وأندونيسيا وبريطانيا ونيجيريا وجنـوب أفريقيـا...، بـل صـار للجماعـة أتبـاع في بعـض البُلدان العَرَبيَّة كبلاد الشّام ومصر، ويُقَدَّر عددهـم ـ الآن ـ في العـالم بعشـرة ملايـين، إلاَّ أنَّ بعـض أعضـاء الجماعـة يصـل بعددهم إلى ما يربو على الأربعين مليوناً، وربَّما كان في هذا العدد شيء من المُبالغة.

---

(1) المُجلَّد السّابع عشر من "المنار"، ص 44.

(4) جَمْعيَّة أهل القُرآن
(أو أصحاب الفَهْم العصري للقُرآن، ورَفْض السُنَّة والحديث)

تمهيد:

ظهر في شبه القارَّة الهنديَّة، في القرن الماضي، تيَّار مُتجدِّدٌ قادَهُ عددٌ من عُلماء الدِّين العصرانيِّين اتَّجهوا نحو الدّعوة إلى الاكتفاء بالقُرآن الكريم مصدراً لتعاليم الإسلام وفَهْم الدِّين، وأنَّ القُرآن وحده هُو الوديعة الإلهيَّة المعصومة التي تَركَهَا الرّسول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) بين المُسلمين، وأمَرَهُم باتِّباعها، والتَّمسُّك بها، كما أنَّه وحده مصدر الإسلام الموثوق، أمَّا الحديث والأخبار والرّوايات؛ فليست لا حُجَّة في الدِّين، ولا وحياً معصوماً، ولم يأمر الرّسول ﷺ بكتابتها، بل نهى عن ذلك، وكذلك فَعَلَ بعض أصحابه: منعوا رواية وكتابة الحديث، لئلا يتشاغل النّاس به عن القُرآن، وبعضهم حَرَقَ وأتلف ما كَتَبَهُ، فلم يكن تدوين وحفظ الأحاديث المرويَّة عن النّبي ﷺ وتسميتها بالسُّنَّة النَّبويَّة إلاَّ بِدْعة لاحقة ابتدَعَهَا المُسلمون بعد مُضيِّ قرن من رحلة نبيِّهم، دُون أنْ يأمرهم الله - تعالى - بذلك، فأتوا بكَمٍّ كبير من الرّوايات والأحاديث والآثار كانت تتزايد بشكل مُتصاعد مع الزّمن! وكان كثير منها مُتعارض مُتضارب يُناقض بعضه البعض الآخر، فضلاً عن مُخالفة كثيرٍ منها للقُرآن أومُعارضته للعَقْل والمنطق، أو ركاكة لفظه ومعناه، فشوَّهت تلك الأحاديث والرّوايات جمال الإسلام، وأدَّت لظُهُور الفرَق المُتناحرة التي يُكَفِّر بعضها بعضاً، وسبَّبت ابتعاد المُسلمين عن تعاليم القُرآن الكريم، ورُوحه السّامية، ووُقُوعهم فريسة كثير من الخُرافات والأفكار المغلوطة، ممَّا أدَّى لتأخُّر المُسلمين وتخلُّفهم عن ركب الحضارة والتَّقدُّم.

وقد نهض بهذه الدّعوة عدَّة رجال كبار، إلى أنْ جاء الأُستاذ "غُلام أحمد برويز" الذي أسَّس "جَمْعيَّة أهل القُرآن"، وجَمْعيَّة "بزم طُلُوع اسلام"؛ أيْ "جَمْعيَّة فجر الإسلام (أو شُرُوق الإسلام)"، فقوَّى، ودَعَّمَ هذا الاتِّجاه بكتاباته الغزيرة، والمجلَّة التي كان يُشرف عليها، واشتهر أصحابه مُنذُ ذلك الحين باسم جماعة "أهل القُرآن".

إرهاصات تيَّار العَصْرَنَة والتَّجديد الإسلامي في شبه القارَّة الهنديَّة:

السَّيِّد أحمد خان (1242 ـ 1316 هـ/ 1817 ـ 1898م):

برزت بين المُسلمين في الهند، في أواسط القرن التَّاسع عشر، أثناء الاستعمار البريطاني لشبه القارَّة الهنديَّة، شخصيَّة فكْريَّة إصلاحيَّة تجديديَّة، هي السَّيِّد "أحمد خان"، الذي يَعُدُّ الكثيرون كتاباته وأفكارَهُ إرهاصاتٍ لفكْر الحَدَاثَة التَّجديدي، الذي انتشر ـ فيما بعد ـ بين شريحة من المُسلمين العصريِّين في الهند وباكستان، وكان من جُملة آثار ذلك ظُهُور جماعة "أهل القُرآن".

وُلدَ "أحمد خان بن مُحمَّد متقي خان" في "دهلي" في أُسرة نبيلة تعود أُصُولها إلى فارس، وقد ارتحلت إلى هراة في أفغانستان، ومنها إلى الهند في عهد الشَّاه جهان (1628 ـ 1666م). كان جَدُّه لأبيه يُلقَّب بجواد الدَّولة، وكان جَدُّه لأُمِّه من ذوي المناصب السِّياسيَّة الرَّفيعة، وكان والده من كبار القوم، وقد عُرض عليه منصب الوزارة، فَرَفَضَهُ.

بدأ "أحمد خان" حياته العَمَليَّة بالاتِّصال بالإمبراطور بهادر شاه آخر مُلُوك دهلي المُسلمين، فأنعم عليه برُتب والده ونُعُوته، ولمَّا تغلَّب البريطانيُّون على الهند، عمل أحمد خان لديهم مُوظَّفاً في شركة الهند الشَّرقيَّة، ثُمَّ أصبح أميناً للسِّجلاَّت في القَلَم الجنائي بدهلي، فَأَحْسَنَ العملَ، وأظهر إخلاصاً ونشاطاً. وحين ثار الهُنُود المُسلمون في دهلي ضدَّ الحُكْم البريطاني فيما عُرف بتمرُّد عام 1857م، وفتكَ المُستعمرون بالثُّوَّار المُسلمين خاصَّة فَتْكاً ذريعاً، أدرك أحمد خان أنَّ الثَّورة ستُؤدِّي إلى الأذى بشعبه؛ لأنَّهم لم يكونوا مُستعدِّين لها، فأخذ يحثُّ على إنهائها، وعرَّض حياته للخطر، وقدَّم النُّصح لبعض قادتها، فهدَّدوه، وكان رأيه أنَّ سبب التَّمرُّد إساءة فَهْم الشَّعب الهندي لطبيعة الحُكْم البريطاني، وتجاهل الحُكُومة البريطانيَّة لشُرُوط الحُكْم. ولمَّا انتهت الثَّورة، أكرمه البريطانيُّون بلقب "صاحب نجمة الهند"، كما عيَّن "زميلاً"، و"عُضو شرف" في الجَمْعيَّة المَلَكيَّة الآسيويَّة في لندن، وعيَّنوا له راتباً شهريَّاً يرثه ابنه البكر من بعده.

أثَّرت أحداث الثَّورة وما أعقبها في نفسه، ممَّا جَعَلَهُ يتبنَّى ويحمل هَمَّ قضيَّة إصلاح حال المُسلمين في الهند، ورأى أنَّ من أهمِّ وسائل ذلك نَشْر الثَّقافة العصريَّة بينهم لا سيما الغربيَّة منها، التي كان يراها ضروريَّة للنَّهضة بحال المُسلمين، فأسَّس جَمْعيَّة التَّرجمة

ومهمَّتها نَقْل عُلُوم الغرب، وتبسيطها أمام مُواطنيه، ونَشَرَ عام 1862م، شرحاً واسعاً للإنجيل، فكان أوَّل مُسلم يقوم بهذا النّوع من البحث.

كما نجح - بالتّعاون مع آغا خان الثّالث إمام الإسماعيليَّة الآغاخانيَّة وتمويله السّخيّ - بافتتاح أوَّل جامعة إسلاميَّة عصريَّة في "عليكرة" تجمع عُلُوم التُّراث مع العُلُوم العصريَّة، وقد تسلَّم العُلماء البريطانيُّون إدارتها لِمُدَّة سنتَيْن، وما لبث أحمد خان أنْ تولَّى إدارتها بنفسه، مُنْذُ عام 1880م، بعد أنْ استقال من منصبه في القضاء، وبقي يُديرها حتَّى وفاته.

مُنْذُ أنْ تسلَّم أحمد خان إدارة الجامعة، وقف حياته على التّأليف والتّرجمة والتّعليم والخطابة، وأسَّس جَمْعيَّة أدبيَّة علميَّة، جَعَلَ لها مجلَّة خصَّصها لكتابة موضوعات دوريَّة بعُنوان "تهذيب الأخلاق"، أخذ يعمل - بواسطتها - على نَشْر فكْرته الإصلاحيَّة [1].

أخذ أحمد خان يشرح الآيات القُرآنيَّة، ويُبيِّن أنَّها لا تتعارض مع العُلُوم العصريَّة، وبقيت شُرُوحه تُنْشَر تباعاً على مدى خمسة عشر عاماً، ثُمَّ جُمعت في كتاب واحد. ولشدَّة حرصه على التّوفيق بين الدِّين والحضارة الغربيَّة ورُوحها العَقْلاني المادِّيّ، أخذ يُؤوِّل كُلَّ المُعجزات المذكورة في القُرآن تأويلاً علميّاً، فمثلاً يقول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ البقرة/ 60، أنَّ المُراد منه أنَّه مشى مُتَّكئاً على العصا على الجبال، فوصل إلى اثنتَيْ عشرة عين! بل إنَّه قال مثلاً: إنَّه لا يُوجد في القُرآن ما يدلُّ بصراحة على أنَّ المَسيح قد وُلدَ من غير أب! كما حاول تفسير آيات الجنَّة والنّار تفسيرات رُوحيَّة رمزيَّة، خلاف مضمونها الظّاهري، كما أنَّ المعراج عنده هُو عبارة عن سَيْر النّبي ﷺ في المنام، وشقّ صدره كذلك..

وكذلك؛ كان يُؤوِّل كثيراً ظواهر الأحاديث، أو يرفض تلك التي يراها لا تنسجم مع العَقْل والمنطق والعلم ورُوح العصر، كرَفْضه لأحاديث علامات السّاعة من طُلُوع الشّمس من مغربها، وخُرُوج دابَّة الأرض، ونُزُول المَسيح عليه السّلام، وغير ذلك [2]. فكان - بهذا - أوَّل مَنْ اختطَّ طريق التّعويل على القُرآن فقط، وفَهْمه فَهْماً عصريّاً، والتّشكيك بالأحاديث والأخبار، والدّعوة لغربلة التُّراث.

---

(1) الموسوعة العَرَبيَّة الصّادرة عن هيئة الموسوعة العَرَبيَّة التّابعة لرئاسة الجُمهُوريَّة العَرَبيَّة السُّوريَّة، المُجلَّد الأوَّل: ص 493، باختصار وإضافات.

(2) نُزهة الخواطر للسَّيِّد عبد الحي الحَسَني: 8/ 35 - 36.

يبيِّن أحمد أمين منهج السَّيِّد أحمد خان في تفسيره القُرآن، فيقول: [أخذ يُفسِّر القُرآن، ويدعو إلى أنَّ القُرآن إذا فُهم فَهْماً صحيحاً، اتَّفق مع العَقْل، وأنَّ النَّظَر الصَّحيح فيه يُوجب الاعتماد على رُوحه، أكثر من الاعتماد على حَرْفيَّته، وأنَّه يجب أنْ يُفسَّر على ضوء العَقْل والضَّمير][1] (أيْ؛ وليس على ضوء الرِّوايات والآثار وأحاديث أسباب النُّزُول).

المولوي[2] تشراغ عليّ (أو جراغ علي):

تأثَّر العالم الشّيخ "تشرَاغ علي" بأفكار السَّيِّد أحمد خان لمُشاركته معه في ترجمة بعض الكُتُب. فكان يرى أنَّ الحديث لا يُعَوَّل عليه في النّواحي العقائديَّة من الدِّين، كما قال بضرورة إعادة تدوين الفقْه الإسلامي أو كتابة بعض أجزاء القانون المَدَني الإسلامي من جديد. وكان يرفض المذهبيَّة، رافضاً أنْ يعدَّ نفسه في فرقةٍ من الفرَق؛ حيثُ كان يكتب أمام اسم زوجته في خانة التَّعداد: "شيعيَّة"، ويترك الخانة التي أمام اسمه واسم ابنه خالية[3].

وقال عن معايير الصِّدْق والقواعد العَقْليَّة التي يعتمدها المُحدِّثون: « . . . لا حاجة إليها لتمييز صحيح الحديث من سقيمه؛ لأنَّ الحديث - في حَدِّ ذاته - شيء لا يُمكن الاعتماد عليه »[4].

عبد الله الجكرالوي مؤسِّس جماعة "أهل الذِّكْر":

بدأ الجكرالوي نشاطه في تأسيس حركة "رَفْض الحديث" في مدينة لاهور عام 1902م، بعد تأثُّره بالسَّيِّد أحمد خان، ودعا أتباعه إلى إنكار الأحاديث، والاكتفاء بالقُرآن، وصنَّف الرّسائل في ذلك. وقال: إنَّ النّاس افتروا على النّبي ﷺ، ورووا عنه الأحاديث، وشَرَّعَ لجماعته الذين سمَّاهم "أهل الذِّكْر" - (الذِّكْر هُنا بمعنى القُرآن، وليس بالمعنى المعروف للذِّكْر عند الصُّوفيَّة) - طريقة جديدة للصّلاة، وقال: إنَّ الأذان والإقامة بالشّكل الذي يفعله المُسلمون بدْعة . . إلى غير ذلك من الأقوال.

---

(1) زُعماء الإصلاح في العصر الحديث: الدُّكتُور أحمد أمين، ط 1948م، ص 130 - 131.

(2) سَبَقَ وبيَّنّا أنَّ كلمة "المولوي" - في لُغة الهُنُود والباكستانيِّين المُسلمين - تعني: الشّيخ أو عالم الدِّين.

(3) انظر: زوابع في وجه السُّنَّة: صلاح الدِّين مقبول أحمد، ط الرِّياض، ص 96 - 97، نقلاً عن كتاب: "فتنة إنكار السُّنَّة للدُّكتُور سمير عبد الحميد (ص 21)" نقلاً عن كتاب "تاريخ أدبيَّات مُسلمانان باك وهند" باللُّغة الأُرديَّة.

(4) انظر المرجع السّابق: نقلاً عن أعظم الكلام: ج1/ ص 20.

أحمد دين الأمْريتْسَريّ مؤسّس فرقة "الأمّة الإسلاميّة":

كان من مُؤيِّدي عبد الله الجكرالوي، ومن القائلين برَفْض الحديث الشّريف، وإنكار شيء اسمه السنَّة في الدِّين، وهُو مُؤسِّس فرقة: "الأُمَّة الإسلاميَّة" في أمْريتْسَر عاصمة ولاية البنجاب الهنديَّة.

عناية الله المشرقي:

تخرَّج في "كامبريدج" في بريطانيا، وحَمَلَ لواء التّجديد، وهاجم العُلماء والمشايخ التّقليديِّين في عصرهم؛ لنَشْرهم الخُرافات، وتعصُّبهم في مذاهبهم وفِرَقهم المُتعدِّدة، وتكفيرهم لبعضهم البعض، وألَّف في ذلك رسالته الشّهيرة التي سخر فيها من المشايخ التّقليديِّين، ومن جُملة ذلك أنَّه خصَّصَ أحد فُصُولها لنَقْل نُصُوص فتاوى التّكفير عن أشهر عُلماء عصره من مُختلف المذاهب ضدّ بعضهم البعض، كُلٌّ فريق يُكَفِّر الآخر! ، كما رتَّب أُصُول الحياة من جديد على أساس القُرآن فقط، وقدَّم أُصُولاً عشرةً للحياة الإسلاميَّة يرى أنَّها خُلاصة القُرآن، وأساس رسالته. (1)

الشّيخ العلاّمة حافظ مُحمَّد أسلم الجيراجبوري:

يُعَدُّ من المُمثِّلين البارزين لرافضي الحديث، وقد ساعد الشّيخ الجيراجبوري الأُستاذ "غُلام أحمد برويز" مُؤسِّس جَمْعيَّة أهل القُرآن وزعيم مُنكري الحديث، في نَشْر مجموعة من أفكاره المُعارضة للحديث في كتاب أسماه: "مقام حديث" (أيْ منزلة الحديث) (في مُجلَّدين بالأُرديَّة). ويُعتَبَرُ أسلم الجيراجبوري أُستاذاً لبرويز أكثر من كونه زميلاً له.

الأُستاذ غُلام أحمد برويز رئيس جَمْعيَّة "أهل القُرآن" ومُؤسِّس حركة "طُلُوع إسلام"(2):

وُلد الأُستاذ "غُلام أحمد برويز" **Ghulam Ahmad Parvez** بن تشودري فضل الدِّين عام 1903م، في عائلة سُنِّيَّة حَنَفيَّة المذهب في مدينة "بتالا" **Batala** في قضاء "جورداسبور"

---

(1) انظر "فتنة إنكار السنَّة": ص 31 ـ 36.

(2) القسم الأكبر من المعلومات التي ذكرتها هُنا عن "غُلام أحمد برويز" ترجمتُها من ما نَشَرته جَمْعيَّته التي أنشاها، وسمَّاها "بزم طُلُوع اسلام" أيْ "جَمْعيَّة فجر الإسلام (أو شُرُوق الإسلام)" في موقعها الخاصّ على شبكة الإنترنت باللُّغة الإنجليزيَّة واللُّغة الأُرديَّة وعُنوان الموقع: http://www.islamicdawn.com/ ، أمَّا عُنوان الصّفحة الخاصّة ـ في هذا الموقع ـ التي تَتحدَّث عن "غُلام أحمد برويز" فهُو:

http://www.islamicdawn.com./Parwez/parwez.htm وفي الموقع معلومات عن كُلّ كُتُب برويز أيضاً.

Gurdaspur في ولاية البنجاب شمال غرب الهند، وكانت المدينة مركزاً بارزاً للمدارس الشَّرْعيَّة الإسلاميَّة ولدراسة الفلسفة والعُلُوم الدِّينيَّة؛ حيثُ كان جَدُّه "حكيم مولوي رحيم بَخْش" عالماً وشيخاً بارزاً في الطَّريقة الجشتيَّة النّظاميَّة، أحد أشهر الطُّرُق الصُّوفيَّة في شبه القارَّة الهنديَّة. وقد دَرَسَ "برويز" العُلُوم الدِّينيَّة التّقليديَّة على جَدِّه المذكور، وعلى خطيب مسجد "بتالا" الجامع مولانا مُحمَّد إبراهيم وأخيه الأصغر "ظفر الحق". ثُمَّ أكمل دراساته العُليا في المدارس الحُكُوميَّة البريطانيَّة، وتخرَّج في جامعة البنجاب عام 1934م.

تمثَّلت الثَّقافة الدِّينيَّة التي تلقَّاها برويز عن الإسلام - مُنذُ صغره - بالتُّراث والاعتقادات والمُمارسات الصُّوفيَّة التّقليديَّة السّائدة في الهند آنذاك، والتي لا يخلو كثير منها من الخُرافة واللاَّمعقوليَّة والاستسلام للقضاء والقَدَر بمفهومه الجَبْري، مع إهمال العلم والعمل الدُّنيوي والسّعي للتَّقدُّم فيها؛ لأنَّ الدُّنيا للكُفَّار، والآخرة للمُؤمنين، ونحو ذلك من التَّصوُّرات. فشكَّلت هذه الخلفيَّة أساس الدّراسات النَّقْديَّة التي قام بها برويز ضدَّ هذا التُّراث الصُّوفي الذي تسلَّمه جيله عمَّن سَبَقَهُم من الأجيال على أنَّه الإسلام.

في العشرينات من القرن العشرين، سَنَحَتْ الفُرصة للأُستاذ برويز - أثناء إقامته للعمل في مدينة لاهور - للقاء ورفقة العلاَّمة المُفكِّر والشّاعر الباكستاني الشّهير "إقبال اللاَّهوري"، الذي استلهم منه كثيراً من الأفكار حول إعادة فَهْم القُرآن من جديد. وقد قاده العلاَّمة إقبال إلى أحد أبرز العُلماء المُسلمين في عصره وهُو الحافظ مُحمَّد أسلم الجيراجبوري، ليدرس عليه الدّراسات العالية في اللُّغة العَرَبيَّة والعُلُوم الدِّينيَّة، وبقي على اتِّصال به إلى حين وفاته عام 1955م.

بدأ الأُستاذ برويز مُنذُ عام 1938م، وبإشارة من مُؤسِّس باكستان القائد الأعظم "مُحمَّد عليّ جناح" بنَشْر مجلته الشّهريَّة "طُلُوع إسلام" التي كان محورها يدور حول أنَّه - طبقاً لتعاليم القُرآن الكريم - فإنَّ أساس تشكيل الأُمم هُو العقيدة والإيديُولُوجيا، وليس اللُّغة والأرض والحُدُود الجغرافيَّة، وأنَّه، بناء على ذلك، فإنَّ من ضروريَّات الحياة الإسلاميَّة أنْ يكون للمُسلمين دولة وكيان سياسي مُستقلّ. وقد أثار بهذه الأفكار، ليس اعتراض الهُنادك الذين يرفضون تقسيم الهند فحسب، بل اعتراض بعض جماعات

المُسلمين، الذين كانوا - أيضاً - يرفضون التّقسيم باعتباره - في نَظَرهم - سيُهدِّد حياة ووُجُود الأقلِّيَّة المُسلمة في الهند مثل جماعة "جَمْعيَّة العُلماء"، وجماعة "أحرار الإسلام"، و"الجماعة الإسلاميَّة".

بعد تقسيم الهند ونشأة دولة باكستان عام 1947م، أصبح هدف مجلَّة "طُلُوع إسلام" الرّئيس: نَشْر الأفكار حول كيفيَّة تطبيق ذلك المبدأ الذي من أجله نادى المُسلمون بلُزُوم الانقسام عن الهندُوس في دولة مُستقلَّة ترتكز على أساس تعاليمهم الإسلاميَّة. وهكذا كان غُلام أحمد برويز من المُنظِّرين لحركة إنشاء باكستان، ومن مُستشاري القائد مُحمَّد عليّ جناح، فيما يتعلَّق بشَرْح القيَم القُرآنيَّة ومبادئ الحياة حسب تعاليم القُرآن. ولذا؛ كان أحد أعضاء اللّجنة القانونيَّة التي شُكِّلت تحت دُستُور عام 1955م. ثُمَّ أصبح مُؤسِّس ورئيس "جَمْعيَّة تعليم القُرآن"، ومُدير "مركز الأبحاث القُرآنيَّة" في حيّ "جل برك" في لاهور.

مُنذُ الخمسينات؛ كرَّس الأُستاذ برويز حياته للكتابة والتّأليف وإلقاء الدُّرُوس والمُحاضرات المُنتظمة بين طُلَّاب الجامعات وغيرهم من المُثقَّفين، وبدأ ذلك في كراتشي، ثُمَّ في لاهور، مُنذُ انتقاله واستقراره فيها عام 1958م، وتركَّزت مُحاضراته وتأليفاته حول التَّعرُّف - من جديد - على الإسلام القُرآني النَّقيّ الصّحيح، كما يراه، وبرُوح العصر، وقد نَشَرَ عديداً من المُؤلَّفات تدور حول تعاليم القُرآن والفَهْم الجديد والصّحيح للقُرآن - الذي اعتمد فيه جداً على المعاني اللُّغويَّة المُتعدِّدة لألفاظ القُرآن ومُفرداته حسبما تذكره معاجم اللُّغة دُون الأخذ بعين الاعتبار فَهْم الصّدر الأوَّل لتلك الألفاظ والمعاني -، وحول رفض ما يُعارض القُرآن أو يزيد عليه من الحديث، وأنَّ المعيار الوحيد لقبول الحديث أنْ يكون مُؤيَّداً بآيات من القُرآن، ومُنطبقاً تماماً مع تعليمه. وقد أدّاه أُسلُوبه اللُّغوي المحض في فَهْم آيات القُرآن - دُون النَّظَر لسياق الآية لتحديد المعنى اللُّغوي المُحدَّد للكلمات من بين المعاني اللُّغوي المُتعدِّدة لها، ودُون النَّظَر لأسباب النُّزُول، ولا للأحاديث أو الآثار التي تُلقي ضوءاً على فَهْم الصّدر الأوَّل للآيات - إلى الخُرُوج بآراء غريبة أحياناً؛ لأنَّ معاجم اللُّغة تُعطي كُلَّ كلمة أو مصدر معانٍ مُتعدِّدةً، كما هُو معروف، لكنَّ سياق الكلام يُحدِّد أيَّ واحد من تلك المعاني مقصود هُنا دُون المعاني الأُخرى، فلا يُمكن الاعتماد على معاجم اللُّغة فقط، وانتقاء جميع

المعاني اللُّغويَّة المُمكنة للألفاظ والمُفردات، ثُمَّ فَهْم القُرآن على أساسها. ومن أفكاره مثلاً أنَّ القُرآن لم يُحدِّد للصَّلاة كيفيَّة مُعيَّنة، وأنَّ هذا يعود لوليِّ الأمْر أنْ يُحدِّد عدد الصَّلوات أو الرَّكعات اليوميَّة حسب كُلِّ عصر.

ومن أشهر كُتُبه تفسير "معارف قُرآن" في 8 مُجلَّدات، بَسَطَ فيه فَهْمَهُ العصري اللُّغوي للقُرآن، و"لغت قُرآن" في 4 مُجلَّدات، الذي شَرَحَ فيه معاني الألفاظ والمُفردات الهامَّة في القُرآن، و"تبويب قُرآن" في ثلاث مُجلَّدات، و"نظام ربوبيّت" أيْ نظام الحياة الرَّبَّاني، الذي قال فيه: إنَّ القُرآن يأمر كُلَّ مُسلم أنْ يُنفق ما زاد عن حاجته من المال، وأنَّ القُرآن يجعل الأرض لكُلِّ الأنام؛ أيْ النَّاس، وأنَّه يأمر بمُجتمع التَّكافل التَّامِّ الذي ليس فيه فقر، ويمنع تداول المال بأيدي فئة قليلة.. إلخ، في أفكارٍ تقترب من الشُّيوعيَّة الاقتصاديَّة، بل حتَّى إنَّه فَسَّرَ آيات الجنَّة ونعيمها والنَّار وعذابها بأنَّها لا تعني بالضَّرورة الأمْر الأُخروي الغيبي، بل تُفيد - أيضاً - أنَّ مَنْ عمل حسب تعاليم القُرآن نال الرَّخاء والسَّعادة في هذه الأرض والحياة الفعليَّة الحاليَّة؛ أيْ الجنَّة ونعيمها، والعكس يُؤدِّي للتَّخلُّف والفقر والمرض والضَّياع؛ أيْ إلى النَّار وعذابها! وله كذلك كتاب "تصوف كي حقيقت"؛ أيْ حقيقة التَّصوُّف، وكتاب "شاهكار رسالت"؛ أيْ "روعة الرِّسالة (أو عملاق الرِّسالة)" في سيرة الخليفة الثَّاني الرَّاشد عُمر بن الخطَّاب ﷺ، وغيرها من الكُتُب.

شكَّل برويز جَمْعيَّة ذات شبكة من المراكز على مُستوى كُلِّ باكستان باسم "بزم طُلُوع اسلام"؛ أيْ "جَمْعيَّة فجر الإسلام (أوشُرُوق الإسلام)" همُّها نَشْر الفكْر القُرآني والفَهْم القُرآني العصراني الجديد للإسلام، واستمرَّ في دُرُوسه ورسالته هذه حتَّى أدركته الوفاة عام 1985م.

وقد التفَّ حول الأُستاذ جماعة، ليست كبيرة، من الأساتذة والمُثقَّفين لا سيما من ذوي الثَّقافة الغربيَّة المُلمِّين باللُّغات الأجنبيَّة، ضعيفو الاطِّلاع على عُلُوم الدِّين والتُّراث، والمبهورين بالحضارة الغربيَّة والمسلوبي العُقُول تجاهها، الذين يرون أنَّ العالم قَطَعَ شوطاً بعيداً في الرُّقي والتَّقدُّم، ولا يُمكن للمُسلمين - في رأيهم - أنْ يُسايروا رَكْبَ الحياة المُتحضِّرة وهُم يحملون ذلك الفَهْم البالي للإسلام، المُكبَّل بتلك الأحاديث الكثيرة والطَّويلة التي

تُكبِّل حركتهم، وتُبلِّد فَهْمَهُم، وأنَّه لابُدَّ لذلك من تهذيب الإسلام وتنقيته من تلك الأحاديث الكثيرة، ليلحق بالرَّكْب الحضاري المنشود.

هذا؛ وتتلخَّص الأدلَّة التي يذكرها الرَّادُّون للحديث والرّافضون لحُجيَّة ما يُسمَّى بالسُّنَّة في شبه القارَّة الهنديَّة بالمزاعم التَّالية:

1 - عدم كتابة الحديث في عصر الرّسول ﷺ، ولا عصر الخُلفاء الأربعة.

2 - إنَّ الصّحابة أدركوا حقيقة نَهْي النّبي ﷺ عن كتابة سُنّنه لذلك؛ نهوا عن كتابتها.

3 - إنَّ الأحاديث جُمعت أوّل مرَّة بعد مائة سنة من وفاة الرّسول ﷺ. وقد فُقِدَت تلك المجموعات، ثُمَّ جُمِعَت - من جديد - من أفواه النّاس في القرن الهجري الثَّالث.

4 - إنَّ الأحاديث الموضوعة اختلطت بالأحاديث الصّحيحة اختلاطاً لا يُمكن بعده التّمييز بين الصّحيح والموضوع.

5 - إنَّ المعايير التي اختارها المُحدِّثون لنَقْد الحديث لم تكن كافية لمعرفة الصّحيح من المغشوش؛ لأنَّها كُلّها تدور حول نَقْد السَّنَد ورجاله، أمَّا المَتْن؛ فلم يحظَ باهتمام المُحدِّثين.

ولا يخفى أنَّ هذه الاعتراضات أو الشُّبهات قد سيقت قديماً وحديثاً ضدَّ حُجيَّة الحديث، وقد قام عديد من عُلماء المُسلمين بالرَّدِّ عليها، وتمَّ تأليف الكثير من الكُتُب في هذا المجال.

تيَّار الحَدَاثَة في المشرق العَرَبي المُشابه في بعض أفكاره لتيَّار التّحديث في الهند وباكستان:

ظهر في القرن المنصرم في العالم العَرَبي أيضاً، لا سيما في مصر وبلاد الشّام، بعض الشّخصيَّات الإسلاميَّة الإصلاحيَّة العصرانيَّة التي طرحت أفكاراً حديثة لإصلاح ثقافة المُسلمين وتجديد فَهْمهم للدِّين؛ من جُملتها رَفْض الأحاديث التي لا تنسجم مع القُرآن أو العَقْل أو العلم أو رُوح العصر، ومُحاولة فَهْم القُرآن فَهْماً عصريَّاً، ونحو ذلك، مع تفاوت بينهم في شدَّة المُغالاة في هذا الموضوع، أو قلَّتها، ولعلَّه من المُناسب أنْ نُشير لنُبذة عن أفكار هذا التَّيَّار التّجديدي الحداثي وبعض شخصيَّاته في العالم العَرَبي على سبيل الأمثلة لا الحصر:

1 - فأوَّلاً؛ يُمكن أنْ تُعْتَبَرَ بعض أفكار مُصلح مصر الكبير ومُفتي الدّيار المصريَّة السّابق الشّيخ مُحمَّد عبده مّما يصبُّ في تيَّار الحَدَاثَة والتّجديد ذاك، وتُظهر مُحاولاته التّجديديَّة

والتّحديثيَّة في تفسيره للقُرآن تفسيراً مُتلائماً مع رُوح العصر جَعَلَهُ يُؤوِّل آيات المُعجزات بتأويلات علميَّة، لكي لا تتناقض مع رُوح العلم والتّجربة التي تُشكِّل رُوح العصر الحديث. ومن جهة أُخرى؛ كان الشّيخ مُحمَّد عبده يُؤكِّد أنَّ أخبار الآحاد ليست حُجَّة في أُصُول العقائد والإيمان؛ لأنَّ مبنى الأخيرة على العلم واليقين. كما كان يرى ضرورة إصلاح ثقافة المُسلمين، وتغيير تلك الكُتُب الصّفراء التي تُدرَّس في الجامعات الدِّينيَّة كالأزهر وغيرها إلى كُتُب عصريَّة جديدة. ويقول في هذا رحمه الله تعالى: « لا يُمكن لهذه الأُمَّة أنْ تقوم مادامت هذه الكُتُب فيها (أيْ الكُتُب التي تُدَرَّس في الأزهر وأمثالها، كما ذَكَرَهُ في الهامش)، ولن تقوم إلاَّ بالرُّوح التي كانت في القرن الأوَّل، وهُو "القُرآن". وكُلُّ ما عداه فهُو حجابٌ قائمٌ بينه وبين العلم والعمل »[1].

2 ـ وقد تابعه في بعض ذلك تلميذه الدّاعية الإصلاحي السَّيِّد مُحمَّد رشيد رضا وزُملاؤه عبر صفحات مجلَّته الشّهريَّة الإصلاحيَّة "المنار"، التي تواصل صُدُورها لمُدَّة أربعين عاماً ونيف، بدءاً من سنة **1315** هـ/ **1897** م، ولغاية **1358** هـ/ **1939**م، والتي ضمَّت ـ فيما ضمَّت ـ عدداً من البُحُوث والتّحقيقات العلميَّة الحُرَّة حول الحديث الشّريف وتدوينه ومكانته في التّشريع ومجال حُجيَّة الآحادي منه، ومُناقشة بعض أحاديث الصَّحيحَيْن التي ظَهَرَتْ مُخالفتها للعلم أو للتّاريخ، ومُناقشة بعض الرّوايات الإسرائيليَّة (أو النّصرانيَّة) التي تسرَّبَتْ للحديث عبر بعض مُسلمة أهل الكتاب؛ ككعب الأحبار، ووهب بن منبه، ونحو ذلك من الأبحاث. وكان العلاَّمة رشيد رضا يرى ـ تبعاً لشيخه مُحمَّد عبده ـ أنَّ أخبار الآحاد لا يُحتجُّ بها في العقائد وأُصُول الدِّين التي مدارها على اليقين، كما كان يرى أنَّ المقصود بالسُّنَّة، الواجب اتِّباعها مع القُرآن الكريم، هُو الأحاديث العَمَليَّة والسِّيرة والمنهاج العَمَلي النَّبوي في العبادات والمُعاملات (مثل كيفيَّة صلاته (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وزكاته وحجِّه وجهاده.. إلخ)، فهذه هي السُّنَّة الشّارحة للقُرآن والمُبيِّنة لمُجملاته، والتي تَرَكَهَا فينا رسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) مع القُرآن الكريم (إنِّي تارك فيكم كتاب الله وسُنَّة نبيِّه) والتي يجب اتِّباعها كاتِّباع القُرآن في كُلِّ زمان ومكان، أمَّا الأحاديث القوليَّة المحضة خاصَّة التي كانت تجيء في وقائع عينيَّة، فليست تشريعاً عامَّاً، ولا مطلوب التَّعبُّد بها مدى الأعصر والأزمان، لذا؛ لم يهتمّ الرّسول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) بتدوينها، ولا حثَّ عليه.

---

(1) "أضواء على السُّنَّة المُحمَّديَّة": محمُود أبو ريَّة، ط 3، القاهرة: دار المعارف، ص **405** ـ **406**.

3 ـ ويدخل في أفكار هذا التيّار ـ أيضاً ـ بعض انتقادات الدكتور أحمد أمين لمنهج المحدثين، والتي أوردها في فصل "الحديث" في كلٍّ من كتابيه "فجر الإسلام" و"ضحى الإسلام"، ثمّ جاء بعده ابنه: "الأستاذ حُسَين أحمد أمين" ليؤكّد على موقف أبيه في التشكُّك في كثير من الأحاديث، ونَقَدَ مسلكيّات المشايخ والصوفيّة في عصره، وضرورة تنقية التراث وتنقيحه وإعادة النَّظَر في التُّراث الحديثي، وقد أورد نَقْداً لتيّارات المتديّنين والمدارس الإسلاميَّة؛ سواء أهل الحديث أم الصوفيّة أم السَّلَفيَّة أم الفُقَهاء وغيرهم في كتابه الذي سمّاه: "دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السُّلوك في القرن العشرين"، والذي حصل على جائزة "أحسن كتاب" في معرض القاهرة الدّولي للكتاب عام 1984م، لكنَّ الكتاب مُنعَ في بعض معارض الكتاب في بعض الدُّول العَرَبيَّة.

4 ـ ويُمكن اعتبار الأُستاذ الشّيخ "محمُود أبو ريَّة" أيضاً من أصحاب الأفكار النَّقْديَّة للتُّراث والدّعوات الإصلاحيَّة التّجديديَّة خاصَّة في مجال نَقْد الحديث، ورفض الكثير منه والتّعويل على القُرآن الكريم. نجد ذلك الأمْر واضحاً في كتابَيْه: "أضواء على السُّنَّة المُحمَّديَّة" و"شيخ المضيرة أبو هُريرة"، وقد حاكَمَ عُلماءُ الأزهر الرّجلَ ـ على كتابَيْه ـ وعاقبوه بخَلْع اللّباس الأزهري عنه، ومَنْع كتابَيْه! لكنَّهما طُبعا مرَّات عديدة.

5 ـ ويدخل في مجال نَقْد التُّراث ما ألَّفه الأُستاذ المصري: "السيِّد صالح أبو بكر" في نَقْد أحاديث صحيح البُخاري، في كتاب من مُجلَّدين أسماه: "الأضواء القُرآنيَّة في اكتساح الأحاديث الإسرائيليَّة وتطهير البُخاري منها"، والذي نُشرَ لمرَّة واحدة في القاهرة، (في الثّمانينات)، ثُمَّ أمَرَتْ لجنة البُحُوث الأزهريَّة بِمَنْعه ومُصادرته بحُجَّة تعرُّضه لأصحّ كُتُب الحديث بتشكيكات باطلة واقتباسات تُفسَّر على غير مُراد أصحابها! كما يدخل في ذلك ما ألَّفه الأُستاذ "أحمد زكي أبو شادي" في كتابه "ثورة الإسلام" الذي جاء فيه (ص 44): «هذه سُنن ابن ماجة والبُخاري، وجميع كُتُب الحديث والسُّنَّة طافحة بأحاديث وأخبار لا يُمكن أنْ يقبل صحّتها العَقْل، ولا نرضى نسبتها إلى الرّسول. وأغلبها يدعو إلى السُّخرية بالإسلام والمُسلمين والنّبيّ الأعظم، والعياذ بالله». ويدخل في ذلك "جماعة القُرآن وكفى"، وهي دعوة ردَّدها كثير من الأشخاص في البُلدان العَرَبيَّة والإسلاميَّة كالشّيخ القاسمي في

ماليزيا، والرّئيس اللّيبي العقيد مُعمَّر القذَّافي، وأيّده في ذلك بعض العُلماء في ليبيا، وجماعة الشّيخ الفرماوي في مصر، وغيرهم.

6 ـ وممّا يصبُّ في الفكْر الحداثي والتّجديدي بعض مُؤلَّفات الدُّكتُور السُّوداني حَسَن التُّرابي ككتابه «تأريخ التّجديد الإسلامي» والدُّكتُور عليّ حَسَن عبد القادر في كتابه «نظرة عامّة في تاريخ الفقْه الإسلامي»، ومُحمَّد أحمد خَلَف الله في كتابه: «العَدْل الإسلامي»، وبعض مُؤلَّفات دُعاة الحَدَاثَة والفَهْم العصري للدِّين أمثال الدُّكتُور نصر حامد أبو زيد (من مصر)، والدُّكتُور أحمد شحرور، والطَّيِّب التِّيزيني (من سُوريا)، وجماعة الحزب الجُمهُوري في السُّودان لمُؤسِّسه المهندس محمُود مُحمَّد طه الذي ادَّعى أنّه صاحب فكْر رسالي تجديدي رأى فيه الكثيرون مُخالفة صريحة للإسلام، وكُلُّها تدعو لنَقْد التُّراث ورَفْض التّفسيرات التّقليديَّة للدِّين، وتجديد الثّوابت أوإعادة النَّظَر في ما يعتبره جُمهُور المُتشرِّعين المُسلمين من الثّوابت والنُّصُوص القَطْعيَّات في الدِّين، ومنهم مَنْ يرفض الحديث تماماً، ويقتصر على القُرآن الذي يفهمه فَهْماً عصرانيّاً وغريباً عن رُوح الإسلام.

7 ـ وهُناك شخصيَّات أُخرى مُماثلة تحمل ما يُشابه هذا الفكْر التّجديدي الحداثي في كُلٍّ من بلدان المغرب العَرَبي كمراكش وتُونُس، وفي أقصى الشّرق الإسلامي في ماليزيا، والكثير من دُعاة التّجديد في أندونيسيا، وفي تُركيا، ممَّا يحتاج بَسْطُهُ لكتاب طويل، لذا؛ أكتفي بالإشارات التي ذكَرْتُها.

وبهذا؛ أكتفي، آملاً أنْ أكونَ قد وُفِّقْتُ في تعريف القارئ ـ بنحوٍ كافٍ وواضحٍ ـ بأهمِّ المذاهب والفرَق والتّيّارات والمدارس الإسلاميَّة الفكْريَّة الرّئيسيَّة القديمة والحديثة، بشكلٍ موضوعيٍّ، هذا؛ ولم أهدف في هذه الدّراسة إلى الاستغراق التّامِّ لكُلِّ الفرَق حتّى الصّغيرة منها هُنا وهُناك، ولا التّفصيل والتّطويل في شَرْح العقائد، وذكْر كُلِّ الآراء والأسماء؛ لأنَّ مثل ذلك لو فَعَلْتُهُ لتحوَّل الكتاب إلى موسوعة مرجعيَّة في الفرَق والمذاهب من عدَّة مُجلَّدات، ممَّا يخرج عن خُطَّة هذا التّأليف.

وبقيتْ كلمة ختاميَّة قبل إنهاء الكتاب

كلمة ختاميَّة لابُدَّ منها

لاحظنا من دراستنا للفرَق أمران هامَّان، جديران بأنْ يدعوا كُلَّ مُنصف يحترم عقله ومنطقه إلى التَّعامل بنحو واعٍ وخاصٍّ مع الحديث المشهور بين المُسلمين الذي يقول: إنَّ اليهُود افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، والنَّصارى على اثنتَيْن وسبعين فرقة، وإنَّ المُسلمين سيفترقون إلى ثلاث وسبعين فرقة "كُلُّها في النَّار إلاَّ واحدة!!!"، ذلك الحديث - الذي حكَم عددٌ من أساطين المُحدِّثين بأنَّ الجُملة الأخيرة منه مزيدة وموضوعة لا أساس لها - والذي طالما تمسَّك به المُتعصِّبون من كُلِّ فرقة قديماً وحديثاً، فجعلوا فرقتهم هي الفرقة النَّاجية، وماعداها على النَّار!! أمَّا هذا الأمْران؛ فهُما:

أوَّلاً: إذا استثنينا بعض الفرَق التي شذَّت، وابتعدت تماماً عن الإسلام الأصيل - وهي ولله الحمد قليلة الأتباع جدَّاً بالنِّسبة للفرَق الإسلاميَّة الرَّئيسيَّة - نجد أنَّ كُلَّ الفرَق الإسلاميَّة الرَّئيسيَّة، مهما كان اختلافها في فَهْم تعاليم الإسلام شديداً، سواء على مُستوى العقائد أو مُستوى الفقْه والأحكام، فإنَّها - مع ذلك مُتَّفقةٌ - جميعاً على أُصُول الإيمان الأساسيَّة، وأركان الدِّين الرَّئيسيَّة: أيْ الإيمان بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورُسُله، واليوم الآخر، والقضاء والقَدَر خيره وشَرَّه من الله، والإسلام لله - تعالى - بشهادة أنْ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ مُحمَّداً رسول الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وحجِّ البيت، وصوم رمضان؛ أيْ أركان الإسلام والإيمان البسيطة التي نصَّ عليها كتاب الله - تعالى - في أكثر من موضع من كتابه كما في قوله - تعالى - مثلاً: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ البقرة/ 285. أو قوله: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ البقرة/ 177.

وبالتّالي؛ وحسب هذه الآيات الصّريحة يجب اعتبار أتباع جميع الفرَق مُسلمين مُؤمنين، وأنَّ النّاجين منهم هُم في الواقع كُلُّ مَنْ صَدَقَ في إيمانه، واتّقى، وعمل صالحاً، من أيِّ فرقة كانوا؛ لأنَّ كُلَّ اختلافات الفرَق تقع في التَّعمُّق في العقائد والتّفسيرات، وفي فُرُوعات الأحكام والاستنباطات، وفي مسائل تاريخيَّة وسياسيَّة، وكُلُّها مسائل لا تُمثِّل - في الواقع - جوهر الدِّين وأساسه.

لذا؛ فالكُلُّ مُسلمون مُؤمنون مُجتهدون مأجورون من الله، سواء أصابوا في اجتهادهم أو أخطأوا.

وثانياً: أنّه لا تُوجد فرقة واحدة في الإسلام لم يحصل بين أتباعها انقسامات واختلافات في الرّأي؛ سواء على مُستوى العقائد، أو على مُستوى الفُرُوع الفقْهيَّة، لذلك؛ لا تستطيع أيُّ فرقة أنْ تحصر النّجاة بنفسها على أساس أنّها الفرقة الواحدة النّاجية؛ لأنّها - في الواقع - ليست فرقة واحدة، بل فرَق مُتعدِّدة، فلقد رأينا مثلاً كيف أنَّ أهل السُّنَّة مُنقسمون إلى أهل حديث، وأشاعرة، وماتريديَّة، وحَشَويَّة، وصُوفيَّة، وسَلَفيَّة، في الأُصُول، وإلى حَنَفيَّة، وشافعيَّة، ومالكيَّة، وحَنْبَليَّة، وأهل ظاهر، وأهل حديث، في الفُرُوع، والشّيعة مُنقسمون إلى زيديَّة، واثنَيْ عشريَّة، وإسماعيليَّة، وكُلُّ واحد من هؤلاء مُنقسم إلى فُرُوعات كثيرة؛ فالزّيديَّة، إلى جاروديَّة، ويحيويَّة، وقاسميَّة و. . و. . و. . والاثنَيْ عشريَّة إلى أخباريَّة، وأُصُوليَّة، والأخيرون إلى آراء مُختلفة في الأُصُول والفُرُوع، أمَّا فرَق الإسماعيليَّة؛ فَحَدِّثْ ولا حرج أيضاً، والخَوَارج هكذا. . . فأين هي الفرقة الواحدة الفَرْدة التي يُزْعَمُ أنّها النّاجية؟!

إنَّ الكتاب الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة والعَقْل والوجدان كُلَّها تحكم وتقضي بأنَّ النّجاة لا يُمكن أنْ تكون على أساس الآراء الكلاميَّة المُتحذلقة، أو على أساس الإصابة في الفتاوى المتعمِّقة، أو على أساس الرّأي في الحوادث والشّخصيَّات التّاريخيَّة الماضية، وهي الأُمُور التي على أساسها افترقت الفرَق، وتمايزتْ، وتشخَّصتْ، وإنّما النّجاة كما قال - تعالى - هي على أساس التّقوى والعمل الصّالح والحياة بصدْق مع الله - تعالى - واتّباع كتابه وسُنَّة نبيِّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، مهما كانت فرقة المُسلم أو فقْهه أو مشربه الكلامي. ولعلَّ هذا ما أراد الله - تعالى - إفهامه لنا بقوله سُبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ

نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة/ 111 ـ 112، وقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ النّساء/ 123 ـ 125.

ومع ذلك؛ وحتّى نقطع الشّكّ باليقين، رأيتُ من المُفيد في خاتمة هذا الكتاب أنْ أُورد نصّ الرّسالة الصّغيرة في حجمها والمُفيدة الغنيّة الرّائعة في مضمونها التي ألّفها علاّمةٌ مُحدّثٌ فقيهٌ مُجتهد من أكبر عُلماء المُسلمين في اليمن ألا وهُو السّيّد الإمام مُحمّد بن إسماعيل الكحلاني، ثُمّ الصّنعاني المعروف بالأمير (1059 ـ 1182 هـ) وسمّاها: "حديث افتراق الأُمّة"، والتي أكّد فيها الحقيقة نفسها التي أشرتُ إليها أعلاه، وفيما يلي نصّ الرّسالة بحرُوفها:

[حديث افتراق الأُمّة:

وَرَدَ (حديث افتراق الأُمّة) من طُرُق عديدة ساقها ابن الأثير ـ يرحمه الله ـ في جامع الأُصُول، فقال:

أخرج أبو داود عن مُعاوية (ابن أبي سُفيان) قال: قام فينا رسول الله ﷺ: فقال: «أَلا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَـٰذِه الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ؛ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ!».

وأخرج أبو داود والتّرمذي عن أبي هُريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»، وفي رواية أبي داود: «وتَفَرَّقَتْ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى وسبعينَ أو اثنَتَيْن وسبعينَ فِرْقَةً..» وذكر (التّرمذي) الحديثَ، وقال: وَفِي الْبَابِ عَنْ سَعْدٍ وَعَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرٍو وَعَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، (ثُمّ قال): حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وأخرج التّرمذي عن ابن عَمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ: حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلانِيَةً،

لكَانَ في أُمَّتي مَنْ يَصْنَعُ ذَلكَ، وَإِنَّ بَني إِسْرَائيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْن وَسَبْعينَ ملَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتي عَلَى ثَلاث وَسَبْعينَ ملَّةً، كُلُّهُمْ في النَّار إلاَّ ملَّةً وَاحدَةً، قَالُوا: وَمَنْ هيَ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْه وَأَصْحَابي» أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَديثٌ حَسَنٌ غَريبٌ مُفَسَّرٌ لا نَعْرِفُهُ مثْلَ هَذَا إلاَّ منْ هَذَا الْوَجْه.

وأخرج ابن ماجة مثل ذلك عن عوف بن مالك وأنس. انتهى ما ساقه ابن الأثير في الجُزء الثّالث في حرف الفاء.

إذا عرفتَ هذا، فالحديث قد استُشْكلَ من جهتَيْن:

الجهة الأُولى: ما فيه من الحُكْم على الأكثر بالهلاك والكون في النّار، وذلك يُنافي الأحاديث الواردة في الأُمَّة بأنَّها أُمَّةٌ مرحومةٌ، وبأنَّها أكثرُ الأُمم في الجنَّة؛ منها حديث أنس عنه ﷺ «أُمَّتي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ مغفُورٌ لهَا مُتَابٌ عَلَيها»[1] وغيره ممَّا مُلِيَت به كُتُب السُّنَّة من الأحاديث الدالَّة على سعة رحمة الله لها، ولو سردناها لطال الكلام، ولما كان حديث الافتراق مُشْكلاً كما ترى، أجاب بعضهم بأنَّ المُراد بالأُمَّة فيه أُمَّة الدّعوة لا أُمَّة الإجابة، يعني أنَّ الأُمَّة التي دعاها رسول الله ﷺ إلى الإيمان بالله والإقرار بوَحْدَانيَّته هي المُفترقة إلى تلك الفرَق، وأنَّ أُمَّة الإجابة هي الفرقة النّاجية، يُريد بها مَنْ آمن بما جاء به النّبي ﷺ، فلا إشكال. وهذا جوابٌ حَسَنٌ، لولا أنْ يُبْعدَهُ وُجُوه: الأوّل: أنَّ لفظ أُمَّتي؛ حيثُ جاء في كلامه ﷺ لا يُرادُ به إلاَّ أُمَّة الإجابة غالباً، كحديث أُمَّتي أُمَّةٌ مرحومةٌ، وحديث لاتزال طائفة من أُمَّتي، وحديث أُمَّتي هذه أُمَّة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة، وحديث إذا وُضعَ السّيفُ في أُمَّتي، وحديث ليكونَنَّ من أُمَّتي قوم يستحلُّون الخزَّ... وغير ذلك ممَّا لا يحصى. فالأُمَّة في كلامه ﷺ؛ حيثُ أُطلقَتْ لا تُحْمَلُ إلاَّ على ما تُعُورفَ منها، وعُهدَ بلفظها، ولا تُحْمَلُ على خلافه، وإنْ جاء نادراً. الثّاني: قوله ستفترق بالسّين، الدّالَّة على أنَّ ذلك أمرٌ مُستقبل. الثّالث: قوله ليأتينَّ على أُمَّتي، فإنَّه إخبارٌ بما سيكون ويحدث. ولو جعلناه إخباراً ينتهي بافتراق المُشركين في المُستقبل لما كان فيه فائدةٌ؛ إذْ هُم على ضلالة وهلاك اجتمعوا أو افترقوا. الرّابع: قَرْنُهُم بطائفتَيْ اليهُود والنّصارى، فإنَّ المُفترقين منهما هُم

---

(1) أخرج الإمام أحمد في مُسنده بسَنَده عن أبي مُوسَى قال: «إنَّ أُمَّتي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، لَيْسَ عَلَيْهَا في الآخرَة عَذَابٌ إلاَّ عَذَابُهَا في الدُّنْيَا الْقَتْلُ وَالْبَلاءُ وَالزَّلازلُ».

طائفتا الإجابة لظاهر قوله تعالى ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ البيِّنة/ 4 وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ البقرة/ 213، وقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ آل عُمران/ 19، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ آل عُمران/ 105. الخامس: ما أخرجه الترّمذي عن أبي واقد اللّيثي أنَّ رسول الله ﷺ لَمّا خرج إلى غزوة حنين مرَّ بشجرة للمُشركين كانوا يعلِّقون عليها أسلحتهم يُقَال لها ذات أنواط، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط! فقال رسول الله ﷺ: سُبحان الله! إلى أنْ قال: «والذي نفسي بيده؛ لتركبنَّ سُنَن من قبلكم» وهذا خطاب لِمَنْ خاطبه من أُمَّة الإجابة قطعاً.

والذي يظهر لي في ذلك أجوبةٌ:

أحدها: أنَّه يجوز أنَّ هذه الفرَق المحكوم عليها بالهلاك قليلة العدد لا يكون مجموعها أكثر من الفرقة النّاجية، فلا يتمُّ أكثريَّة الهلاك، فلا يُردُّ الإشكال. وإنْ قيل يَمْنَعُ عن هذا أنَّه خلافُ الظّاهر من ذكْر كثرة عدد فرَق الهلاك، فإنَّ الظّاهر أنَّهم أكثر عدداً! قُلتُ: ليس ذكْر العدد في الحديث لبيان كثرة الهالكين، وإنّما هُو لبيان اتِّساع طُرُق الضّلال وشُعبها ووَحْدَة طريق الحقِّ، نظير ذلك ما ذكَرَهُ أئمَّة التّفسير في قوله ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الأنعام/ 153، أنَّه جَمَعَ السُّبُلَ المنهيَّ عن اتِّباعها لبيان شعب طُرُق الضّلال وكثرتها وسعتها، وأفْرَدَ سبيل الهُدى والحقِّ لوحدته وعدم تعدُّده.

وثانيها: أنَّ الحُكْم على تلك الفرَق بالهلاك والكون في النّار حُكْمٌ عليها باعتبار ظاهر أعمالها وتفريطها كأنَّه قيل كلُّها هالكةٌ باعتبار ظاهر أعمالها محكومٌ عليها بالهلاك وكونها في النّار، ولا يُنافي ذلك كونها مرحومةً باعتبارٍ آخر، مَنْ رحمة الله لها وشفاعة نبيِّها، وشفاعة صالحيها لطالحيها، والفرقة النّاجية، وإنْ كانت مُفتقرةً إلى رحمة الله، لكنَّها ـ باعتبار ظاهر أعمالها ـ يُحكَمُ لها بالنّجاة، لإتيانها بما أُمرَتْ به، وانتهائها عمَّا نُهيَتْ عنه.

وثالثها: أنَّ ذلك الحُكْم مشروطٌ بعدم عقابها في الدُّنيا، وقد دلَّ على عقابها في الدُّنيا حديث: «أُمَّتي هذه أُمَّة مرحومةٌ، ليس عليها عذاب في الآخرة، إنَّما عذابها في الدُّنيا الفتَن والزّلازل والقَتْل والبلايا» أخرجه الطّبراني في الكبير، والبيهقي في شُعب الإيمان عن أبي

مُوسَى، فيكون حديث الإفتراق مُقيَّداً بهذا الحديث في قوله كُلُّها هالكة ما لم تُعاقب في الدُّنيا، لكنَّها تُعاقب في الدُّنيا، فليست بهالكة.

ورابعها: أنَّ الإشكال في حديث الافتراق إنَّما نشأ من جَعْل القضيَّة الحاكمة به وبالهلاك دائمة؛ بمعنى أنَّ الافتراق في هذه الأُمَّة وهلاك مَنْ يهلك منها دائمٌ مُستمرٌ من زمن تكلُّمه ﷺ بهذه الجُملة إلى قيام السَّاعة، وبذلك؛ تتحقَّق أكثريَّة الهالكين، وأقلِّيَّة النَّاجين، فيتمّ الإشكال. والحقُّ أنَّ القضيَّة حينيَّة، يعني أنَّ ثُبُوت الافتراق للأُمَّة، والهلاك لمَنْ يهلك ثبت في حين من الأحيان، وزَمَنٍ من الأزمان. يدلُّ على أنَّ المُراد ذلك وُجُوه: *الأوَّل*: قوله "ستفترق" الدَّالُّ على الاستقبال، لتحلية المُضارع بالسِّين، *الثَّاني*: قوله "ليأتينَّ على أُمَّتي" فإنَّه إخبار بأمر مُستقبل، *الثَّالث*: قوله "ما أنا عليه وأصحابي" فإنَّ أصحابه من مُسَمَّى أُمَّته بلا خلاف، وقد حكَم عليهم بأنَّهم أُمَّة واحدة، وأنَّهم النَّاجون، وأنَّ مَنْ كان على ما هُم عليه هُم النَّاجون، فلو جَعَلْنَا القضيَّة دائمة من حين التَّكلُّم بها للزم أنْ تكون تلك الفرَق كائنة في أصحابه ﷺ، وهلُمَّ جراً، وقد صرَّحَ الحديث نفسه بخلاف ذلك، فإذا ظهر لك أنَّ الحُكْم بالافتراق والهلاك، إنَّما هُو في حينٍ من الأحيان، وزمنٍ من الأزمان لم يلزم أكثريَّة الهلاك وأقلِّيَّة النَّاجين، وهذا الجواب ـ بحمد الله، والذي قبله جيِّد ـ لا غُبار عليها.

إنْ قُلتَ: يجوز أنْ يكون زمن الافتراق أطول من زمن خلافه، فيكون أهله أكثر، فيكون الهالكون أكثر من النَّاجين؛ قُلتُ: أحاديث سعة الرَّحمة، وأكثريَّة الدَّاخلين من هذه الأُمَّة إلى الجنَّة قد دلَّت على أنَّ الهالكين أقلُّ، وذلك لقصر حينهم المُتفرِّع عليه قلَّتهم بالنِّسبة إلى أزمنة خلافه المُتطاولة وكلام رسول الله ﷺ لا يأتيه التَّناقض من بين يدَيْه، ولا من خلفه، فلابُدَّ من الجَمْع بين ما يُوهم التَّناقض، وقد تمَّ الجَمْع بهذا الوجه، وما قبله، فتَعَيَّن المصير إليها هذا، ولا يبعد أنَّ ذلك الحين والزَّمان هُو آخر الدَّهر الذي وَرَدَتْ الأحاديث بفساده وفشُوِّ الباطل فيه، وخفاء الحقِّ، وأنَّ القابض فيه على دينه كالقابض على الجَمْرَة، وأنَّه الزَّمان الذي يُصبح فيه الرَّجل مؤمناً، ويُمسي كافراً، وأنَّه زمان غُربة الدِّين، فتلك الأحاديث الواردة فيه التي شُحنَتْ بها كُتُب "السُّنَّة" قرائن دالَّة على أنَّه زمان كثرة الهالكين وزمان التَّفرُّق والتَّدابر. ويحتمل ـ أيضاً ـ أنَّ الافتراق كان من بعد القُرُون المشهود لها بالخَيْريَّة، وأنَّ في كُلِّ قرنٍ بعدها فرَقٌ من الهالكة، وأكثرها في آخر الزَّمان، وهذا جوابٌ جيِّدٌ استقلَّ عن الإشكال.

الجهة الثّانية: من جهتَيْ الإشكال: في تعيين الفرقة النّاجية، فقد تكلّم النّاس فيها، كُلُّ فرقة تزعم أنّها هي الفرقة النّاجية، ثُمَّ قد تُقيم بعض الفرَق على دعواها بُرهاناً أوْهَى من بيت العنكبوت! ومنهم مَنْ يشتغل بتعداد الفرَق المُخالفة لما هُو عليه، ويعمد إلى ما شذّت به تلك من الأقوال، فينقله عنها، ليُبيّن ـ بذلك ـ أنّها هالكة، لاعتمادها على تلك الأقوال، وأنّه ناج بخُلُوصه عنها، ولو فَتّشَ ما انطوى عليه لوجد عنده من المقالات ما هُو أشنع من مقالات مَنْ خالفه، لكنَّ عَيْنَ المرء كليلةٌ عن عيب نفسه؛ وبالجُملة:

فَكُلٌّ يدَّعي وَصْلاً لليلى ... وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاكا

وكان الأحسن بالنّاظر في الحديث أنْ يكتفي بالتّفسير النّبوي لتلك الفرقة، فقد كفاه ﷺ معلّم الشّرائع الهادي إلى كُلّ خير المُؤنة، وعيَّن له الفرقة النّاجية بأنّها مَنْ كانت على ما هُو ﷺ عليه وأصحابه. وقد عَرَفَ ـ بحمد الله ـ مَنْ له أدنى همَّة في الدِّين ما كان عليه النّبي ﷺ وأصحابه، ونقل إلينا أقوالهم وأفعالهم، حتّى أكْلهم وشُرْبهم ونومهم ويقظتهم، حتّى كأنّا رأيناهم رأي عينٍ، وبعد ذلك؛ فَمَنْ رَزَقَهُ الله إنصافاً من نفسه، وجَعَلَهُ من أُولي الألباب، لا يخفاه حال نفسه، وهل هُو مُتّبع لما كان عليه النّبي ﷺ وأصحابه، أو غير مُتّبع، ثُمَّ لا يخفى حال غيره من كُلّ طائفة: هل هي مُتّبَعة أو مُبْتَدَعة، ومَنْ ادّعى أنّه مُتّبعٌ للسُّنَّة النّبويّة، مُتَقَيّدٌ بها، تُصدّقُ دعواه أقوالُه وأفعالُه أو تُكذّبها، فإنَّ ما كان عليه ﷺ قد ظهر ـ بحمد الله ـ لكُلّ إنسانٍ، فلا يُمكن التباس المُبتدع بالمُتّبع.

وعندي على تقرير ذلك الجواب، وأنَّ زمن الافتراق والهلاك هُو آخر الزّمان، وأنّه لا بُعْدَ في أنَّ الفرقة النّاجية هُم الغُرباء المُشار إليهم في الحديث كحديث: «بَدَأَ الإسْلامُ غَرِيباً، ثُمَّ يَعُودُ غَرِيباً، كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللّه؛ وَمَنْ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: الذِينَ يُصْلِحُونَ إذَا فَسَدَ النَّاسُ..»[1] وفي رواية: «الذين يفرُّون بدينهم من الفتن» وفي

---

(1) أخرج مُسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، ح 208) وابن ماجة في سُننه (كتاب الفتن) بسَنَدهما عن أبي هُريرة، قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): «بَدَأَ الإسْلامُ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيباً، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاء» هكذا فقط بدُون زيادة، أمّا الحديث المذكور مع تتمّته؛ فهُو ممّا أخرجه الإمام أحمد في مُسنده من حديث عَبْد الرَّحْمَن بن سَنَّة.

رواية: «الذين يُصلحون ما أفسد النّاس من سُنَّتي»[1]. وفي حديث عبد الله بن عَمرو: قُلنا: مَنْ الغُرباء يا رسول الله؟ قال: «قوم صالحون قليلٌ في ناسِ سُوء كثيرٍ مَنْ يعصيهم أكثر ممَّنْ يُطيعهم»[2]، وهُم المرادون بحديث: «لا تَزَالُ طَائفَـةٌ مـنْ أُمَّتـي قَائمَـةً بـأَمْر اللَّـه لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتيَ أَمْرُ اللَّه»[3] وهُم المرادون بما أخرجه الطّبراني وغيره عن أبي أُمامة عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إنَّ لكُلِّ شيء إقبالاً وإدباراً، وإنَّ لهذا الدِّين إقبالاً وإدباراً، وإنَّ منْ إدبار الدِّين ما كُنتُم عليه من العمى والجهالة، وما بَعثَني الله به. وإنَّ منْ إقبال الدِّين أنْ تفقه القبيلة بأسرها، حتَّى لا يُوجد فيها إلاَّ الفاسق والفاسقان، فهُما مقهوران ذليلان، إنْ تكلَّما قُهرا، وقُمعا، واضْطُهدا، وإنَّ منْ إدبار الدِّين أنْ تجفو القبيلة بأسرها، حتَّى لا يكون فيها إلاَّ الفقيه والفقيهان؛ وهُما مقهوران ذليلان، إنْ تكلَّما فأمرا بالمعروف، ونهيا عن المُنكر، قُمعا، وقُهرا، واضْطُهدا، فهُما ذليلان، لا يجدان على ذلك أعواناً ولا أنصاراً». فهذه الأحاديث وما في معناها في وصف آخر الزّمان وأهله قد دلَّت على أنَّه زمان كثرة الهالكين وقلَّة النّاجين، وأحاديث الغُرباء قد دلَّت أوصافهم بأنَّهم هُم الفرقة النّاجية في ذلك الزّمان، وليسوا بفرقة مُشار إليها كالأشعريَّة أو المُعتزلة مثلاً، بل هُم النُّزَّاع من القبائل كما في الحديث[4]، وهُم متَّبعو الرّسول ﷺ اتِّباعاً قَوْليّاً وفعْليّاً من أيِّ فرقة كانت.

---

(1) أخرج الطّبراني في المُعجم الكبير (ج17/ ص 16، ح رقم 11) حَدَّثنا عليّ بن المُبارك ثنا إسماعيل بن أبي أويس حَدَّثني كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جَدّه أنَّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «نَّ الدِّين ليأزر إلى الحجاز، كما تأزر الحيَّة إلى جحرها، وليعقلنَّ الدِّين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل، إنَّ الدِّين بدأ غريباً، ويرجع غريباً، فطوبى للغُرباء الذين يُصلحون ما أفسد النّاس بعدي من سُنَّتي».

(2) رواه الحافظ الهيثمي في مجمع الزّوائد (ج10/ ص 259) ولفظه: «... ثُمَّ قال: طُوبى للغُرباء، طُوبى للغُرباء، قيل: ومَنْ الغُرباء؟ قال: ناس صالحون قليل في ناس سُوء كثير، مَنْ يعصيهم أكثر ممَّنْ يُطيعهم. وفي رواية؛ فقال أبو بكر وعُمَر: نحنُ هُم»، قال (أيْ الهيثمي): ولـه (أيْ للحديث) في (المُعجم) الكبير (للطّبراني) أسانيد، ورجال أحدها رجال الصّحيح.

(3) أخرجه ـ بهذا اللّفظ ـ مُسلم في صحيحه (كتاب الإمارة/ ح 3548) والتّرمذي في سُننه (كتاب الفتَن/ ح2155) وأحمد في مُسنده، وأخرجه البُخاري وأصحاب السُّنَن ابن ماجة وأبو داود بلفظ قريب.

(4) إشارة إلى ما أخرجه ابن ماجة في سُننه، والدّارمي في سُنَنه، وأحمد في مُسنده، بسَنَدهم عَنْ عَبْد اللَّه بْن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «إنَّ الإسْلامَ بَدَأَ غَريباً، وَسَيَعُودُ غريباً، كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى للْغُرَبَاء، قيلَ: وَمَن الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: النُّزَّاعُ منَ القَبَائل» قال شُرّاح الحديث في معنى (النُّزَّاع) بضَمٍّ فتشديدٍ: هُو جَمْع نزيع ونازع، وهُو الغريب الذي أُنزع عن أهله وعشيرته؛ أيْ: الذين يخرجون عن الأوطان لإقامة سُنن الإسلام.

هذا؛ وقد ذُكرَ في الفرقة أنَّهم صالحُو كُلِّ فرقة، وذُكرَ أنَّهم أهل البيت النَّبويّ، سلام الله عليهم ومَنْ اتَّبعهم، إلاَّ أنَّ ذلك مبنيٌّ على أنَّ القضيَّة دائمة، ثُمَّ هُو لا يدفع الإشكال كما لا يخفى.

نعم؛ وهذا كُلُّه توفيق بين الأحاديث مبنيٌّ على صحَّة قوله: «كُلُّها هالكة إلاَّ فرقة». ولا شكَّ أنَّه قد ثبت في كُتُب السُّنَّة كما سمعته، ولكنَّه قد نقل السَّيِّد العلاَّمة الحافظ عزُّ الدِّين مُحمَّد بن إبراهيم الوزير ـ رحمه الله ـ عن أبي مُحمَّد بن حزم في بعض رسائله ما لفظه:

[قال الحافظ أبو مُحمَّد بن حزم: إنَّ الزِّيادةَ بقوله (كُلُّها هالكة إلاَّ فرقةً) موضوعةٌ، وإنَّما الحديث المعروف (إنَّها تفترق إلى نيِّف وسبعين فرقة) لا زيادة على هذا في نقل الثِّقات، ومَنْ زاد على نَقْل الثِّقات في الحديث المشهور كان عند المُحدِّثين مُعَلاً ما زاده غيرَ صحيح، وإنْ كان الرَّاوي ثقةً، غيرَ أنَّ مُخالفةَ الثِّقات فيما شاركوه في حديثه يُقوِّي الظَّنَّ على أنَّه وَهَمَ فيما زادهُ، أو أدرج في الحديث كلام بعض الرُّواة، وَحَسِبَهُ منْ كلام رسول الله ﷺ، فيُعلُّون الحديث بهذا، وإنْ لم يكن مقدوحاً فيه. على أنَّ أصل الحديث الذي حكَموا بصحَّته ليس ممَّا اتَّفقوا على صحَّته، وقد تجنَّبه البُخاري ومُسلم مع شُهرته لعدم اجتماع شرائطهما فيه]. انتهى كلامه.

هذا؛ ما سَنَحَ للفقير مُحمَّد بن إسماعيل الأمير عفا الله عنه في توجيه الحديث بعد أنْ سألني عنه بعض الإخوان العُلماء، فإنْ وافق فمن فَضْل مَنْ أُلهم إليه، وإلاَّ فمن قُصُور مَنْ حرَّره في شهر ذي القعدة الحارم سنة 1133 هـ]. انتهت رسالة الأمير الصَّنعاني.

وبهذه الرِّسالة أختتمُ كتابي، وقد تمَّ الفراغ من كتابته في السَّادس من شهر جُمادى الأُولى من العام 1424 هـ. ق، المُوافق للخامس من شهر تمُّوز (يُوليُو) عام 2003 ميلاديَّة، أسأل الله ـ تعالى ـ أنْ يقبله منِّي، وأنْ يعفو عمَّا قد يكون بَدَر منِّي فيه من زَلَل أو خطأ.

والله وليُّ التَّوفيق.

الفقير لرَحْمَة الله وعَفْوه سعد بن محمُود رُستُم

قائمة المصادر والمراجع

1 ـ ابن حَنْبَل: الأستاذ مُحمَّد رجب البيُّومي، مصر، دار القوميَّة.

2 ـ إثبات الوصيَّة: المسعودي: أبو الحَسَن عليّ بن الحُسَين الهذلي (346 هـ) ط4، النّجف، المطبعة الحَيْدَريَّة، 1374 هـ/ 1955م.

3 ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب: الحافظ ابن عبد البرّ القُرطبي (463 هـ) ط1، بيرُوت: دار الجيل، 1412 هـ.

4 ـ أُسْدُ الغابة: ابن الأثير الجَزَري (630 هـ)، ط طهران: انتشارات إسماعيليان.

5 ـ إسلام بلا مذاهب: الدُّكتُور مُصطفى الشّكعة، ط8، القاهرة: الدّار المصريَّة اللُّبنانيَّة، 1991م.

6 ـ إشارات المرام من عبارات الإمام: كمال الدِّين أحمد البياضي الحَنَفي، ط القاهرة: الحلبي، 1949م.

7 ـ الإصابة في تمييز الصّحابة: الحافظ أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني (733 ـ 852 هـ) بيرُوت: دار الجيل، 1412 هـ.

8 ـ أصل الشّيعة وأُصُولها: الشّيخ مُحمَّد الحُسَين آل كاشف الغطاء، بيرُوت: مُؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات.

9 ـ أُصُول الإسماعيليَّة: لويس برنارد.

10 ـ أُصُول العَدْل والتّوحيد: القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرّسي، تحقيق د. مُحمَّد عمارة، مصر: منشورات دار الهلال.

11 ـ أُصُول الكافي: المُحدِّث الكليني (ثقة الإسلام أبو جَعْفَر مُحمَّد بن يعقوب بن إسحق): طهران، 1388 هـ.

12 ـ أضواء على مسلك التّوحيد (الدّرزيَّة): الدُّكتُور سامي مكارم، بيرُوت: دار صادر.

13 ـ أعلام من المذهب الجَعْفَري (العَلَوي): ديب عليّ حَسَن، ط3، 1998، بيرُوت: دار السّاحل للتُّراث.

14 ـ الإمامة والسِّياسة: أبو مُحمَّد عبد الله بن مُسلم بن قُتَيْبَة الدّينوري (276 هـ) القاهرة، بتحقيق طه مُحمَّد الزّيني.

15 ـ أنساب الأشراف: البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري) (279 هـ) ط مصر.

16 ـ أوائل المقالات: الشّيخ المُفيد، ط تبريز، 1371 هـ.

17 ـ البداية والنّهاية: ابن كثير (الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدّمشقي)(700 ـ 774 هـ) القاهرة، 1351 هـ.

18 ـ بيان زغل العلم والطّلب: الذّهبي، ط دمشق، 1928م.

19 ـ تاريخ ابن خلدون: ابن خلدون (عبد الرّحمن بن مُحمَّد) (808 هـ) ط القاهرة.

20 ـ تاريخ الأُمم والملُوك: الطَّبري (أبو جَعْفَر مُحمَّد بن جرير) (224 ـ 310 هـ) ط القاهرة: 1358 هـ ـ 1939م. (أو ط دار الكُتُب العلميَّة، بيرُوت: 1407هـ.)

21 ـ تاريخ الجُهَميَّة والمُعتزلة: جمال الدِّين القاسمي.

22 ـ تاريخ الخُلفاء: الحافظ جلال الدِّين السّيوطي (849 ـ 911 هـ)، ط حلب: دار القَلَم العَرَبي، 1413 هـ / 1993م

23 ـ تاريخ الدّولة الفاطميَّة: الدُّكتُور حَسَن إبراهيم حَسَن، القاهرة، دار النّهضة العَرَبيَّة.

24 ـ تاريخ العَلَويِّين: مُحمَّد أمين غالب الطّويل، ط بيرُوت، ص: 202. قدَّم له الشّيخ عبد الرّحمن الخيِّر.

25 ـ تاريخ اليعقوبي: اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جَعْفَر بن وهب): طهران 1375 هـ.

26 ـ تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، بيرُوت.

27 ـ التّبصير في الدِّين وتمييز الفرقة النّاجية عن الفرَق الهالكين: الإسفرايني (أبو المُظفَّر طاهر بن مُحمَّد): الطّبعة القديمة، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1955، بتحقيق مُحمَّد زاهد الكوثري.

28 ـ تبيين كذب المُفتري فيما نُسب إلى الإمام الأشعري: ابن عساكر الدّمشقي، عليّ بن الحَسَن بن هبة الله، بتقديم الشّيخ مُحمَّد زاهد الكوثري، ط دمشق، 1347 هـ.

29 ـ تحقيق كتاب "الحقائق الخفيَّة" للحاتمي، مُحمَّد حَسَن الأعظمي، ط القاهرة، 1970م.

30 ـ تلبيس إبليس: الإمام عبد الرّحمن ابن الجوزي البغدادي الحَنْبلي، ط1، بيرُوت: دار الكتاب العَرَبي، 1405 هـ/ 1985م. بتحقيق د. السَّيِّد الجميلي.

31 ـ التّنبيهُ والرَّدُّ على أهل الأهواء والبدَع: الملطي (أبو الحُسَين مُحمَّد أحمد بن عبد الرّحمن الملطي الشّافعي) ط2، القاهرة: المكتبة الأزهريَّة للتُّراث، 1977، بتحقيق الشّيخ مُحمَّد زاهد الكوثري.

32 ـ جهاد الشِّيعة في العصر العبَّاسي الأوَّل: الدُّكتُورة سميرة مُختار اللّيثي، القاهرة.

33 ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: المُحدِّث أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (430 هـ) ط. 4 دار الكتاب العَرَبي، بيرُوت.

34 ـ الدُّرُّ المنثور في التّفسير بالمأثور: الحافظ جلال الدِّين السّيوطي (911 هـ) ط بيرُوت.

35 ـ دَرءُ تعارُض العَقْل والنَّقْل: ابن تيميَّة، تحقيق مُحمَّد رشاد سالم، القاهرة، 1972م.

36 ـ دَفْعُ شبه التّشبيه بأكفِّ التّنزيه: عبد الرّحمن ابن الجوزي الحَنْبلي، بتحقيق الشّيخ الكوثري، القاهرة.

37 ـ دَفْعُ شُبَه مَنْ شَبَّهَ وتمرَّدَ ونَسَبَ ذلك إلى الإمام أحمد: أبو بكر تقي الدِّين الحصني، القاهرة: الحلبي، 1350 هـ.

38 ـ سُنَن ابن ماجة، ط اسطنبول، ضمن مجموعة الكُتُب السِّتَّة.

39 ـ سُنن أبي داوود، ط اسطنبول، ضمن مجموعة الكُتُب السِّتَّة.

40 ـ سُنن التِّرمذي، ط اسطنبول، ضمن مجموعة الكُتُب السِّتَّة.

41 ـ سُنن النَّسائي، ط اسطنبول، ضمن مجموعة الكُتُب السِّتَّة.

42 ـ السِّيادة العَرَبيَّة والشِّيعيَّة والإسرائيليَّات: فان فلوتن، ترجمة الدُّكتُور حَسَن إبراهيم، ومُحمَّد زكي إبراهيم، مصر: مطبعة السَّعادة، 1934م..

43 ـ سِيَر أعلام النُّبلاء: الحافظ الذَّهبي، بيرُوت.

44 ـ السِّيرة النَّبويَّة: ابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيُّوب الحميري) (213 أو 218 هـ) ط دمشق: دار ابن كثير، بتحقيق مُصطفى السَّقَّا وآخرين.

45 ـ الشَّافعي، حياته وعصره، آراؤه وفكْره: الشَّيخ مُحمَّد أبو زهرة، القاهرة: دار الفكْر العَرَبي.

46 ـ السَّيف الصَّقيل في الرَّدِّ على ابن زفيل: تقي الدِّين السّبكي، بتحقيق الشَّيخ مُحمَّد زاهد الكوثري.

47 ـ شَرْح النَّووي على صحيح مُسلم، ط مصر.

48 ـ شَرْح الأُصُول الخمسة: القاضي عبد الجبَّار بن أحمد الهمذاني، القاهرة، مكتبة وهبة، 1965م.

49 ـ شَرْح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ط قديمة طهران، أو الطَّبعة الحديثة، بيرُوت.

50 ـ الشِّيعة والإمامة: مُحمَّد حُسَين المُظفَّري، النَّجف: مطبعة الزَّهراء، 1952م.

51 ـ صحيح البُخاري: مُحمَّد بن إسماعيل الجعفي البُخاري(256 هـ)، ط اسطنبول، ضمن سلسلة الكُتُب السِّتَّة.

52 ـ صحيح مُسلم: مُسلم بن الحجاج القشيري النَّيسابوري (261 هـ)، ط اسطنبول، ضمن سلسلة الكُتُب السِّتَّة.

53 ـ طائفة الإسماعيليَّة تاريخها نُظُمها عقائدها: الدُّكتُور مُحمَّد كامل حُسَين، ط مصر: المكتبة التَّاريخيَّة.

54 ـ طبقات الشَّافعيَّة الكُبرى: السّبكي: تاج الدِّين عبد الوهاب بن علي، القاهرة: المطبعة الحُسَينيَّة.

55 ـ الطَّبقات الكُبرى: ابن سعد (المُحدِّث مُحمَّد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البَصْري الزّهري) (230 هـ) 9 أجزاء، دار صادر، بيرُوت.

56 ـ الطَّرائف في معرفة مذاهب الطَّوائف: ابن طاوس الحلي، مطبعة الخيَّام، قم، 1400 هـ ق.

57 ـ الطُّرُق الحكميَّة في السِّياسة الشَّرْعيَّة: ابن القيِّم الجوزيَّة.

58 ـ ظُهر الإسلام: أحمد أمين، ط 10، بيرُوت: دار الكتاب العَرَبي.

59 ـ عقائد الإماميَّة: الشَّيخ مُحمَّد رضا المُظفَّر، ط2، القاهرة، 1381 هـ.

60 ـ الغارات أو الاستنفار والغارات: أبو إسحق إبراهيم بن هلال الثّقفي الكُوفي (283 هـ)، ط طهران أو ط بيرُوت، دار الأضواء، 1407 هـ/ 1987م، حقَّقه السَّيِّد عبد الزَّهراء الحُسَيني الخطيب.

61 ـ فجر الإسلام: أحمد أمين، ط11 بيرُوت: دار الكتاب العَرَبي، 1975م.

62 ـ فرَق الشّيعة : أبو مُحمَّد الحَسَن بن مُوسَى النّوبختي (أبو مُحمَّد الحَسَن بن مُوسَى تُوفّي بين300 و310 هـ؟)، صحّحه وعلّق عليه : السيّد مُحمَّد صادق آل بحر العلُوم : النّجف 1355 هـ .

63 ـ الفَرْق بين الفرَق وبيان الفرقة النّاجية : الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي (429 هـ)، بيرُوت : دار الآفاق الجديدة، ط2، 1977 .

64 ـ الفَصْل في المِلَل والأهواء والنِّحَل : الإمام ابن حزم الظّاهري (أبو مُحمَّد عليّ بن أحمد بن سعيد) (456 هـ)، القاهرة : مكتبة الخانجي .

65 ـ الفكْر السّياسي عند الإباضيَّة : عدّون جهلان، مكتبة الضّامري ـ السِّيب ـ سلطنة عُمَان .

66 ـ فلسفة الفكْر الدِّيني بين الإسلام والمَسيحيَّة : لويس جارديه وجُورج قنواتي، نَقَلَهُ إلى العَرَبيَّة الشّيخ الدُّكتُور صُبحي الصّالح، والأب الدُّكتُور فريد جبر، بالجامعة اللُّبنانيَّة، بيرُوت : دار العالم للملايين، 1967م .

67 ـ فنُّ المُنتجب العاني وعرفانه : الدُّكتُور أسعد أحمد علي، لُبنان : دار النُّعمان، 1968م .

68 ـ في علم الكلام دراسة فلسفيَّة لآراء الفرَق الإسلاميَّة في أُصُول الدِّين : (1) المُعتزلة (2) الأشاعرة (3) الزّيديَّة : الدُّكتُور محمُود أحمد صُبحي، بيرُوت : دار النّهضة العَرَبيَّة، ط3، 1411 هـ ـ 1991م .

69 ـ القاديانيَّة : الشّيخ سُليمان الظّاهر العاملي، ط1، بيرُوت : الغدير للدّراسات والنَّشْر، 1420 هـ / 1999م .

70 ـ القصيدة الشّافية، عارف تامر، بيرُوت 1967 .

71 ـ القول المُسدَّد في الذّبّ عن المُسند للإمام أحمد : ابن حجر العسقلاني، ط1، القاهرة : مكتبة ابن تيميَّة، 1401 هـ .

72 ـ الكامل في التّاريخ : ابن الأثير الجزري (عزّ الدِّين أبو الحَسَن عليّ الجزري) (630 هـ)، القاهرة، 1302 هـ .

73 ـ الكَشْف عن مناهج الأدلَّة في عقائد المِلَّة : ابن رُشْد .

74 ـ كمال الدِّين : الشّيخ الصّدوق ابن بابويه القمي .

75 ـ لسان العَرَب : ابن منظور الأفريقي، بيرُوت : دار صادر .

76 ـ لسان الميزان : ابن حجر العسقلاني .

77 ـ اللّمعة (لمعة الاعتقاد) : ابن قُدامة، القاهرة : مكتبة السُّنَّة المُحمَّديَّة .

78 ـ ما بعد القمر : الشّيخ أحمد مُحمَّد حَيْدَر (النّاشر أو المطبعة غير معروفين) .

79 ـ المدخل إلى دراسة علم الكلام : الدُّكتُور حَسَن محمُود الشّافعي، كراتشي : باكستان، 1409 هـ/ 1988م .

80 ـ مذهب المُوحِّدين "الدُّرُوز" : الأستاذ عبد الله النّجّار، القاهرة : دار المعارف .

81 ـ مُرُوج الذّهب ومعادن الجوهر : المسعودي (عليّ بن الحُسَين بن عليّ الهذلي) : ط بيرُوت، 1316 هـ .

82 ـ المُسايرة: الكمال بن الهمام الحَنَفي، مع شَرْحها المُسامرة لابن أبي شريف، ط حَيْدَر آباد، الهند.

83 ـ المُستدرك على الصَّحيحَيْن: الحاكم مُحمَّد بن عبد الله بن حمدويه النّيسابوري (405 هـ)، وبحاشيته تعليق الإمام الذّهبي، 4 أجزاء، دار الكتاب العَرَبي، بيرُوت.

84 ـ مُستدرك نهج البلاغة: الشّيخ هادي كاشف الغطاء، ط لُبنان.

85 ـ مُسند أحمد: الإمام أحمد بن حَنْبَل (241 هـ): 6 أجزاء، القاهرة: المطبعة الميمنيَّة.

86 ـ مُسند الإمام أحمد، بتحقيق العلامة مُحمَّد أحمد شاكر.

87 ـ مُسند الدّارمي، ط اسطنبول، ضمن مجموعة الكُتُب السِّتَّة.

88 ـ معرفة الله والمكزون السّنجاري: د. أسعد أحمد علي، بيرُوت: دار الرّائد العَرَبي، 1972م.

89 ـ مقاتل الطّالبيِّين: أبو الفرج الأصفهاني، القاهرة: الحلبي، 1365 هـ.

90 ـ مقالات الإسلاميِّين واختلاف المُصلِّين: الإمام أبو الحَسَن عليّ بن إسماعيل الأشعري (270 ـ 324 أو 330 هـ؟)، تحقيق هلموت ريتر، ط3، بيرُوت: دار إحياء التُّراث العَرَبي. أو ط2. القاهرة. بتحقيق وتعليق مُحمَّد مُحي الدِّين عبد الحميد، 1389 هـ.

91 ـ المقالات والفرَق: سعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي (301 هـ)، صحَّحه، وعلَّق عليه د. مُحمَّد جواد مشكور: طهران، 1963 م.

92 ـ مقتل الحُسَين: أبو مخنف، ط طهران: مركز انتشارات الأعلمي.

93 ـ مُقدِّمة على مناهج الأدلَّة في عقائد المِلَّة لابن رُشْد: محمُود قاسم، القاهرة، 1964م.

94 ـ المُقدِّمة: ابن خلدون، القاهرة.

95 ـ المِلَل والنِّحَل: الشّهرستاني (مُحمَّد بن عبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد) (548 هـ)، بيرُوت: دار المعرفة، 1404 هـ، بتحقيق سيِّد مُحمَّد كيلاني، أو ط مصر.

96 ـ مُوافقة صريح المعقول لصحيح المنقول: ابن تيميَّة.

97 ـ الموسوعة العَرَبيَّة الصّادرة عن هيئة الموسوعة العَرَبيَّة التّابعة لرئاسة الجُمهُوريَّة العَرَبيَّة السُّوريَّة.

98 ـ النّبأ اليقين عن العَلَويِّين: محمُود الصّالح (النّاشر أو المطبعة غير معروفَيْن).

99 ـ النّزاع والتّخاصم فيما بين بني أُميَّة وبني هاشم، الإمام المقريزي: تقي الدِّين أحمد ابن علي، مصر: المطبعة الإبراهيميَّة، 1937م.

100 ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: الدُّكتُور عليّ سامي النّشّار، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1965م.

101 ـ نَظَرِيَّة الإمامة لدى الشِّيعة الاثنَيْ عشريَّة، تحليل فلسفي للعقيدة: للدُّكتُور أحمد محمُود صُبحي، القاهرة: دار المعارف بمصر، 1969م.

102 ـ نهج البلاغة: جَمْع الشَّريف الرَّضي من كلام أمير المُؤمنين عليّ بن أبي طالب، الطَّبعة التي حقَّقها د. صُبحي الصَّالح.

103 ـ وفيات الأعيان: ابن خلكان: بيرُوت، بتحقيق د. إحسان عبَّاس.

104 ـ وَقْعة صفّين: أبو الفضل نصر بن مزاحم المنقري، تحقيق عبد السّلام مُحمَّد هارون.